

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له: معالي الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور/ صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد السادس: التوبة ويونس وهود


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَة

سورة التوبة هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، وعدد آياتها مئة وتسع وعشرون آية عند أهل الكوفة، ومئة وثلاثون آية عند غيرهم.

وهي ألفان وأربع مئة وسبع وتسعون كلمة، وعشرة آلاف وثمان مئة وسبعة وثمانون حرفًا.

أَسْمَاءُ السُّورَة

وسورة التوبة لها أكثر من ستة عشر اسمًا، أشهرها:

١- التوبة. ٢- وبراءة

وقد جاء هذان الاسمان في حديث زيد بن ثابت ﷺ في جمْع القرآن، قال: فتتبعتُ القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حتى خاتمة سورة براءة[١].

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب ﷺ قال: آخر سورة نزلت كاملة سورة براءة[٢].

ولعل المقصود آخر سورة طويلة، وإلا فقد نزل بعدها سورة النصر في منى في حجة الوداع.

وهذه تسمية للسورة بأول كلمة منها (براءة).

١- وسميت سورة التوبة؛ لأن الله تعالى أنزل فيها التوبة للذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، وأنزل فيها توبة المؤمنين الصادقين، وفيها أيضًا دعوة للمشركين للتوبة كما في أولها (فإن تابوا...)

٢- وسميت سورة براءة؛ لأن فيها البراءة من المشركين إلى يوم القيامة.

٣- وتسمى أيضًا السورة الفاضحة؛ لأنها فضحت أحوال المنافقين، وكشفت أسرارهم.

---

(١) «صحيح البخاري»، باب جمع القرآن برقم (٤٩٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٣٤٦) وانظر: رقم (٤٦٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٦١٨).

كما في البخاري وغيره عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس ﷺ: سورة التوبة، قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبقِ أحدًا منهم إلا ذُكروا فيها[1].

٤- وتسمى المخزية. أي التي أخزت المنافقين وأذلَّتهم.

٥- والمنكِّلة، لأنها نكّلتْ بالمنافقين.

٦- والمُبَعْثِرة؛ لأنها كشفت من أسرار الناس.

٧- والمثيرة، لأنها أثارت ما انطوت عليه سرائر المنافقين.

٨- والمشدِّدة، أي التي شددت على المنافقين الخارجين عن طاعة الله والرسول.

٩- والمدمدِمة، أي المدمرة التي تعم المنافقين بعقاب.

١٠- والحافرة؛ لأنها تحفر عما في القلوب.

١١- والمدمِّرة، التي أنذرت المنافقين بالهلاك.

١٢- والمنقِّرة، أي التي نقّرت وأخرجت ما في صدور أهل النفاق.

١٣- والمقشقِشة، أي: التي تُبرئ من الشرك والنفاق كإبراء المريض من علته.

١٤- والباحثة عن النفاق وأهله.

١٥- والمشرِّدة. ١٦- وسورة العذاب.

عن حذيفة ﷺ قال: يسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب، والله ما تركت واحدًا إلا نالت منه[2].

وهي سورة مدنية باتفاق، واستثنى بعضهم ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٨٢) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٣١).

(٢) الطبراني في «الأوسط» برقم (١٣٥٢) وفي «الكبير» (١٣٣٠) وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٥٤) و«المستدرك» (٢/ ٣٣٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٨): ورجاله ثقات وأبو عبيدة برقم (٤٤٦) وإسناده حسن.

لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [١١٣] فإنها نزلت لما وعد النبي ﷺ أبا طالب بالاستغفار له وهو في مرض الموت، كما سيأتي عند تفسير الآية.

عن عطية الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب ﷺ: تعلَّموا سورة براءة، وعلِّموا نساءكم سورة النور[١].

ترك البسملة في أولها: وسورة براءة هي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي لا توجد البسملة في أولها، والقول الصحيح في ذلك: أن جبريل لم ينزل بالبسملة في صدر سورة براءة، فلم توجد فيها البسملة في المصحف لذلك، دون غيرها من السور، وموافقة رسم المصحف شرط في صحة القراءة، والأصل في ذلك التوقيف، وفي هذا دليل قاطع على وجوب قراءة البسملة في أول كل سورة عدا سورة براءة، سرًّا في الصلاة السرية، والقراءة السرية، وجهرًا في الصلاة الجهرية، والقراءة الجهرية، على تفصيل فِقْهِيٍّ في ذلك بالنسبة للصلاة، سبق ذكره في سورة الفاتحة.

ومما يُذكر في عدم ذكر البسملة في أول براءة:

١- أن من عادة العرب أنهم كانوا إذا كتبوا نقضًا للعهد حذفوا منه البسملة، ولَمَّا أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ؛ ليقرأ على المشركين نقْض عهودهم لم يقرأ البسملة في أول براءة، جريًا على عادة العرب أنهم كانوا لا يذكرون البسملة في الوثيقة التي تُنقض فيها العهود.

عن عَشعَس بن سلامة قال: قلت لعثمان: يا أمير المؤمنين، ما بال الأنفال وبراءة ليس بينهما: (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ قال: كانت تنزل السورة، فلا تزال تكتب حتى تنزل: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فإذا جاءت: (بسم الله الرحمن الرحيم) كُتبت سورة أخرى، فنزلت الأنفال، ولم تكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)[٢].

---

(١) أبو عبيدة في «فضائل القرآن» ص١٢٩ وما بعدها وسعيد بن منصور في «التفسير» (١٠٠٣) والبيهقي في «الشعب» (٢٤٣٧، ٢٤٥٢).

(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد، يُنظَر: «علل الدارقطني» (٣/ ٤٣) مختصرًا على أوله، وانظر: «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٤).

٢- وأيضًا: فإن المشركين في السنة السادسة من الهجرة عند كتابة صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ لمَّا أراد أن يكتب في بداية شروط الصلح: (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا: لا، نحن لا نعرف (الرحمن الرحيم)، ولكن اكتب: (باسمك اللهم)، فردُّوا البسملة، ولم تُكتب في شروط صلح الحديبية، فلما نقض الله هذا الصلح كما جاء في مطلع سورة براءة لم يردَّ عليهم البسملة التي ردُّوها، فالله سبحانه لم يذكرها لهم في نقض العهد؛ لأنهم لم يقبلوها حين كتبت شروط صلح الحديبية.

٣- وقال علي بن أبي طالب لابن عباس ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم) أمانٌ وبشارة، و(براءة) نزلت بالسيف ونبذ العهود، فلذلك لم تبدأ بالأمان[١].

٤- قال القرطبي: والصحيح أن التسمية لم تكتب؛ لأن جبريل ﷺ ما نزل بها في هذه السورة[٢]. قلت: هذا هو الصواب.

- وقال الفخر الرازي: الصحيح أنه ﷺ أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحيًا، وأن حذْف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ من أولها وحيًا[٣].

- وقال الجمل: لا مدخل لرأي أحد في الإثبات والترك، وإنما المتَّبع في ذلك هو الوحي والتوقيف[٤].

فالقاريء يبدأ سورة التوبة بالاستعاذة ولا يبسمل، وله أن يبسمل بعد الاستعاذة في أثنائها، وإذا وصل آخر الأنفال بأول براءة فله أن يأتي بوجه من ثلاثة وجوه هي: وصل

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٣) وقد أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس كما في «الدر» (٧/ ٢٢٧).

(٢) «تفسير القرطبي» (٨/ ٦١) ويذكر المفسرون في ذلك حديثًا يُنسب إلى النسائي والترمذي عن يزيد الفارسي، وهو مجهول الحال، وفيه ما ينسب إلى عثمان ﷺ أنه قال: إن النبي ﷺ قُبض ولم يبين موضع سورة التوبة من الأنفال، فقرنها عثمان بها، ولم تكتب البسملة في أولها. وهذا حديث لا يصح، قال عنه السيوطي في تدريب الراوي: عليه أمارات الوضع، وكلٌّ من الأنفال والتوبة سورة مستقلة، وبينهما زمن في النزول يقدر بسبع سنوات.

(٣) «تفسير الفخر الرازي» (١٥/ ٢١٦).

(٤) حاشية الجمل على «الجلالين» (٢/ ٢٦١).

السورتين ببعضهما هكذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ . . . ﴾ أو يقف مع التنفس على أخر الأنفال ثم يبدأ (براءة. .) أو يسكت على آخر الأنفال سكة خفيفة بدون تنفس ثم يبدأ (براءة. .) فهذه ثلاثة أوجه.

والأنفال والتوبة سورتان وإن لم تذكر البسملة في أول التوبة، وبينهما في النزول نحو سبع سنين، فقد نزلت سور الأنفال في السنة الثانية للهجرة، ونزلت سورة التوبة في السنة التاسعة للهجرة.

مناسبة سورة التوبة لما قبلها

وجاء ترتيب سورة التوبة بعد سورة الأنفال؛ لما بينهما من تناسب وتشابه في المعنى:

١- فقد أجملت سورة الأنفال عهود المشركين ونقْضها، فهم الذين ينقضون عهدهم في كل مرة، وهم لا يتقون، وسورة التوبة فصَّلت هذه العهود، ووضحت نقْضها.

٢- وذكرت سورة الأنفال نقض العهد عند الخوف من خيانة الأعداء، ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ [الأنفال: ٥٨] وبيَّنت هذه السورة قتال المشركين وأهل الكتاب لخيانتهم.

٣- وذكرتْ سورة الأنفال صدَّ المشركين للناس عن المسجد الحرام، وبيَّنتْ هذه السورة أن المشركين ليس لهم أن يعْمُروا مساجد الله، وإنما يعْمرهُ المؤمنون بالله ورسوله.

٤- وذكرتْ سورة الأنفال وجوب إعداد العدة لقتال العدوِّ، ونعتْ هذه السورة على المنافقين أنهم لو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدَّة.

٥- وقد ذكرتْ سورة الأنفال صفات المؤمنين في أولها، وذكرتْ صفات الكافرين بعد ذلك، وبيَّنت حكم الولاية بينهم، وصرحتْ هذه السورة بوجوب البراءة من الكفار بالكُلية.

٦- وكما تحدثت سورة الأنفال عن غزوة بدر تحدثت هذه السورة عن غزوة تبوك، وهكذا، كما ما بيْن السورتين من تشابه، وصور تاريخية.

وقت نزولها: وسورة براءة لم ينزل بعدها سورة كاملة إلا سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾﴾ وكان نزولها بعد سورة الفتح، وفيها نعْي لرسول الله ﷺ بقُرب

وفاته، كما فَهِم ذلك الصِّدِّيق رضوان الله تعالى عليه فبكى، وذكر أن الله جلَّ شأنه نعى رسوله للأمة، وبيَّن أن الله تعالى أكمل له الدين، وأتم عليه النعمة، وتم له النصر، وفَتْحُ مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فلم يبق إلا الاستغفار والتسبيح.

وقد سمع أعرابي سورة براءة فقال: أَظُنُّ هذه من آخر ما أنزل الله على رسوله، فقيل له: لم تقول ذلك؟ فقال: أرى أشياء تُنقض وعهودًا تُنبذ.

وسورة التوبة نزل بعضها قبل غزوة تبوك، ونزل بعضها بعد الغزوة وفي أثنائها، وغزوة تبوك كانت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي آخر غزوات النبي ﷺ، وكانت هذه الغزوة في شهر رجب، في شدة الحر، حين طابت الثمار، وفي أبعد سفر من المدينة وقتها، وهذا التاريخ من العام التاسع كان قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بخمسة عشر شهرًا، وبعد اثنين وعشرين عامًا من نزول الوحي على رسول الله ﷺ.

محتويات السورة: وكان نزول هذه السورة على النحو التالي:

١- من الآية الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين في **العلاقة بين المسلمين والمشركين**.

٢- ومن الآية التاسعة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين في **العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب**.

٣- ومن الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية الخامسة والأربعين في **المتثاقلين عن غزوة تبوك وفضح شأنهم**.

٤- ومن الآية الثامنة والأربعين إلى الآية السادسة والستين في **فضح المنافقين** وذلك في أكثر من نصف السورة في أماكن متفرقة.

٥- ومن الآية السابعة والستين إلى نهايتها **صنَّفت الناس إلى: مهاجرين، وأنصار، وأعراب، ومنافقين، ومتخلفين، ومخلصين**.

أبو بكر أميرٌ على الحج عام نزول السورة:

فقد كانت غزوة تبوك في شهر رجب، ونزلت أول سورة براءة في آخر السنة التاسعة، أي: قُبيل موسم الحج، في آخر شهر ذي القعدة من السنة التاسعة من الهجرة، بعد أن

خرج أبو بكر ﷺ من المدينة متوجهًا إلى مكة أميرًا على الحج.

لماذا لم يحج الرسول ﷺ قبل العام العاشر؟

وكان النبي عليه الصلاة والسلام لم يؤدِّ فريضة الحج إلى العام التاسع من الهجرة على أصح الأقوال، وعزم عليه الصلاة والسلام أن يحج قبل وفاته، ولكنه تذكَّر أن هناك سببيْن يمنعانه من الحج في العام التاسع من الهجرة:

السبب الأول: هو التقديم والتأخير الذي حصل في الأشهر، وهو ما يسمى بالنسيء ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [٣٧] وقد كان المشركون إذا أرادوا أن يستحلوا القتال في الأشهر الحرم أخّروا فيها وقدّموا، فترتب على ذلك أن يأتي شهر المحرم مكان شهر صفر، ويأتي شهر ذي القعدة مكان شهر ذي الحجة، أي: في غير موعده، فكان الحج في العام التاسع، في شهر ذي القعدة، ولذا خرج أبو بكر ﷺ أميرًا على الحج في هذا العام، وكانت وقفة عرفة في غير التاسع من ذي الحجة، وكان يوم النحر في غير العاشر من ذي الحجة، بل كان في شهر ذي القعدة.

ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام لمَّا حج في العام التالي -أي: في السنة العاشرة- خطب في الناس في حجة الوداع، وقال: **«ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»** ومعنى: استدار كهيئته، أي: جاءت وقفة عرفة يوم التاسع، وجاء يوم النحر في موعده يوم العاشر من ذي الحجة.

هذا هو السبب الأول الذي لم يجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج بنفسه للحج في العام التاسع.

والسبب الآخر: أن القرآن ظل يتنزَّل على رسول الله ﷺ، ويعامل أعداء الإسلام معاملة هيِّنة، يسالم مَنْ سالَمه، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومع أن الأصنام كانت قد حُطِّمت من جوف الكعبة عام الفتح إلا أنه بقي من أعمال المشركين مخالفات، منها:

١- أنهم يخالطون المسلمين في الحرم.

٢- وأنهم يشركون في التلبية، فيقولون: إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

٣- ومنهم من يطوف بالبيت وهو عارٍ، ليس عليه شيء من الملابس.

٤- وكان بين النبي ﷺ وبين المشركين عهد لم يزل قائمًا.

وكان ﷺ قد صالح قريشًا عام الحديبية على وضع الحرب عشر سنين فنقضوها.

ثم فتح الرسول ﷺ مكة في العام الثامن، وكان المشركون يطوفون بالبيت عرايا، ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل أبا بكر في العام التاسع من الهجرة أميرًا للحج؛ ليطهر البيت من أعمال المشركين وليقيم للناس مناسك الحج، وبعث معه أربعين آية يقرؤها على الناس في الحج، ثم أردفه بعلي بن أبي طالب؛ ليقرأ على الناس من أول السورة إلى نهاية الآية الأربعين قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

نزول صدر سورة براءة لنقض عهد المشركين

ولما ذهب أبو بكر ﷺ ووصل إلى ذي الحُلَيْفَة أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ صدر سورة براءة، وفيها البراءة من المشركين.

والأمر بأن لا يدخل البيت الحرام بعد هذا العام مشرك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [٢٨]

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [١٧]

وألا يطوف بالبيت عريان.

وسورة براءة لم تنزل بالسيف كما يقال، وإنما ظل الإسلام طوال اثنين وعشرين عامًا ينزل بمثل هذه الآيات:

١- ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)﴾ [يونس].

٢- وقوله: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

٣- وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون].

٤- وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٥-وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ

بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام].

٦- وقوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]

٧- وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس].

بمثل هذه الآيات ظل الوحي يتنزّل على رسول الله ﷺ وكانت هذه هي السياسة المتبعة في معاملة أعداء الإسلام، ولكنهم رفضوا أن تشق الدعوة طريقها، فاشتبكوا مع الإسلام في قتال انتهى بهزيمتهم، ولكنهم لم يعترفوا بالواقع ولم يتراجعوا عن العدوان، وظلوا يستأنفون الغدر بالإسلام والفتك بأهله، فكان لا بد من تأديب العابثين وإلزامهم حدود الأدب، فصَدَرت البراءة من الله ورسوله ضد هذه القوى الظالمة، فالإسلام لم يتعسف معهم.

المَقَاصِدُ الإِجْمَالِيَّةُ لِسُورَةِ التَّوْبَةِ

أَوَّلًا: نَقْضُ عُهُودِ مَنْ نَقَضُوا العَهْدَ

عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حدًّا، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس لقبول بعض أهل الكتاب في جزيرة العرب، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ الآية: ٢٩] فجعلت الآية دفع الجزية مشروطا بذلك.

وألغت السورة العهود والمواثيق التي كانت بين الرسول ﷺ وبين اليهود، فليس من الحكمة أن يحتفظ الإسلام بعهود قوم نكثوها مرات ومرات؛ ومن ذلك عهد المشركين الذي أبرموه عام الحديبية مع رسول الله ﷺ ولم يلتزموا بما فيه.

وفي أثناء تأديب المعتدين يظهر أقوام لا يريدون قتالًا، ولا يفكرون فيه، فيأمر الإسلام بتأمينهم وطمأنتهم وإعادتهم سالمين إلى أرضهم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ التوبة: [٦] وسماع كلام الله يتحقق بكل وسيلة من وسائل الدعوة والإسلام.

لقد أعطى الإسلام المشركين مهلة قدرها أربعة أشهر؛ ليرجعوا عن خطيئتهم، وأفهمَهم أن ذلك ليس عن ضعف، فلا تنخدعوا بقوتكم المزعومة؛ فإن الغدر له عواقب وخيمة، فكيف تُحفظ عهودهم، وهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة؟! ولذا لزم تأديبهم ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [١٢]، وهم قوم نكثوا أيمانهم وهمُّوا بإخراج الرسول، وبدؤوا بالغدر والخيانة، وأساؤوا للمسلمين مدة طويلة، تقترب من ربع قرن، وألحقوا بهم إهانات وجراحات، وملؤوا صدورهم غيظًا وحنقًا عليهم.

لقد عاملهم الإسلام خلال اثنتين وعشرين سنة بأرحم ما يعامَل به البشر، وإزاء خيانتهم ونقضهم للعهود لم يكن بدٌّ من إعلان البراءة منهم، ونبذ عهودهم، وإمهالهم مدة ينتهي فيها وقت الأمان، مع بيان الأسباب التي دعت إلى البراءة منهم ووجوب قتالهم، ومن ثَمَّ حرَّضت المؤمنين على قتالهم، وبيَّنت أنهم لا يحق لهم عمارة بيوت الله، ولا دخول حرم الله الآمن.

ووجهت السورة إلى ترك محبتهم، وبيَّنت أن من يقدِّم محبة الدنيا بما فيها ومن فيها على الجهاد في سبيل الله؛ فإن عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

وقد نعت السورة على المتكاسلين عن الجهاد وحذَّرتهم من سوء العاقبة: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ التوبة.

ثَانِيًا: مُعَامَلَةُ أَهْلِ الكِتَابِ:

وبعد الهجرة إلى المدينة خاض المسلمون مع أعدائهم نحو ثلاثين غزوة وسَرِيَّة، فكم بلغت خسائر الأعداء في هذه المعارك؟ إنها لا تبلغ عُشر معشار مذبحة قانا، أو صبرا وشاتيلا، أو البوسنة والهرسك، أو العراق، أو فلسطين، أو أفغانستان، أو الجمهوريات الإسلامية تحت الحكم الشيوعي، أو ...، أو ... لم يُقتل من الأعداء في معارك الإسلام أكثر من مئتي قتيل، فإذا أضفنا إليهم يهود بني قريظة فإنهم لم يبلغوا الألف في تاريخ الغزوات، والسرايا النبوية.

والفتوحات العُمريَّة في مصر والشام والعراق كانت في مواجهة احتلال دولتي الفرس والروم لهذه البلاد لتحرير شعوبها من الذل والاستغلال، حتى قضى الإسلام على نفوذ

هاتين الدولتين في تلك البلاد وغيرها.

وكان الرومان قد أوصدوا باب الدعوة في شمال الجزيرة.

والإسلام لا يعترض طريق الآخرين الذين لم يعترضوا طريقه، ولا طريق الذين سالموكم ولم يقاتلوكم ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

والجزية لم تُفرض على مُحايد ترَكَ قتال المسلمين، ولم تُفرض على من انخرط في الجيوش التي تحمي الوطن، وشاركت في أمن البلاد والدفاع عنها، وإن كان مختلفًا في عقيدته، وإنما فرضت الجزية عليهم مقابل حمايتهم والدفاع عنهم وانتفاعهم بالأمن والأمان في بلاد المسلمين، وعدم مشاركتهم للمسلمين في الدفاع عن الوطن، فإن فعلوا ذلك فلا جزية عليهم.

ومحمد ﷺ قد بُعث هاديًا، ولم يُبعث جابيًا، ولذا فقد نَضَبت موارد الخزانة من طريق الجزية لكثرة من دخلوا في دين الله من مصر وخراسان وأقطار أخرى، ولم يبقَ للجزية وجود، كما هو الحال في شأن الأرقَّاء.

وكما انتهت الوثنية في الجزيرة فقد خرج اليهود من آخر معاقلهم في خيبر سنة سبع من الهجرة، وجاء وفود النصارى إلى المدينة يستمعون إلى الوحي الجديد، فأسلم بعضهم وانشرح صدره، ومنهم من لم يُسلم، حتى طلب النبي ﷺ منهم المباهلة فأبوا ودفعوا الجزية.

ومع أن الإسلام كان الصوت الوحيد الذي بشَّر بنصر الروم على الفرس مرة أخرى بعد هزيمتهم، وأنه أمر المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة، فقد كان الإسلام واضحًا كل الوضوح في إنكار التثليث، ورفض ألوهية عيسى أو بنوَّته، واعتبر عيسى وأمه وجبريل من عباد الله الصالحين، مع التأكيد على نبوة عيسى عليه السلام.

وكان مما نزل من ذلك في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

ثَالِثًا: الكَشْفُ عَنْ نَوَايَا المُنَافِقِينَ:

فقد فضحت السورة المنافقين وأخزتْهم، وأظهرتْ ما تنطوي عليه نفوسهم، وبيَّنت مسالكهم الخبيثة، وصفاتهم الذميمة في مجالات كثيرة، منها:

١- الفرار من مواطن الجد والجهاد، والتعلل بالأعذار الكاذبة، والتستر بالأيمان الفاجرة، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [٤٢]

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [٤٩]

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [٨١].

٢- إشاعة الفتنة بين صفوف المجاهدين متى وُجدوا، وأينما حلُّوا ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [٤٧].

٣- محبة السوء للمسلمين، وكراهية الخير لهم ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [٥].

٤- التظاهر بالإسلام تَقِيَّة وجُبْنًا عن التصريح بالكفر ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [٥٦].

٥- طعْنهم في جناب النبي ﷺ عند قسمة الأموال، وتوزيع الصدقات لإشاعة التهم الباطلة ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [٥٨].

٦- وصْفهم للرسول ﷺ بأنه يستمع إلى كل ما يقال له دون تثبُّت ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [٦١].

٧- استهزاؤهم بالإسلام وأهله، واعتذارهم بأنهم لم يكونوا جادين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [٦٥].

٨- سخْريتهم من فقراء المسلمين الذين يتصدَّقون بما لديهم من القليل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [٧٩].

٩- نقْضهم للعهد، وبخلهم بالمال، قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ [٧٥، ٧٦]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [٥٣].

١٠- خداع المسلمين للإضرار بهم، والتفريق بينهم في إقامة مسجد الضرار وغيره. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الآية: ١٠٧]

وهكذا رسمت السورة المنهج الذي يسير عليه المسلمون مع غيرهم في الداخل والخارج، إلى جوار الحديث عن الزكاة ومصارفها، وقصة الثلاثة الذين خُلِّفوا، والكلام عن الأشهر الحرم، والتأخير والتقديم فيها، ووجوب طلب العلم.

ثم تحدثت السورة قُرب نهايتها عن المؤمنين الصادقين الذين باعوا أنفسهم لله بجنة عرضها السموات والأرض، وأمرتْهم ألا يستغفروا للمشركين، وأن يكابدوا الشدائد في جهاد الأعداء، وحكمتْ على المتخلفين عن الغزو في سبيل الله، فمنهم المنافقون، ومنهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ومنهم المرجَوْن لأمر الله.

وخُتمت السورة بالثناء على رسول الله ﷺ فوصفتْهُ بالرأفة والرحمة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَحْكَامُ البَرَاءَةِ مِنَ المُشْرِكِينَ

١ - ﴿[١]بَرَآءَةٌ[٢] مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم[٣] مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾

بدأت السورة كما تبدأ صيغ العقود والعهود بما يناسب مقتضى الحال في الصكوك والمواثيق، ويؤتى بأدل كلمة على الغرض، ويقال: هذا ما عهد به فلان، أو هذا عقد محرر بين فلان وفلان، أو باع فلان إلى فلان، أو وكَّل فلان فلانًا، وهكذا، كما يقال: أما بعد؛ ولذا حذفت البسملة كما تحذف الديباجة من أول الكلام، وهذا تشريع لمصلحة الأمة، فلا يكون إلا من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ، أي: هذه براءة صادرة من الله تعالى؛ لأنه الآمر بها، وصادرة من رسوله ﷺ لأنه المباشر لها.

وهذا إعلان بالتخلي عن العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين؛ بسبب نقض بعضهم لعهودهم وإصرارهم على باطلهم، فقد قطع الله ما بين رسوله وبين المشركين من صلات، فلا تعاهد ولا سلم ولا أمان، حيث لا بد قبل وفاة النبي ﷺ أن يضع الإسلام حدًّا لشرك المشركين، ولا بد أن يتبرأ الله ورسوله من أعمال المشركين، سِيَّمَا وأنهم نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ، كما نقض اليهود عهودهم مع النبي عليه الصلاة والسلام، فنزلت هذه الآيات للبراءة من المشركين؛ لنقض عهودهم، ولوضْع حدٌّ لهذا الشرك الذي يتخلل حتى الطواف بالبيت، وحتى السجود لله سبحانه.

وقد كان العرب ينبذون العهد لإعلان التحلل من التبعات المترتبة عليه، ويرُدُّون الجوار إذا شاؤوا، لإنهاء الالتزام بتبعاته، كما فعل ابن الدُّغُنَّة في ردِّ جوار أبي بكر ﷺ على قريش، وكما فعل عثمان بن مظعون ﷺ في ردِّ جوار الوليد بن المغيرة عليه قائلًا: رضيت

(١) أجمع القراء العشرة على عدم البسملة في أول السورة سواء ابتدأ بها القارئ أو وصلها بآخر الأنفال، وله حال وصل السورتين: القطع أو السكت أو الوصل.

(٢) لحمزة في (براءة) وقفًا تسهيل الهمزة مع المد والقصر.

(٣) أدغمت الدال في التاء؛ لخروجهما من مخرج واحد وسكون الأول منهما، فبينهما تجانس صغير.

بجوار ربي، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ [الأنفال] أي: لا تخُنْهم لظنك أنهم يخونونك، فإذا ظننْته فافسخ عهدك معهم.

وقد كان بيْن النبي ﷺ وبين أهل مكة ومن معهم عهد ألا يَصُدُّوا أحدًا عن البيت، وألا يُخيفوا أحدًا في الشهر الحرام، ومَنْ أحب أن يدخل في عهد محمد ﷺ أو عهد قريش دخل فيه، وأن تضع الحرب أوزارها إلى أجل معين، قيل: عشر سنين، وقيل: أربع سنين، وقيل: سنتان، وبعض العهود عند نزول هذه الآية كان قد انقضى أجله، وبعضه لم ينته أجله، وعلى هذا فإن صلح الحديبية -عند نزول هذه الآية- يكون قد انقضى على بعض الأقوال، ولم ينته على بعضها.

ومعلوم أن صلح الحديبية كان في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، ولَمَّا وقعت غزوة تبوك في السنة التاسعة أرجف المنافقون أن المسلمين قد غُلبوا، فنقض كثير من المشركين العهد، وفيهم بعض خُزاعة، وبنو مُدلج، وبنو خُزيمة، فأعلن الله هذه البراءة للمسلمين؛ ليأخذوا حذرهم، وجُعلت هذه البراءة شأنًا من شؤون الله ورسوله؛ لأن عهود النبي ﷺ كانت لمصلحة المسلمين.

وقد جمع الله تعالى جميع القبائل التي كان لها عهد مع المسلمين حين نزول هذه السورة في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وأشارت سورة النساء إلى بعض عهود المنافقين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [النساء: ٩٠]، كما أشارت سورة الأنفال إلى بعضها في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ومعنى الآية: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين الذين لهم عهد مطلق، أو عهد مقدر بأقل من أربعة أشهر، أن لهم أربعة أشهر يأمنون فيها على أنفسهم من المؤمنين، وبعد الأربعة أشهر لا عهد لهم ولا ميثاق، أما من كان له عهد يزيد على أربعة أشهر، فإن عهده، يتم إلى مدته، ما لم يُتوقع منه خيانة أو يبدأ في نقض عهده.

نزلت هذه الآيات، من أول سورة التوبة فأرسل بها النبي ﷺ أبا بكر ﷺ؛ ليقرأها على

الناس في الحج، فلما بلغ ذا الحُلَيْفَة قال ﷺ: **«لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي، فدعا عليًّا فأعطاه إياها»**[١].

ولماذا خُص عليٌّ ﷺ بتبليغ أحكام البراءة؟

الجواب على ذلك: أنه كان من عادة العرب أنهم إذا أبرموا عهدًا، أو صلحًا، أو اتفاقا، أو نقضوا عهدًا، لا بد أن يتولى ذلك الرئيس كبير القوم، أو شيخ القبيلة، فإن لم يوجد فأقرب الناس إليه عصبة.

وعليٌّ ﷺ هو ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام، وأقرب الناس إليه؛ ولذا أرسله الرسول ﷺ دون غيره جريًا على عادة العرب المتَّبعة عندهم، ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل عثمان، أو عمر، أو غيرهما، لما استجاب المشركون لهذا النفر، ولَمَا اعتبروه ناقضًا للعهد؛ لأنه لم يجْرِ على عادتهم، حيث لم يتولاه أَحَدُ عَصَبَةِ النبي ﷺ، وهذا معنى قول الرسول ﷺ: **«لا يبلِّغ عني إلا رجل مني»** أي: مِنْ عَصَبَتِهِ، وأقاربه؛ حتى لا يحتج العرب، ولا يرفضوا ما أُرسل به.

ذهب عليٌّ بعد أبي بكر ﷺ، وأدركه في ذي الحُلَيْفَة، سمع أبو بكر صوت الناقة العضباء أو القصواء، ناقة رسول الله ﷺ، وبمجرد أن سمع صوت الناقة وقف حيث هو، وقال: هذه ناقة رسول الله ﷺ ثم التفت فوجد عليًّا عليها، فأقبل نحوه يسأله: أمير أنت، أم مأمور؟ هل جئت لتخلُفني، أم جئت لمهمة؟ قال: بل مأمور، فسارا متوجهين إلى مكة، كان أبو بكر هو أمير الحج، وهو الذي يؤم الناس في الصلاة، وعليٌّ مأموم يصلي خلفه، تنبيهًا على إمامة أبي بكر واستخلافه، فأبو بكر هو الذي يخطب في الناس، وهو الذي خطب فيهم يوم التروية، وعلَّمهم مناسك الحج، وعليٌّ مستمع مع بقية القوم.

وفي يوم النحر طلب أبو بكر من عليٍّ أن يقرأ على الناس ما أرسله به النبي عليه الصلاة والسلام من صدر سورة براءة، ومقتضاه:

١- أن الذين ليس لهم عهد من المشركين .

٢- أو لذين أبرموا عهدًا مطلقًا مع النبي ﷺ ليس له وقت محدد ، ولكنهم ظاهروا على

---

(١) يُنظَر: حديث أنس في سنن الترمذي (٣٠٩٠) وقد حسَّن إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٦٧)، وله شواهد كثيرة.

رسول الله ﷺ فأعانوا على قتاله.

٣- أو نقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته، فإن أمد هذا العهد أربعة أشهر.
ومن كان له عهد إلى وقت معين فأمده إلى أجله بالغاً ما بلغ لقوله تعالى ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾[1]، والله سبحانه هو الذي يأمر رسوله ويأمر المؤمنين أن ينقضوا هذا العهد، وأن يبرؤوا إلى الله منه.

وهذه البراءة من غير المسلمين بمعنى التبرؤ من الشرك والكفر، قائمة إلى يوم الساعة، فالسورة تضع حدًّا للتعامل مع المشركين الوثنيين في أرجاء الأرض.
وتضع حدًّا للتعامل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما يتفق مع مصلحة المسلمين قوة وضعفا إلى يوم القيامة.

وكان المشركون لما خرج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك، بلغهم أن الرسول قد غُلب، فنقضوا عهدهم معه، والمشركون الذين تبرأ الله منهم هم الذين عُرفوا بنقض العهود.

ثم أنذرت السورة أصحاب العهود أنهم إن استمروا على شركهم فإنهم لن يُعجزوا الله شيئا، وسيخذلهم الله ويخزيهم:

إِمْهَالُ المُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

٢- ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

والآية الثانية تحدد وقت هذه المهلة و أنها أربعة أشهر، فبيّن سبحانه أنها تبدأ من اليوم الذي أذَّن فيه رسول الله ﷺ بهذه البراءة، وكان ذلك في يوم النحر، فهي عشرون يومًا من ذي الحجة، وشهر المحرم، وصفر، وربيع أول، وعشرة من شهر ربيع الآخر ﴿فَسِيحُواْ فِي﴾ أيّ: مكان من ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون خوف، وذلك مدة ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ والاقتصار على هذه الأشهر الأربعة، نظرًا لقوة المسلمين على أعدائهم في هذا الوقت، بخلاف الوقت الذي كان فيه صلح الحديبية فقد كانوا أضعف، وهي مدة كافية في العادة لتكوين الرأي، وتحقيق ما يترتب عليه من السياحة في الأرض وغيرها، وكان بداية الأشهر الأربعة يوم النحر ونهايتها العاشر من شهر ربيع الآخر سنة عشر من الهجرة، وهو

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٠/ ٦٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٣٤.

أمر إباحة، أي: سيروا آمنين أيها المشركون هذه المدة لا يقع بكم منا مكروه.

وهذا معنى: سيحوا في الأرض، أي: سيروا وتنقَّلوا بحُريَّة، وتشاورُوا فيما بينكم؛ لتقرِّروا ما تريدون لمدة أربعة أشهر، تذهبون فيها حيث شئتم آمنين غير خائفين من القتل والقتال:

١- وهذا بالنسبة لمن ليس له عهد. ٢- أو لمن له عهد مطلق غير مقيد.

٣- أو لمن له عهد أقل من أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر.

٤- أما من له عهد محدد يزيد على أربعة أشهر، فقد أمر الله له بالوفاء إلى انتهاء مدة عهده.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي: أن هذه المهلة ليست عن ضَعف من المسلمين، وإنما هي عن عزة وقوة، إنكم لن تُعجزوا الله، ولن تفْلِتوا من العقوبة، ولن تهربوا في الدنيا ولا في الآخرة من عذاب الله سبحانه، وأنه مذل الكافرين، ومورِّثهم العار في الدنيا والنار في الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهذه الآية عامة في جميع الكفار المعاهدين، وأنهم يُمْهَلُون أربعة أشهر حتى يُسلِمُوا أو يُسالِموا.

وهذه البراءة من المشركين لم تكن سرًّا في الظلام، ولكنها كانت معلنة واضحة تمام الوضوح في أكبر تجمع إسلامي، وفي أعظم يوم هو يوم النحر، يوم الحج الأكبر.

ويؤخذ من الآية أنه يلزم إعلام العدوِّ عند إرادة نقض العهد معه؛ حتى يتمكن من إيصال الخبر إلى أطراف بلاده، وتدبير أمره، وتكوين رأيه، ولا يكفي مجرد الإعلام، بل يُعطَى مهلة يدبر فيها حاله.

إِعْلَانُ البَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ

٣- ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

هذا أمر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ، أن يؤذن مؤذن في الناس، مسلمهم وكافرهم يوم النحر، أن الله بريء ورسوله كذلك بريء من المشركين، فليس لهم عند الله عهد ولا

ميثاق، ويقال لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، وقد حج بالناس أبوبكر ﷺ، وأذن في الناس بالبراءة عَلِيٌّ ﷺ:

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ﷺ قال: بعث النبي ﷺ أبا بكر، وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، ثم أتبعه عليًا، فبينما أبو بكر في بعض الطريق إذ سمع رُغاء ناقة رسول الله ﷺ القصواء، فخرج أبو بكر فزعًا، فظن أنه رسول الله ﷺ فإذا هو عليٌّ، فدفع إليه كتاب رسول الله ﷺ وأمر عليًا أن ينادي بهؤلاء الكلمات فانطلقا فحَجَّا، فقام عليٌّ أيام التشريق، فنادى: ذمة الله ورسوله بريئة من كل مشرك، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يَحُجنَّ بعد العام مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن، وكان عليٌّ ينادي، فإذا عَيِيَ عليٌّ قام أبو بكر فنادى بها[1].

ثم بيَّن سبحانه الموعد الذي تعلن فيه هذه البراءة من المشركين؛ حتى لا يكون لهم عذر بعد هذا الإعلان، وقد اختار الله أن يكون هذا الموعد في اليوم الذي يضم أكبر حشد من الناس؛ حتى يذاع الخبر في أنحاء البلاد، وهذا إعلام من الله ورسوله إلى الناس في هذا المؤتمر، وهذا التجمع العظيم، يوم الحج الأكبر، في يوم النحر أن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم كذلك.

الحَجُّ الأَكْبَرُ وَالأَصْغَرُ

ويوم النحر يسمى: الحج الأكبر، والعمرة تسمى: الحج الأصغر كما قال ابن القيم، وكما في الحديث عن نافع عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها، فقال النبي ﷺ **«أيُّ يوم هذا؟»** قالوا: يوم النحر، قال: **«فأي بلد هذا؟»** قالوا: هذا بلد الله الحرام، قال: **«فأي شهر هذا؟»** قالوا: شهر الله الحرام، قال: **«هذا يوم الحج الأكبر، ودماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم كحرمة هذا**

---

(١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، «سنن الترمذي» (٥/ ٢٧٤) برقم (٣٠٨٩، ٣٠٩٠) وصحح إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٨) وأخرجه النسائي (٥/ ٢٤٧) والدارمي (٢/ ٦٦) وله شاهد صحيح أخرجه الضياء في «المختارة» برقم (٤٦١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٣/ ٥٢) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٤٥) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٩٦)، وانظر حديث أبي هريرة في المسند (٧٩٧٧) بإسناد حسن ورجال ثقات.

البلد، في هذا الشهر، في هذا اليوم»، ثم قال: «**هل بلَّغتُ؟**» قالوا: نعم، فطفق النبي ﷺ يقول: «**اللهم اشهد**»، ثم ودَّع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع[١].

ولا عدول عن تسمية يوم النحر بأنه يوم الحج الأكبر كما جاء في هذا الحديث الصحيح: عن عليٍّ ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: «**يوم النحر**»[٢].

وقال علي ﷺ: يوم الحج الأكبر يوم النحر[٣].

فعن أبي هريرة ﷺ قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذِّن يوم النحر بمنى: ألَّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشركٌ، وأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٤].

والحج الأصغر هو العمرة، بدليل رواية الطبراني في مسند الشاميين فهي موضحة لهذه الرواية.

ويوم عرفة يُؤدَّى فيه ركن الحج الأعظم، ويوم النحر هو اليوم الذي تؤدى فيه معظم مناسك الحج.

وسمي يوم الحج الأكبر أيضًا؛ لنبذ عهود المشركين فيه، فأعز الله فيه الإسلام وأذل الشرك وأهله.

والعام الذي حج فيه أبو بكر وكان أميرًا على الناس لم يكن البيت فيه قد حَرُم على المشركين، سماه الله يوم الحج الأكبر لأن الحج الأكبر يكون فيه [٥].

---

(١) في البخاري (١٧٤٢) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٠٥٨) و في صحيح «سنن ابن ماجه» برقم (٢٤٨٢) وهو في «سنن أبي داود» (٢/ ١٩٥) برقم (١٩٤٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٣٣١) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (١٧١٤) وصحيح سنن الترمذي (٢٤٦٤) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٤٨).

(٢) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٦٥) وهو في الترمذي (٣٢٩٦) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٤٧).

(٣) صححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٦٦) وهو في الترمذي (٣٢٩٧) وهو موقوف على عليّ.

(٤) أخرجه البخاري (٣١٧٧) ومسلم (١٣٤٧) وأبو داود (١٩٤٦) والنسائي (٢٩٥٧).

(٥) وقيل: إن العام الذي حج فيه أبو بكر بالناس يسمى الحج الأصغر، والعام الذي حج فيه رسول الله ﷺ بالناس يسمى الحج الأكبر، وبعد هذين العامين فإنه يقال للعمرة: حج أصغر، وللحج: حج أكبر.

وقد أذَّن عليٌّ ﷺ في الناس بتلك الآية يوم عرفة إثر خطبة أبي بكر ﷺ، ثم رأى أنه لم يُسمِع الناس جميعًا، فتتبَّعهم بالأذان يوم النحر، و بعث معه أبو بكر من يُعينُه بالأذان كأبي هريرة وغيره، وتتبعوا أسواق العرب، كسوق ذي المجاز وغيره، ومن هنا قال بعضهم: إن الأذان كان يوم عرفة، وقال آخرون: كان يوم النحر[1].

بنود البراءة

والتأذين في الناس كان بأربعة أشياء:

١- ألا يحج بعد العام مشرك.

٢- وألا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

٣- وألا يطوف بالبيت عريان.

٤- ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته، فإن كان عهدًا مطلقًا فمدته أربعة أشهر.

وكان رسول الله ﷺ قد أمر عليًّا أن يقرأ على الناس أربعين آية من صدر سورة براءة، وقيل: ثمانٍ وعشرين آية، وقيل: غير ذلك، فلما خطب أبو بكر بعرفة قال: قم يا عليٌّ، فأدِّ رسالة رسول الله ففعل، وكان المشركون إذا سمعوا عليًّا يقولون: سترَوْن بعد الأربعة أشهر، فإنه لا عهد بيننا وبين ابن أخيك إلا الطعن والشر.

قال ابن إسحاق: لما نزلت (براءة) وكان النبي ﷺ قد بعث أبا بكر ﷺ؛ ليقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله، لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال: **«لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي»**[2] ثم دعا عليَّ بن أبي طالب فقال له: **«اخرج بصدْر سورة براءة، وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته»**.

وفي هذه الرواية أن عليًّا خرج على ناقة رسول الله ﷺ العضباء[3].

---

(١) بتصرف من «تفسير ابن عطية» (٣/ ٥) والطبري (١٤/ ١٠٥) و«المسند» (١/ ٧٩) عن علي، والترمذي برقم (٣٠٩٢).

(٢) حسنه الألباني بهذا اللفظ في فقه السيرة، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٩٨) عن ابن عباس.

(٣) «سيرة ابن هشام» (٤/ ١٩٠) ط. الحلبي (١٣٥٥)هـ.

وفي حديث الترمذي وغيره أنها القصواء.

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: بعثني أبو بكر ﷺ في تلك الحَجَّة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر، يؤذِّنون بمنى: **«ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»**، قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف النبي ﷺ بعليٍّ بن أبي طالب، فأمره أن يؤذِّن ببراءة، قال أبوهريرة: فأذَّن معنا عليٌّ يوم النحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[١].

زاد في رواية: ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر[٢] وفي رواية: أن لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة[٣].

فإن تبتم أيها المشركون عن شرككم، ورجعتم عن كفركم، ودخلتم في الإسلام فهو خير لكم.

وإن أعرضتم عن الدخول في الإسلام فلن تفلتوا من عذاب الله تعالى.

وإن خرجتم وطهَّرتم أرض الجزيرة من شرككم فلكم ذلك، وإن بقيتم كما أنتم ولم تتركوا المسلمين يدعون الناس إلى دين الله سبحانه، فإن الإسلام سيحدد مصيركم كما في الآيات التالية.

وأنذِرِ المُعْرِضِين عن الحق -أيها الرسول- بعذاب الله المؤلم.

موقف الإسلام من غير المسلمين

وقد كان الكفار بعد نزول آية السيف في هذه السورة على ثلاثة أقسام:

١- أهل صلح وهدنة. ٢ - وأهل حرب. ٣- وأهل ذِمَّة

فأُمر النبي ﷺ أن يتم لأهل العهد مدتهم ما استقاموا عليه، فإن خاف منهم خيانة نقَض

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ١٦٨) وهو في الصحيح برقم (٣٦٩٢، ٤٦٥٧، ٤٦٥٥، ٤٦٥٦) ومسلم (١٣٤٧) وأبو داود (١٩٤٦) والنسائي (٥/ ٢٣٤) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٩٥) وقد سبق ذكره وتخريجه.

(٢) الطبري (١٤/ ١٠٧) و«صحيح سنن الترمذي» (٦٩١، ٢٤٦٩) و«المسند» (٥٩٤) حديث صحيح، رجاله ثقات والحاكم (٣/ ٥٢)، والحميدي (٤٨) والدارمي (١٩١٩) وأبو يعلى (٤٥٢).

(٣) الترمذي في التفسير (٣٠٩٢) وقال حديث حسن، وصححه الحاكم (٣/ ٥٢) وسعيد بن منصور (١٠٠٥) تفسير، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٦٩١) والإرواء (١١٠١).

عهدهم، وأُمر أن يقاتل من نقض عهده، ولما نزلت سورة براءة بيَّنتْ حكم هذه الأقسام:

١- فأمر الله نبيه أن يقاتل أعداءه من أهل الكتاب حتى يدخلوا في الإسلام، أو يدفعوا الجزية، وتسقط الجزية عمن يدافع عن أمن البلاد، ويشارك في حماية أمنها وأمانها وسلامة حدودها وحفظ ثغورها كما هو شأن المسلمين.

٢- وأن يجاهد الكفار باللسان والسِّنان، ويجاهد المنافقين بالحجة والبرهان.

٣- وأن يبرأ من عهود الكفار، ويجعل عهودهم ثلاثة أقسام:

أ- يقاتل من نقض عهده ولم يستقم عليه.

ب- وأن يتم العهد إلى مدته لمن له عهد مؤقت لم ينقضه.

ج- ومن لم يكن له عهد، أوْ له عهد مطلق، يؤَجَّل إلى أربعة أشهر.

وقد دخل أهل العهد في الإسلام، وبقي المؤمن المسالم، والكافر المحارب، وأمر الله نبيه بقبول علانية المنافقين وترْك سرائرهم إلى الله[1].

وقد خُتِمت هذه الآية ببيان أن هؤلاء المحاربين لله ورسوله، إن أعرضوا عن الإسلام، وأبوْا إلا الاستمرار في الغيِّ والضلال، فليعلموا أنهم لن يُعجزوا الله تعالى، ولن يفوتوه هربًا من عذابه، وهذا إنذار لهم مصحوبٌ بالوعيد بعذاب مؤلم موجع يحل بهم يوم لقاء الله، وقد جُعل هذا بشرى لهم على سبيل التهكم والاستهزاء، ولبيان أن إمهالهم، وإطلاق سراحهم، وسياحتهم في الأرض لن يغني عنهم من الله شيئًا، فليفعلوا ما شاؤوا، فإن الله معاقبهم وهم في قبضته وتحت قهره وسلطانه.

ومما يتعلق بالآية أن أعرابيًّا سمع رجلًا يقرأ (أن الله بريء من المشركين ورسوله) بجرِّ (رسوله)، فقال الأعرابي منكرًا عليه: إن كان الله بريئًا من رسوله فأنا منه بريء، فلبَّبه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته، فأمر عمر ألَّا يُقرئ الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي فوضع النحو[2].

---

(١) يُنظَر: بحث الجهاد في «زاد المعاد» لابن القيم.

(٢) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (١/ ٢٤) وقد أخرجه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري في كتاب الوقف والابتداء، ويُنظَر: تاريخ ابن عساكر، عن ابن أبي مليكة (٢٥/ ١٩١).

وورد أن أبا الأسود الدؤلي سمع ذلك فرفع الأمر إلى عليٍّ، فكان ذلك سببًا في وضع علم النحو، وتشكيل المصحف[١].

الإِسْلَامُ يَفِي بِالعَهْدِ لِمَنْ وَفَّى بِهِ

٤- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ[٢] عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

وتُبيِّن الآية الرابعة أن الإسلام يفي بالعهد لمن وفَّى به، وهذا استثناء بمعنى الاستدراك، أي: لكن من وفَّى من المشركين ولم ينقض عهده واستمر عليه ولم يظاهر عليكم أحدا، أو ينقص منكم شيئا من بنود العهد، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم.
فهناك من طوائف المشركين من لم ينقُض عهده مع رسول الله ﷺ، مثل: بني بكر، وبني ضمرة، وحيٌّ من كنانة، وقد أمر الله رسوله أن يوفِّي إليهم عهدهم ما داموا قد وفَّوا واستقاموا.

فاستثنى من مهلة الأربعة أشهر: أن من كان له عهد مع رسول الله ﷺ من غير المسلمين فعهده إلى مدته، بشرط ألا ينقض عهده، ولا يُعين على المسلمين أحدًا من المشركين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهم مشركو قريش الذين عاهدهم النبي ﷺ زمن الحديبية، وكان قد بقي من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر، فأمر الله نبيه أن يوفِّي لهم عهدهم إلى مدتهم، ومن لا عهد له، مدته إلى انسلاخ المحرم، وقد أمره ربه بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وألا يقبل منهم إلا ذلك.

قال قتادة: كان عهدٌ بين رسول الله ﷺ وبين قريش أربعة أشهر بعد يوم النحر، كانت تلك بقية مدتهم، ومن لا عهد له إلى انسلاخ المحرم، فأمر الله نبيه إذا مضى هذا الأجل أن يقاتلهم في الحلِّ والحرم وعند البيت، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[٣].

وكان من القبائل من وفَّى بعهده كبني ضمرة وبني حيان.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن الأنباري عن عَبَّادٍ المهلَّبيِّ، كما في «الدر» (٧/ ٢٤١).

(٢) ضم الهاء من (إليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

(٣) أخرجه ابن المنذر والطبري بسند حسن عن قتادة.

وكان منهم من أخلّ به ونقَضه؛ كبني بكر.

ومنهم من ظاهر وأعان المشركين على المسلمين؛ كاليهود، وغيرهم.

وهذا معنى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ أي: من بنود المعاهدة ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم يعينوا عليكم أحدًا من كفار قريش، أو من اليهود أو غيرهم ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: وفُّوا إليهم العهد كاملًا إلى انقضاء مدته، لأن الإسلام يأمر بالوفاء وينهى عن الخيانة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ لربهم الموفين للعهود غير الناكثين لها.

وفي الآية بيان أن إتمام العهد من التقوى.

قال ابن عباس ﷺ: كان قد بقي لِحَيٍّ من كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتم ﷺ عهدهم إليهم.

وصح عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من قتل نفسًا مُعَاهَدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»**[1].

آيَةُ السَّيْفِ

٥- ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

ذكرت هذه الآية المعاملة التي يجب أن يعامل بها المشركون بعد انتهاء المدة،وهي الأشهر الأربعة، التي حرم الله فيها قتال المشركين المعاهدين.

أي: إذا مضت المدة التي حُرِّم فيها قتالهم، وأمَّنتم فيها المشركين،المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، وانتهى تمام المدة لمن له مدة معينة أكثر من أربعة أشهر فقد برئت منهم الذمة.

وقيل لها: حُرُم؛ لأن الله تعالى حرَّم فيها دماءالمشركين على المؤمنين، أو التعرض لهم بسوء وهي مدة المهلة بين الفريقين التي تنتهي في العاشر من ربيع الآخر على أصح القولين.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣١٦٦، ٦٩١٤)

والقول الآخر: أنها الأشهر الحُرُم المعروفة، فتكون المدة خمسين يومًا فقط، فإذا انتهت هذه المدة ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: أعلنوا عليهم الحرب حيث كانوا، فاقتلوهم في الحل والحرم، وفي الأشهر الحرم، وهذا حكم عام، مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ احبسوهم في معاقلهم، وفي أي مكان كانوا فيه حتى يسلِّموا أو يستسلموا ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: ترصدوا لهم في طُرقهم واحبسوهم، وسُدُّوا عليهم المنافذ والطرق، وضيِّقوا عليهم، ولا تتركوهم يتوسعون في أرض الله التي جعلها معبدًا لعباده، فهؤلاء ليسوا أهلا لسكناها، لأنهم أعداء الله محاربون لدينه، وذلك باستثناء من أُمروا بالوفاء لهم إلى مدتهم.

وكان قتادة يقول: خلُّوا سبيل مَنْ أمركم الله أن تُخَلُّوا سبيله، فإنما الناس ثلاثة رهط: مسلم عليه الزكاة، ومشرك عليه الجزية، وصاحب حرب، يأمن بتجارته في المسلمين إذا أعطى عشور ماله.

وهذه التوجيهات من العليم الخبير إلى المسلمين كيف يعاملون المشركين في الجزيرة وفي غيرها عند القدرة عليهم والتمكن منهم حتى يتوبوا إلى الله ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ أي: رجعوا عن كفرهم، ودخلوا في الإسلام، والتزموا شرائعه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أدوها بشروطها وأركانها ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أخرجوها لمستحقيها ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ واتركوهم، فقد أصبحوا إخوانكم في الدين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، وليكونوا مثلكم، فالله يغفر لمن تاب وأناب ويرحمه، والإسلام يفتح ذراعيه للتائبين.

وقد استدل أبو بكر على قتال مانعي الزكاة بهذه الآية، وبقوله ﷺ فيما يرويه ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**[1].

وفي تفسير ابن أبي حاتم عن عليٍّ ﵁ أن النبي ﷺ بُعث بأربعة أسياف:

(١) البخاري عن ابن عمر برقم (٢٥) «فتح الباري» (١/ ٩٥) ومسلم (١/ ٥٣) برقم (٢٢).

١- سيف على المشركين من العرب ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

٢- وسيف على أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

٣- وسيف على المنافقين ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [٧٣].

٤- وسيف على الباغين ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وقيل: إن آية السيف ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ واسع الرحمة والمغفرة لمن تاب إليه وأناب، وهذه الآية جمعت الوسائل الكفيلة بالقضاء على العدو في كل عصر ومصر، وهي أربع: القتل، والأسر، والمحاصرة، والمراقبة.

إِجَارَةُ المُشْرِكِ

٦- ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ(١) حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ(١) مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

في هذه الآية أمْر بأن المصلحة إذا اقتضت تقريب غير المسلم، فإن الإسلام يجيز ذلك بل يوجبه إذا طلب منك أن تُجيره وتمنع عنه الضرر، فقد يكون كفره عن جهل منه أو عن تقليد، فإذا سمع كلام الله أثرّ فيه، فإن أسلم فالحمد لله، وإلا فأوْصِلْه إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه.

عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من المشركين إلى علي بن أبي طالب فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي إلى محمد ﷺ بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة؟

---

(١) ،(١) وصل ابن كثير هاء (فأجره) و (أبلغه) وقصرهما بقية القراء.

فقال له عليٌّ: إن تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[١].

ومعنى: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلب حمايتك؛ فالمستجير يجب تأمينه ﴿فَأَجِرْهُ﴾ اجعله في حمايتك وجوارك ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: يستمع إلى القرآن، ويتدبر ويفهم معناه، فإن أسلم فالحمد لله، وإن لم يُسْلم فأبلغه مأمنه، ولا يجبر على الدخول في الإسلام، وإنما أوصلْه وأمِّنْه حتى يصل إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه.

فإن أتاك إنسان غير مسلم فأمِّنْه، واعرض عليه دعوة الإسلام، ثم ردَّه من حيث جاء وهو آمن؛ فالإسلام لا يهدف إلى النيل من الكافرين، وإنما يهدف إلى إقناعهم وهدايتهم؛ حتى يعرفوا الحق ويتبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الضلال والغدروالخيانة، ولا يحدث هذا إلا بالاستماع إلى القرآن والسنة ودعوة الإسلام.

فالمعنى: وإن طلب أحد من المشركين الذين استُبيحت دماؤهم وأموالهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، طلب الدخول في جوارك -يا محمد- ورغب في الأمان، فأجبْه إلى طلبه؛ حتى يسمع القرآن الكريم، ويطَّلع على هدايته، فيعرف ما أعده الله له من الثواب إن كان قد آمن، وما أعده له من العقاب إن كان قد أصرَّ على كُفره، ثم أعِذْه من حيث أتى آمنًا؛ وذلك لإقامة الحجة عليه، وهذا بسبب أن الكفار قوم جاهلون بحقائق الإسلام، فربما اختاره إذا زال الجهل عنه، وهو تخصيص لعموم قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إلا مشركًا استجارك، ودخل في حماك سفيرًا عن قومه، أو دخل في حماك لمعرفة شرائع الإسلام؛ لكيلا يزعم المشركون أنهم لم يتمكنوا من لقاء النبي ﷺ فيتخذوه عذرًا للاستمرار على الشرك إذا غزاهم المسلمون.

والمستجار هو المستأمن، وطالب الجوار عند النبي ﷺ لا يخلو من عرض الإسلام عليه، سواء قَدِمَ لذلك أم لغيره، ولذا كان سماعه للقرآن غاية لإقامته المؤقتة عند النبي ﷺ أو عند غيره من المسلمين بعد موته.

وسماع القرآن والتعرف على مباديء الإسلام وحقائقه ومحاسنه، أصبح أمرًا ميسورًا

---

(١) «تفسير الكشاف» (٢/ ٤٢٨).

ومبذولًا في وسائل الإعلام المختلفة، بكثير من لغات العالم، فالحجة قائمة على كل من بلغتْه الدعوة، وهو في حكم المستجير الذي عنتْه الآية.

ومعنى ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ اتركه حتى يبلغ مكانه الآمن، ولا تؤاخذ من استجاروا بك في مدة استجارتهم بما سبق من أذاهم؛ لأنهم قوم لا يعلمون ما يحتوي عليه القرآن من الإرشاد والهدى.

الرسل والسفراء لا يقتلون: وكان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاء في سفارة، أو قدم إليه مسترشدًا، كما جاء يوم الحديبية جماعة من رسل قريش فأمَّنَهم النبي ﷺ وأمَّن رُسُل مسيلمة الكذاب، أما تأمين رسل قريش في يوم الحديبية، فقد أمَّن النبي ﷺ عروة ابن مسعود، ومكرز بن حفص، وسُهيل بن عمرو، وغيرهم، كما أمَّن رسول مسيلمة الكذَّاب، مع أن النبي ﷺ قال له: «**أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال ﷺ لولا أن الرسل لا تُقتل لضربتُ عنقك**»[1].

ولما كان ابن مسعود أميرًا على الكوفة أرسل إلى رسول مسيلمة، وكان يقال له: ابن النواحة، فقال له ابن مسعود: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضُربت عنقه، وكان قد برز في زمان ابن مسعود يشهد لمسيلمة بالرسالة.

وكذلك أمَّن ﷺ كل من جاء من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح، أو مهادنة، أو حمْل جزية، ونحو ذلك، فإنه يُعطَى أمانًا حتى يرجع إلى وطنه بعد استئذان الحاكم المسلم.

وقد حذَّر الإسلام أتباعه من الغدْر، وأوجب عليهم حماية المستأمن كما جاء في الحديث عن عمرو بن الحَمِق قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**من أمِن رجلًا على نفسه فقتله، أُعطى لواء الغدر يوم القيامة**»[2].

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٨٧) برقم (١٥٩٨٩) حديث صحيح بطرقه وشاهده وأبو داود (٢٧٦١) مختصرًا، والحاكم (٢/ ١٤٢) والطحاوي في شرح المشكل (٢٨٦٣).

(٢) مسند أحمد (٢١٩٤٦)، بإسناد صحيح وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٠١) وابن ماجه (٢٦٨٨) والبزار في مسنده (٢٣٠٦) والنسائي في الكبرى (٨٧٣٩).

وعنه أيضًا «**أيما مؤمن أَمِن مؤمنًا على دمه فقتله فأنا من القاتل بريء**»[١]

الْحِكْمَةُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

٧- ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه الحكمة في البراءة من المشركين، وإنظارهم أربعة أشهر، وقد بدأت الآية بالاستفهام الإنكاري، واستبعاد أن يكون للمشركين عهد يُعتدُّ به عند الله ورسوله، فهم لم يؤمنوا، ولم يَسْلَم الرسول والمؤمنون من أذاهم، ولم ينتهوا عن محاربة الحق ونصر الباطل، ولم يكفوا عن الفساد في الأرض، أفلا يستحق هؤلاء أن يتبرأ منهم الله ورسوله، وألا يكون لهم عهد ولا ميثاق؟.

وهكذا: فقد استمر صلح المسلمين مع المشركين من شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة إلى أن نقضَتْ قريش عهدها بإعانة بني بكر على خزاعة فقتلوهم في الحرم، وكان ذلك سببًا لفتح مكة، وقد ذكر الله سبحانه الأسباب الموجبة لنقض عهود المشركين.
فلا ينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، فهم ليسوا أهلا لحفظ العهود، لكن من عاهدتم من المشركين عند الحرم ولم ينقضوا عهدهم كقبائل بني بكر، فكونوا أوفياء لهم، فمن استقام لكم على عهده فاستقيموا له على الوفاء.
وهو معنى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: في صلح الحديبية وما بعده، وهذا استثناء ذكِرَ مرَّتين: مرة في الآية الرابعة، وهو استثناء من عموم البراءة، ومرة هنا بمناسبة استنكار مبدأ المعاهدة مع المشركين، وذُكِر في المرة الأولى شَرْطُ استقامتهم في الماضي، وفي المرة الثانية شَرْطُ استقامتهم في المستقبل.

وكان بنو ضمرة، وبنو خزيمة قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، ولم يستقيموا على عهدهم، فأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم الرسول أربعة أشهر بعد الفتح،

---

(١) مسند أحمد (٢١٩٤٧) بإسناد حسن من أجل السُّدِّي وباقي رجال الإسناد ثقات، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٢٢) والبزار في مسنده (٢٣٠٨) والطيالسي (١٢٨٥) وابن حبان (٥٩٨٢) والطحاوي في المشكل (٢٠٣).

أسلموا بعدها ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ﴾ أي: فإن استقاموا لكم، وحفظوا عهودكم ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ واحفظوا عهودهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ لربهم، الحافظين للعهود والمواثيق.

العَهْدُ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عَجْزٍ وَضَعْفٍ

٨- ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾

أي كيف يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق والحال أنهم إن كانوا أقوى منكم لا يرحموكم ولا يراعوا فيكم عهدا ولا قرابة بل يسومونكم سوء العذاب، فلا تغترُّوا بما يعاملوكم به وقت الخوف منكم، فإنهم أعداء وليس عندهم دين ولا مروءة.

وهكذا يبيِّن سبحانه أن غير المسلمين لا يعاهدونكم إلا في حالة عجزهم وضعفهم، فإن ظهروا عليكم فعلوا بكم الأفاعيل، وهذا شأن المشركين أن يلتزموا بالعهود ما دامت الغلبة لغيرهم، فإذا شعروا بالقوة لم يراعوا لغيرهم عهدًا ولا قرابة، فكيف يُصان لهم عهد، وهم إن يتمكنوا منكم ويظفروا بكم لا يراعوا فيكم لا يمينًا ولا قرابة ولا رَحِمًا ولا عهدًا ولا ذمة؟

﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ **الإلُّ**: هو اليمين والحِلْف والقرابة، وقيل: الإل: بمعنى الله، أي: لا يرقبون الله.

والذمة: العهد، فلا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم؛ فإنهم يقولون لكم كلامًا بألسنتهم؛ لترضَوْا عنهم، ولكن قلوبهم غير ذلك ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بالكلام الجميل المعسول، إن كان لكم الغلبة عليهم أظهروا بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ تمتنع من الإذعان والقبول والتصديق ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ متمردون على الإسلام، ناقضون للعهد، عداوتهم بالغة، خارجون عن طاعة الله. قال تعالى:

٩- ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩﴾

أي أن هؤلاء القوم قد اختاروا حظوظ الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، فصدّوا أنفسهم

وصدوا غيرهم عن طريق الهدى والنور.

ورد أن أبا سفيان جمع حلفاءه على طعام، ودعاهم إلى نقض عهدهم مع الرسول ﷺ فأجابوه، وقد وصف الله المشركين بما وصف به أهل الكتاب في أوائل سورة البقرة، بأنهم اشتروا الدنيا بالآخرة، فهم قد نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين الرسول ﷺ بسبب أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان، فاستبدلوا بالقرآن والإيمان عرَضًا قليلًا من متاع الدنيا هو هذه الأكلة، وكانوا بهذا سببًا في منع الراغبين في الإسلام عن الدخول فيه، وقد قبَّح الله فعلهم، وذم صنيعهم.

ولم يصف الله المشركين بهذا الوصف في آية أخرى نزلت بعدها؛ لأنهم دخلوا بعد ذلك في دين الله أفواجًا عام الوفود وما بعده، وكان هذا آخر عهدهم بالشرك.

والآية عامة في كل مشرك أعرض عن الإسلام لسبب أو لآخر، أو منَع غيره من الدخول فيه، كهؤلاء القوم الذين اشتروا الكفر بالإيمان، وكل من كان على شاكلتهم، ممّن اشتروا بآيات الله عرضًا من أعراض الدنيا فضلوا عن طريق الهدى، وصدوا غيرهم فضلُّوا وأضَلُّوا، وهؤلاء من شأنهم أنهم لا يحفظون الحقوق الإنسانية العامة أو الخاصة. قال تعالى يصف حال المشركين في كل زمان ومكان:

١٠- ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

إن هؤلاء المشركين حرب على الإسلام وأهله، فشأنهم العدوان والظلم، وهم لا يقيمون وزنًا لقرابة مؤمن ولا عهده، فلا تُبقوا عليهم، كما أنهم لا يبقون عليكم إذا ظفروا بكم.

وهذه الآية أعم من الآية السابقة التي قيدت عدوان المشركين بغلبتهم للمسلمين، أما هذه فبينت أن عداوتهم لكل مؤمن قائمة، متى وَجدوا الفرصة سانحة للغدر به والنيل منه.

والآية تقرر حقيقة واقعة، فهذا شأن المشركين مع رسل الله جميعًا: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن أمثلة ما بعد ذلك ما فعله التتار بالمسلمين سِيَّمَا بمسلمي بغداد سنة ٦٥٦هـ حيث قتلوا منهم ثمان مئة ألف أو أكثر[١].

(١) يُنظَر: «البداية والنهاية» لابن كثير.

وما فعله الوثنيون الهنود مع مسلمي باكستان أبشع مما فعله التتار، وما فعلته الشيوعية في روسيا والصين ويوغوسلافيا وغيرها من إبادة ملايين المسلمين.

فضلًا عما يحدث حاليًا في فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وغيرها.

بِمَاذَا تَتَحَقَّقُ أُخُوَّةُ الدِّينِ؟

١١- ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

ثم ذكر الله سبحانه لغير المسلمين **خيارين**:

الخيار الأول: أن يتوبوا ويدخلوا في الإسلام، وبهذا يكونوا إخوة للمسلمين إذا هم فتحوا عقولهم للحق، واستجابوا لله والرسول، فإن أقلعوا عن الشرك، ووحدوا الله، وأقاموا شرائعه، وأوَّلها إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فهم إخوانكم في الإسلام، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

واكتفى سبحانه بذكر الصلاة والزكاة عن بقية العبادات؛ لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية، واعتمد أبو بكر ذلك فقاتل مانعي الزكاة بمقتضى هذه الآية وأمثالها.

فالتوبة من الشرك يترتب عليها الأخوَّة في الدين، أما التوبة بعد الأمر بقتالهم والترصد لهم فيكون بإخلاء سبيلهم، وعدم التعرض لهم بسوء، كما في الآية الخامسة، وتوبتهم في الآيتين توجب أمنهم وأُخُوَّتهم:

١- عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته، لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مات والله عنه راضٍ**» قال أنس: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلَّغوه عن ربهم، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل، يقول الله: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ قال: خلع الأوثان وعبادتها، وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1].

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٧٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٣٣١) وصححه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٢١٢٢، ٢١٢٣) وحسنه محققه من طريق أبي جعفر الرازي، وهو في «تفسير الطبري» (١٤/ ١٣٥) بتصرف في كلام أنس.

٢- وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: لما تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر، وكفر مَن كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: **«أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ﷻ»** فقال أبو بكر: والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها -وفي رواية: عقالًا- كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلْتهم على منعها، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق[١].

٣- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من صلَّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، ذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله فلا تخفروا الله في ذمته»**[٢].

قال تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ نبيِّنها ونوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وينتفعون بها، فالغرض هو هدايتهم والانتهاء عما هم فيه من الشرك والكفر، وردّ عدوانهم، وحماية الدعوة من شرورهم.

الْخِيَارُ الآخَر: نَقْضُ الْعَهْدِ وَالطَّعْنُ فِي الدِّينِ

١٢- ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ[٣] ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ[٤] لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

وكما أمر الله المسلمين أن يوَفوا لمن وفى لهم، ويستقيموا لمن استقام لهم، أمرهم هنا أن يقاتلوا من نقض عهودهم وسخروا من دينهم، من قادة الكفر والطغيان، في كل زمان ومكان، فهم خائنون لا عهد لهم ولا ذمة، لعلهم ينتهون عن الطعن في دينكم، وربما يدخلون فيه:

---

(١) «صحيح البخاري» برقمي (٦٩٢٤، ٦٩٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠) ويُنظَر: (١٣٩٩، ١٤٠٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٩١) ويُنظَر: الحديثين (٣٩٢، ٣٩٣).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بَيْنَ بَيْنَ، وبإبدالها ياء خالصة مع عدم الإدخال، وقرأ هشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، وقرأ الباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٤) قرأ ابن عامر بكسر الهمزة من (لا أيمان) على أنها مصدر آمن، وقرأ الباقون بفتحها على أنها جمع يمين.

١- قال ابن عباس ﷺ: نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد، وهم الذين همُّوا بإخراج الرسول[١].

٢- وأخرج عبد الرزاق بسند حسن عن قتادة أن أئمة الكفر هم: أبو سفيان بن حرب، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل عمرو بن هشام، وسهيل بن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله، وهمُّوا بإخراج الرسول من مكة[٢].

٣- وفي حديث حذيفة ﷺ: أنه لم يبق من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد بَرْده[٣].

٤- قال ابن حجر في معنى الآية: إن قتالهم لم يقع، لعدم وقوع الشرط؛ لأن لفظ الآية ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ فلمَّا لم يقع منهم نكثٌ ولا طعن لم يُقاتَلوا[٤].

فالخيار الآخر للمشركين: ألا يتوبوا من شركهم، ولا يدخلوا في الإسلام، فإن أصروا على عداوتهم، ونقضوا عهودهم معكم، وعابوا دينكم وانتقصوه فقاتلوهم ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ نقضوا عهودهم الموثقة ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ الذي التزموا به ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ فعابوا الإسلام بالقدح والذم، وظلوا كما هم ناقضين للعهود، وحالوا دون وصول الدعوة إلى غيرهم ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، سِيَّمَا الرؤساء، والصناديد، والكبراء منهم ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ ولا عهود يوفون بها ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ عن الشرك ويسلمون، ويكفُّون عن الإجرام، وينتهون عن الطعن في الدين.

مُوجِبَاتُ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ

١٣- ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/ ٦٢) و«زاد المسير» (٣/ ٤٠٤).

(٢) عبد الرزاق (١/ ٢٦٨) والطبري (١١/ ٢٦٤) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٦١).

(٣) يُنظَر: البخاري (٤٦٥٨) وابن أبي شيبة (١٥/ ١٠٨).

(٤) «فتح الباري» (٨/ ٣٢٣).

في هذه الآية يقرر الله تعالى أفعال الكفرة، ويحذر من التراخي في قتالهم، وعدم الهوادة في ذلك، بعد أن أثبت لهم **ثماني صفات** ومنها:

١- نقضهم للعهود. ٢- ومحاولة الظفر بكم. ٣- وفسقهم.

٤- والمتاجرة بالدين. ٥- وأنهم أهل غدر وخيانة. ٦- أنهم لا ذمة لهم ولا عهد ولا أيمان.

وبعد أن استثنى سبحانه منهم مَنْ وفَّى بعهده، ولم يتآمر علينا أمر بقتلهم وأسرهم وحصارهم وبيّن **الأسباب الثلاثة** الموجبة لقتالهم:

السبب الأول: أنهم نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ بعد عامين اثنين من إبرام الاتفاق، في أول فرصة سنحت لهم، وكانت مدة العهد عشر سنوات، وكان ذلك في صلح الحديبية بمساعدة بني بكر عليكم، فنكثوا أيمانهم، ونقضوا العهود، وهذه خطيئة كبرى في حد ذاتها، وهذا معنى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾.

السبب الثاني: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من المدينة، أما إخراج الرسول ﷺ من مكة والعدول عنه إلى قتله فقد جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]

وقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣].

وقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠].

فهذه الآيات صرحت بأن الكفار قاموا بإخراج النبي ﷺ بالفعل، وهذا بالنسبة لما حدث في مكة.

أما هذه الآية التي معنا فإنها تقول: إن الكفار كذلك هموا بإخراج الرسول، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، فقد أضمروا ذلك في أنفسهم، وأرادوا نفي النبي ﷺ عن المدينة فنبه الله المسلمين إلى ذلك.

والهمّ مرتبة تسبق العزم، وذلك لأن مراتب القصد خمس: الهاجس والخاطر وحديث النفس، والهم والعزم، والأخير هو المعول عليه في الثواب والعقاب.

وقد همُّوا بإخراجه ﷺ من المدينة حين غزوة أحد، وحين غزوة الأحزاب، فكفاه الله ما همُّوا به(١).

ولعل الآية تشير إلى ما حدث في مكة وما حدث في المدينة معًا، وقد حدث هذا أيضًا ممن نكثوا أيمانهم سنة ثمان يوم فتح مكة حين همُّوا بنصرة أهل مكة والغدر بالنبي ﷺ وأصحابه، ولكن الله صرفهم عن ذلك وفضح دخائلهم، وأمر نبيه بقتالهم ونبذ عهودهم سنة تسع، والمقصود بذلك تهديدهم على ما أضمروه في أنفسهم، وأنه لا تسامح معهم بعد أن همُّوا بغزو المدينة وإخراج النبي ﷺ منها.

السبب الثالث: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بدؤوكم بالقتال في بدر، وقاتلوا حلفاءكم، كخزاعة الذين غدر بهم بنو بكر بمساعدة قريش، وبدؤوكم قبل ذلك بإخراج الرسول من مكة، وبدؤوكم أيضا حين هموا بإخراجه من المدينة.

وكل سبب من هذه الثلاثة كافٍ لقتالهم، فلا ترددوا في ذلك، ولا تخافوهم ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ بل خافوا الله وحده، ولا تخافوا على أنفسكم من قتالهم، فالله مؤيدكم وناصركم عليهم، وهذا زيادة ومبالغة في الحث على قتالهم، فإن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده فلا تخشوا إلا الله، بعد أن ثبت لكم ثماني صفات ذكرتْها السورة إلى هذه الآية، وهي:

أ -نقْضهم الدائم للعهود ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [٧].

ب -محاولة الظفر بكم في أي زمان ومكان ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ [٨].

ج -إظهار ما لا يبطنون إرضاء لكم ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [٨].

د -خروجهم على طاعة الله ورسوله ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٨].

هـ -بيعهم الآخرة بالدنيا ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [٩].

و -لا ذمة لهم ولا عهد ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [١٠].

---

(١) يرى هذا ابن عاشور في تفسيره للآية، وأن الهم بإخراج النبي ﷺ من مكة أمر قد مضى وانتهى.

ن -هم أهل عدوان وغدر وخيانة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [١٠].

ي -﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ [١٢] فهم ينكثونها، ولا يوفونها .

فكانت جملة ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ تحذيرًا من التراخي في مبادرتهم بالقتال، إلى جوار الأسباب الثلاثة التي ذكرتْها هذه الآية.

سِتُّ فَوَائِدَ لِقَتَالِ نَاكِثِي الْعَهْدِ، الطَّاعِنِينَ فِي الْإِسْلَامِ

١٤، ١٥- ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ[١] وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

ثم أمر سبحانه بقتال المشركين، وأوجب ذلك على المسلمين، وأمرهم به أمرًا صريحًا قاطعًا، ورتب على قتالهم **ستة أنواع من الفوائد** فيها بيان لحكمة قتالهم ومشروعية جهادهم:

الفائدة الأولى: تعذيب المشركين بأيدي المسلمين بالقتل، والأسر، وأخذ غنائمهم، وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين، ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

الفائدة الثانية: خِزْي المشركين وذُلهم، بنصركم عليهم، وهو أمر يستلزم عزة المسلمين ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ بالأسر، والقتل، والحصار.

الفائدة الثالثة: نصر المسلمين، وهذا وعد من الله تعالى وبشارة منه سبحانه، وهو كرامة لهم يستلزم هزيمة المشركين وهي إهانة لهم ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فيمنحكم الظفر والغلبة عليهم.

الفائدة الرابعة: شفاء صدور المؤمنين، وزوال كَرْبها وغَمِّها لأن المشركين محاربون لله والرسول، ساعون في إطفاء نور الله، ويكون ذلك بالنصر على المشركين، وهو يستلزم الحرج في صدر العدو ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ بإعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وخزي الكافرين.

الفائدة الخامسة: إذهاب غيظ قلوب المؤمنين بقتل الكفار، فإن في قلوب المؤمنين من الحنق والغضب ما يحملهم على قتل وقتال المشركين، وهو يستلزم غيظ قلوب الأعداء على المؤمنين ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ومن محبة الله للمؤمنين شفاء صدورهم وذهاب غيظهم.

---

(١) ضم رويس الهاء من (ويخزهم) وكسرها غيره.

الفائدة السادسة: إن جهاد الكفار توبة لكم أيها المسلمون، وكمال لإيمانكم ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وقد أنجز الله وعده بإظهار دينه، وإعلاء كلمته.

وفي جهاد الكفار حث لهم على التوبة، فقد يوفقهم الله للدخول في الإسلام، ويُكَرِّه لهم الكفر والفسوق والعصيان.

من أجل ذلك كله فإن الله سبحانه يوجب علينا قتال المشركين.

فيا معشر المؤمنين قاتلوا أعداء الله يعذبْهم ﷻ بأيديكم، ويذلَّهم بالهزيمة والخزي، وينصرْكم عليهم، ويعلِ كلمته، ويَشْفِ بهزيمتهم صدوركم، التي طالما لَحِق بها الحُزن والغم من كيد المشركين، ويُذهبْ عن قلوب المؤمنين الغيظ، ومن تاب من هؤلاء المعاندين فإن الله يتوب على من يشاء، والله عليم بصدق توبة التائب، حكيم في تدبيره وصنعه، ووضْع تشريعاته لعباده[1].

وهو سبحانه الحاكم العادل، لا يظلم مثقال ذرة، بل يحاسب الخلق ويجازيهم على أقوالهم وأعمالهم في الدنيا والآخرة.

فانتصار المؤمنين قد يردُّ بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى، وهذا القتال والنصر يُسفر عن نتائج جيدة، كما أسفر عن إسلام أبي سفيان، وعكرمة، وسهيل بن عمرو، فقد تاب الله عليهم بعد كُفر، فأسلموا يوم الفتح وبعده.

لَا تَجُوزُ البِطَانَةُ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِينَ

١٦- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

وهذا الجهاد اختبار وابتلاء للذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يجعلونهم وليجة، أي: بطانة وموضع سر، كالمسؤول الذي يتخذ له صديقًا أو وليًّا في العمل؛ من غير المسلمين كالسكرتير، والخبير،

(١) «التفسير الميسر» للآية، نخبة من العلماء.

والمستشار، ونحو ذلك؛ كي يحفظ أسرار المسلمين وأحوالهم، ويطلع عليها، وذلك على المستوى العام أو الخاص، والخطاب للمسلمين جميعًا على اختلاف مراتبهم.

والابتلاء سُنَّة من سنن الله تعالى، فلا تظنوا - أيها المؤمنون - في كل زمان ومكان أن يترككم الله دون أن تُؤمروا بقتال العدو، وتُختبروا في جهادكم، ليُظهر الله المخلصين في جهاد العدو، وهم الذين لم يتخذوا بطانة من الكافرين يوادونهم، في ظل علاقات متميزة دون المؤمنين.

والله تعالى خبير بجميع أعمالكم ومجازيكم عليها، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت].

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران].

فكيف تظنون أن تتركوا دون امتحان ولا ابتلاء، حتى يُظهر الله الصادق منكم في دينه من الكاذب، ويُظهر الطيب من الخبيث، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

والآية تَنْهَى المؤمنين عن موالاة غير المسلمين، والإفشاء إليهم بأسرار المسلمين، والاعتماد عليهم دون المؤمنين؛ لأن الوليجة من الولوج، وهو مَنْ يختصه الإنسان بدخيلة أمره وأسرارها من دون الناس، **والوليجة** أيضًا: الرجل يكون في القوم وليس منهم، والله خبير بكل ما تعملونه لا يخفى عليه شيء.

غَيْرُ المُسْلِمِينَ لَا يَعْمُرُونَ بُيُوتَ اللَّهِ

١٧- ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ[١] ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٧﴾

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (مسجد الله) بالتوحيد، على أن المراد به: المسجد الحرام، وقرأ الباقون (مساجد الله) بالجمع، على أن المراد: جميع المساجد ويدخل فيها المسجد الحرام؛ لأنه قبلة المساجد، وأجمعوا على قراءة (إنما يعمر مساجد الله) بالجمع.

أي لا يصح ولا يجوز لغير المسلمين أن يعمروا مساجد الله بالصلاة وأنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر، بشهادة حالهم وفِطَرهم، وعِلمُ كثير منهم أنهم على باطل، فكيف يزعمون أنهم عُمّار بيوت الله، وأصل قبول الأعمال وهو الإيمان غير موجود فيهم، أما بالنسبة للعمارة الحسية فإن في المسلمين الكفاية في كل ما يتعلق بالمساجد وليس هناك من ضرورة تتطلب دخولهم فيها.

وعمارة بيوت الله تُطلق على **معنيين**:

المعنى الأول: بناؤها وتشييدها وترميمها، وفرشُها ونظافتها والقيام على شؤونها، وهذا جانب هام في الإسلام، وقد قال عليه الصلاة والسلام كما في حديث ابن عباس ﷺ:

«من بنى مسجدًا ولو كمفحص قطاة لبيضها، بنى الله له بيتًا في الجنة»[1] **ومفحص قطاة**، أي: كبيت عصفور صغير.

وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من بنى لله مسجدًا يذكر فيه اسم الله تعالى بنى الله له بيتًا في الجنة»**[2]

وبيَّن النبي ﷺ أن الله سبحانه يثيب العبد على القذاة يخرجها من المسجد، وكرَّم النبي ﷺ امرأة سوداء كانت تنظف المسجد، وتقوم على خدمته، فماتت دون أن يَعْلَم بوفاتها، فقال لأصحابه: **«هلَّا آذنتموني حين تُوفيت»**، فذهب عليه الصلاة والسلام وصلَّى عليها تكريمًا لها بعد موتها[3].

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن هذه المساجد لا تصلح لشيء**

---

(١) من حديث ابن عباس عند ابن أبي شيبة (١/ ٣١٠) و«المسند» (٢١٥٧) والطيالسي (٢٦١٧) وابن حبان (٦١) والبزار في «كشف الأستار» (٤٠٢) قال محققو «المسند»: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف جابر الجعفي، وجاء عن جابر بن عبد الله عند ابن ماجه (٧٣٨) وصححه ابن خزيمة (١٢٩٢).

(٢) «المسند» (١٢٦) وابن ماجه (٧٥٨، ٧٣٥) وابن أبي شيبة (١/ ٣١٠) قال محققو «المسند»: حديث صحيح، وأخرجه البزار (٣٠٤) وابن حبان (١٦٠٨) وأبو يعلى (٢٥٣).

(٣) سنن ابن ماجه (١/ ٤٨٩) برقم (١٥٢٩) قال الألباني في صحيح ابن ماجه: حسن صحيح (١٢٤٠) وهو عن عامر بن ربيعة ﷺ عن أبيه، وصححه أيضًا في إرواء الغليل (٣/ ١٨٥).

من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله ﷻ، والصلاة، وقراءة القرآن»[١].

والكافر يُمنع من كل ذلك، ولو أوصى ببناء مسجد لم تُقبَل وصيته، ولا يجوز للكافر دخول المسجد إلا بإذن المسلم، لمصلحة راجحة، بدليل أن النبي ﷺ شدَّ (ثمامة بن أثال) إلى سارية من سواري المسجد وهو كافر[٢].

والمعنى الآخر لعمارة بيوت الله سبحانه: دخول المساجد للتعبد فيها بالصلاة، والاعتكاف، وحِلَق الذكر، وتلاوة القرآن، والقيام على شؤون المسلمين، ونحو ذلك، وهذا المعنى: هو المطلوب الأول للمساجد، ومن أجله كان الغرض الأساس من قيام بيوت الله.

والمسلم إذا رآه الناس يتردد على بيوت الله في صباحه ومسائه خمس مرات في اليوم، فهذه شهادة له بالإيمان، وإذا لم يُرَ المسلم يدخل المسجد ويخرج منه فالله أعلم بحقيقة حاله، وهو في ظاهر الأمر من غير المسلمين بالنسبة للناس.

وقد كان المشركون في الجاهلية يتولّون عمارة المسجد الحرام، ويتولّون القيام على شؤونه، مثل: سقاية الحجيج، وخدمة البيت، والحراسة، والنظافة، وغير ذلك.

ولما أُسر بعض المشركين في غزوة بدر عيَّرهم بعض المسلمين بالشرك.

ومن ذلك ما قاله العباس لِعَلِيٍّ رضي الله عن الجميع حينما عيَّره بشِرْكه الذي كان في جاهليته، فقال له: تذكرون مساوئنا وتتركون محاسننا، قال له: وهل لكم من محاسن؟ قال: نعم، نحن أفضل منكم، نحن نعمِّر المسجد الحرام، ونحجُب الكعبة، ونَسْقي الحجيج، ونفكُّ العاني، يعني: الأسير، فنزلت هذه الآية[٣] ليبيِّن جلَّ شأنه أن هذا الأمر قد انتهى، وأن القيام على شؤون المسجد الحرام بنظافته وخدمته وتَوْلية أمره من قِبَلِ المشركين قد انتهى أجلُه.

ولا يجوز لغير المسلم بعد نزول سورة براءة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢١٩، ٢٢١، ٦٠٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٥).

(٢) حاشية الجمل على «الجلالين» (٢/ ٣٧٠) بتصرف.

(٣) «تفسير الطبري» (١٠/ ٦٢) و«زاد المسير» (٣/ ٤٠٤) وحاشية الجمل على «الجلالين» (٢/ ١٧٠).

ﱡﭐﭐﭐﭐﭐﭐﭐ ﱠ ﭐ﴿الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ التوبة: ٢٨] أن يدخُل المسجد الحرام، ولا غيره من بيوت الله، فضلًا عن أن يقوم على خدمة الكعبة، وسقاية الحجيج وغير ذلك، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أي: لا ينبغي، ولا يصح لهم ذلك في المستقبل، بغض النظر عما سبق قبل ذلك من عمارتهم لها.

والمراد في الآية: جميع المساجد، ويدخل فيها المسجد الحرام؛ دخولًا أوَّليًّا، لأنه قبلة هذه المساجد، ولا يستقيم لغير المسلمين أن يجمعوا بين أمرين متنافييْن هما: عمارة المساجد، والكفر بالله ورسوله.

وفي الآية رد على كبار المشركين الذين افتخروا بخدمة المسجد الحرام والقيام على شؤونه، فوجب على المسلمين منْعهم منه؛ لأنهم ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ أي: باعترافهم، وتكذيبهم بالقرآن ونبيِّ الإسلام، فهم يشهدون على أنفسهم قولًا وعملًا أنهم كفار، فإذا سألت اليهوديَّ عن دينه؟ سيقول: إنه يهودي، وإذا سألت النصراني عن دينه؟ سيقول: إنه نصراني، وإذا سألت الوثني عن دينه؟ سيقول: إنه مشرك، وإذا سألت الصابئ عن دينه؟ سيقول: إنه صابئ، وهكذا، كل منهم يشهد على نفسه بملته(١).

فالمراد بعمارة المساجد: ما يشمل إقامة العبادة فيها، وبناءها، ونظافتها، وصيانتها، واحترامها، وخدمتها.

ومنعُ غير المسلمين من عمارة المساجد مرتبط بالبراءة منهم، وهم غيرمؤهلين لذلك مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر، فإن هذا موجب لحرمانهم من عمارتهم لبيوت الله.

وقد كان المشركون يشهدون على أنفسهم بالكفر في الطواف، وفي التلبية بالشرك، فكانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، فكانوا يشركون بالله سبحانه في تلبيتهم، وكانوا يسجُدون للأصنام، ويتقربون بها، ويعبدونها من دون الله، فهذه شهادة منهم -بالقول وبالفعل- على أنفسهم بالكفر، والشرك والكفر هنا بمعنى واحد، وإلا فإن الكفر أعم من الشرك، فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشركًا.

---

(١) أخرج الطبري هذا المعنى بسند حسن عن السُّدِّي في تفسير الآية.

والسبب في هذا أن أعمال الكافر والمشرك من البر والخير، مُحْبَطة لا أجْرَ له عليها؛ لأن الأصل غير موجود، وهو الإيمان بالله وبالرسول، وبالحساب وبالجزاء على الأعمال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ فالعمل الصالح دون إيمان لا قيمة له، ولا وزن له، فإذا لم تصح العقيدة، لم تصح العبادة؛ لأن العبادة ترجمة للعقيدة.

وفي الآية توجيه للمؤمنين أن يمنعوا غير المسلمين من دخول المسجد الحرام، ومن دخول غيره من المساجد، فليس من شأنهم إعمار بيوت الله، وهم يعلنون كفرهم.

ومصيرهم في الآخرة هو الخلود في النار ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ وذلك لأنهم أقروا على أنفسهم بالكفر، وتكذيب القرآن، وإنكار نبوة محمد ﷺ وكل ذلك كفر، ولذلك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِعُمَّارِ بُيُوتِ اللَّهِ

١٨- ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾

بيَّن سبحانه مَنْ هُمْ أهل عمارة بيوت الله والاعتناء بها، ومن يحق لهم أن يعمُروا بيوت الله العمارة الحسية، من البناء والتشييد وغير ذلك، ومَنْ يعمُرونه بالعمارة المعنوية بالصلاة فيه وبالعبادة والطاعة، فذكر سبحانه في هذه الآية **خمسة أوصاف** ينبغي توافرها فيمن يعمرون مساجد الله:

الوصف الأول لِعُمَّارِ المساجد: الإيمان بالله تعالى، والتوجه إليه وحده بالعبادة، ويدخل فيه الإيمان برسول الله محمد ﷺ؛ فالكافر ليس له أن يعمر مساجد الله تعالى.

الوصف الثاني: الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر، وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار.

الوصف الثالث: إقامة الصلاة وأداؤها في أوقاتها، وهي من لوازم عمارة المساجد، وأخص أعمالها.

الوصف الرابع: إيتاء الزكاة، فلا يشتغل بعمارة المساجد إلا من كان مؤديًا للزكاة؛ لأن

الزكاة ركن من أركان الإسلام، وواجب عيْني على كل مسلم بشروطها، وعمارة المساجد العمارة الحسية -كالبناء والنظافة- واجب كفائي.

الوصف الخامس: الإخلاص في العبادة بأن تخلو من الشرك والرياء، وأن تكون موافقة لهدْي رسول الله ﷺ مع خشية الله تعالى وحده.

هذه أوصاف خمسة إذا تحققت في عبد تحققت له الهداية، فإن (عسى) من جانب الله سبحانه تفيد الوجوب تفضلًا من الله سبحانه ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بالأوصاف السابقة ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إنهم المهتدون حقًّا، وهم المفلحون، المستحقون لدخول الجنة.

ومن **الأحاديث** الواردة في عمارة المساجد ببنائها والطاعة فيها ما جاء:

١- في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلًا كلما غدا أو راح»**[(١)].

٢- وفي الصحيحين عن عثمان بن عفان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من بنى لله مسجدًا يبتغي به وجه الله تعالى بنى الله له مثله في الجنة»**[(٢)].

٣- وعن أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان: يا أخي، لِيكُن المسجد بيتك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«المسجد بيت كل تقيٍّ، وقد ضمن الله لمن كانت المساجد بيوتهم، بالروح والراحة والجواز على الصراط إلى رضوان الرب»**[(٣)].

٤- وعن سلمان الفارسي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من توضأ في بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر لله، وحق على المزور أن يكرم الزائر»**[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٢) و«صحيح مسلم» برقم (٦٦٩) وابن أبي شيبة (١٣/ ٣١٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (٥٣٣).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (٧١٦) و«صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٠) وابن أبي شيبة (٣/ ٣١٧) والبزار (٢٥٤٦) والطبراني (٦١٤٣) والبيهقي (٢٩٥٠) وهو حديث حسن.

(٤) «السلسلة الصحيحة» (١١٦٩) وهو عند الطبراني في «الكبير» (٦١٣٩، ٦١٤٥) وقال الهيثمي: أحد إسناديه رجاله رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٢/ ٣١).

٥- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بَشِّر المشَّائين في ظُلم الليالي إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»[١].

وفي تفسير ابن عباس للآية: من وحَّد الله، وآمن باليوم الآخر، وأقر بما أنزل الله، وأقام الصلوات الخمس، ولم يعبد إلا الله، فأولئك هم المفلحون، كقوله تعالى لنبيه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] أي: سيبعثك مقامًا محمودًا وهي الشفاعة، فكل (عسى) في القرآن واجبة[٢].

وبمجموع هذه الصفات يخرج من آمن بالله واليوم الآخر، ولكنه لا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكاة، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بمحمد ﷺ.

أَعْظَمُ النَّاسِ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ

١٩- ﴿۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ[٣] ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ[٣] ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾

اختلف بعض المسلمين وبعض المشركين في تفضيل عمارة المسجد الحرام بالبناء والنظافة وسقاية الحجيج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، فاخبر سبحانه أن الإيمان والجهاد أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، لأن الإيمان أصل الدين وبه تقبل الأعمال، وبالجهاد يُحفظ الدين وتتسع رفعته.

وكان بعض المسلمين قد اختلف مع بعض في هذا التفضيل، كما جاء في صحيح مسلم عن النعمان بن بشير ﷺ أن ثلاثة من المسلمين اختلفوا، وارتفعت أصواتهم عند منبر رسول الله ﷺ في يوم الجمعة، كل منهم يذكر أفضل عمل يؤديه بعد الإسلام.

قال أحدهم: ما أبالي ألَّا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أُعمِّر المسجد الحرام.

وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر رضي الله، وقال: لا

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٦٣٣) والبيهقي في «السنن» (٦٣١٣) وفي «الشعب» (٢٩٠٢).

(٢) أخرجه الطبري بإسناد حسن عن علي بن أبي طلحة (١٠/ ٩٤).

(٣) قرأ ابن وردان بخلف عنه (سُقَاة الحج وعَمَرَةَ)، وقرأ الباقون (سقاية الحاج وعمارة) ومعهم ابن وردان في الوجه الآخر.

ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيتُه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله الآية ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾[1].

أما بالنسبة لاختلاف بعض المسلمين مع بعض المشركين في هذا الشأن، فقد قال العباس لما أُسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالهجرة والجهاد، فقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، فأخبر الله تعالى أن عمارتهم للمسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله تعالى، وأن الإيمان والجهاد مع النية خير مما هم عليه[2].

وجاء عن محمد بن كعب القرظي: افتخر طلحة بن أبي شيبة بأن مفاتيح الكعبة بيده، وافتخر العباس بأنه صاحب السقاية، وقال عليٌّ: ما أدري ما تقولون؟ لقد صليتُ إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله الآية[3] ولا مانع من تعدد أسباب النزول على آية واحدة.

وسقاية الحجيج كانت في بني هاشم، وكان العباس يتولاها.

قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال العباس: ما أراني إلا أترك السقاية، فقال النبي ﷺ: «**أقيموا عليها فإنها خير لكم**»[4].

والمراد بالسقاية: ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان العباس يتولى إدارة هذا العمل في الجاهلية والإسلام.

ويراد بالسقاية أيضًا: إعطاء الناس الماء، وسقايتهم من ماء زمزم.

---

(١) يُنظَر: النص في «صحيح مسلم» (١٣/ ٢٦) برقم (١٨٧٩) والطبري (١٤/ ١٦٩) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٦٧) وابن حبان (٤٥٩١) والطبراني في «الأوسط» (٤٢٣) والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٨) و«تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٤٣) و«تفسير الألوسي» (١٠/ ٦٠) وورد أسباب أخرى للنزول حول هذا المعنى.

(٢) فيما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، «تفسير الطبري» (١١/ ٣٧٨) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٦٨).

(٣) «تفسير الطبري» (١٤/ ١٧١) وقد أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر» (٧/ ٢٧٢).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٦).

وكان العباس وعثمان بن طلحة قد أرادا ترك الهجرة للقيام بسقاية الحاج وحجابة البيت، زعمًا منهما أن ذلك أفضل من الهجرة والجهاد.

المراد بعمارة البيت الحرام: ومن عمارة المسجد الحرام: حفظُه من وقوع الظلم فيه، أو أن يقال فيه كلام غير مناسب، وكان هذا الأمر أيضًا موكولًا إلى العباس ﷺ.

وقد يراد بعمارة المسجد الحرام: السدانة، وخدمة البيت خاصة، وكانت في بني عبد الدار، وكان يتولاها: عثمان بن طلحة، وشيبة بن عثمان، وهما اللذان دفع إليهما النبي ﷺ مفتاح الكعبة ثاني يوم الفتح، بعد أن طلبه العباس وعلي، وقال ﷺ لعثمان وشيبة: **«يوم وفاء وبر، خذوها خالدة تالدة لا ينازعكموها إلا ظالم»**[1].

وكان المشركون يروْن أن عمارة بيت الله، وسقاية الحجيج خير ممن آمن وجاهد، ويفتخرون على الناس بذلك ويستكبرون عليهم، فقال تعالى لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون] فعاب القرآن عليهم وذمهم؛ لأنهم كانوا يسْمُرون ويهْجرون القرآن، وفضَّل الله الإيمان والجهاد على العمارة والسقاية، فليس لهما نفع مع الشرك.

فضل ماء زمزم:

وقد وردت أحاديث كثيرة في **فضل ماء زمزم** وبركته وشرف سقاية الناس، منها:

١- في البخاري وغيره عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأتِ رسول الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: **«اسقني»** قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: **«اسقني»**، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: **«اعملوا، فإنكم على عمل صالح»** ثم قال: **«لولا أن تغلبوا لنزلْتُ حتى أضع الحبل على هذه»** وأشار إلى عاتقه ﷺ[2].

٢- وفي صحيح مسلم وغيره عن بكر بن عبد الله المزني قال: كنت جالسًا مع ابن عباس عند الكعبة، فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمكم يَسْقُون العسل واللبن وأنتم

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٦)، والحديث في فتح الباري (٨/ ١٩) وشرح النووي (٩/ ٨٣) على مسلم.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٦٣٥) والحاكم (١/ ٤٧٥) والبيهقي (٥/ ١٤٧).

تسقون النبيذ؟ أمِنْ حاجة بكم، أم من بُخْل؟ فقال ابن عباس: الحمد لله، ما بنا من حاجة ولا بخل، إنما قدم رسول الله على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى، فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب، وسقى فضله أسامة، ثم قال: **«أَحْسنتم أو أجملتم، كذا فاصنعوا»** فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ[١].

والنبيذ: هو تمر ينقع في الماء صباحًا ويشرب مساء، أو ينقع مساء ويشرب صباحًا، وهذا حلال، فإن غلى وحمض وتخمَّر فهو حرام.

٣- وفي حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ماء زمزم لما شرب له»**[٢].

٤- وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام من الطُّعم، وشفاء من السُّقم»**[٣].

٥- قال أبو ذر ﷺ: قدمتُ مكة، فقال لي رسول الله ﷺ: **«متى كنت ها هنا؟»** قلت: أربع عشرة، وفي لفظ: ثلاثين، بين يوم وليلة، قال: **«من كان يطعمك؟»** قلت: ما كان لي طعام ولا شراب إلا ماء زمزم، فلم أشعُر بجوع، وزال سمن بطني، فقال ﷺ: **«إنها مباركة، إنها طعام طُعْم»** زاد الطيالسي: **«وشفاء سُقْم»**[٤].

وكان ابن عباس ﷺ إذا شرب من زمزم قال: **«اللهم إني أسالك علما نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء»**[٥].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٣١٦) و«المسند» (٢٢٠٧، ٢٦٥٥) حديث صحيح، وأخرجه الطيالسي (٢٦٩١) والطبراني (١٢٩٣٤).

(٢) «المسند» (١٤٨٤٩، ١٤٩٩٦) قال محققون: حديث محتمل للتحسين، وأخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٩٥) وصححه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجه» (٢٤٨٤) و«الإرواء» (١١٢٣) وهو في الطبراني (٨٤٩، ٣٨١٥، ٩٠٢٧) والبيهقي في الشعب (٤١٢٨).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (١٠٥٦) وهو عند الطبراني (١١١٦٧) مطولًا، قال الهيثمي: رجاله ثقات وصححه ابن حبان، «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٨٦).

(٤) ذكرتُ بعضه بالمعنى، يُنظَر: «مسند الطيالسي» (٤٥٩) وابن أبي شيبة (١٤/ ٣١٥) وانظر: «المسند» (٢١٥٢٥) ومسلم (٢٤٧٣) والبزار (٣٩٤٨).

(٥) أخرجه عبدالرزاق (٩١١٢) عن سفيان الثوري، والدار قطني (٢/ ٢٨٨) والحاكم (١/ ٤٧٣).

وقد كانت سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام من أعظم مناصب قريش في الجاهلية، فكانت السقاية لبني هاشم، وجاء الإسلام وهي للعباس.

وكانت عمارة المسجد الحرام لبني عبد الدار، وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة، وتسمى السدانة والحجابة.

مناصب أبطلها الإسلام: وكانت لقريش مناصب أخرى ثمانية أبطلها الإسلام وهي:

أ- **الديات**: أي: ديةُ عوضٍ دم القتيل خطأ أو عمدًا إذا تم الصلح عليه، وكذا الحمالات، وهي الغرامة التي يحملها قوم عن قوم، وكانت لبني تيْم، وجاء الإسلام وهي في يد أبي بكر الصديق ﷺ.

ب- **السفارة**: وهي السعي بالصلح بين الناس، والقائم بها يسمى سفيرًا، وكانت لبني عدي، وجاء الإسلام وهي في يد عمر ﷺ.

ج- **الراية**: وهي راية جيش قريش، وكانت لبني أمية، وجاء الإسلام وهي في يد أبي سفيان.

د- **الرفادة**: وهي أموال تخرجها قريش في موسم الحج، يشترون بها الجزُر والطعام والزبيب، وكانت لبني نوفل، وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن عامر.

هـ- **المَشُورة**: وهي ولاية دار الندوة، وكانت لبني أسد بن عبد العزى، وجاء الإسلام وهي بيد زيد بن زَمْعَة.

و - **الأعنَّة**: أو القبَّة، وهي قبة يضربونها ويجتمعون إليها عند تجهيز الجيش، وكانت لبني مخزوم أبناء عم قُصَيٍّ، وجاء الإسلام وهي بيد خالد بن الوليد ﷺ.

ز - **الحكومة وأموال الآلهة**: وربما تكون الأموال التي تُجمع من جزاء الصيد، وكانت لبني سهم، وجاء الإسلام وهي في يد الحارث بن قيس.

ح - **الأيسار**: وهي الأزلام التي كانوا يستقسمون بها، وكانت لبني جُمع أبناء عم قُصيٍّ، وجاء الإسلام وهي في يد صفوان بن أمية.

فهذه ثمانية مناصب، أو مآثر، كانت لقريش، أبطلها الإسلام وأبقى السقاية والسدانة؛ لقول النبي ﷺ في حجة الوداع: «**ألا إن كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدميَّ هاتين إلا**

ما كان من سقاية الحاج وسدانة البيت فإني أمضيهما لأهلهما على ما كانتا»[١].

وكان بيد قُصَيٍّ خمسة من هذه المناصب: الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء، فلما كبر قُصَيٌّ جعلها لابنه عبد الدار، وبعد موت قُصَيٍّ انفرد عبد الدار بالحجابة واللواء والندوة، وعبد مناف بالسقاية والرفادة[٢].

والآية التي نحن بصددها تخاطب قومًا مؤمنين قعد بعضهم عن الهجرة والجهاد، بحجة أن السقاية والعمارة تُجزئ عنهما، وهي تنفي التسوية بينهما، وتُبيِّن أن الهجرة والجهاد أفضل، مع التسليم بأن الجميع من أعمال البر، ولم يدَّعِ أحد من الفريقين التسوية بين العملَيْن، دون الإيمان بالله واليوم الآخر.

فكلا الفريقين مؤمن بالله واليوم الآخر، وذِكْر السقاية والعمارة في الآية من باب أن هذه الأعمال كلها ملازمة لهذا الإيمان.

فلا يجوز للمؤمن أن يشتغل بالسقاية والعمارة عن الجهاد في سبيل الله، فلا يستوي من يسقي الحجيج، ويعمُر المسجد الحرام وهو مؤمن، لا يستوي بالمؤمن المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.

ذلكم أن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وهو الدرجة العالية في الإسلام، فلا يصح التخلف عنه بسبب عمارة المسجد الحرام أو سقاية الحجيج، وكان العباس قد أسلم يوم الفتح.

وفي الحديث عن عبدالله بن عمر ﷺ: **«ولا تَرَكوا الجهاد إلا سلط الله عليهم ذُلًّا لا ينزعه عنهم حتى يرجعوا إلى دينه»**[٣].

أي: حتى يرجعوا إلى الجهاد، ففيه عزتهم، وفيه تحقيق ذاتهم وكيانهم.

---

(١) من حديث ابن عمر في «المسند» (٤٥٨٣)، فيه ابن جُدعان ضعيف، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه ابن ماجه (٢٦٢٨) وأبو يعلى (٥٦٧٥) والنسائي في الكبرى (٧٠٠٢) وغيرهم.

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (٦/ ١٤٤).

(٣) من حديث ابن عمر، يأتي تخريجه في الآية (٢٤).

ولما نفى الله المساواة بين الفريقين بيَّن سبحانه أن الكافرين ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان بالله ورسوله، وظلموا المسجد الحرام بجعله متعبدًا للأوثان، وأثبت للمؤمنين الهداية ونفاها عن غير المسلمين، وهذا معنى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: لا يقبل الله من غير المسلمين أعمالهم، ولا يوفقهم لأعمال الخير، ولا يستوي الجهاد مع غيره من الأعمال بعد الإيمان بالله.

والمعنى: أجعلتم -أيها القوم- ما تقومون به من سقْي الحجيج، وسدانة البيت وعمارته، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيل الله؟ لا تتساوى حال المؤمن وحال الكافر عند الله؛ لأن الله لا يقبل عملًا بغير الإيمان، والله سبحانه لا يوفق لأعمال الخير القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر.

ثَلَاثُ جَوَائِزَ لِمَنْ اتَّصَفَ بِأَوْصَافٍ ثَلَاثَة

٢٠- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

ثم بين سبحانه فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حق الإيمان ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ تركوا دار الكفر قاصدين دار الإسلام ﴿وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: بذلوا أنفسهم وأموالهم؛ لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ممن لم يتصف بهذه الصفات ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ برضوان الله، فقد طهَّروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان، وطهَّروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن، وكانوا عند الله أرفع قدرًا من سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام.

وقد وصفت الآية هؤلاء المؤمنين بثلاثة أوصاف هي: إيمان، وهجرة، وجهاد، والجهاد لا بد أن يكون في سبيل الله، لا في سبيل شيء آخر؛ كالشجاعة، أو العصبية، أو القومية، وهؤلاء الموصوفون بما ذكر أعظم درجة عند الله من سقاية الحجيج، ومن عمارة المسجد الحرام، والجهاد مع الإيمان أفضل أعمال البر، وذروة سنام الإسلام. قال تعالى:

٢١- ﴿يُبَشِّرُهُمْ(١) رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ(٢) وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

وقد أعد الله لمن اتصف بالأوصاف ثلاثة أشياء مقابل الأوصاف الثلاثة التي اتصفوا بها، وهي: الرحمة مقابل الإيمان، والرضوان مقابل الهجرة وترك الأوطان، والجنات مقابل الجهاد بالنفس والمال ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ على لسان نبيهم في الدنيا، وعلى لسان الملائكة عند الموت ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ واسعة عظيمة يزيل بها عنهم كل شر، ويوصِّل إليهم كل خير ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ كبير من الله تعالى لا سخط بعده، وهو أكبر نعيم أهل الجنة وأعظمه، فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا. ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ عالية، قطوفها دانية ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ والنعيم: ما تتلذذ به النفس لذة حسية ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار]

والمقيم: هو الدائم المستمر. ورضوان الله سبحانه أعظم شيء يناله العبد في الدنيا والآخرة، وقد أعد الله للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق كلهم في درجة واحدة منها لوسعتهم:

١- جاء في الحديث عن أبي سعيد: «**أن الله ﷻ بعدما يُدخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول لهم: يا أهل الجنة، هل رضيتم؟ فيقولون: كيف لا نرضى وقد باعدْتنا عن نارك، وأدخلْتنا الجنة؟! فيقول سبحانه: لكم عندي أفضل من ذلك، فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول جلَّ شأنه: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا**»(٣).

ولذلك جاء في الآية الأخرى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة] فرضوان الله تعالى أكبر من دخول الجنة، وهو أعظم ما يفوز به العبد يوم لقاء الله.

---

(١) قرأ حمزة بفتح الياء وإسكان الباء وضم الشين من (يبشرهم) مضارع أبشر، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين وتشديدها مضارع بشَّر.

(٢) قرأ شعبة بضم الراء من (ورضوان) والباقون بكسرها وهما لغتان.

(٣) «تفسير الألوسي» (٦/ ٦٢) والحديث في «المسند» (١١٨٣٥) إسناده صحيح ورجاله ثقات، والبخاري (٦٥٤٩، ٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩) والترمذي (٢٥٥٥) والنسائي في «الكبرى» (٧٧٤٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٥٤).

٢- في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من يدخل الجنة ينعم، لا ييأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه**»[١].

٣- وأخرج الطبري بسند صحيح رجاله ثقات عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله سبحانه: أعطيكم أفضل من هذا؟ فيقولون: ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ قال: رضواني**».

وقد بدأت الآية بالرحمة؛ لأنها أعم النعم، وثنَّت بالرضوان؛ لأنه نهاية الإحسان، وثلَّثت بالجنان؛ لأنها جائزة الرحمٰن لأهل الإيمان، ونعيم أهل الجنة دائم لا يزول. قال تعالى:

٢٢- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾

وهذه البشرى تحقق لهم الخلود والنعيم الأبدي في الجنة، فهم ماكثون في تلك الجنات بلا نهاية لنعيمهم، وهم لا ينتقلون عنها ولا يبغون عنها حولا، جزاء ما قدَّموه من العمل الصالح في حياتهم باتباع شرع الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ فخزائنه لا تنفد، ونعمه لا تنتهي.

مَحَبَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ قَبْلَ حُبِّ المَالِ وَالعَشِيرَةِ

٢٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ[٢] إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

يا أهل الإيمان: لا تتخذوا أقرب الناس إليكم أولياء تحبونهم وتناصرونهم إن كانوا ممن اختار الكفر على الإيمان، ومن يفعل ذلك يكون من الظالمين لنفسه المستحق للعقوبة.

وهكذا: حذَّر الله سبحانه المؤمنين كافة من موالاة أقرب الناس إليهم إن كانوا كفارًا.

قال ابن مسعود ﷺ: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك؛ فإنها خير تُؤمر به أو شر تُنهى عنه).

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٣٦).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (أولياء إن) بَيْنَ بَيْنَ، والباقون بتحقيقها.

والبراءة من المشركين جاءت في سورة التوبة، وقد ترتب عليها أشياء، منها:

١- منع المشركين من عمارة المسجد الحرام.

٢- والقيام على شؤون الكعبة.

٣- ومنْعهم من الدخول في منطقة الحرم.

٤- ومن الطواف عَرايا حول البيت.

٥- وترتب عليها كذلك وجوب التفرقة بين الابن المسلم والأب الكافر، والأخ المؤمن وأخوه الكافر، وهكذا الزوج والزوجة، والأهل والعشيرة.

فقد كان يشق على بعض الناس أن يقطع أرحامه؛ لأنه مؤمن وأخوه كافر، فجاء الإسلام يبيِّن أن هذه العقيدة لا تقبل شريكًا في قلب المؤمن؛ فالإيمان يفرق بين الأخ وأخيه، إذا كان أحدهما مؤمنًا والآخر مشركًا، وهكذا بين الزوج وزوجه، وبين الأب وابنه.

ولا يمنع الإسلام من الصلة والبر بين الأرحام، ولا يمنع محبة ما أحل الله من أموال وتجارة ورزق، على ألا يسيطر هذا على عقيدة المسلم ولا على إيمانه، ولا يكون هذا الحب أكبر من العقيدة والمتابعة.

فليس المطلوب أن ينسلخ المرء من أهله وولده وعشيرته وماله، بل المطلوب ألا تسيطر عليه هذه الحظوظ الدنيوية، وألا يكون مستعبَدًا لها، فلو وُضعت في كفة، ووُضع الإيمان والجهاد في كفة لرجحت كفة الإيمان والجهاد.

جاء في أسباب النزول: أن النبي ﷺ لمَّا أمر الناس بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: إنا قد أُمِرْنا بالهجرة، فمنهم من يُسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده فيقولون: ناشدناك الله ألَّا تَدعْنا إلى غير شيء فنَضِيع، فَيرِقّ، فيجلس معهم ويدَع الهجرة، فنزلت هذه الآية[1].

وعلى هذا المعنى تُحْمل عداوة الزوجات والأبناء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

---

(١) «زاد المسير» (٣/ ٤١١).

وتُحمل أيضًا فتنة المال والولد في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وقد علل الله سبحانه النهي عن موالاة الكفار بقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: إن اختاروا الكفر وأصروا عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] أي: هو مشرك مثلهم؛ لأن من رضي بالشرك فهو مشرك.

والمعنى: يا معشر المصدقين بالله والمتبعين لرسوله، لا تتخذوا أقرباءكم من الآباء والأخوة وغيرهم أولياء، تحبونهم وتوادُّونهم، وتُفشون إليهم بأسرار المسلمين، وتُقرِّبونهم منكم، وتستشيرونهم في أموركم، إذا كانوا كفارًا معادين للإسلام، ومن يتخذهم أولياء ويترك أخوة العقيدة، فقد عَصى الله ورسوله، وظلم نفسه بمخالفة أمر الله والمقام بينهم، فلا تتخذوهم أولياء إن استمروا على كفرهم، فإن هذا يتنافى مع الإيمان الحق، وفيه تجاوز لحدود الله ومعالم دينه.

من أسباب النزول

١ - قال مقاتل: نزلت هذه الآية في تسعة ارتدوا عن الإسلام ورجعوا إلى مكة، فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم.

٢- ولما أمر الله سبحانه بالتبرؤ من المشركين قالوا: كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه؟ فأنزل الله الآية.

٣- وقال أبوسليمان الدمشقي: لمَّا أمر النبي ﷺ بنُصرة خزاعة على قريش، قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله نعاونهم على قومنا؟ فنزلت الآية.

والوصف بالإيمان يمنع مودة الكفار ولو كانوا أقرب الناس، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم ذكر سبحانه السبب الموجب لعدم اتخاذ الكفار أولياء، ولو كانوا أقرب الناس، فبيّن أن اتخاذهم أولياء يكون سببًا في تقديم طاعتهم على طاعة الله ورسوله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله، ويجب على المؤمن أن يقدم محبة الله ورسوله على كل شيء:

الإيمَانُ وَالجِهَادُ يُقَدَّمَانِ فِي حَيَاةِ المُؤْمِنِ عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا

٢٤- ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ(١) وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم حذَّر الإسلام من التآلف بين المؤمنين والكافرين؛ فيصدَّه ذلك عن الغزو والإنفاق في سبيل الله، لذا وجب على المسلم أن يقدم محبة الجهاد في سبيل الله وطاعة الله ورسوله على هوى النفس وقرناء السوء، وعلامة ذلك -مثلا- أنه إذا كان يغطُّ في نوم عميق في ليالي الشتاء، مستدفئًا بفراشة، ثم سمع أذان الفجر، فإن قدّم شهوته على القيام للصلاة فهو غير محب لله والرسول، والعكس صحيح، وإذا عرض للإنسان أمر فيه هوى نفسه، فقدم ما يهواه على ما يحبه الله ورسوله، فهو تارك لما يجب عليه.

ولما نزلت هذه الآية قال بعض الصحابة: يا رسول الله، إن نحن اعتزلنا مَنْ خالفَنا في الدين قطعْنا آباءنا وعشيرتنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا.

وكان قوم قد تخلَّفوا عن الهجرة مع عيالهم بمكة، فلما قَدِم علي بن أبي طالب مكة من المدينة قال لهم: ألا تهاجرون؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا فأنزل الله تعالى يبيِّن أن المؤمن إذا فضَّل أقرب الناس إليه، وأحب شيء لديه؛ كالمال، والتجارة، والقصور، أو المساكن الفاخرة، إذا فضَّل ذلك على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فعليه أن يترقب عقاب الله له، والله تعالى لا يوفِّق الخارجين عن طاعته.

وخُصَّ الجهاد بالذكر من بين ما يحبه الله ورسوله؛ تنويهًا بعلوِّ شأنه، ولأن فيه المُخاطرة بالنفس وإنفاق المال.

وهل هناك أقرب من الأب والابن؟ ومع ذلك لا تتخذه حميمًا، ولا تتخذه وليًّا، ولا

---

(١) قرأ شعبة (عشيراتكم) بألف بعد الراء على الجمع؛ لأن لكل منهم عشيرة، وقرأ الباقون (عشيرتكم) بغير ألف على الإفراد، أي: عشيرة كل منكم.

تُناصره إن كان كافرًا، وتترك أخاك المؤمن، فالنصرة في الحروب، والموالاة في الله لا تكون للمشرك أبدًا، ولو كان أقرب الناس إليك.

قيل: إن هذه الآية نزلت في الذين تخلفوا بمكة ولم يهاجروا[(١)].

وقد عدَّدت الآية ثمانية أشياء، تُشكِّل متاع الدنيا ونعيمها، بحيث لا يطغى شيء مما ذكر فيها على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وإلا فالعاقبة وخيمة، والمصير مؤلم، ففيها تهديد ووعيد.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»**[(٢)].

وفي صحيح البخاري وغيره عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: **«لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»** فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: **«الآن يا عمر»**[(٣)].

وهذا عن الشق الأول من الآية، وهو محبة الله ورسوله.

أما عن الشق الآخر وهو محبة الجهاد في سبيل الله، فيكفي فيه هذا الحديث الذي رواه نافع عن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلًا، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**[(٤)].

فمن كان أقرب الناس إليه، أحب له من الله ورسوله، ومن الجهاد في سبيله، فعليه أن ينتظر عقوبة تحلُّ به إن عاجلًا أو آجلًا، والله تعالى لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي (٢٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٤) عن أبي هريرة و«صحيح مسلم» برقم (٤٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٦٩٤) و(٦٦٣٢) و«المسند» (١٨٠٤٧) والحاكم (٣/٤٥٦).

(٤) «سنن أبي داود» برقم (٣٤٦٢) و«المسند» برقم (٤٨٢٥) قال محققه: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦) و«السلسلة الصحيحة» برقم (١١) و«صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٩٥٦).

طريق السعادة، وفي هذا وعيد لمن فضَّل محبة أهله، أو ولده، أو ماله، أو وطنه على الهجرة والجهاد في سبيل الله.

وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين:

أولًا: تحريم موالاة الكافرين مهما بلغت قرابتهم، واعتبار هذه الموالاة من الكبائر، ووصف فاعلها بالظلم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ثانيًا: يجب على المسلم أن يكون قويَّ الإيمان، ممتثلًا أوامر الله تعالى، ومجتنبًا نواهيه، مقدِّمًا مراد الله تعالى على مراد النفس وهواها، ولا يتم إيمان العبد إلا إذا كانت محبة الله تعالى مقدمة على كل محبوب.

ثالثًا: إذا تعارضت مصلحة الدنيا مع مصالح الدين وجب ترجيح جانب الدين على الدنيا، ووجب التجرد من حظوظ الدنيا لأجل حظ الدين.

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ وَنَتِيجَةُ الاغْتِرَارِ بِكَثْرَةِ العَدَدِ وَالعُدَّةِ

٢٥- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يمن الله على عباده المؤمنين بنصره لهم في مواطن كثيرة الْتقوْا فيها مع عدوهم، حتى في يوم حنين، حين اشتدت بكم الأزمة -أيها المؤمنون-، وضاقت عليكم الأرض على سعتها بسبب هزيمة العدو لكم، ولكن النبي ﷺ ثبت وتوجّه ببغلته نحو المشركين وهو يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب، إليَّ عباد الله» وأمر العباس أن ينادي في المسلمين: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة، فقوّاكم الله ورفع من معنوياتكم حتى هزمتم المشركين وغنمتم أموالهم.

أخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس أن رجلًا قال يوم حُنَيْنٍ: لن نُغلب من قلة! وكانوا اثني عشر ألفًا، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله الآية[1].

وهذه أول آية في سورة براءة يبيِّن الله تعالى فيها فضله على المؤمنين وإحسانه إليهم

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٧) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٢٣).

بنصره لهم على عدوهم، وفوزهم بغنائم كثيرة، وتلْقينهم درسًا في عدم الاغترار بقوتهم وعددهم، وفي الآية شواهد من نصر الله تعالى للمسلمين على عدوهم في مواطن كثيرة بعد أن أمرهم سبحانه بقتال المشركين ونبذ عهودهم.

وفي غزوة حُنَيْنٍ عبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله سبحانه، وحصول الهزيمة عند إيثار حظوظ الدنيا من المال، والزوجات، والآباء، والأبناء، والعشيرة، وفي حصول الضدَّين من الهزيمة والنصر عبرة دقيقة لمن آثر الدنيا على الآخرة، حيث كان الإعجاب بالكثرة سببًا للهزيمة، وكان الإقبال على داعي الجهاد بعد ذلك سببًا للنصر، فقد بيَّن الله ﷻ أن المؤمن إذا غفل عن الله سبحانه ولو للحظة، وركَن إلى قُوَّته، ولم يركن إلى الله ﷻ بِكُلِّيته، ولم يعتمد عليه سبحانه بعد الأخذ بالأسباب؛ فإن في هذا تكُون الهزائم.

ولذلك يضرب الله سبحانه مثلًا من واقع المسلمين بما حدث لهم يوم حُنَيْنٍ، حيث كان فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة في شهر رمضان، ووقعت غزوة حُنَيْنٍ في الشهر الذي يليه، بسبب أن قبيلة هوازن وثقيف ومَنْ جاورَهُما من أهل الطائف والقبائل المجاورة لمكة عزَّ عليهم أن يدخل رسول الله ﷺ مكة فاتحًا، وأن يتجمع لديه هذا العدد الكبير من الجيش، فجمعوا جموعهم لحرب النبي ﷺ والقضاء على الإسلام، وكان هذا في شهر شوال، أي: بعد وقت يقل عن شهر من فتح مكة.

فلما علم النبي ﷺ بذلك خرج إليهم في عدد من الجيش، ليس له مثيل في غزواته كلها، في عشرة آلاف من الذين فتحوا مكة من المهاجرين والأنصار، ومعهم ألفان من الطلقاء الذين أسلموا حديثًا في فتح مكة، ولم يمضِ على إسلامهم شهر واحد، فكان عدد المسلمين اثني عشر ألفًا، ولم يسبق لهذا العدد نظير في غزوة من الغزوات.

جاء في الأثر: أنه كان مع النبي ﷺ أربعة آلاف من الأنصار، وألف من جُهينة، وألف من مُزينة، وألف من أسلم، وألف من غِفار، وألف من أشجع، وألف من المهاجرين وغيرهم، فكان معه عشرة آلاف، وخرج باثني عشر ألفًا[١].

وكان عدد المشركين أربعة آلاف، أي: ثُلُث عدد المسلمين، والقوة في هذا الوقت

(١) أخرجه أبو الشيخ عن محمد بن عبد الله بن عُبيد الله بن عمير الليثي كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٠٠).

تُقاس بالعدد، فالحرب باليد والسيف.

١- في الصحيحين وغيرهما عن البراء بن عازب ﷺ أن رجلًا قال له: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حُنَيْنٍ؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قومًا رُماة، فلما لقيناهم وحملْنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذًا بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو يقول:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»[1]

٢- وعن أنس بن مالك ﷺ أن هوازن جاءت يوم حُنَيْنٍ بالنساء والصبيان، والإبل والغنم، فجعلوها صفوفًا، وَكَثُرْن على رسول الله ﷺ، فلما التقوْا ولَّى المسلمون مدبرين، كما قال الله ﷻ، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله، فهزم الله المشركين ولم يضربوا بسيف ولم يطعنوا برمح...»**[2].

٣- وفي صحيح مسلم وغيره أن العباس وأبا سفيان بن الحارث كانا ملازمين للنبي ﷺ يوم حُنَيْنٍ، وكان ﷺ على بغلته البيضاء التي أهداها له (فروة بن نفاثة الجذامي) فلما اقتتل المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فأخذ رسول الله ﷺ يوجِّه بغْلته نحو الكفار، وأخذ العباس يكفّها؛ حتى لا تسرع، فأمره النبي ﷺ أن ينادي أصحاب السَّمُرة -أي: أهل الشجرة، أصحاب بيعة الرضوان- قال العباس: فوالله لكأنَّ عطْفتهم حين سمعوا صوتي عطْفة البقرة على أولادها، فقالوا: لبيك لبيك، فاقتتلوا مع الكفار، فنظر النبي ﷺ إلى قتالهم وهو يقول: **«حمي الوطيس»** ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: **«انهزموا ورب محمد»**[3].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٦٤، ٢٩٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٧٦) وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٢١) وابن سعد (٤/ ٥١).

(٢) «المسند» (٣/ ١٩٠، ٣/ ٢٧٩) ورقمه (١٢٩٧٧) قال محققوه: إسناده صحيح وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٢/ ١٣٠) وأصله في «صحيح البخاري» برقم (٤٣٣٣) و (٤٣٣٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٥٩) وهو في «دلائل البيهقي» (٥/ ١٥٠) وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٢٢).

(٣) يُنظَر الحديث في: «صحيح مسلم» برقم (١٧٧٥) و«المسند» (٣/ ٢٩٦) وعبد الرزاق (٩٧٤١) وابن سعد (٤/ ١٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٤٧) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٧٣) والحاكم (٣/ ٣٢٧).

وكان المشركون قد نصبوا كمينًا في وادي حُنَيْنٍ الذي يقع بين مكة والطائف قرب ذي المجاز، فما أن هبط إليه المسلمون حتى انقضَّ عليهم الأعداء يرشقونهم بالنبال من شعاب الوادي وأنحائه، وأصلتوا عليهم سيوفهم، وحملوا عليهم حملة رجل واحد كما أمرهم مَلِكهم، فولَّى المسلمون هاربين، وهُزموا في بدء المعركة.

وكان رجل من الأنصار يقال له: سلمة بن سلالة، قال حين خرج المسلمون وهم في الطريق إلى حُنَيْنٍ: لن نغلب اليوم من قلة، وهذا غرور بالكثرة وركون إلى القوة، فكان من نتائج ذلك، هذا الدرس القاسي؛ ليظهر للمسلمين عجزهم لولا فضل الله عليهم.

ثم إن النبي ﷺ لما رأى الهزيمة قد لحقت بالمسلمين، ثبت في مكانه وهو راكب على بغلته البيضاء يسوقها نحو الأعداء، ومعه العباس آخذًا بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، وأخذ ﷺ ينادي: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، إليَّ عباد الله»**[1].

وثبت نحو: مئة مع رسول الله ﷺ وقيل: ثمانون، منهم: أبو بكر، وعليٌّ، والعباس، والفضل، وأسامة، وأخذ العباس ينادي بصوت جهوري: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أهل بيعة الرضوان، يا أصحاب سورة البقرة، هلُمُّوا إلى رسول الله ﷺ وثبتت هذه القلَّة في مواجهة المشركين، وأنزل الله جلَّ شأنه ملائكته؛ لتقوية معنويات المؤمنين، ورفْع أرواحهم.

وقيل: إن العباس ناول النبي ﷺ قبضة من تراب رمى بها في وجوه القوم وهو يقول: **«اللهم أنجز لي ما وعدتني»** فما بقي أحد منهم إلا أصابتْه في عينه، وهُزم المشركون بعد انتصار، ونصر الله المسلمين، وتبعوهم يأسرون ويغنمون[2].

توزيع الغنائم: لقد حشد المشركون في هذه المعركة النساء والذرية، والأغنام والإبل، وكل متاعهم، فأخذ المسلمون يقتلون ويأسرون من الصبية والنساء أعدادًا كبيرة، وساقوا

---

(١) من حديث البراء بن عازب في البخاري (٢٩٣٠، ٤٩٣٠) ومسلم (١٧٨٦) والمسند (١٨٤٦٨) والنسائي في الكبرى (٨١٢٩).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٧٧٥) عن العباس بن عبدالمطلب وانظر (١٧٧٧) عن إياس بن سلمة عن أبيه.

من الإبل اثني عشر ألفًا، وساقوا من الأغنام ما لا يحصى، وأخذ عليه الصلاة والسلام يوزع هذه الغنائم، ويعطي المؤلفة قلوبهم كل واحد منهم مئة من الإبل، وأعطى رئيس هوازن (مالك بن عوف) الذي خضع للإسلام، ودخل فيه حديثًا أعطاه كثيرًا من الغنائم، وأعطى كبار القوم الذين دخلوا في الإسلام بعد غزوة حُنَيْنٍ، ولم يعطِ الأنصار من هذه الغزوة شيئًا، فلما شعر النبي ﷺ بما في نفوسهم خطب فيهم، وكان مما قال: «**يا معشر الأنصار.. أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا أو شِعْبًا لسلكتُ وادي الأنصار وشِعْبِها، الأنصار شعار، والناس دثار**»[1].

وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ قبل حُنَيْنٍ: في بدر، والأحزاب، وبني النضير، وبني قينقاع، عندما أخذتم بالأسباب، وتوكلتم على الله ﴿و﴾ نصركم ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ بعد الهزيمة التي منيتم بها ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أي: كانت هزيمتكم بسبب اغتراركم بالكثرة ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ فلم تدفع عنكم الكثرة شيئًا، وقُلْتم: لن نُغلب اليوم من قلة، فلم تنفعكم كثرتكم، وقد خُص يوم غزوة حُنَيْنٍ بالذكر، لما فيها من العبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله تعالى، وحصول الهزيمة حين اغتروا بالعدد والعدة ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ على سعتها ورحابتها ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ حيث ظهر عليكم العدو فلم تجدوا ملجأ في أرض الله الواسعة، ففررتم منهزمين ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ فارِّين منهزمين.

أَرْبَعُ مِنَنٍ امْتَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى أَهْلِ حُنَيْنٍ

٢٦- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

وفي غزوة حُنَيْنٍ امتن الله على المؤمنين **بأربع منن:**

المنة الأولى: نزول السكينة عليهم:

---

(١) من حديث متفق عليه عن عبد الله بن زيد بن عاصم، في البخاري برقم (٤٣٣٠، ٧٢٤٥) وفي مسلم برقم (١٠٦١).

حيث أنزل سبحانه الطمأنينة التي تثبِّت القلوب، وتهدئ الانفعالات الثائرة، وقت القلائل والشدائد، وهذه منة من الله تعالى، ثبَّت بها رسوله والمؤمنين يوم حُنَيْنٍ؛ ليعاودوا قتال العدو بعد الهزيمة، وهذا هو المراد بالسكينة في الآية.

والمنة الثانية: نزول الملائكة عليهم:

والمراد إنزال جنود من الملائكة؛ لرفع معنويات المسلمين، وإرهاب العدوِّ، ودَحْره ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم جماعة من الملائكة، موكلون بهزيمة المشركين، وتشجيع المؤمنين، وتبشيرهم بالنصر، ولم تروهم بأبصاركم، ولم تقاتل الملائكة إلا في يوم غزوة بدر.

ومن الآثار الواردة في ذلك ما رواه ابن جرير قال: حدثنا القاسم قال: حدثني الحسن بن عرفة، قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف، هو ابن أبي جميلة الأعرابي، قال: سمعت عبد الرحمن مولى ابن بُرْثُن: حدثني رجل كان مع المشركين يوم حُنَيْنٍ، قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حُنَيْنٍ لم يقُومُوا لنا حلَب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض، حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا، قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها[١].

وهذه آخر غزوة للمسلمين إلى هذا التاريخ، بينها وبين أول غزوة، وهي غزوة بدر سبع سنين.

والمنة الثالثة: تعذيب الكفار وإذلالهم:

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن سلطكم عليهم؛ لتقتلوهم، وتأسروهم، وتأخذوا غنائمهم ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ تلك عقوبة الله للصادِّين عن دينه، المكذبين لرسوله.

المِنَّةُ الرَّابِعَةُ: دخول هوازن في الإسلام:

٢٧- ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) الطبري (١٤/ ١٨٦) وقد أخرجه مُسدّد في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٤٧٩٩) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٤٣) وابن عساكر (٣٤/ ١٧٣).

وبعد نحو عشرين يومًا من موقعة حُنَيْنٍ، تاب الله على هوازن، فرجعوا عن كفرهم ولحقوا بالنبي ﷺ عند الجعرانة، قُرب مكة، وأسلموا، فمنَّ عليهم النبي ﷺ، وأطلق سبيلهم، البالغ ستة آلاف أسير، ما بين صبي وامرأة، ورد عليهم نساءهم وأولادهم، فباب الله مفتوح دائمًا لمن يخطئ ثم يتوب، حتى من يتوبُ من كفره وشركه، وهو مفتوح لكل من يتوب، ولذا جاءت الآية بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وحض الله المشركين على التوبة في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤].

مَنْعُ غَيْرِ المُسْلِمِينَ مِنْ دُخُولِ الحَرَمِ

٢٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

يا أهل الإيمان، لا تجعلوا المشركين يدخلون المسجد الحرام بعد هذا العام - التاسع من الهجرة - فهم نجس في عقائدهم، وإن خفتم من الفقر بسبب انقطاع التجارة والتعامل بينكم، فسيكفيكم الله حاجتكم، ويفتح لكم أبواب الخير، فإن فضله كبير، وعلمه واسع، وحكمته بالغة، يضع الأمور في نصابها.

وهكذا: تأتي الآية التي كانت شرطًا من الشروط الأربعة التي لحق بها عليٌّ أبا بكر في حجته عام تسع من الهجرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ نجاسة معنوية، وليست نجاسة حسية، فهم رجس وأخباث، وأبدان المشركين طاهرة، وقد كان المسلمون يعاشرون المشركين ويخالطونهم، ولم يأمرهم النبي ﷺ بغسل شيء من أبدانهم، بل توضأ ﷺ من آنية مشركة، وأكل من طعام اليهود، وأطعم وفدًا من الكفار، ولم يأمر بغسل الأواني التي أكلوا وشربوا فيها، وكانوا يصيبون أواني المشركين في الغزوات، ويستمتعون بها فلا يعيب عليهم[١].

وقد أباح الله لنا نكاح الكتابيات، ولم يأمرنا بالاغتسال منهن.

وصفة النجاسة ملازمة لهم بسبب شركهم بالله تعالى، فهم نجس في عقيدتهم

(١) جاء ذلك في حديث أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن مسعود.

وطهارتهم، لا في ذواتهم وأبدانهم، وقد يكون المشرك جسده نظيفًا وطيبًا لا يُستقذر.

وقد أوجب الإسلام على المشرك الغُسْلَ إذا أسلم لكفره وجنابته، وحرم عليهم دخول الحَرَم ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ هذا نهي للمسلمين أن لا يقرب المشركون المسجد الحرام، وهذا النهي يشمل عبدة الأصنام، واليهود والنصارى؛ لكفرهم بمحمد ﷺ، وقد سماهم القرآن كفارًا، وسماهم مشركين في كثير من الآيات.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله يقوله لهم: امنعوا اليهود، والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

وَبِلَادُ الإِسْلَامِ بِالنِّسْبَةِ لِلكُفَّارِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ

أولًا: حدود الحَرَم المكي: فلا يجوز لكافر أن يدخل حدود الحرم المكي بحال، ذِمِّيًا كان أو مستأمنًا، فلو جاء سفير من الكفار والحاكم المسلم داخل حدود الحرم، فلا يؤذن له بالدخول عليه، بل على الحاكم أن يخرج إليه، ولا يجوز لأحد أفراد المسلمين حين يَقْدُم إلى مكة حاجًا أو معتمرًا أن يصحب معه سائقًا أو خادمًا غير مسلم، كما لا يجوز لمن هم داخل حدود الحرم أن يستقدموا عمالًا أو مستشارين أو خدمًا غير مسلمين.

وحمل أبو حنيفة الآية على منعهم من الحج والعمرة، ولا يمنعون عنده من دخول المسجد الحرام، ولا من دخول سائر المساجد.

ثانيًا: جزيرة العرب: يجوز للكافر دخولها والمرور العابر بها، ولا يسمح له بالإقامة فيها أكثر من ثلاثة أيام، مدة السفر، لما رواه مسلم عن ابن عمر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«لأُخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلا مسلمًا»**[(١)].

وفي رواية لغير مسلم عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ أوصى بذلك فقال: **«أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»**[(٢)].

فلم يتفرغ لذلك أبو بكر، وأجلاهم عمر، وأعطى لكل تاجر يقْدُم عليها ثلاثة أيام.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٦٧).

(٢) من حديث ابن عباس في البخاري (١١٤، ٤٤٣١) ومسلم (١٦٣٧) وعند ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٤٤).

وأخرج مالك في الموطأ بسند مرسل: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**»[١].

ثالثًا: سائر بلاد الإسلام: فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة، ولكن لا يدخل أي مسجد فيها بسبب صيانة، أو عمارة، ونحو ذلك إلا إذا لم يوجد المسلم، ويدخله بإذن مسلم.

ويرَاد بالمسجد الحرام: كله على الأرجح، وهذا حكم مستمر إلى يوم الساعة وذلك ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: بعد نهاية العام التاسع الذي كان فيه أبو بكر أميرًا على الحج إلى نهاية ذي الحجة، ولمَّا منع الله المشركين من دخول مكة، وكان ذلك لتسع سنين مضت من الهجرة، وحج النبي ﷺ من العام المقبل حجة الوداع، ولم يحج قبلها ولا بعدها، وقد حزن بعض المسلمين لانقطاع المشركين عن ورود مكة في القوافل التجارية التي تأتي وتذهب في رحلة الشتاء والصيف، وقالوا: من أين يعيش المسلمون إذا انقطعت صلة المشركين بمكة؟! وإذا انقطعت الصلة التجارية تأثر الاقتصاد.

١- أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس ﷺ قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، ويجيئون معهم بالطعام يتَّجرون فيه، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت، قال المسلمون: من أين لنا بالطعام؟ فأنزل الله الآية، وكثر خيرهم لَمَّا ذهب المشركون عنهم[٢].

٢- وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ شق ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام والمتاع؟ فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[٣].

٣- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: لما نفى الله المشركين عن المسجد الحرام، ألقى الشيطان في قلوب المؤمنين الحزن، قال: من أين تأكلون، وقد نُفِيَ المشركون وانقطعت عنهم العير؟! فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فأمرهم بقتال أهل الكتاب، وأغناهم من فضله[٤].

---

(١) «الموطأ» من رواية أبي صهيب عن ابن شهاب برقم (١٨٦٢) وجاء نحوه عن عمر بن عبد العزيز في «مصنف عبد الرزاق» (٩٩٨٧).

(٢) ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٧٧) وسعيد بن منصور في «التفسير» (١٠١١) عن عكرمة.

(٣) «زاد المسير» (٣/ ٤١٧) و«تفسير القرطبي» (٨/ ١٠٦) والطبري (١١/ ٤٠١).

(٤) وأخرجه أيضًا ابن مردويه كما في «الدر» (٧/ ٣٠٧).

وهذا كما يقول بعض الناس: إن الخمر، والسياحة، والملاهي من مصادر الدخل، ويوظفها في التسليح العسكري، والنفقة على الجنود لحرب الأعداء، وهو لا يدري أنه دَخْل محَرَّم، يأتي على الأخضر واليابس!!

يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: إن خفتم الفقر لانقطاع تجارتهم عنكم، فسوف يعوضكم الله ويكفيكم من فضله، فتبدَّل أسباب بأسباب، وتغلق أبواب وتفتح أبواب، وهو المتكفل بالأرزاق، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، وهذا معنى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾.

وقد علق الله الإغناءعلى المشيئة، لأن الثراء ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، لأن الله يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب.

فهلَّا وجدتم تحقيقًا لوعد الله سبحانه؟ لقد أغنى الله أهل مكة وما حولها، ففجَّر لها الأرض بالبترول والمناجم والمعادن تحقيقًا لوعده سبحانه، وأغنى الجزيرة كلها إكرامًا لها، دون كد أو تعب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحالكم، وما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شئونكم.

ولمَّا منَع الله المشركين من دخول الحرم لم يترككم في فقر وذل، بل أغناكم بوسائل أخرى، عَلِمَها وأحكم تدبيرها، وأرشدكم إلى الأخذ بالأسباب.

وفي الحديث عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتعود بطانًا»**[1].

أي: تذهب صباحًا وهي جائعة، ثم تعود مساء وهي ممتلئة البطون.

وفي الحديث بيان أن هذه الطيور تأخذ بالأسباب في تحصيل قوتها فهي تذهب وتعود بحثًا عن رزقها.

---

(١) «المسند» (٢٠٥، ٣٠٧، ٣٧٣) بإسناد قوي ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير عبدالله بن هبيرة فمن رجال مسلم، وابن ماجه (٤١٦٤) والترمذي (٢٣٤٤) وابن حبان (٧٣٠) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٨٠٥) وأبو يعلى (٢٤٧) وعبد بن حميد (١٠) وقال الحاكم: (٣١٨/٤) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في تلخيص المستدرك.

مُجْمَلُ مَا فِي الآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنْ أَحْكَامٍ

هذا: وقد تعرضت السورة في الآيات الثماني والعشرين من أولها إلى هنا لما يأتي:

(أ) براءة الله ورسوله من عهود المشركين الذين مردوا على نقض المواثيق.

(ب) إعطاؤهم مهلة أربعة أشهر يدبرون فيها أمرهم، ولا يتعرض لهم المسلمون بسوء.

(ت) وجوب إعلان البراءة من المشركين في وسائل الإعلام المختلفة ما لم يترتب عليها ضرر محقق.

(ث) أَمْرُ المؤمنين بإتمام مدة العهد لمن حافظ عليه من المشركين.

(ج) بعد انقضاء الأشهر الأربعة، يجب على المسلمين التضييق على المشركين في كل مكان حتى يتوبوا من كفرهم، ويدخلوا في حظيرة الإسلام.

(ح) إذا نزل غير المسلم في جوار المسلم وحماه، فعليه أن يجيره ويعرض عليه الإسلام ويوصله آمنًا إلى بلاده.

(خ) بيان الأسباب التي تدعو إلى قتال المشركين والبراءة منهم، ولماذا شرع الجهاد؟

(د) المشركون ليسوا أهلًا لعمارة المساجد بالبناء، والصناعة، والنظافة، والعبادة، ونحوها.

(ذ) وجوب تقديم محبة الله ورسوله على النفس، والأهل، والعشيرة، والمال، والولد.

(ر) ذكَّرت السورة بنعم الله على المسلمين بنصرهم وهزيمتهم في حُنَيْنٍ.

(ز) النهي من تمكين المشركين دخول منطقة الحرم[(١)].

ثم تأتي سبع آيات تتعلق بأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

مَتَى يُقَاتَلُ أَهْلُ الكِتَابِ؟

٢٩- ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) يُنظَر في هذه الفقرات الثماني: «التفسير الوسيط» للشيخ محمد سيد طنطاوي (٦/ ٢٤٨).

وبعد الحديث عن المشركين الوثنيين، يأتي الحديث عن أهل الكتاب، وذلك أن الله سبحانه أمر رسوله ﷺ أن يقاتل المشركين حتى يُسلموا، ولا يقبل منهم غير ذلك، وقد تحقق هذا لرسول الله ﷺ فخلت الجزيرة العربية -، من الشرك، والوثنية.

وبما أن وسائل تبليغ الدعوة إلى العالم، قد اتسع، عن طريق: الإعلام، والطباعة، والاتصال، والتنقل، وشبكة المعلومات، والفضائيات، وغير ذلك من وسائل يمكن من خلالهاتبليغ الدعوة؛ للقضاء على الشرك والوثنية في العالم، فإن القيام بذلك أمر واجب على الدعاة والعلماء والحكام في بلاد العالم.

ثم تناولت سورة التوبة بعد ذلك ما يتعلق باليهود والنصارى من أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ، ولم يبق لهم إيمان صحيح؛ إذ لو كان لهم إيمان صحيح لقادهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، فكيف يتعامل معهم المسلمون دعاة وحكامًا على ضوء التعليمات التي جاءت قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بخمسة عشر شهرًا في هذه السورة؟

لقد أُمر النبي ﷺ أن يقاتل اليهود والنصارى في الجزيرة العربية، حتى يدفعوا الجزية، إذا لم يقبلوا الدخول في الإسلام، فإن امتنعوا من دفع الجزية، ووقفوا في وجه الدعوة؛ يمنعون وصولها إلى الناس، أو قاتلوا وحاربوا، قُتلوا وحوربوا.

وإذا لم يقفوا في وجه الدعوة الإسلامية ولم يحولوا دون وصولها إلى الناس، ولم يقاتلوا المسلمين، ولم يقبلوا أن يدخلوا في الإسلام، فالإسلام لا يجبرهم على الدخول فيه.

فإذا أقاموا على كفرهم، مسالمين غير محاربين، وغير متعرضين للدعوة أن تسود وتنتشر، فإن الإسلام يفرض عليهم الجزية، وقد جعل الله هذه الجزية عوضًا عن التجارة التي افتقدها المسلمون بسبب منع غير المسلمين من دخول الحرم، ولم تكن تؤخذ منهم قبل ذلك، وتؤخذ منهم مقاتل تمتُّعهم بالأمن والمرافق العامة في بلاد المسلمين، والمسلمون يدفعون الزكاة، وكان أول من أعطى الجزية أهل نجران، وتسقط هذه الجزية عمن اشترك في حفظ أمن البلاد، ودفع ما عليه من حقوق المواطنة كالمسلمين.

ما يجب على النصارى في بلاد المسلمين:

جاء في رواية عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال: كتبتُ لعمر بن الخطاب ﷺ حين صالح نصارى من أهل الشام، فكان مما التزموا به للمسلمين أن قالوا:

١- لا نُحْدِث في مدينتنا، ولا فيما حوْلنا ديرًا، ولا كنيسة، ولا صَوْمعة، ولا نُجدِّد ما خَرِب منها.

٢- ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه.

٣- وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا.

٤- ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم.

٥- ولا نبيع الخمور.

٦- وأن نجزَّ مقاديم رؤوسنا: نحلق نواصينا.

٧- وألا نظهر الصليب على كنائسنا، ولا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم.

٨- ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربًا خفيفًا.

٩- ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا.

١٠- ولا نرفع أصواتنا مع موتانا.

١١- ولا نُظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم.

ولا نجاورهم بموتانا.

١٢- وألا نخرج شعانين ولا باعوثًا.

١٣- ولا نطَّلع عليهم في منازلهم: لا نظهر أدياننا، ولا نرفع بيوتنا عليهم. زاد عليها عمر:

١٤- ولا نضرب أحدًا من المسلمين.

شرَطْنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقَبِلْنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق[(١)].

وقد شرع الإسلام طريقة للتعامل مع أهل الكتاب في ديار المسلمين، من ذلك ما جاء

---

(١) «المحلى» لابن حزم (٧/ ٣٤٦).

في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»**[١].

الجزية: وأول جزية أصابها الإسلام كانت من يهود بني قريظة، وبني النضير، وهو أول ذل أصابهم بأيدي المسلمين.

وتؤخذ الجزية من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ولا تؤخذ من عبدة الأوثان، وتؤخذ على الأديان، لا على الأنساب، فأهل الكتاب يخيَّرون بين الإسلام، أو القتال، أو الجزية، أما الوثنيون فيخيرون بين الإسلام، أو القتال.

وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب لم يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر[٢].

وفي الحديث عنه عن عبد الرحمن بن عوف: سُنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب[٣].

وهذه الجزية لم يبتكرها الإسلام، وإنما كانت موجودة قبل الإسلام، كان يُعمل بها في الدولة الرومانية والدولة الفارسية وغيرهما، ضريبة تؤخذ على الرؤوس، لا على الأموال.

قال الشيخ محمد عبده: الإسلام كان يكتفي من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من دين، ثم يكلِّفهم بجزية يدفعونها؛ لتكون عونًا على صيانتهم، والمحافظة على أمنهم في ديارهم، وهم -في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك- أحرار، لا يُضايَقون في عمل، ولا يضامون في معاملة. وخلفاء الإسلام كانوا يُوصون قوَّادهم باحترام العبَّاد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والأدْيرة للعبادة، كما كانوا يوصون باحترام دماء النساء والأطفال، وكل من لم يُعِنْ على القتال.

وقد جاءت السُّنة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين،

---

(١) مسلم (٤/١٧٠٧) برقم (٢١٦٧).

(٢) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٣١٥٦).

(٣) مالك (١/٢٧٨) والشافعي (٢/٢٦٠) «شفاء العي» وأبو عبيد في الأموال (٨٨) وابن أبي شيبة (١٢/٣٤٣) وفيه محمد بن علي أبو جعفر لم يدرك عمر، يُنظَر: «الإرواء» (٨٨/٨٩) وقال ابن كثير (٣/٣٧): لم يثبت بهذا اللفظ.

كما في حديث سلمان ﷺ: «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**»[١].

وحديث: «**من آذى ذميًا فليس منًا**».

وفي الحديث: «**من ظلم من أمتي معاهدًا، أو كلَّفه فوق طاقته، فأنا حجيجه**»[٢].

وبما أن المسلم يدفع الزكاة تعبدًا لله سبحانه، وتطهيرًا لأمواله، وغناء للفقير، فإن غيْر المسلم يتمتع في بلاد المسلمين بالأمن والأمان، ويتمتع بالحماية والدفاع عنه من قِبَلِ المسلمين، ولذلك فإنه يجب عليه أن يدفع مبلغًا من المال، مقابل الدفاع عنه، ومقابل حمايته ونُصرته، ومقابل أنه يتمتع بالمرافق العامة في الدولة التي يتمتع بها المسلمون.

ولذلك فإن الجزية لا تؤخذ إلَّا من الشاب الذي يستطيع القتال، ولا تؤخذ من المرأة ولا من الصِّبْية، ولا من المرضى، ولا من العجَزة، إنما تؤخذ من القادرين على القتال، وليس لها عَلاقة بأهل الكتاب من النصارى واليهود المستأمنين، وأصحاب العقود، والمعاهدين، ممن قدموا إلى بلاد المسلمين للعمل، أولأداء مهمة، وإنما ينطبق على اليهود والنصارى في الأرض التي فتحها الإسلام فتحًا إسلاميًا، مع بقائهم على يهوديتهم، أو على نصرانيتهم دون أن يحارِبوا المسلمين، أو يتعرضوا لدعوتهم، فإن عليهم أن يدفعوا الجزية في هذه الحالة.

فإذا انخرط الشباب غير المسلم مع المسلمين في الجيش، واشتركوا في الدفاع عن الوطن، واشتركوا في حماية البلاد، وتحقيق الأمن والأمان لجميع المواطنين، فإن الجزية لا تؤخذ منهم في هذه الحالة، كما حدث ذلك في عهد الخليفة الراشد عمر رضوان الله تعالى عليه.

وتؤخذ هذه الجزية من الشباب الكتابي في بلاد الإسلام إذا كانوا لا يشاركون في الدفاع عن أمن البلاد وحماية الوطن للإشعار بأنهم مقيمون في غير أرضهم، وخاضعون

---

(١) من حديث سلمان في «المسند» (٢٣٧٢٦، ٢٣٧٣٤) وهو ضعيف الإسناد؛ لأن أبا البَختري -سعيد بن فيروز- لم يدرك سلمان، كما أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٤٧٠) والترمذي (١٥٤٨)، وقال: حديث سلمان حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عطاء بن السائب، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٢٣٧).

(٢) من كتاب «الإسلام والنصرانية» للشيخ محمد عبده.

لأحكام الإسلام في بلاد المسلمين، وأنهم غير محاربين لهم، وهي إشعار لهم بالذلة والصغار في بلاد المسلمين.

أوصاف من تجب عليهم الجزية أربعة: وقد وصف الله سبحانه اليهود والنصارى الذين أوجب الإسلام قتالهم حتى يدفعوا الجزية، **بأوصاف أربعة** في هذه الآية:

الوصف الأول: نفى الإيمان الكامل عنهم:

إنهم لا يؤمنون بالله إيمانًا صحيحًا كاملًا وإن زعموا أنهم مؤمنون؛ إذ لو كانوا مؤمنين لآمنوا بمحمد ﷺ خاتم الرسل، ومع كفرهم به ﷺ فالنصارى يعتقدون بالحلول، ويقولون: إن عيسى ابن الله، ويسجدون لصورة مريم، والحواريين، ويحيى بن زكريا، والسجود لا يكون إلا لله تعالى وهم أيضًا يشترون منازل الجنة من الرهبان.

واليهود يعتقدون بالتشبيه والتجسيد، وقد أثبتوا لله الجارحة، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ونسبوا له الولد، فقالوا: ﴿عُـزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ فهم لا يوحدون الله، ويقولون: إن النار تمسهم أياما معدودة، ولذلك فهم غير مؤمنين، وهذا معنى ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

ومن كذَّب رسولًا من رسل الله فهو غير مؤمن، وقد كذَّب النصارى محمدًا ﷺ، واليهود كذَّبوا كثيرًا من الأنبياء، ومنهم عيسى ومحمد صلوات الله على الجميع.

الوصف الثاني: إنكار البعث والثواب والعقاب بالأبدان:

إنهم لا يؤمنون باليوم الآخر؛ لأنهم يقولون: إن النعيم والعذاب الأخروي غير حسِّي، وأنه نعيم أو عذاب للأرواح، وليس للأبدان، وأن البعث للأرواح دون الأجساد، وأن المؤمنين في نعيم الجنة لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينكحون، فهذا قول غير المؤمن باليوم الآخر وما فيه من نعيم وعذاب حسِّي.

قال تعالى عنهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ الدخان: ٣٥] وهذا معنى ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر.

الوصف الثالث: اتِّباع الأحبار والرهبان في التحليل والتحريم:

إنهم لا يُحرِّمون ما حرم الله ورسوله في القرآن والسنة، إنما يحرمون ما شرعه لهم

الأحبار والرهبان والقساوسة، ويتبعونهم في الحلال والحرام، فلا يحرمون ما حرمه شرعهم، ومن ذلك استحلالهم للخمر، والخنزير، وأكل أموال الناس بالباطل، وهو محرم أصلًا في ديانتهم، وهذا معنى ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

الوصف الرابع: أن شريعتهم منسوخة:

إنهم لا يدينون دين الحق؛ لأن دين الحق هو الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] وهو الدين الذي نسخ الله به الرسالات السابقة، وهم لا يعتقدون صحة الإسلام،ولا يزالون متمسكين بدين، قد انتهى وقته وحُرِّف وبُدِّل، ولو أنهم دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام؛ لأن كتابهم يأمرهم باتباعه،وهو النبي الذي أخذ الله الميثاق على النبيين جميعًا أن يؤمنوا به ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١] ولكنهم دانوا بما حرفوه وغيروه.

وإلى هذا المعنى تشير الآية: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾

فقاتِلوا - أيها المسلمون - الكفار الذين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يجتنبون ما نهى الله ورسوله عنه، ولا يلتزمون أحكام شريعة الإسلام، من اليهود والنصارى حتى يدفعوا الجزية التي تفرضونها عليهم، فيعطونها بأيديهم وهم خاضعون أذلاء، ولا يرسلونها مع رسول؛ لأن في ذلك إذلالًا لهم، ويدفعونها فورًا ولا يؤخرونها عن وقتها.

قال مجاهد: وعند نزول هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ في غزو الروم، ومشى نحو تبوك.

وذلك بعد أن تم فتح مكة والطائف، وقدِمَت الناس عام الوفود يعلنون إسلامهم من هنا وهناك، وامتدَّ الإسلام إلى تخوم بلاد الشام، وعندئذ فإن دولة الروم أخذت تستعد لحرب المسلمين بواسطة ملوك غسَّان.

ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كان لي صاحب من الأنصار إذا غبتُ أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوف ملكًا من ملوك غسَّان، ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، وأنهم يُنْعلون الخيل لغزونا، فإذا صاحبي الأنصاري يدقُّ الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: أجاء الغسَّاني؟ قال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول

الله ﷺ نساءه. . . إلى آخر الحديث[١].

فلا جرَم بعد أن أَمِن المسلمون بأس المشركين، وأصبحوا في مأمن منهم أن يأخذوا الأهبة؛ ليأمنوا بأس أهل الكتاب، وقد كفى الله المسلمين بأسهم وأورثهم أرضهم، فلم يقع معهم قتال، ثم ثنّى الرسول ﷺ بغزوة تبوك على مشارف الشام[٢].

مُوجِبَاتُ الشِّرْكِ عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ

٣٠- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ[٣] ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ[٤] قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[٥] ۝٣٠﴾

الموجب الأول: قولهم: عزير ابن الله والمسيح ابن الله:

بعد هذه الأوصاف قرر القرآن الكريم موجبات الكفر المستدعية لقتالهم في الدنيا، ولعذابهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ لقد أشرك اليهود بالله عندما قالوا: إن عزيرًا ابن الله، وهو قول اختلقوه من عند أنفسهم، فهو كفر وشرك بالله تعالى، والذي قال هذه المقالة من اليهود أربعة أشخاص من أحبارهم وهم: سلّام بن مِشكم، ونعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، ورُوِي أنه لم يقلها إلا فنحاص، وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها، بل انقرضوا[٦].

وسبب قول بعض اليهود: عزير ابن الله، أن الله تعالى لما سلط ملوك بابل على اليهود فقتلوهم ومزّقوهم كل ممزق، وقتلوا حملة التوراة، وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو

---

(١) ينظر البخاري (٤٩١٣) من حديث طويل ومسلم (١٤٧٩) من حديث طويل أيضًا و«المسند» (٢٢٢) بنحوه وغيرهم.

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ١٦٢).

(٣) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب بتنوين (عزيرٍ) وكسره، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، ولا يجوز ضمه للكسائي على مذهبه؛ لأن ضمة (ابن) إعراب، فهي غير لازمة، وهو متصرف لكونه ثلاثيًّا ساكن الوسط، وقرأ الباقون بضم الراء وحذف التنوين لالتقاء الساكنين تشبيهًا للنون بحرف المد.

(٤) قرأ عاصم (يضاهِئُون) بكسر الهاء وهمزة مضمومة بعدها، وقرأ الباقون (يضاهون) بحذف الهمزة وضم الهاء، وهما لغتان.

(٥) أبدل ورش وأبو جعفر وأبوعمرو بخلف عنه، همزة (يؤفكون) واوًا، ومعهم حمزة عند الوقف.

(٦) القول الأول منسوب إلى ابن عباس، انظر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٢٣).

لأكثرها، فأملاها عليهم، فقالوا عنه: إنه ابن الله.

أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس ﷺ قال: أتى رسول الله ﷺ بسلّام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، ومحمد بن دحية، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله؟ فأنزل الله الآية[1].

عزيرٌ، حبرٌ يهوديٌّ كان في الأسر البابلي

وعزير رجل صالح من بني إسرائيل، أو هو أحد أنبياء بني إسرائيل، والأصح أنه كاهن يهودي سكن بابل سنة ٤٥٧ قبل الميلاد، وجمع أسفار التوراة، وأدخل الحروف الكلدانية عوضًا عن العبرانية القديمة، وألّف أسفار: الأيام، وعزرا، ونحميا، ونشر الشريعة اليهودية، فهو من كبار أحبار اليهود الذين كانوا في الأسْر البابلي، واسمه في العبرانية عِزْرا بن سرايا من سبط اللاويِّن، وقد تفضل عليه كورش ملك فارس فأطلقه من الأسر، وأطلق معه من كانوا في بابل من الأسرى اليهود، وأذن لهم بالرجوع إلى أورشليم، وبناء هيكلهم فيه، وكان ذلك سنة ٤٥١ قبل الميلاد، فكان عزير زعيم التوراة، وأعاد نشر التوراة من حفظه، فعظموه وغالوا في محبته إلى درجة أن ادَّعى بعضهم أنه ابن الله.

وهو الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] على الأرجح، وكانت التوراة قد أُحرقت ولم يبق لها أثر هي والتابوت الذي كانت فيه، وخُرِّب بيت المقدس بسبب غزو بختنصر له سنة ٥٨٦ ق. م، وقتل من قرأ التوراة، وكان عزير صغيرًا فلم يقتله لصغر سنه، ولما مات بختنصر، وبعث الله عزيرًا بعد مئة عام، جدَّد لهم التوراة، وأملاها عليهم فكتبوها من حفظه، وقالوا: ما حفظها، وما أملاها علينا إلا لأنه ابن الله، فنسبوه إلى الله سبحانه[2].

---

(١) ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨١) و«أسباب النزول» للسيوطي (١٣٨) وفي هذه الرواية زيادة محمد بن دحية عن الأربعة السابق ذكرهم وقد أخرجه الطبري بسند حسن عن ابن عباس (١٠/ ١١٠) وهو في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٧٠).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ١٦٨) ويُنظَر: ابن جرير (١/ ٧٨) وابن إسحاق (٢/ ٢١١) وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨١) وأبو الشيخ وابن مردويه و«تفسير البيضاوي» ص (٢٢٢).

تنصُّر بولس لتضليل النصارى:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ﴾ أما قول النصارى المسيح ابن الله، فهو أيضًا شرك بالله تعالى اختلقوه من عند أنفسهم، وهو مجرد دعوى كاذبة باللسان ليس عليها دليل ولا برهان، والسبب في هذا أن النصارى كانوا على التوحيد الخالص الذي جاء به عيسى ﷺ، كانوا كذلك مدة واحد وثمانين عامًا بعد رفع عيسى ﷺ، ثم حدثت حروب بين اليهود والنصارى.

وكان من بين اليهود رجل يقال له: بولس. هذا الرجل قتل أعدادًا كبيرة من النصارى، ثم قال: لئن كان النصارى على حق وعيسى على حق، فسوف يدخلون الجنة وندخل نحن النار، ولذلك فإنه يجب علينا أن نضلل النصارى حتى يدخلوا النار مثلنا، فأخذ الرجل على عاتقه وضْع الحيل لإضلال النصارى فتنصَّر، أي: دخل في النصرانية؛ ليكيد لها وحُبس عامًا في بيته حتى حفظ الإنجيل، وادَّعى التوبة والندم على ما فات منه، ثم أخذ ثلاثة من النصارى يقال لهم: نسطور، ويعقوب، وملكان.

فأفهم نسطور، ووضع في اعتقاده أن الإله مكون من ثلاثة هم: عيسى، وأمه، والله، أو جبريل: الأب، والابن، وروح القدس.

وأفهم يعقوب أن عيسى ليس بشرًا، وإنما هو ابن الله.

وأفهم ملكان أن الله قد حلَّ في عيسى، وأنه هو الله.

فكانت هذه الفرق، أو المذاهب الثلاثة: اليعقوبية، والنسطورية، والملكانية، وهي في المصطلح الحديث: الأرثوذكس، والكاثوليك، والبروتستانت، وكل منهم ذهب إلى مكان من العالم هنا وهناك، وصار لهم أتباع وجماعات يؤمنون بدعوتهم ويعترفون بها، وانبثق من هذه الفرق الثلاث أحزاب كثيرة متناحرة في كل فرقة منهم.

وعندما تقرؤون ما يتعلق بعيسى ﷺ في سورة مريم، وفي سورة الزخرف، وغيرهما تجدون في نهاية الآيات ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ﴾ هذه هي الأحزاب، وهي الفرق الثلاث الرئيسة التي سميت بأسماء معروفة في وقتنا، وهذا هو أصل الاختلاف عند النصارى، وأصل تأليه المسيح، وادعاء أنه ابن الله، وأصل القول بأن الإله مكون من ثلاثة.

قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ فهي دعوة ليس عليها دليل، وهم بذلك شابهوا قول المشركين الوثنيين من قبل: إن الملائكة بنات الله ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ ضاهت النصارى قول اليهود قبلهم، فقالت النصارى: المسيح ابن الله، كما قالت اليهود في عزير: ابن الله، كما شابهوا المشركين في قولهم: الملائكة بنات الله، وكذلك الوثنيين من الإغريق والرومان والفراعنة وغيرهم ممن كفر بالله تعالى في الشرق والغرب ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: قاتل الله المشركين جميعًا، كيف يعدلون عن الحق إلى الباطل؟ ولعنَهم وطردهم وأبعدهم من رحمته، وهذا دعاء عليهم بالهلاك؛ إذ كيف يصرون على الباطل، ويجعلون لله ولدًا؟

المُوجِبُ الثَّانِي لِكُفْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ:
طَاعَةُ الحُكَّامِ وَالعُلَمَاءِ فِي مُخَالَفَةِ الشَّرِيعَةِ

٣١- ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

ثم ذكر سبحانه سببًا آخر لكفر أهل الكتاب، وهو أنهم يتبعون في تشريع الحلال والحرام غير أوامر الله سبحانه مما جاء في التوراة والإنجيل، ويتبعون ما يشرعه لهم علماء اليهود الأحبار، وعُبَّاد النصارى وعلماؤهم الرهبان، والقساوسة فاتخذوا العلماء والعباد أربابًا، يشرِّعون لهم الأحكام، فيلتزمون بها، ويتركون شرائع الله، وهذا معنى اتخاذهم أربابًا، فهم لا يعبدونهم، ولكنهم يتلَقَّوْن الحلال والحرام منهم، وهو أمر لا يُتلَقَّى إلا من الله سبحانه، فكانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه.

كما قال عدي بن حاتم لرسول الله ﷺ حين قدم عليه وفي عنقه صليب من ذهب فقال: **«يا عدي اطرح هذا الصليب من عنقك»**، قال: فسمعته يقرأ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ قلت: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم فقال ﷺ: **«بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»**.

وفي لفظ: فقال: **«أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا**

استحلوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه»[١].

فبيَّن عليه الصلاة والسلام أن عبادة الأحبار والرهبان، هي: طاعتهم لهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، حرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم، وشرَّعوا لهم عكس ذلك فاتبعوهم، واتخذوا المسيح إلهًا فعبدوه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ فهو الذي يحلل ويحرم، ويشرِّع ويُتَّبع، وقد أمرهم الله جميعًا بالتوحيد وعبادة إله واحد ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تنزه وتقدس عما يفتريه أهل الشرك والضلال.

وفي صحيح البخاري وغيره عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «**يا عدي، هل رأيت الحيرة؟**» قلت: لم أرها، وقد أُنبئت عنها.

قال: (فإن طالت بك حياة لترينَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله» قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعَّار طيء الذين قد سعَّروا البلاد؟ «**ولئن طالت بك حياة لتُفتحنّ كنوز كسرى**» قلت: كسرى بن هُرْمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز**»، «**ولئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يُخرج ملء كفِّه من ذهب، أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلْقينَّ الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولنَّ: ألم أبعث إليك رسولًا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالًا وأُفْضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم**».

قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة**».

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلَّا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هُرمز، ولئن طالت بكم حياة، لترُونَّ ما قال النبي أبو

---

(١) حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٧١) والطبراني (٢١٨) والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١١٦) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٤). وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٠٩٥) والطبري (١٤/ ٢١٠) وانظر: تفسير ابن عطية (٣/ ٢٨) وابن كثير (٣/ ١٣٥).

القاسم ﷺ: «يُخرج ملء كفه»[(١)].

وكان عديُّ بن حاتم الطائي لما سمع دعوة النبي ﷺ فرَّ إلى الشام؛ لأنه قد تنصَّر في الجاهلية، فوقعت أخته في الأسْر هي وجماعة من قومها في إحدى الغزوات، فأطلقها النبي ﷺ فذهبت إلى أخيها ورغَّبتْه في الإسلام والقدوم على رسول الله ﷺ فقدم عديٌّ إلى المدينة -وكان رئيس قومه- وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدثت الناس بذلك، فدخل على الرسول ﷺ وفي عنقه صليب من ذهب، وقيل: من فضة، وكان النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾[(٢)].

والآية تسوِّي في الوصف بالشرك بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية عيسى وقدَّموا إليه الشعائر في العبادة.

ظُهُورُ الإِسْلَامِ عَلَى جَمِيعِ الشَّرَائِعِ

٣٢- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ[(٣)] نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

ثم إن اليهود والنصارى يريدون أن يطفئوا نور الله الذي جاء به محمد ﷺ، ويطفئوا نور الإسلام وهدْيه، ويقضوا عليه، والنور هو الدلائل على صدق محمد ﷺ؛ كالمعجزات الخارقة، والقرآن العظيم، ويجب التبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ الشمس أو القمر بنفخة من فيه، ولا سبيل إلى ذلك، فهم يحاولون طمس هذا الدين والقضاء عليه بإلقاء الشبهات والتشكيك فيه.

ونور الله، دينه الذي أرسل به الرسل وأنزل به الكتب، وسماه نورا لأنه يستضاء به ظلمات الجهل، ولا يمكن لجميع الخلق أن يطفئو هذا النور. قال تعالى:

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٩٥).

(٢) يُنظَر: الحديث في «المسند» برقم (١٨٢٦٩، ١٨٢٦٠) بإسناد حسن، وأخرجه ابن حبان (١٦٧٩) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٤٢). والترمذي والطبري من طرق عدة.

(٣) قرأ أبو جعفر عند الوقف عليها بحذف الهمزة وضم الفاء من (يطفئوا) هكذا (يُطْفُوا) والباقون بإثبات الهمزة وكسر الفاء، ولحمزة عند الوقف ثلاثة أوجه: (١)- حذف وضم الفاء. (٢)- تسهيل الهمزة بَيْنَ بَيْنَ. (٣)- إبدال الهمزة ياء خالصة.

٣٣- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾

لقد أرسل الله نبيه بالهدى التام، والنور الكامل، والبرهان الساطع، والحجج القاطعة، فكيف يطفئ الكفار نور الله، والهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وقد بعث الله محمدا ببيان الحق من الباطل في العقائد والعبادات والأخلاق والآداب والأحكام والأخبار وما إلى ذلك، وقد وعد سبحانه بإظهار دينه على جميع الشرائع وإعلاء كلمته؟! ووعدُ الله قائم إلى يوم الساعة، وقد جاء محمد ﷺ بالقرآن الكريم هاديًا للناس، وفيه العلم النافع والأخبار الصادقة، وجاء بدين الإسلام، وفيه من الأعمال الصالحة ما ينفع العبد في الدنيا والآخرة، وهو خاتم الشرائع، ولا يقبل الله من أحد دين سواه.

وفي الحديث عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي مشارق الأرض ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زَوى لي منها**»[1].

وعن تميم الداري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بذل ذليل عزّا يُعزّ الله به الإسلام وذلًّا يُذل الله به الكفر..**»[2].

وسيُظهِر الله هذا الدين على سائر الديانات، فلا يُعبَد اللهُ إلَّا به.

قال أبو هريرة والضحاك: هذا عند نزول عيسى ﷺ، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام، وهذا المعنى يشهد له حديث تميم السابق.

وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب**

---

(١) «صحيح مسلم» (٤/٢٢١٥) برقم (١٩٢٠) و(٢٨٨٩) من حديث ثوبان ﷺ. وفي المسند (٢٢٣٩٥، ٢٢٤٤٥) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو حديث طويل ومختصر، وممن أخرجه أبو داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢١٧٦) والطيالسي (٩٩١) والبغوي (٤٠١٥).

(٢) رواه أحمد، «المسند» (٤/١٠٣) برقم (١٦٩٥٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٤): رجال أحمد رجال الصحيح وانظر: حديث المقداد بن الأسود في «المسند» (٦/ ٤) وصحيح ابن حبان في الموارد برقم (١٦٣١) و«المستدرك» (٤/ ٤٣٠) صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣) وهو في الطبراني برقم (١٢٨٠).

الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى»، فقلت: يا رسول الله، إن كنت لا أظن حين أنزل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أن ذلك تام، قال: **«إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ﷻ، ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فيَتَوَفَّى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»**[1].

وظهور الإسلام على سائر الشرائع يكون أشد حسرة على المشركين والكافرين من سائر الخلق، ولذا خُتِمَت الآية بهما.

زَكَاةُ الأَمْوَالِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ

٣٤- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

الموجب الثالث لكفر أهل الكتاب: أكلهم أموال الناس بالباطل:

ذكر القرآن موجبًا آخر من موجبات كفر اليهود والنصارى، والقرآن يتحرى الدقة في الحكم على الناس، ولا يقول بالتعميم، فهو هنا يقول: ﴿كَثِيرًا﴾ وفي آية أخرى يقول: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩] وفي آية ثالثة يقول: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] وهذا إنصاف للقلة التي تتصف بما ذُكِر في الآية، فالتعميم لا يصح في الغالب، والمراد بهم في الآية: أحبار اليهود ورهبان النصارى، أي: أن كثيرًا من علماء أهل الكتاب وعبَّادهم ليأكلون أموال الناس بغير حق، كالرشوة وغيرها، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]

والآية تحذِّرنا من التشبُّه بهم في أقوالهم وأفعالهم، حتى لا نأكل أموال الناس بالباطل، ولا نصد أحدا عن سبيل الله، ولا نمنع زكاة أموالنا.

قال ابن المبارك: الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٠٧) والحاكم (٤/٤٤٦).

فسدت أحوال هؤلاء فسدتْ أحوال الناس، وقد اشتملت هذه الآية على **ثلاثة من جرائمهم** وهي:

١- أكل أموال الناس بالباطل. ٢- الصد عن سبيل الله. ٣- كنز الأموال.

أولًا: أكل الأموال بالباطل: وهذا يتمثل عند اليهود والنصارى في صور كثيرة، منها:

١- ما شاع في القرون الوسطى من إعطاء صكوك الغفران، يذهب المذنب إلى الكاهن أو القس ويعطيه مبلغًا من المال، ويعترف بذنبه وخطئه كله له، كأنه هو الذي يملك المغفرة، فيعطيه صكًا للغفران.

٢- ومنها: أنهم كانوا يكتبون بأيديهم كُتُبًا يحرِّفونها ويبدِّلونها، ويقولون: هي من عند الله، ويأخذون عليها ثمنًا قليلًا.

٣- ومن ذلك تغيير أوصاف النبي ﷺ وكَتْمها مخافة أنهم لو آمنوا به لذهبت عنهم هذه المكاسب والمآكل.

٤- وهم أساتذة العالم في أكل الربا، وفي أخذ الرشوة، وفي إصدار الفتاوى للحكَّام مقابل أخذ الأموال.

والقرآن يعبر عن أخذ الأموال بالأكل؛ لأن المقصود الأعظم من أخذ الأموال هو الأكل، وقد نهانا الله عن ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] وهذا يشمل جميع الوجوه المحرمة.

ثانيًا: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا هو الموجب الرابع من موجبات كفرهم.

أي: يمنعون الناس من الدخول في الإسلام، والاستجابة لدعوة محمد ﷺ وهذا الصد قائم وموجود في كل زمان ومكان، فقد كان الرهبان والأساقفة والباباوات يجمعون مئات الملايين في الحروب الصليبية للاستشراق والتنصير، صدًّا عن سبيل الله.

والآن: الإذاعات التنصيرية التي تُبَثُّ على مسامع العالم، تصد الناس عن سبيل الله، والقنوات التنصيرية تبث سمومها، صدًّا عن سبيل الله، ووسائل التنصير المختلفة كثيرة في أجهزة الإعلام وشبكة المعلومات، ودور التعليم والجامعات وعن طريق المراسلات وغير ذلك، كل ذلك من أساليب النصارى في الصد عن سبيل الله.

ثالثًا: كنز المال والبخل به: وبعد أن ذكر سبحانه حرص أهل الكتاب على المال ذكر بخلهم الشديد به .

وبقية الآية يشترك فيها المسلمون مع غيرهم من اليهود والنصارى، فيما يتعلق بعدم إخراج الزكاة، وإن كان السياق في وصف أهل الكتاب.

قال السُّدِّي: أما الأحبار فمن اليهود، وأما الرهبان فمن النصارى، وأما سبيل الله فمحمد ﷺ.

وقال معاوية بن أبي سفيان: وصفهم الله -أي: أهل الكتاب - بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس، ثم وصفهم بالبخل الشديد، وهو جمع المال، ومنع إخراج الحقوق الواجبة منه.

وقال أبو ذر: نزلت في أهل الكتاب، وفي المسلمين[١].

في صحيح البخاري عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالرَّبَذَة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها لفينا وفيهم[٢].

وعن الأحنف بن قيس قال: جاء أبو ذر ﷺ فقال: «**بشِّر الكانزين بكيٍّ من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم، وكيٍّ من جباههم يخرج من أقفائهم، فقلت: ماذا؟ قال: ما قلت إلا ما سمعت من نبيهم ﷺ**»[٣].

وكان أبو ذر يحرِّم ادخار ما زاد على نفقة العيال، ويفتي بذلك، فنهاه معاوية فلم ينته، فاشتكاه إلى الخليفة عثمان ﷺ فاستقدمه وبعثه إلى الرَّبَذَة، وظل بها حتى مات.

وكان معاوية قد اختبره فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، فأرسل إليه معاوية يطلبها منه، ويقول له: إن رسوله قد أخطأ، فقال: ويحك، إنها خرجت، ولكن إذا جاءني مالي حاسبناك[٤].

(١) يُنظَر: «فتح الباري» (٨/ ١٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٤٠٦، ٤٦٦٠) وابن سعد (٤/ ٢٢٦) وابن أبي شيبة (٣/ ٢١٢) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٩).

(٣) «صحيح مسلم» (٩٩٢).

(٤) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٤٢).

وقد حمل أبو ذر الآية على العموم، وحرم كنز المال على إطلاقه، وهذا زيادة حِرْصٍ منه ﷺ.

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي ذر: **«ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبًا يمر عليه ثلاثة وعندي منه شيء، إلا دينارًا أرصده لديني»**[١]. وعدم المسرة لا تعني التحريم.

ويُجلِّي موقف أبي ذر من هذا الأمر حديث شداد بن أوس قال: كان أبو ذر يسمع من رسول الله ﷺ الأمر فيه الشدة، ثم يخرج إلى باديته، ثم يرخص فيه رسول الله ﷺ بعد ذلك، فيُحفظ من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر بالرخصة، فلا يسمعها أبو ذر، فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذي سمع قبل ذلك[٢].

وقد دلَّت الأحاديث على أن حق الله في مال العبد هو الزكاة، وما يتطوع به بعد ذلك من تلقاء نفسه من الصدقات، وأن المرء ليس عليه حرج إن هو لم يخرج إلا الزكاة.

١- كما في حديث طلحة بن عبيد الله في البخاري، وغيره قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، يُسمع دَويُّ صوتِه ولا يُفقهُ ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«خمس صلوات في اليوم والليلة»** فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: **«لا، إلا أن تطَّوع»** قال رسول الله ﷺ: **«وصيام رمضان»** قال: هل عليَّ غيره؟ قال: **«لا، إلا أن تطَّوع»** قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: **«لا، إلا إن تطَّوع»** قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص، فقال رسول الله ﷺ: **«أفلح إن صدق»**[٣].

٢- ولما زار النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص وهو مريض قال: **«يا رسول الله أأُوصي بمالي كله؟ قال: لا، قال سعد: فالشطر؟ قال: لا، قال سعد: فالثُلُث، فقال ﷺ: فالثُلُث، والثُلُث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس...»**[٤].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٤٤).

(٢) «المسند» (١٧١٣٧) نحوه، وفيه ابن موسى - حسن الأشيب - متابع، وباقي رجال الإسناد ثقات، وأخرجه الطبراني (٧١٦٦) واللفظ له، قال محققو «المسند»: حديث حسن.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٦، ٢٦٧٨) و«صحيح مسلم» برقم (١١).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٤٢، ٥٣٥٤، ٦٧٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٢٨).

فدل هذا على أن الوصية لا تزيد على الثُلُث، وأن اقتناء المال بعد ذلك للورثة غير محرم، ومن الصحابة من مات وعنده أموال كثيرة كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهما، وهذا يدل على أن ذم الكنز الوارد في الآية مقيد بمنع إخراج الزكاة منه، فالكانزون هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وكل ما أُدِّي زكاته فليس بكنز.

٣- وعن شداد بن أوس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هذه الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك علام الغيوب»**[١] فهذه كلمات خير للعبد من كنوز الدنيا.

وكنز الذهب والفضة يعني: عدم إخراج زكاته، وفيه وعيد شديد على جمع المال، ومنع الحقوق الواجبة فيه.

يقول ابن عمر ﷺ: أيما مال أديتَ منه الزكاة فليس بكنز ولو كان مدفونًا مهما بلغ مقدار هذا المال، فإذا لم تخرج منه الزكاة فهو كنز، وإن كان تحت سبع أراضين، وفوق سطح الأرض، ومن أحب شيئًا وقدَّمه على طاعة الله عُذِّب به.

وفي الموطأ أن ابن عمر ﷺ أنه سُئِل عن الكنز فقال: هو المال الذي لا تؤدي منه الزكاة، فما أديت منه فليس بكنز[٢].

قال عبد الله بن عمر: وهذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال[٣].

وقال عمر بن عبد العزيز، وعراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[٤] [التوبة: ١٠٣].

---

(١) «المسند» (٤/ ١٢٣) برقم (١٧١١٤). حديث حسن بطرقه، ورواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٧١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٦٦) وابن حبان (٩٣٥) والطبراني (٧١٥٧) والحاكم (١/ ٥٠٨) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) «الموطأ» برقم (٦٧٨) كتاب الزكاة، باب ما جاء في الكنز.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٤٠٤، ٤٦٦١) وأحمد في «الزهد» ص (١٩٥) وابن ماجه (٧٨٧) والبيهقي في «السنن» (٤/ ٨٢).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٤٣).

وقد جعل الله الزكاة طهرة للأموال، فالمقياس هو إخراج الزكاة، ولا يضيرك شيء بعد ذلك، إلَّا أن يتصدق العبد وينفق منه في وجوه الخير والبر، ففي المال حق آخر سوى الزكاة، ليس على سبيل الفرض، وإنما يرجع إلى المتصدق وإلى مسارعته في الخيرات وخير ما يكنزه المرء ما جاء في الحديث عن عمر وثوبان ﷺ أن النبي ﷺ كان في بعض أسفاره فقال بعض الصحابة: لو علمنا أي المال خير فنتخذه؟ فقال ﷺ: «**أفضله لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة تعين المؤمن على دينه**»[1].

وعن علي ﷺ: أن رجلًا من أهل الصُّفَّة مات فوجدوا في برده دينارًا، فقال ﷺ: «**كيَّة**» ثم مات آخر فوجدوا فيه دينارين فقال ﷺ: «**كيَّتان**»[2].

ثم توعَّد الله سبحانه مانعي الزكاة بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهم هؤلاء الذين لا يخرجون الزكاة.

ووجه مناسبة هذه الآية لهذه السورة، أن السورة نزلت في غزوة تبوك في وقت العسرة، وكانت الحاجة إلى المال كثيرة، كما جاء في الآية ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة: ٩٢].

ولذا فقد حض رسول الله ﷺ على النفقة، فأنفق عثمان ألف دينار ذهبًا على جيش تبوك، وأنفق غيره الكثير، وقد عنت الآية الذين انكمشوا عن النفقة في سبيل الله يوم الخروج للغزوة.

عُقُوبَةُ مَانِعِي الزَّكَاةِ

٣٥- ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ[3] عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ[3] بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾

---

(١) الحديث في «المسند» (٥/ ٢٨٢) و(٥/ ٣٦٦) ورقمه (٢٣١٠١) حسن لغيره وإسناد رجاله ثقات و«سنن الترمذي» (٣٠٩٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (١٨٥٦) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٧٠).

(٢) «المسند» بأرقام: (٢٢١٧٢، ٢٢١٧٤، ٢٢١٨٠، ٢٢٢٢١) حديث صحيح وإسناد حسن وهو عن أبي أمامة: صُديّ بن عجلان، وأخرجه الطبري في التفسير (١٤/ ٢٢٢) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٧٢) والطبراني في الكبير (٨٠١١).

(٣) أمال حمزة والكسائي وخلف ذوات الياء من (يحمى) و (فتكوى) وقللهما ورش.

ثم ما هذا العذاب الأليم الذي بشر الله به ما نعى الزكاة؟ فسرتْه هذه الآية ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: على كل دينار ودرهم ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُحْمَى على هذه الأموال في نار جهنم فيوقد عليها حتى تبيضَّ من شدة الحرارة ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وقد خُصت هذه الأعضاء بالذكر؛ لأن الغَني إذا أتاه الفقير ليسأله تبدو منه آثار الكراهية، فيتقطَّب وجهه ويتجعَّد جبينُه، فإن كَرَّر السائل سؤاله، أعطاه جنبه، فإن ألَحَّ ولَّاهُ ظَهْره، فتكوى منهم هذه المواضع الثلاثة، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: ذوقوا جزاء ما كنزتم في الدنيا من الأموال، ومنعتُم منه حق الله، فإذا كان يوم القيامة فإن قِطَع الذهب والفضة توضع في النار، فإذا اشتدت حرارتها أُحرقتْ بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم:

١- وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان عنده مال لم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاع أقرع، له زبيبتان يطوقه، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني: شدقيه- ثم يقول: أنا كنزك، أنا مالك**»[1] ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] والحديث مفسر للآية.

٢- وفي حديث آخر عن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله، إلا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**»[2].

٣- وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من فارق الروح الجسد وهو بريء من ثلاث؛ دخل الجنة: الكبر والغلول، والدَّيْن**».

وعند الترمذي وابن ماجه (والكنز) بدلًا من (الكبر)[3].

٤- وفي الصحيحين وغيرهما عن الأحنف بن قيس قال: قدمتُ المدينة، فبينا أنا في

(١) البخاري برقم (١٤٠٣، ٢٣٧١، ٤٦٥٩) ومسلم (٩٨٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ٦٨٢) برقم (٩٨٧) والبخاري (١٤٠٢) وأبو داود (١٦٥٨) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٠).

(٣) «المسند» (٢٢٤٢٧) إسناده صحيح على شرط مسلم و«صحيح سنن الترمذي» (١٢٧٨) والترمذي (١٥٧٣) وصحيح وابن ماجه (٢٤١٢) وابن حبان (١٩٨).

حلَقة فيها ملأٌ من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، خشن الجسد، خشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشِّر الكانزين برَضْف يُحمَى عليه في نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم، حتى يخرج من نُغْض كتفيه، ويوضع على نُغْض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل، قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحدًا منهم رجع إليه شيئًا، قال: فأدبر، وأتبعتُه حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلَّا كرهوا ما قلتَ لهم، قال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئًا، قلت: من هذا؟ قال: أبو ذر، قال: فقمت إليه، فقلت: ما شيء سمعتك تقول، فقال: ما قلت إلا شيئًا سمعته من نبيهم ﷺ هذا لفظ البخاري(١).

حُلِيُّ المرأة: ومن الذهب والفضة زكاة حليِّ النساء، وجمهور أهل العلم على أن الحليَّ المستعمل لزينة المرأة الذي ليس للتجارة، وهو في حدود المستوى الاجتماعي للمرأة لا زكاة فيه، وأن الأحاديث التي وردت بوجوب الزكاة فيه، قيلت في وقت كان الذهب فيه محرمًا على النساء، ونُسخت هذه الأحاديث بالأحاديث الأخرى التي لا توجب الزكاة في حليِّ المرأة، وفي بعضها ضَعْفٌ لا يعتدُّ به.

عقوبة منع الزكاة من بهيمة الأنعام: وفي منع الزكاة من بهيمة الأنعام بيَّن النبي ﷺ أن الإبل تطأ مانع الزكاة منها، يوم القيامة، بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وهكذا البقر والغنم تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها.

أما الخَيْل فتكون لصاحبها سترًا، إذا ربطها في سبيل الله وأخرج حق الله منها، وتكون عليه وزرًا إذا كانت للرياء والفخر، وتكون له أجرًا إذا أعدها للجهاد في سبيل الله ونحوه(٢).

والآية لا تخص الذهب والفضة، وإنما تعني جميع الأموال والزروع والثمار والمتاع وعروض التجارة والأنعام، وكل ما فيه زكاة، وخص الذهب والفضة بالذكر؛ لأنهما أصل الأموال.

والكنز يعني: عدم إخراج الزكاة منه، ولا يعني حفظ المال وادخاره.

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» (١٤٠٧) و«صحيح مسلم» برقم (٩٩٢).

(٢) يُنظَر الحديث بطوله عن أبي هريرة في: «صحيح مسلم» (٢/ ٦٨٠) (٩٨٧) كتاب الزكاة وكذا «صحيح البخاري» برقم (١٤٠٣)، و (٤٦٥٩).

وفي الآية تحذير من التشبه باليهود في كنز المال، وعدم إخراج حق الله منه، كما في حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: **«لتتبعُنَّ سَنَنَ من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»** قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: **«فمن؟»**[1].

وهكذا: ذكر الله تعالى في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله بأحد أمرين:

١- فهو إما أن ينفقه في الباطل الذي لا نفع فيه، بل يناله الشر والضرر، كإنفاقه في الشهوات والمعاصي والصد عن سبيل الله.

٢- وإما أن يمسكه فلا يُخرج حق الله منه، وكلاهما شر منهي عنه.

الأَشْهُرُ الحُرُمُ وَالنَّسِيءُ فِيهَا

٣٦- ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ[2] شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ[3] فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ[4] أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

هذه الآية تتضمن ما كانت تفعله العرب من تحريم أشهر الحل، وتحليل الأشهر الحرم، وقد كان العرب في الجاهلية لا عيش لأكثرهم إلا من الغارات والحروب، وفي العام التاسع من الهجرة كان شهر رجب الذي فيه النفرة إلى غزوة تبوك يوافق جمادى الآخرة، ولم يكن شهر رجب في موعده الحقيقي، وكان شهر ذي الحجة في ذي القعدة، وهذا بسبب تلاعب أهل الجاهلية في الشهور وتأخيرها أو تقديمها عن موعدها؛ كي يستحلوا القتال في الأشهر الحرم.

---

(١) «سنن الترمذي» (٢٠٦/٤) باب ما ذكر عن بني إسرائيل، وأصله في البخاري برقم (٣٤٥٠، ٧٣٢٠) ومسلم برقم (٢٦٦٩).

(٢) قرأ أبو جعفر بإسكان العين ومد الألف مدًا مشبعًا؛ لالتقاء الساكنين من (اثنا عشر) وقرأ الباقون بفتح العين مع القصر، وهما لغتان.

(٣) قوله تعالى (ذلك الدين القيم) عدّها الحمصى آية وليست آية عند بقية علماء العدد.

(٤) قرأ يعقوب بضم الهاء من (فيهُن)، والباقون بالكسر، ووقف عليها بهاء السكت بخلف عنه.

والله ﷻ قدَّر في الأزل أن عدد شهور السنة لا يزيد ولا ينقص، فهي دورة ثابتة لمعيار الزمن، فطَر الله عليها هذا الكون، بحيث لا يقدم الوقت ولا يؤخر.

السنة القمرية: والمراد في الآية: السنة القمرية التي يدور عليها الفلك، ويدور عليها الأمور الشرعية من الصيام، والحج، والأعياد، وأشهر العدة بالنسبة للمرأة، وأيام الحيض والنفاس...إلخ، وهي اثنا عشر شهرًا، وأيامها ثلاث مئة وخمسة وخمسون يومًا، وهي مبنية على سير القمر.

السنة الشمسية: أما السنة الشمسية فهي عبارة عن دورة الشمس في الفلك دورة تامة، وأيامها ثلاث مئة وخمسة وستون يومًا وربع اليوم، فتنقُص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام، ولم تُعرَف السنة الشمسية إلا بعد ظهور علم الفلك والميقات، فانتفع الناس بضبط الفصول الأربعة، وبسبب هذا الفرق تدور السنة القمرية فيقع الصوم والحج تارة في الصيف، وتارة في الشتاء، وهذا النظام حاصل من مجموع الأجرام السماوية والأرضية، ويترتب عليه شهور السنة، ولذلك فإن الله سبحانه قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ لا زيادة فيها، وليست ثلاثة عشر شهرًا كما كان يفعله بعض العرب من بني فُقَيْم، حيث كانوا يؤخرون حرمة المحرم إلى صفر، ويجعلون من شهر المحرم شهرين: شهرًا حلالًا، وشهرًا حرامًا، فتكون السنة ثلاثة عشر شهرًا، وهذا مخالف لما ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ الذي كتب فيه جميع أحوال الخلق، وهو اللوح المحفوظ.

التاريخ الهجري: ولمَّا وُضع التاريخ الهجري جُعل موافقًا لبدء سنة العرب الهلالية من أول شهر المحرم، بتقديم شهرين واثني عشر يومًا؛ عن يوم الهجرة، حيث كان دخول النبي ﷺ المدينة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وهذا الأمر حكَم به الله، وقضاه من بدء الخليقة: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ أي: من هذه الأشهر الاثني عشر، أربعة أشهر حُرم هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم يعظم فيه تحريم القتال وظلم النفس وظلم الآخرين.

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي بكرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاثة**

متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[(١)].

أسماء الشهور الاثنا عشر وعلة التسمية:

١- **المحرم**: وسمي كذلك؛ لكونه شهرًا قد حُرِّم فيه القتال، وكانت العرب تُحِلُّه عامًا وتحرِّمه عامًا، فأكد الإسلام تحريمه.

٢- **صفر**: يقال: صفَر المكان، يعني: خلا، وكانت بيوت العرب تخلو منهم في هذا الشهر؛ لخروجهم للقتال.

٣، ٤- **ربيع الأول، والآخر**: سُميا كذلك؛ لأنهم كانوا يقيمون فيه في بيوتهم، **فالارتباع**: هو الإقامة في عمارة الرَّبْع، أي: العشيرة، أو القبيلة.

٥، ٦- **جمادى الأولى، والآخرة**: سُميا بذلك؛ لجمود الماء فيه من البرد.

٧- **رجب**: من الترجيب وهو التعظيم، وقد أضافه النبي ﷺ إلى قبيلة مُضَر؛ ليبين صحة قولهم: إنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، وليس كما تقول قبيلة ربيعة: إن رجب هو الذي بين شعبان ورمضان، وكان بنو ربيعة بن نزار يحرمون شهر رمضان ويسمونه رجبًا، وكانت قبيلة مُضَر تحرم رجبًا نفسه، ولذا قال ﷺ: **«ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان»** تحديدًا له، وإخراجًا لما كانت عليه ربيعة.

٨- **شعبان**: سمي كذلك؛ لتشعُّب القبائل وتفرقها في البلاد للغارة على الآخرين.

٩- **رمضان**: من شدة الرمضاء وهو الحر؛ أو لأنه يرمِّض الذنوب، ويقللها.

١٠- **شوال**: من شالت الإبل بأذنابها لِلطُّرَّاق.

١١- **ذو القعدة**: بفتح القاف وكسرها؛ سمي كذلك لقُعودهم فيه عن الترحال والقتال.

١٢- **ذو الحجة**: بكسر الحاء وفتحها؛ لأداء مناسك الحج ووقوعه فيه، وقد جُعل آخر

---

(١) من حديث طويل رواه أحمد في «المسند» (٢٠٣٨٦) حديث صحيح، وإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، وهذا لفظه، والبخاري، «فتح الباري» (٨/ ١٧٥) ورقمه في البخاري (٣١٩٧، ٤٦٦٢، ٧٤٤٧) وغيره، ومسلم (٣/ ١٣٠٥) برقم (١٦٧٩) بنحوه، وأبو داود (١٩٤٨) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩١) والبيهقي في «الشعب» (٣٨٠٥) وغيرهم.

العام؛ كي يُختم بفريضة الحج.

أيام الأسبوع وقد كانت العرب تسمي الأيام قبل هذه التسمية المعروفة بما يلي:

الأحد: أول. الإثنين: أهون. الثلاثاء: جبار. الأربعاء: دبار

الخميس: مؤنس. الجمعة: العَروبة. السبت: شيار

والمقصود من الآية: ضبط الأشهر، وإبطال ما أدخله المشركون فيها من النسيء، الذي أفسدها وأفضى إلى اختلاطها، وأزال حُرمة ما لَهُ حُرمة منها، وأكسب حرمةً لِما لا حُرمة له منها. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [يونس: ٥].

وبعد ظهور علم الفلك والمواقيت، انتفع الناس بسير الشمس في دورتها بضبط الفصول الأربعة.

وكان الحساب الشمسي معروفًا عند المصريين والكلْدانيين، وجاءت التوراة بتعيين الأوقات القمرية للأشهر، والشمسية للأعياد.

قال قتادة: إن الله اصطفى من الملائكة رسلًا، ومن الناس رسلًا، واصطفى من الكلام ذِكْرَه، ومن الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، ومن الليالي ليلة القدر، فعظِّموا ما عظَّم الله(١).

وهذه الأشهر الحرم، منها: شهر رجب في وسط العام، وقد كان أهل الجاهلية يعتمرون في شهر رجب، ويزورون البيت.

وقَصْدُ العمرة في شهر رجب تقليد جاهلي لم يُقرّه الإسلام، وفي شهر ذي القعدة، وذي الحجة، يأتي الناس إلى الحج ويعودون.

وحرمة هذه الأشهر من لدن إبراهيم عليه السلام، فهو أول من حرمها؛ كي يأمن الحاج والمعتمر على نفسه في ذهابه وإيابه، وهذا هو الشرع المستقيم الذي لا عوج فيه ولا التواء، وهو الدين القويم الثابت الحكيم، الذي لا تغيير فيه ولا تبديل ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ﴾ وليس ما شرعه أهل الجاهلية لأنفسهم **وهذا التحريم يشمل أمرين:**

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣١) وابن كثير (٤/ ١٤٧).

أ - يشمل تحريم القتال في الشهر الحرام، فكان أحدهم لو لقي قاتل أبيه، أو ابنه، أو أخيه في هذه الأشهر الأربعة، لا يُهيِّجه، ولا يتعرض له ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] أيْ: ذَنْبٌ كبير، وجاء في تحريم مكة: **«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»**[١].

وقد كانت الحروب تقوم بين العرب لأتفه الأسباب.

ب - **ويشمل كذلك تحريم ارتكاب المعاصي فيها** بشكل عام؛ فإن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزْرًا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن الله يعظِّم من أمره ما شاء ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: بارتكاب المعاصي، وفي مقدمتها القتال وإرهاب الناس.

وارتكاب المعاصي محرم في كل وقت من العام، ولكنه في الأشهر الحرم، والبلد الحرام أشد إثمًا وأعظم جرمًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ويشمل أيضًا الإكثارمن الطاعات، في جميع السنة،ولكنه في الأشهر الحرم، والمسجد الحرام، أجره أعظم، وثوابه أجزل، ولا يزال هذا معمولاً به من لدن إبراهيم ﷺ، وقد عظَّمت ذلك العرب، وورثوه عن آبائهم إلى أن جاء محمد ﷺ وأقره القرآن.

والضمير من ﴿فِيهِنَّ﴾ يعود على الأشهر الحرم في قول أكثر المفسرين، وقيل بعودته على جميع الأشهر؛ لأن المقصود منع الإنسان من المعاصي والفساد مطلقًا.

وقد خص الله بعض الأوقات بالتعظيم والاحترام؛ ليمتنع الإنسان فيها من القبائح والمنكرات، ثم يتعود ذلك في بقية الأوقات؛ فتكون الأوقات الشريفة سببًا في ترك الظلم وسائر المعاصي في بقية الشهور، وهذه هي الحكمة من تخصيص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بمزيد من الفضل والنفحات.

ثم حذر سبحانه من القتال في الشهر الحرام، وبيّن تعالى أن هذا لا يقتضي

---

(١) من حديث ابن عباس في صحيح البخاري (١٥٨٧، ١٨٣٤) وصحيح مسلم (١٣٥٣).

النهي عن قتال المشركين في الشهر الحرام إذا هم بدؤوا بقتال المسلمين فيه؛ فيكون المعنى: فإن بدؤوكم بالقتال فيه فقاتلوهم فيه، قال سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي: تعاونوا، وتناصروا، واجتمعوا على قتال المشركين أعداءكم، ولا تتخاذلوا، ولا تجَبُنوا عن مقاتلتهم، كما أنهم يقاتلونكم بالتحالف مع غيرهم، فقاتلوا جميع المشركين كما يقاتلون جميع المؤمنين، ولا تقاتلوهم في الشهر الحرام إلا إذا قاتلوكم فيه ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١]

وقال جل شأنه ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

فتحريم القتال في الشهر الحرام نُسِخ بإباحة الجهاد في جميع الأوقات، سِيَّمَا بعد انقراض المشركين من بلاد العرب بعد سنة الوفود، ومن أهل العلم من قال: إن القتال في الأشهر الحرم لم يُنسخ، عملًا بالنصوص العامة.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر والتأييد، وفي هذا بشارة وضمان لأهل التقوى، ومن كان الله معه فلن يغلبه شيء. قال تعالى:

٣٧- ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ(١) زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ(٢) بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ(٣) عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ(٤) أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

كان أهل الجاهلية إذا وجدوا أنفسهم بحاجة إلى القتال في شهر من الأشهر الحرم،

(١) قرأ الأزرق وأبو جعفر بإبدال الهمزة ياء، وإدغامها في الياء التي قبلها من لفظ (النسيء) فيصير النطق بياء مشددة، والباقون بالهمز، فتكون من قبيل المد المتصل.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الياء وفتح الضاد من (يُضَل) مضارع أضل، و (الذين كفروا) نائب فاعل، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الضاد، والفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة، و (الذين كفروا) مفعول.

(٣) قرأ أبو جعفر (لِيُوَاطُوا)، والباقون (لِيُوَاطِئُوا).

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة واوًا من (سوء أعمالهم)، والباقون بتحقيقها.

أخّروا حُرمة هذا الشهر إلى الشهر الذي يليه أو قدّموه، ليحافظوا على عدد أشهر السنة، فيحلوا بهذا الصنيع ما حرم الله، ويزدادوا كفرا إلى كفرهم، فهم يشرعون لأنفسهم ما لم يأذن به الله، ويجعلون الحرام حلالا والحلال حراما، فيحتالون على الله ويخدعون عباد الله، ويحسّنون القبيح في أعين الناس، وهكذا زين الشيطان لهم سوء أعمالهم، فضلوا وأضلوا.

أخرج ابن جرير عن أبي مالك قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهرًا، فيحلُّون المحرم صفرًا، فيستحلون فيه المحرمات، فأنزل الله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾[1].

وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: **النسيء**: هو أن جُنادة بنَ عوف بن أمية الكناني، كان يوافي الموسم كل عام، وكان يكنَّى أبا ثمامة فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب، ألا وإن صفرًا العام الأول، العام حلال. فيحله الناس، فيحرِّم صفرًا عامًا، ويحرِّم المحرم عامًا.

وقال مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول: أيها الناس إني لا أُعاب ولا أُجاب، ولا مردَّ لما أقول، إنا قد حرَّمنا المحرم، وأخَّرنا صفرًا، ثم يجيء العام المقبل، ويقول: إنا قد حرّمنا صفرًا، وأخرنا المحرم، فذلك قوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[2].

فالنسيء: هو تأخير حرمة شهر إلى آخر، وهو زيادة في الكفر؛ لأن تحريم ما أحله الله، وتحليل ما حرمه الله كفر آخر يضاف إلى كفرهم؛ لأنه جمَع بين الكفر في العقيدة، والكفر في التشريع.

وقد جاء لفظ النسيء بمعنى: التأخير في حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من أحب أن يُبسَط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه»**[3].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/ ٩٣) و«أسباب النزول» للسيوطي (١٣٩).

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ١٣٤) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٣) وجاء هذا عن ابن عباس والضحاك وابن عمر وقتادة والسدي وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٧) و«صحيح البخاري» برقم (٢٠٦٧، ٥٩٨٦).

ويُنسأ له في أثَره، أي: يؤخر الله في عمره، ويطيله كما جاء نفْي النسيء الذي كان معتادًا في الجاهلية بالنسبة لشهر صفر، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا عدوى، ولا صفر، ولا هامة»**[١] أي: لا صفر يُنسأ ويؤخر، عن موضعه من الشهور.

وقد كان الناس في الجاهلية يغيرون في الأشهر الحرم، فإذا أرادوا أن يقاتلوا في شهر المحرم نقلوا حرمته إلى الشهر الذي يليه، أو الذي قبله، فيزيلون بذلك الفضيلة التي خص الله بها الأشهر الحرم.

ولذا فقد كانت قبيلة مُضَر تجعل شهر رجب بين شعبان وجمادى الآخرة، أي: في موعده الصحيح.

وكانت قبيلة ربيعة تجعله مكان شهر رمضان؛ وذلك لقصد استحلال القتال فيه.

والنبي ﷺ صحَّح ذلك في خطبة حجة الوداع، فقال: **«ورجب مضر الذي بين شعبان وجمادى»** فهذا هو رجب الصحيح، وليس هو رجب قبيلة ربيعة الذي هو شهر رمضان.

قيل: إن أول من نسَّأ النسيء من بني كنانة رجل يلقب بـ (القَلَمَّس) واسمه: حذيفة بن مُدركة بن عبد فُقَيْم.

قال ابن حزم: وكل من صارت إليه مرتبة النسيء كان يسمى القَلَمَّس.

وقال القرطبي: كان الذي يلي النسيء يَظْفَر بالرئاسة.

وكان القلَمَّس يقف عند جمرة العقبة، ويقدم ويؤخر في الشهور، وجنادة بن عوف هو آخر من أنسأ؛ لأنه أدرك الإسلام.

وقيل: إن أول من فعل ذلك هو عمرو بن لحي، ورَّثه أبناءه وأحفاده، وكان يخطب في الناس، ويقول لهم: لا مردَّ لما قضيت، أنا الذي لا أُعاب ولا أُجاب -أي: لا يُعيبني أحد، ولا يجيبني أحد- فيقولون له: لبيك، ثم يُنسئهم شهرًا، قائلًا: لقد حَرَّمتُ صفرًا، وأخَّرتُ المحرم، فالنسيء يُطْلَق على الشهر الحرام الذي أُخِّرتْ حرمتُه، وجُعِلت لشهر آخر.

أما أسباب هذا النسيء: فقد كان العرب أصحاب حروب وغارات يَحْصُلُون من خلالها

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٧١٧، ٥٧٧٠، ٥٧٧٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٠).

على غنائم من أعدائهم، ويكاد الهلاك يصيبهم لو تركوا القتال فيها، ولهذا قدَّموا وأخَّروا في الأشهر الحرم، وَفْق أهوائهم وقد كان يشق عليهم ترك القتال ثلاثة أشهر متوالية، ويكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال، فيؤخرون حرمة الشهر إلى الذي يليه، وهذا الصنيع ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ فهم كفار بطبيعة الحال، وهذا يزيدهم كفرًا على كفرهم؛ لأنه من أعمال الكفر.

وكان بعضهم ينسب هذا النسيء إلى الآلهة، وكان ابتداء العمل بالنسيء سنة عشرين ومئتين قبل الهجرة[1].

ومحل الذم في النسيء هو ما يحصل من تغيير في أوقات الحج المعينة من الله تعالى، ومن تغيير حرمة بعض الأشهر في سنين كثيرة، وكانوا يفعلون ذلك؛ ليوافقوا ما حرم الله من الأشهر الأربعة من حيث العدد، لا من حيث الحكم، فليست الأشهر التي حرموها على أنفسهم هي التي نص الله على تحريمها، وفيه جرأة على دين الله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بتغييرهم الأشهر المحرمة، وقد زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة؛ لأن حرمة الزمان والمكان توقيفية، تُتلقَّى من الوحي الإلهي، وقد أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ أن وقفة عرفة تكون يوم التاسع من ذي الحجة، ويوم الحج الأكبر يوافق يوم العاشر منه.

والله تعالى لا يوفِّق الكافرين للحق والصواب.

وإلى هنا تنتهي سبع وثلاثون آية من السورة تَحَدَّدَ فيها العلاقات بين المسلمين وغيرهم في الداخل والخارج.

بَدْءُ الْحَدِيثِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ: عُقُوبَةُ التَّخَلُّفِ عَنِ النَّفِيرِ الْعَامِّ

٣٨- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ[2] لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

---

(١) «التحرير والتنوير» (١١/ ١٩١).

(٢) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسر القاف من (قيل) للضم، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

وهذه الآية وما بعدها نزلت عتابًا لمن تخلَّف عن غزوة تبوك؛ إذ تخلف عنها قبائل، ورجال من المؤمنين والمنافقين، والعتاب في هذه الآية للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وفيها حض وتحريض على الجهاد في سبيل الله بطريقة العتاب على التباطؤ في إجابة داعي النفير، وتسمى هذه الغزوة: غزوة العُسْرة، والحديث عنها في السورة يبدأ من هذه الآية.

غزوة تبوك: وتبوك: اسم لمكان معروف بجنوب الشام وشمال المدينة، وهي آخر الغزوات، ولم يجد فيها النبي ﷺ جموعًا للروم، فأقام بضع عشرة ليلة، ثم عاد إلى المدينة.

وكانت في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة بعد عودته ﷺ من الطائف، فخرج إليهم في عشرين ألفًا بين راكب وراجل، ولم يلق الرسول ﷺ فيها حربًا ولا قتالًا، وإنما كان قد بلغه أن هرقل ملك الروم قد أعدَّ عُدَّته مكونة من مئة ألف، ومئة ألف أخرى من القبائل المتاخمة؛ لحرب النبي ﷺ، والقضاء على الإسلام وأهله، وكان الوقت وقت حر وعُسرة، وجدب وشدة، حين طابت الظلال وحان وقت إدراك ثمار المدينة، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يتأهبوا للخروج إلى غزو الروم.

وكان من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يخرج إلى غزوة لا يصرِّح بها، وإنما يورِّي ويوهم مكانًا غير المكان المقصود، أما هذه الغزوة فقد صرَّح بها النبي ﷺ؛ لكي يتأهب القوم ويستعدوا، وذلك لبعد المسافة التي تبلغ نحو سبع مئة كيلو متر تقريبًا، ولشدة القيظ وقتئذ.

قال الطبري وغيره: نزلت هذه الآية في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن رسول الله ﷺ لمَّا رجع من الطائف وغزوة حُنَيْنٍ، أمر بالجهاد لغزو الروم، وذلك في زمان عُسْرة من البأس، وجدب من البلاد وشدة الحر، حين أحرقت النخل، وطابت الثمار، فعَظُم على الناس غزو الروم، وأحبُّوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، فلما علم الله تثاقل الناس أنزل هذه الآية[١].

وحضَّ النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه على الإنفاق في سبيل الله لتجهيز الجيش؛ لأن تجهيز الجيش لم يكن من قبل الدولة، وإنما كان الأشخاص هم الذين يتبرعون

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/ ٩٤) و«أسباب النزول» للواحدي (٢٠٧) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٦).

ويعدون أنفسهم، وينفقون أموالهم لتجهيز الغزو في سبيل الله.

جاء أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه بأمواله كلها ووضعها بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام فسأله الرسول ﷺ: **«ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر؟»** قال: تركت لهم الله ورسوله، ولي عند الله المزيد، أي: لي من الأجر والفضل الشيء الكثير؛ فهو يبتغي بذلك وجه الله سبحانه.

وجاء عمر رضوان الله تعالى عليه بنصف ماله، فسأله النبي ﷺ: **«ماذا تركت لأولادك يا عمر؟»** قال: تركت لهم نصف مالي، ولله عندي مزيد، فهو يرى أنه مقصر، وأنه مَدين لله ﷻ بما هو أكثر من نصف ماله.

وجهَّز عثمان ثلث الجيش، فأعطى المئات من الإبل، والآلاف من الدراهم والدنانير، وأخذ يضع في حجر النبي عليه الصلاة والسلام بالأموال، حتى قال ﷺ: **«ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»**(١) وأخبر عليه الصلاة والسلام: أن الله تعالى يحب عثمان رضي الله عنه وأرضاه، وكذا رسوله ﷺ.

وإلى جوار ذلك فقد تثاقل قوم وترددوا عن الجهاد في سبيل الله، والخروج لغزوة تبوك، والقرآن الكريم في سورة التوبة يفضحهم ويبيِّن أحوالهم.

ويبدأ الحديث عنها بآيتين فيهما وعيد شديد، وترهيب وتخويف وإنذار لكل من يتثاقل أو يتخلف عن الجهاد في سبيل الله، وفيهما وعيد لمن يَحْذف هذه الكلمة من قواميس أبنائهم، ومن مناهج تعليمهم وعدم تعويدهم وتدريبهم على الجهاد في سبيل الله منذ نعومة أظافرهم، وبيان أن ذلك يؤدي إلى الذلة والهوان في الدنيا والآخرة وإلى عذاب الله سبحانه.

والمسلمون في هذه الحالة يكونون أهلًا؛ لأن يبدل الله بهم قومًا غيرهم، يؤدون واجب الله عليهم، يحبهم ربنا ويحبونه، ويقومون بواجب الجهاد في سبيل الله، ولو لم يَنْزِلْ في القرآن الكريم عن الجهاد إلا هاتين الآيتين لكفتا المسلم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ﴾ هذا تأنيب، وتوبيخ، وتقريع على ترك الجهاد في سبيل الله، وعتاب لمن يتخلف عنه، وقد ناداهم ربهم بصفة الإيمان؛ لتحريك قلوبهم وتوجيه

---

(١) قال الألباني: حديث حسن، كما في صحيح الترمذي (٢٩٢٠) ومشكاة المصابيح (٦٠٦٤) وصححه الحاكم برقم (٤٥٥٣) وهو في الترمذي (٣٩٦٧).

عقولهم إلى طاعة الله.

ومعنى ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ أي: اخرجوا للجهاد في سبيل الله تباطأتم و تكاسلتُم وكرهتم الخروج له، وفي الحديث عن ابن عباس ﷺ: «**وإذا استنفرتم فانفروا**»[١].

ولو لم يكن الجهاد واجبًا لما عاتبهم الله تعالى، والعتاب يكون على أمر منكر، وهو هنا: القعود عن قتال الأعداء، وسبيل الله هو الجهاد؛ لأنه الطريق الموصل إلى رضاه سبحانه.

ومعنى ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تخلَّفتم، وتباطأتم، وتكاسلْتم، وترددتم، وركنتم إلى الدنيا، والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنساني، فإذا لزمتم مساكنكم، وآثرتم حظوظكم الدنيوية على النعيم الأخروي، فما تستمتعون به في الدنيا، ما هو إلا نعيم زائل، وقليل فانٍ، أما نعيم الآخرة فهو كثير دائم، فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء قليل مستحقر لا قيمة له، بالاضافة إلى أن عمر الإنسان قصير جدا بالقياس إلى الحياة الدائمة في الآخرة.

وفي الحديث عن المسْتوْرد أخي بني فِهر: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليمِّ، فلينظر بم يرجع؟**» وأشار إلى السبابة[٢].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق داخلًا من بعض العالية، والناس كنفَتهُ، فمرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ ميِّت، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أيكم يحب أنَّ هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم**»، قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنه أَسَكُّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[٣].

وهذا معنى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾.

---

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» برقم (١٣٤٩، ٢٨٢٥) و«صحيح مسلم» (١٣٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٢٢٨) برقم (١٨٠٠٨، ١٨٠١٢) إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير المستورد فمن رجال مسلم، ومسلم (٤/٢١٩٣) برقم (٢٨٥٨) والحاكم (٤/٣١٩) من حديث المسْتوْرِد أخي بني فهر، وقد أخرجه أيضًا ابن أبي شيبة (١٣/٢١٨) والترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه (٤١٠٨) وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٧).

عن أبي حازم قال: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: ائتوني بكفني، فنظر إليه وهو يُحتضَر، ثم ولَّى ظهره وبكى وهو يقول: ما أُخلِّف من الدنيا إلا هذا؟! أفٍّ لكِ من دار، إن كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور[١].

أي: فهل رضيتم براحة الدنيا ومتاعها عن الدفاع عن دينكم وعقيدتكم؟ إن كان أَمْرَكُم كذلك فقد أخطأتم الصواب؛ لأن متاع الدنيا قليل.

وحب الدنيا وكراهية الموت، وتفضيلها على الجهاد في سبيل الله، هو سبب المذلة والهوان، صرح بذلك المصطفى ﷺ في الحديث المشهور عن ثوبان ﵁: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**» قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[٢].

فإذا أحبوا الدنيا على الجهاد في سبيل الله، وكرهوا الشهادة في سبيله، فإن هذا هو الهوان، وهذه هي المذلة في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﵁: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق**»[٣].

«**ومن سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[٤].

مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلَّا ذَلُّوا

٣٩- ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[٥] وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ

(١) كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥٤) وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٧).

(٢) من حديث ثوبان في «المسند» (٢٢٣٩٧) قال محققوه: إسناده حسن، وأخرجه أبو داود (٤٢٩٧) والطبراني في «الكبير» (١٤٥٢) والبغوي (٤٢٢٤) والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٧٢).

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٩١٠).

(٤) من حديث سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده في «صحيح مسلم» برقم (١٩٠٩).

(٥) عدّ (عذابا أليما) الدمشقي وحده وتركها الباقون.

عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

هذا وعيد من الله تعالى لمن لا يخرج للجهاد في سبيل الله عند الحاجة إليه، وعيد بالعذاب المؤلم واستبدالهم بقوم آخرين يطيعون الله ورسوله، ولن تضروا الله شيئا، وإنما ضرر ذلك يعود عليكم، والله تعالى لا يعجزه شيء.

أخرج ابن أبي حاتم عن نجدة بن نفيع قال: سألت ابن عباس ﷺ عن هذه الآية فقال: استنفر رسول الله ﷺ أحياءً من العرب فتثاقلوا عنه، فأنزل الله ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ فأمسك عنهم المطر، فكان عذابهم[1].

وأخرج الطبري عن قتادة بسند حسن، قال: استنفَر اللهُ المؤمنين في لهبان الحر، في غزوة تبوك قِبَل الشام، على ما يعلم الله من الجهد.

وفي هذه الآية تهديد لهم إن لم ينفروا للجهاد في سبيل الله فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ أي: إلَّا تخرجوا مجاهدين حيثما طلب منكم الجهاد، في أي زمان ومكان، ينزل الله بكم عقوبته ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فهو عذاب عام يشمل عذاب الدارين، ويدخل تحته جميع أنواع العذاب.

ثم أعطى الله رسوله وعدًا بأن يبدلهم بقوم آخرين؛ لا يقعدون عن الجهاد إذا اقتضى الأمر ذلك فقال: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يكونون أطوع منكم وأكثر استجابة، يطيعون الله ورسوله، ويستنفرون إذا استُنفروا؛ لأنكم في هذه الحالة لا تستحقون الحياة، ولستم أهلًا لها، فتكونون جديرين بأن يستبدل الله بكم قومًا خيرًا منكم وأطوع؛ لإعزاز دين الله، وإعلاء كلمته كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى في عتاب قوم: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

---

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٣٩) و«زاد المسير» (٣/٤٣٨) وبنحوه في «سنن أبي داود» برقم (٢٥٠٦) وفي سنده مجهول هو نجدة بن نفيل، والحديث عند الحاكم (٢/١١٨) والبيهقي في «السنن» (٩/٤٨) والطبري (١١/٤٦١) وغيرهم.

والله تعالى لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، وهذا معنى ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾؛ لأن الله غني عن العالمين، بل تضرون أنفسكم بالتخلف عن الجهاد ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو قادر على أن ينصر دينه ويعلي كلمته من غير حرب، ولا قتال ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] وهذا الوعيد يقتضي وجوب الخروج للجهاد على كل فرد، ولا يُغني بعضهم عن بعض، إذا كان فرض عين.

الهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ

٤٠- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ[١] إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ[٢] ۗ وَكَلِمَةُ[٣] ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا(٢) ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يبيِّن الله سبحانه أنه متكفِّل بنصر الرسول ﷺ وناصره من أعدائه كما نصره في الغار، وينصر عباده المؤمنين الصادقين، فإن أنتم أيها المتثاقلون خرجتم مع رسول الله ﷺ نصره الله بكم، وإن تخاذلتم وتكاسلتم وتقاعستم، ولم تخرجوا معه نصره الله دونكم، والدليل على ذلك من الواقع في هذه الآية ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ هذا خطاب للمتثاقلين عن الخروج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، أي: إلا تنصروه فهو غني عن نصرتكم له بنصر الله إياه، كما نصره يوم حُنَيْنٍ، وكما نصره ليلة الهجرة، وكما نصره في يوم بدر.

فيا معشر أصحاب رسول الله: إلا تنفروا معه إذا استُنفرتم، وإلا تنصروه إذا طلب منكم النصرة والنفرة، فاعلموا أن الله قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم؟ وإن لكم فيما حُدث ليلة الهجرة عبرة وعظة:

---

(١) قرأ أبو عمرو والدوري والكسائي بإمالة ألف (في الغار) وبالفتح والإمالة ابن ذكوان وقللها الأزرق عن ورش، والباقون بالفتح.

(٢) أمال حمزة والكسائي وخلف العاشر ألف (السفلى، و العليا) وبالفتح والتقليل الأزرق وقللها أبو عمرو، وفتحهما الباقون.

(٣) قرأ يعقوب بنصب التاء من (وكلمةَ الله) عطفًا على (الذين كفروا)، وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء، ولا خلاف في نصب (كلمة الذين).

لقد اجتمع المشركون حول بيت رسول الله ﷺ شاهرين سيوفهم يريدون قتله، وأخرجه الله من بين ظهرانيهم، ووصل إلى الغار، ومعه شخص واحد هو أبو بكر ﷺ، لقد نصره الله بهذا الرجل الواحد، ووصل المشركون إلى الغار، ووقفوا عليه بعد أن تتبعوا أثره، ثم أنزل الله السكينة والطمأنينة على رسوله، وهذه السكينة نزلت على رسول الله وحده، ولذلك فإن أبا بكر قد جزع وهو في الغار، وقد أيَّد الله رسوله بجنود لم يرها أحد من البشر وهم الملائكة، فقد حمت النبي ﷺ في الغار، وصرفتْ أنظار المشركين عن أن ينظروا تحت أقدامهم؛ حتى لا يرَوْا النبي ﷺ وصاحبه في الغار.

كما أيَّد الله رسوله بالملائكة يوم بدر، والأحزاب، وحُنَيْنٍ، وألقى الله الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وهُزِموا، وفي هذا يقول أبو بكر ﷺ: والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، وقال ﷺ: **«يا أبا بكر ما بالك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا»**.

لقد نصره الله دونكم، وهو ثاني اثنين: هو، وأبو بكر الصديق، وكان الكفار قد ألْجؤوهما إلى نقب عظيم في جبل ثور، على بُعد خمسة أميال من مكة ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾ أبي بكر لمَّا رأى منه الخوف عليه ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بنصره، وتأييده ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وأنجاه الله من عدوه، وأذل أعداءه.

عن البراء قال: بينما رجل من أصحاب النبي ﷺ يقرأ، وفرس له مربوط في الدار، فجعل ينفر، فخرج الرجل، فنظر فلم ير شيئًا، وجعل ينفر، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **«تلك السكينة تنزلت بالقرآن»**[١].

وجعْل كلمة الشرك والكفر السفلى، وكلمة التوحيد هي العليا بإعلاء شأن الإسلام، فهو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبير شؤون خلقه.

فكلمة الله: دينه الذي ارتضاه لعباده، وأساسه كلمة التوحيد، أما **كلمة الكفار**: فهي الشرك والمشركون، وقد وعد الله رسوله والمؤمنين بالنصر في الدنيا والآخرة.

قال الشعبي: عاتب الله أهل الأرض جميعًا في هذه الآية غير أبي بكر.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٦١٤، ٤٨٣٩) و«صحيح مسلم» برقم (٧٩٥).

وعن أنس ﷺ أن أبا بكر حدَّثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، قال: فقال: **«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»**[١].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[٢].

الرسول يستبقي أبا بكر للهجرة معه:

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ لم يكن يمرُّ عليه يوم إلا ويأتي أبا بكر بُكْرة وعشية، فلما ابتُلِيَ المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة، فلما بلغ برك الغماد لقيه ابن الدُّغنَّة، فقال له: إن مِثلك لا يَخرج ولا يُخرج، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك، وطاف على أشراف قريش يخبرهم أنه أجارَ أبا بكر فأنفذَتْ قريش وأمَّنُوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره، ولا يرفع صوته بصلاته ولا بقراءته.

ثم إن أبا بكر بنى مسجدًا في داره، وأخذ الناس يُعْجَبُون به وينظرون إليه، فغضبتْ قريش واحتجَّت لدى ابن الدُّغنَّة، فذكر ذلك لأبي بكر، فقال له: إني أردُّ إليك جوارك، وأرْضى بجوار الله، ثم أمر النبي بالهجرة إلى المدينة، ورجع الناس من الحبشة إلى المدينة، ولما أراد أبو بكر الهجرة إليها قال له النبي ﷺ: **«على رِسْلِك، فإني أرجو أن يؤذن لي»** فجهَّز أبو بكر راحلتيْن لمدة أربعة أشهر.

قالت عائشة: وبينما نحن في نحر الظهيرة إذ بقائل يقول: هذا رسول الله متقنّعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداه أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمْر، فاستأذن، فأذن له، ثم قال: **«إني قد أُذن لي في الخروج»** فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، وأبى النبي ﷺ إلَّا أن يدفع ثمن الراحلة التي أعدها له أبو بكر، وجُهِّز

---

(١) رقمه في البخاري (٣٦٥٣، ٣٩٢٢، ٤٦٦٣) ومسلم (٤/ ١٨٥٤) برقم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة برقم (٢٣٨١) والترمذي (٣٠٩٦) و«المسند» برقم (١١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٦٢٧٨) وابن أبي شيبة (١٢/ ٧)، وأبو يعلى (٦٦).

(٢) رقمه في البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٧٤٥٨) ومسلم (٣/ ١٥١٢) برقم (١٩٠٤) وأبو داود (٢٥١٧) والترمذي (١٦٤٦) والنسائي (٣١٣٦).

لهما الراحلتان، قالت عائشة: وصنعنا لهما سُفرة في جراب، فقطعتْ أسماء قطعة من نطاقها فربطتْ به على فم الجراب، فسُميت ذات النطاقين، وتوجها إلى غار ثور، ومكثا فيه ثلاث ليالٍ، يأتيهما أثناءها عبد الله بن أبي بكر بأخبار قريش وقت السحر ويصبح بين قومه، ويبيت عندهما عامر بن فُهَيْرة بغنمه ليشْربا، فيأتي بعد العشاء ويذهب وقت الغلَس، أما عبد الله بن أُرَيْقط، فقد كان دليلهما إلى المدينة، حيث دفعا إليه بالراحلتين؛ ليأتيهما في غار ثور بعد ثلاث ليالٍ يصحبهما إلى المدينة من الطريق الجنوبي عكس الذاهب إليها، وكان هذا الدليل كافرًا![1].

قال سراقة بن مالك: خرجتُ أطلب النبي ﷺ وأبا بكر، حتى إذا دنَوْتُ منهم عثُرتْ فرسي، فقمتُ فركبْتُ، حتى إذا سمعتُ قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يُكْثر التَّلفُّت، ساخَتْ يدا فرسي في الأرض حتى بلَغَتا الركبتين، فخررْتُ عنها، ثم زجرْتها فنهضَتْ، فلم تكد تُخرِج يديْها، فلما استوت قائمة إذَا لأثَر يديْها عُثَان -أي: دخان يخرج من تحت يديها من غير نار- ساطعٌ في السماء مثل الدخان، فناديْتُهما بالأمان فوقفا لي، ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبس عنهما أنه سيظهر رسول الله ﷺ[2].

أبو بكر يَفْدي رسول الله بنفسه في الغار: ولما ذُكر أبو بكر عند عمر بعد موت أبي بكر، في خلافة عمر ﷺ، فقال: وددتُ لو أن عملي كله -أي: عمله الصالح في حياته كلها- مِثْلَ ليلة واحدة من ليالي أبي بكر، ويومًا واحدًا من أيامه قال: أمَّا الليلة، فليلة أن سار مع النبي ﷺ إلى الغار، كان أبو بكر يمشي تارة خلف رسول الله، ويمشي تارة أمامه، وتارة عن يمينه، وتارة عن شماله، قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«ما لَك يا أبا بكر؟»** قال: يا رسول الله، أذكُر الطَّلَب فأمشي خلفك، وأذكر الرَّصْد فأمشي أمامك، وأذكُر أنهم قد يأتونك من اليمين أو اليسار، فأمشي على يمينك أو على يسارك.

فلما وصلا إلى الغار، قال أبو بكر للنبي ﷺ والله: لا تدخلْه حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخله ﷺ فكنسه، فوجد في جانبه ثُقبًا، فشق ثوبه ووضعه في هذا الثقب، ثم وجد ثُقْبين آخرين فألقمهما رجلاه، وطلب من النبي عليه الصلاة

---

(١) يُنظَر الحديث في: «صحيح البخاري» برقم (٣٩٠٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

والسلام أن ينزل، وقال له: إن هلكْتُ أنا يا رسول الله، إنما أنا رجل، وإن هلكْتَ أنت هلكَتِ الأمة.

واستراح الرسول ﷺ في الغار، ووضع رأسه في حجر أبي بكر ونام، فلُدِغ أبو بكر من الجُحْرَيْن في رجليه، ولم يتحرك أبو بكر ﷺ مخافة أن يستيقظ النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن دموعه غلَبَتْه من شدة الألم، فسقطتْ على وجه الرسول ﷺ فاستيقظ عليه الصلاة والسلام، فقال: **«ما لك يا أبا بكر؟»** قال: لُدِغْتُ يا رسول الله، فداك أبي وأمي، فتفل عليه النبي ﷺ فذهب ما يجده أبو بكر من ألم.

ولذا يقول عمر ﷺ: وددتُ لو أن عملي كله يساوي ليلة من ليالي أبي بكر، أو يومًا من أيامه.

أما اليوم، فإنه لما مات النبي ﷺ، وارتدَّ من ارتد من العرب، ومنع الزكاة مَنْ منَع، وأراد أبو بكر أن يقاتلهم، قال عمر: يا خليفة رسول الله، تألَّف الناس، وارْفُق بهم، فقال أبو بكر: أجبَّار في الجاهلية، خوَّار في الإسلام؟ لقد انقطع الوحي، وتم الدِّين، أينقُص الدين وأنا حيٌّ؟ والله لو منعوني عناقًا -أو عقالًا كما في رواية أخرى- كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

يغبط عمر أبا بكر ﷺ على هذا الموقف، ويقول: وددت لو أن عملي كله يساوي مثل هذا اليوم من أيام أبي بكر[1].

يقول الحسن بن الفضل: من قال: إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر؛ لأنه أنكر نص القرآن.

موقف آخر لأبي بكر في الغار: والله سبحانه وجَّه اللَّوم للخلق كلهم، ما عدا أبا بكر ﷺ، فهو وحده الذي كان معه في الغار.

في الصحيحين أن أبا بكر ﷺ اشترى رحْلًا من (عازب) فسأله عن ليلة الهجرة، قال: سِرْنا ليلتنا كلها حتى وقت الظهيرة، ورُفعتْ لنا صخرة طويلة لها ظل، فنزلنا عندها،

---

(١) يُنظَر: البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٧٦) وابن عساكر (٣٠/ ٨٠) عن ضبَّة بن مِحْصَن العنزي وأخرج بعضه ابن مردويه عن أنس بن مالك، وعن جُنْدُب بن سفيان وأبو نعيم في «الدلائل» وابن المنذر وأبو الشيخ وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٣٤) وانظر: «الدر المنثور» (٧/ ٣٧٣).

وسوَّيْتُ مكانًا ينام النبي ﷺ في ظلها، ثم بسطتُ عليه فروة، ثم قلت: نمْ يا رسول الله، وأنا أنفُض لك ما حولك.

وإذا براعي غنم مُقْبل بغنمه إلى الصخرة، فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة، فقلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم، قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم، فأخذ شاة، فقلت له: انْفُض الضرع من الشعر والتراب والقذى، وأخذ (البراء) يحلب من شاة أخرى، فحلب لي في قعْب معه، قال أبو بكر: ومعي إداوة أرْتوي فيها للنبي ﷺ؛ ليشرب منها ويتوضأ.

قال: فأتيتُ النبي ﷺ وكرهتُ أن أوقظه من نومه، فوافقْتُه استيقظ، فصببْتُ على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت يا رسول الله: اشرب من هذا اللبن، قال: فشرب حتى رضيت، ثم قال: «**ألم يأن الرحيل؟**» قلت: بلى، قال: فارتحلنا بعدما زالت الشمس.

واتَّبَعَنا سراقة بن مالك ونحن في جلَد من الأرض، فقلت: يا رسول الله أُوتينا، فقال ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمتْ فرسه إلى بطنها، فقال: إني قد علمتُ أنكما قد دَعَوْتُما عليَّ، فادْعُوَا لي، فَاللَّهُ لَكُما أن أردَّ عنكما الطلب، فدعا له النبي ﷺ فنجا، فجعل، فرجع لا يلقى أحدًا إلا قال: قد كُفيتم ما ها هنا، فلا يلقى أحدًا إلا ردَّه، قال: ووفَّى لنا[١].

الأَمْرُ بِالنَّفِيرِ العَامّ

٤١- ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

ثم يأتي بعد ذلك الأمر بالنفير العام لغزوة تبوك، والتهيج لهم على النفير، وهذا أمر من الله تعالى لجميع المؤمنين الذين وجه الله إليهم اللوم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فأمرهم أن يهبُّوا للقتال عند دعوة القائد العام إليه، مهما كان حالهم، أن اخرجوا للجهاد شبابًا

(١) يُنظَر الحديث في: «صحيح البخاري» برقم (٢٤٣٩، ٣٦١٥) وهذا لفظه (٣٦٥٢، ٣٩١٧)، و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٠٩)

وشيوخًا، فقراء وأغنياء، مشاة وركبانًا، أصحاء ومرضى، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، اخرجوا لقتال العدو على أي حال كنتم، وجاهدوا بالنفس والمال، ولا تتلمسوا الأعذار، بل ابذلوا الجهد واستفرغوا الطاقة، فإن الجهاد خير لكم من القعود، لأن فيه رضي الله تعالى، والفوز بالنعيم المقيم، والنصر على العدو.

ولم يستثن الله تعالى من الجهاد إلا ما ذكرتْه الآية ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١].

جاء ابن أم مكتوم ﷺ فقال للنبي ﷺ: أَعَلَيَّ أن أنفر؟ فقال له: «**نعم**»، حتى نزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[(١)] [الفتح: ١٧].

هؤلاء المذكورون في الآية، هم الذين يُؤْذَن لهم في التخلف عن الجهاد، وما عدا ذلك فهم مأمورون بالخروج للقتال.

والقتال يكون فرض عين على كل فرد مسلم بالمال، والنفس، واللسان، إذا احتل العدو جزءًا من أجزاء وطن المسلمين، فإذا لم يستطع أبناء هذا الوطن رَدَّ العدو ودَحْره، فالجهاد يكون فرض عين على من يلي هذه الدولة، فإن لم يكفِ ذلك، فالدولة التي تليها، وهكذا، فإن لم يكفِ ذلك فالمسلمون أجمع.

والجهاد في حالة السلم لنشر الدعوة وعدم التعرض لها يكون فرض كفاية ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. حيث تخرج طائفة من المسلمين لنشر الدعوة، وتبقى طائفة لطلب العلم.

أما في حالة الحرب وتسلُّط العدو، باحتلاله جزءًا من بلاد المسلمين أو مقدساتهم، أو بعرقلة نشر الدعوة، فالجهاد فرض عين .

ومن **الآثار الواردة** في هذه الآية، ما جاء:

١- عن سفيان بن عيينة، عن ابن جدعان، عن أنس ﷺ، قال: قرأ أبوطلحة ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فقال: ما أسمعُ اللهَ عَذَرَ أحدًا، فخرج مجاهدًا إلى الشام حتى مات[(٢)].

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٧).

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٩٧) وفي سنده ابن جدعان وهو ضعيف.

٢- وفي رواية: قرأ هذه الآية أبوطلحة، فقال لبنيه وهو رجل كبير: جهِّزوني، أرى أن الله قد استنفرني فقال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: شبابًا وشيوخًا قالوا: يرحمك الله، لقد غزوتَ مع رسول الله حتى مات، وغزوتَ مع أبي بكر حتى مات، وغزوتَ مع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، وقال: إن الله قد استنفرنا جميعًا، فلا أرى لي من عذر، جهِّزوني فجهزوه وركب البحر مسافرًا للغزو، ثم مات قبل الوصول إلى أرض المعركة، ولم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها[١].

ولم تتغير رائحة جثته بعد موته بسبعة أيام؛ لأنه كان صادقًا مع الله ومع ورسوله في العزم على الجهاد في سبيل الله.

٣- وهذا رجل من أهل دمشق حين قرأ هذه الآية خرج للجهاد، وكان شَعْرُ حاجبيْه قد تدلَّى على عينيْه من كبر سنه، فأقبل عليه صفوان بن عمرو والي حمص، قال: يا عمِّ، لقد أعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيْه فقال: يابن أخي، إن الله استنفرنا للجهاد شبابًا وشيوخًا، خفافًا وثقالًا، ألا إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فَيُبْقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يَعبُد إلا الله ﷻ[٢].

٤- وجاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرجه من بيته إلا جهاد في سبيله وتصديق كلمته، بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر، أو غنيمة»**[٣].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

٥- قال السُّدِّي: قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنيًّا وفقيرًا، وقويًّا وضعيفًا،

(١) يُنظَر: ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٢) وأخرجه ابن حبان في الإحسان (١٦/ ١٥٢) «٧١٨٤» وصححه الحاكم على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، «المستدرك» (٣/ ٣٥٣) وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣١٢) إلى أبي يعلى (٣٤١٣) والطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح، وهو عند ابن سعد (٣/ ٥٠٧) وعبد الله بن أحمد ص (٢٥٠).

(٢) الطبري (١٤/ ٢٦٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٨٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٣١٢٣).

فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد، وكان عظيمًا سمينًا فشكا إليه، وسأله أن يأذن له فأبى، فنزلت يومئذ هذه الآية، فلما نزلت اشتد ذلك على الناس فأنزل الله ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1] [التوبة: ٩١].

٦- وقال مجاهد: إن أبا أيوب الأنصاري شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده، فسئل عن ذلك، فقال: سمعت الله ﷻ يقول: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ولا أجدُني إلا خفيفًا أو ثقيلًا[2].

٧- وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب، وكانت قد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل، صاحب ضُرٍّ، فقال: استنفَر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يُمْكنِّي الحرب كثَّرتُ السواد، أو حفظتُ المتاع[4].

٨- وروى ابن جرير عن أبي راشد الحُبْراني قال: وافيتُ المقداد بن الأسود، فارس رسول الله ﷺ جالسًا على تابوت من تابوت الصيارفة بحمص، وقد فضَل عنها من عظْمه، أي: أنه كبير الحجم، ضعيف، كبير السن يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أتت علينا سورة البحوث، أي: التوبة ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[3].

وبمثل هذا الجِد، وهذه الروح، انطلق المسلمون يفتحون بلاد الله، وينشرون دين الله؛ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الواحد القهار، فدان لهم العباد والبلاد.

وفي الآية وصف لأكمل ما يكون الجهاد وأنفعه، وقد أدرك المؤمنون هذا المعنى فامتثَلوا أمر ربهم ونفروا خفافًا وثقالًا دون تباطؤ ولا تقاعس.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الخروج للجهاد، وبذل المال في سبيل الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من التثاقل، والإمساك، والتخلف عن الجهاد، فهو خير في الدنيا بوراثة

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥٧) و«زاد المسير» (٣/ ٤٤٢) و«الدر المنثور» (٣/ ٢٤٦) وهو عند ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٣).

(٢) من «تفسير البغوي والخازن» والقرطبي للآية.

(٣) «تفسير الطبري» (١٤/ ٢٦٨).

الأرض، وغلبة العدو، وخير في الآخرة بالثواب العظيم، ورضوان الله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل الجهاد، وثوابه عند الله، فافعلوا ذلك، واستجيبوا لله والرسول.

والأمر بنفير الجميع في الآية، محمول على تعيين الجهاد على كل فرد بعينه حين يدخل العدو جزءًا من أجزاء وطن المسلمين، فيجب القتال على أهل البلد جميعًا رجالًا ونساء، شبابًا وشيوخًا، وفيما عدا هذه الحالة فالجهاد فرض كفاية.

فهذه الآيات الأربع اشتملت على أقوى الأساليب التي ترغب في الجهاد، وترهب من النكوص عنه، وتبعث على طاعة الله ورسوله.

فَضْحُ أَعْذَارِ المُنَافِقِينَ

٤٢- ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ[1] ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم أخذت السورة في بيان قبائح المنافقين وكشف ضمائرهم، وأعذارهم الواهية، وتوبيخ المتخلفين منهم عن رسول الله في غزوة تبوك، وفي الآية تغيير الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة، وهو من أساليب البلاغة؛ لجذب انتباه السامع.

والمعنى: لو كان خروج هؤلاء المنافقين إلى غنيمة سهلة قريبة، أو متاع من متاع الدنيا لخرجوا معك، ولكن لمَّا دُعوا إلى قتال الروم في أطراف الشام في وقت الحر، وكان ذلك لوجه الله وإعلاء كلمته، تخلفوا وتخاذلوا.

والسفر القاصد هو السفر القريب السهل، فلو كان فيما تدْعوهم إليه مغنم قريب، حاضر التناول، وسفر سهل قريب المسافة، لاتبعوك ووافقوك ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ وهي المسافة التي لا تُقطع إلا بعد تكبُّد المشقة والتعب، فهم قد خافوا من طول المسافة في السفر وشدة الزمان، واستعظموا قتال الروم.

وقريب من هذا المعنى ما جاء في شأن المتخلفين عن صلاة العشاء من حديث أبي

---

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم من (عليهِمِ الشقة) وضمهما حمزة والكسائي وخلف ويعقوب، وكسر الهاء وضم الميم الباقون، والكل يسكِّن الميم عند الوقف عليها ويكسرون الهاء، عدا حمزة ويعقوب، فبضمهما.

هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرْقًا سمينًا، أو مِرْماتيْن حَسَنتيْن لشَهِد العشاء»**[1].

والمرماتيْن: العظم الذي يحمل اللحم، أي: لو يعلم المتخلف عن صلاة العشاء في جماعة، أنه سيجد عند حضوره لها شيئًا من اللحم لحضرها.

ثم أخبر الله رسوله بما سيحدث منهم عند عودة النبي ﷺ من الغزوة، فيعتذرون إليه ويحلفون كذبًا أن العذر منعهم من الخروج مع النبي ﷺ وهو أمر غيبي يُطْلِع الله نبيه عليه سلفًا ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لوْ وجدنا وسائل للجهاد متوفرة، من زاد وعُدة وقوة بدن، لخرجنا إلى الغزوة معكم، وهكذا يخبر الله رسوله بما سوف يحدث منهم، من أنهم سوف يعتذرون إليك -أيها الرسول- عند رجوعك إليهم؛ لتخلفهم عن الخروج معك،وأنهم سوف يحلفون على أنهم لم يستطيعوا الخروج معك.

ثم أخبر سبحانه أنهم كاذبون في دعواهم، وأنهم يهلكون أنفسهم بالكذب والنفاق ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يبدون لك من أعذار، وقد كانوا يستطيعون الخروج، ولكنهم لم يخرجوا كسلًا وتثاقلًا.

ويؤخذ من هذا أن اليمين الفاجرة تؤدي إلى الخسران والهلاك، كما جاء في الأثر: اليمين الغموس تدع الديار بلاقع.

وهذا العتاب للمنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك، الذين أبدَوْا أعذارًا كاذبة، فعفا عنهم النبي ﷺ وقد عاتبه الله على هذه المسارعة في قبول عذرهم:

عِتَابُ الرَّسُولِ ﷺ فِي إِذْنِهِ لِلْمُتَخَلِّفِينَ

٤٣- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ[2] أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤٤) وصحيح مسلم (٦٥١) وصحيح الجامع الصغير برقم (٧٠٧٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) وقف البزي ويعقوب بهاء السكت وعدمها على (لم)، والباقون بسكون الميم عند الوقف عليها.

استأذن فريق من المنافقين النبي ﷺ في التخلف عن غزوة تبوك يبلغ عددهم تسعة وثلاثين رجلًا، واعتذروا بمعاذير واهية، حيث طلب بعضهم الإذن في عدم الخروج خلودًا للراحة، وقال بعضهم: ائذن لي ولا تفتني، ومنهم: عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، والجدُّ بن قيس، ورفاعة بن التابوت، فأذن لهم الرسول ﷺ حَمْلًا لهم على ظاهرهم من الصدق، فعاتبه الله تعالى في هذه الآية على إذْنه لهم؛ لأنه لو لم يأذن لهم لَقعدُوا أيضًا، فيكون هذا دليلًا له على نفاقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

ويطمئنه ربه قبل العَتْب عليه بالعفو والصفح إكرامًا له ﷺ، ثم يأتي العفو بصيغة الاستفهام إشارة إلى أنه ﷺ ما أَذِن لهم إلا بسبب ظاهرهم من الصلاح، وأن العلة الحقيقية قد خفيت عليه، وكان الأولى به أن يتبيَّن حالهم.

وهذا الإذن خلاف الأَوْلى وقد عاتبه ربه عليه، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ يا محمد ما وقع منك من ترك الأَوْلى والأكمل، وهو إذنك للمنافقين في القعود عن الجهاد.

ويأتي هذا العتَب في صورة الاستفهام: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لأي سبب أذنت لهؤلاء بالتخلف عن الغزوة؟ ولو قدَّم الله تعالى، لِمَ أذنت لهم؟ على العفو، لكان في هذا خوف للنبي ﷺ من العقوبة، ولكنه سبحانه قدّم العفو لتطمين النبي ﷺ على عدم المؤاخذة.

ثم بيَّن سبحانه سبب هذا العتاب، فقد كانوا مصرين على القعود ولو لم يؤذن لهم، فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: حتى يظهر لك الذين صدقوا في اعتذارهم، وتعلم الكاذبين في ذلك.

والمراد **بالعفو**: عدم المؤاخذة على ترك الأولى والأفضل، وافتُتح به الكلام، كما يقال: أصلحك الله وأعزَّك ورحِمَك، كان منك كذا وكذا. قال بعض العلماء: هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا؟ لقد خاطبه سبحانه بالعفو قبل أن يذكر المعفوَّ عنه.

وإذن النبي ﷺ لهم، كان اجتهادًا منه فيما لا نصَّ فيه من الوحي، وهو جائز الوقوع من الأنبياء؛ لأن عصمتهم خاصة بتبليغ الوحي وبيانه والعمل به، فيستحيل على الرسول -أي رسول- أن يكذب أو يخطئ فيما يبلغه عن ربه، أو يخالفه بالعمل.

وهذه الآية نزلت في قوم من المنافقين استأذنوا الرسول ﷺ في التخلف عن الجهاد دون عذر مقبول، وكان نزولها مع السورة في العام التاسع من الهجرة، ونزل قبلها في العام الرابع في شأن غزوة الأحزاب قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ [النور: ٦٢]. وهذا في شأن بعض المؤمنين الذين استأذنوا الرسول ﷺ في بعض شؤون بيوتهم في بعض الأوقات، فأذن لهم النبي ﷺ بعد أمر الله تعالى له، فبيْن الآيتين اختلاف في المعنى، وفي سورة الأنفال عتاب من الله تعالى لرسوله ﷺ في شأن أُسَارى بدر سبق بيانه.

المُؤمِنُ لا يَتَخَلَّفُ عَنِ الجِهَادِ

٤٤ - ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾

أخبر سبحانه أن المؤمن لا يتخلف عن الجهاد في سبيل الله بنفسه وماله، لأن رغبته فيما عند من أجر ومثوبة تحثه على الجهاد .

وفي هذا تعيير لمن يستأذن في القعود عن الجهاد بغير عذر، وقد عذر الله المؤمنين الصادقين في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ [النور: ٦٢].

حيث تبين السورة القاعدة التي تميز المؤمن من المنافق في الجهاد، فالمؤمن لا يعتذر ولا يستأذن في التخلف عن الجهاد؛ لأنه يعلم ما عند الله من الأجر العظيم للمجاهدين في سبيله، والمؤمنون الذين تخلفوا وكانوا على نية اللحاق بالجيش ليسوا منافقين؛ إذ ليس من شأن المؤمن بالله ورسوله التخلف عن الجهاد في سبيل الله، والمتقون الذين يخافون الله، ويسارعون إلى طاعته، ويؤدون فرائضه، ويجتنبون نواهيه، يسارعون إلى الجهاد بقلوب مشتاقة، ونفوس تتمنى الشهادة في سبيل الله، فخير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع صيحة للجهاد سارع إليها .

ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِلمُنَافِقِينَ المُتَخَلِّفِينَ عَنِ الجِهَادِ

٤٥- ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾

والمنافق هو الذي يختلق الأعذار والأسباب للتخلف عن الجهاد، وقد جاء هذا بأسلوب الحَصْر والقصْر، أي: وإنما يطلب الإذن في القعود عن الجهاد، غير المؤمنين بالله إيمانًا كاملًا، وغير المصدقين بيوم الجزاء وما فيه من ثواب وعقاب، تصديقًا جازمًا، ولم يعملوا صالحًا، وشكَّت قلوبهم في صحة ما جئت به - أيها الرسول - من الإسلام وشرائعه، فهم في شكهم يترددون ويتحيرون، يقدِّمون رِجْلًا ويؤخرون أخرى، فليسوا مع الكافرين ولا مع المؤمنين.

ويؤخذ من الآية: أن المرء لا ينبغي له أن يستأذن أخاه في أن يُسدي إليه معروفًا، ولا يستأذن الضيف في أن يقدم له طعامًا أو شرابًا، فإن الاستئذان علامة التكلُّف والكُره وعدم الرغبة، فمن قال لك: أتأكل؟ أو هل آتيك بعصير أو قهوة؟ فقل له: لا؛ لأنه لو أراد أن يكرمك لما استأذنك، ولا ينبغي الاستئذان في أداء الواجبات والفضائل؛ كإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، وسدِّ حاجة المحتاجين والفقراء، وقد مدح الله تعالى خليل الرحمن لمَّا جاءه الضيوف فمال إلى أهله مباشرة دون استئذانهم، وما لبث أن جاءهم بعجل سمين مشوي.

وقد وصف الله المنافقين في هذه الآية **بثلاثة أوصاف**:

أولًا: وصفهم بعدم الإيمان الكامل بالله، وهذا يتضمن كفرهم به سبحانه ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي ليس لهم إيمان تام ولا يقين صادق، ولذلك قلّت رغبتهم في الخير، وجَبُنُوا عن القتال، واحتاجو إلى الاستئذان.

ثانيًا: وصفهم بعدم الإيمان باليوم الآخر؛ لأنهم لو آمنوا باليوم الآخر وما أعده الله للمجاهدين والشهداء من عظيم الأجر لَمَّا تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله.

ثالثًا: وصفهم بأن قلوبهم -وهي محل المعرفة والإيمان- في شك وتردد، فهم في تذبذب وحيرة واضطراب، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. هذا هو شأن المنافقين.

أما المؤمنون فهم يسارعون إلى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان، فإذا عرض لأحدهم عذر استأذن في التخلف، ورسول الله ﷺ مخيَّر في الإذن لهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢]. والشاهد من الآية ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

أما المنافقون فقد كانوا يستأذنون في التخلف عن الجهاد من غير عذر، ففضح الله حالهم ونفى عنهم الإيمان الذي أظهروه خوفًا على مصالحهم، وأبطنوا الكفر حفاظًا على دينهم الفاسد.

مَفَاسِدُ وُجُودِ المُنَافِقِينَ فِي صُفُوفِ المُجَاهِدِينَ

٤٦- ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾

ثم استدل سبحانه على عدم إرادتهم للخروج، فكذَّبهم في زعمهم أنهم قد استعدوا له، فقد ظهر منهم من القرائن ما يدل على أنهم لم يقصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن ما قدموه من أعذار ليست صحيحة، فإن العذر يكون بعد بذل العبد ما في وسعة من أسباب ثم يمنعه مانع شرعي، فهذا هو الذي يعذر.

لقد عَلِمَ الله سبحانه أن خروج المنافقين للغزو مع رسول الله ﷺ سوف يكون فيه اضطراب وضرر، وفساد على المسلمين، فثبَّطهم الله سبحانه وصرفهم عنه، فحبسهم وحال بينهم وبين الخروج للجهاد؛ لما في ذلك من المفسدة العظيمة.

وقد أخبر الله تعالى عن هذه المفسدة: بأنها بثُّ الجُبْن والفشَل بين صفوف المؤمنين، بتهويل الأمر، وبُعد السفر، وكثرة العدو وقوته، والإيقاع بين المؤمنين بالنميمة والبغضاء والفتنة، والعمل على تفريق جماعة المؤمنين وإلقاء العداوة بينهم.

يقول سبحانه مقيمًا الحجة على المنافقين: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ وكان لهم نية في الغزو ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي: لو أراد المنافقون الخروج معك -يا محمد- إلى الجهاد،

لتأهبوا له بالزاد والراحلة والسلاح، والتهيؤ للغزو، واستعدوا له بجميع الوسائل، ولكن كره سبحانه أن يخرجوا معكم، فثقُل عليهم الخروج مع ما أمرَهم به شرعًا، ولم يبتعث فيهم الهمة، فثبَّطهم وزهَّدهم في الخروج وكسَّلهم عنه، وقيل لهم: اقعدوا مع القاعدين من النساء والمرضى والعجزة والصبيان، وإذا كان الله قد حبسهم عن الخروج للغزوة، فإن عتاب الله لنبيه في الإذن لهم بالتخلف؛ نظرًا؛ لأنه أسرع في الإذن لهم قبل أن يوحى إليه في شأنهم.

ثَلَاثُ مَفَاسِدَ فِي خُرُوجِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الجِهَادِ

٤٧- ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

لما خرج رسول الله للغزوة، ضرب عسكرهُ على ثنيَّة الوداع، وضرب عبد الله بن أُبيٍّ عسكرهُ على ذي حدة، أسفل من ثنيَّة الوداع، فلما سار رسول الله ﷺ تخلفَّ عنه عبد الله بن أُبيٍّ بمن تخلف من المنافقين، فأنزل الله تعالى يُعزِّي نبيَّه ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[1].

ثم إن خروج المنافقين مع المؤمنين لم يكن فيه مصلحة، بل كان فيه مفسدة، وهذه المفسدة مكونة من ثلاث نقاط بيَّنها الله تعالى في هذه الآية، وقد كان عتاب الله لنبيه في الإذن لهم؛ لأنه كان قبل أن يوحى إليه في أمرهم بالقعود ؛ لأن الكثرة العددية في الجيوش لا تؤتي ثمارها ما لم تجمعها العقيدة والهدف والاتجاه.

ولو أن المنافقين خرجوا مع المؤمنين للجهاد، لنشروا الاضطراب والفساد وألوان الشرور والبغضاء بين صفوفهم، وبثُّوا بينهم الفتن والدسائس، وتفريق الكلمة وتمزيق الصف.

(١) «أسباب النزول» للواحدي (٢٠٨) والسيوطي (١٤٠).

يقول سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ اضطرابًا في الرأي، وفسادًا في العمل، وضعفًا في القتال ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ وذلك بتثبيطكم عن الجهاد في سبيل الله، بتهويل الأمر لكم، وأنكم لا طاقة لكم بهم وتفريق جماعتكم والسعي بالفساد بينكم، وأيضًا فإنهم ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ بالإشاعات الكاذبة، والأقوال الخبيثة، فيوقعون الخلاف بينكم، ويوهّنون عزائمكم.

﴿وَفِيكُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ ضعفاء العقول ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ أي: جواسيس وعيون فيستجيبون لدعوتهم ويغترُّون بهم وينصتون ﴿لَهُمْ﴾ حيث يبلِّغونهم أخباركم ويستحسنون أفعالهم، ويسارعون في طاعتهم، ومنكم من يحبونهم ويستمعون لأقوالهم؛ لأنهم أصحاب شرف ومكانة، فيقبلون قولهم، ويستمعون لنصيحتهم، وهكذا، فإن بعض المؤمنين لهم أقارب ورؤساء من المنافقين، يتأثرون بأقوالهم وأحوالهم، فلله الحكمة حيث ثبطهم ومنَعهم من الخروج مع عباده المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعيد وتهديد للمنافقين الظالمين.

وقد أخبر الله تعالى عن أحوالهم، وبيَّن أن هذا هو شأن المنافقين في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

وقد أوضحت الآية أن هناك ثلاث مفاسد، كانت ستترتب على خروج المنافقين مع المؤمنين إلى تبوك لو خرجوا معهم وهي:

أ- وجود الاضطراب والفوضى بين صفوف المجاهدين.

ب- الإسراع بينهم بالوشايات، والنمائم، والإشاعات الكاذبة.

ج- الحرص على تفريق كلمتهم، وتشكيكهم في عقيدتهم.

وهذه المفاسد الثلاث ما وُجدت في جيش إلا أدت إلى انهزامه وفشَله(١).

---

(١) يُنظَر: «التفسير الوسيط» للشيخ سيد طنطاوي في هذه المفاسد الثلاث (٦/ ٣١٠).

ومن هنا كان تثبيط الله للمنافقين نعمة كبرى على المؤمنين؛ نظرًا لما حدث منهم من قبل في يوم أحد وغيره، فقد سبق لهم نظائر في الشر.

٤٨- ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾

ثم بيَّن سبحانه أنه أبطل سعي المنافقين في محاولاتهم السابقة بعد قدوم النبي ﷺ إلى المدينة... لقد ابتغى المنافقون فتنة المؤمنين وصدهم عن دين الله، وتخذيل الناس قبل غزوة تبوك، وكشف أمرهم كما فعل عبد الله ابن أُبيٍّ بن سلول رئيس المنافقين حين رجع بثلث الجيش في غزوة أحد، وما كان منهم في يوم الأحزاب، ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ فأعملوا فكرهم وأداروه ظهرًا لبطن، وصرَّفوا الأمور على جميع وجوهها للقضاء عليك وعلى دعوتك، ودبَّروا لك المكايد والحيل حتى جاء النصر من عند الله، فأعز الله جنده، ونصر عبده، وأعلى كلمته، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ له، فظهر الدين رغمًا عنهم.

مِثَالٌ مِنْ أَعْذَارِ المُتَخَلِّفِينَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ

٤٩- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى[1] وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

هذه الآية تعود على المنافقين الذين طلبوا الإذن من الرسول ﷺ وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، من الذين صرَّحوا بأن خروجهم للغزو يفتنهم؛ لمحبة أموالهم وأهليهم، وقد فضح الله أمرهم بأنهم منافقون، وفي نهاية الآية بيَّن تعالى أنهم وقعوا في الفتنة المُفضية إلى الكفر، والكافر يستحق جهنم.

وقد ذكر القرآن نماذج من هؤلاء المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك وأعذارهم المخزية، ومنهم: الجد بن قيس من بني سلمة، ومن رؤساء المنافقين، قال له النبي ﷺ:

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بإبدال الهمزة واوًا ساكنة وصلًا، من (يقول ائذن لي)، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة بعد همزة الوصل الساقطة وصلًا، أما عند الابتداء بلفظ (ائذن لي) في مقام التعليم أو الاختبار، فكل القراء يبدلون الهمزة الساكنة ياء، من جنس حركة همزة الوصل قبلها، فهي مكسورة؛ لأن ثالث الفعل مفتوح.

«**يا أبا وهب، هل لك في جلاد بني الأصفر**» يعني: في قتال الروم، قال: يا رسول الله: لقد عرف قومي أني رجل مغرم بحب النساء، ولا أتمالك نفسي إذا رأيتهن، وإنني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر -أي: بنات الروم والشام- ألَّا أصبر عنهن، ائذن لي في القعود ولا تفتنِّي بهن[1].

قال ابن عباس: اعتلَّ الجد بن قيس، ولم تكن له علة إلا النفاق، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «**قد أذنتُ لك**»، فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

أي: ومن هؤلاء المنافقين من يطلب الإذن في القعود عن الجهاد، ويقول: لا تُوقعني في الابتلاء، من فتنة الأموال والنساء، فلا تفتنِّي بالخروج معك؛ حيث لا أصبر على رؤية النساء الجميلات.

وتصدُق الآية أيضًا على كل من يستأذن من المنافقين في التخلف عن الجهاد في سبيل الله في كل زمان ومكان، ولم يكن له عذر سوى أنه مفتون بمحبة ماله وأهله، وقد فضح الله أمرهم وكشف سترهم يوم تبوك، وبيّن أنهم منافقون، قال تعالى مبينًا عقوبتهم: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي: لئن كان هذا المنافق يخشى من فتنة النساء، فما وقع فيه من الفتنة في دينه كان أعظم؛ لأن الكفر بالله ورسوله، والتمرد على قبول التكاليف الشرعية أكبر مما خاف منه الجد بن قيس وأمثاله، لقد سقط هؤلاء في فتنة النفاق الكبير، وهي التخلف عن رسول الله ﷺ؛ حيث سقطوا في الفتنة الحقيقية، لأن التخلف مفسدة عظيمة وفتنة كبرى محققة، وهو معصية لله والرسول.

أما الخروج للغزوة فإن المفسدة التي يذكرها (الجد) متوهمة ومفتعلة، والقصْد منها عدم الخروج لاغير، وإن جهنم لتحيط بهم وبأمثالهم يوم القيامة؛ لأنها تجمعهم فيها، فلا يفلت منهم أحد.

---

(١) الطبري (١٤/ ٢٨٧). والحديث في السلسلة الصحيحة برقم (٢٩٨٨).

الكَشْفُ عَنْ نَوَايَا المُنَافِقِينَ

٥٠- ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ(١) وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ثم كشف الله سبحانه عن نوايا المنافقين الذين قال فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فقال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي: إن يحصل لك - يا محمد - أمر يسرك؛ كالنصر والظفر والغنيمة، والصحة، والغنى فإن ذلك يُحزن المنافقين ويسوؤهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كهزيمة، أو نكبة أو شدة، أو مكروه، يفرحوا بها، وهذا من علامة النفاق، وهم مع هذا ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: يقولوا: نحن أصحاب رأي وتدبير، وقد احتطنا لأنفسنا بالتخلف عن الخروج معك للغزو قبل وقوع هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي: ينصرفوا عنك وهم مسرورون بما أصابك من سوء.

أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، يقولون: إن محمدًا وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي ﷺ وأصحابه، فساءهم ذلك، فأنزل الله هذه الآية(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ

٥١- ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

قل -يا محمد- لهؤلاء المتخاذلين الذين خلت قلوبهم من الإيمان بالقضاء والقدر، لن يصيبنا إلا ما قدَّره الله علينا، وكتبه في اللوح المحفوظ؛ لأن القلم قد جف بما كان وما يكون

---

(١) قرأ الأصبهاني عن ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (تسؤهم) واوًا في الوصل والوقف، ومعهما حمزة عند الوقف فقط، والباقون بسكون الهمزة.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي (١٤٠) والواحدي (٢٠٩) وانظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ١٠٥).

إلى يوم القيامة، من خيرٍ أو شرٍ، فلا يقدر أحد أن يجلب سعادة لنفسه، أو يدفع عنها تعاسة ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ ناصرنا وحافظنا ومتولي أمورنا الدينية والدنيوية، وعليه وحده يعتمد المؤمنون به، مع سعيهم وأخذهم بالأسباب.

١- في حديث عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يسترْقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون»** زاد في رواية: فقام عكاشة، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: **«أنت منهم»** قال: فقام رجل فقال: يا نبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: **«سبقك بها عكاشة»**(١).

قيل: إن هذا الرجل كان منافقًا، وقيل: إن النبي ﷺ عرف منه أنه لا يصلح لهذه الدرجة من التوكل(٢).

والآية تنص على أن ما يصيب الإنسان من خير وشر، أو شدة ورخاء، أو خوف ورجاء، إلا وهو مقدر أزلًا، ومكتوب في اللوح المحفوظ.

٢- ومن ذلك حديث أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه»**(٣).

٣ - وفي الترمذي وغيره عن ابن عباس ﷺ قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال: **«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظ، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»**(٤).

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١٨، ٢٢٠) مطولًا، و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٧٢).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٣).

(٣) «المسند» (٦/ ٤٤١) برقم (٢٧٤٩٠) صحيح لغيره وعزاه الهيثمي لأحمد والطبراني وقال: رجاله ثقات، «مجمع الزائد» (٧/ ١٩٧) وصححه الألباني في «ظلال الجنة» وابن أبي عاصم في «السنة».

(٤) «سنن الترمذي» برقم (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٢٦٦٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٤٣).

فالمسلمون لا يكترثون بالمصائب ولا يحزنون لها، ؛ لأنهم يعلمون أن ما أصابهم إنما هو بتقدير الله تعالى، وهو لمصلحة المسلمين في الدنيا أو الآخرة، والمؤمن يرضى بقضاء الله وقدره، ويثق بأن الله تعالى يقدر له الخير والنفع.

المُؤْمِنُ يَفُوزُ بِإِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ: النَّصْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ

٥٢- ﴿قُلْ هَلْ[1] تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ ما أجملته الآية السابقة، فأمر رسوله ﷺ أن يبيِّن للمتثاقلين عن القتال الذين يتربصون بكم الدوائر، أنكم لا تتربصون بنا إلا أمرًا فيه غاية نفعنا، وذلك أن المؤمن المجاهد إما أن يفوز بالنصر أو الشهادة، وكلاهما حسن، فماذا تنتظرونه منا أيها المنافقون؟! إنه لا يخلو من أحد أمرين، كل منهما عاقبته حُسنى بالنسبة لنا، وليس كما تزعمون من أن قتْلنا في الغزو أمر سَيِّء تفرحون به، فالمسلم منا وهو في ساحة القتال، إما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة، وإما أن يقتله عدوه في سبيل الله فتحصل له المغفرة، والغاية القصوى من الجهاد، وهو الشهادة ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

ويدل على ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ: **«تَضَمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا برسلي، فهو ضامن عليَّ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة»**[2] إنها الحسنى على كل حال.

ولكن ماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين؟ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي: ننتظر أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده، فيهلككم كما أهلك الأمم المكذبة قبلكم، أو تُصابون بالجوع والخوف، وهي عقوبة عاجلة في الدنيا، أو يصيبكم الله بعذاب كائن بأيدي المؤمنين، فيقتلونكم

---

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا، مع إظهار اللام من (هل تربصون)، والباقون بالتخفيف وأدغم حمزة والكسائي وهشام بخلفه اللام في التاء.

(٢) من حديث طويل عن أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٨٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٣٦، ٥٥٣٣).

ويأسرونكم، أو يَظْهَرُون عليكم ويَقْهَرُونكم، فتربصوا بنا العواقب، ونحن نتربص ما يحل بكم، فننظر ما الله فاعل بنا وبكم.

الكَافِرُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ

٥٣- ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا[1] لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ورد أن الجد بن قيس، لَمَّا استأذن في القعود عن الخروج لغزوة تبوك، قال للنبي ﷺ: ائذن لي وأنا أعينك بمالي، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾[2].

أي: قل -يا محمد- لهؤلاء المنافقين: أنفقوا أموالكم كيف شئتم، وعلى أي حال، طائعين من تلقاء أنفسكم، متبرعين بها، أو مُكْرَهين على الإنفاق، بإلزام رسول الله لكم، فلن يقبل الله منكم نفقاتكم على كل حال؛ لأن ما تبذُلونه من النفقة ليست خالصة لله تعالى.

والآية عامة في كل من أنفق ماله رياءٍ وسمعة.

ثم علل سبحانه سبب منع القبول بقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: لأنكم قوم خارجون عن دين الله وطاعته.

وفي الآية دليل على أن الكافر لا تُقبَل منه أعمال الخير والبر؛ كصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، فلا يثاب عليها، ولا ينتفع بها في الآخرة، ولكنه يأخذ أجرها في الدنيا سعة في الرزق ونحوه:

١ - في صحيح مسلم عن عائشة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، ابنُ جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه؛ إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[3].

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. غير أن الكافر لا يُحرم جزاء عمله الصالح في الدنيا.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الكاف من (كُرها)، والباقون بفتحها وهما لغتان.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي (١٤١) و«زاد المسير» (٢/ ٤٥١).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢١٤).

٢ - كما في الحديث عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعَم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها»**[1].

٣- وعن أنس أيضًا أنه حدَّث عن رسول الله ﷺ: **«إن الكافر إذا عمل حسنة أُطْعم بها طُعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدَّخر له حسناته في الآخرة، ويَعْقبه رزقًا في الدنيا على طاعته»**[2]. ذلك لأن الكافر عُجِّلت له حسناته في الدنيا، فهي سجن المؤمن وجنة الكافر.

ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ لِعَدَمِ قَبُولِ نَفَقَةِ الكَافِرِ

٥٤- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ[3] مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

ثم ذكر ﷻ ثلاثة أسباب لعدم قبول نفقة الكافر، وفيها دليل على كفر المنافقين الذين نزلت فيهم الآية، وهذه الأسباب **الثلاثة** هي:

أ- الكفر بالله تعالى، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ، والإيمان بالله شرط في قبول العمل الصالح.

ب- التثاقل في الإتيان بالصلاة، والكسل عنها، وهي أفضل أعمال البدن.

ج- إنفاقهم للأموال عن كُره، واعتبارهم أن ذلك مَغْرم لا مَغْنم.

والكفر وحده كافٍ في عدم القبول، وذكر السببين الآخرين لأن الكفر يستلزمهما، فهم لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، وفي هذا إشارة إلى تمكُّن الكفر منهمْ.

---

(١) حاشية الجمل على «الجلالين» (٢/ ٢٨٩) والحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بياء التذكير في (أن تقبل منهم)؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي، وقرأ الباقون (تقبل) بتاء التأنيث؛ لأن الفاعل مؤنث.

أي: وما منعهم الله قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم، وعدم نفقتهم إلا على كراهية، فلا يقصدون وجه الله، ولا محبة المؤمنين، وفي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء]. والله تعالى طيِّب لا يقبل إلا طيِّبًا.

٥٥- ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه قُبْح أفعال المنافقين، وما ينتظرهم من العذاب في الآخرة، بيَّن سبحانه أن ما ينالهم من المنافع في الدنيا من المال والولد، هو في حقيقته سبب لعذابهم وإيلامهم، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ .

والمعنى: لا تعجبوا أيها المؤمنون بما عند المنافقين والكفار من الأولاد والأموال، فلا تتطلَّعوا إليها، ولا تستحسنوها، فإن كثرة المال والولد، قد تكون استدراجًا للعبد، فَيُعجَب بماله وولده، فيبطُر ويكفُر بنعمة الله عليه، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وذلك بسبب ما في نفوسهم من الشح والحرص على المال، فهم في عناء وشقاء وكبَد في جمْعه وتنميته وبعد ذلك يأتي الخوف عليه من النقصان والضياع، فبدل أن يكون المال سبَب راحة ونعيم، يكون سبب شقاء وعذاب، وهذا شأن كل شحيح بخيل.

ولهذا: نهانا الله تعالى عن التطلع إلى ما عند الآخرين من متاع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه]. وقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية أن المال والمتاع فتنة للعبد في الدنيا وابتلاء له.

وفي آية أخرى بيَّن سبحانه أن الأموال والأولاد قد لا يكون فيهما خير للعبد، بل يكون

فيهما استدراج وامتحان، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧﴾ [سبأ]. فلا تظنوا أن المنافقين قد نالوا شيئًا من الحظ العاجل، بل إن ذلك سبب لعذابهم في الآخرة.

وفي الآية كشف لسر من أسرار نفوس المنافقين، وبيان أنها جُبِلت على الشح والبخل والحرص على الأموال، والافتتان بتوفيرها والخوف من ضياعها، وبسبب ذلك فهم في عناء وشقاء من جرَّاء أموالهم.

بيان تعذيب المنافقين بأموالهم وأولادهم في الدنيا من وجوه:

أولًا: أن المؤمن يعلم أنه خُلِق للآخرة، فيفْتُر حبه للدنيا، وأما المنافق فلا يؤمن بثواب الآخرة، فيشتد حبه للدنيا، وتعظُم رغبته في شهواتها، فيتعذب في الدنيا، وتكثُر آلامه عندما تفوتُه، ويشتد حرصه عليها عندما تكون بين يديه.

ثانيًا: أن الإسلام يأمر المنافقين بإنفاق الأموال في وجوه الخير، وهم يعتقدون أن ذلك مضيعة للمال من غير فائدة، وأنهم يتعذبون بتعريض أولادهم للقتل إذا خرجوا للجهاد.

ثالثًا: أن بذل المال والولد أمر شاق على نفوسهم.

رابعًا: أنهم في قلق وخوف من ظهور أمرهم وافتضاح شأنهم، فيتعرضون بسبب ذلك للقتال من المؤمنين.

خامسًا: أن ذكْر الأولاد في الآية كالتكملة؛ لبيان عدم انتفاعهم بكل ما ينتفع به الناس، فهو استطراد في السياق.

وقد كان لكثير من المنافقين أولاد صلحاء أتقياء، لا يرتضون طريق آبائهم فيخالفونهم ويقدحون فيهم، مثل عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ، وحنظلة بن أبي عامر، وما أقسى وأشق هذا العذاب النفسي في مخالفة الأبناء للآباء، وربما قُتل الولد في الغزو فيتألم

الأب، ولا يثاب عليه[١].

إن الأموال والأولاد قد تكونان نعمة، يسبغها الله على عبد من عباده! وقد تكونان نقمة يصيب الله بها عبدًا من عباده! وقد ذيَّل الله الآية بقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: تخرج أرواحهم خروجًا مزعجًا، فيه كرب وشدة، فيموتون على كفرهم بالله ورسوله.

المُنَافِقُ يَحْلِفُ كَذِبًا خَوْفًا وَتَقِيَّةً مِنَ المُؤْمِنِينَ

٥٦- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وهذه الآية تخاطب المؤمنين، وتوضح أوصاف المنافقين الذين يُظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، ويكنُّون العداوة للإسلام وأهله.

لقد كان المنافقون في صدر الإسلام يحلفون لرسول الله ﷺ أنهم مؤمنون، ويدسُّون أنفسهم في صفوف المسلمين، لا عن إيمان واعتقاد، ولكن عن خوف وتَقِيَّة ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الدين والملة مؤمنون مثلكم، يحلفون على ذلك كذبًا.

والله ﷻ يكذِّبهم في قولهم فيقول: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم، وهذا كقول الله تعالى لنوح عليه السلام عن ولده: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]. فهم ليسوا مسلمين في الواقع، ولكنهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة] وكما قال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون].

إنهم يفعلون ذلك خوفًا على أنفسهم، وعلى أموالهم، ومناصبهم، فهم جبناء يحلفون كذبًا وزورًا، ولا يستطيعون مصارحتكم بالعداوة، ولا يجرُؤون على مجابهتكم، مخافة أن

---

(١) يُنظَر: الفخر الرازي والبغوي والخازن عند تفسير الآية.

تتعقبوهم، وتقتلوهم كما تقتلون المشركين والكافرين، وهذا معنى ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: يخافون منكم، فهم يظهرون الإسلام تَقِيَّة لأنفسهم، فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة.

جُبْنُ المُنَافِقِينَ

٥٧- ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا[١] لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يرسم القرآن الكريم مشهدًا حسيًا يصور فيه جبن المنافقين، وخَوْفهم من الخروج لغزوة تبوك بأنهم من شدة خوفهم:

١- ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي: حصنًا في رأس جبل عالٍ، أو قلعة يجتمعون فيها، ويلجؤون إليها عند ما تنزل بهم الشدائد.

٢- ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أي: كهفًا أو مغارة داخل جبل يستترون فيها في مكان منخفض.

٣- ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أي: مكانًا يدخلون فيه بمشقة، كالنفق والسرداب؛ كي يهربوا فيه ويتحصنون به، ولو وجدوا شيئا من ذلك لأسرعوا إلى أحد هذه الملاجئ الثلاثة، وهي شر الأمكنة وأضيقها؛ وذلك كي يجتمعوا أو يختبئوا فيها للنجاة من المؤمنين، خوفًا من القتال؛ لشدة بغضهم إياكم، وهم يتوجهون إلى هذه الملاجئ مسرعين، وهذا معنى: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون نحوه إسراعًا ويهرعون إليه .

حِرْصُ المُنَافِقِ عَلَى المَالِ

٥٨- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ[٢] فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾

وهذا نوع آخر من فضائح المنافقين، وهو قدْحهم في عدالة النبي ﷺ، وأنهم يعيبون المؤمنين في تقسيم الصدقات بقصد الأخذ منها، وتُبيِّن الآية أنهم من حرصهم على المال يَوَدُّون أن تُوَزَّع الصدقات عليهم دونغيرهم، فيطعنون في تقسيمها؛ كي يقتصر توزيعها عليهم. والنبي ﷺ كان يعطي الصدقات ويقسم الغنائم بما يخدُم الدعوة وينشر الإسلام.

---

(١) قرأ يعقوب بفتح الميم وإسكان الدال مخففة من (مَدْخلا)، وقرأ الباقون بضم الميم وفتح الدال مشددة، وكلاهما: اسم مكان، والأصل (مُدتخلًا) فأدغمت التاء دالًا، وأدغمت الدال في الدال.

(٢) قرأ يعقوب بضم الميم من (يلمزك)، والباقون بكسرها، وهما لغتان في المضارع.

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأخذ لنفسه شيئًا يختص به، فكان يتألف قلوب قوم، ويجزل إليهم العطاء، مثل: صفوان بن أمية، كبير القوم، وكان كافرًا، وقد أعطاه النبي عليه الصلاة والسلام من غنائم حُنَيْنٍ بالمئة من الإبل، يقول صفوان: أعطاني رسول الله ﷺ وهو أبغض الناس إليَّ، ولا زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ.

وذلك لأن بعض النفوس لا يُصلحها إلَّا المال، ولذلك فإن النبي ﷺ كان يعالج النفوس على نحو ما يرى من أحوال الناس ورغباتهم، بما يخدم الدعوة إلى الله ﷻ.

يقول ﷺ فيما يرويه سعد بن أبي وقاص ﷺ: **«إنني لأعطي الرجل، وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يكبه الله في النار»**[1].

أي: يعطيه ﷺ رفقًا به، وتأليفًا لقلبه، وترغيبًا له في الإسلام، وخوفًا عليه حتى لا يكبه الله تعالى في النار، لقد استغل المنافقون هذه المسألة:

١- فقال أحدهم، ويسمى (ذو الخويصرة التميمي) وهو أصل الخوارج، قال لرسول الله ﷺ وهو يقسم المغانم: اعدل يا رسول الله، فما هذا بعدل، قال عليه الصلاة والسلام: **«ويلك، فمن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبتُ وخسرت إن لم أكن أعدل»**[2].

وكان هذا في قسمة ذَهَبٍ جاء من اليمن سنة تسع للهجرة، ولعل هذا قد تكرر من ذي الخويصرة في يوم حُنَيْنٍ، وفي تقسيم ما جاء من اليمن، وهو من الأعراب المنافقين، والمعنى موافق للآية التي نحن بصددها.

---

(١) البخاري (٢٧) ومسلم (١٥٠)، وانظر: حديث عمرو بن تغلب في «المسند» (٢٠٦٧٢، ٢٠٦٧٣) بإسناد صحيح على شرط البخاري (محققوه) وهو في البخاري (٩٢٣، ٣١٤٥)، وحديث سعد بن أبي وقاص في «المسند» أيضًا (١٥٢٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأخرجه عن عمرو بن تغلب أبو داود (٤٦٨٥) والحميدي (٦٩) والبزار (١٠٨٧) وابن حبان (١٦٣).

(٢) إسناده صحيح من طريق الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري، يُنظَر: البخاري (٦/ ٤٥٥) برقم (٣٦١٠، ٦٩٣٣) ومسلم (٧/ ١٦٥) برقم (١٠٦٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٢٠) والطبري (١١/ ٥٠٧) وابن حاتم (٦/ ١٨١٥)، وانظر قول ذي الخويْصرة في حديث عبدالله بن عمرو في المسند (٧٠٣٨) وهو حديث صحيح بإسناد حسن، كما أفاده محققوه.

٢- وقال آخر للنبي ﷺ: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فقال ﷺ: **«رحمة الله على موسى لقد أوذي أكثر من هذا فصبر»**[(١)].

٣- وقال ثالث: وهو رجل أعرابي جاء من البادية: إن كان الله أمرك أن تعدل، فما عدلت، فقال ﷺ: **«ويلك، ومن يعدل بعدي إذا لم أعدل..»**[(٢)].

٤- ورُوِي أن أبا الجوَّاظ -من المنافقين- طعن في أنْ أعطى النبي ﷺ من أموال الصدقات بعض رعاة الغنم، إعانة لهم وتأليفًا لقلوبهم، فقال: ما هذا بالعدل، فقال ﷺ: **«ويحك، من يعدل إذا أنا لم أعدل؟»**[(٣)].

وفي هذا المعنى نزل قول الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي: يذمك ﴿فِي﴾ تقسيم ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: ومن المنافقين من يطعن فيك ويعيب عليك -يا محمد- في تقسيم الصدقات والغنائم ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا﴾ أي: إن نالهم منها نصيب بالمقدار الذي يريدون ﴿رَضُواْ﴾ فقنعوا وسكتوا ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾ أي: لم يصبهم منها حظ على النحو الذي يطلبون ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ يعيبون عليك، ويطعنون في قسمتك، فهم يريدون ألا تقسم الغنائم إلا على فقرائهم.

القَنَاعَةُ لَهَا أَرْبَعُ مَرَاتِب

٥٩- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا[(٤)] ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ثم وضَّح سبحانه المسلك الذي يليق بأصحاب العقيدة السليمة، بعد أن عاب الله تعالى على المنافقين سخطهم على توزيع الغنائم والصدقات، فأشار ﷻ إلى أنه لو أن هؤلاء الذين يعيبونك -يا محمد- في قسمة الصدقات، رضوا بما قسم الله ورسوله لهم وقنعوا به، وسألوا الله أن يغنيهم من فضله عن صدقات الناس، وأن يوسع عليهم أرزاقهم،

---

(١) البخاري (٣١٥٠) ومسلم (١٠٦٢).

(٢) ينظر سنن ابن ماجه برقم (١٧٢) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٤٢) وفي ظلال الجنة (٩٤٣).

(٣) ابن أبي حاتم (٦/١٨١٧) وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم (٩٣٤).

(٤) أبدل همزة (سيؤتينا) واوًا، ورش والسوسي وأبو جعفر، وحمزة عند الوقف.

وقالوا: حسبنا الله وكافينا، لو أنهم فعلوا ذلك وقالوا هذا، لكان خيرًا لهم وأجدى، وقد ذكر الله تعالى في الآية أربع مراتب لما ينبغي أن يكون عليه العبد الصالح:

أولها: الرضا والقناعة، وعدم الاعتراض على قسمة الرسول ﷺ .

ثانيها: أن يَظهر أثر الرضا على لسانه بقوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: إن كان غيرنا قد أخذ المال فنحن قد رضينا بحكم الله ورسوله.

ثالثها: أنه لا أقل من أن يسأل العبد ربه الغنى إذا لم يكن من أهل الدرجة السابقة فيقول: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾.

رابعها: أن يقول: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ فلا نطلب أموالًا على إيماننا بالله ورسوله، إنما نطلب سعادة الآخرة[١].

وقد بيَّنت الآية أن طلب الدنيا -بنهَم وشراهة- من صفات المنافقين، وطلبها برضى وقناعة من صفات المؤمنين.

مَصَارِفُ الزَّكَاةِ ثَمَانِيَةٌ

٦٠- ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ[٢] قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾

هذه آية لحصر الأصناف المستحقة للزكاة: فقد بيَّن ﷻ أن الصدقات لا يستحقها الذين لمزوا النبي ﷺ وعابوه في تقسيمها، وحصَر -جلَّ شأنه- استحقاقها على ثمانية أصناف من الناس، ولم يأخذ النبي لنفسه منها شيئًا، فلِمَ يلْمزُونه ﷺ ويعيبون عليه؟ وقد بيَّن عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره في تقسيم الصدقات، حتى حكم فيها بنفسه فجزأها ثمانية أصناف[٣].

(١) يُنظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٤/ ٤٥٦).

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا، وصلًا ووقفًا في (والمؤلفة) ومعهما حمزة عند الوقف.

(٣) جاء هذا في حديث زياد بن الحارث الصدائي في «سنن أبي داود» برقم (١٦٣٠) والطبراني (٥٢٥٨) والدارقطني (٢/ ١٣٧) وهو حديث ضعيف كما في ضعيف «سنن أبي داود» (٣٥٧).

ولا يلزم استيعاب هذه الأصناف، بل يجوز الدفع إلى واحد منهم، والمراد بالصدقات في الآية: الزكاة المفروضة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] والزكاة لا تحل لغني، ولا لقوي قادر على الكسب.

كما في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سويٍّ**»[(١)].

ولما سأله ﷺ رجلان يومًا، قلَّب فيهما النظر، فرفعه وخفضه، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**إن شئتما أعطيتكما، ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب**»[(٢)].

كما أن الزكاة لا تُعطَى لمن يلزم الإنسان نفقته؛ كالأب، والابن، والزوجة، ولا تُعطَى لبني هاشم ولا لمواليهم، ولا تَعطى لغير المسلم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ ﷺ «**أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم**».

فهؤلاء أصناف ستة لا تعطى لهم الزكاة، هم:

١- الغني. ٢- والقوي. ٣- ومن يلزم نفقته. ٤- وبنو هاشم. ٥- والوارث. ٦- وغير المسلم.

وقد أنزل الله سبحانه هذه الآية؛ لبيان أصناف المستحقين للزكاة وهم ثمانية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وتقديم الفقير على المسكين، والمسكين على غيره، تقسيم ملحوظ ومقصود، فالفقير يقدَّم على المسكين؛ لأنه أشد حاجة منه. قال تعالى في وصف الفقراء المستحقين للزكاة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] والبدء بذكر الفقير في الآية يدل على أنه أسوأ حالًا من

---

(١) «سنن أبي داود» برقم (١٦٣٤) والترمذي برقم (٦٥٢) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٥٢٧) و«صحيح الجامع الصغير» برقم (٧١٢٨) وصححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٢٠٣٦) و«المستدرك» (١/ ٤٠٧) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٧) وفي «المسند» من طريق آخر برقم (٢٣١٨٣). عن رجل من بني هلال بإسناد صحيح ومثله (١٦٥٩٤).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (١٦٣٣) والنسائي (٥/ ٩٩) برقم (٢٥٩٧) و«المسند» (٤/ ٢٢٤) برقم (١٧٩٧٢، ٢٣٠٦٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» برقم (٨٧٦) وقال ابن كثير: إسناده جيد قوي، وهو عند ابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٧) وصححه الألباني أيضا في صحيح «سنن النسائي» (٢٤٣٥).

المسكين؛ لأن الآية قدَّمت الأهم على المهم، كما هو الظاهر، ولأن لفظ الفقير في اللغة مأخوذ ممن نُزعتْ فقرةٌ من فقرات ظهره، فلا يمكنه السعي والتكسب.

وقد وصف الله تعالى من كانت له سفينة من سفن البحر بالمسكنة فقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩] وهذا متروك للعُرف بين الناس، وقد يكون المسكين صاحب حاجة شديدة، كالذي التصقت يده بالتراب من شدة الفاقة كما قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد]

ويشترط في الفقير والمسكين المستحقين للزكاة خمسة شروط:

١- ألَّا يكونا قويين، قادريْن على الكسب والعمل.

٢- ولا متكاسلينْ ولا متقاعسينْ.

٣- وألا يكونا من سلالة من بني هاشم.

٤- ولا ممن يلزم الغني نفقتهم.

٥- وأن يكونا مسلميْن؛ لأن الزكاة لا تدفع لغير المسلم بخلاف الصدقة.

والأصناف الثمانية هم:

أولًا: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ والفقير: هو المحتاج الذي لا يملك شيئًا، ولا يجد حاجاته الضرورية من مأكل، ومشرب، وملبس، ومسكن لأدنى معيشة، وأدنى مستوى اجتماعي حسب البلد التي يسكنها، والفقير أشد حاجة من المسكين لأن الله تعالى بدأ به، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، وقد فسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئا أو يجد دون نصف كفايته.

فإن كان هذا الفقير يسكن في مكان متواضع يملك دفع أجرته، وكان يمتلك بعض الأجهزة الكهربائية، أو أجهزة الترفيه الإعلامية، أو كان فقره ناشئًا عن السفه، وسوء التدبير والتصريف، كمن ينفق ماله على الكماليات والمظاهر، أو على التدخين ونحوه، أو كان مُؤْثرًا للراحة والسؤال مع قدرته على العمل، فكل هؤلاء ليسوا من الفقراء، ولا تعطى لهم الزكاة.

ثانيًا: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾

والمسكين: هو الذي يملك بعض المال، فيجد نصف حاجته فأكثر، ولكنه لا يجد ما يكفي حاجاته الضرورية التي تقيم حياته وحياة من يعول، بأدنى معيشة وأدنى مستوى اجتماعي، ولا يكون هذا ناشئًا من سفه وسوء تصريف، فيُعطي من الزكاة ما تزول به مسكنته.

جاء في البخاري عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «... **وإن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المال هو، ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل...**»[١].

قيل لأعرابي: أفقير أنت؟ قال: إني والله مسكين. فدل هذا على الفرق بينهما.

وقال قتادة: الفقير: الذي به زمانة -أي: مرض مزمن- والمسكين المحتاج الذي ليست به زمانة[٢].

وقد بيَّن العلماء حدَّ الغني الذي يُمنع من أخْذ الصدقة، فقالوا: الغني هو الذي يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس المسكين، بهذا الطوَّاف الذي يطوف على الناس، فتردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان**»، قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يجد غِنًى يُغنيه، ولا يُفْطَن له فَيُتَصَدَّق عليه، ولا يَسأل الناس شيئًا**»[٣] **والمسْكنةُ**: هي المذلة بسبب الفقر.

والحديث يفيد أن المسكين أحسن حالًا من الفقير؛ لأنه يجد ما لا يكفيه، أما الفقير فهو مُعْدِم لا يجد شيئًا، وهذا ما يفيده تقديم الفقير على المسكين في الآية.

وأيُّ صنف من الأصناف الثمانية يُعطَى الزكاة فإنها تجزئ، ولا بأس أن يجعلها في صنف واحد، أو في صنفين أو ثلاثة كما قال حذيفة[٤] وابن عباس[٥] وأبو العالية[٦].

---

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (١٤٦٥) وهذا لفظه و«صحيح مسلم» برقم (١٠٥٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢٧٨) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨١٩) والنحاس ص (٥٠٧).

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٣٩٩) ورقمه في البخاري (١٤٧٩) ومسلم (٢/ ٧١٩) برقم (١٠٣٩).

(٤) كما عند ابن أبي شيبة (٣/ ١٨٢) وابن جرير (١١/ ٥٣١).

(٥) كما عند ابن أبي حاتم (٦/ ١٨١٧).

(٦) عند ابن أبي شيبة (٣/ ١٨٢).

ثالثًا: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ وهم الذين يجمعون الزكاة، وليسوا من موظفي الدولة، وهم الجُباة، والسُّعاة، والرعاة والمحاسِبُون، والكَتَبة، وأمناء المخازن، وكل من كلَّفهم الحاكم المسلم بجمع الزكاة، فهم يستحقون الزكاة، يأخذون منها بقدْر أجورهم، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء، أما إذا كانوا من الذين يَجْمعون الزكاة ويتقاضون راتبًا من الدولة على عملهم هذا، فهم موظفون يأخذون أجرًا مقابل عملهم، فلا يُعطَوْن من الزكاة.

عن رافع بن خديج ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«العامل على الصدقة بالحق، كالغازي في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته»**[1].

والعاملون على جمع الصدقات لا يجوز أن يكونوا من آل محمد ﷺ؛ لما ثبت عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن العباس، يسألان النبي ﷺ؛ ليستعملهما على الصدقة، فقال: **«إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس»**[2] أي: تطهير لأموالهم ولأنفسهم.

ولا يجوز لعامل الصدقة أيًا كان، أن يقبل هدية لنفسه، أو يصانع من يجمع منهم الزكاة، وإن أخذ شيئًا رده إلى بيت المال، لحديث ابن اللتْبيَّة لمَّا قال له النبي ﷺ وكان يجمع الصدقة ولما رجع قال: هذا لكم وهذا أُهدي إليَّ، فقال ﷺ: **«هلَّا جلس أحدكم في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى له أم لا؟!»**[3]. وكل عامل يعطى بمقدار عمله.

رابعًا: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ وهم **أربعة أصناف: صنفان** من المسلمين، **وصنفان** من الكفار:

الصنف الأول: قوم من الكفار، يتألف الإسلام قلوبهم، ويطمع في إسلامهم؛ لِمَا يظهر من حالهم من الميل إلى الإسلام، وذلك مثْل: صفوان بن أمية الذي قال: أعطاني النبي ﷺ

---

(١) «سنن أبي داود» برقم (٢٩٣٦) والترمذي برقم (٦٤٥) وابن ماجه برقم (١٨٠٩) و«المسند» (٤/ ١٤٣) برقم (١٥٨٢٦، ١٧٢٨٥) بإسناد حسن، وابن خزيمة برقم (٢٣٣٤) و«المستدرك» (١/ ٤٠٦) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٥٢٣) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٥٤٥) وهو في سنن أبي داود (٢٩٣٦) وعند ابن أبي شيبة (٣/ ٢١٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ٧٥٢) برقم (١٠٧٢).

(٣) حديث ابن اللتبية في الصحيحين كما في «اللؤلؤ والمرجان» لمحمد فؤاد عبد الباقي برقم (١٢٠٢).

يوم حُنَيْنٍ وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ[١].

وفي صحيح البخاري وغيره عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إني أُعطي قريشًا أتألفهم؛ لأنهم حديثو عهد بجاهلية»**[٢].

وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي سعيد ﷺ قال: بُعث إلى النبي ﷺ بشيء فقسَّمه بين أربعة، وقال: **«أتألفهم»**، فقال رجل: ما عَدَلْتَ، فقال ﷺ: **«يخرج من ضئضئي هذا قوم يمرقون من الدين»**[٣].

ومثل العباس بن مرداس السُّلَمي، الذي أعطاه النبي ﷺ تأليفًا لقلبه، وتثبيتًا لإيمانه.

ومثل هذه الحالة كبار الكفار في شتى أرجاء المعمورة، حيث يمكن كف شرهم عن المسلمين، سِيَّمَا الأقليات الإسلامية في بلاد الكفر، بإعطائهم من أسهم الزكاة على المستوى الدولي، ومما يخرج من كنوز الأرض كالبترول وغيره.

الصنف الثاني: قوم من الكفار يتألفهم الإسلام لدفع أذاهم عن المسلمين، ونفْعِهم لهم مثل: عامر بن الطفيل. ومثلهم من يؤذون الأقليات من المسلمين في العالم، والجميع يعطى من الزكاة والصدقة والفيء لدفع أذاهم عن مسلمي بلادهم.

الصنف الثالث: قوم حديثوا عهد بالإسلام، كمن يدخلون في الإسلام حديثًا في كل وقت، هنا وهناك، فهؤلاء يُعْطَوْن من الزكاة؛ تقوية لإيمانهم، وترغيبًا لغيرهم.

ومن أمثلة هؤلاء في وقت النبي ﷺ: الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والزِّبْرقان، الذين أعطاهم النبي ﷺ؛ ليدخل معهم غيرهم في الإسلام.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن عليًا بعث إلى النبي ﷺ بذهيبة في تُربتها من اليمن، فقسَمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وعلقمة بن علاثة، وزيد

---

(١) مسلم (٤/١٨٠٦) برقم (٢٣١٣) والترمذي في «تحفة الأحوذي» (٣/ ٣٣٤) وهو في «السنن» برقم (٦٦٦) ورواه أحمد (٦/ ٤٦٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣١٤٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٥٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم(٤٦٦٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٦٤).

الخير. . . وقال: «**أتألفهم**»(١).

وقال ﷺ فيما يرويه سعد بن أبي وقاص ﷺ: «**إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إليَّ منه خشية أن يكبَّه الله في النار**»(٢).

الصنف الرابع: قوم ضعاف الإيمان، فيعطيهم الإسلام من الزكاة؛ تأليفًا لقلوبهم، وتثبيتا لإيمانهم؛ كالعباس بن مرداس، ونظرائه وهم كُثُر في أيامنا.

والخلاصة: أن هذا السهم يراد به تأليف قلوب بعض الناس، الذين تعالَج نفوسهم من هذا الباب؛ لحبهم المال، ولأنه نُقطة الضعف فيهم، فيعطيهم الإسلام منه:

١- طمعًا في إسلامهم، ورجاء هدايتهم. ٢- أو دَفْعًا لشرهم.

٣- أو أملًا في نفعهم وهدايتهم. ٤- أو لأنهم قادة يتأسى بهم غيرهم.

وقد بلغ عدد الذين تألَّفهم النبي ﷺ تسعة وثلاثين رجلًا.

قال يحيى بن كثير: **المؤلفة قلوبهم**:

من بني هاشم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

ومن بني أمية: أبو سفيان بن حرب.

ومن بني مخزوم: الحارث بن هشام، والحارث بن يربوع.

ومن بني أسد: حكيم بن حزام.

ومن بني عامر: سُهيل بن عمرو، وحُويطب بن عبد العزى.

ومن بني جُمح: صفوان بن أمية.

ومن بني سهم: عديُّ بن قيس.

ومن ثقيف: العلاء بن جارية، أو حارثة.

ومن بني نزارة: عيينة بن حصن.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٣٣) برقم (٣٣٤٤) ومسلم (٢/ ٧٤١) برقم (١٠٦٤) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٢).

(٢) «فتح الباري» (٣/ ٣٩٩) وقد سبق تخريجه في الآية (٥٩).

ومن بني تميم: الأقرع بن حابس.

ومن بني نصر: مالك بن عوف.

ومن بني سُليم: العباس بن مرداس.

أعطى النبي ﷺ كل رجل منهم مئة ناقة، إلا عبد الرحمن بن يربوع، وحُويطب بن عبد العزى، فإنه أعطى كل واحد منهما خمسين[١].

ولعل من هذا الصنف ما ورد أن عمر بن الخطاب مرَّ برجل من أهل الكتاب مطروح على باب، من شدة العمل في طلب الرزق، فقال: استكَدُّوني وأخذوا مني الجزية حتى كُفَّ بصري، فليس أحد يعود عليَّ بشيء، فقال عمر: ما أنصفناك إذن، ثم قال: هذا من الذين قال الله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ ثم أمر له برزق يُجرى عليه[٢].

وغير المسلمين لا يعطون شيئًا من الزكاة ولا من الكفارات إلا ما كان من باب تأليف القلوب طمعًا في إسلامهم، أو ردًّا لعدوانهم.

قال الحسن: المؤلفة قلوبهم: الذين يدخلون في الإسلام إلى يوم القيامة[٣].

فهو يُعطَى وإن كان موسرًا.

فالمؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يُرجى إسلامه، أو يُخشى شره، أو يُرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

خامسًا: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وهم المكاتبون الذين اشتروا أنفسهم من ساداتهم، ويسعوْن في تحصيل المال الذي يدفعونه لمن يملكونهم، لفك رقابهم من الرق، فيعانون على ذلك من الزكاة، ويدخل في ذلك عتق الرقاب استقلالا، وفك الرقبة المسلمة التي بأيدي الكفار.

وقد جاء الإسلام فوجد الرق منتشرًا، فعمل جاهدًا على جعْل الناس أحرارًا.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢٨١) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٢).

(٢) ابن أبي حاتم.

(٣) ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٣).

ومن وسائل تحرير الأرقاء:

١-اتفاق العبد مع سيده على أقساط ماليّة يدفعها إليه الرقيق فيعتقه بعد أن يدفع إلى سيده ما كاتبه عليه.

٢-شراء الأرقاء وعتْقهم.

٣-فداء أسرى المسلمين.

٤-عتق الرقاب في كفارة القتل الخطأ والظهار والحنث في اليمين.

٥-عتق الرقيق حِسْبة لله تعالى، وابتغاء وجهه.

فالإسلام يرغب في عتق الرقاب، ومساعدة الأرقاء بكل وجه.

ففي الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»**[(١)].

ويعتق الله مَنْ حرَّره بكل عضْو عضوًا من النار.

ولا يَجْزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيعتقه.

واقتحام العَقبة يوم القيامة، بالنجاة من النار تكون بفك الرقاب ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دُلَّني على عمل يقربُني من الجنة، ويباعدني من النار؟ قال: **«أعتق النسْمة، وفُك الرقبة»**، فقال: يا رسول الله، أوَ ليس واحدًا؟ قال: **«لا، عتق النسمة: أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة: أن تعين في ثمنها»**[(٢)].

---

(١) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٢/ ٢٥١) برقم (٩٦٣١) بإسناد قوي، والترمذي برقم (١٦٥٥) والنسائي (٦/ ٦١) وابن ماجه (٢٥١٨) قال الترمذي: حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٤١) وفي المشكاة (٣٠٨٩) وفي غاية المرام (٢١٠).

(٢) أحمد (٤/ ٢٢٩) برقم (١٨٦٤٧) عن البراء بن عازب بنحوه بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأخرجه الدار قطني في السنن (٢/ ١٣٥) والطيالسي (٧٣٩) والبخاري في الأدب المفرد (٦٩) وابن حبان (٣٧٤) وغيرهم.

والأرقاء موجودون إلى يومنا هذا في بعض بلاد العالم .

ودفع الزكاة لهذا الصنف ليس بتمليكهم قيمة الزكاة، وإعطائها لهم، وإنما تُعطى لمن يعتق الرقيق، أو يفك الأسير، أو يأخذ قسط المكاتبة، ولذا عبَّر الله تعالى عنها في الآية بـ(في) الظرفية، هي والثلاثة بعدها.

أما الأربعة التي قبل ذلك، فعبَّر الله تعالى عنها باللام التي تفيد الملك، في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وكذا الثلاثة بعدها.

فالزكاة تُملَّك للأشخاص الأربعة، وهم: (الفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم) وتُدفع بالنسبة للأربعة المتبقية في المصالح وليست للأشخاص وهم: (في الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل).

سادسًا: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ : وهم من لزمتهم الديون -في غير معصية الله- ولا يجدون المال الذي يدفعونه لدائنيهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على سداد ديونهم التي وجبت عليهم لغير سفه، ولا تبذير، ولا إنفاق فيما يمكن الاستغناء عنه.

والغارمون على نوعين:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، كأن يبذل الغارم ما له لأحد المتخاصمين أولهما معًا، لإزالة الشر والفتنة بينهما.

وثانيهما: من غرم لنفسه فأصابه تلف أو حريق ثم أعسر، فإنه يعطى ما يوفي دينه من الزكاة.

فالذي يستدين لبناء قصر أوفيلا، أو لشراء سيارة فخمة، أو لإقامة حفل زفاف في قصر منيف، أو يستدين للنفقة على البيت بمظاهر الترف والترفيه، كل هذا ونحوه من باب السفه الذي لا يُشجَّع عليه الإنسان، ولا يسدَّد عنه ديونه منها فيما أرى، فقد كان الأولى به أن يتصرف في حدود إمكاناته الواقعية، وألا يتطلع إلى غيره، ولا ينفق ما ليس في يده، ومن باب أولى مَنِ استدان للمصيف، أو لقضاء إجازة خارج البلاد أو داخلها، ونحو ذلك، فهذه صور من استدانة الإنسان لحساب نفسه.

أما الاستدانة لحساب غيره، كمن يتحمل غُرمًا للإصلاح بين الناس، أو ضَمِنَ دَينًا لأحد فلزمه هذا الدين، ولم يستطع سداده، أو غَرِم زراعته، أو تجارته، أو بيته، بسبب

تلف، أو حريق، أو آفة، ونحو ذلك، أو كان عاصيًا واستدان، فتاب الله عليه، فهؤلاء ونحوهم يعطون من الزكاة:

١- والأصل في هذا حديث قبيصة بن مخارق قال: تحمَّلْتُ حَمَّالة، فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: **«أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها، قال: ثم قال: يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة:**

رجل تحمّل حمَّالة، فحلَّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك.

ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة، حتى يصيب قِوامًا من عيش أو قال: سدادًا من عيش.

ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذَوِي الحاجة، من قرابة قومه، فيقولون: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش -أو قال: سدادًا من عيش- فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتًا يأكلها صاحبها سحتًا»[١].

٢- وعن أبي سعيد ﷺ قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثُر دينه، فقال النبي ﷺ: تصدَّقوا عليه، فتصدَّق الناس، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لِغُرَمائه: **«خذوا ما وجدتم فليس لكم إلا ذلك»**[٢].

وهذه قسمة الغرماء عند عدم الوفاء بكمال الدَّيْن.

٣- **«ومَن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»**.[٣]

٤- وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال: **«يدعو الله بصاحب الدَّيْن يوم القيامة حتى يوقف بيْن يديه، فيقال: يابن آدم، فيم أخذتَ هذا الدَّيْن؟ وفيم ضيَّعتَ حقوق الناس؟ فيقول: يارب، إنك تعلم أني أخذته، فلم آكل ولم أشرب ولم ألبس ولم أُضيِّع، ولكن أتى على يديَّ إما حَرَق، وإما سَرَق، وإما وضيعة، فيقول الله عز**

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠٤٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٥٥٦).

(٣) من حديث أبي هريرة في صحيح البخاري برقم (٢٣٨٧).

وجل: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك اليوم، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه، فترجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته»[1].

وقد وجَّه الله سبحانه إلى إنظار المعسر حتى يُيسِّر الله عليه أو يتصدق عليه فقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة].

والتصدق على المعسر لا يَعْني إسقاط الديْن عنه، واحتساب ذلك من الزكاة؛ لأن الزكاة تمليك، وليست إسقاطًا، كما أنه لا يؤدَّى من الزكاة ديْن ميت، ولا تسديد كفارة من الكفارات، أو نذْر من النذور، ولا يُعطى من الزكاة مَنْ يريد الحج؛ لأنه لا يشرع إلا للمستطيع، ولأن الغارم هو من عليه ديْن يُسجن فيه.

والزكاة ضريبة تكافل اجتماعي بين القادرين والعاجزين، تنظمها الدولة وتتولى جَمْعها وتوزيعها على مستحقيها، ولا يُترك ذلك للأفراد، سواء الذين يجمعونها أو الذين تجب عليهم.

سابعًا: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

وسبيل الله عند جمهور أهل العلم: هو الجهاد؛ فيعطى الغزاة المتطوعون ما يعينهم عن الغزو لأنه أكثر ما جاء في القرآن، فيُدفع هذا السهم في شراء الأسلحة، وتجهيز الغزاة، وحفظ الثغور، والتصنيع الحربي، وحفر الخنادق، ومن يأتون بأخبار العدو، وإعداد العدة لقتاله: من طائرات، وصواريخ، وقذائف، ومدافع، ودبابات، وما إلى ذلك.

ويرى بعض أهل العلم أن ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ باب واسع يشمل جميع وجوه الخير والبر من بناء المساجد، والمدارس، والمستشفيات، وتعبيد الطرق، وبناء الجسور والحصون، وعلى طلبة العلم، ونحو ذلك.

وإعادة لفظ (في) عند ذكر ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فيه فضل وترجيح لِمَصْرِفَيْ

---

(١) «المسند» (١/ ١٩٧) برقم (١٧٠٨) و إسناده ضعيف، لضعف صدقة بن موسى، فيه، وأخرجه البزار (١٣٣٢) كشف الأستار، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٤١) وأبو داود الطيالسي (١٣٢٦).

سبيل الله وابن السبيل، على ﴿ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾.

ثامنًا: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾

وهو المنقطع في سفره، الغريب عن وطنه، وإن كان غنيًّا في بلده، ولكنه في سفر مباح، ولم يجد ما يوصِّله إلى وطنه، أو يقيم حياته، فيُعطَى من الزكاة بقدر ما يكفيه ويسد حاجته، وكذا من أنشأ سفرًا مباحًا من بلده، وليس معه شيء، فهو من أبناء السبيل:

فعن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا تحلُّ الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تُصُدِّق عليه منها، فأهدى منها لغني»**[(١)].

وهذه الزكاة ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن هذه القسمة فريضة فرضها الله تعالى وقدَّرها، وهو أعلم بمصالح عباده، حكيم في شرعه وتدبيره.

وليس في وسع أحد إلغاء مصرف من هذه المصارف الثمانية، ومصرف المؤلفة قلوبهم ما أعظم الحاجة إليه في كل عصر ومصر، وهو قائم إلى يوم الساعة (والله عليم) بشؤون خلقه (حكيم) في تدبير أمورهم.

ومما يتعلق بهذه الآية ما رواه موسى بن يزيد الكندي قال: كان ابن مسعود يُقرئ رجلًا، فقرأ (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) مرسلة -أي: لم يمدَّها- فقال ابن مسعود: ما هكذا أقرأنيها النبي ﷺ فقال: وكيف أقرأكها؟ قال: أقرأنيها ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ فمدَّها[(٢)] وهذا نص في وجوب المد المتصل.

---

(١) أبو داود (٢/ ٢٨٨) برقم (١٦٣٥، ١٦٣٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٤٤١) وابن ماجه (١/ ٥٩٠) برقم (١٨٤١) وصحيح «سنن ابن ماجه» (١٨٤١) وابن أبي شيبة (٣/ ٢١٠) و«مصنف عبد الرزاق» برقم (٧١٥١) و«المسند» (٣/ ٥٦) برقم (١١٢٦٨، ١١٣٥٨) وابن خزيمة في صحيحه برقم (٢٣٧٤) و«المستدرك» (١/ ٤٠٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني أيضًا في «إرواء الغليل» برقم (٨٧٠) وصححه جماعة في «تلخيص الحبير» (٣/ ١١١).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «التفسير» برقم (١٠٢٣) والطبراني في «الكبير» (٨٦٧٧).

إيذاءُ المُنافِقِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ وعُقُوبَتُهُمْ

٦١- ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ[١] ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ[٢] قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ[٣] لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

ومن أصناف المنافقين من يؤذي رسول الله ﷺ، فيقول: جئنا نعتذر إليه فيقبل منا لأنه أذن، فهو لا يميز بين صادق وكاذب.

ومن أنواع الإيذاء الذي نزلت فيه هذه الآية: أن قومًا من المنافقين كانوا يقولون عن رسول الله ﷺ: إنه أُذُن، أي: سمَّاعٌ لكل قول، يصدِّق كل ما يَسْمع دون تمييز بين المقبول والمردود.

ومنهم: الجلَّاس بن سويد قبْل توبته، وعبيد بن هلال، وعتاب بن قشير، ووديعة بن ثابت، ونبْتل بن الحارث الذي قال فيه النبي ﷺ: **«من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل»**.

ومن ذلك ما قاله الجلَّاس، ووديعة، وغيرهما: إن كان ما يقوله محمد حقًّا فنحن شر من الحمير، فسمع الكلام غلام من الأنصار هو عامر بن قيس، فغضب، وأخبر النبي ﷺ فحلفوا أن عامرًا كاذب، وحلف عامر أنهم كذبوا، وقال: اللهم لا تفرِّق بيننا حتى تبين الصادق من الكاذب، فنزلت هذه الآية، ونزلت أيضًا الآية التي بعدها ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾[٤].

قال محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: نزلت هذه الآية في رجل من المنافقين يقال له: نبْتل بن الحارث، وكان رجلًا أذْلم، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوَّه الخلقة، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: **«من أراد أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نبتل بن الحارث»** وكان يَنُمُّ حديث النبي ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أُذُن، مَن حدَّثه

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، بإبدال الهمزة واوًا في حالتي الوصل والوقف، ومعهم حمزة عند الوقف فقط، وذلك في هذه الكلمات الثلاث (يؤذون، يؤمن، للمؤمنين).

(٢) قرأ نافع بإسكان الذال من (أذْن) في الموضعين، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ حمزة بخفض التاء من (ورحمةٍ للذين) عطفًا على (خير)، وقرأ الباقون بالرفع عطفًا على (أذن) أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: وهو رحمة.

(٤) نقل ذلك عن السدي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٥٣) وهو عند ابن ابي حاتم (٦/ ١٨٢٦).

شيئًا صدَّقه، نقول ما شئنا، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا، فأنزل الله تعالى الآية[١].

والله سبحانه يرد عليهم فيصف رسوله ﷺ **بأربعة أوصاف**:

الوصف الأول: أنه ﷺ أُذُنُ خير وليس أُذُن شر: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: قل -يا محمد- لهؤلاء المنافقين: إن محمدًا أُذُن، يستمع لكل خير، ويعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه، فهو لا يواجهكم بنفاقكم، ولا يعمل بخداعكم، ولا يقبل قول المنافقين.

والإسلام ينهى عن سماع الكذب والزور والباطل، والغيبة والنميمة، والفحش والسب، وغير ذلك.

ولما جاء رجل يقول للنبي ﷺ شيئًا عن رجل آخر قال له: «**لا يبلِّغني أحد عن أحد شيئًا فأنا أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[٢].

فكان ﷺ ينهى أن يُذكر أحد بسوء في حضرته، وهو ﷺ لا يهتك الأستار، ولا ينقِّب عن الأحوال، ويسمع ما يَبْلُغه عنكم ولا يؤاخذكم به، ويسمع أعذاركم ويقبلها منكم، ويعامل الناس بما أُمر به من العفو، والصلح، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، ولا يؤاخذ أحدًا إلا ببيِّنة.

ثم بيَّن سبحانه ما يسمعه الرسول ﷺ وهو مأمور بتبليغه، فالرسول ﷺ يستمع إلى الوحي ويبلِّغكم إياه، وفي ذلك كل ما فيه صلاحكم، وخيركم، وسعادتكم.

الوصف الثاني: أنه ﷺ لا يرائي ولا يخادع، فهو ﷺ ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إيمانًا حقًّا لا يشوبه رياء ولا خداع.

الوصف الثالث: أن الرسول ﷺ مأمور أن يصدق المؤمنين، فهم محل الثقة، لا سِيَّمَا إذا حلفوا وأقسموا، فإن من مبادئ الإسلام: أن من حُلف له بالله فليصدق، فشأن

---

(١) يُنظَر الطبري (١٤/ ٣٢٥) و«أسباب النزول» للواحدي (١٣٤) و«الدر المنثور» (٣/ ٢٥٣) وابن أبي حاتم بإسناد حسن و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٢٤) و«الإصابة» (٦/ ٥٣).

(٢) ينظر سنن الترمذي عن ابن مسعود برقم (٣٨٩٦) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، وضعفه الألباني وانظر رياض الصالحين برقم (١٥٤٧) ص٥٢٩ وهو في مسند أحمد (٣٧٥٩) من حديث طويل بإسناد ضعيف، وفي سنن أبي داود (٤٨٦٠) والبغوي في شرح السنة (٣٥٧١) والبيهقي في السنن ((٨/ ١٦٦).

الرسول ﷺ أن يصدِّق المؤمنين ولا يكذبهم، وهذا معنى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن صفات المؤمن أن يأخذ بالظاهر، ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به، والله سبحانه يتولى السرائر، فإذا حلف لك المؤمن بالله فعليك أن تصدق، وإن كان كاذبًا في حقيقته فالله سبحانه يحاسبه.

الوصف الرابع: أن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ رحمة للمؤمنين، وهذا معنى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي: ورسول الله ﷺ رحمة لمن آمن به واتبع هداه ولفظ ﴿مِنكُمْ﴾؛ ليخرج المنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون، والإيمان يقابله الكفر ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ محمدًا ﷺ بأي نوع من أنواع الأذى ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم وموجع وهذه هي النهاية، وفيه إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا.

المُنَافِقُ يُؤْثِرُ رِضى النَّاسِ عَلَى رِضى اللهِ تَعَالَى

٦٢- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

ثم حذر الله المؤمنين ألا يغتروا بأيمان المنافقين ويصدقوهم، وذلك أنه لما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك، جاءه بعض المنافقين الذين تخلَّفوا عن الغزوة يعتذرون إليه ويحلفون له كذبًا، حتى يتبرؤوا مما صدر منهم، فغايتهم أن ترضوْا عنهم، وقد أعلم الله سبحانه أن أيمانهم كاذبة كما في قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]

فخاطب الله المؤمنين كي يبيِّن لهم شأن المنافقين الذين يذْكُرونهم بالسوء، ثم يأتون إليهم معتذرين فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي: يحلف المنافقون لكم بالأيمان الكاذبة، أنهم ما قالوا شيئًا فيه انتقاص للرسول ﷺ ويقدِّمون الأعذار الملفقة؛ ليرضوا بها المؤمنين، حتى يطمئنوا لهم ويقبلوا معاذيرهم ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ بالإيمان والطاعة والمتابعة والتوبة والإخلاص، فهو العليم بما ظهر وما بطن من الأمور، وفي هذا توبيخ لهم؛ لإيثارهم رضى الناس على رضى الله ورسوله.

وكان الظاهر أن يقول: (أن يرضوهما) وقد عدل عنه السياق؛ لبيان أن إرضاء رسول

الله ﷺ هو عين إرضاء الله تعالى، وهذا من بلاغة القرآن ولو ثُنِّي الضمير لما أفاد هذا المعنى، وقيل: كان الكفار يكرهون أن يُجمَع اللهُ مع رسوله في ضمير واحد، فجاءت الآية على خلاف ما يريدون.

والمعنى: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

ثم بيَّن سبحانه أن الإيمان الحق لا يتم إلا بالانقياد التام لله ورسوله، ولذلك كان هذا الشرط: ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كان هؤلاء المنافقين مؤمنون حقًّا، وإلا كانوا كاذبين في دعواهم الإيمان بالله ورسوله، ووعده ووعيده، فالله ورسوله أحق بالرضى.

سُوءُ مَصِيرِ المُنَافِقِ

٦٣- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

ثم توعَّد الله المنافقين بسوء المصير؛ لمخالفتهم أمر الله ورسوله، وجاء هذا بأسلوب الاستفهام المفيد للتوبيخ والتأنيب، وإقامة الحجة عليهم، وتهويل الأمر وتعظيمه؛ حيث خاطب الله المنافقين بهذه الآية: إن من يخالف الله ورسوله، فيكون في جانب، والله ورسوله في جانب، ومن يشاقق الله ورسوله ويحاربه، ومَن يؤذي رسول الله ويسبه، ومن يعادي الله ورسوله، فإن مصيره نار جهنم، يصلاها يوم القيامة خالدًا مخلدًا فيها، وهذا المصير فيه الهوان والذل والصَّغَار، فإن كان المنافقون لا يعلمون ذلك -على سبيل الفرض- فأعلمهم -يا رسول الله- بسوء مصيرهم هذا، وهو الذل العظيم، والشقاء الكبير، يتضاءل أمامه كل خزي وذل في الدنيا، فقد فاتهم النعيم المقيم ووقعوا في عذاب الجحيم وبئس المصير.

القُرْآنُ يَكْشِفُ سِتْرَ المُنَافِقِينَ

٦٤- ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ[(١)] عَلَيْهِمْ[(٢)] سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم[(٣)] بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟[(٤)] إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال المنافقين، وحذَّرهم من إظهار معتقدهم إلى حيِّز الوجود، فقد كان المنافقون يخشوْن أن يفضحهم القرآن، ويهتك أسرارهم، فكانوا يتحدثون بما يطعن في النبي ﷺ وفي صحبه، ويخافون أن ينْزل القرآن يكشف ما في صدورهم، ولذلك فإن سورة التوبة تسمى (الفاضحة)، و (المبعثرة)؛ لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم، وكان أحدهم يقول: وددت لو أني جُلدت مئة جلدة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا[(٥)] ويبيِّن أسرارنا.

وورد أن جماعة من المنافقين وقفوا للنبي ﷺ في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك؛ ليفتكوا به، فأخبره جبريل، ونزل قول الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾[(٦)] مشتملة عما تكنه صدورهم من أحقاد وأضغان فتذيع أسرارهم، و ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي يخافون أن تنزل في شأنهم سورة تخبرهم بما يضمرونه في قلوبهم من الكفر، وتظهر مكنون نفوسهم من العداوة والحسد، فهم يستهزئون بالإسلام، ويخافون أن يفضحهم الله بالوحي، وقد ذكر القرآن أوصاف المنافقين ولم يذكر أسماءهم، لأن الله ستِّير يحب الستر، ولأن الوصف يشملهم ويشمل نظائرهم، فهو أعم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي وإسكان النون من (تنْزِل) مضارع أنزل، وقرأ الباقون بتشديد الزاي وفتح النون مضارع نزَّل.

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهُم) والباقون بكسرها.

(٣) وقف حمزة على (تنبئهم) بتسهيل الهمزة بَيْنَ بَيْنَ، وبإبدالها ياء خالصة.

(٤) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الزاي وصلًا ووقفًا من (استهزءوا)، والباقون بإثبات الهمزة وكسر الزاي، ومثلها (تستهزؤون) في الآية التالية.

(٥) يُنظَر: «أسباب النزول» للواحدي (١٤٣).

(٦) «زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٤٦٣).

قال ابن عباس ﷺ: أنزل الله ذِكْر سبعين رجلًا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم، ثم نَسخ هذه الأسماء رحمة منه بالمؤمنين؛ حتى لا يعيِّر بعضهم بعضًا؛ لأن أولادهم كانوا مؤمنين.

وفي صحيح مسلم عن حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«في أصحابي اثنا عشر منافقًا، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدُّبيلة،** وأربعة لم أحفظ ما قال شعبة فيهم» وقال غندُر: أراه قال **«في أمتي اثنا عشر منافقا...»**[(١)].

والدبيلة: سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم.

وجاء التصريح بأسماء هؤلاء المنافقين في قول النبي ﷺ لحذيفة: إن الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم، وسأخبرك بهم -إن شاء الله- عند وجه الصبح، فلما أصبح سماهم له وهم:

١- عبد الله بن أُبَيٍّ.
٢- وسعد بن أبي السرح.
٣- وأبوخاطر أو أبوحاصر الأعرابي.
٤- وعامر.
٥- وأبو عامر الفاسق.
٦- والجُلَّاس بن سويد بن الصامت.
٧- ومُجمَّع بن حارثة.
٨- ومُلَيْح التيمي، أو السهمي.
٩- وحصين بن نمير.
١٠- وطُعمة بن أبيرق.
١١- وعبد الله بن عُيينة أو عتيبة.
١٢- ومرة بن ربيع.

فهم اثنا عشر رجلًا حاربوا الله ورسوله وأرادوا قتله، فأطلع الله نبيه على ذلك[(٢)].

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد]

وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٧٩)، عن قتادة عن أبي نَضْرة عن قيس قال: قلت لعمّار، وذكر الحديث من أوله (أرأيتم صنيعكم هذا) وشعبة، هو شعبة بن الحجاج أحد رجال الإسناد.

(٢) يُنظَر البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٥٧-٢٥٩) وابن إسحاق في السيرة و«زاد المعاد» (٣/ ٥٤٨) وما بعدها.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

يقول سبحانه مهددًا ومتوعدًا لهم: ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا﴾ امضوا في طريقكم؛ واستمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية، وهذا على سبيل التهديد والتبكيت ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي: فالله مخرج حقيقة ما تحذرون، وهو سبحانه يفضح أحوالكم، ويكشفها للنبي ﷺ.

وهذا كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] فهو تهديد في صورة الأمر.

وقد كان المنافقون مترددين بين الإيمان والكفر، ولهذا كانوا خائفين أن يفضح الله أمرهم، ومنهم من كان يعرف أن النبي ﷺ صادقًا في دعوى النبوة والرسالة، ولكنهم كفروا به حسدًا وعنادًا.

لُحُومُ العُلَمَاءِ مَسْمُومَةٌ، فَمَا بَالُكُمْ بِلُحُومِ النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ؟

٦٥- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

جاءت روايات في **سبب نزول هذه الآية** منها:

أ- ما جاء عن زيد بن أسلم: أن رجلًا من المنافقين، قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما أرى قراءنا هؤلاء -يعني: الصحابة- إلا أرغبنا بطونًا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء! فقال له عوف: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره وقد ركب ناقته، فوجد القرآن قد سبقه.

قال زيد: قال عبد الله بن عمر ﷺ: فنظرت إليه -أي: إلى هذا المنافق- متعلقًا بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ تنكُبه الحجارة، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له الرسول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

وحقب الناقة: الحبل الذي يشدّ به الرجل في بطن العير.

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١٤/٣٣٣) برقم (١٦٩١١، ١٦٩١٢) وتفسير ابن أبي حاتم برقم (١٣٠٧) وصحح إسناده محمود شاكر في حاشية الطبري، وله شاهد من حديث كعب بن مالك في «تفسير ابن أبي حاتم» (١٣٠٦) بإسناد حسن.

ب - وقال قتادة: بينما رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها!! هيهات هيهات! فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: **«احبسوا عليَّ الركْب»** فأتاهم فقال لهم: **«قلتم كذا وكذا؟»**، فقالوا: يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تعالى فيهم ما تسمعون[١].

ج - وعن ابن عباس رضي الله عنه أن ثلاثة من المنافقين كانوا يسيرون بين يدي رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، فأخذ رجلان منهم يستهزئون برسول الله ﷺ، والثالث يضحك ولا يتكلم، فنزل جبريل وأخبر النبي ﷺ، فقال لعمار بن ياسر: **«اذهب فسلهم عما يضحكون، وقل لهم: أحرقكم الله»**، فعلموا أنه قد نزل فيهم قرآن، فأقبلوا يعتذرون إلى النبي ﷺ قال الثالث: والله ما تكلمتُ بشيء، وإنما ضحكتُ من قولهم تعجُّبًا، فأنزل الله ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[٢].

د - وعن ابن إسحاق: أن جماعة من المنافقين كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فقال بعضهم: أتحسبون أن جِلَاد بني الأصفر -يعني: الروم- كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مُقَرَّنين في الجبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين، فخشي أحدهم وهو (مُخَشِّن[٣] بن حُمَيِّر الأشجعي) أن ينزل فيهم قرآن، فقال الرسول ﷺ لعمار بن ياسر: **«أدرِك القوم فقد احترقوا، وأخبِرْهم بما قالوا»**، ونزلت الآية.

فلما أعلمهم النبي ﷺ بنزول الآية فيهم، قال وديعة بن ثابت: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، أما (مُخشّن) فقد تاب وعفا الله عنه، قيل: إنه كان مسلمًا إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم، ولم ينكر عليهم، وهو الذي قال الله فيه: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ وتَسَمَّى بعد ذلك (عبد الرحمن) وسأل الله أن يُقتل شهيدًا ولا يُعلم مكانه، فقُتِل يوم اليمامة، ولم يوجد له أثر، أما الذين عُذِّبوا فهم: وديعة، وجدُّ بن قيس، وهم من قال الله فيهم: ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[٤].

---

(١) ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٣٠). والقرطبي (٨/ ١٩٦) عند تفسير الآية.

(٢) يُنظَر «تفسير ابن كثير» والجوزي والبغوي والخازن وغيرهم للآية و«الدر المنثور» (٧/ ٤٢٨). والحديث بتصحيح الألباني في فقه السيرة ص ٤٠٠ - ٤٠٥.

(٣) ويقال له: (مَخْشِيّ).

(٤) يُنظَر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٢٤) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٣١).

هـ - وقال ابن عمر: رأيت عبد الله بن أبي يُسر، قدَّام النبي ﷺ والحجارة تَنكُتُه وهو يقول: يا رسول الله ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ والنبي ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

و - وفي رواية محمد بن كعب القرظي وغيره: أن هذا المنافق جاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، وإن رجليه لتنْسفان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنِسْعَة رسول الله ﷺ[2].

ومعنى الآية: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عن سبب القدح في حقك وحق أصحابك ليقولُنَّ لك على سبيل الاعتذار: إنما كنا نتكلم بكلام على سبيل المزاح والمُداعبة لا على سبيل الجد، ولا قصْد لنا فيه ﴿قُلْ﴾ لهم - يا محمد - على سبيل التوبيخ قطعًا لمعاذيرهم وتبكيتًا على جهلهم: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ أما وجدتم مادة أخرى للمزاح واللعب سوى الاستهزاء بالله وآياته ورسله الذين جاؤوا لهدايتكم، وإخراجكم من الظلمات إلى النور، وهذا الاستهزاء كفر مخرج من الملة، لأن الإسلام يقوم على تعظيم الله تعالى وتعظيم دينه وشرعه ورُسله . قال تعالى:

٦٦- ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ[3] عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ[3] طَآئِفَةًۢ[3] بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

وبعد أن كشف الله سترهم، بيَّن عدم جدوى اعتذارهم؛ لأنهم قد تلبَّسوا بما هو أشنع وأبشع مما اعتذروا عنه، وهو الكفر بعد إظهار الإيمان، فقال تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ أيها المنافقون بالباطل فلا جدوى من اعتذاركم بعد ظهور مكنون صدوركم وخداعكم واستخفافكم؛ لأن الاستهزاء بالدين من باب الكفر ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: قد

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي (٢١١) والسيوطي (١٤٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١).

(٣) قرأ عاصم (نَعفُ)بفتح النون وضم الفاء، و (نُعذِّب) بضم النون وكسر الذال مشددة، و (طائفةً) بالنصب، وقرأ الباقون (يُعْفَ) بياء مضمومة وفتح الفاء، و (تُعذَّب) بتاء مضمومة، وذال مشددة مفتوحة، و (طائفةٌ) بالرفع، وقراءة عاصم على البناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقراءة الباقون على البناء للمفعول، ونائب الفاعل (عن طائفة) هكذا (إن يُعْفَ عن طائفة منكم تُعذَّب طائفةٌ).

أظهرتم الكفر بعد أن أظهرتم الإيمان الكاذب، ونحن الآن نعاملكم معاملة الكفار، بعد أن كنا نعاملكم معاملة المؤمنين ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ فمن أسلم وتاب من نفاقه ورجع إلى الله تعالى مثل: (مَخْشِيِّ بن حُمَيِّر) الذي قال: اللهم إني لا أزال أسمع آية تُقرأ أنا أُعنَى بها، تقشعر منها الجلود، وتجيب منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قَتْلًا في سبيلك؛ حتى لا يقول أحد: أنا غسَّلت، أنا كفَّنت، أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة، ولم يَعرف أحد أين كان مصرعه!

ثم ذكر تعالى صنفًا آخر من المنافقين فقال عنهم: ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ ممن أصر على النفاق ولم يتب، مثل: (جدِّ بن قيس)؛ وذلك بسبب إجرامهم وجُرأتهم على الله تعالى، وعلى رسوله ﷺ بهذه المقالة الفاجرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

والآية عامة في كل منافق يُظْهِر الإسلام ويبطن الكفر إلى يوم القيامة، وهي بصيغة الشرط المستقبلية المتجددة.

مُقَابَلَاتٌ بَيْنَ أَهْلِ الإِيمَانِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ

٦٧- ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

ثم يقابل الله ﷻ بين المنافقين والمؤمنين الآتي ذكرهم في الآيتين: الحادية والسبعين، والثانية والسبعين فيذكر **ستة أوصاف** يتميز بها المؤمنون على المنافقين، والمقصود من هذا بيان أن إناثهم كذكورهم في جميع الأعمال، وبيانها فيما يأتي:

أولًا: المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، فليسوا بمؤمنين، وهم كاذبون في قولهم: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾.

ثانيًا: المؤمنون والمؤمنات يأمرون بالمعروف والخير، وينهون عن المنكر والكفر والشرك، والمنافقون والمنافقات يأمرون بالمنكر والمعاصي، وينهون عن المعروف والإيمان والطاعة.

ثالثًا: المؤمنون والمؤمنات يبذلون أموالهم في وجوه الخير والبر، والمنافقون والمنافقات يقبضون أيديهم، فلا ينفقون شيئًا في سبيل الله، ويضنُّون ويشحُّون بمالهم

حين يُدْعَوْن إلى النفقة في الجهاد وغيره.

رابعًا: المؤمنون والمؤمنات يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، والمنافقون والمنافقات نسوا ذكر الله، فلم يذكروه ولم يؤدوا فرائضه، ولم يوحدوه، فنسيهم الله وتركهم في نار جهنم.

خامسًا: المؤمنون والمؤمنات يطيعون الله ورسوله، والمنافقون والمنافقات عاصون لله ورسوله.

سادسًا: المؤمنون والمؤمنات سيرحمهم الله ويدخلهم جنته فيَنعَمون فيها أبدًا، والمنافقون والمنافقات يتركهم الله في العذاب جزاء وفاقًا لأعمالهم فيعذبون فيها أبدًا.

هذا: وطبيعة النفاق واحدة في كل زمان ومكان، والآية التي معنا تذكر **خمسة أوصاف للمنافقين**:

أ- هم صنف واحد، في إعلانهم الإيمان وإخفائهم الكفر، متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان، كتشابه أجزاء الشيء الواحد، كأنهم نفس واحدة ذكورًا وإناثًا في أعمالهم الخبيثة، كما يقول الإنسان لغيره: أنا منك، وأنت مني، فأحوالنا واحدة، وطبيعتنا واحدة، لا نختلف في شيء، وهذا معنى ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾.

ب- ثم إن بعضهم يأمر بعضًا بالكفر بالله وتكذيب الرسول، وينهون عن الإيمان والطاعة وتصديق الرسول، فيأمرون بما تستنكره الشرائع، وتستقبحه العقول، وينهون عن كل ما يدعو إليه الدين والفطرة السليمة، وهذا معنى ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾.

ج- والمنافقون يقبضون أيديهم شحًّا وبخلًا، ويمسكونها عن النفقة في سبيل الله، وعن كل خير في صالح الدعوة الإسلامية، وهذا معنى ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾.

د- والمنافقون ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلم يذكروه وتركوا أمره ونهْيه ﴿فَنَسِيَهُمْۚ﴾ الله من رحمته وثوابه، ولم يوفقهم للخير، أي: أنهم لَمَّا نسوا ذِكْرَ الله وتركوا عبادته، تركهم الله من توفيقه وهدايته، كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الجاثية]

والمقصود من النسيان ما يلازمه في المعنى، وهو الترك والإهمال.

هـ- وهؤلاء المنافقون هم الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله، الكاملون في الفسق، المنسلخون من الإيمان ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فهذه خمسة أوصاف لهم.

والمعنى: (المنافقون والمنافقات صنف واحد في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر، يأمرون بالكفر بالله ومعصية رسوله، وينهون عن الإيمان والطاعة، ويمسكون بأيديهم عن النفقة في سبيل الله، نسوا الله فلا يذكرونه، فنسيهم من رحمته، فلم يوفقهم إلى خير، إن المنافقين هم الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله[1]) .

مَصِيرُ أَهْلِ الكُفْرِ وَالنِّفَاقِ

٦٨- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

ثم ما هو العذاب الذي ينتظر أهل النفاق الأكبر؟ إنه عذاب الكفار المجاهرين بكفرهم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ بأن مصيرهم إلى نار جهنم ماكثين فيها أبدًا، عقابًا لهم على كفرهم بالله، فهم في منزلة واحدة، بل إن منافقي العقيدة أشد وأعظم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء] فمصيرهم ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ خالدين فيها يقيمون فيها بصفة دائمة كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] وقال سبحانه ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى] وقال جل شأنه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وقال عز وجل: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف].

وهذه النار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ كافيتهم في إهانتهم وإذلالهم، عقابًا لهم على كفرهم بالله، ونفاقهم في عقيدتهم ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم من رحمته، وأبعدهم عن بابه، وألحقهم بالشياطين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي: عذاب دائم لا ينقطع، بخلاف العذاب المعجَّل لهم في الدنيا، من خوف الاطلاع على سرائرهم وكشف فضائحهم، والخزي والمذلَّة بين الناس.

والعذاب المقيم: إن أريد به عذاب جهنم، فهو تأكيد لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ حتى لا يُتوهَّم أن المراد بالخلود طول المدة فحسب، وإن أريد بها عذابٌ آخر، تعيَّن أن يكون هو عذاب الدنيا الذي أشرنا إليه، والأول أرجح؛ لأن عذاب الدنيا غير دائم.

---

(١) من «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص (١٩٧).

اسْتِوَاءُ اللَّاحِقِينَ بِالسَّابِقِينَ فِي سُوءِ الْمَصِيرِ

٦٩- ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

هذا تحذير لأهل النفاق أن يصيبهم من العذاب مثل أصاب الأمم المكذبة لرسل الله قبلهم، فقد بيَّن ﷻ أن طبيعة المنافقين وأهل الانحراف والضلال ليست جديدة، بل لها نظائر وأمثال يحفل التاريخ البشري بكثير منها، وقد لقي اللَّاحقون ما لقيه السابقون من سوء المصير.

والقرآن هنا ينتقل من أسلوب الغائب إلى أسلوب المخاطب جذبًا للانتباه، ولفتًا للأنظار، فيشبِّه أفعال المنافقين بأفعال الكافرين الذين سبقوهم في عُدُولِهِمْ عن طاعة الله واتباع أمره، قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: أن أفعالكم -معشر المنافقين- من الاستهزاء بالإسلام والكفر بالله، وقبْض الأيدي عن فعل الخير والطاعة، كأفعال الأمم السابقة من الكفار قبلكم فقد ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ في أبدانهم، وأقدر منكم على الأعمال الشاقة الصعبة، وكانوا أعز منكم جانبًا، وأكثر عددًا وأكمل عدة، فعصَوْا ربهم فأهلكهم الله، فأنتم أحرى بالإهلاك منهم لمعاصيكم وضَعْفِكم، وكانوا أكثر أموالًا، أي: كانوا أقدر على تحصيل الأموال، وطَرْق أسبابها من الزراعة والتجارة والصناعة، والرعْي والصيد، واستخراج كنوز الأرض وما إلى ذلك.

وكانوا أيضًا أكثر أولادًا، من كثرة الأزواج والإماء، والمراضع، والسلامة من المجاعات، وكثْرة النسل ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: اطمأنوا إلى الدنيا، وتمتعوا بما فيها من الملذات والحظوظ، وأخذوا نصيبهم منها وافرًا، ولم يشكروا الله على إحسانه ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ أي: وأنتم -أيها المنافقون- استمتعتم بنصيبكم من الشهوات الفانية، وامتلأت أيديكم بالنعم، فاستعملتموها في معصية الله، وكنتم جاحدين لها، غير قائمين بحقها عليكم، بل استعنتم بنعم الله على معاصيه كما فعل أسلافكم ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: أن استمتاعكم بالشهوات والملذات، كان مثل استمتاع الذين سبقوكم بحظوظ الدنيا، حيث عُجِّلت لكم طيباتكم في حياتكم الدنيا فاستعملوها

فيما يغضب الله سبحانه.

وهكذا ذمَّ الله الأولين على تمتُّعهم ورضاهم بحظوظ الدنيا دون الآخرة.

وهكذا شبَّه حال المنافقين المخاطبين في الآية بحال مَن سبقهم، وأكده، فليس في الآية تكرار، وإنما فيها تأكيد لتقبيح أفعالهم وأفعال نظرائهم من السابقين.

ثم بيَّن تعالى رذيلة أخرى من رذائل اللاحقين المماثلة لرذائل السابقين، فقال سبحانه: ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل والزور، وجادلتم بالباطل لِتُدْحضوا به الحق، وكنتم ﴿كَالَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ والمراد بـ (الذي خاضوا) الفريق أو الجمع؛ لأن عائد الصلة ضمير جمع، ويجوز أن يكون المراد (الذين) فحذفت النون للتخفيف. والخوض لا يكون إلا في الباطل وخلْط الحق به، ومما خاض فيه المنافقون: استهزاؤهم بالإسلام وأهله الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: إنكم أيها المنافقون سلكتم مسلك مَن سبقكم في الكذب على الله واتباع الباطل، والاستخفاف بعقاب الله عز وجل.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الأخلاق من الكافرين والمنافقين ممن وصفهم الله بالشدة وكثرة الأموال والاستمتاع بملذات الدنيا ونعيمها ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ذهبت حسناتهم، وبطلت أعمالهم الصالحة التي عملوها من وجوه الخير والبر في الدنيا، فلا تنفعهم في الآخرة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنهم باعوا نعيم الآخرة بحظوظ الدنيا.

أمَّا مَن هم هؤلاء الذين شبَّه الله بهم المنافقين من الأمم السابقة؟ فعن عكرمة عن ابن عباس قال: ما أشبه الليلة بالبارحة! ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شبَّهَنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: **«والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحْر ضب لدخلتموه»**[1].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع»**، فقيل: يا رسول، كفارس والروم؟ فقال: **«ومَن**

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧٣).

الناس إلا أولئك؟»[١].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لتتبعن سنن الذين مِنْ قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»**[٢].

وعلى هذا فالمراد من الآية: مخاطبة العصاة من أمة محمد ﷺ، ونهيهم عن التشبه بمن سبقوهم من اليهود والنصارى، أو فارس والروم[٣].

وسياق الآية يقتضي أن يكون الخطاب في الآية موجهًا إلى المنافقين المذكورين في الآية السابقة، وأن مَثَلهم مَثَلُ مَن سبقهم من أهل الكفر والضلال، فاحذروا أن يحل بكم ما حل بغيركم.

ومن الأمم التي نهت الآية عن التشبه بهم في الزمن البعيد (قوم عاد) فقد وصفهم الله تعالى بأنهم استكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا: من أشد منا قوة؟ وأنهم بنوْا في كل مرتفع من الأرض آية في الفن المعماري فكان عاقبة الله لهم: أن أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

والتاريخ يعيد نفسه في صورة بعض الدول التي تقول: من أشد منا قوة؟ وقد عتتْ وأفسدت في الأرض عتوًّا كبيرًا، والله تعالى يملي للظالم ولكنه جلَّ شأنه لا يهمله ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

أما المؤمنون فإنهم استعانوا بنعيم الدنيا على طاعة الله، فأجزل لهم المثوبة في جنات النعيم. قال تعالى:

٧٠- ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ[٤] نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ[٥] وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٣١٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٩) و«صحيح البخاري» برقم (٣٤٥٦، ٧٣٢٠).

(٣) وبهذا قال الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٤١) وابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧١) وغيرهما.

(٤) ضم الهاء من (يأتهم) رويس، وكسرها غيره.

(٥) عدّ لفظ (وثمود) أية، المدني الأول والأخير والمكي، وتركه من العدد غيرهم.

وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ[1] أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم[2] بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

وبعد أن نهى القرآن الكريم المنافقين أن يتشبهوا بالذين قبلَهم في الزمن القريب إليهم من الأمم السابقة قبل الرسالة الخاتمة، رجع إلى أسلوب الغيبة؛ ليقرر أن على هؤلاء المنافقين ومَن شاكلهم، أن يتعظوا ويعتبروا بالأمم الغابرة في الزمن البعيد؛ ليكون لهم فيهم عبرة ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم يصل إلى أسماع هؤلاء المنافقين والكفار خبر من مضى قبلهم من الأمم التي خالفت أمر الله وكذَّبت رسله، والمعنيّ هم الذين قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب.

وقد ذكرت الآية ستة منهم، وخص القرآن هؤلاء الستة بالذكر؛ لأن آثارهم باقية، ومواطنهم قريبة ممن خاطبهم الله بهذه الآيات وهي: في الشام، والعراق، واليمن، والأردن، والأحقاف، ومدائن صالح، وهم يمرون عليها في أسفارهم مصبحين وبالليل، وهم:

أ- قوم نوح الذين كذبوا رسولهم، فأغرقهم الله بالطوفان، إلا من آمن به من قومه.

ب- وقوم عاد الذين كذبوا رسولهم هودًا فأهلكهم الله بريح عقيم صرصر عاتية.

ج- وقوم ثمود الذين كذبوا رسولهم صالحًا، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

د- وقوم إبراهيم الذين سلب الله عنهم نعمهُ وأهلك طاغيتهم المتجبر، الذي حاج إبراهيم في ربه.

هـ- وأصحاب مدين قوم شعيب وكذا أصحاب الأيكة، الذين أخذتهم الصيحة، والذين عذبوا بيوم الظلة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

و- والمؤتفكات أصحاب قرى قوم لوط (سدوم) التي قلَبها الله، وجعل عاليها سافلها، وأمطرهم بحجارة من سجيل، وسُمُّوا بالمؤتفكات؛ لأنهم صرفوا الحق إلى الكذب.

هؤلاء الأقوام وغيرهم ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والحجج الواضحات بالوحي المنزل،

---

(١) أبدل ورش وأبو جعفر وقالون وأبو عمرو بخلف عنهما، همزة (والمؤتفكات) واوًا خالصة وصلا ووقفا ومعهم حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسْلهم)، والباقون بضمها.

فكذبوهم، فعاقبهم الله تعالى بأن أنزل بهم عذابه وانتقامه؛ لسوء أعمالهم.

وهذه سُنَّة الله في خلقه ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم وجحودهم، وتكذيبهم لرسل الله، ومخالفتهم للحق الذي جاءهم من ربهم، فلم يهلكهم الله ظلمًا وإنما أهلكهم بإجرامهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ويؤخذ من الآيتين أن الغرور بالقوة، والانغماس في الشهوات، والافتتان بالأموال والأولاد، يؤدي إلى الهلاك والخسران والتعرض لسخط الله تعالى.

وَلَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ لِبَعْضِهِمْ وَصِفَاتُهُمْ

٧١- ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وبعد أن ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة، وما أعده لهم من العذاب، وضرب لهم مثلًا قريبًا ومثلًا بعيدًا من الأمم التي سبقتْهم، وما لحق بهم من عقوبة؛ بسبب تكذيبهم لرسل الله.

أعقب ذلك بذكر أوصاف المؤمنين الحسنة المحمودة، وما أعد لهم من النعيم المقيم.

فقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ لهم خصائص ومزايا لا يشتركون فيها مع غيرهم، وقد وصفهم الله بضد ما وصف به المنافقين، ومن هذه **الصفات**:

أ - أن ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فهم إخوة في الدين، ذكورًا وإناثًا، يوالون بعضًا في المحبة والموالاة والانتماء والنصرة، تجمعهم العقيدة الواحدة، فهم يتناصرون ويتعاضدون ويتراحمون فيما بينهم، وهم أشبه بالجَسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى لهُ سائر الجسد بالسهر والحمى، وهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، والمنافقون لا ولاية بينهم، ولا شفاعة لهم.

ب - وأنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾

والمعروف: اسم جامع لكل ما حسَّنه الشرع من العقائد، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة.

والمنكر: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الذميمة.

أي: يأمر بعضهم بعضًا، ويأمرون غيرهم بكل خير، وفي مقدمة الخير: الإيمان بالله والرسول وعبادة الله وحده، والنّهيْ عن كل شر، وفي مقدمته: عبادة الأوثان، والشرك بالله، وكبائر الذنوب، وكل ما ذكر في القرآن هو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد نيطت خيرية هذه الأمة بهذا الركن العظيم في الإسلام.

ج - ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يحافظون عليها ويؤدونها بشروطها وأركانها وواجباتها، في أوقاتها الخمسة بخشوع وخضوع.

د - ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يؤدون الزكاة المفروضة لمستحقيها، ويتصدقون بفضول أموالهم دون مَنٍّ، ولا أذًى، ولا شح، ولا بخل.

هـ - ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما أُمروا به أو نُهوا عنه، ويدخل في ذلك جميع المندوبات والمستحبات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين ذكر الله أوصافهم من الذكور والإناث ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ هذا وعد من الله تعالى بأنه جلَّ شأنه ينقذهم من عذابه ويدخلهم جنته، وهذا هو الفوز العظيم ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قوي قاهر، لا يغلبه أمر ولا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير شؤون خلقه، ومن ذلك ما وصف به المؤمنين والمنافقين، ومن ذلك ما يعزُّ به أهل طاعته، ويذل به أهل معصيته.

ثم ذكر سبحانه ما أعده للمؤمنين من ثواب:

مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلمُؤْمِنِينَ فِي الآخِرَةِ

٧٢- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ[1] مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

ثم إن الله تعالى أعد لهذا الصنف من الناس في دار كرامته **ثلاثة ألوان** من النعيم هي:

أ- جنات تجري من تحتها الأنهار.

ب- ومساكن طيبة في جنات عدن.

---

(١) قرأ شعبة بضم الراء من (ورُضوان)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

ج- ورضوان من الله أكبر.

وهكذا وعد الله المؤمنين والمؤمنات من الذكور والإناث حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها: الأنهار العزيزة المُرْوية للبساتين، بما فيها من الثمرات والخيرات والبركات، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون؛ ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وللسابقين المقربين عند الله منازل حسنة في جنات هي أعلى درجاتٍ، وأكثر نعيمًا من جنات أهل اليمين، فهي جنان في الجنة، وقد جاء في وصف الجنات **أحاديث كثيرة** منها:

١- ما ورد عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يَنظُروا إلى ربهم، إلا رداء الكبرياء، على وجهه في جنة عدن**»(١).

وعدْن بمعنى: إقامة، أي: جنات ثابتة مستقرة، وقيل: إن **عدن**: عَلَم على مكان مخصوص في الجنة.

٢- وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقًّا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو حُبس في أرضه التي وُلد فيها**»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نُخبر الناس؟ قال: «**إن في الجنة مئة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن**»(٢).

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صلَّيتم عليَّ فسلوا الله لي الوسيلة**»، قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «**أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو**»(٣).

---

(١) البخاري برقم (٤٨٧٨) وفي «فتح الباري» (٨/ ٤٩١) مسلم (١/ ١٦٣) برقم (١٨٠).

(٢) البخاري برقم (٧٤٢٣) وفي «فتح الباري» (٦/ ١٤).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٦) برقم (٧٥٩٨) بإسناد ضعيف، لضعف ليْث وكعب، وأخرجه الترمذي (٣٦١٢).

٤- وعن عبدالله بن عمرو ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليّ فإنه من صلَّى عليَّ صلاة، صلَّى الله عليه بها عشرا، ثم سلُوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي لعبد من عبادالله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»**(١)

٥- وعن أسامة بن زيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا هل من مشمِّر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطَرَ لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَل كثيرة، ومقام به في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخُضرة، وحَبِرة ونِعمة في مَحِلة عالية بهية»**، قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: **«قولوا: إن شاء الله»**، فقال القوم: إن شاء الله(٢).

٦- وعن سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن أهل الجنة ليتراؤون الغرف في الجنة كما تراؤون الكوكب في السماء»**(٣).

٧- وعن أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وصلَّى والناس نيام»**(٤).

٨- وعن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنة خيْمة من لؤلؤة مُجوَّفة، عرضها ستون ميلًا، في زاوية منها أهلٌ ما يَروْن الآخرين، يطوف**

---

(١) صحيح مسلم (٣٨٤) ومسند أحمد (٦٥٦٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، (محققوه) وأخرجه الترمذي (٣٦١٤) وابن خزيمة (٤١٨) وابن حبان (١٦٩٢) وأبو داود (٥٢٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/١٤٤٨) برقم (٤٣٣٢) قال البوصيري في «الزوائد» (٣/٣٢٥) وفي «مصباح الزجاجة» (١٥٥١) هذا إسناد فيه مقال، وقد ضعَّفه الألباني في ضعيف «سنن ابن ماجه» (٩٤٦) و«السلسلة الضعيفة» (٣٣٥٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٥٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٣١).

(٤) «المسند» (٥/ ٣٤٣) وبرقم (٢٢٩٠٥) بإسناد حسن، (محققوه) وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٢٠٨٨٣) وابن حبان في الإحسان برقم (٥٠٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤٢٠): رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن معانق، ووثقه ابن حبان، وأخرجه الحاكم (١/ ٣٢١، ٨٠٨) وصححه بموافقة الذهبي، وحسنه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٦١٣).

عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا»[1].

وفوق هذا النعيم، وأعظم منه: رضوان الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فإن نعيمهم لا يتم إلا برؤية ربهم، وحلول رضوانه عليهم، وهذا إشارة إلى منازل المقربين في الجنة، ولهم عند الله ما هو أعظم من الجنات ومن المساكن الطيبة، وهو فضل الله ورضوانه.

٩- كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة، يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نَرْضى يا ربنا، وقد أعطيْتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحل عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبدًا**»[2].

وما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات في جنات ثابتة مستقرة، ومساكن طيبة، ورضى الله عليهم، هو الفوز الذي لا يدانيه فوز، ولا يساميه شرف ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

فقد حصلوا على كل مطلوب، وزال عنهم كل محذور، وفازوا بجنة الخلود.

هذا هو النعيم الذي وعد الله به المؤمنين والمؤمنات في الدار الآخرة، هو الفلاح العظيم ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة].

جِهَادُ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ

٧٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ[3] جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

ثم تأتي بعد ذلك الآية الثالثة والسبعون من سورة التوبة، وهي آية ذُكِرتْ بنصها ولفظها مرة أخرى في سورة التحريم، وفيها يأمر الله سبحانه نبيَّه أن يقاتل المشركين الكافرين

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٤٣، ٤٨٧٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٨).

(٢) البخاري برقم (٦٥٤٩) و«فتح الباري» (١١/ ٤٢٣) ومسلم (٤/ ٢١٧٦) برقم (٢٨٢٩).

(٣) قرأ نافع بالهمز في (النبيء) فيكون من قبيل المد المتصل، والباقون بياء مشددة.

المحاربين لنا، يقاتلهم بالسيف، ويتعقب المقاتلين منهم بالقتل؛ لنصرة دين الله، ونشر الدعوة، وإعلاء كلمة الله، أما أهل الذمة والمعاهدين والمستأمنين، فإن جهادهم يكون بالحجة والبرهان، وذكر محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر.

وهكذا يأمر الله تعالى نبيَّه أن يجاهد المنافقين بالكلمة وبالحجة وبالبرهان، وهذا لون من العذاب الدنيوي الذي أعده الله للمنافقين، فضلًا عن العذاب الأخروي الذي توعَّدهم الله به في الآية السابقة بأن لهم نار جهنم خالدين فيها، هي حسبهم ولعنهم الله.

وقد سبق هذه الآية في النزول آية أخرى في سورة الأحزاب تنذرهم بالقتال إن لم ينتهوا عن أساليبهم الماكرة الغادرة بالمسلمين في قوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾[الأحزاب].

وبعد أن أنذرهم الله تعالى بآية سورة الأحزاب ولم يرتدعوا، ومضى عليهم مدة من الوقت، كشف الله فيه دخيلتهم، بما تكرر منهم من بوادر الكفر والكيد للمسلمين، بعد ذلك أنجز الله وعده، فأمر رسوله بجهاد المنافقين باللسان في هذه الآية؛ لأن قتالهم بالسيف متعذر؛ فهم مسلمون في الظاهر، وكفرهم غير واضح.

وكان النبي ﷺ يُعرِّف المنافقين بأعيانهم لحذيفة بن اليمان، وكان ﷺ يَعْرفهم ويسترهم؛ لأنه مأمور بألا يقاتل من أظهرإسلامه.

وكان ﷺ يخشى أن يقال: إن محمدًا يقتل أصحابه؛ وهذا هو الذي حمل المفسرين على القول بأن المراد بقتال المنافقين في الآية: هو جهاد اللسان، فإن لم يستطع فبقلبه، ولْيلْقَهُ بوجه مكْفهِرٍّ[1].

وكانت هذه الآية سببًا في إقلاع كثيرمنهم عن النفاق وإخلاص الإيمان، كالجلاس بن سُويد وغيره.

فالجهاد المأمور به في الآية، مختلف، بالنسبة للكفار عن المنافقين، فجهاد المنافق

---

(١) جاء ذلك عن ابن مسعود عند ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف (١٠٩) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤١) والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٠).

باللسان والتعنيف والوجه العبوس ونحو ذلك، وجهاد الكافر المعلِن عن كفره والمحارب لنا بوسائل القتال المختلفة.

وقد ظل النبي ﷺ فترة طويلة بعد هجرته إلى المدينة يُلاين المنافقين، ويغضُّ الطرْف عن رذائلهم، ويصفح عن مُسيئهم، إلا أن المعاملة الحسنة زادتْهم رجسًا إلى رجسهم، فكانت هذه الآية من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ؛ لإحلال الشدة والحزم، محل اللين والرفق.

جاء عن علي ﷺ أن الله تعالى بعث رسوله ﷺ **بأربعة أسياف:**

أ- سيف للمشركين ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

ب- وسيف للكفار من أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ج- وسيف للمنافقين ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩].

د- وسيف للبغاة ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩][(١)].

فأُمر الرسول ﷺ بقتال المنافقين في هذه الآية بما يراه مناسبًا لردعهم وزجرهم.

يجاهدهم: بعدم الصلاة عليهم إذا ماتوا، ويجاهدهم بأن لا يأخذهم معه إلى غزوة أخرى بعد غزوة تبوك؛ بسبب ما أخلفوا الله ما وعدوه، وبما كذَبوا به على رسول الله ﷺ، وهذا لا يمنع من جهادهم بالسيف إذا حاربونا أو صرحوا بأنهم يبطنون الكفر، ويصدون عن سبيل الله، كما قاتل أبو بكر ﷺ مانعي الزكاة، وهو نوع من الردة.

وظاهر الآية فيه أمر للنبي ﷺ بقتال مَن أظهر الكفر واستمرَّ عليه، أما من أطلع الله نبيه على كفره، ولكنه أنكر كفره وأقسم على ذلك وقال: إني مسلم؛ فإنه ﷺ مأمور أن يأخذه بظاهر الأمر، ولا يبحث عن سره ومكنون صدره، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المصير.

---

(١) سبق ذكره في الآية الخامسة.

وفي مقابل المنافقين أمر الله رسوله أن يكون ليِّن الجانب مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء].

فشأن المؤمن أن يتصف بالرحمة على المؤمنين والشدة على الكافرين، فالمؤمنون ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

المُنَافِقُونَ يَطْعَنُونَ فِي الإِسْلَامِ وَيَحْلِفُونَ مَا قَالُوا

٧٤- ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

تذكُر هذه الآية نوعًا من المنافقين كانوا يتحدثون عن رسول الله ﷺ بما يقدح في الإسلام، ويطعن في رسول الله ﷺ ويقولون كلامًا يخرجهم من الإسلام:

١- قال الضحاك: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض، سبُّوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين، فنقل حذيفة ما قالوا إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**يا أهل النفاق، ما هذا الذي بلغني عنكم؟**» فحلفوا: ما قالوا شيئًا من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية! تكذيبًا لهم[1].

٢- ومن ذلك أن الجُلَّاس بن سُوَيْد بن الصامت أقبل من قباء هو وابن امرأته مصعب[2].

وقال: والله إن كان الذي يقوله محمد حقًّا، وفينا أشراف القوم، إننا لأشر من الحمير، أي: أنه يُكَذِّب ما جاء به الرسول ﷺ، فقال له ربيبه: إنه لحق، وإنك لشر من حمارك، ولأخبرن رسول الله ﷺ قال مصعب: فخشيتُ أن ينزل فِيَّ القرآن، أو تصيبني قارعة، فأخبرت رسول الله ﷺ، فأرسل النبي ﷺ إلى الجلاس، فحلف بالله ما قال، فنزلت الآية، فزعموا أنه تاب وحسُنت توبته[3].

(١) الحديث في صحيح مسلم (١٣٨٤) وانظر «أسباب النزول» للواحدي (٢١٢) والسيوطي (١٤٣) و«الدر المنثور» (٣/ ٢٥٨).

(٢) هذا قول عروة، وقال ابن إسحاق اسمه عمير بن سعد.

(٣) «تفسير ابن جرير» (١٤/ ٣٦٢) والألوسي (١٠/ ١٣٨) وابن عطية (٣/ ٦٠) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٥١٩) و«المسند» (٥/ ٤٥٣) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٣) عن ابن عباس.

٣- ومن ذلك ما قاله عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول حين اقتتل غلام من الأنصار مع غلام من جُهينة على الماء، فغلب الجُهني الأنصاري، فقال ابن سلول مخاطبًا الأنصار: ألا تنصُرون أخاكم، يعني: الأنصارِيَّ، والله ما مثَلُنا ومثَلُ محمد إلا كما قال القائل: سمِّن كلبك يأكلك، ثم قال: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأرسل له النبي ﷺ فجعل يحلف بالله: ما قال، ونزلت الآية[1].

وكان عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، كبير المنافقين بالمدينة، يُنْظَمُ له الخرز؛كي يُتوَّج لأنْ يكون مَلِكًا عليها، قبل مَقْدَم النبي ﷺ إليها مهاجرًا.

وكان له ولد اسمه أيضًا عبد الله، كان اسمه الحباب فلما جاء إلى النبي ﷺ، وسأله عن اسمه؟ قال: الحباب، فقال: «**الحباب، اسم للشيطان**»[2].

وسماه عبد الله، فهو عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، كان من خيرة الصحابة، فلما علم مقالة أبيه في رسول الله ﷺ جاء إلى النبي ﷺ وقال: والله يا رسول الله، إنك لتعلم أني من أبرِّ الناس بأبي، ولكني سمعتُ مقالة أبي عنك، وأخشى أن يقتله رجل غيري، فأمشي بين الناس، فلا تطاوِعُني نفسي حين أرى قاتل أبي يمشي بين الناس فأقتله، فتكون النتيجة: أن أقتل مسلمًا بكافر، فأدخل النار، فإن كنت تريد رأس أبي يا رسول اللهْ فأمُرني بذلك، فكان من النبي ﷺ أن أمره بالعفو والصفح عن أبيه.

هذا: وكان بعض المنافقين إذا خلَوْا ببعضهم سبُّوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين، فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله ﷺ فحلفوا؛ ما قالوا شيئًا، وهكذا لما سُئل الجلَّاس، أو سئل عبد الله بن سلول عن قوله؟ فإنه يكذب ويحلف بالله: ما قال، فأنزل الله تعال قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ أي ما قالوا شيئًا يُسيء إلى الرسول ﷺ وإلى المسلمين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ التي تخرجهم من الإسلام، كسبِّهم لرسول الله ﷺ وطعنهم في الدين، كقول الجلاس: لئن كان محمد صادقًا لنحن شر من الحمير، وقول ابن سلول: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ وقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١٤/ ٣٦٤) عن قتادة وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٣).

(٢) ينظر السلسلة الضعيفة برقم (٣٥١) بلفظ (الحباب شيطان).

وهذه أقوال مخرجة من الملة، وهذا معنى: ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي: بعد أن كانوا منافقين مظهرين للإسلام، كفروا علانية كفرًا صريحًا.

وكل كلمة فيها تكذيب للنبي ﷺ تُسمَّى كفرًا، ثم قال تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ أي: أنهم حاولوا الإضرار برسول الله ﷺ وهذه الجملة من الآية لها قصة:

خمسة عشر منافقًا يريدون اغتيال النبي ﷺ ذلكم: أن خمسة عشر رجلًا من المنافقين اعترضوا النبي ﷺ في عودته من غزوة تبوك، وتآمروا على اغتياله ﷺ والفتك به، بأن يزاحموا الناقة التي يركب عليها النبي ﷺ، وهي في مكان مرتفع ويترصَّدوا له عند عقبة بالطريق تحتها وادٍ، فإذا اعتلاها دفعوه عن راحلته في الوادي، وكانوا على رواحلهم مُلَثَّمين ،أو يزاحموها حتى تنفر، ويضطر رسول الله ﷺ إلى السقوط من فوقها، فتدوسه الأقدام ويموت - قبَّحهم الله - فأعلم الله رسوله بذلك، وكان يقود الناقة حذيفة، ويسوقها عمَّار، فقال ﷺ: «**هل عرفتم القوم؟**»، قالوا: لا يا رسول الله، وقد كانوا ملثَّمين، ولكنا عرفنا الركاب، فقال: «**هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة**»[1].

أمين سر الرسول ﷺ: فلما أخبر الله رسوله بأن المنافقين يريدون أن يزاحموا ناقته، ويُسقطوه من فوقها، أقبل عمَّار يضرب وجوه رواحلهم، أي: صَرَف نياقهم عن مزاحمة النبي ﷺ، وصرَخ فيهم حذيفة، فولَّوا مدبرين[2].

وكان حذيفة موضع سر النبي ﷺ وقد أسرَّ له بأسماء المنافقين،وعرَّفه إياهم واحدًا واحدًا، وقال له «**يا حذيفة: إني أُمرت أن لا أصلي على فلان وفلان وفلان**»، فكان هذا سرًّا عند حذيفة، لم يطَّلع عليه أحد من الصحابة.

وبعد موت النبي عليه الصلاة والسلام، كانَ عمر رضوان الله عليه يقتفي أثر حذيفة، ويمشي خلفه، فإذا كانت هناك جنازة يراد الصلاة عليها، فإن صلى عليها حذيفة صلَّى عليها عمر، وإن لم يصلِّ عليها حذيفة لم يصلِّ عليها عمر، وعرف أنه من المنافقين الذين ذكرهم النبي ﷺ لحذيفة.

---

(١) يُنظَر: البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٥٦) والحديث في المعجم الأوسط للطبراني (٨/ ١٠٢) برقم (٨١٠٠).

(٢) تُنظَر القصة في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٦٠) وفي «المسند» عن أبي الطفيل (٥/ ٤٥٣) و«أسباب النزول» للواحدي (٢١٥) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٠).

ورد أن حذيفة ﷺ قال يومًا: بقي من المنافقين كذا وكذا، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: أنشُدك الله، أنا منهم؟ فقال: لا، والله[١].

هذا عمر، على عظيم قدره ورفيع منزلته، يخشى على نفسه من النفاق.

وعن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «**في أصحابي اثنا عشر منافقًا، لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها، حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكم الدُّبَيْلة**»[٢]، وهي سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم.

وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ أي: همُّوا بشيء لم يُحَصِّلوه، وهو الفتك برسول الله ﷺ ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ أي: ما وجدوا شيئًا يعيبونه وينتقدونه على النبي ﷺ ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين، فكيف يستهينون بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وسببا في ثرائهم بعد فقرهم، وما حقه عليهم إلا أن يعظموه ويؤمنوا به ويجلّوه.

فالمنافقون كانوا فقراء قبل مَقْدم النبي ﷺ إلى المدينة، فتفضل الله عليهم، وفتح على نبيه ﷺ أبواب الخير والبركة، وأسباب الرزق بكثرة عمل المهاجرين، ووفرة الغنائم من الغزوات، وبانتفاء الضغائن والثارات بعد أن كانوا أعداء متحاربين، وبالأمن الذي منحه الله إياهم، وهذا كقول النبي ﷺ: «**وكنتم عالة فأغناكم الله بي**» وبدل أن يشكروا الله ورسوله، بدَّلوا نعمة الله كفرًا، وأحلُّوا أنفسهم وقومهم دار البوار.

ومع ذلك فقد فتح الله لهم باب التوبة ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: إن يرجع هؤلاء الكفار إلى الإيمان والتوبة، فهو أفضل لهم، ويمكنهم أن يتداركوا أمرهم، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ أي إن يعرضوا ويستمروا على حالهم، ففي هذه الحالة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعًا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ على أيدي المؤمنين وبما ينالهم فيها من الهم والغم والحزن ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في نار جهنم ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ﴾ مُنقذ ينقذهم ويتولى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم سوء العذاب.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٦٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٩) و انظر تخريجه في الآية (٦٤).

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ

٧٥- ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

تذْكُر السورة نوعًا آخر من المنافقين، وهم قوم يعاهدون الله سبحانه على أنه إن أغناهم الله وأعطاهم مالًا، فسوف يؤدون الزكاة المفروضة، ويتصدقون بفضول أموالهم، ويعطون كل ذي حق حقه، ولكنهم يخلفون ما وَعدوا به.

ويذكر المفسرون عند هذه الآية قصة وردت بسند ضعيف جدًّا، أن المراد في الآية، هو ثعلبة بن حاطب ﷺ، والصحيح أنه ليس هو؛ لأن ثعلبة بن حاطب من أهل بدر الذين لا ينطبق عليهم وصف النفاق في الآيات ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ [التوبة: ٧٧] فإن هذا يقتضي أنه مات على الكفر، وأنه كان يدفع زكاته رياء وتَقِيَّة، والصحيح أن ثعلبة بن حاطب استُشهد في أحد، أي: قبل غزوة تبوك بنحو سبع سنوات، ويبدو أن المراد في الآية رجلًا آخر من المنافقين يقال له: ثعلبة؛ لأن النبي ﷺ قال: **«وما يدريك لعل الله يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**[١].

وثبت أنه ﷺ قال: **«لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية»**[٢].

فكيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه إلى أن يلقى ربه؟[٣].

وقال الضحاك إنهم: نبْتل بن الحارث، وجدُّ بن قيس، وثعلبة، ومُعَتِّب بن قُشَيْر، هم الذين نزلت فيهم الآيات، وثعلبة المذكور غير ثعلبة بن حاطب.

وقال الحسن ومجاهد: إنها نزلت في ثعلبة ومُعَتِّب بن قُشَيْر[٤].

---

(١) جزء من حديث عليّ في البخاري (٣٠٠٧) وانظر كتاب الأدب، باب رقم (٧٤) من صحيح البخاري، والحديث في صحيح مسلم أيضًا (٢٤٩٤).

(٢) من حديث أم مُبشِّر امرأة زيد بن حارثة في المسند (٢٧٠٤٢) وهو حديث صحيح أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٨٦١) وابن حبان (٨٠٠) والطبراني في الكبير ٢٥ (٢٦٦).

(٣) قال الألباني: هذا حديث منكر على شهرته - أي قصة ثعلبة بن حاطب - «السلسلة الضعيفة» (٤/ ١١٢).

(٤) يُنظَر: ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٧٤).

وثعلبة هذا أو معتِّب جاء إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، ادعُ الله أن يرزقني مالًا، والمال وقتئذ، يقدَّر بكثرة الماشية في الإبل والبقر والغنم، هذا هو المال عند العرب قديمًا.

قال النبي ﷺ: «**قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه**»، قال ثعلبة مرة ثانية: يا رسول الله، ادعُ الله أن يرزقني مالًا، قال ﷺ: «**ألا ترضى أن تكون مثل رسول الله؟ لقد راودتْني الجبال أن تصير ذهبًا فأبيت**»، فقال وهو يُلحُّ، ويعاود للمرة الثالثة: يا رسول الله، واللهِ لئن أعطاني الله مالًا، لأُعطينَّ كل ذي حق حقه، فقال ﷺ: «**اللهم ارزق ثعلبة مالًا**»، فاتخذ غنمًا، وازدادت هذه الأغنام حتى ضاقت بها أرض المدينة.

وكان ثعلبة يقال له: حمامة المسجد، يصلي الأوقات الخمس مع الجماعة لا يتخلف، فنزل واديًا بعيدًا يتَّسع لأغنامه خارج المدينة، وأخذ يتخلَّف عن بعض الصلوات، فيصلي الظهر والعصر فقط، ويتخلف عن بقية الأوقات، وازدادت أمواله، فتخلَّف عن الصلوات الخمس ما عدا الجمعة، وكثُرت أمواله فتخلف عن الجمعة والجماعة.

ولما أنزل الله قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] أمر النبي ﷺ بجمع الزكاة من الأغنياء وإعطائها للفقراء، فكتب عليه الصلاة والسلام كتابًا إلى ثعلبة، وإلى رجل آخر من بني سُلَيم؛ لتحصيل الزكاة منهما، وأرسل ﷺ كتابه مع رجلين من الصحابة يجمعان الزكاة من الناس، ووصل كتاب رسول الله ﷺ إلى ثعلبة، فأمسكه وأخذ يقلِّب النظر فيه، ثم قال: انطلقا فاجمعا الصدقة من الناس، ثم مُرَّا عليَّ في العودة حتى أرى رأيي، فلما رجعا أخذ يقلِّب في خطاب رسول الله ﷺ ثم قال لهما: ما هذه الزكاة إلا جزية، ما هي إلا أخت الجزية، انطلقا، وامتَنع من دفع الزكاة، ورجعا إلى المدينة.

أما الرجل الآخر، الذي هو من بني سليم، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهم بها، فلما رأوْها قالا له: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بل خذوها، فإن نفسي بها طيبة، فأخذاها منه، وحين رآهما النبي ﷺ قال: قبل أن يكلمهما: «**يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة**»، ودعا للرجل السُّلَمي، وفيه وفي أمثاله إلى يوم القيامة نزلت هذه الآيات ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ والآيات الثلاث بعدها.

ولما نزلت هذه الآيات، وحملها رجل من أقارب ثعلبة إليه، جاء إلى النبي ﷺ بزكاة ماله، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله قد منعني أن أقبل منك**»، فأخذ يحثو التراب

على رأسه، وهو يتوسل إلى رسول الله ﷺ أن يقبل منه زكاته، فيردها عليه النبي ﷺ، وظل هكذا حتى مات رسول الله ﷺ وانتقل إلى الرفيق الأعلى، فجاء الرجل بزكاته إلى أبي بكر ﷺ، ولم يقبلها منه مدة خلافته، وجاء بها بعد موته إلى عمر ﷺ، فردها عليه، وقال: كيف أقبل شيئًا رده رسول الله ﷺ ورده أبو بكر؟ ثم جاء إلى عثمان ﷺ فردها أيضًا، ومات ثعلبة أو مُعَتِّب في خلافة عثمان[1].

والضمير في الآيات في ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وما بعدها، يوحي بأن المراد بالآية كل منافق يصدُق عليه هذا الوصف في كل زمان ومكان، وأن الآيات نزلت في شأن أكثر من واحد على عهد رسول الله ﷺ .

قال المفسرون: إن هذه الآية نزلت في المنافقين؛ فهي تحكي صورة حقيقية واقعية لبعض المنافقين المعاصرين للنبي ﷺ ممن عاهدوا الله، فنقضوا عهودهم، وقابلوا ما أعطاهم الله إياه مِنْ نِعَم بالبخل والجحود، وهي تنطبق على كل من يُخلف وعده، ويمنع حق الله من ماله، ويجحد نعم الله عليه في كل زمان ومكان، ممن يلجؤون إلى الله في حال العسر والفقر، أو الشدة والضر، فيعاهدون الله تعالى على الشكر والطاعة، فإذا كشف الله ضرهم، وأغناهم من فضله، نكصوا على أعقابهم، ويكفرون بأنعم الله عليهم، ويأكلون حقوق العباد.

ومن الجائز أن يكون إطلاق لفظ النفاق في الآية على بعض الصحابة، كإطلاقه على المسلم المرتكب لبعض المعاصي، كما قال حنظلة بن الربيع للنبي ﷺ: **«نافق حنظلة»**، ويكون معنى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: يلقَون ربهم في يوم الحشر والحساب، فيحاسبهم على ما حدث منهم.

---

(١) يُنظَر: الطبري (١٤/ ٣٧١) والطبراني (٧٨٧٣/ ٢٠) والفخر الرازي (١٦/ ١٤٢) والمحلي (١١/ ٢٠٨) وابن كثير (٤/ ١٨٣) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٧) وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٣٧٥) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٨٩) وابن عساكر (١٢/ ٩) و«مجمع الزوائد» (٣١١٧) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك، فإسناده ضعيف جدًا قلت: وفي رواته: معان بن رفاعة، والقاسم بن عبد الرحمن، وهما من الضعفاء وضعَّفه الألباني وغيره، وقد ضعفها ابن حزم والقرطبي والعراقي وابن حجر وغيرهم.

ونحو هذا المعنى ما ورد أن عاملًا كتب إلى عمر بن عبد العزيز أن فلانًا يمنع الزكاة، فكتب إليه أن دعه واجعل عقوبته ألا يؤدي الزكاة مع المسلمين[١].

ويؤخذ من هذا أن الحاكم المسلم له أن يمتنع عن قبول الزكاة من بعض المسلمين، إذا رأى المصلحة في ذلك؛ كي يعتبر الآخرون بالإهانة التي حدثتْ لغيرهم.

والمعنى: إن مِن فقراء المنافقين مَنْ يقطع العهد على نفسه، لئن أعطانا الله المال لنُخرِجنَّ منه الصدقة، ولنعملنَّ في ذلك المال ما يعمله الصالحون في أموالهم، من إخراج الزكاة وصلة الأرحام، والإنفاق في سبيل الله، وجميع وجوه الخير والبر. قال تعالى:

٧٦- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

أي فلما أعطاهم الله المال وأغناهم من فضله، لم يعملوا شيئًا من أعمال البر، ومنعوا حق الله منه، ونقضوا ما عاهدوا الله عليه، فلم ينفقوا شيئًا مما رزقهم الله في وجوهه المشروعة، ولم يعترفوا بحقوق الله ولا حقوق الناس، وأعرضوا عن الإسلام وهديه، وهذا بيان لموقف المنافقين من عطاء الله وكرمه. قال تعالى:

٧٧- ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾

أي: فكان جزاء صنيعهم هذا، وعاقبة أمرهم أن زادهم الله نفاقًا على نفاقهم، فحرمهم التوبة إلى يوم القيامة، بحيث لا يستطيعون التخلص من هذا النفاق إلى يوم يلقون ربهم، فيحاسبهم على نفاقهم، عقوبة لهم على خُلف وعدهم الذي قطعوه على أنفسهم، وجزاءً لهم على كذبهم ونفاقهم.

ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»[٢].

---

(١) ذكر هذا ابن عطية في تفسيره (٣/ ٦٢).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٣٣، ٢٦٨٢، ٦٠٩٥) و«صحيح مسلم» برقم (٥٩) والترمذي (٢٦٣١) والنسائي (٥٠٣٦) وفي «الكبرى» (١١١٢٧).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر**»[1].

فليحذر المؤمن من النفاق ومن خلف الوعد ونقض العهد كي لا يعاقب بعقاب أهل النفاق. قال تعالى:

٧٨- ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ[2] ۝٧٨﴾

ألم يعلم هؤلاء المنافقين أن الله تعالى يعلم حقيقة أمرهم مما يخفونه في أنفسهم، وما يتحدثون به في مجالسهم من الكيد، والمكر بالمسلمين، بعضهم مع بعض، وأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء منها من كل ما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس، ويعلم جميع أحوالهم، وسوف يجازيهم عليها، إنهم يعلمون ذلك علم اليقين، ولكن استيلاء الهوى والشيطان عليهم جعلهم لا ينتفعون بعلمهم، والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

طَعْنُ المُنَافِقِينَ فِي صِغَارِ المُتَصَدِّقِينَ وَكِبَارِهِمْ

٧٩- ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ[3] ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾

ثم تذكر الآيات نوعًا آخر من أنواع المنافقين ممن يتحدثون عن المؤمنين، ويعيبونهم ويطعنون فيهم على كل حال، فلا يتركوا أمرا من الأمور إلا تكلموا فيه بالطعن.

ولما حث النبي ﷺ على الصدقة بذل المسلمون أموالهم،كل على حسب حاله، منهم المكثر ومنهم المقل، فقالوا عن المكثر: إنه يرائي، وقالوا عن المقل: إن الله غني عن صدقته.

ومن ذلك أن النبي ﷺ لمَّا دعا إلى جمْع المال إلى غزوة تبوك، جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، فأعطاها للنبي ﷺ وقال: يا رسول الله، جئتك بأربعة آلاف،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤) وانظر: «صحيح مسلم» برقم (٥٨).

(٢) قرأ شعبة وحمزة بكسر الغين من (الغِيوب) والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ يعقوب بضم الميم من (يلمُزك)، والباقون بكسرها، وهما لغتان في المضارع.

فاجعلها في سبيل الله، وأمسكتُ أربعة آلاف لعيالي، فقال النبي ﷺ: **«بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت»**[(١)].

فبارك الله له، وكان من أغنى الصحابة، حتى بلغ ثُمُن ماله لامْرأتيه يوم أن مات: مئة وستون ألف درهمٍ، وتصدق عمر بنصف ماله، وتصدق أبو بكر بكل ما يملك.

وجاء عاصم العجلاني بمئة وَسْق من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، وقال للنبي ﷺ: إنه عمل بالأمس وأخذ أجره صاعين، فترك أحدهما لعياله، وجاء بالآخر، فأفرغه في الصدقات، فتضاحك المنافقون، وجاء رجل آخر بنصف صاع، وهو جهد المقلِّ، فقد كان الرجل يعمل نهاره كله، وأجرته نصف صاع من تمر أو من حب، فيأتي بأجرة هذا اليوم إلى النبي ﷺ فلمزهم المنافقون وعابوهم، ولم يسْلم المكثر ولا المقلُّ من سُخْريتهم، فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن الله لغني عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحب أن يُذكَر، لِيُعطَى من الصدقات، فلم يعجبهم الذي تصدق كثيرًا ولا الذي تصدق قليلًا، بالإضافة إلى بخلهم، ولم يَسْلم أحد من أذاهم، فهم يعيبون هذا، ويعيبون هذا، فأنزل الله فيهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ﴾[(٢)] أي: يعيبون، ويتهمون ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ أي: الذين يتطوعون بدفع الصدقة ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فقالوا عن المتصدق بالكثير: إنه يرائي، وقالوا عن المتصدق بالقليل: إن الله غني عن صدقته، ويلمزون أيضًا من يتصدقون قدر طاقتهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ كهؤلاء الفقراء الذين يتصدقون بالشيء القليل الذي يجدونه، فيؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، قال سبحانه: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ يستهزئون بهم، ويعيِّرونهم بالقليل الذي يتصدقون به فعاقبهم على صنيعِهم بأن ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ وجازاهم على استهزائهم بهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي هذا وعيد لهم بالعذاب يوم القيامة.

ومما ورد في أسباب النزول أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لمَّا أُمِرْنا بالصدقة، كنا

---

(١) مصنف عبدالرزاق برقم (٢١) عن عبدالرحمن بن عوف، والحديث في ظلال الجنة برقم (١٣٠١) وفي فتح الباري (٨/ ٣٣٢) وانظر تخريجه في آية (مثل الذين ينفقون أموالهم..) من سورة البقرة.

(٢) يُنظَر: الطبري (١٤/ ٣٨٣) والواحدي (٢١٦) وابن كثير (٤/ ١٨٦) ويُنظَر: البزار في «الكشف» (٢٢١٦) والطبري (١١/ ٥٩٢) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٥١).

نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاء، فنزلت الآية[١].

وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ، وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيَّين عن هذا الصاع[٢].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: يا رسول الله، أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «**جُهد المقل، وابدأ بمن تعول**»[٣].

وقد جمع المنافقون في قولهم هذا بين عدة محاذير:

منها: أنهم تتبعوا أحوال المؤمنين وحرصوا على أن يجدوا مقالًا في كل منهم.

ومنها: طعنهم في المؤمنين ولمزهم.

ومنها: تثبيط المؤمنين وتنقيصهم وحكمهم على من أنفق كثيرا بالرياء وذم من أنفق قليلا.

قال تعالى ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة].

اسْتَغْفِرْ لَهمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهمْ

٨٠- ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٨٠﴾

عن ابن عباس ﷺ أن الله تعالى لمَّا أنزل الآيات السابقة في المنافقين قال فريق منهم:

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤١٥، ٤٦٦٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٠١٨) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٥٠) وأبو نعيم في «المعرفة» (٢٢٨٣).

(٢) «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٨٢) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٥٠) وابن مردويه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢/ ٨٩).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (١٤٧١) وأبي داود (١٦٧٧) والحاكم (١/ ٤١٤) وابن حبان (٣٣٤٦) وابن خزيمة (٢٤٤) والحاكم (١/ ٤١٤) والمسند (٨٧٠٢) بإسناد صحيح.

استغفر لنا يا رسول الله، فوعدهم النبي ﷺ بأن يستغفر للذين سألوه[١].

وقال الحسن: كان المنافقون يأتون رسول الله ﷺ فيعتذرون إليه، ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢].

وهذا الأسلوب ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يقتضي معنيين:

الأول: أن يكون الأمر في ﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾ بمعنى الشرط، أي: إن استغفرت أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، فقد علم الله منهم أنهم لن يتوبوا كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٣].

الثاني: أن تكون الآية على سبيل التخيير، أي: إن شئت فاستغفر، وإن شئت لا تستغفر، ثم أعلمه الله تعالى بأنه لن يغفر لهم وإن استغفر.

ويؤيد هذا المعنى أن عمر ﷺ سمع النبي ﷺ يستغفر للمنافقين بعد نزول هذه الآية، فقال: أتستغفر لهم يا رسول الله، وقد أعلمك الله أنه لن يغفر لهم؟ فقال ﷺ **«يا عمر إن الله خيَّرني فاخترت، ولو علمتُ أني إن زدت على السبعين يُغفر لهم، لزدت»**[٣].

فجعل النبي ﷺ مغفرة الله لهم في حال زيادته على السبعين لا جدوى منها فقلوبهم مقفلة.

هذا: وكان النبي ﷺ يستغفر لمن أخطأ من المنافقين، عسى الله أن يغفر لهم ويتوب عليهم

وقد جاء المنافقون إلى النبي ﷺ يعتذرون إليه، ويطلبون منه أن يستغفر لهم الله بعدما افتضح شأنهم، وعُرفوا بذواتهم وأشخاصهم،

وهذا بخلاف المنافقين الذين قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وهمُّوا بقتل النبي ﷺ قد قرَّر الله تعالى مصيرهم، فلا رجعة فيه، وأنزل سبحانه يبيِّنُ أن الاستغفار لهم لا يُجدي ولا ينفع،

(١) «التحرير والتنوير» (١١/ ٢٧٦).

(٢) «التحرير والتنوير» (١١/ ٢٧٦).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٦٤) والحديث في «المسند» (٩٥) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق وهو حسن الحديث وقد صرح هنا بالتحديث، وأخرجه البخاري (١٣٦٦)، (٤٦٧١) والترمذي (٣٠٩٧) وعبد بن حميد (١٩) والبزار (١٩٣) وابن حبان (٣١٧٦) والنسائي في الكبرى (١١٢٢٥).

مهمااستغفرلهم النبي ﷺ، وكان قد وعدهم بالاستغفار لمَّا قالوا له: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

ولفظ السبعين يُذْكر للمبالغة والكثرة، على عادة العرب في استكثار لفظ السبعين، ولأن آحاده سبعة وهو عدد شريف، يطلق على السموات والأرض، والأيام، والبحار، والنجوم السيارة، فكل منها سبعة.

وفي هذا دلالة على كثرة العدد يراد به التَّيْئيس من طمع المغفرة لهم، أي: مهما كثر استغفارك لهم وتكرر، فلن يغفر الله لهم، كما قال تعالى: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢] فليس المراد حقيقة العدد، وإنما هو جارٍ مجرى المثل.

ثم بين سبحانه السبب المانع لمغفر الله لهم وهو أنهم اختاروا الكفر على الإيمان، وكان كفرهم واضحًا صريحًا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل مادام كافرًا، والذين خرجوا عن الطاعة والإيمان، واختاروا الكفر والطغيان، لا يوفقهم الله للهداية ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، لأنهم اختاروا الفسق وصفًا لهم، يأتيهم الحق واضحا فيردونه، فيعاقبهم الله بأن يختم على اختيارهم.

وعن الأصم أن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول لمَّا ظهر نفاقه، وتنكَّر له الناس، لقيه رجل من قومه فقال له: ارجع إلى رسول الله يستغفر لك، فقال: ما أُبالي استغفرَ لي، أم لم يستغفر لي، ونزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون].

وفي الحديث عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغفر له لزدت عليها**»[1]. وهذا بالنسبة لعبد الله ابن أبيّ بن سلول.

ويؤيد هذا المعنى ويوضحه ما جاء في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾ [المنافقون] والصلاة على الجنازة استغفار.

ولذا فإن عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ، طلب من النبي ﷺ أن يصلي على أبيه حين حضرتْه الوفاة:

---

(١) جاء هذا المعنى عن الشعبي وعروة ومجاهد وابن جبير وقتادة، يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٢٧٧) والحديث في البخاري (١٣٦٦، ٤٦٧١).

في صحيح البخاري وغيره أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما مات عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، دُعي رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، وَثَبْتُ إليه، فقلت يا رسول الله، أتصلي على ابن أُبيٍّ، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، قال: أُعَدِّد عليه قولَه، فتبسَّم رسول الله ﷺ، وقال: «أَخِّرْ عنِّي يا عمر»، فلما أكثرتُ عليه قال: «إني خُيِّرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغفر له، لزدت عليها»، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من سورة براءة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إلى ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ قال: فعجبتُ بعدُ من جُرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله ﷻ(١).

أما ما ورد من أن النبي ﷺ قال: «وسأزيده على السبعين»(٢) فهو وهم من الراوي، وكذا ما ماثله؛ لأنه ينافي رواية عمر، وهو صاحب القصة، ولا تستقيم هذه الجملة مع قوله ﷺ: «لو أعلم أني إن زدت على السبعين، يغفر له، لزدت عليها» ولعل قول النبي ﷺ: إنه سيزيد على السبعين كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] كما قال ابن عباس ﷺ: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾(٣).

وهذه ثلاثة أنواع من المتخلفين عن الجهاد في غزوة تبوك، يُطْلِع الله رسوله على ما سيكون منهم بعد عودته إليهم، ومنهم من جاء إليه معتذرا قبل خروجه للغزوة:

ثلاثة أَنْوَاعٍ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ يَوْمَ تَبُوكٍ

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: قَوْمٌ كَرِهُوا الْجِهَادَ وَآثَرُوا الرَّاحَةَ

٨١- ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٦٦) وبرقم (٤٦٧١) و«المسند» (٩٥) والترمذي (٣٠٩٧) والنسائي (١٩٦٥) وفي «الكبرى» (١١٢٢٥) وابن حبان (٣١٧٦) وغيرهم.

(٢) جاء ذلك في البخاري برقم (٤٦٧٠) و (٤٦٧٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٠٠).

(٣) أخرج ذلك النحاس في ناسخه ص (٥٢٣).

ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

والمؤمن إذا تخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ يحزن ويأسف، ويتمنى أن لو خرج مجاهدا معه بنفسه وماله، ولكن المنافق يفرح بتخلفه ولا يبالي، كما تقرره هذه الآية، بل ويثبط غيره ويحذره من مواجهة الحر والشدائد، ويفر بنفسه عن هذه المواجهة، ولو أنه أدرك أن نار جهنم أشد حرا لآثر ما يبقى على ما يفنى.

أخرج الطبري بسنده إلى ابن عباس ﷺ قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجل: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا ننفر في الحر، فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وهكذا قال رجل من بني سلمة، وقال رجل آخر من المنافقين: لا تنفروا في الحر فنزلت الآية[1].

ولما استغفر النبي ﷺ للمنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معه لجهاد العدو في غزوة تبوك، قَوِيَ فرحُهم بتخلُّفهم عن رسول الله ﷺ، وظنوا أنهم قد استغفلوه حتى قضَوْا مأْربَهم باستغفار رسول الله ﷺ لهم، فازداد فرحُهم بإذن رسول الله لهم حين تخلفوا عنه، وذلك أنهم آثروا الراحة والجلوس بسبب ضعف إيمانهم، وسقوط همتهم، وسوء نيتهم، فآثروا الدنيا وشهواتها، وكرهوا الخروج للجهاد بالنفس والمال، وقال بعضهم لبعض: اقعدوا معنا في المدينة مع الأهل والمال والولد، ولا تَخْرُجوا في شدة الحر، وكان الخروج إليها في القيظ، مع بُعْد السفر.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: فرح الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بقعودهم عن الخروج معه، فكرهوا الخروج في الحر وآثروا الراحة، وخافوا على أنفسهم وعلى أموالهم؛ وذلك نظرًا لما في قلوبهم من الكفر والنفاق، وبذلك جمعوا بين الكفر والفرح بالقعود، وكراهية الجهاد، فإذا كانوا يخافون من نار الدنيا وهي جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، فأولى لهم أن يخافوا من نار الآخرة ويجزعوا منها، وهي مصير من خالف رسول الله ﷺ؛ فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى، وحر الآخرة دائم لا يفتر.

---

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٤٥) و«تفسير الطبري» (١٠/ ١٣٩).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أوقد على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودَّت، فهي سوداء كالليل المظلم**»[١].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة مَنْ لَه نَعْلان وشِراكان من نار جهنم، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، لا يَرى أن أحدًا من أهل النار أشد عذابًا منه، وإنه أهونهم عذابًا**»[٢].

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج]

وقال سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج]

وقال جلَّ شأنه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]

وقال أيضًا: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]

وقال ﷻ: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]

ونار الدنيا ليست شيئًا يذكر بالنسبة لنار الآخرة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**»، قيل: يا رسول الله، إنْ كانت لكافية، قال: «**فُضِّلت عليهن بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها**»[٣].

عُقُوبَةُ المُتَخَلِّفِينَ عَنِ الجِهَادِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

٨٢- ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ثم توَّعدهم الله تعالى بسوء المصير يوم القيامة، أي: فليضحك هؤلاء المنافقون الذين

---

(١) الترمذي برقم (٢٥٩١) و«سنن ابن ماجه» (٤٣٢٠) قال الترمذي: حديث أبي هريرة موقوف، أصح، ولا أعلم أحدًا رفعه غير يحيى ابن أبي بكير عن شريك.

(٢) البخاري برقم (٦٥٦٢) و«فتح الباري» (١١/ ٤٢٥) ومسلم (١/ ١٩٦) برقم (٢١٣) و الحاكم (٤/ ٥٨٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٦٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٣) و«الموطأ» (٢/ ٩٩٤).

آثروا الراحة في ساعة العسرة، وتخلفوا عن الركب أول مرة فليضحكوا قليلًا في حياتهم الدنيا الفانية، وليبكوا كثيرًا في نار جهنم، جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من النفاق والكفر؛ فإنهم إن فرحوا طوال أعمارهم فهو فرح قليل بالنسبة لحزنهم وبكائهم في الآخرة، ففي الحديث عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: **«لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلًا»**[1].

والضحك كناية عن الفرح، والبكاء كناية عن الحزن، بمعنى أن فرحهم زائل وبكاءهم دائم، جزاء كفرهم ونفاقهم وعدم انقيادهم لأوامر ربهم.

والضحك يعني: التمتع بالدنيا والفرح بلذاتها، والاستغراق في اللهو واللعب. قال تعالى:

٨٣- ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ[2] أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ[3] عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾

هذه الآية لبيان عقوبة المتخلفين عن غزوة تبوك في الدنيا، وذلك بعدم الإذن لهم في الخروج مع نبيه ﷺ، للقتال معه مرة أخرى؛ لأن شؤم المخالفة يؤدي إلى فوات الخير الكثير، فقد أمر الله رسوله إنْ أرجَعَه سالمًا من غزوة تبوك، وجاء هؤلاء المنافقون المتخلفون يطلبون منه أن يخرجوا معه إلى غزوة أخرى، فإنه لا يجوز له ﷺ أن يأخذ منهم أحدًا.

والمقصود بهذا: الطائفة التي تخلفت بغير عذر، أو بعذر غير مقبول؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ ولم يقل: إليهم؛ لأن بعض الذين تخلفوا لم يكن منافقًا، وبعضهم كان له عذر مقبول، كالذين تولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

فإن استأذنوكِ للخروج معك إلى غزوة أخرى بعد غزوة تبوك ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ في غزوة من الغزوات، ما دمتُ على قيد الحياة؛ حتى لا يكون لكم شرف القتال معي، كما

---

(١) من حديث عائشة في «صحيح البخاري» برقم (١٠٤٤، ٦٦٣١) و«صحيح مسلم» مطولًا برقم (٩٠١) وعن أبي هريرة في البخاري (٦٤٨٥) والترمذي (٢١٣) وجاء أيضًا عن أنس وأبي ذر وغيرهما.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر، بفتح ياء الإضافة من (معيَ أبدًا)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة من (معيَ عدوا) والباقون بإسكانها.

قال تعالى في غزوة الحديبية: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

وأيضًا فإنكم لن تشاركوني في قتال أي عدوٍّ: ﴿وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ من الأعداء الذين أُمرتُ بقتالهم، والسبب ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ وفرحتم به ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حين تخلفتم عن غزوة تبوك ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ أي: اقعدوا مع النساء والصبية والمرضى والعجزة، واقعدوا مع من تخلف عن الجهاد مع رسول الله، كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] ولو قاتلوا معكم لم يكن قتالهم لإعلاء كلمة الله، وكل قتال خلا من هذه الغاية فليس في سبيل الله، والخالف هو الذي يتخلف عن الرجال في الغزو مع النساء والصبيان.

وفي الآية توبيخ له لأنه تثاقل وتخلف عن الغزو، فلا يؤفق له بعد ذلك.

لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ عَلَى مُنَافِقِي العَقِيدَةِ

٨٤- ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾

هذه الآية تمنع الصلاة على من مات على الكفروالنفاق في العقيدة،ومنهم: عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول؛ لأن صلاته ﷺ رحمة،وهم ليسوا أهلا للرحمة، ولما حضرت الوفاة عبد الله بن أبيٍّ، سيد الخزرج ورأس المنافقين، جاء ابنه عبد الله إلى النبي ﷺ -وكان من خيرة الصحابة- يطلب قميص الرسول ﷺ؛ ليكفن فيه أباه؛ ليكون رحمة عليه وبركة.

العلة في صلاة النبي ﷺ على ابن أُبيٍّ وتكفينه في قميصه

وكان لابن أُبيٍّ عند النبي ﷺ جميل، وهذا الجميل يتمثل في أنه لما أُسر العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ في غزوة بدر، جيء به أسيرًا وليس عليه ثياب، وكان العباس طويلًا ضخمًا، وكان ابن أُبيٍّ طويلًا ضخمًا، ولم يجدوا ثيابًا على تفصيل جسده إلا ثياب ابن أُبيٍّ، فنزع ابن أُبيٍّ قميصه وألبسه العباس.

والنبي ﷺ يريد أن يردَّ هذا الجميل إلى ابن أُبيٍّ، ويكافئه عليه.

وأيضًا فإن النبي ﷺ يريد أن يُطيِّب خاطر ابنه عبد الله الصحابي الجليل.

وإلى جوار ذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام يطمع في الاستغفار للمنافقين الذين لم يموتوا على الكفر، رجاء أن يتوب الله عليهم ويهديهم سواء السبيل، فأعطى النبي ﷺ قميصه وفيه رائحة عرقه إلى ابن أُبيٍّ المنافق.

ثم لمَّا حضرت الصلاة عليه جاء ابنه يقول: يا رسول الله، أريدك أن تصلي على أبي، فإن لم تُصلِّ عليه فسوف نُعيَّر به ما حَيينا، وذهب ﷺ تطييبًا لخاطر ولده ليصلي على أبيه، فلما وقف عليه قال عمر: يا رسول الله، أتصلي على عدو الله الذي قال كذا، وفعل كذا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: **«أخِّرْ عني يا عمر، فلما أكثر عليه قال ﷺ: إني خُيِّرت فاخترت، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغفر له لزدتُ عليها»**، وصلى عليه النبي ﷺ، وقام على قبره حتى فُرِغ منه كما جاء ذلك في الصحيح[١].

وهناك رواية أخرى مرجوحة، تبين أنه ﷺ لم يصلِّ عليه[٢].

والصحيح أنه صلَّى عليه، ثم نُهي عن ذلك.

وفي الصحيحين وغيرهما عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ أمر به بعدما أُدخل حُفْرته فأُخرج، فوضعه على ركبتيه، ونفث فيه من ريقه، وألبسه قميصه[٣].

والظاهر أن هذا كان قبل الصلاة عليه كما في حديث عمر، وابن عمر السابقين.

جاء في الأثر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال بعد أن صلى على عبد الله بن أُبيٍّ وكفَّنه في قميصه: **«وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إني أرجو أن يُسلم به ألف رجل من قومه»**.

---

(١) انظر: القصة وفيها أن النبي ﷺ أعطاه قميصه، وأنه صلَّى عليه، كما في البخاري (١٢٦٩، ٤٦٧٢) ومسلم (٢٤٠٠) عن ابن عمر ﷺ.

(٢) جاء في حديث ضعيف عن أنس أن النبي ﷺ أراد أن يصلي عليه فأخذ جبريل بثوبه فقال: «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا» قال محقق أبي يعلى (٤١١٢): إسناده ضعيف، كما جاء ذلك في «تفسير الطبري» (١١/ ٦١٢).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٢٧٠، ١٣٥٠، ٣٠٠٨، ٥٧٩٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٣) و«سنن النسائي» (٤/ ٣٧) و«السنن الكبرى» برقم (٩٦٦٥) و«المسند» (٣/ ٣٧١).

فذكر ﷺ العلة في أنه أعطى ابنه القميص، والعلة في أنه صلَّى عليه، وبيَّن أن ذلك رجاء أن يُسلم بهذا السبب ألف رجل من قومه، وقد تحقق ذلك، فأسلم ألف رجل من الخزرج لمَّا رأوْا تبرُّك عبد الله بن أُبيٍّ واستشفاءه بقميص رسول الله ﷺ حين وفاته، وبذلك تحقق هدف النبي ﷺ، وتحقق الغرض الذي صلَّى من أجله على ابن أُبيٍّ.

نَهْيُ النبي ﷺ عن الصلاة على منافق

هذا: وكان النبي ﷺ يصلى على المنافقين في باديء الأمر، فلم يمكث إلا يسيرًا بعد الصلاة على ابن أُبيٍّ حتى أنزل الله عليه آيتين من سورة براءة، تمنعه من أن يصلي بعد ذلك على أي منافق، ولا يقوم على قبره، ولا يدعو الله له.

قال عمر: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ، فما صلى بعد ذلك على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله(١).

وهكذا أمر الله رسوله أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، ولا يقوم على قبره؛ ليدعو له أو يستغفر له، عند الدفن أو بعده، أو يزوره، وهو حكم عام في كل من عُرف نفاقه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ بعد الدفن لتدعو له، فإن صلاة النبي ﷺ ووقوفه على قبر أحدهم شفاعة له، وهم قوم لا تنفع فيهم الشفاعة.

ثم بيَّن ﷻ السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ومن مات كافرا لا تنفعه شفاعة الشافعين، وهؤلاء استمروا على كفرهم وفسقهم حتى الموت، فهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فقد وصفهم الله بالفسق بعد أن وصفهم بالكفر، والفسق يَدْخُل في الكفر، ولكن الفاسق يكون خبيث النفس، كثير المكر والخداع، وإضمار السوء لغيره، والكافر قد لا يضمر سوءًا لغيره، فلذا وصفهم بالكفر والفسق معًا.

ويؤخذ من هذا أن الصلاة على جنازة الكافر لا تجوز، وكذا الوقوف على قبره والدعاء له، وأن هذا يُشْرَع للمسلم فحسب، وصلاة النبي ﷺ على ابن أُبيٍّ كانت قبل النهي عن

---

(١) يُنظَر القصة في: البخاري برقم (١٣٦٦، ٤٦٧١) ومسلم (١٧/ ١٢١) برقم (٢٧٧٤، ٤٦٧١) و«المسند» (١/ ١٦) و«تحفة الأحوذي» (٨/ ٤٩٥) والطبري (١٤/ ٤٠٦).

ذلك، والنهي عن الصلاة عليه غير النهي عن الاستغفار له، ويسمى الاستغفار في اللغة صلاة أي: دعاء؛ فالصلاة هي الدعاء.

وكان النبي ﷺ قد أعلم حذيفة ﷺ بأسماء المنافقين، ولذا فإن الصحابة كانوا إذا رأوْا حذيفة تأخر عن الصلاة على ميت، تأخروا عنه.

وكان عمر ﷺ على جلالة قدره يستحلف حذيفة ويسأله إن كان قد عُدّ منهم!! حرصًا منه على قوة الإيمان وثبات اليقين، وخوفًا من الشك والنفاق، رضي الله عنك يا عمر وأرضاك، وجعل الجنة مأواك، والنار مثوى لأعداك.

وفي الآية عبرة وعظة كي ينزجر أهل الكفر عن كفرهم، وينزجر أهل النفاق عن نفاقهم.

ومن هذي الإسلام: أن الميت المؤمن إذا مات، لا ينصرف عنه أهله سريعًا، سِيَّمَا أحب الناس وأقربهم إليه، فيقف على القبر قليلًا، ويدعو للميت، ويستغفر له، ويقول لمن حوله: «**استغفروا لأخيكم وسَلُوا الله له التثبيت فإنه الآن يسأل**»، كما صح ذلك عن عثمان بن عفان ﷺ، وهكذا كان يفعل النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت[١].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «**أن من شهد الجنازة حتى يصلَّى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن، فله قيراطان**»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «**أصغرهما مثل أُحد**»[٢]. قال تعالى:

٨٥- ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ أيها الرسول، وأيها المخاطب، أموال المنافقين وأولادهم، ولا تغتر بها، ولا تستحسنها، إنما يريد الله أن يعذبهم بأموالهم وأولادهم في الدنيا بمكابدة الشدائد، وبموت بعض أبنائهم على الكفر بالله ورسوله.

فالابن حين يخالف أباه في العقيدة والدين، يكون في هذا عذاب له وأي عذاب؟! .

وكذلك الشأن في ماله حين يشقى في جمعه، ثم يبخل به ويحزن عند فقده وهلاكه ففي هذا عذاب له وأي عذاب؟!

---

(١) يُنْظر «سنن أبي داود» برقم (٣٢٢١) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٧٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٣٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (٩٤٥).

فلا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من أموال، فهم يتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها ولا يهنؤون بها، بل يعانون الشدائد من أجلها، وتلهيهم عن طاعة الله، حتى ينتقلوا من الدنيا، ولا تغتر بأولادهم فقد يكونوا سببا في شقائهم.

وأرواح المنافقين تخرج من أبدانهم وهم مصرون على الكفر ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فقد سلبهم حب الدنيا كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة وأفئدتهم عليها متحرقة.

وقد تقدم نظير هذه الآية في السورة في الآية الخامسة والخمسين، وهذا من باب تأكيد المعنى وتقريره؛ للإشعار بأن المعنيين في الآيتين، لا يُغفل عنهما ولا يُنسيان، ولأن أشد الأشياء جذبًا للقلوب، هو الاشتغال بالأموال والأولاد، وما كان كذلك يجب المبالغة في التحذير منه مرة بعد مرة.

وقد يكون المنافقون المخاطبون في الآية الأولى قومًا آخرين غير المخاطبين في الآية الثانية.

وهذه الآية خالفت الآية السابقة في **أربعة أشياء**:

أحدها: أن العطف هناك بالفاء التي هي للتفريع؛ لأن المعنى مفرَّعًا عمَّا قبله؛ حيث وصفهم الله تعالى بأنهم كارهون للإنفاق؛ لشدة محبة الأموال والأولاد، وهنا لا يوجد تفريع، ولا تعلق لها بما قبلها فَحَسُن العطف بالواو.

ثانيها: أن هذه الآية عُطف فيها لفظ الأولاد، بدون إعادة (لا) التي في الآية السابقة؛ لأنها هناك لزيادة التأكيد بالإعجاب بالأموال والأولاد، وأسقطها هنا للدلالة على أنه لا تفاوت بين الأمرين، والمقام هناك ذم، وهنا مقام تحقير.

ثالثها: في الآية السابقة ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾ وهنا (لِيُعَذِّبَهُمْ) على تقدير ﴿أَن﴾ بعد اللام التي للتعليل؛ تنبيهًا على أنَّ التعليل في أحكام الله تعالى محالٌ.

رابعها: أسقط الله تعالى في هذه الآية، لفظ (الحياة)؛ لأن المقام هنا في ذكر أحوال المنافقين بعد الموت، بخلاف الآية السابقة فهي في ذكر حالهم في الدنيا، وللتنبيه أيضًا على أن الحياة الدنيا بلغت من الخسة أنها لا تستحق الذكر[١].

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٢٨٦).

النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ: أَهْلُ الثَّرَاءِ وَالْقُدْرَةِ الْبَدْنِيَّةِ

٨٦- ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أخذت السورة في تقسيم المتخلفين عن الجهاد، من المنافقين والمؤمنين، وبيان أعذارهم ومراتبها في القبول، فذمَّت أوَّلًا القاعدين عن الجهاد كالنساء، وبيَّنت في هذه الآية أن من شأن المنافقين الاستئذان والتخلف عنه، فهم مستمرون في تثاقلهم عن الطاعات، وأن نزول السور والآيات لا تؤثر فيهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ والمراد بها سورة براءة، وهي طائفة معينة من آيات القرآن، ولكون هذه الآية تبيِّن غرضًا جديدًا من أغراض السورة، سميت سورة، أي: إذا أنزلت آية على محمد ﷺ جليلة الشأن تأمر بالإيمان بالله والإخلاص له، والجهاد في سبيل الله لنصرة الحق وإعزاز الدين كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي: تكاسلتم، وتخاذلتم.

وقُدِّم الإيمان على الجهاد؛ لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلًا.

وفي الآية أمر بالدوام على الإيمان والجهاد، كُلَّما تطلَّب الأمر جهاد الدفع أو الطلب.

فإذا جاء الأمر بالجهاد تخلف عنه أولو الطَّوْل، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ وهم أهل الثراء والقدرة البدنية، من المنافقين، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد مع القاعدين العاجزين عن الخروج للجهاد، ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ لقد أمّدهم الله بالأموال والأولاد فلم يشكروه ولم يقوموا بما أوجبه عليهم من بذل النفس والمال في سبيله، بل أبوْا إلا التكامل والاستئذان في القعود، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ [محمد: ٢٠] وذلك لخورهم وجُبنهم، فإذا وقعت الحرب كانوا أجبن الناس ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ۙ﴾ [الأحزاب: ١٩]. قال تعالى:

٨٧- ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

لقد رضي المنافقون لأنفسهم بالعار، وهو أن يقعدوا في بيوتهم مع النساء والصبيان والعجزة من أهل الأعذار، ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته، وسقطت مروءته، وألِفَ الذلة والصغار ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ جمع خالفة، وهي المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال لضعفها، أو هي المرأة التي تخلفت في البيت بعد سفر زوجها.

أي: كيف رضوا لأنفسهم بالبقاء مع النساء، المتخلفات عن الجهاد؟ ولوكان عندهم عقل وفهم، لدلّهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم، ولكنهم رَضُوا لأنفسهم هذه الحال التي تحطُّهم عن منازل الرجال.

وقد ترتب على رسوخهم في النفاق وإصرارهم على الفسوق والعصيان، أن ختم الله على قلوبهم؛ فهي لا تميِّز بين الحق والباطل، ولا بين أسباب السعادة وأسباب الشقاء ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها فأصبحت لا تقبل هدى ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولو كانوا يفقهون ما فيه صلاحهم وسعادتهم، لأدركوا ما في الجهاد من عزة وكرامة، وما في التخلف عنه من ذلة ومهانة.

وقد بيَّن الله تعالى أن المؤمن الحق، ليس من شأنه أن يستأذن عن شرف الجهاد في سبيل الله، وأن الاستئذان والتخلف عن الجهاد من صفات غير المؤمنين بالله واليوم الآخر كما سبق، كما بيَّن جلَّ شأنه أن العقوبة والمؤاخذة على الذين يتركون ساحات القتال مع القدرة عليه، فهؤلاء رضوا لأنفسهم الدنيَّة في دينهم، وكانوا ممن طبع الله على قلوبهم ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣].

عن سعد بن أبي وقاص أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ خرج مع النبي ﷺ حتى جاء ثنيَّة الوداع يريد تبوك، وعليٌّ يبكي ويقول: تُخَلِّفُني مع الخوالف؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة»**[1].

---

(١) «المسند» (١٤٦٣) إسناده صحيح على شرط البخاري، (محققوه) وأصله في البخاري (٤٤١٦) ومسلم (٢٤٠٤) دون ذكر ثنية الوداع، وأخرجه ابن أبي عاصم (١٣٤٠) والنسائي في خصائص عليّ (٥٥).

مَدْحُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

٨٨- ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾

وبعد أن ذمَّ الله سبحانه المنافقين المتخلفين عن الجهاد، مدح جلَّ شأنه المؤمنين المجاهدين بأنفسهم وأموالهم، وبيَّن أنهم من طراز آخر يختلف عن المنافقين، فلئن تخلف هؤلاء عن الجهاد، فقد بادر إليه الرسول ﷺ وأصحابه.

أي: إذا كان حال المنافقين هو الجبن والتخاذل، فإن حال المؤمنين هو الشجاعة والإقدام والثبات، في غير تثاقل ولا تكاسل بل في فرح واستبشار، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]

وقال تعالى ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ أي: النصروالغنيمة، والعزة والكرامة في الدنيا، والجنة ونعيمها في الآخرة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالدرجات العلا، والنعيم المقيم، الظافرون بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

فجهاد المؤمنين بالمال والنفس مقابل استئذان أولو الطَّوْل من أهل السَّعة والقوة.

وقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ مقابل ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

ونظير ذلك ما وعد الله به المؤمنين والمنافقين في الآيات السابقة.

قال تعالى يصف نعيم المؤمنين المجاهدين:

٨٩- ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

وقد أعد الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله يوم القيامة جنات تجري من تحت أشجَارِها الأنهار، ماكثين فيها أبدًا، وذلك هو الفلاح العظيم، فتبًّا لمن لم يرغب فيما رغبوا فيه، وخسر دنياه وأخراه.

النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ : فَرِيقَانِ مِنَ الأَعْرَابِ، أَحَدُهُمَا يَطْلُبُ الإِذْنَ، وَالآخَرُ لَمْ يَعْتَذِرْ

٩٠- ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ[1] مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

هذه الآية تَذكر شأن **فريقين من الأعراب** قبل خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك:

أحدهما: قوم جاؤوا معتذرين، يستأذنون النبي ﷺ ويشْكُون ضعْفهم وعدم قُدرتهم على الخروج إلى تبوك، وهم أحياء من الأعراب الذين هم حول المدينة.

وهذا الفريق في مقابله الفريق الآخر الذي قعد في بيته، فلم يجئ ولم يعتذر، وهم الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهم الراسخون في النفاق، من الأعراب سكان البادية.

وعلى هذا فإن الآية تُبيِّن حال الأعراب من سكان البادية، بعد أن بيَّنتْ حال أهل الحضر من سكان المدينة.

والمعنى: ومن المتخلفين عن النبي ﷺ في غزوة تبوك: قوم من الأعراب الذين يسكنون البوادي حول المدينة، كقبيلة أسد، وغطفان، وقوم عامر بن الطفيل وغيرهم.

جاء هؤلاء الأعراب يعتذرون للنبي ﷺ عن الخروج معه، ويقولون له: لو خرجنا معك فإن القبائل المعادية المجاورة لنا ستغير علينا، ويأخذون أهالينا ومواشينا، فقال لهم النبي ﷺ: «**سيغنيني الله عنكم**»، وهؤلاء هم رهط عامر بن الطفيل، ويبدو أنهم كانوا صادقين في عذرهم.

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: المعتذرون، فأدغمت التاء في الذال لقرب مخرجهما، وهم المقصرون الذين تهاونوا في الخروج، ولم يبالغوا في أعذارهم، جاؤوا ليعْذُرَهم النبي ﷺ، ومن عادته أن يعذُرَ من له عذر، وهم ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ المقيمن حول المدينة، جاؤوا ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلف عن النفير العام، وهم نفر من

(١) قرأ يعقوب بسكون العين وكسر الذال مخففة من (المعْذِرون) اسم فاعل من أعذر، وقرأ الباقون بفتح العين وتشديد الذال، اسم فاعل من عذَّر مضعفًا، بمعنى: تكلف العذر، أو من اعتذر، فأدغمت التاء في الذال.

غِفَار، من الذين جاؤوا بأعذار مقبولة: كقلّة الحال، وكثرة العيال، وعدم القدرة على الخروج للغزو، جاؤوا ليأذن لهم الرسول ﷺ في التخلف عن الجهاد.

وثانيهما: فريق آخر من الأعراب، قعدوا في بيوتهم من غير أن يعتذروا، وهم الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهؤلاء أنذرهم الله سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، بسبب جُرْأتهم على الله ورسوله ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين أصروا على الكفر والنفاق، واستمروا عليه حتى ماتوا سيصيبهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا بالقتل والأسر والهزيمة والخزي والوبال، وفي الآخرة بعذاب النار، أما الذين يتوبون ولا يَكْفُرون فباب الله مفتوح لهم.

وهكذا: تمضي الآيات في بيان حال المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ممن يقعدون عن الجهاد ويتقاعسون عنه، ويثبِّطون الهمم، ويفرِّقون وِحْدة المسلمين إلى يوم الساعة، ومن أعظم ذلك جهاد اليهود في احتلالهم أرض فلسطين، وتحرير المسجد الأقصى من براثنهم.

ولما ذكر سبحانه غير المعذورين في التخلف عن الجهاد أتبعه بذكر المعذورين:

المَعْذُورونَ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الجِهَادِ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ

٩١- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

هذه الآية في رفع الحرج عن أصحاب الأعذار البدنية المزمنة في التخلف عن الجهاد:

يقول زيد بن ثابت ﷺ: كنت أكتب لرسول الله ﷺ سورة براءة، فإني لواضع القلم على أذني، إذا أُمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاءه رجل أعمى، فقال: كيف بي يا رسول الله، وأنا أعمى؟ فنزلت الآية ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾[1].

وبعد أن ذكر الله سبحانه الذين اعتذروا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ والذين لم

---

(١) رواه الدارقطني في الأفراد وقال: غريب من حديث أبي فروة، كما في الأطراف ق (١٣٤) وأخرجه أيضًا ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦١) وابن مردويه.

يعتذروا، بيَّن هنا أصحاب الأعذار الحقيقية الصحيحة، وأخبر أنه سبحانه قد أسقط فريضة الجهاد عمن لديه أعذار لا تنفك عنهم، وهم **أربعة أصناف** من الناس:

الصِّنْفُ الأَوَّلُ: الضعفاء، وهم العاجزون بأبدانهم وأبصارهم عن القتال وتحمُّل مشاق السفر؛ كالشيوخ، والصبيان، والنساء، ممن لا قدرة لهم على الخروج للجهاد.

الصِّنْفُ الثَّانِي: المرضى بأمراض مزمنة: كالأعمى، والأعرج، والفالج أو من يمرض بمرض بدني يحول بينه وبين الجهاد والسفر.

الصِّنْفُ الثَّالِثُ: الذين لا يجدون ما ينفقون، وهم الفقراء الذين لا يجدون الراحلة ومؤنة السفر والسلاح، العاجزون عن نفقة الجهاد في عصر التنزيل، قيل في المراد بهذا الصنف في عصر التنزيل: هم بنو مقرن، وهم ستة أو سبعة إخوة، وليس في الصحابة إخوة بهذا العدد غيرهم[١].

وشرط هؤلاء أن ينصحوا لله والرسول، بأن يكون صادقين في إيمانهم وعزمهم على أنهم لو استطاعوا الخروج للجهاد لفعلوا، أما إذا كانت الدولة تموِّن الجندي، فتعطيه السلاح وتنفق عليه، فلا حاجة لهذا الصنف من الناس.

ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ليس عليهم إثم في التخلف عن الجهاد.

والآية ترفع الحرج عنهم في القعود عن الغزو، ولكنها لا تحرِّمه عليهم إذا خرجوا مجاهدين لأداء مهمة تناسب أحوالهم؛ كالطبيب، والممرض، وطاهي الطعام، وناصب الخيام، ومن يؤمهم في الصلاة، ومن يعظهم ويرفع معنوياتهم، فهي طاعة مقبولة.

ثم بيَّن سبحانه ما يجب على هذه الأصناف حال قعودهم عن الجهاد، فاشترط عليهم النصح لله والرسول في قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بمعنى: أنهم إذا أقاموا في البلد، فعليهم أن يحترزوا عن إفشاء الأراجيف، وإثارة الفتن، ويقوموا بتوصيل الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا للغزو، ويخلُفوهم في أعمالهم ومصالح بيوتهم، ويُخلِصوا الإيمان والعمل لله، ومتابعة الرسول ﷺ فهذه الأمور تجري مجرى النصح لله والرسول[٢].

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٧٠).

(٢) يُنظَر: الفخر الرازي وحاشية الجمل على «الجلالين» والألوسي وغيرهم في تفسير الآية.

وعليهم أن يعقدوا العزم على الخروج للجهاد إذا قدروا عليه وزال عنهم المانع.

وفي الحديث عن تميم الداري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدين النصيحة**»، قلنا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[1].

وفي حديث جرير بن عبد الله ﷺ قال: بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصيحة لكل مسلم.[2].

وليس على من أحسن فقدَّم اعتذارًا مشروعًا، ونصح لله ورسوله مؤاخذة ولا معاقبة، ولا سبيل إلى إيقاع المحسن في الحرج، وهذا معنى ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ أي أن العبد إذا أحسن فيما يقدر عليه، من حقوق الله وحقوق العباد، فليس عليه تبعة ولا يوجّه له لوْم، ومن أحسن إلى غيره ثم ترتب على احسانه نقص أو تلف فإنه لا يضمنه، لأنه محسن، بخلاف المفرط فإنه يضمن والله واسع المغفرة، وواسع الرحمة، وقد وصفهم الله بالمحسنين؛ لأنهم نصحوا لله ورسوله، ورفع الله عنهم العقوبة والتعنيف واللوم.

الصنف الرَّابِعُ: قَوْمٌ عَاجِزُونَ مَادِّيًا بَاذِلُون لِأَنْفُسِهِمْ:

٩٢- ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

هؤلاء قوم جاؤوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يأخذهم معه إلى الغزو، وليس لديهم نفقة الجهاد، فاعتذر لهم النبي ﷺ بأنه لا يجد لهم زادًا ولا راحلة ولا سلاحًا، وهؤلاء لا حرج عليهم في عدم الخروج للجهاد، لأنهم نوَوْا واقترن بنيتهم السعي الجازم، فلم يجدوا نفقة الخروج، فهم بمنزلة الفاعل التام.

أي: وكذلك لا إثم ولا ذنب على الفقراء الذين جاؤوك يطلبون منك أن تعينهم بالزاد والراحلة والسلاح؛ ليجاهدوا معك، قلت لهم: لا أجد ما أحملكم عليه من النفقة، والعتاد، والدواب، فانصرفوا من عندك وقد فاضت أعينهم دمْعًا، أسفًا على ما فاتهم من

---

(١) من حديث تميم الداري في «صحيح مسلم» (١/ ٧٤) برقم (٥٥) وأبي داود (٤٩٤٤) والنسائي (٤٢٠٨).

(٢) البخاري (٥٧، ٢٧١٥) ومسلم (٥٦) والترمذي (٦٩٥٢).

شرف الجهاد بسبب حرمانهم من ثواب الجهاد وفضله لعدم القدرة عليه ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ والله ﷻ لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

قال ابن إسحاق: ثم إن رجالًا من المسلمين أتوْا رسول الله ﷺ وهم البكَّاءُون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾[1].

والبكَّاءون السبعة هم: معقل بن يسار، وصخر بن خنيس، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مُغَفَّل أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا نبي الله، إن الله ﷻ قد ندبنا للخروج معك، فاحْملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة، نغزو معك، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾[2].

هذا هو المشهور في أسمائهم، ولُقِّبُوا بالبكَّاءين؛ لأنهم بكَوْا لمَّا لم يجدوا عند رسول الله ما يحملهم عليه، حُزْنًا على حرمانهم من الجهاد.

قال ابن عباس ﷺ: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا معه غازين، فجاءت عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مغفَّل الْمُزَنِيُّ فقالوا: يا رسول الله، احملنا، فقال: **«والله ما أجد ما أحملكم عليه»** فتولَّوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملًا، فأنزل الله عذرهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ﴾[3].

وقيل: إن الآية نزلت في أبي موسى الأشعري ورهْط من الأشعريين، أتوا رسول الله في غزوة تبوك يستحملونه فلم يجد لهم حمولة[4].

ومتى وُجدت النية الصادقة حصل ثواب الجهاد متى كان المانع عذرًا شرعيًّا:

جاء في البخاري وغيره من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لقد تركتم بالمدينة**

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥١٨).

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ١٤٦) و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٥١٨).

(٣) الطبري (١١/ ٦٢٤).

(٤) يُنظَر الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٣١٣٣، ٤٣٨٥، ٤٤١٥) و«صحيح مسلم» (٣/ ١٢٦٩) برقم (١٦٤٩).

أقوامًا ما قطعتم واديًا، ولا سرتم سيرًا، ولا أنفقتم نفقة إلا وهم معكم»، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «**نعم، حبسهم العذر**»[١].

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد خَلَّفتم بالمدينة رجالًا، ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا، إلا شاركوكم في الأجر، حبسهم المرض**»[٢].

ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة].

وهذا عمرو بن الجموح -وكان رجلًا أعرجًا - خرج في مُقَدمة الجيش في غزوة أحد، فقال له النبي ﷺ: «**إن الله قد عذرك**»، فقال: والله لأطأن بعرجتي هذه أرض الجنة.

وكان من الصحابة من يخرج للغزو وهو يتهادى بين رجلين معتمدًا عليهما من شدة ضعفه.

وهذا عبد الله بن أم مكتوم -الأعمى- يخرج إلى غزوة أحد، ويطلب أن يحمل اللواء.

وبهذه العزائم القوية، والنفوس التقية، ارتفعت راية الإسلام، وعزَّت كلمة الحق.

حَصْرُ التَّبِعَةِ عَلَى الأَغْنِيَاءِ وَالأَقْوِيَاءِ

٩٣- ﴿۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿إِنَّمَا﴾ الإثم والحرج، والعقاب، والمؤاخذة، وتوجيه اللوم والعتاب، على الذين يطلبون الإذن في التخلف عن الجهاد ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ قادرون على الخروج معك، لا عذر لهم، ولكنهم قعدوا، وارتضوا لأنفسهم أن يجلسوا مع النسوة، والأطفال، والمرضى ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ وأن يكونوا ممن ختم الله على قلوبهم بالنفاق فلا يدخلها إيمان

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٣٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٩١١) و«المسند» (١٢٠٠٩) و«مصنف عبد الرزاق» (٩٥٤٧) وابن أبي شيبة (١٤/٥٤٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٩١١) و«المسند» (٣/ ٣٠٠) برقم (١٤٢٠٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٧٦٥).

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة تخلفهم وتركهم الجهاد معك، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

فهذا حصر لمن لا يعذر في التخلف عن الجهاد.

ثم كشف الله سبحانه لرسوله ﷺ عما سيحدث من بعض المنافقين بعد عودته من غزوة تبوك، وأنهم سيأتون إليه معتذرين عن تخلفهم، وأن منهم من يحلف كذبا على صدق قوله.

وفي الآيات التالية بيان ذلك:

إِخْبَارُ اللَّهِ تَعَالَى سَلَفًا عَنْ أَعْذَارِ المُنَافِقِينَ:

أولا: أعذار لا داعي لها فقد كشف الله أحوال أهلها:

٩٤- ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما سيقوله المنافقون للرسول والمؤمنين عند عودته إلى المدينة من تبوك.

ولقد حصرت الآية السابقة التبعة والمسؤولية على الذين يطلبون الإذن في التخلف عن الجهاد، وجاء حصرهم في الأغنياء الأقوياء.

وفي هذه الآية وما بعدها بيان لما سيكون من أمر المنافقين الذين قعدوا عن الجهاد بغير عذر حين يرجع النبي ﷺ إلى المدينة من غزوة تبوك، وكانوا أكثر من ثمانين رجلًا، وقد أمر النبي أصحابه أن لا يكلمهم أحد حتى يحكم الله فيهم.

فأخبر الله رسوله أنه حين يرجع من تبوك، فإن هؤلاء المتخلفين سيأتون إليه، يقدِّمون أعذارهم بحق أو باطل ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يعتذر المتخلفون عن جهاد المشركين بالأكاذيب، قائلين: إنَّ قُعودنا في المدينة وعدم الخروج معكم كانت له مبرراته القوية فلا تؤاخذونا.

وضمير الجمع في ﴿إِلَيْكُمْ﴾ يفيد أنهم كانوا يُقَدِّمون أعذارهم إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين حين رجعوا من تبوك.

قل لهم -يا محمد- مبطلًا لمعاذيرهم: لن نصدقكم فيما تقولون؛ فقد كشف الله أحوالكم وبيَّن لنا ما أنتم عليه من نفاق وفسوق وعصيان ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وأطلعنا على حقيقة الأمر، وأنكم لو خرجتم إلى الجهاد معنا لم تزيدونا إلا فسادًا وفوضى وفتنة ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] وتحقق لدينا كذبكم فيما اعتذرتم به، وما مضى من أخباركم، فلسنا في حاجة إلى كلامكم.

والعمل هو ميزان الصدق والكذب، أما مجرد الأقوال فإنها لا تدل على شيء، ومرد العباد إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فيجازى العباد بعدله وفضله على ما قدمت أيديهم من أن يظلمهم مثقال ذرة.

فإن خشيتم العقوبة فاعملوا الخير للمستقبل ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر ذلك للناس، وهذا ترغيب في العمل الصالح، وترهيب من الاستمرار على حالهم، فتوبوا من نفاقكم ولا تقيموا عليه، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإن مرجعكم إلى الله ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ أي: ترجعون في الآخرة بعد موتكم إلى الذي لا تخفى عليه بواطن الأمور وظواهرها، وحاضرها وغائبها ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ويجازيكم عليها في الآخرة.

ثَانِيًا: الْأَمْرُ بِتَرْكِ ثَمَانِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ احْتِقَارًا لَهُمْ:

٩٥- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥)﴾

وهذا إخبار آخر، عما سيكون من بعض المنافقين عندما يعود إليهم النبي ﷺ والمؤمنون، وكان المنافقون يتوقعون أنهم لن يعودوا من غزوة الروم، فأخبر سبحانه أنهم سيؤكدون أعذارهم الكاذبة بالأيمان الفاجرة، فكان منهم من يحلف بالله تعالى على صدق قوله؛ لِيَصفح عنهم النبي ﷺ، أو لِيُعرض عنهم فلا يؤنبهم، ولا يوبخهم، ولا يعاقبهم.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لا تؤاخذوهم، ولا تعاقبوهم، واتركوهم احتقارًا لهم، ثم دعوهم وما اختاروه من النفاق

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾؛ لأن بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة، وعقيدتهم غير صحيحة ومصيرهم الذي يأوون إليه في الآخرة نار جهنم ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ من الآثام والخطايا في الدنيا.

فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال: «**لا تجالسوهم، ولا تكلموهم فامتثلوا**».

قيل: إن هذه الآية من أول ما نزل في شأن المنافقين في غزوة تبوك، وذلك أن بعض المنافقين اعتذروا إلى النبي ﷺ، واستأذنوه في القعود قبل مسيره، فأذن لهم فخرجوا من عنده، وقال أحدهم: والله ما هو إلا شحمة لأول آكل، فلما نزل فيهم القرآن، انصرف رجل من القوم، فقال في مجلس المنافقين: والله لقد نزل على محمد ﷺ فيكم قرآن، فقالوا: وما ذاك؟ فقال: لا أحفظ، إلَّا أني سمعت وصفكم فيه بالرجس، فقال لهم مخْشيٌّ: والله لوددت أن أُجلد مئة جلدة ولا أكون معكم، فخرج حتى لحق برسول الله ﷺ فقال له: «**ما جاء بك؟**» قال: وَجْهُ رسول الله ﷺ تسْفعُه الريح وأنا في الكنِّ[٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الجدِّ بن قيس، ومعتِّب بن قُشير، وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلًا من المنافقين.

وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أُبيٍّ؛ حلف للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو، أنه لا يتخلف عنه بعدها، وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه فأنزل الله هذه الآية والتي بعدها[١].

أخرج البخاري وغيره عن كعب بن مالك حين تخلَّف عن تبوك قال: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة بعد إذ هداني، أعظم من صدقي رسول الله ﷺ ألَّا أكون كذبتُه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا حين أُنزل الوحي ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[٢].

وأسند الطبري عن كعب بن مالك أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس، فجاء المخلفون يعتذرون إليه، ويحلفون وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم

---

(١) يُنظَر: «تفسير البغوي والخازن» و«زاد المسير» للآية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٣) وانظر: (٢٧٥٧) و«صحيح مسلم» ضمن حديث توبة كعب برقم (٢٧٦٩).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٧٢).

علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله[١]. قال تعالى:

٩٦- ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

أي: إن رضي المسلمون عن المنافقين وتركوا لومهم، فإن الله تعالى لا يرضى عن المنافقين، وفيه تحذير للمسلمين من الرضى عن المنافقين؛ لأن ما لا يُرضي الله، لا ينبغي لمسلم أن يرضى عنه، فإن تابوا ورجعوا إلى الله، فباب التوبة مفتوح، وإن داموا على فسقهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

أَعْرَابُ البَادِيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ

٩٧- ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

هذه الآية والآيتان بعدها في المنافقين من سكان البوادي، مثل: أعاريب أسَد، وغطفان، وبني مقرن، وقد صنَّف الله الأعاريب في هذه الآيات الثلاث إلى ثلاثة أصناف: صنف أشد الناس كفرًا ونفاقًا، وصنف يُداري المسلمين ويتربص بهم الدوائر، وصنف مؤمنون صادقون.

وقد جاءت هذه الأصناف الثلاثة في الآيات الثلاث على التوالي، وقد قصدت الآية الأولى في عصر التنزيل: أسد، وغطفان، وقصدت الآية الثانية كل من يعطي الصدقة كُرهًا، وقصدت الآية الثالثة بني مقرِّن من مزينة.

والأعراب هم: سكان البادية والصحراء، فمن استوطن القرى والمدن العربية فهو عربي، ومن سكن البادية فهو أعرابي، والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب، والعرب أفضل من الأعراب.

وفي هذه الآيات تصنيف للأعراب، وكانوا قبائل حول المدينة، وشأنهم شأن أهل الحضر: فيهم المؤمن، وفيهم المنافق والكافر، ولكن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر أهل الحضر ونفاقهم؛ لعدم مخالفتهم أهل العقول المستقيمة، وبُعدهم عن تهذيب النفوس والأخلاق الحميدة.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٧٢).

والسبب في ذلك أنهم أبعد من العلم، وأبعد من الوحي، وأبعد من التطبيق العملي للإسلام، وأبعد من مجالسة أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وقد ذم القرآن من يستحق الذم، وهم المنافقون والكفار، ومدح من يستحق المدح، وهم المؤمنون، وألحق كل فريق منهم بنظيره من أهل الحضر.

الصِّنْفُ الأَوَّلُ: أَغْلَظُ الأَعْرَابِ

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ يعني: أشد من كُفْر أهل الحضر، ونفاقهم أشد منهم لبعدهم عن مجالس العلم وسماع القرآن والسنن والمواعظ، ولبعدهم عن الساسة والمؤدبين، وهم أحرى وأحق ألَّا يعلموا حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام على رسوله، والأوامر والنواهي، وذلك أن أهل الحضر كانوا يجالسون النبي ﷺ، والعلم يتفشى فيهم وينتشر، فهم ألْيَن، وأهل البادية أقسى وأغلظ، وأشد جفاء؛ لبُعدهم عن العلم، وعن مجالسة الصحابة، وأهل الفضل والذكر، فهم بعيدون عن معرفة الأحكام الشرعية والأخلاق الفاضلة.

ولذا: فإن عثمان قال لأبي ذر لما سكن الربذة: تعهَّد المدينة؛ كي لا يرتدَّ أعرابيٌّ، ولهذا فإن النبي ﷺ حينما رآه أحد الأعراب يُقبِّل حفيدًا له، قال الرجل: أتقبِّلون صبيانكم، والله إن لي عشرة من الأولاد ما قبَّلت منهم واحدًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «**وماذا أملك لك إن كان الله قد نزع من قلبك الرحمة؟!**»[1].

فهم أحق ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر بخلاف أهل الحضر فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وفيهم من لطافة الانقياد ما ليس في أهل البادية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهؤلاء جميعًا ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره لأمور عباده.

وهذه المذمَّة في الأعراب؛ لطبيعة ظروفهم وبيئتهم التي يعيشونها، وليست لأمر في ذواتهم.

١- ومن ذلك أن النبي ﷺ لما أهدى له أعرابي هدية، رد عليه أضعافها حتى رضي وقال:

---

(١) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٢٣١٧) و«صحيح البخاري» برقم (٥٩٩٨).

«لقد هممتُ ألا أقبل هدية إلا من: قرشيٍّ، أو ثقفيٍّ، أو أنصاريٍّ، أو دوسيٍّ»(١).

أي: من أهل مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم أهل مدن وألطف أخلاقًا من الأعراب.

٢- قال إبراهيم النخعيُّ: كان زيد بن صُوحان يحدِّث، فقال أعرابي: إن حديثك لَيُعجبُني، وإن يدك لَتُرِيبُني، فقال: أما تراها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال؟ قال زيد: صدق الله ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾(٢).

٣- قال ابن سيرين: إذا تلا أحدكم هذه الآية فليتْلُ الآية الأخرى، ولا يسكت ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٤- وفي الحديث عن ابن عباس ﷺ **«من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن»**(٣).

٥- ومنهم ذو الخويصرة الذي قال للنبي ﷺ وهو يقسم الغنائم: اعدل، فقال له النبي ﷺ: **«ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل»**(٤).

ومن أخلاق الأعراب الحميدة: الشجاعة، والجلادة، والكرم، والصراحة، وإباء الضيم، والخشونة...، ولأن الأعراب أهل غلظة وجفاء لم يبعث الله منهم رسولًا، وإنما كان الرسل من أهل القرى، أي: الحضر والمدن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

---

(١) من حديث أبي هريرة في «سنن النسائي» (٦/ ٢٧٩) وصحيح «سنن النسائي» (٣٥١٩) وفي «الكبرى» (٦٥٥٨) و«السلسلة الصحيحة» (١٦٨٤) و«المشكاة» (٣٠٢٢).

(٢) أخرجه ابن سعد (٦/ ١٢٣) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦٦).

(٣) رواه الترمذي عن ابن عباس في الفتن برقم (٢٢٥٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد (١/ ٣٥٧) برقم (٣٣٦٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين، ومثله (٢٢٤٧) وأبو داود برقم (٢٨٦٠) والنسائي في «السنن» (٧/ ١٩٥) برقم (٤٣٢٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٤٨٦)، بتصحيح الألباني.

(٤) انظر حديث أبي سعيد في البخاري (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤) وحديث جابر في مسلم(١٠٦٣) ومن حديث عبد الله بن عمرو في المسند (٧٠٣٨) بنحوه.

الصِّنْفُ الثَّانِي مِنَ الأَعْرَابِ: قَوْمٌ مُنَافِقُونَ

٩٨- ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ[1] وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

أي: ومنهم من يحتسب ما ينفقه في سبيل الله من الزكاة والصدقة والنفقة، مغرمًا وخسارة، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع عن نفسه به عقابًا، إنما يُنفق خوفًا أو رياء تظاهرًا بالإسلام، أو مداراة للمسلمين والسلطات، وليس مساعدة للمجاهدين، ولا رغبة في نُصرة الإسلام وأهله، فهو يعتبر أن النفقة والزكاة والصدقة خسارة وغرامة لعدم إيمانه بالثواب والعقاب.

والمغرم: ما يدفع قهرًا أو ظلمًا أو تَقِيَّة أو خوفًا، وهو يتربص الدوائر للمسلمين، وينتظر أن تحل بهم مصيبة ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ فهم ينتظرون ضعفكم وهزيمتكم، وينتظرون وفاة نبيكم ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاء عليهم، وتحقير لهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم الفاسدة، وليس الأعراب كلهم مذمومون، فمنهم المؤمن صادق الإيمان.

الصِّنْفُ الثَّالِثُ: أَعْرَابٌ مُؤْمِنُونَ

٩٩- ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ[2] عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

وهم القسم الممدوح من الأعراب، يقرُّ بوحدانية الله، ويؤمن بالبعث بعد الموت، وقد وفَّاهم الله حقهم من الثناء عليهم، فهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويؤمنون بالثواب والعقاب، وحين يُقدِّمون النفقة أو الصدقة، يقدِّمونها تقربًا إلى الله سبحانه يقصدون بها وجهه ورضاه ومحبته في جهاد غير المسلمين، ويجعلون من هذه الصدقة وسيلة وطمعًا في أن يدعو لهم النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد كان من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام إذا جاءه أحد بصدقة أو مال، يدعو له بالخير والبركة، كما دعا لآل أبي أوفى حينما تقدموا بصدقاتهم فقال ﷺ: **«اللهم صلِّ**

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (السُّوء) بضم السين، مد متصل، وقرأ الباقون بفتح السين وسكون الواو، مدين.

(٢) قرأ ورش بضم راء (قربة) والباقون بسكونها وهما لغتان.

على آل أبي أوفى»[1].

وذلك لأن في دعاء النبي ﷺ طمأنينة وسكنًا لهم، فكانوا ينتظرون دعوته.

وهكذا ينبغي على المسلم الذي يأخذ الصدقة لنفسه، أو ليعطيها لغيره أن يدعو للمتصدق.

وينبغي على من يجمع الصدقات، أو الزكاة أن يتأسى برسول الله ﷺ في ذلك فمعنى صلوات الرسول ﷺ دعاؤه لهم كما أمره ربه في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]

والصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين تضرُّع ودعاء.

يقول سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: أن ما تصدقوا به مقبول عند الله تعالى، على وجه التأكيد والتحقيق، وهي قربة لهم تقربهم عند الله سبحانه، وقد وعد جلَّ شأنه أنه سيدخلهم في رحمته وهذه بشرى لهم ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: في جملة عباده الصالحين، ويدخلهم أيضًا في مغفرته ورضوانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير المغفرة واسع الرحمة لأهل طاعته، يغفر السيئات العظيمة لمن تاب وأناب، ويعم عباده برحمته التي وسعت كل شيء،وبهذا يتبين، أن الأعراب كأهل الحضر، منهم الممدوح ومنهم المذموم، ويتبين أن الكفر والنفاق يزيد وينقص بحسب الأحوال.

السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ

١٠٠- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ[2] وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى[3] تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

(١) الحديث في «صحيح البخاري» برقم (١٤٩٧، ٦٣٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٧٨).

(٢) قرأ يعقوب بضم الراء من (والأنصارُ والذين اتبعوهم) على أنها مبتدأ، خبره (ﷺ)، وقرأ الباقون بالخفض عطفًا على المهاجرين.

(٣) قرأ ابن كثير بزيادة (من) قبل (تحتها) مع كسر التاء فيها، وذلك من (جنات تجري تحتها) موافقة لرسم المصحف المكي، وقرأ الباقون بحذف (من) وفتح التاء، موافقة لبقية المصاحف.

وبعد تصنيف الأعراب إلى ثلاثة أصناف، يأتي تصنيف المجتمع كله إلى:

١- أربع طبقات إيمانية. ٢- ثم المنافقين. ٣- فالعصاة. ٤- فمن تاب الله عليهم.

وهكذا قسمت السورة الناس في الآية المئة منها إلى أربعة أصناف: والصنف الأول منها يمثل عصر الصحابة من المهاجرين والأنصار، وعصر التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الصِّنْفُ الأَوَّلُ بِأَنْوَاعِهِ الثَّلَاثَة:

١- هم أصحاب رسول الله ﷺ من **المهاجرين**، الذين تركوا ديارهم وأموالهم؛ استجابة لله ورسوله، وهجروا قومهم وعشيرتهم، يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، وهم الذين سبقوا إلى الإسلام، وسارعوا إلى الدخول فيه أوَّلًا، أمثال: خديجة، وأبي بكر، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، ومن أسلم على يدي أبي بكر، مثل: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فهؤلاء الثمانية هم أول من سبق إلى الإسلام، ثم تبعهم بقية الناس، وفي مقدمة الصحابة من السابقين الأولين: الخلفاء الراشدون بترتيبهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ثم الستة، بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل غزوة بدر، ثم مَن صلَّى إلى القبلتين، ثم أهل بيعة الرضوان.

٢- ثم **الأنصار** أهل بيعة العقبة الأولى الستة، وأهل البيعة الثانية الاثنا عشر، وأهل البيعة الثالثة: السبعون من الرجال، والنسوة الثلاث، الذين بايعوا الرسول ﷺ قبل أن تكون للإسلام دولة، وهم الذين آوَوْا إخوانهم المهاجرين وناصروهم، وقاسموهم أموالهم، فهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ثم الذين أسلموا على يد مصعب بن عمير الذي أرسله النبي ﷺ قبل الهجرة، يعلِّم الناس القرآن في المدينة، من المهاجرين والأنصار، وقد أسلم على يديه خلْق كثير.

فالسابقون من المهاجرين هم الذين سبقوا بالإيمان قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة.

والسابقون من الأنصار هم الذين سبقوا قومهم بالإيمان، وهم أهل العقبة الأولى والثانية.

عن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»**(١).

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»**(٢).

وقال سعيد بن المسيب: المهاجرون الأولون: الذين صلَّوا إلى القبلتين(٣).

قال حميد بن زياد: قلت لمحمد بن كعب القرظي: ألا تخبرني عن الصحابة، فيما كان بينهم من الفتن؟ فقال: إن الله قد غفر لهم جميعًا، مُحسنهم ومُسيئهم، وأوجب لهم الجنة، قلت له: أين ذلك في كتاب الله؟ قال: تقرؤه في هذه الآية ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ قال حميد: كأني لم أقرأ هذه الآية قط(٤).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«قريش، والأنصار، وجهينة، ومزينة، وأسلم، وغفار، موالي رسول الله، لا مولى لهم غيره»**(٥).

٣- وآخر القرن الأول قرن الصحابة انتهى سنة ١٢٠هـ بموت آخر صحابي، وهو أنس ﷺ، والآية تنطبق على كل من **تبعهم بإحسان**، فقد وضع الله تعالى شرطًا للتابعين الذين يكونون في الجنة مع أصحاب رسول الله، وهو أن يتبعوهم في الحسنة لا في السيئة.

وآخر قرن التابعين كان في تمام المئة الثانية من الهجرة، أي: بعد ثمانين عامًا من انتهاء قرن الصحابة وهم الذين تبعوا المهاجرين والأنصار في الإيمان، ممن آمن بعد فتح مكة، وممن آمن من المنافقين بعد مدة، وهم من قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ والإحسان هو العمل الصالح، وهو الإحسان في الاعتقاد والأعمال والأقوال لمرضاة الله تعالى، هؤلاء جميعًا ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ رضي الله عن أعمالهم، ورضي عنهم

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٧٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٧٥) والترمذي (٣٩٠٠) والنسائي في «الكبرى» (٨٣٣٤) وابن ماجه (١٦٣) وابن أبي شيبة (١٢/ ١٥٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٧، ٣٧٨٤) و«صحيح مسلم» برقم (٧٤) و«المسند» (١٢٣١٦، ١٢٣٦٩، ١٣٦٠٧).

(٣) أسنده الطبري، ورجاله ثقات وسنده صحيح.

(٤) «تفسير الألوسي» (١١/ ٧).

(٥) البخاري (٣٥٠٤، ٣٥١٢) ومسلم (٢٥٢٠) وابن أبي شيبة (١٢/ ١٦٢).

لطاعتهم لله ورسوله، ورضوا عنه بما أعطاهم من الأجر والمثوبة، من الصحابة ومن التابعين الذين ساروا على نهجهم، واقتدوا بهديهم.

وهؤلاء الأخيار من السابقين الأولين أعد الله لهم في دار كرامته حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، يطوف عليهم فيها ولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون.

وأصحاب رسول الله ﷺ هم خير القرون، وإن وُجد في بعضهم بعض المخالفات الشرعية، فلا يجوز الخوض في ذلك، ويحرُم سبُّهم والتنقيص من شأنهم، ويُترَك أمرهم إلى الله.

في الصحيحين عن عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، قال عمران: فلا أدري أذكر النبي بعد قرنه قرنين أو ثلاثة[١].

وهذا تعديل للصحابة وثناء عليهم، ولهذا فإن توقيرهم من أصول الإيمان؛ فالصحابة لهم منزلة خاصة لا يرقى إليها أحد بعد الأنبياء والمرسلين، ولو أن أحدهم ارتكب ذنبًا صغيرًا أو كبيرًا، فليس في وسع أحدٍ أن يتجرأ عليهم بالخوض في شأنهم، أو يمسهم بسوء من القول، ويا ويل من أبغضهم أو سبهم، لا سِيَّمَا سيد الصحابة أبو بكر، والفاروق عمر.

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تسبوا أحدًا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[٢].

وهم على هذا الترتيب المعروف لدى أهل السنة والجماعة.

وهذا هو الصنف الأول، وهم السابقون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهذا هو الذي أعده الله لهم في الآخرة،بطوائفهم الثلاث، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥] وكما قال ﷺ: «**اللهم ارحم الأنصار، وأبناء**

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٤١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٦٧٣).

الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».[1]

الصِّنفُ الثَّانِي: مُنَافِقُو الحَضَرِ وَالبَادِيَةِ

١٠١- ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

وممن ذكرتْهم السورة: منافقون من قبائل البادية المجاورة للمدينة، مثل قبائل: لَحيان، وعُصيَّة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، وبعضهم كان منافقًا فاحترِسوا منهم واحذروهم.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ﴾ الذين يسكنون معكم، كبعض الأوس والخزرج منافقون، وهم قوم مردوا على النفاق، وتمكن النفاق من قلوبهم فاعتادوه، فلا تغتروا بكل من يُظْهِر لكم المودة منهم، واحذروهم، وذلك مثل: ابن سلول، والجلاس، وأبو عامر الراهب.

وأصل الكلام: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، ففيه تقديم وتأخير.

وهؤلاء المنافقون يخفى على الرسول أمرهم، ولذا: فإن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ وقد أعلم الله رسوله بخمسة عشر منافقًا بأسمائهم وأعيانهم، ومنَعهُ من الصلاة عليهم، وعلَّم الرسول ﷺ أسماءهم إلى حذيفة أمين سر النبي ﷺ فقد قال له: **«يا حذيفة، إني مُسرٌّ إليك سرًّا فلا تذكره لأحد، إني نُهيت أن أصلي على فلان وفلان»**[2]، لرهط ذوي عدد من المنافقين.

ولذا: فإن عمر ﷺ كان يأتيه، ويقول له: أسألك بالله، هل عدَّني رسول الله من المنافقين؟!

---

(١) من حديث أبي سعيد الخدري في مسند أحمد (٣٠/ ١١١) من حديث طويل إسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرّح بالتحديث هنا، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٥٦) وأبو يعلى (١٠٩٢) والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٧٦) وصححه الألباني في فقه السيرة.

(٢) ينظر فتح الباري (٨/ ٣٣٧) والبيهقي (٦٦٢١) وقال: هذا مرسل، وقد رُوى موصولًا من وجه آخر عن الزهري في قصة حذيفة بن اليمان (٨/ ٢٠٠) قال الواقدي: أنبأنا معمر عن الزهري قال: قال حذيفة: قال لي رسول الله ﷺ «إني مسرّ إليك» الخ.

وتدل الآية على أن هناك منافقين آخرين لا يعلمهم الرسول ﷺ ولكنهم ذَوو أوصاف وعلامات يعرفهم بها، كفَلَتات اللسان، وأمارات النفاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد]. فالمنافق يُعرف بما يُتوسم فيه من علامات في كلامه، وتصرفاته، وحركاته، وسكناته.

روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: «**لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جُحر ثعلب**» وأصغى إليَّ رسول الله ﷺ برأسه فقال: «**إن في أصحابي منافقين**»[١].

ومعناه: أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين بما لا صحة له من الكلام، ومِنْ مِثْلهم صَدَر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم[٢].

وروى ابن عساكر عن أبي الدرداء ﷺ أن رجلًا يقال له: حرملة أتى النبي ﷺ، فقال: الإيمان ها هنا، وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق ها هنا، وأشار بيده إلى قلبه، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اجعل له لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وارزقه حبي، وحب من يحبني، وصيِّر أمره إلى خير**» فقال الرجل: يا رسول الله، إنه كان لي أصحاب من المنافقين، وكنت رأسًا فيهم، أفلا آتيك بهم؟ فقال ﷺ: «**ومن أتانا استغفرنا له، ومن أصرَّ فالله أولى به، ولا تخرقنَّ على أحد سترًا**»[٣].

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وغيرهما عن قتادة أنه قال: ما بال أقوام يتكلَّفون علم الناس يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، لعمْري، لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلَّفتَ شيئًا ما تكلَّفه الأنبياء قبلك، فقد قال نوح ﷺ: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]

وقال شعيب ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] وقال الله تعالى لنبيه محمد

---

(١) «المسند» (٤/ ٨٣) برقم (١٦٧٦٤، ١٦٧٨١)، إسناده ضعيف لإبهام الراوي عن جبير بن مطعم وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠٤) و«تفسير ابن عطية» (٣/ ٧٦) و«تفسير الألوسي» (١١/ ١١).

(٣) «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (٢٩/ ٧٦)، والحديث في مسند الشهاب برقم (٩٣٤) عن أم الدرداء، قلت: وفي سنده مقال.

ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[1] قبل العذاب الأخروي، مرة في الدنيا بفضيحتهم وهتك أسرارهم، ومرة في الآخرة بعذاب النار وبئس القرار.

وجاء في الأثر: أن ستة من المنافقين المعاصرين للنبي ﷺ يموتون بالدُّبيْلة، وهي نار تظهر في أكتافهم حتى تخرج من صدورهم، وستة آخرين يموتون موتًا.

قال قتادة: وهذا من عذاب الدنيا، ومرة بعذاب القبر، وضرْب وجوههم وأدبارهم عند خروج الروح.

أما المرة الثالثة ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو عذاب النار يوم القيامة.

ففي الآية ثلاثة أنواع من العذاب، اثنان في الدنيا قبل أن يُردُّوا إلى عذاب عظيم، ولن يفلت من هذا العذاب من لم يعلم النبي ﷺ نفاقه.

الصِّنْفُ الثَّالِثُ: عُصَاةُ المُسْلِمِينَ

١٠٢- ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

هؤلاء قوم مسلمون خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وهم قوم تخلفوا عن غزوة تبوك، لا لنفاقهم بل لكسلهم، ثم ندموا على ما فعلوا أو تابوا، وكانوا قد خرجوا في الغزوات السابقة، فخلطوا بين جهادهم السابق وتخلفهم في تبوك، وهم قوم من أهل المدينة، وهو ينطبق على عامة المسلمين.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ ممن بالمدينة ومن حولها وسائر البلاد الإسلامية ﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أقروا بها وندموا عليها، وشرعوا في التوبة والتطهر من الأدران؛ لأنهم تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك، ثم أنَّبوا أنفسهم، وقالوا: أنكون في الظلال والنساء، ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللَّأواء؟ فاعترفوا فيما بينهم وبين ربهم من تقصير، وهم مع هذا مسلمون لهم أعمال صالحة، فندموا وتابوا، و ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا كان العبد مخلصًا في توحيده لله عز وجل، متبعًا لسنة نبيه ﷺ، وهؤلاء قد خلطوا بالأعمال الصالحة، الأعمال السيئة، فارتكبوا بعض المحرمات،

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٢/ ٢٨٥).

وقصّروا في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك، والرجاء في أن يغفر الله لهم، ومن هؤلاء **أبو لبابة**، ومعه نحو عشرة من أصحاب النبي ﷺ ممن تخلَّفوا عن غزوة تبوك، فذهبوا إلى المسجد وربطوا أنفسهم في الأعمدة توبة منهم، وقالوا: لن يفك وثاقنا أحدٌ، حتى يأتي إلينا رسول الله ﷺ ويفكَّنا بيده، فلما رجع النبي ﷺ ورآهم، قال: وأنا لا أُطْلِقُهم حتى أُومر بإطلاقهم، واستمروا مربوطين في أعمدة المسجد حتى تاب الله عليهم، وأنزل توبتهم في هذه الآية ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾.

و﴿عَسَى﴾ في القرآن للوجوب، لأنها في جانب الله تعالى، وليست للترجي، فعسى الله أن يوفقهم للتوبة، ويقبل منهم توبتهم، وقد تاب الله عليهم، وقَبِل توبتهم، وكذلك يقبل الله توبة كل من خلط عملًا صالحًا وعملًا سيئًا، وهؤلاء آمنوا وجاهدوا وعملوا صالحًا قبل ذلك، والعمل السيئ الذي فعلوه أنهم تخلفوا عن هذه الغزوة؛ لضعف همتهم وليس نفاقًا، ثم ندموا واعترفوا بذنبهم وتابوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ بمن تاب منهم.

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس ﷺ قال: كان عشرة رهط تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، فكان ممر رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم، فلما رآهم قال: «**من هؤلاء الموثِقون أنفسهم بالسواري؟**» قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له، تخلَّفوا عنك يا رسول الله، أوْثقوا أنفسهم، وحلفوا أنهم لا يُطْلقهم أحد، حتى يُطْلقهم النبي ﷺ ويعذِرَهم، فقال النبي ﷺ: «**وأنا أقسم بالله لا أُطْلِقهم ولا أعذِرهم، حتى يكون الله هو الذي يُطْلقهم ويعذِرهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين**»، فلما بلغهم ذلك قالوا: نحن والله لا نُطْلِق أنفسنا حتى يكون الله هو الذيْ يُطْلِقُنا، فأنزل الله هذه الآية، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعذَرهم، فجاؤوا بأموالهم وقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، قال: «**ما أُمِرْت أن آخذ أموالكم**» فأنزل الله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم، وكان ثلاثة منهم لم يُوثقوا أنفسهم بالسواري فأُرجئوا سنة -أي: مدة من الزمان قليلة كانت أو كثيرة- لا يدْرون أيعذبون، أو يُتاب عليهم فأنزل الله ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ وأنزل

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾[١].

وكان من هؤلاء العشرة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: الجدُّ بن قيس، وكردم، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام، وأبو قيس، ومرداس، وأبو لبابة في عشرة نفر ربطوا أنفسهم في سواري المسجد النبوي أيَّامًا حتى نزلت هذه الآية في توبة الله عليهم، فربط هؤلاء السبعة أنفسهم، وبقي ثلاثة منهم لم يربطوا أنفسهم[٢].

ولأبي لبابة الأنصاري قصة أخرى في ربط نفسه بسارية المسجد كانت في شأن بني قريظة، حين أرسل إليهم وكلَّموه في النزول على حكم الله ورسوله، فأشار إلى حلقه، أي: أنَّ الحكْم سيكون الذبح، ثم ندم وتاب وربط نفسه في أحد أعمدة المسجد، وأقسم ألَّا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه، وأمر رسول الله ﷺ بحلِّه.

وقد جاء عن مجاهد: أن هذه الآية نزلت في هذا الصدد[٣].

وهي عامة في كل مسلم أذنب، ثم رجع إلى الله تعالى، وأقر بذنبه فإن الله يتوب عليه.

وفي معنى الآية ما جاء عن سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لنا: **«أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبِن ذهب، ولبِن فضة، فتلقانا رجالٌ شطْر من خُلُقهم كأحسن ما أنت راء، وشطْر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذاك منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا شطْر منهم حَسَن، وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، تجاوز الله عنهم»**[٤].

قال مُطَرِّف: إني لأستلقي من الليل على فراشي، وأتدبر القرآن، فأعرض أعمالي على

---

(١) يُنظَر: ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٢) وما بعدها والطبري (١١/ ٦٥١) وما بعدها والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٧١) وابن مردويه وابن المنذر و«تفسير القرطبي» (٨/ ٢٤٢).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٢١) و«تفسير ابن عطية» (٣/ ٧٧) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٣) عن قتادة.

(٣) ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٣) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٧١) كما أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر.

(٤) رقمه في البخاري (٤٦٧٤) ومسلم (٢٢٧٥) مختصرًا و «فتح الباري» (٨/ ١٩٣).

أعمال أهل الجنة، فإذا أعمالهم شديدة: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات] ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان] ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩] فلا أُراني منهم.

فأعرض نفسي على هذه الآية ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [المدثر] فأرى القوم مكذبين، فلا أُراني منهم.

فأمُرُّ بهذه الآية﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم[١].

فهذا تصوير بديع للمسلم العاصي، وفيه حث له على العودة إلى الله تعالى، والرجوع عن ذنبه.

ثم أمر الله رسوله ومن يقوم مقامه أن يطهر المؤمنين ويتمم إيمانهم بأخذ الصدقة من أموالهم:

الصَّدَقَةُ تُطَهِّرُ النَّفْسَ وَتُنَمِّي الْمَالَ

١٠٣- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم[٢] بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ[٣] لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

ولما كان من شروط التوبة أن يتدارك العبد ما فاته مما يمكن تداركه.

فإن التخلف عن غزوة تبوك قد اشتمل على **مخالفتين**:

المخالفة الأولى: عدم الاشتراك في الجهاد.

والمخالفة الأخرى: عدم إنفاق المال في الجهاد.

وفي هذه الآية تدارك للمخالفة الثانية بنفع المسلمين ببعض أموال المتخلفين لجبر توبتهم، لا سِيَّمَا أن السفر إلى غزوة تبوك استنفد المال المُعدَّ لنوائب المسلمين، هذا هو وجه المناسبة بين هذه الآية والتي قبلها[٤].

---

(١) ابن أبي شيبة (١٣/٥٤٨) وابن أبي الدنيا (٤٥) والطبري (١١/٦٥٨) والبيهقي (٧١٦٥).

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (وتزكيهُم) والباقون بكسرها.

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر (صلاتَك) بالتوحيد ونصب التاء، والمراد بها الجنس، وقرأ الباقون (صلواتِك) بالجمع وكسر التاء.

(٤) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٢٢).

والمراد: أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم، وجالبة للثواب العظيم الذي أعده الله لهم.

عن ابن عباس ﷺ قال: لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وأصحابه، جاؤوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا، واستغفر لنا، فقال ﷺ: «**ما أمرت أن آخذ من أموالكم صدقة**» فأنزل الله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1]. أي تنميهم وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة وتزيد في رصيد ثوابهم الدنيوي والأخروي.

أي: خذ -يا محمد- من أموال التائبين الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، صدقة تطهرهم من دنَس ذنوبهم، وترفعُهم عن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين.

ومن فوائد الصدقة أنها تطهر النفوس من رذائل الشح والبخل والطمع، وتزكّي القلوب من الأخلاق الذميمة، وتنمّي المال وتباركه.

ثم أمر الله رسوله أن يدعو للمتصدقين فقال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم بالمغفرة لذنوبهم والرحمة وقبول التوبة، واستغفر لهم الله.

ثم علل سبحانه أمره بالصلاة عليهم فقال: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: إن دعاءك واستغفارك لهم فيه سكون لأنفسهم ورحمة وطمأنينة لهم؛ واستبشار لهم، فإن من يدعو له النبي ﷺ تطيب نفسه، ويقوى رجاؤه ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم، وسميع لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ونياتهم، وسوف يجازى كل عامل بعمله، وكان النبي ﷺ إذا دعا لرجل أصابتْه وأصابت ولده، وولد ولده[2].

وفي الآية إرشاد لتدارك ما فاتهم من نفع المسلمين بالمال، والصلاة من الله رحمة، ومن المؤمنين تضرع ودعاء ومن الملائكة استغفار.

وبعد نزول هذه الآية أخذ النبي ﷺ يدعو لمن أتاه بصدقته.

(١) «تفسير ابن جرير» (١٤/ ١٢٠).

(٢) جاء ذلك في حديث عن ابن حذيفة عن أبيه في «المسند» (٥/ ٣٨٥) برقم (٢٣٢٧٧) وعن حذيفة (٥/ ٤٠٠) برقم (٢٣٣٩٤) وإسنادهما ضعيف، لأن أبا بكر بن عمرو الثقفي مجهول الحال، (محققوه) وهو في مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٩٦).

والأمر بالدعاء للمتصدق من باب الندب والاستحباب؛ لقول النبي ﷺ لمعاذ: «**أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**»[١] ولم يأمره بالدعاء لهم.

وصيغتها أن يقال: اللهم صل على آل فلان، والصلاة على غير الأنبياء جائزة.

ففي الحديث أن امرأة قالت: يا رسول الله، صلِّ عليَّ وعلى زوجي، فقال: «**صلَّى الله عليك وعلى زوجك**»[٢].

ولما جاء عبد الله بن أبي أوفى بصدقته قال ﷺ: «**اللهم صلِّ على آل أبي أوفى**»[٣].

وقد أُمرنا بالصلاة على آل النبي ﷺ، وأزواجه، وذريته في التشهد، وغيره.

ولأن الصدقة تطهِّر المال وتزكي النفس، فقد جاء أبو لبابة ومَن معه بأموالهم؛ ليعطوها لرسول الله ﷺ قائلين له: هذه هي الأموال هي التي خَلَّفَتْنا عنك، وهي السبب الذي منعنا من الجهاد والخروج معك، خذها وتصدق بها يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إني لم أومر بذلك**»، فأنزل الله تعالى عليه يأمره ألَّا يأخذ أموالهم كلها، وإنما يأخذ منها الزكاة فقط، وما تطيب به أنفسهم من الصدقة؛ كي تزيد من حسناتهم، فأخذ النبي ﷺ ثلث أموالهم، مراعاة لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ لأن ﴿مِنْ﴾ للتبعيض.

وهذا الأمر لكل حاكم مسلم يولِّيه الله تعالى على المسلمين، فعليه أن يجمع الزكاة من جميع المسلمين، ويأخذها قسرًا ممن منعها، ويوزعها على فقراء المسلمين.

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس؟! وقد قال رسول

---

(١) ينظر مسند الشافعي (١/ ٣٧٨) وتلخيص الحبير بلفظ (وأنبئهم) (٣/ ١١٣) والحاكم بلفظ (فأخبرهم) برقم (١١١) عن ابن عباس وقال: رواه مسلم.

(٢) من حديث جابر بن عبد الله في «سنن أبي داود» برقم (١٥٣٣) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٢٥٦) وابن أبي شيبة (٢/ ٥١٩) والترمذي في «الشمائل» (٩٣، ٩٤) و«المسند» (٣/ ٣٠٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٤٢٣) وحسنه ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٩٨) وصححه الألباني في «فضل الصلاة» برقم (٧٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٠٧٨) و«صحيح البخاري» برقم (١٤٩٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٥١٩) وأبو داود (١٥٩١) والنسائي (٢٤٥٨) وابن ماجه (١٧٩٦).

الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»** فقال: والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيتُ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق[١].

والآية عامة في وجوب أخذ الزكاة من الأغنياء وردها على الفقراء، طهارة للمال وتزكية للنفس، وكثير من المفسرين فسّر الصدقة في الآية بالزكاة المفروضة، ومن المعلوم أن الزكاة كانت مفروضة قبل نزول هذه الآية بنحو ست سنوات، ومجيء أبي لبابة وصحبه من المتخلفين عن الغزوة بالصدقة، تطهيرًا لنفوسهم وقبولاً لتوبتهم، يرشح أن المراد بها عموم الصدقة.

١٠٤ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

ثم بشَّر الله التائبين الذين اعترفوا بذنوبهم، وقدَّموا أموالهم للصدقة عن صدق وإيمان وإخلاص، بأنه سبحانه قد قبل توبتهم وصدقاتهم، وأثابهم عليها، وهكذا يقبل الله التوبة من سائر خلقه، من كل تائب إلى الله تعالى.

ففي الآية بشرى للتائبين، وحثٌّ وترغيب لغيرهم أن يتوبوا إلى الله تعالى، ويخرجوا زكاة أموالهم، فإن الله تعالى يقبل توبتهم ويقبل صدقاتهم، فيباركها وينميها لهم ويثيبهم عليها مع صدق النية، والله تعالى هو التواب لعباده إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا تابوا إليه.

وقبول التوبة ليس إلى رسول الله ﷺ، وإنما هو إلى الله وحده، وكذا قبول الصدقة وتنميتها والثواب عليها يكون من الله وحده.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مُهره، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد»** ثم قرأ الآية[٢].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٩٩، ١٤٥٦، ٧٢٨٤، ٧٢٨٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠) من حديث ابن عمر بنحوه.

(٢) الطبري (١٤/ ٤٦١) وعبد الرزاق في التفسير (١/ ٢٨٧) وفي «المصنف» (٢٠٠٥٠).

قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «**إن الصدقة تقع في يد الله ﷻ قبل أن تقع في يد السائل**» ثم قرأ الآية[1].

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما تصدق أحد بصدقة من طيب -ولا يقبل الله إلا الطيب- إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربوا في كف الرحمن، حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربِّي أحدكم فلُوَّه أو فَصِيله**» وهذا لفظ مسلم[2].

الأَمْرُ بِحُسْنِ الْعَمَلِ

١٠٥- ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

ثم أمر سبحانه بالتزود من العمل الصالح، وحذَّر من الوقوع في المعصية، فقد أمرهم سبحانه بالعمل عقب الإعلان عن قبول توبتهم؛ لأنهم لمَّا قُبلت توبتهم كان حقًّا عليهم أن يُبْرهنوا على صِدْقها بكثرة العمل الصالح، والمبادرة إليه في المستقبل، بأن يعمِّر المرء أوقاته بالحسنات والرغبة فيما عند الله تعالى.

وعلامة صدق التوبة أن تكون أحواله بعد التوبة أفضل منها مما قبل التوبة.

﴿وَقُلِ﴾ - أيها الرسول - لهؤلاء التائبين، ولغيرهم ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ ما ترون من الأعمال، واحذروا من الوقوع في المساوئ، وتزوَّدوا بالعمل الصالح ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ ولا يخفى

---

(١) الطبري (١٤/ ٤٦٠) وابن عطية (٣/ ٧٩) والأثر عند عبد الرزاق (١/ ٢٨٧) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٧) والطبراني (٨٥٧١) قال الهيثمي: فيه عبد الله بن قتادة المحاربي، لم يضعفه أحد وبقية رجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٣/ ١١١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٠١٤) و«صحيح البخاري» برقم (١٤١٠، ٧٤٣٠) وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٧).

عليه شيء منه، ويجازيكم عليه بالخير خيرًا وبالسوء سوءًا، وفيه تحذير من ارتكاب المعاصي، وحثٌّ على فعل الطاعات، فالله تعالى مُطَّلِعٌ بعلمه على جميع الكائنات، فاعبد الله - أيها العبد - كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه سبحانه يراك.

وجاء عطف ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على اسم الجلالة؛ لأنه ﷺ هو المبلغ عن الله تعالى، وطاعته ﷺ طاعة لله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وجاء عطف ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم شهداء الله في أرضه، والطائع ينضم إلى زمرة الطائعين، فيشهدون له بالإيمان، والعاصي ينضم إلى نظرائه.

﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي يعلم ما غاب عن العباد، فلا يرونه ولا يعلمونه، ويعلم ما شاهدوه وما علموه.

أي: إنكم أيها الناس سترجعون بعد موتكم إلى عالم السر والنجوى، فهو سبحانه يعلم سركم وجهركم ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: يخبركم، ويجازيكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير أو شر.

وفي هذا تهديد ووعيد لمن يستمر على الباطل والطغيان؛ حيث يظهر الله عمله في الدنيا، ويعاقبه عليه في الآخرة، وهذا أمر كائن لا محالة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة]

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات].

وعن عائشة ﵂: إذا أعجبك حُسْن عملِ امرئ مسلم، فقل: ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

وعن أنس ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا عليكم أن تُعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يُختم له؟ فإن العامل يعمل زمانًا من عمره - أو بُرهة من دهره - بعمل صالح، لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملًا سيئًا.**

وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٥١٢) والبخاري ك (٩٧) ب (٤٦) قبل حديث (٧٥٣١).

عملًا صالحًا.

وإذا أراد الله بعبده خيرًا استعمله قبل موته ، قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه»[1].

الصِّنْفُ الرَّابِعُ: طَائِفَةٌ تَوَقَّفَتْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فِيهَا

١٠٦- ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ[2] لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

هذا هو القسم الثالث والأخير من المتخلفين عن غزوة تبوك -من غير المنافقين والمعتذرين والتائبين- لأن الآيات السابقة ذكرت ثلاث طوائف من توبة المتخلفين عن غزوة تبوك:

فالطائفة الأولى: هم الذين مردوا على النفاق.

والطائفة الثانية: هم الذين سارعوا إلى الاعتذار والاعتراف بالذنب.

والطائفة الثالثة: هم الذين أوقف الله أمرهم حتى يحكم فيهم بقبول التوبة من عدمه.

وهم ثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، تخلفوا عن رسول الله ﷺ ولم يعتذروا، ولم يكن تخلُّفهم نفاقًا ولا كراهية للجهاد، ولكنهم شُغلوا حين خروج الجيش، وظنوا أنهم سيلحقون به، وانقضت الأيام، وأيسوا من اللحاق به، وسأل النبي ﷺ عنهم وهو في تبوك، فلما رجع أتوْه وصدَقوه، فلم يكلمهم، ونهى المسلمين عن كلامهم ومخالطتهم، وأمَرهم باعتزال نسائهم، فامتثلوا ما أمرهم به النبي ﷺ وظلوا خمسين يومًا، ينتظرون حكم الله فيهم، وكانوا من أهل بدر.

والسورة لم تبيِّن حكمهم عند هذه الآية التي نحن بصددها ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) رواه أحمد قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١١): ورجاله رجال الصحيح، ورقمه في «المسند» (١٢٢١٤) إسناده صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وأخرجه عبد بن حميد (١٣٩٣) وأبو يعلى (٣٨٤٠) والضياء في المختارة (١٩٨٠) وابن أبي عاصم في السنة (٣٩٣).

(٢) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو عمر وابن عامر، وشعبة، ويعقوب (مرجئُون) بهمزة مضمومة ممدودة بعد الجيم، وقرأ الباقون (مرجوْن) بواو ساكنة بعد الجيم من غيرهم، وهما لغتان بمعنى مؤخرون عن التوبة.

مع أنها نزلت فيهم[1] ولكنها نزلت قبل التوبة عليهم، ولعل الحكمة في ذلك أن يُبقِي المسلمون على خصومتهم، وعلى معاملتهم معاملة معينة، كما أمرهم النبي ﷺ حتى يتعذبوا ويتأدبوا إلى أن ينزل الله تعالى التوبة عليهم في الآية التي بعد ذلك ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨] حيث ذُكروا هنا، وذُكرت توبتهم هناك.

ومعنى الآية: ومن هؤلاء المتخلفين عنكم -أيها المؤمنون- في غزة تبوك آخرون مؤخرون وموقوف أمرهم حتى يقضي الله فيهم ما هو قاضٍ، فهم إما أن يعذبهم الله، وإما أن يعفو عنهم، وقد أبهم الله أمرهم، ولم يصرِّح بهم؛ لإثارة الخوف في قلوبهم وقت التنزيل؛ ليبادروا إلى التوبة، ويُخلِصوا فيها، والله تعالى عليم بمن يستحق العقوبة أو العفو، حكيم في كل أقواله وأفعاله، يضع الأشياء في مواضعها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب علهيم، غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم، ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

مَسْجِدُ الضِّرَارِ

١٠٧- ﴿وَٱلَّذِينَ[2] ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة نزل أوَّلًا في منطقة قُباء، من ضواحي المدينة، وأقام فيها ﷺ أربعة أيام، قبل أن يصل إلى المدينة نفسها، وكان ذلك من الإثنين إلى الخميس، وأسس في هذه الأيام الأربع، مسجد قُباء، الذي قال فيه النبي ﷺ: **«من خرج حتى يأتي مسجد قباء فيصلي فيه، كان له كعدل عمرة»**[3].

---

(١) كما في الطبري (١١/ ١٠) والقرطبي (٨/ ٢٤٢) وابن كثير (٤/ ٢١٠) والألوسي (١١/ ١٧) وغيرهم.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بحذف الواو قبل (الذين) من (والذين اتخذوا) موافقة لرسم مصحف المدينة والشام، و (الذين) مبتدأ وخبره (لا تقم فيه أبدا) وقرأ الباقون بإثبات الواو، موافقة لرسم مصحف مكة والبصرة والكوفة، والواو للاستئناف، و (الذين) مبتدأ، وخبره (لا تقم) أو (لا يزال)... إلخ.

(٣) بنحوه من حديث أسيد بن ظهير الأنصاري أخرجه النسائي (٦٩٨) والترمذي برقم (٣٢٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٧٣) وابن ماجه برقم (١٤١١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الحديث عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجد قباء راكبًا وماشيًا[١].

وفي لفظ: «**كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيًا وراكبًا**»[٢].

وفي الحديث أن رسول الله لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عيَّن له القبلة.

ومسجد قباء كان ملتقى لوحدة المسلمين في بدء وصول النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

أبو عامر الراهب: وكان هناك رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، من أهل المدينة، فلما هاجر إليها النبي ﷺ كفر به وذهب إلى المشركين يستعين بهم على قتال النبي ﷺ، فلما لم يجد مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر الروم لينصره، فهلك في الطريق، وكان أبوعامر كبيرًا في القوم، عابدًا في الجاهلية، واسمه عبد عمرو، ويُلقَّب بالراهب، وأمه من الروم وكان قد تنصَّر في الجاهلية، وقرأ عِلْم أهل الكتاب، وسمَّاه النبي ﷺ فيما بعد أبو عامر الفاسق، وأبو عامر هذا هو والد حنظلة، غسيل الملائكة، الصحابي الجليل، وهو الذي حفر حُفرًا بين الصَفوف في غزوة أحد؛ كي يقع فيها النبي ﷺ ووقع الرسول عليه الصلاة والسلام في إحدى هذه الحُفرَ فشُجَّ رأسه الشريف، وجُرح وجهه، وكُسرت رَباعيته.

كان أبو عامر من المنافقين، ثم جاهر بالعداوة، وحزَّب الأحزاب التي حاصرت المدينة في غزوة الخندق، فلما هزمهم الله تعالى أقام في مكة، ولما فُتحت مكة هرب إلى الطائف.

ولما فُتحت الطائف خرج إلى الشام يستنصر بقيصر، وهو من بني غُنْم بن عَوْف بالمدينة، وكان فيها حين وصل إليها الرسول ﷺ فدعاه إلى الإسلام، فأبى وامتنع، وذهب إلى المشركين في مكة يستعين بهم على قتال النبي ﷺ، وقال للرسول ﷺ: ما وجدتُ قومًا يقاتلونك إلا قاتلتُك معهم، فقاتل النبي عليه الصلاة والسلام وتصدَّى له في

---

(١) ابن أبي شيبة (١٢/ ٢١١) والحاكم (١/ ٤٨٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٩) والبخاري (١١٩٤) ومسلم (٥١٥، ١٣٩٩) و«المسند» (٤٨٤٦) وابن حبان (١٦١٨).

(٢) «فتح الباري» (٣/ ٨٢) ورقمه في البخاري (١١٩٣) ومسلم (٣٩٩).

أُحد، بعد أن تحالف مع المشركين، وقاتله في حُنَيْنٍ، وفي غير ذلك من المواقع، ولما ناظره الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ليقيم الحجة عليه قال أبو عامر: ماذا جئتَ به؟ قال ﷺ: **«جئتُ بالحنيفية السمحة، دين إبراهيم»**[1] قال: فنحن عليها، فقال ﷺ: **«إنك لستَ عليها»** قال أبو عامر: ولكنك أدخلتَ في الحنيفية ما ليس منها، فقال ﷺ: **«ما فعلت، ولكن جئتُ بها بيضاء نقية»** فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا، وحيدًا غريبًا طريدًا شريدًا فقال عليه الصلاة والسلام: **«آمين»** أمَّن على قول أبي عامر.

مسجد الضرار: وبعد أن استعان أبو عامر بالمشركين في مكة لقتال الرسول ﷺ ذهب إلى هرقل ملك الروم؛ ليأتي بجيش من عنده، يستعين بهم على قتال النبي عليه الصلاة والسلام، وقال لقومه: ابنوا لنا مكانًا يكون مَعْقِلًا نقدُم عليه نحن وقومنا، ويكون مرصدًا لنا، نقاتل من خلاله محمدًا، ونمزِّق وَحدة المسلمين، ونُقَوِّي كلمة الكفر، ويكون مركزًا لنا إذا رجعنا من الشام، وهذه الأهداف معلومة، ولكنها غير معلنة، فبنى اثنا عشر رجلًا منهم مسجدًا قريبًا من مسجد قباء، وكان يصلي فيه إمامًا مُجَمِّع بن جارية، وكان شابًّا يقرأ القرآن، ولم يكن يدري ما أرادوا ببنائه.

وقد سمَّاه الإسلام مسجد الضرار؛ لأنهم قصدوا بهذا المسجد تفريق جمع المسلمين في مسجد قباء، وتقوية كلمة الكفر، ولكي يكون مركزًا لأبي عامر إذا رجع من الشام، فظاهِرُه الإسلام، وباطنه سَحْقُ الإسلام، والرسول ﷺ يأخذ بظواهر الأمور، وهم يُظهرون الإسلام، ويريدون أن يُضْفُوا على هذا المسجد الشرعية، فطلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يأتيهم في مسجدهم هذا ليصلي فيه، قالوا: إنَّا ابتنيْنا مسجدًا لذي العلة والحاجة، والمريض والكبير، في الليلة الشاتية والمطيرة، ونريد أن تبارك هذا المسجد، وتصلي فيه، فوعْدهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يأتي لهم ويصلي فيه بعْد عودته من تبوك، وكان يتجهز وقتئذ للخروج لغزوة تبوك.

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من الغزوة، وقبل أن يصل المدينة بمسافة قريبة، مسيرة يوم أو نحوه، أراد عليه الصلاة والسلام أن يُوَفِّي بما وعد به، وأن يذهب إلى أهل هذا المسجد؛ ليباركه ويصلي فيه، حتى يأتي إليه الناس ويصلُّوا فيه، فأرسل الله سبحانه

(١) ينظر السلسلة الصحيحة برقم (٢٩٢٤).

جبريل عليه السلام يخبر النبي ﷺ بنوايا القوم، وحقيقة الأمر، وأن هذا ليس مسجدًا، وإنما قُصد به المضارَّة ورفْع راية الكفر، وتمزيق وحدة المسلمين، وأنزل الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ كي يصلي فيه بعضهم، ويترك الصلاة في مسجد قباء ﴿وَإِرْصَادًا﴾ فهذه **أربعة أغراض** خبيثة وهي: مضارة المؤمنين، وتقوية الكفر، وتفريق كلمة المسلمين، وجعْله مَعقِلًا لالتقاء المحاربين، **وإرصادًا**: يعني انتظارًا وإعدادًا وتهيئة لمقْدِم مَنْ حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق؛ ليصلي فيه إذا رجع؛ كي يَظْهَر على رسول الله ﷺ، ويكون هذا المسجد مكانًا لكيد المسلمين، وهو ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: أن عداوة أبي عامر للإسلام حاصلة من قَبْل بناء مسجد قباء ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: أردنا أن نساعد الكبير والمريض، وصاحب العلَّة والحاجة، وفي الليلة المطيرة والشاتية، وما قصدْنا إلا خيرًا، ورفقًا بالناس، وتوسعة على الضعفاء العاجزين عن السير إلى مسجد قباء ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما قصدوا ونَوَوْا، وحلفوا عليه، وإنما بنوه ضرارًا لمسجد قباء، وكفرًا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين.

ومن هذا يعلم أن جماعة من المنافقين بالَغُوا في الإجرام وبنَوْا مسجدًا، لا لأجل العبادة والطاعة لله تعالى، وإنما اتخذوه من أجل الإضرار بالمؤمنين وإيقاع الأذى بهم، وهم طائفة من بني غُنْم بن عَوْف، وبني سالم بن عَوْف، من أهل العوالي بالمدينة، وكانوا اثني عشر رجلًا ذكر أسماءهم الطبري وابن عطية وابن كثير وغيرهم في تفسير الآية وهم:

١- خذام أو جذام بن خالد. ٢- وثعلبة بن حاطب. ٣- وهزَّال بن أمية.
٤- ومعتِّب بن قَشيْر. ٥- وأبو حبيبة بن الأزعر. ٦- وعَبَّادُ بنُ حُنَيف.
٧- وجارية بن عامر. ٨، ٩- وابناه مُجمِّع، وزيد. ١٠- ونبتل بن الحارث.
١١- وبَحْذجُ بنُ عثمان. ١٢- ووديعة بن ثابت[١].

قال لهم أبو عامر الراهب: ابنوا مسجدكم، واستمدُّوا بما استطعتم من قوة وسلاح؛ فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتِ بجند من الروم، فأُخرجُ محمدًا وأصحابه، فلما

---

(١) ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٩).

فرغوا من مسجدهم أتَوْا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، ونحب أن تصلي فيه وتدْعُوَ بالبركة، فأنزل الله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[١].

فأرسل النبي ﷺ إلى مالك بن الدُّخْشُم، وعاصم بن عديٍّ، وقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرِّقاه، فخرجا مسرعَيْن حتى أتيا بني سالم بن عوف، وأخذ مالك سعفًا من النخل فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدان، فحرَّقاه وهدَّماه، وتفرَّق أهله عنه، ونزل فيه القرآن[٢].

وكان ذلك لما قدم النبي ﷺ من غزوة تبوك دعا بقميصه ليلبسه حتى يأتي مسجد القوم، فنزل القرآن، وأعلم الله نبيه بما همُّوا به، وورد أن النبي ﷺ أرسل أربعة من قومه هم: مالك بن الدُّخْشُم، ومَعْن بن عَديٍّ، وعامر بن يشكر، ووحشي قاتل حمزة، وأمرهم بهدم هذا المسجد وإحراقه وإضرام النار فيه.

وقيل: إن النبي ﷺ أرسل لهدم المسجد: عمَّار بن ياسر، ووحشيًّا، وكان وحشي مولى عند المُطعم بن عدي، فذهبوا وأضرموا فيه النيران وهدموه وأحرقوه، وصار مكانًا للقمامة والجيف بأمر رسول الله ﷺ وتحقق تأمين النبي ﷺ على دعوة أبي عامر، فمات غريبًا طريدًا وحيدًا شريدًا، حيث مات في الشام قبل أن يصل إلى المدينة.

وقد اشتملت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ على **ستة أمور**:

الأول: أن هذا المسجد أنشأه بعض المنافقين؛ لإيقاع الضرر بالإسلام وأهله، فهم قد اتخذوه ﴿ضِرَارًا﴾ ولهذا سُمِّي مسجد الضرار، أي: اتخذوه للإضرار بالمؤمنين، وإيقاع الأذى بهم.

الثاني: أن بناء هذا المسجد زاد في كفرهم الذي يضمرونه، والغِلِّ الذي يخفونه، فهو نُصرة لما في نفوسهم من كُفر، ولذا كان الوصف الثاني ﴿وَكُفْرًا﴾.

الثالث: أن الغرض الأساس من بناء هذا المسجد، هو التفريق بين جماعة المؤمنين، وصرْفهم عن مسجد قُباء، حسدًا منهم لنعمة التآخي والمحبة، وهذا معنى ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) الطبري (١١/ ٦٧٥) وابن أبي حاتم (١٨٧٨) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٦٢).
(٢) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٢٩) وابن مردويه.

الرابع: أن هذا المسجد أُعِدَّ لاستقبال أبي عامر الراهب، الذي حارب الله ورسوله مع الأحزاب ومع هوازن وثقيف، حين يقدم من الخارج، ليكون مستقرًّا له، ومركزًا لمحاربة الدعوة ونصرة الكفر والنفاق، وهذا معنى ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

الخامس: أن هؤلاء المنافقين قد أقسموا على أنهم لم يُريدوا من بناء هذا المسجد إلا الخير والإحسان، والمقصد الحسن، من التوسعة على المصلين، والرفق بالعجزة والمساكين ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

السادس: أن الله تعالى يشهد أنهم كاذبون في أيمانهم الفاجرة، وأنهم لم يريدوا إلا مضارة الإسلام وأهله ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ وفي هذا مذمة لهم وتحقيرا. قال تعالى:

المَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى:

١٠٨- ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

ثم منع الله تعالى رسوله ﷺ من الذهاب لمسجد الضرار ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ﴾ لا تأت إليه -يا محمد- ولا تصلِّ فيه أبدًا، ولا تفعل مثل هذا - أيها المسلم - في كل زمان ومكان.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال في الآية: هم أناس من الأنصار بَنَوْا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدًا، واستعدُّوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح؛ فإني ذاهب إلى قيْصر ملك الروم فآتِ بجنود من الروم، وأُخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتَوْا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله ﷻ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

والنهي عن القيام في مسجد الضرار يستلزم عدم الصلاة فيه، بل كان النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية، لا يمرُّ بالطريق التي فيها مسجد الضرار.

وقد أثنى سبحانه على مسجد قباء فهو أولى أن يقوم للصلاة فيه، ففي هذا المسجد رجال يحبون أن يتطهروا بالماء من النجاسات والأقذار، كما يتطهرون بالتورُّع والاستغفار

(١) الطبري (١٤/ ٤٧٠).

من الذنوب والمعاصي.

ومسجد قباء: هو الموصوف بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم، كما هو واضح في سياق الآية التالية، وهو أحق أن يقوم فيه النبي ﷺ ويصلي لربه فيه، وكما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ بيَّن أن الرجال الذين يحبون أن يتطهروا هم بنو عمرو بن عوف، أصحاب مسجد قباء، وكان النبي ﷺ يزور مسجد قباء كل يوم سبت ويصلي فيه.

فمسجد قباء هو المسجد الموصوف في الآية بأنه أسس على التقوى، وهذا لا يمنع أن يطلق هذا الوصف على غيره من المساجد.

وقد صحت أحاديث أثنت على مسجد النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة، منها:

١- حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»**(١).

٢- وفي الصحيحين عن عبد الله بن زيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»**(٢).

وهذه أحاديث تبين أيضًا أنه مسجد أسس على التقوى:

١- وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ فأخذ كفًّا من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: **«هو مسجدكم هذا»** لمسجد المدينة(٣).

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١٩٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٩٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٥) و«المسند» (٧٤١٥) وابن حبان (١٦٢١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٩٠، ١٣٩١) و«صحيح البخاري» برقم (١١٩٥، ١١٩٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٧٦) و«المسند» (١٦٤٣٣).

(٣) يُنظَر الحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٣٩٨) وفي: «المسند» برقم (١١٠٤٦، ١١٨٤٦) عن أبي سعيد، قال محققوه: حديث صحيح، وعن سهل بن سعد برقم (٢٢٨٠٥، ٢٢٨٣٨) حديث صحيح، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٢) وقال الهيثمي في «المجمع»: (٧/ ٣٤) رجاله رجال الصحيح عن سهل بن سعد، وفي الطبراني (٤٨٢٨) و (٤٨٥٤) عن زيد بن ثابت، وابن حبان (١٦٠٦).

٢- وعن أُبَيّ بن كعب ﷺ قال: سألت النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: «**هو مسجدي هذا**»[١].

فإذا كان مسجد قُباء موصوف بهذا، فإن مسجد النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة من باب أولى أن يوصف بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم، فهو أحرى وأجدر بهذا الوصف.

ووجه الجمع: أن المراد بقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي: المسجد الذي هذه صفته، وليس مسجدًا واحدًا معينًا، والوصف ينحصر في المسجد النبوي ومسجد قُباء، فمسجد قباء أُسِّس على التقوى من أول يوم، والمسجد النبوي أُسِّس على التقوى من أول يوم كذلك، فأيهما صلى فيه رسول الله ﷺ وقت بناء مسجد الضرار فهو أحق وأجدر أن يقوم فيه[٢].

فكلا المسجدين أسس على التقوى، جمعًا بين الآية والأحاديث.

وقد وصف الله سبحانه أهل مسجد قباء بأنهم قوم يحبون أن يتطهروا ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ وكان أهل قباء حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا من السابقين للإسلام ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ حسيا ومعنويا.

ولما نزل هذا الوصف لأهل قباء، أرسل عليه الصلاة والسلام يسأل كبارهم، لماذا أثنى عليكم ربكم ووصفكم بهذا الوصف؟

فذكروا أنهم كلما قضى الإنسان منهم حاجته وتغوَّط فإنه يستجمر أوَّلًا بحجارة ثلاثًا، ثم يستنجي بالماء.

وقالوا: كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلْنا كما غسلوا[٣].

---

(١) ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٣) والمعجم الكبير (١١/ ٦٧) وقال محققو «المسند» (٢١١٠٦، ٢١١٠٧) حديث صحيح وأخرجه الضياء في «المختارة» (١١٣٣) والخطيب (٧٩١٤).

(٢) يُنظَر: «التحرير والتنوير» (١١/ ٣٢).

(٣) يُنظَر النص في: صحيح ابن خزيمة (١/ ٤٥) برقم (٨٣) وليس فيه قصة الاستجمار و«المسند» (٣/ ٤٢٢) برقم (١٥٤٨٥) والطبراني في الكبير (٣٤٨) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢١٢): فيه شرحبيل بن سعد، ضعَّفه مالك وابن معين وأبو زرعة، ووثقه ابن حبان، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره، وصححه الحاكم (١/ ١٥٥) ووافقه الذهبي.

وهذه الطهارة كانت عزيزة في ذاك الوقت، فالبيوت والمساجد ليست فيها حمامات، ولا تتوفر فيها المياه كوقتنا، وكانت الناس تقضي حاجتها في الخلاء، وكان الاستجمار هو الأكثر غالبًا، وأهل قباء كانوا يستجمرون أوَّلًا، ثم يستنجُون بالماء ثانيًا.

وذُكر أيضًا أنهم كانوا إذا أصابتهم الجنابة لا يبيتون بها، فكانوا يتطهرون منها قبل النوم.

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يا معشر الأنصار، إن الله قد أثنى عليكم في الطهور، فما طهوركم؟**» قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء، قال: «**فهو ذاك، فعليكُموه**»[1].

وأخرج الحاكم عن مجاهد عن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية بعث رسول الله ﷺ إلى عُويْم بن ساعدة الأنصاري فقال: «**ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟ فقالوا: يا نبي الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل دُبره -أو قال مقعدته- فقال النبي ﷺ: «ففي هذا»**[2].

وجاء هذا المعنى من طرق أخرى، وفيها أن عُويْم بن ساعدة هو أول من غسل مقعدته بالماء[3].

وطهارة أهل قباء تشمل طهارة الظاهر من الأحداث والنجاسات بالماء، وطهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي.

ثم فاضل - سبحانه - بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لمرضاته فقال:

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن أبي أيوب الأنصاري، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك في «السنن» برقم (٣٥٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (١/ ١٥٥) وأخرجه الدارقطني في «السنن» (١/ ٦٢) والضياء في «المختارة» برقم (٢٢٣١) وله شاهد في «مجمع الزوائد» (١/ ٢١٢) وانظر: «المسند» (٦/ ٦) وهو في صحيح «سنن ابن ماجه» (٢٨٥) وابن عساكر (٣٨/ ٢٢٩). وصحيح أبي داود (٣٤) وفي مشكاة المصابيح (٣٦٩) والروض النضير (٧٥٦) بتصحيح الألباني.

(٢) «المستدرك» (١/ ١٨٧) وصححه الحاكم بموافقة الذهبي على شرط مسلم وأخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (١١٠٦٥) وحسنه الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢١٢) وهو في «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٨٧). وضعفه محققو المسند في شرح الحديث (١٥٤٨).

(٣) أخرجه ابن سعد عن جابر بن عبد الله (٣/ ٤٥٩).

١٠٩- ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ[(١)] بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ[(٢)] خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ[(١)] بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ[(٣)] هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

وقصة مسجد الضرار، تنطبق على كل قوم اتخذوا من الإسلام شعارًا، وهدفهم الباطني مضارة الإسلام وأهله، وكل قوم رفعوا راية الإسلام، وهم يهدفون من وراء ذلك النيل من الإسلام، أو القضاء عليه وعلى أهله في كل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ونحن نرى ذلك فيمن يندسُّ بين صفوف المسلمين؛ لينفث فيهم سمومه، أو يستطلع أخبارهم.

ومسجد الضرار كان كالبناء على شفير جهنم، فهوى بأهله فيها، أي: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله وطاعته ومرضاته، ومن أسس بنيانه على طرف حفرة متداعية للسقوط، فبنى مسجدًا لمضارة الإسلام وأهله، فأدى بهم إلى السقوط في نار جهنم ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ والله لا يهدي المتجاوزين لحدوده.

وعلى هذا: فلا يستوي من أسس بنيانه على الحق، بمن أسس بنيانه على الباطل.

فالحق: قواعده متماسكة قوية ومحكمة، وهو بناء ثابت، ومصيره إلى دوام وسعادة لأهله.

والباطل: قواعده ضعيفة متصدِّعة متهالكة، وهو بناء مضمحل، ومصيره إلى زوال وشقاء.

والشفا: حرف البئر وحرف الحفرة.

والجرف: جانب الوادي، وجانب الهوة الذي تنحرف منه السيول.

والجرف الهار: هو المتصدع المتساقط، كما ينهار الباطل ويتساقط في نار جهنم.

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: رأيت الدخان من مسجد الضرار حين انهار[(٤)].

---

(١) قرأ نافع وابن عامر بضم الهمزة، وكسر السين، من (أُسِّس) في الموضعين على البناء للمفعول، و (بنيانُه) بالرفع فيهما، على أنه نائب فاعل، وقرأ الباقون بفتح الهمزة والسين من (أَسَّس) فيهما، على البناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود على (من) و (بنيانَه) بالنصب فيهما على أنه مفعول به.

(٢) قرأ شعبة بضم راء (رُضوان)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٣) قرأ ابن ذكوان وشعبة وحمزة وخلف العاشر وهشام بخلفه بسكون الراء من (جرْف)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٤) صححه الحاكم في «المستدرك» (٤/٥٩٦) وصححه محمود شاكر في تعليقه على الطبري.

ولم يستمر مسجد الضرار إلا ثلاثة أيام، تم بناؤه يوم الجمعة، وانهار يوم الاثنين. قال تعالى:

١١٠- ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا[1] أَن تَقَطَّعَ[2] قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ولا يزال بناء مسجد الضرار شكًّا ونفاقًا ماكثًا في قلوب المنافقين بعد هدْمه وإزالته، وهذا معنى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بعد أن زال البناء، لا تزال دعوة أبي عامر قائمة في قلوب أتباعه تملؤها شكًّا ونفاقًا وكفرًا ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فالريبة ملازمة لهم ما داموا أحياء ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إلى أن تنقطع قلوبهم بموتهم، أو قتلهم، أو بندمهم وتوبتهم، وخوفهم غاية الخوف، وكذا كل من كان على شاكلتهم إلى يوم القيامة.

وفي قراءة (يعقوب): (إلى أن تقطع قلوبهم) بلام الجر وليست إلا الاستثنائية، وهي توضح هذا المعنى.

وعلى قراءة الجمهور بالاستثناء يكون المعنى: لا يزال البناء في قلوب المنافقين موضع ريبة وقلق، إلا في وقت واحد، هو وقت موتهم وهلاكهم، فبعد الموت تنكشف الحقائق ويعرف المصير، وعند ذلك يندمون غاية الندم ويخافون غاية الخوف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما عليه المنافقون من الشك وما قصدوه ببنائهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير أمور خلقه.

ويؤخذ من الآيات: أنه يجب هدم المسجد الذي يقصد به مضارة الإسلام وأهله، وأن العمل الفاضل تغيره النية السيئة، وأن كل ما يجمع بين المسلمين طاعة، وما يفرقهم معصية، وأنه لا يصلي في أماكن المعصية، وأن المعصية تؤثر في الأماكن، كما أن الطاعة تؤثر فيها، ويستفاد أيضًا أن كل عمل فيه مضارة للمسلمين، أو فيه معصية لله، أو تفريق بين المؤمنين، أو معاونة لمن حارب الله ورسوله، فإنه عمل محرم وممنوع شرعًا،

---

(١) قرأ يعقوب (إلا أن) بتخفيف اللام، على أنها حرف جر (إلى أن)، وقرأ الباقون (إلَّا أن) بتشديد اللام، على أنها حرف استثناء، والمستثنى منه محذوف، أي: لا يزال بنيانهم ريبة في كل وقت من الأوقات إلا وقت تقطيع قلوبهم، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر وشعبة والكسائي وخلف العاشر، بضم التاء من (تُقطَّع) على البناء للمفعول، مضارع قطَّع بالتشديد، و (قلوبهم) نائب فاعل. وقرأ الباقون بفتح التاء، على البناء للفاعل، مضارع تقطَّع حذفت منه إحدى التاءين، و (قلوبُهم) نائب فاعل.

والعكس صحيح، وأن العبد المصر على المعصية لا يزال مبعدا من الله حتى يتقطع قلبه ندمًا وحسرة، كما يستفاد أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة هو العمل المؤسس على التقوى، والعمل المبني على الضلال وسوء القصد، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، والأول يوصل إلى جنات نعيم، والآخر يوصل إلى نار جهنم وبئس المصير(١).

البَيْعُ الرَّابِحُ

١١١- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ(٢) وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

بدأ الحديث عن المنافقين من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟﴾ وبعد أن ذكرت السورة مختلف أحوالهم، في التخلف عن الجهاد وما أعقبه من ذكر مسجد الضرار، تحدثت هذه الآيات عن حقيقة الجهاد وفضله، فوصف الله عباده المؤمنين المجاهدين، الذين لا يتثاقلون عن الدعوة إلى الجهاد لرفع راية الإسلام، بأنهم قوم باعوا أنفسهم وأموالهم إلى الله تعالى في صفقة رابحة لا يبقى للمؤمن بعدها شيء من نفسه وماله، وهذه الصفقة: المؤمن فيها هو البائع، والله تعالى هو المشتري.

يبيع المؤمن صاحب الصفات المتميزة، نفسه، إلى ربه، وهو خالقها، ويبيع له ماله الذي رزقه إياه، بجنة عرضها السموات والأرض، فالله تعالى قد خلقه ورزقه المال، والله سبحانه هو الذي يشتريها منه فضلًا وكرمًا، والثمن هو الجنة وما فيها من النعيم المقيم لمن يَقْتُل أعداء الله، أو يُقْتَل على أيدي أعداء الله.

فما أعظم صفْقةً؛ المشتري فيها هو الله، والثمن فيه هو الجنة، والسلعة هي النفس والمال.

وهذا العقد مسجل في أكبر الكتب السماوية، في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

---

(١) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (فيُقتلون ويَقتلون) ببناء الأول للمفعول، وبناء الثاني للفاعل، وقرأ الباقون ببناء الأول للفاعل وبناء الثاني للمفعول.

فلا أحد أوفى بعهده من الله، والذي كتب العقد وشهد عليه رسول الله ﷺ، فهو وعد مثبت في الكتب السماوية، فأظهروا السرور - أيها المؤمنون - بهذا البيع، ففيه الفلاح العظيم لأنه يتضمن السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

وهذه الآية نزلت في بيعة العقبة الكبرى، المشتملة على سبعين رجلًا، وثلاث نسوة، وكان أصغرهم سنًّا عقبة بن عمرو، وفيها قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ ليلة العقبة: اشترطْ لربك ولنفسك ما شئت، فقال: **«أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»** قالوا: فما لَنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: **«الجنة»** قالوا: رَبح البيع، لا نقيل، ولا نستقيل، فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾[1]

والآية عامة في كل من جاهد في سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، فقد وهب الله عباده أنفسهم وأموالهم، ثم أمرهم ببذلهما في ذاته، ووعدهم الجنة.

وقد اشترى الله من عباده أنفسهم ألَّا يستعملوها إلا في طاعته، وأموالهم ألَّا ينفقوها إلا في سبيله، وفي ذلك ترغيب في الجهاد والشهادة بأبلغ وجه.

والمجاهد في سبيل الله يبيع نفسه لله، وله الجنة سواء قَتل أو قُتل، ولهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«تضمَّن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهادا في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا برسلي، فهو عليّ ضامن أن أُدخله الجنة، أو أُرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة»**[2].

وذلك لأن المؤمن إذا قاتل في سبيل الله حتى يُقتل، أو أنفق ماله في سبيل الله، عوَّضه الله الجنة في الآخرة، جزاءً بما فعل في الدنيا، فجعل ذلك استبدالًا واشتراءً؛ لأن الله هو الخالق للنفس، الرازق للأموال.

قال الحسن: أَنْفُسًا هو خالقها، وأموالًا هو رازقها، ثم يكافئنا عليها متى بذلناها بالجنة.

---

(١) يُنظَر: ابن سعد (٣/ ٣٠٩) والطبري (١٤/ ٤٩٩) و«زاد المسير» (٣/ ٥٠٤).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٢٥٤) ورقمه في البخاري (٣٦، ٣١٢٣، ٥٥٣٣، ٧٢٢٦) ومسلم (٣/ ١٤٩٦) برقم (١٨٧٦)، وهذا لفظه.

ومرَّ أعرابي برسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية، فقال: بيعٌ والله مُرْبح، لا نقيله، ولا نستقيله، فخرج إلى الغزوة واستُشهد.

وقال جعفر الصادق: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها.

أي: لا تبيعوها بأدنى منها، والأمر بالجهاد موجود في جميع الشرائع، ومكتوب على جميع أهل الملل.

قال عمر بن الخطاب: إن الله بايعك، وجعل الصفْقتين لك.

وقال الحسن: إن الله أعطاك الدنيا فاشترِ الجنة ببعضها.

وقال قتادة: ثامَنَهُم وأغلى الثمن، وقال بعضهم: ناهيك عن بيع البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه رب العزة، والثمن فيه الجنة، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد ﷺ.

وليس هناك ترغيب في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية، فهي تُبرز صورة عقد بين العبد المجاهد وبين رب العزة جلَّ وعلا، وثمنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، سواءً أكان العبد قاتلًا للعدو أو مقتولًا لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وسجَّله ربنا في الكتب السماوية، وجعله وعدًا حقًّا.

ومن الأحكام التي تؤخذ من قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر ببناء الفعل الأول للمفعول من قوله تعالى: ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ﴾ أنه يجب على المؤمن أن يكون حريصًا على الاستشهاد في سبيل الله؛ للوصول إلى جنة عرضها السموات والأرض.

وتُبيِّن الآية على القراءتين أن من المؤمنين من يَقتُل ومنهم من يُقتل، ومنهم من يُقتل ويقتُل معًا.

وهذه القراءة المتواترة في الآية تفيد أن من المسلمين من يُقتَل أوَّلًا، فإذا قُتل قَتَل، كيف يكون هذا؟، يُقتل أوَّلًا، فإذا قُتل قتَل غيره؟ تحتاج إلى تأمل وتطبيق معاصر!!

وهذه الحالة من الجهاد، لا تكون إلا إذا لم يكن للمسلمين طريق إلى جهاد عدوهم إلا بمثل هذا،وذلك حينما يكون العدوُّ قويًّا والمسلمون ضعفاء،وفي تاريخ المسلمين الأوائل نظائر لهذه الحالة، وهي خاصة بالكفار المحاربين، أما التفجير والخطف ونحوهما في

قوم ليس بيننا وبينهم حرب قائمة وإن كانوا كفارا، فهو من الإفساد في الأرض.

ثم ذكر سبحانه صفات المؤمنين الذين أعد الله لهم هذه البشارة:

تِسْعَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الجَنَّةِ

١١٢- ﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

وقد وصف الله تعالى أهل الجنة هؤلاء **بتسع صفات**، وهي صفات أهل الإيمان الكامل، فهم:

١- ﴿التَّٰٓئِبُونَ﴾ عن المعاصي وعن كل ما نهت عنه الشريعة، المفارقون للذنوب، المبتعدون عنها، وهم الذين ماتوا على التوبة، تابوا إلى الله من الشرك ومن الكفر، ومن النفاق، ومن كبائر الذنوب وصغارها، وهم الراجعون عما يكرهه الله تعالى، إلى ما يحبه ويرضاه، المفارقون للمعاصي، المنتهون عنها، المستوفون لشروط التوبة، الملازمون لها في جميع الأوقات ولم ينافقوا في الإسلام.

٢- وهم ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ المطيعون لله الذين أخلصوا له في عبادته، وشَمَّرُوا عن ساعد الجد في طاعته تعالى، ليلَهم ونهارهم، يؤدون الواجبات والمستحبات، ويستمرون على فعل الطاعات وترك المنهيات والمكروهات.

٣- وهم ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ المعترفون بنعم الله عليهم، الشاكرون له، الذين يحمدون الله تعالىٰ على كل ما ابتلاهم به من خير أو شر، فهم يحمدونه علىٰ السراء والضراء، وفي كل حال من الأحوال، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والخير والشر، ويثنون على الله تعالى، ويذكرونه أثناء الليل والنهار.

عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الأمر يَسُرُّهُ قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»، وإذا أتاه الأمر يكْرهُه قال: «**الحمد لله على كل حال**»[1].

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٣٧٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٥).

٤- وهم ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي: الصائمون للفرائض والنوافل.

قال ابن مسعود: السائحون هم الصائمون[١].

والسائحون هم المتنقلون في الأسفار؛ لطلب العلم، والجهاد، والحج، والعمرة، ونُصرة إخوانهم المسلمين، وسائر القُرَب، والسائحون أيضًا هم: الجائلون بفكرهم في قدرة الله تعالى وملكوته، المتفكرون في خلق السموات والأرض، القائلون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وتفسير السياحة بالسفر والتنقل في القربات وطلب العلم أنسب؛ لمناسبة الجهاد.

والأمر بالسير في الأرض للنظر والتدبر والاعتبار، جاء فيه آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

والإسلام يحث على السير في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]

وفي الحديث: «**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**»[٢].

فهذه ثلاثة أنواع من السياحة: سياحة بالصيام، وسياحة في طلب العلم والقربات؛ ومنها الجهاد، وسياحة القلب في معرفة الله تعالى ومحبته.

٥- وهم ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ أي: الراكعون لله تعالى في صلواتهم المفروضة والمسنونة، بخضوع وخشوع لله ﷻ، والركوع والسجود يعبِّران عن الصلاة، وهي ركن الإسلام الركين، والمراد أنهم يكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

٦- وهم﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ أي: الساجدون لله تعالى في صلواتهم، والمراد: أنهم يجمعون بين الركوع والسجود في صلاتهم، وهو عبارة عن كثرة الصلاة، التي هي طابع مميز لهم من بين الناس.

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن (١٢/١٢) وعن أبي هريرة وابن عباس موقوفًا بسند صحيح. يُنظَر: «تفسير الطبري» (٥٠٣/١٤).

(٢) أبو داود في الجهاد (٢٤٨٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٧٣/٢) وابن أبي حاتم (١٦٦٨) وحسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٢١٧٢) والطبراني (٧٧٦، ٢٧٠٨) وابن أبي حاتم (١٨٨٩/٦).

٧- وهم ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ الذين يأمرون الناس بكل ما أمر الله به ورسوله، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد، وإلى كل ما حسَّنه الشرع ورغَّب فيه.

٨- وهم ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: الذين ينهون غيرهم عن كل ما نهى الله تعالى عنه ورسوله، من كل ما يأباه الشرع والعقل السليم، والأمر بالمعروف طلب فعل، والنهي عن المنكر طلب ترك، وهما متلازمان متباينان.

قال جمع من العلماء: إن الواو من ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ واو الثمانية، إيذانٌ بأن السبعة التي مضت عدد تام، فهي بدون واو، وما بعدها مستأنف، ونظيرها واو ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] لأن أبواب النار سبعة، وأبواب الجنة ثمانية، ومثلها ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾[١] [الكهف: ٢٢].

٩- وهم ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: المحافظون على شرائعه وأحكامه وآدابه، المتصفون بكل الصفات الحميدة، فهم ممتثلون لكل ما أمر الله به، منتهون عن كل ما نهى الله عنه، الذين يؤدون فرائض الله، ويحفظون حدوده، فيقفون عندها ولا يعتدُونها، فيمتثلون أمر الله، ويجتنبون نهيه، ويقومون على طاعته، ويتعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، وهذه صفة جامعة للعمل بالتكاليف الشرعية.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: الحافظون لحدود الله، هم القائمون على طاعة الله، وهو شرط اشترطه على أهل الجهاد، إذا وفَّوا الله بشرطه، وفَّى لهم بشرطهم.

والحدود تُطلق على الوصايا والأوامر، وتشمل: العبادات، والمعاملات، والأخلاق، والحقوق، والواجبات.

وحقيقة الحفظ توحي ببقاء الشيء في مكانه.

قال ابن عباس ﷺ: لما نزلت الآية التي قبلها، قال رجل: يا رسول الله، وإن سرق، وإن زنى، وإن شرب الخمر، فنزلت هذه الآية[٢].

(١) يُنظَر «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٤٢).

(٢) «زاد المسير» (٣/ ٥٠٥).

وهذه الأوصاف التسعة: الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق سبحانه، والسابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق، والتاسع يشملهما.

وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات، المُوفون بما عاهدوا الله عليه، يبشرهم ربهم بجنته ورضوانه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن ثواب المتصفين بما ذكر، لا يحيط به الوصف، ولا تحده العبارة، وهذه البشارة تشمل ثواب الدنيا والآخرة بحسب إيمان المؤمن وعمله الصالح.

لَا يَجُوزُ الاسْتِغْفَارُ لِغَيْرِ المُسْلِمِ

١١٣- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

وبعد أن وصف الله عباده المؤمنين أهل الصفقة الرابحة بهذه الصفات التسع، قطع سبحانه العلاقة بينهم وبين من ماتوا على الشرك والكفر، ولو كانوا أولي قربى في الدم والنسب؛ لاختلاف التوجه واختلاف المصير، فأهل الصَّفْقة هم أصحاب الجنة، وأهل الكفر هم أصحاب الجحيم، ولا لقاء بين الدنيا والآخرة، فتجب البراءة من أمواتهم كما وجبت من أحيائهم.

وقد بيَّن جلَّ شأنه، أن الذي يموت مشركًا كافرًا لا يجوز للمسلم أن يترحَّم عليه، أويدعو له، أو يستغفر الله له،أما الأحياء من غير المسلمين فيجوز الدعاء لهم بالهداية، أما بعد الموت فقد انقطع الرجاء في هدايتهم، فلا معنى للاستغفار لهم، فطلبُ الرحمة والمغفرة، والدعاء للميت تخص المسلم، ولا يجوز ذلك لمن مات على الكفر والشرك، لأن الدعاء لهم غير مفيد، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين، والمؤمنون يوافقون ربهم في رضاه وغضبه، فيوالون من ولاه الله، ويعادون من عاداه الله، والاستغفار لمن يتبين أنه من أصحاب الجحيم مناقض ومناف لهذا المصير.

وفي هذا نسخ للتخيير الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] ومع أن أبا طالب وآمنة أم النبي ﷺ قد ماتا قبل نزول هذه الآية بوقت طويل إلا أن نَهْيَ النبي ﷺ عن الاستغفار لهما كان في وقت لاحق.

أبو طالب مات على غير الإسلام:

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: **«أي عم، قل لا إله إلا الله، أحاجُّ لك بها عند الله»**، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: **«لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنك»**، فنزلت هذه الآية.

وفي لفظ مسلم: فلم يزل رسول الله ﷺ يعْرِضُها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب، آخر ما كلَّمهم، هو على ملة عبد المطلب، وأَبَى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال: **«أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنك...»**[1].

لقد همَّ الرجل أن ينطق بكلمة التوحيد، لولا أن جلساء السوء قالا له: أتترك ملة عبد المطلب؟ أتترك دين آبائك وأجدادك؟

فما كان منه إلا أن قال: إنه على دين عبد المطلب، بسبب جلساء السوء ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان]

وفي أبي طالب أنزل الله الآية المكية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولما نزلت آية سورة القصص، قال عليه الصلاة والسلام: **«سأستغفر له»** لأن أبا طالب صاحب يد طولى في نشر الدعوة، وفي حماية ابن أخيه، وظل عليه الصلاة والسلام يستغفر له من نزول الآية المكية في سورة القصص، حتى نزلت هذه الآية، بعد موت أبي طالب ببضع سنوات؛ وذلك لأن أبا طالب قد مات في مكة قبل الهجرة بثلاث سنين.

وآية سورة التوبة هذه من آخر ما نزل بالمدينة، وهي تَنهى النبي عليه الصلاة والسلام أن يستغفر لمشرك ولو كان أقرب الناس إليه، وتَنهى بعض المؤمنين الذين كانوا يستغفرون لأقاربهم من المشركين قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لهم:

---

(١) البخاري برقم (١٣٦٠، ٤٦٧٥، ٦٦٨١) وفي «فتح الباري» (٨/ ١٩٢) ومسلم (١/ ٥٤) برقم (٢٤) والنسائي (٢٠٣٤) والطبري (١٢/ ٢٠) وأحمد (٥/ ٥٣٣) برقم (٢٣٦٧٤).

أحاديث في معنى الآية:

١- عن عليٍّ ﷺ قال: سمعت رجلًا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أوَ ليس استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية إلى قوله (تبرأ منه) لمّا مات [١].

٢- وعن عليٍّ ﷺ قال: أخبرتُ رسول الله ﷺ بموت أبي طالب فبكى، وقال: **«اذهب فغسِّله وكفِّنه وواره، غفر الله له ورحمه»** وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أيامًا، ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية[٢].

وفي لفظ (**اذهب فواره**) فقال علي: إنه مات مشركا، فقال النبي ﷺ **«اذهب فواره»** فلما واريْتُه رجعت للنبي ﷺ فقال لي: **«اغتسل»**[٣].

٣- وأخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ أنهم كانوا يستغفرون للمشركين حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسۡتَغۡفِرُوا لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓا أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾.

أبو طالب أهون أهل النار عذابًا:

٤- وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ ذُكر عنده عمه أبو طالب، فقال: **«لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه، يغلي منه أمُّ دماغه»**[٤].

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١٠١) وقال: حديث حسن، وأبو يعلى (٦١٩) والبزار (٨٩٣) وحسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٧٧) وهو في «المسند» (١/ ٩٩) وبتصحيح أحمد شاكر برقم (٧٧١) و (١٠٨٥) وحسّن إسناده محققو المسند، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، و«المستدرك» (٢/ ٣٣٥) وابن أبي حاتم في «التفسير» برقم (١٧٠٠) والنسائي (٢٠٣٥) والطيالسي (١٣٣) وطرقهم متعددة.

(٢) ابن سعد (١/ ١٢٣) وابن عساكر (٦٦/ ٣٣٦).

(٣) مسند أحمد عن عليّ برقم (٧٥٩) قال محققوه: وإسناده ضعيف، وأخرجه الطيالسي (١٢٠) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٧) وعبدالرزاق (٩٩٣٦).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢١٠) و«صحيح البخاري» برقم (٣٨٥) و (٦٥٦٤).

وفي رواية: «**يغلي دماغه من حرارة نعليه**»[١].

٥- وفي الصحيحين عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ما أغنيتَ عن عمك؛ فإنه كان يحُوطُك ويغضَبُ لك؟! قال: «**هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار**»[٢].

٦- وفي رواية للعباس أيضًا قال: قلت: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «**نعم، وجدتُه في غمَرات من النار فأخرجتُه إلى ضحضاح**»[٣].

٧- وفي صحيح مسلم عن ابن عباس ﷺ: «**أهون أهل النار عذابًا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه**»[٤].

فهذه الأحاديث تدل على أن أبا طالب مات على غير الإسلام، وأن آخر كلامه من الدنيا أنه على دين عبد المطلب[٥] وأنه يعذَّب في النار، ولا يصح قول من قال: إن الله قد أحيا أبا طالب في قبره فآمن.

أبَوَا النبي ﷺ من أهل الفترة: وكما منع الله استغفار النبي ﷺ لعمه، فقد منعه كذلك من الاستغفار لأبويه، وكان ذلك في وقت متأخر أيضًا.

ففي صحيح مسلم عن أنس ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله: أين أبي؟ قال: «**في النار**» فلما قفا، دعاه فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»[٦].

وهذا محمول على تطييب خاطر الرجل، أو على احتمال معنى آخر، ونحو ذلك؛ لأنهما من أهل الفترة.

أما بالنسبة لأمه ﷺ فقد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام مرَّ بقبر أمه فجلس عندها

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢١١).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٩).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٩).

(٤) من حديث ابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (٢١٢).

(٥) كما في «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٥).

(٦) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٣).

واستغفر الله لها، فبكت عيناه رحمة بها[١].

وأمُّ النبي عليه الصلاة والسلام ماتت في الفترة، أي: قبل بعثة الرسول ﷺ فهي غير مطالبة بالإيمان بالرسول ﷺ؛ لأنها لم تكن حية عند مبعثه ﷺ وهي ممن تصدُق عليهم هذه الآية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولعل الدعاء لأهل الفترة لا يجوز؛ لأنهم غير موحدين.

وأهل الفترة قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام عمومًا ينطبق عليهم هذا الحكم الذي في الآية:

١- عن أبي هريرة ﷺ قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: **«استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكِّر الموت»**[٢].

٢- وقال أبو هريرة وبريدة لما قدم النبي ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة، فوقف حتى حميت الشمس، رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت الآية.

٣- وعن بُريدة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه مرَّ بقبر أمه آمنة، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم بكى، فبكى الناس لبكائه، ثم انصرف إليهم، فقالوا: ما الذي أبكاك؟ قال: **«مررت بقبر أمي فصليت ركعتين، ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها، فَنُهيت، فبكيت، ثم عدتُ فصليت ركعتين، واستأذنت ربي أن أستغفر لها، فزُجرت زجرًا، فعلا بكائي) ثم دعا براحلته فركبها، فما سار إلَّا هنيهة، حتى قامت الناقة -أي: وقفت- لثقل الوحي، فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾** والآية التي بعدها[٣].

٤- ولفظ الحاكم: أن النبي ﷺ زار قبر أمه في ألف مُقَنَّع، فما رُئي باكيًا أكثر من ذلك اليوم، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

---

(١) كما في «المسند» (٥/ ٣٥٥) عن ابن بريدة عن أبيه ويأتي ذكره في الحديث الثالث.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩٧٦).

(٣) الطبري (١٤/ ٥١٢) وأحمد في «المسند» بنحوه (٥/ ٣٥٩) برقم (٢٣٠٠٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و قال محققو «المسند»: (٢٣٠١٧، ٢٣٠٣٨) حديث صحيح، وأخرجه مسلم (٢/ ٦٧١) برقم (٩٧٧) والنسائي (٧/ ٢٣٤) وابن حبان (٥٣٩٠) والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٤) عن ابن مردويه.

٥- وروى الطبري بسنده عن قتادة قال: ذُكر لنا أن رجالًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يُحْسِن الجوار، ويصل الأرحام، ويفكُّ العاني، ويوفِّي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ فقال ﷺ: «**بلى، والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه**»، فأنزل الله هذه الآية، وعذر إبراهيم في الآية التي بعدها[1].

ومعنى الآية: ما كان ينبغي لك يا محمد ﷺ والذين آمنوا أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كانوا ذوي قرابة لهم، من بعدما ماتوا على شركهم، وتبيَّن لهم أنهم أصحاب الجحيم؛ لموتهم على الشرك.

والله تعالى لا يغفر للمشركين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٨].

وكما قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: ٧٢]. قال تعالى:

١١٤- ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ[2] لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾

وكان إبراهيم خليل الرحمن، قد دعا أباه إلى التوحيد، وكان إبراهيم قد قوِي طمعُه في إيمان أبيه، فحمله هذا على الاستغفار له حتى نُهي عنه، وذلك حين قال آزر لإبراهيم: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٦] فظن إبراهيم أنه متردد في عبادة الأصنام، وأن هذا بمثابة

---

(١) الطبري (١٢/ ٢٤).

(٢) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (ابراهام) في الموضعين، بفتح الهاء وألف بعدها، وقرأ الباقون بكسر الهاء وياء بعدها، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

الوعد منه بالإيمان، فاعتبره بمنزلة المؤلفة قلوبهم، ووعده بالاستغفار له، لعله يرفض عبادة الأصنام، ثم تبيَّن له بعد موته أنه كان على الشرك، أو تبيّن له عن طريق الوحي أنه عدوٌّ لله، فتبرأ منه[(١)].

وكان ذلك لمَّا لم يسمع آزر الدعوة، ولم يستجب لابنه، فَوَعَده إبراهيم في نهاية الأمر أنه سيستغفر الله له، قائلًا: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] فنهى الله تعالى في هذه الآية عن الاستغفار للمشركين الذين ماتوا على الشرك والكفر، مهما بلغت درجة القرابة منهم، بعد ما تبين لهم أنهم من أهل النار، وهذا التبيُّن يكون بموتهم على الشرك والكفر وانقطاع التوبة عنهم، ويكون ذلك عن طريق الوحي بالنسبة للرسل.

ثم بيَّن سبحانه أن العلة والسبب في استغفار إبراهيم لأبيه، هو الوعد الذي وعده إياه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وهذه الموعدة هي قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] وقد وعده بالاستغفار رجاء أن يسلم، أي: أن استغفار إبراهيم لأبيه كان بسبب هذا الوعد، فلما تبيَّن له أن أباه عدو لله، أي: أنه سيموت كافرًا، ولن يُجْدي فيه الوعظ والتذكير، تركه وترك الاستغفار له، وتبرأ منه بعد أن أعلمه الله بذلك، فلا حجة لأحد في استغفار إبراهيم لأبيه؛ لأن ذلك كان من باب الوفاء بالوعد، وكان إبراهيم يطمع في إيمان أبيه، فكان يتألفه بهذا القول.

وكان إبراهيم كثير التضرع إلى الله تعالى، كثير التأوه، فيه رقَّة وشفقة، كثير الرجعة إلى الله سبحانه، كثير الصفح عما يصدر من قومه من زلَّات.

وهذه الآية تتمة للآية التي قبلها باعتبار قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ فأبو طالب عمُّ النبي ﷺ كما أن آزر والد إبراهيم، وما لا يتبغي لنبينا لا ينبغي لغيره من الرسل.

وقد ورد أن إبراهيم يتبرأ من أبيه أيضًا يوم القيامة حين يلقاه، وعلى وجهه الْغبرة والْقترة، فيقول: يا إبراهيم إني كنت قد عصيتُك، وإني اليوم لا أعصيك، فيقول: أي رب، إنك وعدتني ألَّا تخزيني يوم يبعثون؟ فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو بذبح متلطخ فيؤخذ

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٤٥) و«تفسير ابن عطية» (٣/ ٩١).

بقوائمه، ويلقى في النار[١].

قال علي بن أبي طالب: لما أنزل الله تعالى خبرًا عن إبراهيم، وأنه قال لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ [مريم: ٤٧] سمعتُ رجلًا يستغفر لوالديه، وهما مشركان، فقلت: أتستغفر لأبويك وهما مشركان، فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ قال: فأتيت النبي ﷺ فذكَرتُ ذلك له، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] يعني: أن إبراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار؛ لأنه إنما استغفر لأبيه وهو مشرك، لمكان الموعد الذي وعده أن يسلم ، فعليكم أن تتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.

فعلى هذا تكون الهاء في ﴿إِيَّاهُ﴾ راجعة إلى إبراهيم، وأن الوعد كان من أبيه أن يسلم، فوعَده إبراهيم بالاستغفار له رجاء إسلامه.

لَا عُقُوبَةَ بِغَيْرِ نَصّ

١١٥- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾

والذين استغفروا لأقربائهم المشركين قبل نزول الآية السابقة ندموا وخَشوْا أن يصيبهم شيء بسبب استغفارهم للمشركين، فبيَّن الله سبحانه أنه لا عقوبة بغير نص، ولا جريمة قبل بيان الحكم.

والمعنى: أن الله عذَرهم؛ لأنه لا يؤاخذ قومًا فيكتبهم ضُلَّالًا ، إلا بعد أن يبيِّن لهم أنَّ ما فعلوه معصية، ومن ثَمَّ فهو سبحانه لا يؤاخذ المستغفرين للمشركين قبل ورود النهي عن ذلك ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ أي: يعاقبهم ويؤاخذهم بسبب ضلالهم وبعدهم عن الحق ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام، أي: بعد أن مضى عليهم بالهداية والتوفيق، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ الله به، وما يحتاجون إليه من أصول الدين وفروعه.

ومن هداه الله للإسلام يدخل في دائرة الضلال حين يقْدم على ما نهى الله عنه، أو

(١) يُنظَر الحديث في البخاري عن أبي هريرة برقم (٣٣٥٠، ٤٧٦٨، ٤٧٦٩) و الطبري (١٤/ ٥٢١).

يترك ما أمر الله به.

أي: أن الله تعالى لا يؤاخذ عباده الذين هداهم للإسلام، إلا بعد بيان ما يجب عليهم فعله أو تركه، وقبل ذلك فلا عقوبة ولا مؤاخذة، وما كان الله ليؤاخذكم على ما فعلتم قبل أن ينزل النهي عنه، ويبيِّن الله لكم طريق الهداية والتقوى، فمن تركه عوقب، ومن فعله أثيب، وإذا من الله على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الطريق المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه ببيان جميع ما يحتاجونه، ولا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم، وفي هذا دليل على كمال رحمته بعباده.

وإذا بين الله لعباده ما يتقون به فلم يقبلوا، عاقبهم بالإضلال، جزاء لهم على ردهم الحق.

قال الضحاك: وما كان الله ليعذب قومًا حتى يبيِّن لهم ما يأتون ويذرون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فقد أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبيَّن لكم ما به تنتفعون، وأقام الحجة عليكم بالبلاغ. قال تعالى:

١١٦- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾

ولمَّا قطع الله العلاقة الإيمانية بين المسلمين وغيرهم، وأوجب عليهم التبرُّء من عقيدتهم، وعدم الاستغفار لهم، بيَّن ﷻ أنه مالك كل موجود، ومتولي أمره، فلا ولاية لهم ولا ناصر، إلا من الله تعالى.

ولذا: فقد ختم الله هذه الآيات ببيان أنه سبحانه المالك لكل شيء، لا شريك له في خلقه، ولا في تدبير شؤونهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وما فيهما وما بينهما، لا شريك له في الخلق، والتدبير، والعبادة، والتشريع ﴿يُحۡيِۦ﴾ من يشاء ﴿وَيُمِيتُۚ﴾ من يشاء، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، وليس لكم غير الله من يتولى أموركم، ولا ينصركم على عدوكم.

وفي هذا تحريض وحث لعباده على قتال الكفار والمنافقين، وأن يثقوا بنصر الله لهم ولا يرهبوا أعداءهم.

تَوْبَةُ اللَّهِ عَمَّنْ تَخَلَّفَ عَنِ الغَزْوِ يَوْمَ تَبُوكَ

١١٧- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ[١] مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ[٢] قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ[٣] رَّحِيمٌ﴾

ثم بيَّن سبحانه فضْله على عباده بتوبته عليهم من الهفَوات والزلات التي حدثت من بعضهم حال الاستعداد لغزوة تبوك، فقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾.

والتوبة من الله: رجوع بالعبد من حالة إلى ما هو أرفع منها، أي: أن الله تعالى وفَّق نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه إلى الإنابة إليه وطاعته.

والتوبة في الأصل: هي التجاوز والصفح، وذِكْرُ النبي ﷺ في أول الأمر من باب افتتاح الكلام والتبرك، وقد غفر الله لنبيه ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك فإن الله تعالى يقول له: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

ويجوز أن تكون هذه التوبة عائدة إلى قوله تعالى: في بداية الحديث عن المنافقين، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] أي: تاب الله على نبيه من إذنه لهم في التخلف، وهذا من باب ترك الأولى والأفضل في الإذن لهم.

والتوبة تطلق أحيانًا، ويراد بها: أن الله تعالى قد عفا عن العبد، وأراد منه اليسير من العمل، سواءً أكان هناك ذنب أم لا، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠] وليس هناك ذنب ولا توبة.

أما توبة الله على المهاجرين والأنصار، فلأجل ما وقع من بعضهم من الميل إلى الزاحة، وعدم الخروج للجهاد، فقد تاب الله عليهم من التباطؤ والتثاقل عن القتال، فهي توبة من التقصير إلى الطاعة.

---

(١) قرأ جعفر بضم السين من (العسُرة)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

(٢) قرأ حفص وحمزة (يزيغ) بياء التذكير، واسم كاد ضمير الشأن وجملة (يزيغ قلوب) خبر كان، وقرأ الباقون بتاء التأنيث، وجاز تأنيث الفعل وتذكيره؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

(٣) قرأ أبو عمرو، وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، بقصر الهمزة من (رءوف) على وزن (فعُل)والباقون بمدها، على وزن (فعول).

وهذه التوبة من الذين تبعوه في غزوة تبوك عن طواعية واختيار، وإخلاص لله ورسوله؛ طاعة في الغزو ونصرة في الدين، وكانوا ثلاثين ألفًا بين راكب وماشٍ، وكان الوقت عسيرًا في ضيق اليد وشدة القيظ، ولذا: سمي جيش العسرة، وساعة العسرة.

تاب الله عليهم جميعًا وعفا عنهم، وعَلِمَ صدق توبتهم، فشرَّفهم بقبولها وأدامها عليهم، ورغَّبهم في تجديدها والاستمرار عليها، من بعدما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، فيميلون إلى الدَّعة والسكون، بسبب الشدة والمشقة التي نالت بعضهم، لكن الله ثبَّتهم وقوَّاهم، فصبروا واحتسبوا، وندموا على ما خطر بقلوب بعضهم فتاب عليهم.

ولما كانت الآية مشتملة على فريقين من الناس: فريق تبع النبي ﷺ طواعية ورغبة فيما عند الله من مثوبة، وفريق تبعه بعدما كادت قلوبهم تزيغ عن الحق،

وزيغ القلب: انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كُفْرًا، وإن كان انحراف في الشرائع والفروع، فهو بحسب تلك الشريعة إن كان مبتدعًا أو مقصرًا. وهؤلاء قوم أخلدوا إلى الراحة، ولكن الله ثبتهم وقوّاهم، فتاب عليهم.

لذا: كرر سبحانه لفظ التوبة في الآية؛ ليفيد أنه تعالى تاب على الفريق الأول توبة مطلقة، وتاب على الفريق الآخر بعدما كاد يميل إلى التخلف عن الجهاد.

﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن رحمته تعالى بهم أن منَّ عليهم بالتوبة، وقَبِلَها منهم، وثبَّتهم عليها، وهو سبحانه رفيق بعباده لا يكلفهم ما لا يطيقون.

سبب النزول: وقد صحت الأحاديث **بأسباب النزول** لهذه الآية، وأنها تتعلق بتوبة الله تعالى على من تخلف عن الغزو يوم تبوك:

١- أخرج البخاري وغيره في آخر حديث كعب بن مالك: . . . إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: «**أمسك بعض مالك فهو خير لك**»[١].

٢- وقال في سياق آخر: . . . فوالله ما أعلم أحدًا أبلاه الله في صدق الحديث أحسن

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٦) وفي حديث طويل عند مسلم برقم (٢٧٦٩).

مما أبلاني، ما تعمدتُ -منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا- كذبًا، وأنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[(١)].

٣- وقال أيضًا: لم أتخلف عن النبي ﷺ في غزوة إلا بدرًا، حتى كانت غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها، وأذَّن بالناس بالرحيل، فذكر الحديث بطوله، وفيه: فأنزل الله توبتنا ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال: وفينا نزلت ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[(٢)].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رِقابنا ستنقطع، حتى إنْ كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع، حتى إنَّ الرجل لينحر بعيره فيعصر فرْثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله ﷻ قد عوَّدك في الدعاء خيرًا، فادع لنا، فقال: **«أتحب ذلك»**؟ قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[(٣)].

وقد كانت غزوة تبوك في وقت شدة وجدْب، وحر شديد، وعُسْر ومشقة، **عُسْر في الظَّهْر**، أي: في وسائل النقل، فكان العشرة من الرجال يتناوبون الركوب على بعير واحد، يركب كل واحد منهم ساعة، ويمشي بقية المدة، **وعُسْر في الطعام والزاد**؛ لقد تزوَّد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ببعض الشعير المتغير، والتمر الذي لا يخلو من السوس، وكان الرجلان يقتسمان التمرة الواحدة بينهما، وربما مصَّ العدد من الرجال التمرة الواحدة، يمصُّ كل واحد منهم مصَّة، ويشرب فوقها الماء، حتى يأتوا على النواة.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٧).

(٣) الطبري (١٤/ ٥٣٩) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٣١) وخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٤) وقال: رواه البزار والطبراني في «الأوسط» ورجال البزار ثقات ورواه ابن خزيمة وابن حبان في الإحسان برقم (١٣٨٣) وفي الموارد برقم (١٧٠٧) والحاكم وصححه (١/ ١٥٩) ووافقه الذهبي، والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (١٦٨) و«كشف الأستار» للبزار (١٨٤١) قال محقق ابن حبان: إسناده صحيح.

وكان في وقت غزوة تبوك **عُسْر في الماء**؛ فكانوا ينحرون البعير ليعصروا فَرْثَه (الكرشة) ويَبُلُّوا ريقهم بما يَخْرُج منها.

أمثلة من التبرع لغزوة تبوك: ونظرًا لأن الجنْدي كان يجهز نفسه بالسلاح والطعام وغيرهما، ولم تكن الدولة تتولى ذلك، فقد دعا النبي ﷺ أصحابه إلى النفقة في سبيل الله للخروج لهذه الغزوة البعيدة نوعًا ما عن المدينة:

١- فجاء أبو بكر بماله كله، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: **«ماذا خلَّفت لأولادك؟»** قال: خلَّفتُ لهم الله ورسوله، ولي عند الله مزيد.

٢- وجاء عمر بنصف ماله، فقال له النبي ﷺ: **«ماذا خلَّفت لأولادك يا عمر؟»** قال: خلَّفتُ لهم نصف مالي، ولله عندي مزيد.

٣- وتصدق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: ما لي إلا ثمانية آلاف، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها، فقال ﷺ: **«بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت»**.

٤- وجهَّز عثمان ثلاث مئة من الإبل بأقتابها وأحلاسها وقال: عليَّ مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها، وأخذ يضع أموالًا في حجر النبي عليه الصلاة والسلام حتى قال ﷺ:

«اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض، ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»[1].

٥- وجاء بعضهم بما يملك كصاع من تمر ونحوه.

وكان بعض الصحابة يريد الخروج مع النبي ﷺ، ولكنه لم يجد السلاح، ولم يجد الطعام، أو المتاع الذي يتزوَّد به، ومن هؤلاء البكَّاؤون السبعة.

ذهب أحدهم إلى المسجد وهو (علبة بن زيد) وأخذ يصلي متهجدًا من الليل، ثم ظل يبكي بعد الصلاة، ويقول:

اللهم إنك رغَّبتنا في الجهاد، وأمرْتنا بالقتال في سبيلك، ولكني لا أجد السلاح الذي أحمله، ولا أجد الطعام الذي أتزود به.

---

(١) سبق تخريج كل هذا في سورة البقرة عند الآية (٢٦١) وفي هذه السورة أيضًا عند الآية (٧٩).

اللهم إنك تعلم أنني ذهبت إلى رسولك ليحْملَني معه، فلم يجد ما يحملني عليه.

اللهم إني قد تصدقت على كل مسلم لي عنده مظلمة، أو حق في مال، أو جسد، أو عِرْض، تصدقتُ عليه بهذه المظلمة، وتنازلت له بحقي عنده.

لم يجد الرجل ما يفعله من الخير، لِقِصَرٍ في ذات يده، إلا أن يتنازل عن حقوقه التي عند الناس له.

فلما أصبح وهو بين الناس قال عليه الصلاة والسلام: **«أين المتصدق هذه الليلة؟ فلما لم يقم أحد، قال: أين المتصدق؟فليقم، فقام الرجل، وذكر قصته، فقال عليه الصلاة والسلام: لقد قُبِلتْ صدقتُك، وكُتِبتْ في الزكاة المقبولة»**.

وبعض الصحابة كان قد تأخر بعض الشيء في الخروج مع رسول الله ﷺ بسبب إعداد نفسه للسفر ونحو ذلك، ولما ذُكِروا للنبي عليه الصلاة والسلام قال: إن يكن فيهم خيرًا فسيُلحقهم الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منهم.

أبو ذر وأبو خيثمة يلحقان برسول الله ﷺ:

وكان ممن تأخر عن الخروج للغزو أبو ذر، فقد أبطأ به بعيره،فلما لم يجد بعيره صالحًا للسفر به، أخذ متاعه وحمله على ظهره، ولحق بالنبي ﷺ ماشيًا يتبع أَثَره، وبينما هو في الطريق، نزل الرسول ﷺ منزلًا يستريح فيه بعض الوقت، فنظر أحد القوم، فوجد رجلًا قد حمل متاعه على ظهره، يمشي على الطريق وحده، فقال: يا رسول الله، هذا رجل يمشي في الطريق، فقال عليه الصلاة والسلام: **«كن أبا ذر»** أي: اللهم اجعله أبا ذر، أو أن هذا هو أبو ذر،وكانت رؤيته لم تتَّضح بعد، فلما اقترب منهم وتأملوه وَجدُوه أبا ذر، فقال عليه الصلاة والسلام: **«يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده»**.

وهذا صحابي آخر، لقبُه أبو خيثمة، رجل من الأنصار، كان له حديقة، فيها عريشان، وعنده امرأتان، لكل امرأة منهما عريش، ولم يكن قد خرج مع النبي عليه الصلاة والسلام، فلما ذهب إلى حديقته، وقام على باب العريش، وجد المرأتين كلتيهما قد أعدتا له الطعام والشراب، ورشَّتا له المكان، وأعدَّتا له الظل والماء البارد، والمكان المهيَّأ، وتجمَّلتا لاستقباله، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، ثم قال: أبو خيثمة في ظل

بارد، وماء بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، ورسول الله في الشمس والريح والحرب! ما هذا بالنصَف، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيِّئا لي زادًا، ففعلتا، ثم ركب بعيره وارتحل، ولحق بالنبي عليه الصلاة والسلام حتى أدركه بتبوك، فلما دنا منه قال الناس: هذا راكب على الطريق مُقبل، فقال رسول الله ﷺ: **«كن أبا خيثمة»** أي: اللهم اجعله أبا خيثمة، فلما اقترب وتأملوه، قالوا: هو والله أبو خيثمة، ثم أناخ راحلته وسلَّم على النبي ﷺ وأخبره الخبر، فدعا له بخير(١).

والذين تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ كانوا أصنافًا: منهم المنافقون الذين تخلَّفوا شكًّا ونفاقًا وارتيابًا وهم الذين قال عنهم القرآن: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة].

وهناك نوع آخر خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، تخلَّفوا ليس من باب الشك والنفاق، وإنما من باب إيثار الراحة في وقت شدة الحر، وكان منهم أبو لبابة وعشرة من الصحابة ممن شهدوا بدرًا، ولهم سوابق فاضلة في الإسلام، ولما جاء النبي ﷺ اعتذروا إليه، وتابوا إلى الله وقبل الله توبتهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة].

الثَّلاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفُوا

١١٨- ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

وهناك ثلاثة من الصحابة لهم حالة خاصة من بين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فهم غير الذين قال الله فيهم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] وغير الذين قال فيهم: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩٠]

---

(١) تُنظَر القصة في البخاري (٢٩٥٠): «المسند» (٢٧١٧٥) و«مصنف عبد الرزاق» (٩٧٤٤،١٦٣٩٥) والترمذي (٣١٠٢) وابن ماجه (١٣٩٣) وابن حبان (٣٣٧٠) وأبي داود (٢٦٣٧) والنسائي في «الكبرى» (٥٦١٩) و«تفسير الطبري» (١٧٤٤٩) وغيرهم من طرق متعددة.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦]

وهؤلاء الثلاثة لم يقض الله فيهم، ولم يَعْذُرْهم رسول الله ﷺ ولم يُقَنِّطهم من التوبة، كما حدث للمنافقين، فمعنى **تخليفهم**: إرجاء أمرهم في قبول عذرهم.

فقد كانوا في حالة يُسْر وقوة حين خرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى تبوك، ولم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها بعد غزوة بدر إلا في غزوة تبوك، ولم يكن لهم عذر في التخلف، ولم يستأذنوا؛ لأنه لم يكن في نيتهم التخلف عن الغزو.

ولذا: فقد أعدَّ كل منهم راحلتين للسفر، ولكنهم تأخروا في تجهيز أنفسهم حتى خرج رسول الله ﷺ ويئسوا من اللحاق به فبقوا في المدينة، حتى رجع الرسول ﷺ من تبوك، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين، ثم جلس للناس فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون، فيقبل منهم علانيتهم ويستغفر لهم.

ولم يُرِد هؤلاء الثلاثة أن يكْذِبوا، وأبَوْا إلا الصدق، وآثروا عدم الاعتذار خوفًا من الكذب.

فلما جلس عليه الصلاة والسلام في المسجد بعد العودة من الغزوة، وأقبل عليه نحو ثلاثة وثمانين رجلًا ممن جاؤوا يذكرون أعذارهم للنبي عليه الصلاة والسلام.

وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

قال كعب: فلما رآني رسول الله ﷺ تبسَّم تبسُّم المغْضب، ثم قال: «**ما خلَّفك يا كعب، ألم تكن قد اشتريتَ ظهرك؟**» قال: والله يا رسول الله، لم يكن هناك أحد أقوى مني ولا أيسر حين تخلفت، وأنا رجل أُعطيت فصاحة وبلاغة في القول، ولكني أخشى أن أحدثك بحديث كَذِب، ترضى به عني ويَسْخَط الله عليَّ، فآثرت العُقْبى.

قال عليه الصلاة والسلام: «**أمَّا هذا فقد صدق، فَقُم حتى يقضي الله فيك**».

وسأل: «**إن كان له نظراء؟**»، فذكروا له رجلين صالحين ممن شهدا بدرًا: مُرارة، وهلال.

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بمقاطعة هؤلاء الثلاثة فلا يكلمهم أحد، قال كعب: فكنا نطوف بالأسواق، ونصلي في المساجد، ونُلقي السلام على الناس، فلا يرد علينا أحد.

وبينما هو كذلك؛ إذ جاءه خطاب من مِلِك غسَّان، يقول له: بلَغَنا أن صاحبك، أي:

محمدًا عليه الصلاة والسلام قد جفاك، فالْحَقْ بنا نُواسك، ولا تقم في ديار لك فيها هوان ومذلة، قال: فقلت وهذا من البلاء الذي ابتلاني به ربي، فوجَّهتُ وجهي نحو التنور، وألقيت بالكتاب في النار وأحرقتُه، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت على سعتها، وضاقت عليهم أنفسهم.

يقول كعب: كنت أسلِّم على رسول الله ﷺ بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه برد السلام، أم لا، وأسارقه النظر فلا يلتفت إليَّ.

يقول كعب: وتنكَّرتْ لي الأرض، فما هي بالأرض التي نعرف، وتنكَّر الناس لنا فاجتنبونا، كأنهم لا يعرفوننا.

قال: فلما طال ذلك الهجر، مشيْتُ حتى إني تسوَّرتُ حائط أبي قتادة، وهو ابن عمه، وأحبُّ الناس إليه، قال: فنزلت عليه، فسلمت، والله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أُناشدك الله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت فناشدته الثانية والثالثة، فقال: الله ورسوله أعلم، قال: ففاضت عيناي، وخرجت من عنده.

فلما مضى أربعون ليلة من الخمسين، أرسل عليه الصلاة والسلام يأمر هؤلاء الثلاثة باعتزال زوجاتهم، قال كعب: أطلِّقها وأفارقها، قال عليه الصلاة والسلام: لا تفعل، ولكن لا تقربها، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال إلى النبي ﷺ وقالت: إنه شيخ كبير، ليس له خادم فهل أخدمه؟ قال ﷺ: ولكن لا يقربنَّك، قالت: والله ما به من حركة إلى شيء.

قال كعب: ولم يكن هَمِّي إلا أن أموت، وأنا على هذه الحالة في منزلة المنافق، فلا يصلي عليَّ رسول الله ﷺ كما لم يصلِّ على المنافقين، أو أن يموت رسول الله ﷺ قبل أن يتوب الله عليَّ.

وكانت توبة هؤلاء الثلاثة، قد أرجأها الله تعالى خمسين يومًا عن غيرهم ممن تخلفوا ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦].

قال كعب: بينما أنا بعد صلاة صبح يوم خمسين، وإذ بي أسمع صوتًا يصيح من فوق جبل سَلْع: يا كعب، أبشر فقد تاب الله عليك، وهذا الصوت كان أسرع من الفرس الذي

ركبه أحدهم؛ ليبشره بقبول توبته.

قال: فخررت ساجدًا، شكرًا لله سبحانه الذي قبل توبتي، فلما وصل إليَّ صاحب الصوت نزعتُ ثوبَيَّ وأعطيتُهما له ببشارته لي أن الله قد تاب عليَّ، قال: والله لا أملك غيرهما، واستعرت ثوبين ولبستهما، وجئت رسول الله ﷺ فلما رآني تهلل وجهه من الفرح، وهو يقول: «**يا كعب، أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك**».

قال كعب: يا رسول الله، لقد نجاني الله بالصدق، ولئن عشت ما بقيت، لا أحدث حديثًا إلا وهو صِدْق، ثم قال يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله، فقال: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**»[1].

قال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام، أَعْظَمُ في نفسي من صِدْقِ رسول الله ﷺ ألا أكون كَذبتُه فأهلِك كما هلك الذين كذبوا.

ومعنى الآية: وكذلك تاب الله على الثلاثة الذين خُلِّفوا من الأنصار، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ وحزنوا حزنًا شديدًا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسبب ما هم فيه من الغم والندم، على سعتها ورحابتها، وضاقت عليهم أنفسهم لما أصابهم من النكد والهم، وأيقنوا ألا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ حيث وفقهم إلى الطاعة والرجوع إلى ما يرضي الله ورسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ على عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم. قال تعالى.

١١٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

ونظرًا لأن قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا اشتملت على الصدق، بعد ذِكْر من كذَب واختلق المعاذير، وذِكْر من خرج مجاهدًا، ولم يتخلف، فقد أمر الله المؤمنين جميعًا بالصدق في القول والعمل، ففيه النجاة من النار، والفوز بالجنة.

فيا من أقررتم وصدَّقتم بالله ربًّا، واقتديتم برسوله، راقبوا الله واحذروه في كل ما

(١) تُنظَر قصة الثلاثة الذين خلفوا في: في البخاري مختصرًا (٢٧٥٧، ٢٩٥٠، ٣٠٨٨) ومسلم (٤/ ٢١٢١) برقم (٧١٦، ٢٧٦٩) ومسند أحمد (٣/ ٤٥٦) برقم (٢٧١٧٥) و«فتح الباري» (٨/ ١٩٣) والطبري (٤/ ٥٤٤).

تفعلون وما تتركون، وكونوا صادقين في أيمانكم وعهودكم، وأقوالكم وأفعالكم وكل شأن من شؤونكم؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب؛ فإنه يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، قال تعالى ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقد خُتمت الآيات بهذه الآية؛ لأن أحداث الغزوة:

١- تشتمل على ذِكْر قوم اتقوا الله وصدَقوا في إيمانهم، وجهادهم، فرضي الله عنهم.

٢- وتشتمل على ذِكْر قوم كذبوا في تخلفهم، واختلقوا الأعذار، وحلفوا كذبًا فغضب الله عليهم.

٣- وتشتمل على ذِكْر قوم تخلَّفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر، فتاب الله عليهم وكانوا في عداد الصادقين.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قلنا: يا نبي الله، مَنْ خير الناس؟ قال: «**ذو القلب المخموم، واللسان الصادق**»، قلنا: قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟ قال: «**التقيُّ النقيُّ الذي لا إثم فيه، ولا بغي ولا غل ولا حسد**» قلنا: يا رسول الله، فمَنْ على أثره؟ قال: «**الذي يشْنأ -أي: يبغض- الدنيا ويحب الآخرة**» قلنا: ما نعرف هذا فينا إلا رافع، مولى رسول الله ﷺ فمَنْ على أثره؟ قال: «**مؤمن في حُسْن خُلق**» قلنا: أما هذه ففينا[1].

لِلقَاعِدِ أَجْرُ المُجَاهِدِ لَوْ شَارَكَهُ فِي النِّيَّةِ

١٢٠- ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ[2] مَوْطِئًا[3] يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

(١) صحيح «سنن ابن ماجه» (٣٣٩٧) والحكيم الترمذي (٢/ ١٨) والبيهقي (٦٦٠٤).

(٢) قرأ أبو جعفر (ولايطُون) بحذف الهمزة وضم الطاء، وقرأ الباقون بفتح الطاء وإثبات الهمزة، ولحمزة عند الوقف عليها وجهان: الأول: كأبي جعفر، والثاني: تسهيل الهمزة بَيْنَ بَيْنَ.

(٣) قرأ أبو جعفر بخلف عنه بإبدال الهمزة ياء من (موطئا) ومثله حمزة عند الوقف، وباقي القراء بإثبات الهمزة وصلًا ووقفًا، ومعهم أبو جعفر في وجهه الآخر.

هذه الآية فيها معاتبة للمؤمنين من أهل المدينة، وقبائل العرب المجاورين لها على تخلفهم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وينطبق هذا على جهاد الدفع والطلب، فلا يصح ولا ينبغي لأحد أن يتخلف عن القتال مع قائد المسلمين، ويجب عليه أن يكره له ما يكرهه لنفسه، بل يجب عليهم أن يفدونه بأنفسهم وأموالهم، وقد بيَّن الله سبحانه أن الجهاد في سبيل الله في النفير العام يكون فرض عين، حين يخرج الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته بنفسه.

وحين يخرج الحاكم المسلم بعد وفاة الرسول ﷺ للقتال، ويستنفر الناس جميعًا للجهاد؛ بسبب عدوان وقع على بلد من بلاد المسلمين، ففي هذه الحالة لا يجوز التخلف عن الجهاد، ويجب إجابة داعي الجهاد بالنفس والمال، بالنسبة لمن تتوافر فيه الشروط وفق تنظيمات الدول العسكرية، وذلك بعد أن أصبح هناك وزارات للدفاع تشمل قوات جوية وبرية وبحرية، فلم يعد الجهاد فرديًّا بعد أن ازداد الناس، واتسعت الرقعة الإسلامية، وكثُر أعداد المسلمين.

ولا ينبغي التخلف عن جهاد العدو، سواء أكان القتال لدفع العدو وردعه، أم كان لنشر الدعوة، ومنع الوقوف في وجهها ووصولها للناس، أو منع صدِّهم عنها، وهذا النفير يشمل القريب والبعيد من المسلمين في البلد المعتدَى عليها، فلا ينبغي أن يتخلف منهم أحد ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ من سكان البادية والقبائل المجاورة لا ينبغي لهم ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ وَيبْقوا في دُورِهم وأهليهم ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: ألا يؤثروا أنفسهم بالراحة، ويفضِّلوها على رسول الله ﷺ، فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، بل عليهم أن يُفْدوه بالمُهَج والأرواح ولا يُفْتَنُوا بأنفسهم، ويؤثروها على قائد المعركة الذي جاد بنفسه وماله في سبيل الله.

ثم ذكر سبحانه الثواب الحامل للمجاهدين على الخروج للجهاد فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة تجعل البطون خامصة، أي: ضامرة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لجهاد أعدائه، وإعلاء كلمة الحق ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: يَنزلون منزلًا يُرْهب العدو، ويؤذيه، ويغيظه، ويزعجه سواء بأرجلهم أم على الدبابات، أو الطائرات، وغيرها ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ يصيبون منه قتلى، أو

أسرى، أو متاعًا ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ لأن هذه الآثار ناشئة عن أعمالهم.

وهكذا أمر الله المسلمين أن يصبروا على البأساء والضراء، وأن يكابدوا الأهوال والشدائد في جهاد العدو برغبة وجدٍّ ونشاط واغتباط، ولهم بكل ذلك أجر ومثوبة أعدها الله لهم؛ حتى لا يحرموا من فضل الجهاد، ومن الثواب والأجر عليه، فما من ظمأ يصيبهم، أو تعب، أو مشقة تلحقهم، أو مجاعة تحصل لهم، أو أرض ينزلونها بأنفسهم وعُدَّتهم، من أرض العدو، فيُغضِبُونه ويذلُّونه، أو نفقة ينفقونها في سبيل الله، قلَّت أو كثُرت، أو وادٍ يقطعونه في السير إلى العدو، أو غير ذلك، إلا كتب الله لهم بكل عمل من الأعمال السابقة عملًا صالحًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل يثيبهم، ويجازيهم عليه:

أحاديث في معنى الآية:

١- ولذلك: فإن النبي ﷺ يقول في حديث أبي هريرة ﷺ: **«لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا»**[(١)].

أي: لولا أن يكون في هذا مشقة على الأمة لشاركتُ في كل سرية، وخرجتُ مع كل جماعة تقاتل في سبيل الله.

٢- في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لولا أن رجالًا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفتُ عن سريَّة تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لوددت أن أُقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أُقتل، ثم أحيا، ثم أُقتل، ثم أحيا، ثم أُقتل»**[(٢)].

٣- وعن جابر ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: **«إن بالمدينة لرجالًا ما سِرْتُم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض»**[(٣)].

---

(١) جزء من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» (٣٦، ٢٧٨٧، ٥٥٣٣) وفي «صحيح مسلم» جزء من حديث (١٨٧٦) وفيه اللفظ المذكور.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٩٧) وهذا لفظه و«صحيح مسلم» برقم (١٨٧٦) مطولًا.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩١١).

٤- وعن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: **«من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»**[١].

٥- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من طلب الشهادة صادقًا أُعطيها ولو لم تصبه»**[٢]. قال تعالى:

١٢١- ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

أي: ولا يتصدق المتصدقون بصدقة صغيرة؛ كالتمرة، ونحوها، ولا نفقة كبيرة كما فعل عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهما، ممن تصدَّق بالكثير ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في سبيل الله، وابتغاء وجهه ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ تمرة فما فوقها، مهما قلَّت هذه النفقة أو كثُرت، ففي الحديث: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة»**[٣].

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ من الأودية، أو طريقًا من الطرق في ذهابهم إلى العدو.

والوادي: ما كان بين جبلين سواء أكان فيه ماء أم لا، فلا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضًا ذهابًا وإيابًا، ولا يعبُرون بحرًا من البحار، أو يرتفعون فوق قمة جبل، أو يختبئون في نفق أو مغارة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي: كتب الله لهم أجْرَ آثارهم وخُطُواتهم في غُدوِّهم ورواحهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يُعطَوْن أفضل الأجر وأعظم المثوبة على أعمالهم الصالحة؛ إذا أخلصوا لله فيها، واحتسبوا لما يصيبهم في سبيل الله، ونصحوا لله والرسول.

أحاديث في معنى الآية:

١- كما في الحديث عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: **«رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما**

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٩٠٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٩٠٨).

(٣) جزء من حديث عدي بن حاتم في «صحيح مسلم» برقم (١٠١٦) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥٣٩، ٦٥٤٠).

عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»[١].

٢- وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«تضمَّن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا برسلي، فهو عليَّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده، ما من كَلْم يُكْلَمُ في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم، لونه دم، وريحه مسك، والذي نفس محمد بيده، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده: لوددت أن أغزو في سبيل الله فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل»**[٢].

٣- وفي البخاري عن عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ قال: **«ما اغبرَّت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار»**[٣].

٤- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من مات ولم يغزُ، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من نفاق»**[٤].

النَّفِيرُ الخَاصُّ

١٢٢- ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ[٥] مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

أي لا ينبغي أن يخرج المؤمنون جميعًا لقتال عدوهم، فهلَّا خرج من كل بلد طائفة تحصل بها الكفاية وتبقى طائفة أخرى ليتفقهوا في الدين، ويتعلّمو العلم الشرعي، ليُعلّموا قومهم أسرار الشريعة إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يحذرون عدوهم ويخافون وقائع الدهور.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٩٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٨١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٨٧٦) و«صحيح البخاري» برقم (٢٧٨٧، ٥٥٣٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٨١١) وبنحوه برقم (٩٠٧).

(٤) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٩١٠).

(٥) لا خلاف بين القراء في تفخيم راء (فرقة)؛ لوقوع حرف الاستعلاء بعدها مفتوحًا.

قال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يغزوا جميعا مع نبيه، وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم[١].

سبب النزول:

١- وجاء في سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لمَّا بالغ في الكشف عن عيوب المنافقين، وفضَحهم في التخلف عن غزوة تبوك، قال المسلمون: والله لا نتخلف عن رسول الله ﷺ، ولا عن سرية بعثها، فلما قدم ﷺ المدينة من تبوك وبعَث السرايا أراد المسلمون أن ينفروا جميعًا للغزو، وأن يتركوا النبي ﷺ وحده، فنزلت هذه الآية[٢].

٢- وذلك أن أهل البادية لما سمعوا قول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ تحولوا جميعًا إلى المدينة مخافة أن يكونوا مذنبين في التخلف عنه، وقال بعضهم: هلك أهل البوادي، فكانت هذه الآية؛ لإقامة العذر لهم[٣].

٣- وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا، ويتركوا النبي وحده، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن، تعلّمه القاعدون من النبي ﷺ قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد عَلِمْناه، فتمكُث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى؛ ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلّموا السرايا إذا رجعتْ إليهم.

وهذه الآية من النفير الخاص في حالة إرسال السرايا؛ لدفع العدوان، أو نشر الدعوة، وهو يمثل حالات الجهاد التي هي فرض كفاية على الأمة في كل زمان ومكان؛ لرد العدوان اليسير الذي لا يتطلب النفير العام مثل: إزالة العوائق اليسيرة التي تكون في مواجهة الدعوة، أو مساعدة الأقليات المسلمة في دفع العدوان عنهم وشدِّ أزْرهم.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٣٦).

(٢) حاشية الجمل على «الجلالين» (٢/ ٣٢٩) والواحدي (٢٢٢) والسيوطي (١٥٢) و«زاد المسير» (٣/ ٥١٦).

(٣) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٩٦).

ففي مثل هذه الحالات يخرج أعداد من المجاهدين لقتال العدو، وتبقى أعداد أخرى لرعاية شؤون البلاد ومصالح العباد، وللتفقه في الدين وطلب العلم.

ولما فضحت الآيات السابقة المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك، عزم المؤمنون على عدم التخلف عن داعي الجهاد بعد ذلك في أية غزوة أو سرية، فكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أرسل سرية خرج المسلمون جميعًا للجهاد، من أهل المدينة وأهل البوادي وتزاحموا في المدينة؛ ليكونوا رهن إشارة النبي ﷺ للخروج، خوفًا مما حدث في غزوة تبوك، فتكون النتيجة أنهم يَخْرُجون للجهاد، وينقطعون جميعًا عن التفقه في الدين، فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ أي: وما ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا لقتال عدوهم دون أن يبقى منهم أحد، كما أنه لا ينبغي لهم أن يقعدوا جميعًا عن القتال، حتى يجمع المسلمون بين مصلحة الدفاع عن الدين بالحجة والبرهان ومصلحة الدفاع عنه بالسيف والسنان.

فهلّا خرج للجهاد من كل فرقة منهم جماعة تحصل بهم الكفاية ويؤدون المهمة، وتبقى طائفة أخرى تتفقه في الدين؟

والفِرقة أكثر عددًا من الطائفة؛ وذلك لكي تتفقه الجماعة الباقية في الدين والعلم بما أنزل الله على رسوله ﷺ فإذا رجعت الطائفة التي خرجت للجهاد، فإنها تتعلم وتتفقه من الجماعة القاعدة، فيعلِّمونهم ويخوفونهم عذاب الله، ويبشرونهم جنته، حتى يمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

فعلى المسلمين في كل زمان ومكان أن ينقسموا إلى قسمين: قسم يخرج للجهاد، وقسم يبقَى لطلب العلم، وحفظ الأمن الداخلي، ورعاية شؤون العباد.

وعلى هذا فضمير ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ يعود على ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في أول الآية، فالطائفة التي لم تنفر للجهاد هي التي تتفقه في الدين.

وكلمة ﴿نَفَرَ﴾ تشمل النفْر للجهاد، وتشمل النفْر لطلب العلم والتفقه في الدين.

وعلى هذا فيصح أن يكون الضمير في كلمة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ عائدًا على ﴿طَآئِفَةٌ﴾ فيكون المراد أيضًا: أن الطائفة التي لم تخرج للجهاد هي التي تتفقه في الدين، فالمؤدَّى واحد.

ولسنا مع القول بأن الطائفة التي خرجت للغزو هي التي تتفقه في الدين كما قال بعضهم[١].

وفي الحديث عن معاوية أن رسول الله ﷺ قال: **«من يُرِد الله به خيرًا يفقهه في الدين»**[٢].

و**«خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»**.

و**«طلب العلم فريضة على كل مسلم»**.

و**«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»**.

و**«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»**.

ويؤخذ من الآية وجوب طلب العلم والتفقه في الدين، وتعليم الناس إياه، ويؤخذ أيضًا أن الجهاد فرض كفاية في الأحوال العادية، وأن تركه فرض متعين على طائفة تكفي لتحصيل المقصد الشرعي منه لتعلُّم العلم وتعليمه.

الشِّدَّةُ فِي قِتَالِ العَدُوِّ لَا تَعْنِي الهَمَجِيَّةَ

١٢٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

هذه الآية موجَّهة للمؤمنين توجب عليهم حمل لواء الإسلام، ونشر الدعوة في أصقاع العالم، بعد -وفاة الرسول ﷺ- بالحكمة، والموعظة الحسنة، وجدال المعاندين بالحسنى، فإن حالوا بيننا وبين الدعوة وجب أخذهم بالشدة والغلظة، ولا يُكره الإسلام أحدًا على الدخول فيه، ولكنه يأمر بدفع الصائل ورد العدوان، ومقاتلة من يصد عن سبيل الله، ويحول دون وصول الدعوة إلى الناس، ومن توجيهات الإسلام ألَّا نتمنى لقاء العدو، وأن نسأل الله العفو والسلامة، فإن كان ولا بدَّ من لقائه فلنصبر ولنحتسب، فالجنة تحت ظلال السيوف، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا»**[٣].

---

(١) وهو الأستاذ سيد قطب ﷺ في كتابه «في ظلال القرآن» عند تفسير الآية.

(٢) من حديث معاوية بن أبي سفيان في «صحيح مسلم» برقم (١٠٣٧) والبخاري برقم (٧١، ٣١١٦).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٧٤١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٠٢٦) معلقًا.

وعن عبد الله بن أبي أوْفى ﷺ أن رسول الله ﷺ كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ينتظر، حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم فقال: «**يأيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»، ثم قام النبي ﷺ وقال: «**اللهم منزل الكتاب، ومُجْرِيَ السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم**»[1].

الفتوحات الإسلامية: وفي هذا الإطار يأمر الإسلام بقتال الكفار والمشركين المجاورين لنا، الأقرب فالأقرب من الأعداء المحاربين الذين يحولون دون وصول دعوة الإسلام إلى الناس كافة، وذلك بأن تفتح البلاد فتحًا إسلاميًا، الأقرب منها فالذي يليه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ من أعداء الله الذين لم يدخلوا في الإسلام، ولم يتركوا غيرهم للدخول فيه، ولهذا بدأ الرسول ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، وبعد أن دخل سائر أحياء العرب في دين الإسلام، وفُتحت مكة، والمدينة، والطائف، واليمن، واليمامة، وهجَر، وخيبر، وحضرموت، وغيرها من الجزيرة، توجه الرسول ﷺ لغزو الروم في تبوك، فهم الذين يَلُون الجزيرة، وكان ذلك سنة تسع للهجرة.

وفي السنة العاشرة انشغل ﷺ بحجة الوداع، ثم وافتْهُ المنية بعد حجة الوداع بواحد وثمانين يومًا.

وبعد حروب الردة جهَّز أبو بكر الجيوش الإسلامية لحرب الروم والفرس، وتم الأمر على يد عمر بن الخطاب فأرغم أنف كسرى وقيصر، واستولى على الممالك شرقًا وغربًا.

وهكذا كان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عن الجميع، فكانوا كلما علتْ كلمة الله وظهر دينه في بلد انتقلوا إلى ما بعدها، واستمر الأمر كذلك في القرون الثلاثة الأولى.

وهكذا قاتل الرسول قومه المشركين أوَّلًا، ثم انتقل منهم إلى سائر العرب، ثم قاتل أهل الكتاب، وهم بنو قريظة، وبنو النضير، وخيبر، وفدَك، ثم غزا الإسلام الروم في

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٤٢) واللفظ له وانظر: «صحيح البخاري» برقم (٢٨١٨) وغيره والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٥٨٠) و«المسند» (٩١٩٦).

الشام التي فُتحت في عهد الصحابة، ثم العراق، وفارس، ومصر، وأفريقيا، والأندلس، وسائر الأمصار.

ثم وقعت الفتن والأهواء وصار الحكم مُلْكًا عضودًا، فانتقصتْ بلاد الإسلام، ونسأل الله أن يجمع شمل المسلمين، ويجمع كلمتهم، ويوفقهم لطاعته، والعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ؛ حتى يعود للإسلام مجده وترتفع رايته.

وقد أمرنا الله سبحانه ونحن نقاتل أعداء الإسلام أن نكون أشداء عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: وليجد الكفار منكم - أيها المؤمنون - شدة وغلظة في قتالكم لهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] وذلك بهدف تأمين نشر الدعوة فلا شدة ولا غلظة على المسالم منهم الذي لم يتعرض لنا ولا إلى دعوتنا، فهو في أمن وأمان، وهكذا وصف ربنا أصحاب محمد ﷺ في قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] **والشدة**: هي الشجاعة والقوة.

أدب الإسلام في الحروب: وليست هذه الغلظة مجردة من كل قيد وأدب.

١- فآداب الإسلام في الحروب تتمثل في وصية النبي ﷺ، عن بريدة الأسلمي ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال:

«اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغْدِروا ولا تَمْثِلوا ولا تَقْتلوا وليدًا، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرْهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبَوْا أن يتحوَّلُوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حُكْم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أَبَوْا فسلْهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، فإن هم أبَوْا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم.

وإذا حاصَرْتَ أهل حصْن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنْزِلهم على حكم الله، فلا تُنزلهم على حكم الله، ولكن أنْزِلهم على حكمك، فإنك لا تدْري أتُصِيبُ حكم الله أم لا؟»[١].

٢- وعن ابن عمر ﷺ قال: وُجِدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان[٢].

٣- وأرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن معلِّمًا فكانت وصيته له: **«إنك تأتي قومًا من أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»**[٣].

٤- وعن العرباض بن سارية قال: نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر فكان مما قال: **«وإن الله لم يُحل لكم دخول بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرْب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أَعطَوا الذي عليهم»**.

٥- ورُفِع إليه ﷺ صبيٌّ قد قُتل بين الصفوف، بعد إحدى المواقع، فحزن حزنًا شديدًا، فقال بعضهم: ما يُحزنك يا رسول الله، وهم صِبْية للمشركين، فغضب ﷺ وقال ما معناه: (إن هؤلاء على الفطرة، أوَ لستم أبناء المشركين! فإياكم وقتل الأولاد، إياكم وقتل الأولاد) وهكذا سار الخلفاء من بعده.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٣١، ٣) وأخرجه أبو داود برقم (٢٦١٢) والترمذي برقم (١٤٠٨) وفي «العلل الكبير» (٢/ ٦٩٣) والنسائي في «الكبرى» (٨٦٨٠، ٨٥٨٦) وابن أبي شيبة (٩/ ٤٢٤) والبغوي (٢٦٦٨) وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٢٨) و«المسند» (٢٢٩٧٨، ٢٣٠٣٠) والطبراني في «الأوسط» (١٤٥٣) والصغير (٣٤٠).

(٢) أخرجه الشيخان، مسلم برقم (١٧٤٤) والبخاري برقم (٣٠١٤، ٣٠١٥).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩) و«صحيح البخاري» برقم (١٣٩٥، ١٤٩٦، ٢٤٤٨).

٦- روى مالك عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ولا تقتلَنَّ امرأة ولا صبيًّا ولا كبيرًا هرمًا.

٧- وقال زيد بن وهب: أتانا كتاب عمر ﷺ وفيه: لا تغلُوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا، واتقوا الله في الفلاحين.

٨- ومن وصاياه ﷺ: ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا، وتوقَّوْا قتْلهم إذا التقى الزحفان، وعند شنِّ الغارات.

فالغلظة المرادة في الآية هي الشجاعة والقوة والخشونة، وليست الوحشية والهمجية، ولا يقاتل الإسلام إلا من يقاتل أبناءه، أما النساء والصبيان والشيوخ وعُبَّاد الصوامع والمزارعين والعجَزة وغير المحاربين، فلا يُقاتَلون، ولذا ختم الله الآية بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فما مناسبة التقوى في آية تأمر بقتل الكفار والشدة عليهم؟ إنها لبيان أنهم إن اتقوا الله فامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، فإن الله تعالى يكون معهم بعونه ونصره وتأييده، فلازموا تقوى الله، يُعنكم وينصرْكم على عدوكم.

وفي الآيات التالية صورتين فيهما بيان موقف المنافقين من استجابتهم للقرآن الكريم وعدمه:

الصُّورَةُ الأُولَى: المُؤْمِنُونَ يَزْدَادُونَ إِيمَانًا وَالمُنَافِقُونَ يَزْدَادُونَ نِفَاقًا

١٢٤- ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

في هذه الآية، بيان حال المنافقين والمؤمنين عند تلقّيهم للقرآن الكريم من حيث الإيمان به والعمل بما فيه، وهكذا، فقد عادت السورة إلى بيان أحوال المنافقين، وما بينهما من الآيات السابقة اعتراض، فتُبيِّن هذه الآية كيف يستقبل المنافقون ما نزل على رسول الله ﷺ وتُبيِّن أنهم يتظاهرون بالإيمان، وأنهم كاذبون في دعواهم أنهم مؤمنون، فالواقع أنهم يشكُّون ويرتابون في آيات الله، ولا يؤمنون بما جاء فيها من تكاليف، ويسخرون منها ويستهزئون بها، والضمير في ﴿فَمِنْهُم﴾ يعود على المنافقين السابق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة] كما يعود الضمير على أقرب مذكور في الآية

السابقة ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: إذا نزلت سورة من سور القرآن على رسول الله ﷺ فإن المنافقين يقول بعضهم لبعض على وجه الاستهزاء والسخرية والإنكار: أيُّ واحد منكم زادتْهُ هذه السورة إيمانًا وتصديقًا ويقينًا، والجواب: أن المنافقين يزدادون نفاقًا والمؤمنون يزدادون إيمانًا.

والمعنى: وإذا أنزلت سورة مّا من سور القرآن، أيْ: أيُّ سورة منه، فيها الأمر والنهي والخبر والحث على الجهاد، فمنهم من يستفهم عمن حصل له الإيمان والهداية بهذه الآية من الطائفتين:

والجواب: أنها تزيد المؤمنين إيمانًا إلى إيمانهم، فهم يعلِّمونها ويعْملون بها، ويتدبرونها، ويقرون بما جاء فيها، ويفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين، ويبشر بعضهم بعضا بما من الله عليهم من آياته والتوفيق لفهمها والعمل بها.

وفي الآية دليل على أن الإيمان يزيد بكثرة الأعمال الصالحة وينقص بقلّتها، والكفر كذلك يزيد وينقص، فزيادة الإيمان تكون بالإكثار من صالح الأعمال، ونقصه يكون بنقص هذه الأعمال، ومن الكفر ما هو أكبر، ومنه ما هو أصغر، وكذلك الشأن في الشرك، والنفاق، والفسق، والظلم.

فالطرف الأعلى هو الجانب الأكبر، والطرف الأدنى هو الأصغر، فهذه زيادة ونقصان، فالتصديق يزداد قوة بالعمل.

فإذا نزلت سورة زادت المؤمن إيمانًا، وحملتْه على العمل بما فيها من أدلة، وأوامر، ونواهٍ ليست في غيرها، وأزالت ما في نفسه من شُبَهٍ وشكوك، وبهذا ترتقي عقيدة المؤمن، فلا يساوره معارضة ولا شبهة، والإيمان الصحيح كالجسد الصحيح، والإيمان الناقص كالجسد المريض، ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد].

٢- وقوله سبحانه: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

٣- وقوله ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ الكهف: ١٣] .

٤- وقوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

٥- وقوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]

٦- وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

٧- وقوله جلَّ شأنه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

٨- وقوله أيضًا: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]

٩- وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

وقال معاذ بن جبل ﷺ للأسود بن هلال: اجلس بنا نؤمن ساعة[1].

أي: نتذاكر القرآن وأمور الدين.

وقال ابن عمر ﷺ: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر[2]. قال تعالى:

١٢٥- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾

وأما أهل النفاق في العقيدة، ممن في قلوبهم شك وارتياب، فإن نزول سورة من القرآن تزيدهم شكًّا ونفاقًا فوق ما هم فيه من نفاق وكفر ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شرك، وشك، ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: زادتهم كفرًا مع كفرهم، ومرضًا إلى مرضهم، وشكًّا إلى شكِّهم، وسمي الكفر رجسًا؛ لأنه أقبح الأعمال، وسمي النفاق مرضًا؛ لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج، كالمرض في البدن يحتاج إلى علاج، وأخبر الله سبحانه أن النفاق سيلازمهم حتى الموت فيموتون على الكفر والنفاق، وهذا أسوأ خاتمة، فموتُهم على الكفر متسبب على زيادة السورة في كفرهم، وهو زيادة في مصيبتهم، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠] وهذا يدل على تمكُّن الرجس ورسوخه في نفوسهم.

---

(١)، (٢) رواه البخاري في أول كتاب الإيمان، بعد حديث برقم (٧) وقبل الحديث (٨).

الفِتَنُ تُلاحِقُ الظَّلَمَةَ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَّعِظُون

١٢٦- ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ[١] أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

في هذه الآية تنبيه لأهل الغفلة والفساد، أن يعتبروا بحوادث الدهر.

وقبل أن تأتي الصورة الثانية لموقف المنافقين من تلقِّي الوحْي واستجابتهم له، يجيء هذا السؤال مستنكرًا حال المنافقين: أَوَلَا يرى هؤلاء المنافقون وأمثالهم من المخالفين لأوامر الله ورسوله، أنهم مبتلون وممتحنون بالانقلابات والثورات، والأمراض والمصائب، والمضار، وبالنكبات والهزائم، والقحط والجوع، وإظهار ما يبطنون، وامتحان بعض الحكام والظلمة بالخروج عليهم، فهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين، بل في كل أسبوع، وفي كل شهر، وكل يوم، فالفتنة تَعني اختلال نُظُم حياتهم واضطرابها، وتعني أن يكشف الله أسرارهم، ويفشي عقائدهم، ثم لا يرجعون إلى الله تعالى عما هم فيه من الفساد والنفاق، ولا يعتبرون، ولا يستفيدون ويتعظون مما يرون ويشاهدون، وفي هذا تنبيه للمرء أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجدده وينميه ويصلح من شأنه ويحسن من أحواله.

روى البخاري عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقوْن من الحَجَّاج، فقال: «**اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشرُّ منه حتى تَلْقوْا ربكم**» سمعتُه من نبيكم ﷺ[٢].

وفي الآية توبيخ لهم على قسوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وغفلتهم عما يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ، ومع ذلك فهم يصرون على مسالكهم الخبيثة وأعمالهم القبيحة، فلا ينتفعون ولا يرتدعون، ولو رُزقوا التوفيق لأفاقوا من غفلتهم، وعلموا أن ما يحل بهم في كل عام، أو أدنى من ذلك، أو أكثر ما هو إلا بسبب ظلمهم وتجرُّئِهم على حدود الله وشرعه.

---

(١) قرأ حمزة ويعقوب (أولا يرون) بتاء الخطاب، والمخاطب هم المؤمنون على وجه التعجب، وقرأ الباقون بياء الغيبة لمناسبة (وأما الذين في قلوبهم مرض).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٠٦٨).

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ: مَوْقِفُ المُنَافِقِينَ مِنْ تَلَقِّي الوَحْي

١٢٧- ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

ثم تأتي الصورة الثانية لموقف المنافقين من تلقي الوحي، فترسم مشهدًا متحركًا دقيقًا للمنافقين حين ينزل القرآن، فمن صفات المنافق أنه يُعرض عن آيات الله إذا تُليتْ عليه فينفر منها، ويتوجه لغيرها، ولا يصبر على الاستماع لها والعمل بما فيها.

وهذا شأن المنافقين المعاصرين لنزول الوحي، فقد كانوا يتغامزون بالعيون إنكارًا لنزول القرآن، سخرية وغيظًا منه؛ لأنه يَذْكُر عيوبهم وأفعالهم، وكانوا ينصرفون عن مجلس رسول الله ﷺ إلى منازلهم، ويتسللون منه خفية، الواحد تلو الآخر، خوفًا من نزول سورة تخبرهم عما يضمرونه في نفوسهم كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] فتكشف أسرارهم وتفضح مكرهم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ في ريبة ومكر، ثم يقول بعضهم لبعض: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين إذا قمتم من هذا المجلس، قبل أن يتلو الرسول هذه السورة، أو الآيات التي تفضحكم وتكشف عن أسراركم ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ متسللين في حذر؛ حتى لا يراهم أحد من المسلمين، فإن لم يرهم أحد قاموا وانصرفوا من مجلس رسول الله ﷺ مخافة الفضيحة، فيهربون من الحق إلى الباطل، وهذا هو سبب كفرهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].
فقد كانوا لا يعتقدون أن الله تعالى يخبر نبيه ﷺ بأحوالهم ويراهم في تقلباتهم.

قال الله سبحانه: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه؛ لإيثارهم الغي على الرشد، والضلال على الهدى، أي: أن الله تعالى صرف قلوبهم عن الإيمان؛ بسبب أنهم لا يفقهون ولا يتدبرون ولا ينتفعون، وهذا حالهم في الدنيا، لا يُقبلون على الحق، وينفرون منه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر].
وقال: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المعارج].

والمقصود من هذه الآية بيان شدة نفور بعض الناس من الجهاد وأحكام الإسلام، كما قال تعالى ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ [محمد: ٢٠]. وقال: فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ [الأحزاب: ١٩]

نَبِيُّ الْمَرْحَمَةِ وَنبيُّ الْمَلْحَمَةِ يُوصَفُ بِأَرْبَعَةِ أَوْصَافٍ

١٢٨- ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ[1] رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

هذه الآية وما بعدها لبيان مِنَّة الله تعالى وفضله على البشر، ولبيان أن السورة التي بدأت بإعلان الحرب على المشركين والبراءة منهم، ونقض عهودهم إلى يوم القيامة، وأمرتْ بقتال أهل الكتاب، وفضَحت المنافقين، وأمرت المؤمنين بالجهاد، هذه السورة، خُتِمت بآية فيها وصف النبي ﷺ بالرأفة والرحمة، وهما وصفان لرسول الله ﷺ تعقيبًا للشدة بالرفق، وللغلظة بالرحمة، ولتذكُّرهم بأن الله تعالى منَّ عليهم ببعثة هذا النبي الخاتم، وأنه حريص على هدايتهم، وليبيِّن الله سبحانه أن هذا النبي، هو نبي المرحمة وهو نبي الملحمة، لا يقاتل حُبًّا في القتال، وإنما يقاتل كُرهًا للتسلُّط والعدوان، ولمنْع الحق أن لا ينتشر، فإذا اضطر رسول الإسلام إلى ذلك حَمَل السيف.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ أيها الناس في مشارق الأرض ومغاربها ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وعفافه وهو رسول إلى البشرية كافة:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وهو رسول الرحمة والهدى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]

«وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[2].

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف البزار، بقصر الهمزة من (رءوف) على (فعُل) والباقون بمدها على وزن (فعول).

(٢) من حديث جابر بن عبد الله في البخاري برقم (٣٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٥٢١).

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، وقال المغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولًا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وأمانته.

والخطاب في ﴿جَآءَكُمْ﴾ يعود على العرب الذين شرفهم الله بأن يكون الرسول منهم، وبِلُغَتهم، ومن بلادهم، وهو من أفضلهم شرفًا ونسبًا، أي: أن نبي الله من جنسكم عربي قرشي، يبلِّغكم رسالة ربه، فلا يحسده غير العرب على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة، والواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه أيها الناس جميعًا.

عن واثلة بن الأسقع ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[1].

وجاء في حديث مرسل صحيح الإسناد: **«خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح»**[2].

وفي البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«بعثت من خير قرون بني آدم، قرنًا فقرنًا، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»**[3].

والعرب هم الذين اختارهم الله سبحانه أن يكون النبي الخاتم منهم، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومكة المكرمة هي المكان الذي اختاره الله تعالى لهذه الرسالة.

ولو أن النبي ﷺ كان من بلد آخر، أو من قوم آخرين، كأن كان من أوروبا مثلًا، أو

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الفضائل برقم (٢٢٧٦) و رواه أحمد (٤/ ١٠٧) برقم (١٦٩٨٧) قال محققوه: حديث صحيح، دون قوله «اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» وقد جاء هذا في الحديث رقم (١٦٩٨٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات وأوله «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل..» الحديث، والترمذي في المناقب (٣٦٠٥) وقال: حديث حسن صحيح، وابن سعد (١/ ٢٠) والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٧٥).

(٢) من حديث جعفر بن محمد عن أبيه أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٣٢٧٣) والطبري (١٢/ ٩٧) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩١٧) والبيهقي (٧/ ١٩٠) وقال الألباني في «الإرواء» (٦/ ٣٣١): هذا مرسل صحيح الإسناد، وقد جاء هذا الحديث بزيادة عليه عن ابن عباس وعائشة وعلي بطرق متعددة.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٥٧).

استراليا، أو غيرهما، لورَد السؤال نفسُه: لماذا كان الرسول الخاتم من هذا المكان دون غيره؟ فاختيار الزمان والمكان واللغة والقوم، لحكمة يعلمها الله سبحانه ويريدها، ولا يردُ الاعتراض عليها من أحد من البشر، فهو سوء أدب مع الله ﷻ.

ثم وصف الله رسولَه **بأربعة أوصاف**:

الوصف الأول: أنه ﷺ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يشق عليه ما يشق عليكم فهو ﷺ لا يريد قتالًا ويريد سلامًا، ويعز عليه مشقتكم، وما تلْقونه من المكروه والعنَت، وقد تضمنت الآية ما ينكره المنافقون، وهو كونه رسول الله ﷺ.

الوصف الثاني: أنه ﷺ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: حريص على إيمانكم وهدايتكم وعزتكم وسعادتكم وإصلاح شأنكم، ووصول الخير إليكم، والحرص: شدة الرغبة في الشيء والتفاني في حصوله، وحصول الأسى عند عدم تحقيقه.

وقد وصف الله رسوله بالمبالغة في الحرص على هداية الناس في قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء].

ولهذا كان حقه ﷺ مقدمًا على سائر حقوق الخلق، ووجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتعزيره وتوقيره.

ومما جاء في بيان شدة حرصه ﷺ على أمته؛ ما جاء:

١-في الحديث عن ابن مسعود وأبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**وإني آخذ بِحُجَزِكُم أن تَهافَتُوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب**»[1].

٢- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما مثلي ومثل أمتي، كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعْن فيها، فأنا آخذ بِحُجَزِكُم وأنتم تقحَّمُون فيه**»[2].

٣- وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه،**

---

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في مسند أحمد (١/ ٣٩٠). وحديث أبي هريرة (٧٣٢١) وهو في البخاري (٣٤٢٦) ومسلم (٢٢٨٤) والترمذي (٢٨٧٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٤) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٨٣).

فسدِّدُوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدوة والروحة وشيء من الدُّلْجة»[١].

الوصف الثالث والرابع: أنه ﷺ كثير الرأفة والرحمة بكم فلا يدفعكم إلى المهالك، ولا يحملكم على الذنوب والخطايا ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهاتان صفتان من صفات الله تعالى، هما الرأفة والرحمة، فالله سبحانه رؤوف رحيم بالخلق جميعًا: الكافر والظالم والفاسق والمؤمن، فالكل خلقه، والكل في ملكه.

والرسول ﷺ رؤوف رحيم بالمؤمنين، رحمة خاصة، وقد أمره ربه أن يكون ليِّن الجانب للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء].

وفي الصحيحين عن جبير بن مُطعم أن رسول الله ﷺ قال: **«لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر، الذي يُحشر الناس على قدَمي، وأنا العاقب»**[٢] والعاقب الذي لا نبي بعده، وقد سماه الله رؤوفًا رحيمًا.

الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ لَا يَيْأَسُ مِنْ إِعْرَاضِ النَّاسِ عَنْهُ

١٢٩- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ[٣] رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

ثم خاطب اللهُ رسولَه، وكل من يحمل لواء الدعوة بعده، بأنه لا ييأس من إعراض المعرضين، فما عليه إلا أن يبذل السبب، والله كافيه وناصره ومؤيده في الدنيا والآخرة، فإن تولوا وأعرضوا عن قبول الحق والعمل به وأعرضوا عن الإيمان بك -يا محمد- وناصبوك العداء ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ الله تعالى يكفيني جميع ما أهمني وما أغمني، ولا معبود بحق إلا هو، وهو الذي يتولى أمري، وينصرني على عدوي، وهو كافيني شر إعراضكم وعنادكم ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: عليه وحده اعتمدت، وفوضت أمري إليه، ووثقْتُ بنصره لي ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وخُص العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات، ومن جميع الخلائق، فالسموات والأرض، وما فيهما، وما بينهما

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٩).

(٢) البخاري (٣٥٣٢، ٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤) والترمذي (٢٨٤٠) و«شمائل الترمذي» (٣٦٦) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٥٢٦).

(٣) سكَّن الهاء من (وَهْو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

تحت العرش، فهو سقف المخلوقات.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

عن ابن عباس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله، رب السموات ورب الأرضين، ورب العرش الكريم**»[١].

وعن عبد الله بن جعفر قال: علمني عليٌّ كلمات، علمهُنَّ رسول الله ﷺ إياه، يقولهنَّ عند الكرب والشيء يصيبه: «**لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله، وتبارك الله، رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين**»[٢].

هذا: ولما كان زيد بن ثابت ﷺ يجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق، وكان يعتمد على ما هو محفوظ في صدور الصحابة وهو منهم، فيشهد اثنان على الأقل على نص الآية، ويعتمد أيضًا على ما هو مكتوب في العُسْب واللِّخَاف والرِّقاع وغيرها، فالقرآن كله كان مدوَّنًا ومكتوبًا في هذه الأشياء؛ حيث لمَّا يكن الورق موجودًا بعدُ، وكان القرآن محفوظًا في صدور المئات من الصحابة، وفق العرضة الأخيرة للقرآن بين جبريل والرسول عليهما السلام.

فلما وصل زيد إلى هاتين الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة وجدهما مكتوبتين، ثم بحث عمن يحفظهما غيره فلم يجدهما إلا مع أبي خزيمة الأنصاري، فضم حفظ أبي خزيمة إلى حفظه، إلى جوار أنهما مكتوبتان في وسائل الكتابة المتاحة آنذاك، فوضعهما في مكانهما من السوْرة، وهذا من شدة الحرص في جمع القرآن الكريم، وقد ذُكِرت هذه القصة في صحيح البخاري.

---

(١) البخاري (٦٣٤٦) ومسلم (٢٧٣٠) والترمذي (٣٤٣٥) و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٤٨٩) وابن ماجه (٣٨٨٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٣٥).

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٦٥) وفي عمل اليوم والليلة (٦٤٦) والحاكم (١/٥٠٨) والبيهقي (٨٧) قال محقق «الأسماء والصفات»: حديث صحيح، وهو في المسند (١٧٦٢) وإسناده حسن، و(٧٠١) حديث صحيح، وإسناد حسن، (محققوه) وانظر (٧٢٦).

عن زيد بن ثابت ﷺ قال: . . . فتتبعتُ القرآن أجمعه من العُسُب والرقاع واللِّخَاف وصدور الرجال، فوجدتُ آخر سورة التوبة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخرها مع أبي خزيمة، فألحقْتُها في سورتها، وكانت الصحف عند أبي بكر في حياته حتى توفاه الله ﷻ، ثم عند عمر في حياته، حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر[١].

قلت: وأبوخزيمة الأنصاري، غير خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي وجد زيد بن ثابت عنده: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] بعد أن التمسها ولم يجدها[٢]. والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

تم تفسير (**سورة التوبة**) ولله الحمد والمنة



(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٧٩، ٤٩٨٦، ٧١٩١، ٧٤٢٥) و«المسند» (٢١٦/٤٤، ٥٧، ٧٦) والترمذي (٣١٠٣) والنسائي في «الكبرى» (٨٢، ٨٨، ٧٩٩٥) والطبراني (٤٩٠١، ٤٩٠٤).

(٢) والشك الذي في الحديث بين خزيمة وأبي خزيمة لعله من الرواة، وليس من زيد بن ثابت كاتب الوحي.

تَفْسِيرُ سُورَةِ يُونُسَ (١٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورةُ يونس هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف، والحادية والخمسون في ترتيب النزول، نزلتْ بعد سورة الإسراء، وقبل سورة هود، سنة إحدى عشرة من البعثة غالبًا، وهي مئة وعشر آيات عند أهل الشام، ومئة وتسع آيات عند بقية علماء العَدَدِ، وهي ألف وثمان مئة واثنتان وثلاثون كلمة، وتسعة وتسعون حرفًا.

وقد انفردتْ هذه السورة بأن قوم يونس لمَّا آمنوا قبل نزول العذاب بهم؛ عفا الله عنهم، ورفع عنهم العذاب.

وسُمِّيت سورة يونس لهذه الخصوصية، وإلا فقد ذُكِرَ يونس ﷺ في آيات أخرى، في سور: النساء والصافات وغيرها، وجاء ذكره هنا في آية واحدة من السورة.

وسورة يونس والسورتان بعدها (هود ويوسف) من السور التي نزلت على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، فهي تُخاطب مشركي مكة وقتها، وتخاطب الكفار والمشركين إلى يوم الساعة، وأحسب أن القول بمدنيَّة بعض آياتها ناشئ عن ظن أن ما في القرآن من مجادلة أهل الكتاب لم يَنْزِل إلا بالمدينة، وهو قولٌ ليس على إطلاقه، وفي هذه السور الثلاث قَصَصٌ من القرآن الكريم، وفيها المهمة الأساس التي يتعرض لها القرآن الذي نزل في مكة، وهو يعالج **ثلاث قضايا**:

الأولى: قضية الإيمان بالوحي المنزَّل من السماء، وأن هذا القرآن من عند الله سبحانه، أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ، وهذه هي قضية الوحي والرسالة.

والثانية: قضية تصحيح العقيدة، فقد كان المشركون يعترفون بوجود الله سبحانه، وأنه الخالق الرازق، ولكنهم يعبدون أصنامًا يزعمون أنها تشفع لهم عند الله سبحانه، وأنها تقرِّبهم من الله ﷻ، فالقرآنُ المكيُّ يُصحِّحُ العقيدة، ويقيم الأدلة والبراهين العقلية والنقلية على أن الله سبحانه خالقُ هذا الكون بما فيه ومَن فيه، وهو وحده جل شأنه الذي تُصرف إليه العبادة دون سواه.

والثالثة: قضية الإيمان بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء على الأعمال من جنة أو نار.

هذه القضايا الثلاث، هي المحور الأساس الذي تدور حوله السور المكية، أو القرآن المكي.

وسورة يونس ستة أثمان، أو ستة أرباع، يقال: ربع الحزب، أو ثُمن الجزء؛ في الربعين الأخيرين منها طَرَف من قصة يونس عليه السلام.

وسُميت السورة باسمه؛ لذِكْرِه فيها، والأربعة أرباع الأُولى من السورة تتناول القضايا الثلاث التي تحدثْتُ عنها، وهي السورة المكية الثالثة في ترتيب المصحف، وقبلها سورتا الأنعام والأعراف مكيتان، وما عدا ذلك ممَّا سبق فهي سور مدنية.

قضايا السورة: وبعد بَدْءِ سورة يونس ببعض حروف الهجاء، أشارتْ إلى القرآن الكريم في أوَّلِ آيةٍ منها، وأتْبَعَتْ ذلك بإثبات رسالة محمدٍ ﷺ، ومِن ثَمَّ إلى توحيد الله سبحانه، وانفراده بالخَلْقِ، ثم بإثبات البعث والحشر والجزاء، وهذه الثلاثة هي أصول الشرك، ومقاصد السور المكية.

وقد تخلل ذلك قيامُ الدلائل على كلٍّ منها، والتذكير بما حلَّ بالقرون المشْرِكة بالله تعالى، المكذِّبة لرسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، والاعتبار بآثار القدرة الإلهية في البَر والبحر، مع ضرب المثل بالحياة الدنيا، واختلاف أحوال الناس في الآخرة، وإثبات أن القرآن مُنزَّلٌ من عند الله سبحانه، وإنذار المشركين، وتبشير المؤمنين، والاعتبار بما حَدَثَ للأمم السابقة؛ من قوم نوح، وموسى، وهارون... إلخ.

وبعد ذِكْرِ مصارعِ الظالمين يُلْفتُ القرآن نَظَرَ أمةِ محمدٍ ﷺ إلى الاستفادة بما حدث لمَن قَبلهم ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس].

وتدعو السورة الناسَ جميعًا إلى الإقبال على الله تعالى، والدخول في مِظَلَّةِ خاتَم الرسل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

وهاتان الآيتان من السورة توضحان أن هداية الإنسان تعود عليه، وضلاله يعود عليه ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [الآية: ١٠٨].

وعلى الرسول ﷺ وكلِّ داعيةٍ إلى الله تعالى أن يَصْبِرَ على جهود الدعوة، ويتحمل الأذى في سبيل الله، فإن مصيرَه إلى خير، وفَصْلَ القضاء في صالحه ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الآية: ١٠٩].

وقد رفض بعضُ الناس هدايةَ القرآن كما في قوله تعالى من السورة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ [الآية: ١٥]

أي: قل يا محمد، كلامًا آخر تمدح فيه آلهتنا، وتُقِرُّ فيه بأحوالنا وتقاليدنا.

والجواب: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ﴾ الآية: [١٥].

ويبين لهم الرسول ﷺ أنه قد مكث فيهم أربعين سنة دون أن يتلوَ عليهم وحيًا، أو يصحح لهم دينًا ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الآية: ١٦].

ويردُّ القرآن عليهم في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [الآية: ٣٩]

وفصَّلَ القرآنُ تكذيبهم هذا في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس].

لقد كَابَرَ أهلُ مكة وقاوموا الإسلام مُقَاوَمَةً شديدة من أول ظهوره، وقادوا المعركة ضدَّه نحو عشرين سنة، ثم دخلوا فيه بعد ذلك، وأخلصوا له أشد الإخلاص، وحملوا لواءه، وحَموا كَعْبته.

والسبب في ذلك أن القرآن نَزَلَ عليهم يُحَرِّكُ عقولهم، ويشغل فكرَهم، ويدفعهم بقوة نحو ربهم.

ومن العجيب أن العلمانيين والملاحدة والماديِّين، لم ينتفعوا بما انتفع به عَبَدَةُ الأوثان والأصنام؛ ذلك أن الناس في أوربًا وأمريكا وأمثالهم هنا وهناك حيث تمتد الحضارة المادية المعاصرة، لا يهتمون بالله تعالى ولا بلقائه، إنهم يعملون للحياة المادية فَحَسْب ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم].

لم يكلِّفْ هؤلاء أنفسَهم النظر في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٣]

ولا في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الآية: ٣١].

إنَّ المُزَارِعَ يضع حَبَّةً في الأرض؛ فتُخرج ألف حبة، فَمَنْ ينبتُ من الطين كريم الطعم والرائحة مثل قصب السكر، وأصناف الفاكهة، وألوان الحبوب والخضراوات؟ ومَن يحوّل ذلك إلى أزهار ووُرود تَفُوحُ منها رائحة العطور؟ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [الآية: ٣٢].

إنَّ الإنسان تَمُرُّ به أيام وساعات عَصِيبَة، يَعْتَصِرُ فيها ألمًا وعجْزًا وحُزنًا؛ فيهرع طالبًا النجدة من الكروب؛ فإذا انكشف همه وغمه؛ فترت حرارته ونسي مَن كان يدعوه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [الآية: ١٢]

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية: ٢٣].

هذا هو الإسلام، يربط العبد بربِّه، ويبعده عن الشرك، ويعلِّق رغبته ورهبته بالله، ويجعله يتعامل مع الناس على هذا الأساس، وإلى هذا دعا نوح، وهود، ويونس، وموسى، وهارون أقوامَهم.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَوَاتِحُ السُّورِ الْهِجَائِيَّةِ

١ - ﴿الٓر[1] تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

وتبدأ سورة يونس بما بدأت به سورة البقرة، وآل عمران، والأعراف، بحروف الهجاء.

﴿الٓر﴾ تبدأ السورة بهذه الحروف الثلاثة؛ وهي: الألف واللام والراء، والسور المفتتحة بحروف الهجاء تسعٌ وعشرون سورة، بدأتْ بحرف واحدٍ إلى خمسة أحرف؛ وهي خمسة أقسام:

أولًا: ما بُدِئَ منها بحرف واحد، وعددها ثلاث سور؛ هي: سورة ص وق ون.

ثانيًا: ما بُدِئَ منها بحرفين اثنين، وعددها تسع سور؛ هي: طه، وطس (النمل) و(يس)، وحم في سور ست؛ هي: غَافِر، وفُصلت، والزُّخْرُف، والدُّخَان، والجاثِية، والأحْقَاف.

ثالثًا: ما بُدِئَ منها بثلاثة أحرف، وعددها ثلاث عشرة سورة؛ هي: (الم) في ست سور؛ هي: البقرة وآل عمران والعَنْكَبُوت والروم ولقمان والسجدة.

و(الر) في خمس سور؛ هي: يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحِجْر.

و(طسم) في سورتين هما: الشعراء والقَصص.

رابعًا: ما بدئ منها بأربعة أحرف، في سورتين اثنتين هما: الأعراف (المص)، والرعد (المر).

خامسًا: ما بدئ منها بخمسة أحرف، وهما سورتان: مريم (كهيعص)، والشورى (حم عسق).

وهي من المتشابِه الذي لا يعلمه إلا الله، وقيل: إنها إشارة إلى أن هذا القرآن مُعْجِزٌ في أسلوبه، ومعانيه، وبيانه، ونَظْمِه، وأحكامه، فهو الذي عَجَزَ أَرْبَابُ الفصاحة والبلاغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، كسورة الكوثر، مع أنه مُكَوَّنٌ من هذه الحروف من الألف واللام والراء ونحوها، وهذا التحدي قائمٌ إلى يوم الساعة.

---

(١) سكت أبو جعفر على (ألف) (لام) (را) سكتة خفيفة من غير تنفس بمقدار يسير قدر النفَس.

وهذا إلى جوار أن الحروف المُقَطَّعَةَ في أوائل السور؛ لجذْب انتباه المُكَذِّبِينَ بالقرآن، إلى الاستماع إليه والتأمل فيه؛ فيلجئهم هذا إلى الإصغاء والتدبر؛ حتى يعلموا معانيَه؛ فَيَجُرُّهُم إلى الدخول في الإسلام، سِيَّمَا وأن هذه الحروف لم يَأْلَفْهَا العربُ في كلامهم.

ولذلك فإن أغلب السور المفتتحة بحروف الهجاء، يَعْقُبُهَا غالبًا ذِكْرٌ للقرآن صراحة، أو ضمنًا مثل: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة: ٢] ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] وهكذا.

فالآية التي تَلِي حروف الهجاء في فواتح السور تخص الحديث عن القرآن عدا سور: مريم، والعَنْكَبُوت، والروم، والقلم؛ أي: أن هذا القرآن مُكوَّن من هذه الحروف، وهي آيات كتاب مُحْكَم في نَظْمِهِ، وأسلوبه، وبلاغته، وبيانه، ووَعْدِه، ووعيده، وحلاله وحرامه، أَحْكَمَهُ الله وبيَّنَه لعباده؛ ليتدبروه ويعملوا بما فيه، والإشارة في الآية إلى القرآن كلِّه، أو إلى ما نَزَلَ منه قبل هذه السورة، فهو قرآن محكَمٌ، لا يدخله شك، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ولا اختلاف.

وهو قرآن مشتمِلٌ على الحِكْمَة والأحكام والأوامر والنواهي الشرعية، ومشتمل على قواعد الحكم بين الناس بالحقِّ والعدل، ومشتمل على هداية الناس وموعظتهم ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٨] وآيات هذا الكتاب الحكيم من جنس الحروف التي افتُتحت بها السورة، وقد اشتملت على براهينِ التوحيد وإبطال الشرك.

الْقَضِيَّةُ الأُوْلَى مِنْ قَضَايَا الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ: وُجُوبُ الإِيْمَانِ بِالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

٢- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ[1] مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف (لسَاحر) بفتح السين وألف بعدها ثم حاء مكسورة، وقرأ الباقون (لسِحْر) بكسر السين وسكون الحاء وعدم وجود ألف بينهما، والأول اسم فاعل والثاني مصدر.

ثم تناولتِ السورةُ أول القضايا الثلاث التي يتناولها القرآن المكي؛ فبدأتْ بالحديث عن الوحي والرسالة، وذَكَرتْ عجَب الناس أن نَزَلَ الوحي على رجل منهم، هو محمدٌ ﷺ، وهو عين ما قاله أهل القرون السابقة لرسل الله جميعًا.

كما قال تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]

فأجابتهم الرسل: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]

وكما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وهكذا قالوا لنوح، وهود، وصالح، وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين.

ويردُّ الله عليهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩]

وقال تعالى يحكي قول كفار قريش للنبي ﷺ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص]

وقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق]. وغير ذلك من الآيات.

وعن ابن عباس ﷺ لمَّا بَعَثَ الله تعالى محمدًا رسولًا؛ أنكرت العرب ذلك، أوْ مَنْ أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم مِن أن يكون رسولُه بشرًا مِثْلَ محمدٍ.

قال: فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾[1].

قال سبحانه مشيرًا إلى أن الرُسل على مدى التاريخ كلهم رجال من البشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣] والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

والتعجُّب: حالةٌ تَعْتَرِي الإنسان عند رؤية شيء على خلاف العادة.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٨/٣٠٦) والطبري (١١/٥٨) و«زاد المسير» (٤/٥) و«الدر المنثور» (٣/٣٩٩) و«تفسير ابن كثير» (٤/٢٤٥) وابن أبي حاتم (٦/١٩٢٢).

وقد ردَّ الله سبحانه على المكذِّبين بالوحي المنزَّل على رُسل الله جميعًا، أنهم كيف يَعْجَبون من أن الله تعالى يُوحي إلى رجل منهم؟! ولا يعجبُون من أنه تعالى خَلَق هذا الكون بما فيه؛ فقد كانت الآيات بعد ذلك في السورة متضمنةً مشاهدَ عظيمة من هذا الكون، كخَلْق السموات والأرض ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [يونس: ٣] والشمس والقمر، والليل والنهار ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] ومشاهد القيامة وما بعدها من نعيم مقيم، أو عذاب لا نهاية له ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [يونس: ٤].

وتتضمن أيضًا أحوال البشر عندما يتعرضون للخير والشر، والسراء والضراء ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١] وتُبيِّن مصارع الغابرين الذين كذَّبوا رسل الله في كلِّ زمان ومكان ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [يونس: ١٣].

وإذا كان الناس قديمًا يستبعدون الاتصال بين البشر وخالقهم عن طريق جبريل عليه السلام؛ فإن الاكتشافات العلمية الحديثة من غزو الفضاء، والقنوات الفضائية، والهاتف والفاكس، والتلكس والحاسوب، والرائي، والموجات الصوتية، والأثير، وشبكة الاتصالات والمعلومات، وما إلى ذلك ممَّا يؤكد إمكانية نزول الوحي ويقرره.

وقد عجب المشركون قديمًا من أمرين:

١- عجبوا أن يكون المرسَلُ إلى الناس من البشر؛ فقالوا: لماذا لم يكن الرسول ملَكًا؟ لو أراد الله أن يرسل إلينا رسولًا لأرسل ملَكًا.

٢- وعجبوا أن يكون الرسول هو بالذات يتيم أبي طالب محمدٌ ﷺ.

وكفار اليوم ومشركوهم في العالم يعجبون أيضًا أن تكون الرسالة العامة الخاتمة من العرب، وتتمثل في رسول الله محمدٍ ﷺ، ويقولون: إنه رسولٌ إلى العرب خاصة، فالعجب القديم حادث وموجود اليوم وغدًا.

والله ﷻ يبيِّن أن الرسول الذي يرسله تعالى إلى البشر، لَا بُدَّ أن يكون بشرًا منهم، وبلسانهم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فلو كان الرسول من عالَم آخر؛ بأن كان مَلَكًا، أو جِنيًّا؛ لَفَاتَ المقصود مِنْ الرسالة، ولَمَا أمكن أن يصل الوحي إلى القوم، فلا يمكن للإنسان أن يَقْوَى على رؤية المَلَك، ولا يمكن للمَلَك أن يُعايش الإنسان؛ فهذا مخلوق، وذاك مخلوق آخر، له طبيعته المختلفة.

ولذلك لمَّا طلب المشركون أن يكون الرسول مَلَكًا قال سبحانه في الردِّ عليهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا﴾ أي: لجعلنا هذا الملَك الذي ينزل عليهم في صورة الرجل، كما كان الوحي يَنزِل على رسول الله ﷺ في صورة الرجل ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] فالنتيجة واحدة ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

ولو أن الله تعالى لَبَّى طلبَهم وجعله ملَكًا؛ لكان في هذا نهايتهم ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] وذلك أنه حين يطلب القوم من رسولهم أن يأتي لهم بآية، ويؤيده الله تعالى بما طلبوا، ثم لا يؤمنون به؛ فإنه سبحانه يُهلكهم عن آخرهم، كما حصل لقوم صالح، وقوم هود، وغيرهم.

أي: لكان في هذا هلاكهم وإبادتهم إبادةً جماعية، كما حدث للأمم قبلهم، ولكن الله تعالى أراد لهذه الأمة البقاء ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]

فقد أراد الله لهذه الرسالة أن تنسخ ما قبلها، وأن تكون باقيةً إلى يوم الساعة.

ثم لماذا يعجبون أن تكون الرسالة في محمد اليتيم؟ و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

الله أعلم بخصائص الرسول، وبِمَنْ هو أهلٌ للرسالة ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَٰئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]

قال المشركون: لماذا لم يَنْزِل القرآن على عظيم مكة، أو عظيم الطائف، الوليد بن المغيرة. أو مسعود بن عمرو الثقفي؟ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف].

والقرية في القرآن: هي المدينة العظيمة، والعاصمة، ويقابلها البادية.

قال سبحانه في الردِّ عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ هذا تفضيل الله ﷻ، وهذه إرادة

الله ومقتضى علمه ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وفي هذه السورة حديثٌ عن القرآن والوحي والرسالة، في ثلاثة مواضع أخرى يأتي كل منها في موضعه.

الناس تجاه الوحي المنزل، فريقان: مؤمن وكافر:

وبعد ذِكْرِ هذا العجب، ذَكَرَ سبحانه خُلاصَة مهمة الوحي؛ وهي إنذار الناس بعاقبة المخالفين لرسل الله، وتبشير المؤمنين منهم بِعُقْبَىَ الطاعة، ويكون ذلك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وقد جاء الإنذار في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ والمراد بهم الكفار وهم الفريق الأول؛ لأن المؤمنين ذُكِرُوا بعدَهم؛ أي: أَعْلِمهم وخوِّفْهم عاقبة كفرهم، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، ويعملوا بما فيه.

وجاء الشق الآخر لمهمة الوحي في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: بَشِّرِ المؤمنين بالله ورسله بالطمأنينة، والثبات، والاستقرار، بَشِّرْهم ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ أي: أجرًا حسنًا، ومَنْزِلَةً عاليةً عند ربِّ العالمين؛ بسبب ما قدَّموه في الدنيا من الإيمان وصالح الأعمال، التي استحقوا عليها الثواب الجزيل، والأجر العظيم.

فقدَمُ الصدق: هو العمل الذي قدَّموه لأنفسهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ﴾ [يس: ١٢] وما أعدَّه الله على العمل الصالح من الأجر الحسن، والمنزلة الكريمة في الآخرة.

ومهمة الوحي تنحصر في الإنذار والتبشير كما سبق، وقد جاء ذكرهما في هذه الآية، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢] وقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢] ومع وضوح صِدْقِ الرسول ﷺ وإعجاز القرآن؛ فقد قال المشركون: إن محمدًا ساحرٌ ظاهر السحر، ودعوته باطلة، وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر لا يُتعجّب منه، وإنما يُتعجب من جهلهم وعدم معرفتهم بما يصلحهم.

والمعنى: فلما جاء محمدٌ ﷺ بوحي الله تعالى، وتلاه عليهم ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا

﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: قالوا عن النبي ﷺ: إنه ساحر؛ نظرًا لِمَا جاء به من المعجزات التي لم يألفوها، وقالوا عن القرآن: إنه سحر؛ لاشتماله على أخبار البعث والنشور، وقد كانوا يُنكرونها، وهكذا قال قوم موسى له: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] وكذلك قال قوم عيسى له حين جاءهم بالبينات فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

ومعنى الآية: أَبَلَغَ الجهل وسوء التفكير ببعض الناس أنْ أوحى الله تعالى إلى رجلٍ من البشر؛ كي يُبَلِّغَهُم دين الله تعالى، وشرعه، ومنهجه إلى خلقه؛ فيبشرهم وينذرهم، فهل هذا أمر عجيب يدعو إلى الدهشة والاستهزاء على أساس أنَّ النبوَّة لا تكون في البشر؟

والواقع أن الذي يدعو إلى العجب حقًّا هو ما يعجبون منه؛ لأن حِكْمَةَ الله تعالى تقتضي أن يكون الرسل من البشر؛ لأنَّ كل جنسٍ يَأْلَفُ جنسه، وينْفر من غيره، ومع وضوح الأدلة في ذلك؛ فإن القائلين بهذا لم يزدادوا إلا جُحودًا وعنادًا ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَةُ: تَصْحِيحُ عَقِيدَةِ الْمُشْرِكِينَ

٣- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[1] ﴿٣﴾﴾

ثم خاطب الله تعالى المشركين الذين يُنكرون أن يكون الرسول بشرًا، فيقول لهم: كيف تُنكرون ذلك وأنتم تقرون بالربوبية، وتقرون بوجود الله سبحانه؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]

وقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]

فأنتم تقرون بأن لهذا الكون ربًّا، وتعترفون بأنَّ الله تعالى هو المتفرد بالخَلْقِ، وتدبير الأمر، ولكنَّكم تتوجهون بالعبادة إلى آلهة أخرى، وتزعمون أنها تقربكم من الله، وتَشفع لكم عنده، وتقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال (تذْكرون) على حذف إحدى التاءين؛ لأن الأصل (تتذكرون)، والباقون بتشديدها على إدغام التاء في الذال.

وهذه هي القضية الثانية من قضايا السور المكية؛ وهي تصحيح عقيدة المشركين بإقامة الأدلة على توحيد الخالق سبحانه؛ كي يتوجهوا بعبادتهم إلى الله وحده، ويُفردوه بالعبادة، فلا يكفي اعتقاد أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، بل لَا بُدَّ من إفراده تعالى بالعبادة، واعتقاد أنه وحده النافع الضار مُصَرِّفُ الكون، وأنه أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وأنه سبحانه يُجِيب كلَّ مَن توجه إليه بالدعاء بلا واسطة، مَهْمَا كان العبد مِنْ أهل الشقاء، فلا أشقى من إبليس، وهو يعترف بأن له ربًّا، وقد أجاب الله سؤاله حين سأله النظرة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر ٣٦-٣٨، وص:٧٩-٨١].

ولَمَّا ذَكَرَ الله سبحانه تعجُّبَ الكفار مِنْ أَنْ يكون الرسول بشرًا، واتهموه بالسحر؛ أزال الله سبحانه هذا العجب **بأمرين**:

أحدهما: إثبات أن لهذا الكون إلهًا قاهرًا قادرًا، نافذ الحكم بالأمر والنهي، وذلك في هذه الآية التي نحن بصددها.

وثانيهما: إثبات القيامة، والبعث، والحشر، والنشر، والحساب، والجزاء على الأعمال، وذلك في الآية التالية ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ وهي تتناول القضية الثالثة من قضايا القرآن المكي وهو الإيمان باليوم الآخر.

عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة قال: حين نَزَلَتْ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ لَقِيَهُم ركْبٌ عظيمٌ من العرب، فقالوا لهم: مَن أنتم؟ قالوا: من الجن، خرجْنا من المدينة، أخرجتْنا هذه الآية[١].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أيها الناس ومالِك أمركم، ورَب العالم أجمع الذي يَجلب لكم المنافع، ويدفع عنكم المضار، والذي يجب أَنْ تُفردوه بالعبادة هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيهما وما بينهما ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا أو غيرها، أي: هو الذي أوجد هذا الكون الهائل، بسمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وأوجد ما في السموات والأرض من مخلوقات، وما فيهما من الأقوات والأرزاق؛ فهو سبحانه

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٢٤٦).

الخالق والمنشئ، والمبدِع لهذا الكون بما فيه ومَن فيه.

الأيام الستة: وقد تم هذا الخَلْق في ستة أيام، وهو سبحانه قادر على هذا الخَلْق بكلمة ﴿كُن﴾ أي: في لَمْحَةِ بصر، ولكنه جل شأنه يُعَلِّمنا الرفق و التثبت والتأني في الأمور.

قال سعيد بن جبير: كان الله قادرًا على أنْ يخلق السموات والأرض في لَمْحَةٍ ولحظة، ولكنه سبحانه خلقهن في ستة أيام؛ لكي يُعَلِّمَ عباده التثبت والتأني في الأمور.

وفي ذلك من الحكمة الإلهية ما لا يعلمه إلا الله، ومن الحكمة أنه سبحانه خلقها بالحق وخلقها للحق، حتى يُعْرَفَ الله تعالى باسمائه وصفاته وأفعاله فيوجّهون العبادة له وحده.

والأهم من ذلك أن الله تعالى جعل لكل شيء حدًّا محدودًا ووقتًا معلومًا، بحيث لا يدخل هذا الشيء في الوجود إلا في الوقت الذي أراده الله، وهذا أبلغ في القدرة؛ حتى تستعظمه الملائكة شيئًا فشيئًا؛ لأنَّ خَلْقَ الكائنات دَفعة واحدة في لحظة واحدة يُوحي بأنها خُلِقتْ صُدْفة أو على سبيل الاتفاق؛ فخَلْقُها على هذا الشكل أقْوى في الدلالة على قدرة الله تعالى.

والأيام الستة غيبٌ من الغيوب لا يعلم مقدارها إلا الله؛ إذ إنَّ دورة الفلك لم تكن قد وُجدت بعد، فليس هناك شمس ولا قمر، ولا ليل ولا نهار، ولا سماء ولا أرض، ثم هل هذه الأيام بمقدار أيام الدنيا أم هي بمقدار أيام الآخرة؟ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] الله أعلم، ولم يَرِدْ دليلٌ من كتاب أو سُنة يبيِّن مقدار هذا اليوم.

والأقرب أن الله تعالى خاطبَنَا بما نعلم؛ أي: تكون هذه الأيام بمقدار أيام الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] أي: صباحًا ومساءً بمقدار ما نعرف في الدنيا؛ لأنَّ الجنة لا ليل فيها ولا نهار، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨].

قال ابن جرير الطبري: خَلَقَ الله السموات والأرض في ستة أيام، وذلك يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة.

وقال أهل الأخبار والسير: إنَّ الله تعالى خَلَق التُّربة التي هي الأرض بلا دَحْوٍ ولا بَسْط يوم الأحد والإثنين، ثم استوى إلى السماء؛ فسواهن سبع سموات في يومين، هما: الثلاثاء

والأربعاء، ثم دَحَا الأرض، وبسطها، وطحاها، وأخرج ماءها، ومرعاها، وخَلَق دوابَّها، ووحشها وجميع ما فيها في يومين هما: الخميس والجمعة، وخَلَق آدم يوم الجمعة، وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء، ثم أهبطهما إلى الأرض في آخر ساعة من يوم الجمعة.

العرش والاستواء عليه: وبعد تمام خَلْق الكائنات كان الاستواء على العرش بعد أن كان على الماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] وهذا معنى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

والْعَرْشُ في اللغة: هو سَرِيْرُ المُلْكِ وسُمِّيَ عرشًا؛ لارتفاعه، وهو أعظم المخلوقات.

وعرش الرحمن لا يَعْلَمُه أحدٌ مِنْ البشر على الحقيقة إلا بالاسم، فهو غَيْبٌ من الغيوب، وهو من المتشابِه الذي يعلم حقيقته ربُّ العالمين، والمتقدمون من السلف لا يتكلمون فيه، ولا يفسِّرونه، ومن أقوالهم في ذلك أنه لمَّا دخل رجلٌ على الإمام مالك وسأله عن العرش: أطرق رأسه وأخذتْه رعشة، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والْكَيْفُ غير معقول، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا، وأَمَرَ بإخراجه.

وقال ابن عُيينة: كلُّ ما وصف الله به نفسه في كتابه؛ فتفسيره تلاوته، والسكوت عنه.

وقال البغوي: أهل السنة يقولون: الاستواء على العرش صفةُ الله بِلَا كَيْفٍ يجب الإيمان به، ويكل عِلْمه إلى الله؛ فاقرؤوها كما جاءت بلا كَيْفٍ، ويُفَوَّضُ عِلْمُهَا إلى الله تعالى.

وأجاب بعضهم على مَن سأله عن كيفية الاستواء فقال: أنت لا تدري كيف تأكل وكيف تتبول، تريد أَنْ تَعْرِفَ كَيْفَ الاستواء، وكَيْفَ النزول.

وعن أم سَلَمَة ﵂ أنها قالت: الْكَيْفُ غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقال محمد بن الحسن: اتفق الفقهاء جميعًا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وذلك لأن العقل مخلوق، وكلُّ ما هو مخلوق محدود لا يمكنه الإحاطة بالخالق سبحانه؛ فالآلة التي صمَّمها المهندس لا يُمْكِنُها أن تحيط بصفة هذا المهندس الذي أبدعها، ولله المثل الأعلى.

ولذا، فإن المسلم يؤمن بصفات الله تعالى كما جاءت في كتابه، أو في سُنَّةِ نبيه ﷺ من غير تأويل، ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ويضع إلى جوار كل صفة من صفاته قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ نفي للتشبيه، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إثباتٌ لصفتي السمع والبصر، وهكذا.

وقد ذُكِرَ العرش في إحدى وعشرين آية من القرآن، وذُكِرَ الاستواء على العرش في سبع آيات.

ثم قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ﴾ أي: أمر الخلائق في العالم العلوي والسفلي من الإحياء والإمانة والأرزاق والنفع والضر، وإجابة الداعي، ومداولة الأيام بين الناس على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وهذه التدابير نازلة وصاعدة، وجميع الخلق خاضعون لعظمته وسلطانه في كل صغيرة وكبيرة ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] ولا يَشْغَلُهُ شأنٌ عن شأنٍ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] فلا يضاده في قضائه أحدٌ، وكلُّ ما يحدُث في العالم العلوي والسفلي بإرادة الله تعالى وتدبيره وقضائه وحِكْمَته.

وقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي: لا يَمْلك أحدٌ مَهْمَا كانت درجتُه أن يشفع لأحدٍ يوم القيامة، إلا بعد أن يأذن الله تعالى للشافع في الشفاعة، ويرضى عن المشفوع له، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم] فهذه الآية جَمَعَتْ بين الإِذْنِ للشافع في الشَّفَاعة، والرِّضى عن المشفوع له، وفيها ردٌّ على كل مَن يعتقد أن الأولياءِ أو الأنبياء يَرْفَعُون الدعاء إلى الله تعالى، أو يقربونهم منه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

والأصنام التي يعبدها، أو يتقرب بها المشركون في القديم والحديث، حجارة صماء لا تعقل، ومثلها الحيوانات، والكواكب، وعبادتها ضَرْبٌ مِنْ الخَبَلِ والتقليد الأعمى.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المتصِفُ بهذه الصفات ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾ أخلصوا له وحده العبادة؛ فهو خالقكم، ومالك أمركم، والمنعِمُ عليكم بجميع النعم.

ثم ختم الله الآية بالحثِّ على التَّذَكُّرِ دون التفكر؛ لأن ما تقرره الآية من وجوب التوجه بالعبادة إلى الله وحده، ومعرفة صفاته سبحانه -أمرٌ ظاهر لا يحتاج إلى عمق تفكير، ولا بحث ولا تأمل ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ فتتعظون وتعتبرون بهذه الآيات، والحُجَجِ، وتعلمون أنه المتفرد بالخَلْق فتعبدونه، وهو المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: قَضِيَّةُ الْمَعَادِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ

٤- ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ[1] يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَه أَنَّ مَرْجِعَ جميع العباد إلى ربهم، وأَنَّهُ سَيُجَازِي كلًّا بما يستحق، وأَنَّ الْحِكْمَةَ في ذلك إظهارُ عدل الله تعالى مِنْ حيث عَدَم التسوية بين المحسِنِ والمسيء، وبعد أن أَمَر سبحانه بعبادته وحده، بيَّن جلَّ شأْنُه أَنَّه لم يُكَلِّفْ عِباده بعبادته ثم يتركهم همَلًا، وإِنَّمَا لَا بُدَّ من رجوع الخَلْق جميعًا إلى الله تعالى يوم القيامة؛ لِيَجْزِيَ كلًّا منهم بما عمل، وهذه هي قضية الإيمان باليوم الآخر التي اهتم بها القرآن الكريم كثيرًا في الفترة المكيَّة؛ لِيُرَسِّخَ في قلوب الناس ما يحملُهم على الإيمان بالله تعالى، والعمل للقائه في يوم المعاد، وقد جاءت هذه الآية لتقرر الحكم الجزائي، وهو مجازاة الله عباده على الأعمال، بعد أن ذكر سبحانه الحكم القدَري، وهو التدبير العام لأمور الخلائق في قوله ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ وبعد أن ذكر الحكم الشرعي المتضمن لعبادة الله وحده في قوله ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَاعْبُدُوهُ﴾.

وهذه الآية تعليلٌ لِمَا قبلها؛ لأن القوم كانوا يُنْكِرُونَ البعث والنشور والقيام لرب العالمين ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام] فأشار سبحانه إلى الحشر والحساب في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إلى ربكم مَعَادُكم يوم القيامة جميعًا بعد البعث والنشور ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ فهي عودة مؤكَّدَةٌ لا شَكَّ، ولا جدالَ فيها.

---

(١) قرأ أبو جعفر (أنه يبدأ الخلق) بفتح همزة (إنه) على حذف لام الجر، أو على أن (أن) وما دخلت عليه معمول لقوله تعالى: (وعد الله) أي: وعده بإعادة الخَلْقِ بعد بدئه، وقرأ الباقون بكسرها على الاستئناف، ويقف حمزة وهشام بخلفه على (يبدأ) بإبدال الهمزة حرف مد، أو تسهيلها بالروم، أو بإبدالها واوًا على الرسم، وعليه السكون المحض والرسم والإشمام.

ثم استدل سبحانه على إمكان وقوع البعث ببَدْءِ خَلْقِ الناس مِن العَدَم ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فكما أوجدكم من العدم في المرة الأولى، فهو قادر من باب أَوْلَى على عودتكم إلى الحياة بعد الموت مرة أخرى كالهيئة الأولى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، والذي يرى ابتداء الخلق ثم ينكر إعادته، فاقد للعقل، منكر لأحد المِثْلَيْن، مع إثبات ما هو أولى منه.

وبعد البعث يكون الثواب والعقاب؛ لأنَّ الله تعالى لم يَخْلُقْنَا عَبَثًا، ولا يتساوى في هذه الحياة الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر، فالعلة والسبب من إعادة الخَلْق بعد الموت ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] وقال تعالى هنا: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: يجزي المؤمنين على ما قدَّموه في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح الجزاءَ العادل، كما قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقد جعل الله دخول الجنة مسببًا على العمل الصالح، وهو محضُ فَضْلٍ من الله تعالى، فَيُوَفِّيهم أجورَهم، ولا ينقصها لهم كما أقسطوا وعدلوا مع الله تعالى، ولم يظلموا أنفسهم بالشرك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء]

وقال سبحانه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

وتأتي أَقْسَطَ بمعنى عَدَلَ، **والمُقْسِطُ**: هو العادل، أَمَّا قَسَطَ فمعناها جَارَ وظَلَمَ وتَعَدَّى، **والقاسط**: هو الجائر الظالم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن].

أما الجاحدون لوحدانية الله تعالى، ورسالة رُسُلِه، الذين ظلموا أنفسهم بالشرك؛ فطعامهم الزَّقُّوم والضَّرِيع والغِسْلِين ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو يغص في حُلُوقِهِم؛ فلا يستطيعون بَلْعَهُ، فإذا استغاثوا، وطلبوا ماءً؛ أُغيثوا بماءٍ كالمُهل يَشْوِي الوجوه إذا اقتربوا منه، ويُقطِّع الأمعاء إذا نَزَلَ في بطونهم، فهو ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ

يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وشراب الحميم: هو ماءٌ متناهي الحرارة ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ [الحج]

قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وقال سبحانه: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ [النبأ]

وهم يتجرعونه؛ بسبب كفرهم، وجحودهم، وضلالهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠] ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ [ص].

وإذا اقترب الكافر من هذا الماء الحار تساقطتْ فَرْوَةُ رأسِه ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]

ويقال لأهل جهنم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمن] وقال تعالى في عقوبتهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

٥- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً[1] وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ[2] ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

هذه أربع أدلة عقلية على وحدانية الخالق سبحانه، وهي تشتمل على أصناف المخلوقات كلها، وهي الشمس والقمر والسموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهذه المخلوقات تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه وحياته وقيّومته، وكمال حكمته، وحُسْن خَلْقه وسعة عِلْمه، وتدل على رحمته بعباده وإحسانه إليهم، وكل هذا يدل على وحدة المعبود الذي تصرف له الرغبة والرهبة وخالص الدعاء، وفي هذا حث على التفكر

(١) قرأ قنبل بقلب همزة (ضياء) ياء، على أن أصلها (ضياي) فقدمت الهمزة على الياء، فوقعت الياء طرفًا بعد ألف زائدة، فقلبت همزة، والباقون بالياء جمع ضوء، أو مصدر ضاء ضياء.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب (يفصل) بياء الغيب، وقرأ الباقون بنون العظمة.

في مخلوقات الله، حتى يزداد الإيمان، وتنفتح البصيرة، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك تهاون بأمر الله، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة[1].

أي وهذا لَوْنٌ آخَر مِنْ مظاهر القدرة الإلهية في الخَلْقِ والكون؛ تنبيهًا على أَنَّ هذا الكون مِنْ صُنْعِ الله سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ **والضياء**: هو النور الساطع، والشعاع الفائض من الشمس، وهو أقوى وأشد وأكمل من نور القمر؛ لأنهما إذا تساويا لا يُعْرَفُ الليل مِنْ النهار، والضياء مختص بالشمس، والنور مختص بالقمر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح] وقال جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

والله سبحانه هو الذي أوجد الشمس والقمر، وجعلهما نيِّرَيْنِ، وهما من أعظم الآيات الدالة على توحيد الله سبحانه، ولكننا نألفهما ونراهما في كلِّ يوم.

وهذا التعود لرؤية المخلوقات لا يجعل بعض الناس يلتفت إلى عظيم خَلْقِ الله تعالى وقدرته فيهما، وقد أَمَرَنا الله جل شأنه بالتَّفَكُّرِ في آثار صُنْعِهِ فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]

وبالشمس تُعرف الأيام، وبالقمر تُعرف الشهور والأعوام.

وجعل الله للقمر منازلَ؛ أي: مواقع لا يتجاوزها في السير، ولا ينقص عنها، وبها تُعرف الأَهِلَّة والسَّنَة القمرية، ومنازل القمر مقسومة على اثني عشر بُرْجًا هي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، ولكلِّ برج منها مَنْزِلَان وثُلُث ينزل القمر كل ليلة منها منزلًا إلى انقضاء ثمانٍ وعشرين ليلة، ثم يستتر ليلتين إنْ كان الشهر ثمانية وعشرين يومًا، وليلة واحدة إن كان الشهر ثلاثين يومًا.

ويبدو القمر هلالًا صغيرًا في أوَّله، ثم يتزايد نورُه وحجمه شيئًا فشيئًا حتى يكتملَ، ويصيرَ بدْرًا في منتصف الشهر، ثم ينقص شيئًا فشيئًا حتى يرجع إلى حالته الأولى كبداية

(١) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

الشهر ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان].

وقد علَّمَنا الله تعالى مَنَازِلَ الشمس والقمر؛ لِحِكْمَةٍ عظيمةٍ، وغايةٍ كبيرةٍ ذَكَرها ربُّنا في قوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢] فتعْلَمُوا فصولَ السنة، وعددَ الشهور والأيام والساعات، وزيادتها ونقصانها، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال سبحانه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

وقد جعل الله هُداه في الكفر، كالنور في الظلام، فَيَهْتَدِي به قومٌ ويُضَلُّ آخرون، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقد شبَّه الله هُداه بالنور، ولم يشبِّهه بالضياء مع أنه أشدُّ مِنْ النور؛ لأنَّ الضياءَ لا يَبْقَى معه ظُلْمةٌ، بخلاف النور؛ فإن بعض الظلام يبقَى معه، ولو كان نورُ الله تعالى كضياء الشمس؛ لوجب أنْ لا يضلَّ أحدٌ مِنْ الخَلْقِ.

وما خَلَقَ الله الشمس والقمر إلا لحِكْمَةٍ عظيمةٍ، ودلالة بارزة على كمال قدرة الله تعالى، وعظيم عِلْمه ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقهما لهوًا، ولا عبثًا؛ إنما خلقهما للدلالة على وحدانيته سبحانه، ولتقوم الحجج والأدلة على قوم يَعْلَمُونَ الحِكْمَةَ في إبداع الخَلْقِ، فهو سبحانه ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ويوضحها ويُبَيِّنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فينفعون بها، ويستدلونَ بها على قدرة الله تعالى:

قال سبحانه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان]

وقد يغفل الإنسان عن هذه الحكمة؛ لغفلته عن كثيرٍ من آيات الله في الكون، وعدم التَّفَكُّرِ فيها ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف].

وَمِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ: خَلْقُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

٦- ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

ثُمَّ ذَكَرَ سبحانه دليلًا أعَمَّ وأشْمَلَ على انفراد الله تعالى بالخَلْق والتقدير، ومِنْ ثَمَّ وجوب إفراده تعالى بالعبادة دون سواه، وهو استدلال بأحوال الضوء، والظُّلمة، وتعاقُب الليل والنهار، وبكلِّ مخلوق في العالم العلوي والسفلي على مختلف العصور.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ﴾ أي: تعاقُب الليل والنهار ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من عجائب الخَلْقِ، من ملك وإنس وجان وحيوان وشجر ونبات وجبال وأنهار وغير ذلك، وما فيهما من إبداع، وإحكام، ونظام ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لأدلة واضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: يخْشَوْن الله تعالى، ويخافون عقابه، وغضبه، وسخطه، وخَصَّ المتقين بالذِّكْرِ؛ لأن في الآية تعريضٌ بالمشركين الذين لم يهتدوا، وفيها بيانُ أن أهل التقوى هم الذين ينتفعون ويعتبرون، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وغيرهم لا ينتفع، ولا يعتبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقد خُتِمَتِ الآية التي هنا بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ وخُتِمَتِ الآية المماثلة التي في البقرة بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وخُتِمَتِ الآية التي في آل عمران بقوله تعالى: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وذلك لأن السياق هنا في خطاب المشركين فيه تعريضٌ لهم بعدم الهداية، وعدم التقوى، وعدم الانتفاع بآيات الله في الكون، أما آيتا البقرة وآل عمران فَهُمَا في سياق شامل يجمع الناس جميعًا، وهذا يشمل أصحابَ العقول، وطالبي العلم والمعرفة.

عُقُوبَةُ مَنْ يَكْفُرُ بِالآخِرَةِ وَثَوَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَا

٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟[(١)] بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾

(١) قرأ الأصبهاني عن ورش بتسهيل همزة (اطمأنوا) وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف.

ثُمَّ شَرَعَ سبحانه في شرح أحوال مَنْ يَكْفُرُ بالآخرة، وَمَنْ يؤمن بها، فبدأت هذه الآية بالوعيد لِمَنْ لم يُؤمنْ بالبعثِ، ولم يفكر في الحياة الآخرة، ولم يَنظر في الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الخالق سبحانه،الموجِبة لتوحيد الله تعالى،والتي يَنْتَفِعُ بها المؤمنون المتقون، أما غير المتقين فَهُمْ لا ينتفعون بها؛ مع أن القرآن نزل لهداية البشر جميعا، كما قال تعالى ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وذلك لأنهم سادرون في غيِّهم،لا يؤمنون بلقاء الله، وغفلوا عن آياته، فَلَمْ يتدبروا مافيها، وقد تَمُرُّ عليهم، وقلوبهم لا يتحرك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ ممن لا يطمعون في لقاء الله ولا يؤملون في العرض عليه، وهم الأشقياء الذين كذَّبوا بلقاء الله، وبجنته، وناره؛ لأنهم مكذِّبُون بالبعث والنشور؛ فلا يتوقعونه، ولا يرجون رحمته، ولا يطمعون في ثوابه، ولا يُحسِنون الظن بلقائه، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمأنت إليها أنفسُهم، وقدوصفهم اللهتعالى **بأربعة أوصاف ذميمة:**

الوصف الأول: أَنَّهُم لا يطمعون في ثواب الله تعالى، ولا يخافون عقابه؛ لأنهم لا يُؤمنون بالبعث، وما يتلوه من الحساب والجزاء على الأعمال بالجنة أو النار؛ فهم لا يرجون لقاء الله ولا يخافون عقابه.

الوصف الثاني: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدلًا عن الآخرة، فَهَمُّهُم محصورٌ في الدنيا، وشهواتها، وجعلوها عوضًا عن الآخرة، وهي غرضهم الأول والأخير، فالدنيا نعيمُ الظالمين.

قال علي بن أبي طالب: الدنيا جيفة، فَمَنْ أرادها فلْيَصبر على مُخَالَطَةِ الكلاب[1].

الوصف الثالث: ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ أي: ركنوا إلى الدنيا؛ وجعلوها غايتهم، فسكَنَتْ نُفُوسُهم لها، وصرفوا هِمَّتَهُم في تحصيلها، ولم يعملوا لما ينفعهم في الآخرة، فَأَهْلُ السَّعَادَةِ يَطْمَئنون بذكر الله، وأهل الشقاء ماتت قلوبهم؛ فلا تطمئن إلا للذائذ الدنيا وشهواتها، وكأنهم خلقوا لها، وليس للآخرة وجود في حساباتهم.

الوصف الرابع: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ إنهم ساهون ومعرضون عن آيات الله

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٣٣).

الكونية والشرعية، التي تُوْقِظُ القلب، وتهدي العقل، وتُحَفِّزُ إلى التفكير والتدبر، فهم لا ينتفعون بالآيات القرآنية ولا بالآيات الحسية الأفقية.

فهؤلاء الأشقياء استحبوا الضلالة على الهدى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وكانوا من أهل الدنيا الذين يفرحون لها، ويحزنون لها، ويسخطون لها، ويرضون لها، وكانوا من عبيد الدينار، والدرهم، والهوى، والشيطان، قال تعالى:

٨- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ[١] ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

أي: وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات الأربع مَقَرُّهُم نار جَهَنَّم في الآخرة؛ جزاء بما اكتسبوا في دنياهم من الآثام والخطايا، وغفلوا عن صفحة الكون المرئية؛ فاكتسبوا ما جعل مصيرهم النار، وخسروا دنياهم وأخراهم.

وبعد أن ذكر الله تعالى عقاب العصاة، أعقبه بذكر ثواب المطيعين فقال:

٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ[٢] رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ[٣] ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

وبعد ذِكْرِ أوصاف الكفار الذميمة يأتي ذِكْرُ أوصاف المؤمنين الحميدة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة، وهكذا، يربط القرآنُ دائمًا بين الإيمان والعمل الصالح، فالتصديق الجازم بالله ورسوله يَلزمه العمل الصالح الذي يَزِيدُ الإيمان ويُنَمِّيه، وهؤلاء المؤمنون ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ فيكون إيمانهم لهم نورًا يمشون به على الصراط، ويجعل ثواب إيمانهم وأعمالهم الصالحة جنات نعيم، ويسددهم بسبب استقامتهم على الطريق السديد، فيثيبهم

(١) قرأ الأصبهاني وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه، بإبدال همزة (مأواهم) ألفًا وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (يهديهم)، والباقون بكسرها.

(٣) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلًا من (تحتهم الأنهار)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمهما وصلًا، والباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلًا، وجميع القراء يكسرون الهاء ويسكنون الميم وقفًا.

أعظم الثواب على الإيمان والعمل الصالح، ويهديهم إلى طريق الجنة بنور إيمانهم، ويرشدهم إليه، فبسبب الإيمان الذي معهم، يمنحهم الله الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في الدنيا إلى صراط مستقيم، ويهديهم في الآخرة إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

قال مجاهد: يهديهم ربهم على الصراط إلى الجنة، ويجعل لهم نورًا يمشون به.

وعن قتادة قال: حدثنا الحسن قال: أُبلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ المؤمن إذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عينُ امرِئٍ صِدْقٍ، فيقول له: أنا عملُك، فيكون له نورًا وقائدًا إلى الجنة، وأمَّا الكافر فإذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة سيئة، وريح مُنتنة؛ فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عينُ امرِئٍ سُوءٍ، فيقول له: أنا عملُك؛ فينطلق به حتى يدخلَه النار**»[(١)].

وحين يمرُّ المؤمن يوم القيامة على الصراط، فإن الله تعالى يُعطي المؤمنين نورًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم؛ فيمشون في هذا النور حتى يوصِّلَهم إلى جنات نعيم؛ بسبب حُسْنِ اعتقادهم وأعمالهم الصالحة في الدنيا ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

والمنافقون يقتبسون من نور المؤمنين، ويمشون وراءهم، ثم تصيبهم ظُلمة شديدة على الصراط؛ فيقولون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ ثم يضرب ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

ثم ذَكَرَ سبحانه نعيمَ أهل الجنة فقال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وبعد وصول المؤمنين إلى الجنة؛ فإنهم ينعمون فيها بحدائق وبساتين، تجري تحت قصورها وأشجارها الأنهار الجارية على الدوام، والماء الذي لا يتغير، وهذه الأنهار تجري بأمرهم، وهم ينظرون إليها مِنْ فوق أَسِرَّتهم في قصورهم، وهذه الجنات هي دار الجزاء

---

(١) ابن جرير (١١/ ٦٣) وأخرجه أيضًا ابن المنذر وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٩) وهو أثر مرسل وفيه عمرو بن قيس الملائي، ولا يصح من قبل إسناده، قاله ابن العربي في سراج المريدين (تفسير القرطبي ١١/ ١٥١)، وبنحوه عن ابن جريج.

والثواب، كما أن الدنيا دارُ العمل والابتلاء، وقد أضاف الله تعالى الجنات إلى النعيم، لأنها تشتمل على نعيم الروح بفرح القلب، ورؤيا الرحمن، والسعادة برضاه، وتشتمل على نعيم البدن بما تشتهيه الأنفس من أنواع المآكل والمشارب والمناكح.. قال تعالى:

١٠- ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

أي أن أول عبادة المؤمنين في الجنة هو تسبيح الله تعالى وتنزيهه عن كل نقص، وآخرها حمد الله تعالى، فذكر الله تعالى هو الذي بقي لهم في الدار الآخرة يتلذّذون به وتفرح به أرواحهم ويجري على ألسنتهم تلقائيا.

وليس في الجنة عبادة، ولا تكاليف شرعية، فالمؤمنون في الجنَّة لا يُكَلَّفُونَ بشيء من الطاعات، والطاعة منهم لله ﷻ -وهم في الدار الآخرة- شيءٌ طبيعي؛ أي: فِطْري وتلقائي لا يتكلّفونها، بل يُلْهَمُونَها إِلْهامًا، ولا يكلِّفهم هذا شيئًا، فهي تجري منهم مَجْرَى النَّفَس الذي يخرج من الإنسان؛ فيَخرُج منهم التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وسائر الطاعات اللفظية، كما يَخرُج منهم النَّفَس؛ وذلك لأنه بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب، وتكْمُل اللذة.

من نعيم أهل الجنة: ويبيِّن ﷺ أنَّ أهل الجنة في الجنة، يأكلون ويشربون ويتلذذون وينعمون، وهم لا يبولون، ولا يتغوَّطُون، ولا يمتخِطُون؛ فلا تخرج منهم فضلات، ولا قاذورات، أو نجاسات، ورائحة الرَّشْح والعَرق الذي يخرج منهم رائحة المسك.

جاء في الحديث عن جابر ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفُلُون، ولا يبُولون، ولا يتغوَّطون، ولا يمتخطون**» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جُشاء، ورَشْح كرشْح المسك، يُلْهَمون التسبيح والتحميد كما تُلْهَمُون النَّفَس**»[1].

أي: أَنَّ الطعام الذي يأكلونه لا يَخْرُج فَضَلات، بل يَخْرُج جُشاء وعرقًا.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصُقون فيها، ولا يَمْتخِطُون فيها، ولا يتغوَّطون فيها، آنيتُهم**

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٨١) برقم (٢٨٣٥) من حديث جابر ﷺ.

وأمْشاطُهم من الذهب والفضة، ومجامِرُهم من الألُوَّة، ورَشْحُهم المسك، ولكل واحدٍ منهم زوْجتان، يُرى مُخُّ ساقهما مِنْ وراء اللحم من الحُسْن، لا اختلاف بينهم ولا تباغُض، قلوبهم قلْبٌ واحدٌ، يُسبِّحُون الله بكرة وعشيًّا»[1].

وإذا أراد أهل الجنة طعامًا، أو شرابًا، أو أرادوا استدعاء الخدَم فإنهم يسبِّحون الله تعالى، وهذا التسبيح علامة، أو إشارة بيْنَ أهل الجنة والخدم؛ فيأتون لهم بما يشتهون فوق موائدهم عندما يسمعون تَسْبِيحَهُم، ذَلِكُم قول الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: أنَّ دُعاءهم في الجنة هذه العبارة ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ هذا هو قولهم وكلامهم كلما أرادوا شيئًا، وهو دعاؤهم الذي يفهمه الخدم لطلب شيء، فإذا قالوه أتاهم ما يشتهون، فإذا جاءهم الملَك بما يشتهون سَلَّمَ عليهم؛ فيردون عليه، وهذا معنى ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ فإذا أكلوا قدر طاقتهم قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال علي بن أبي طالب: هذه كلماتٌ رضيها الله تعالى لنفسه؛ وهذا يعني أن عبادة المؤمنين في الجنة، ودعاءهم حين يطلبون الخدم هو هذا التسبيح، فلا يَرى أمامه إلا الشيء الذي طلبه من كلِّ ما لذَّ وطاب.

ولفظ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ نداءٌ لله تعالى، كأنه يقول: يا ألله، وهذا التسبيح يُسمَّى دعاء بالمعنى اللغوي.

والسلام: هو التحية المتبادَلة بين أهل الجنة فيما بينهم، وبينهم وبين الملائكة، وهو تحية الله لهم في الجنة، قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد]

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة].

وتحية الله تعالى لأهل الجنة أيضًا هي السلام ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس].

فإذا فَرَغَ أهلُ الجنة مِنْ طعامهم، وشرابهم، ونعيمهم؛ فإنهم يُلْهَمُون الحمد إلهامًا، كما يُلْهَمُون التقديس والتسبيح أيضًا، وهذا قول الله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أن يقولوا: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال الزجاج: أَعْلَمَ اللهُ أن أهل الجنة يَبْتدِئُون بتعظيم الله وتنزيهه، ويَخْتِمون بشكره

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٤) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٤٥) وانظر (٣٢٤٦، ٣٢٥١، ٣٣٢٧).

والثناء عليه، فهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح، ويختمونه بالتحميد.

وقد دلَّ على فضل التسبيح والتحميد قول النبي ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**[١].

ورَوى النسائي وغيره عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«دعوة ذي النون إذْ دعا بها في بطن الحوت** ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فإنه لن يدعوَ بها مسلمٌ في شيء إلا استجيب له»[٢].

وهذا يوضح أن المراد من التسبيح هو الدعاء.

وفي هذا دَلالة على أن الله تعالى هو المعبود أبدًا، وهو المحمود أبدًا، والحمد يكون في البدء، وفي الختام، والاستمرار.

فقد حَمِدَ الله تعالى نفسه عند ابتداء تنزيله في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف].

وحمد نفسه عند ابتداء خَلْقِه، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وحمد نفسه بصفة مستمرة في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ].

وحمد نفسه عند ابتداء كلامه في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة].

وحمد نفسه في الختام فقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٦٩٤) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣).

(٢) «المسند» (١٤٦٢) من حديث طويل، إسناده حسن، (محققوه) والترمذي (٣٥٠٥) والنسائي في «الكبرى» (١٠٤١٧) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٥) و«المستدرك» (١/ ٥٠٥) والبزار (١١٦٣)، وأبو يعلى (٢٧٢).

مِنْ طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْمَذْمُومَةِ: اسْتِعْجَالُ وُقُوعِ الشَّرِّ

١١- ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ[١] فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ[٢] يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

والآيات من هنا إلى نهاية الآية رقم [٢٣] تتحدث عن طبائع المشركين وقبائحهم، ويُستعمل فيها لفظ (الناس) عمومًا.

وفي هذه الآية بيَّن الله تعالى شؤون البشر وغرائزهم، فيما يعْرض لهم في الحياة مِنْ خير وشر ونفع وضر، فمن لطف الله وإحسانه أنه لو عجل الشر بالإنسان إذا هو أتى بأسبابه؛ كما يعجل له الخير إذا أتى بأسبابه، لَقَضَتْ عليهم العقوبة، وأتت على آجالهم، ولكن الله يهملهم ولا يهملهم، فلو أخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

قال قتادة في معنى الآية: هو دعاء الرجل على نفسه، وولده، وماله إذا غضب بما يكره أن يستجاب له[٣].

أي: أنه تعالى لو أجاب الناس حين يدعون على أنفسهم، أو أولادهم، أو أهليهم بالمكروه، وهم في حالة غضب، كما يجيبهم إلى الخير -لكان في هذا هلاكهم؛ بسبب استعجالهم للأمور قبل أوانها.

وفي هذا تعريضٌ بِمَنْ يُنكِرُونَ البعث، وتعريضٌ بالمشركين الذين يستعجلون نزول العذاب بهم.

ولفظ الناس في حد ذاته يعم المسلم والكافر، **والتعجيل:** تقديم الشيء قبل وقته، **والاستعجال:** طلب العجَلة.

والإنسان من طبعه العجلة في الأمور، كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) قرأ ابن عامر ويعقوب على البناء للفاعل (لَقَضَى إليهم أجَلَهُم) والفاعل ضمير يعود على الله تعالى (وأجلَهم) مفعول به، وقرأ الباقون (لَقُضِيَ إليهم أجَلُهم) على البناء للمفعول و (أجَلُهُم) نائب فاعل.

(٢) أمال (طغيانهم) دوري الكسائي وحده.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن، وبه قال مجاهد (١٢/ ١٣٠) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٣٢).

ومن جهل الإنسان أن يظن أن تصرفات الله تعالى كتصرفات البشر؛ فيندفع إلى الانتقام عند الغضب اندفاعًا سريعًا، وقد يظن أن الرسل مبعوثون للمجيء بالمعجزات، والتنكيل بالمعارضين.

والإنسان غالبًا يطلب العَجَلَة في الأمور؛ فيستعجل نزول الشر كما يستعجل نزول الخير، ويستعجل الضر كما يستعجل النفع، وقد يستعجل الموت، كما يستعجل الحياة أو يستعجل نزول العذاب به، كما يستعجل نزول الرحمة، ولو أن الله تعالى أجاب الناس في طلب الشر؛ لكان فيه هلاكهم وضررهم، يحدث كلُّ هذا من الكفار، وقد يحدث من بعض المسلمين.

ومثال ما يحدث من الكفار قول النضر بن الحارث أو غيره، وهو يستعجل نزول العذاب بالكفار: إنْ كنتَ - يا محمدُ - صادقًا في دعواك فعجِّلْ لنا بنزول العذاب ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال] ولو أن الله تعالى عَجَّل للكافرين ما يطلبون من العذاب كما يُعَجِّلُ لهم خير الدنيا من المال والمتاع والولد؛ لكان في هذا هلاكُهم، وانقضاء آجالهم، وهذا ما تشير إليه الآية التي معنا ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

وفي هذا المعنى نزلتْ آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت]

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨] وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت]

وقوله جل ثناؤه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الملك].

وربما استعجل المؤمنون نزول العذاب بالمشركين، واستبطؤوا مجيءَ النصر لهم كما قالوا للنبي ﷺ: ألا تستنْصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ وربما تَعَجَّبَ بعضُ المسلمين مِنْ أنَّ الله تعالى يَرزق المشركين وهم يَكْفُرُونَ به؛ فجاءت هذه الآية وما بعدها بقوارع التهديد للمشركين، وجاءت بما يزيل شبهات المؤمنين، ويُطَمْئِنُ نفوسهم؛ بِأَنَّ الكفار هم الذين لا يرجون لقاء الله، وهم أنفسهم الذين ختم الله بهم هذه الآية ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: فنترك الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالبعث والنشور ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله في عتوِّهم وتمرُّدِهم يترددون حائرين، لا يهتدون إلى سبيل.

والطغيان: هو الغلوُّ في الأمر، وتجاوز الحد، ومع هذا فقد يفيض الله عليهم بالنِّعَمِ؛ لتلزمهم الحُجَّة.

والآية تشير إلى حِلْمِ الله تعالى ولُطْفه بعباده، وأنه لا يستجيب لهم حين يتفجَّر الغضب من العبد المسلم؛ فيدعو بالشر على نفسه، أو على أهله، أو ولده، أو ماله، فلا يُوقِعُ بهم ما طلبوا؛ لأنَّه سبحانه يعلم أنَّ عدم قَصْدِ الشر موجودٌ فيهم، وهذا الدعاء الذي صدر منهم حدث بسبب هذه الغضْبة العارضة، وليس عن صِدْقِ نيَّة؛ ولهذا فهو سبحانه لا يستجيب لهم رحمةً بهم.

وهذا كقول الإنسان لولده إذا غضب عليه: اللهم لا تُبارِك فيه، اللهم الْعَنْهُ، ونحو هذا، وقد جاء النهي عن ذلك في الحديث عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم**»[1].

وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء].

وإذا دعا الإنسان على غيره لسبب أو لآخر؛ فإنه ينبغي عليه أن يُكَفِّرَ عن ذَنْبِه بكثرة الدعاء له والثناء عليه.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم إنما محمد بشر، يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذتُ عندك عهدًا لن تُخْلِفَنيه، فأيما مؤمن آذيتُه، أو سببته، أو جلدتُه، فاجعلها له كفارة، وقُربة، تقرِّبه بها إليك يوم القيامة**»[2].

وَمَهْمَا غضب الإنسان، واضطربت أعصابه، فإنه لا ينبغي له أن يدعوَ على نفسه، أو على غيره بالشر، على أنَّ اللعنة تُغلق دونها أبواب السماء، وتعود على قائلها إن لم يكن الملعون مستحِقًّا لها، ومِن لُطف الله تعالى بعباده أنه لا يُعجِّلُ لهم إجابة الدعاء بالشر، كما يعجل لهم إجابة الدعاء بالخير، ولو أن الله تعالى عَجَّل نزول الشر بِمَنْ يستحقه؛ لَبَطَلَ النظام الذي قام عليه العالم.

---

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» (٣٠٠٩) بنحوه في «سنن أبي داود» برقم (١٥٣٢) ورواه البزار في «مسنده».

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٠١).

التَّنَاقُضُ الَّذِي يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ عِنْدَ إِصَابَةِ الضُّرِّ

١٢- ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثُمَّ يَعْرِض الله سبحانه صورة بشرية أخرى للإنسان، يكشف فيها القرآن عن التناقض الذي يعترى الإنسان عندما يصيبه الضر في النَّفْسِ، أو المال، أو الأحبة، واختلاف حاله بعد أن يكشف الله عنه ضُره، وهي صورة من صور استعجال الإنسان الذي ذُكِرَ في الآية السابقة.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: الشِّدة؛ كالفقرِ، أو المرضِ، أو الهزيمةِ، أو الخوفِ ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: استغاث وتضرع وأَلَحَّ على الله تعالى واجتهد في دعائه، في جميع أحواله وأوقاته، وسأله أن يكشف عنه الضر.

وقد ذَكَرت الآية ثلاثة أحوال لا ينفكُّ عنها الإنسان، وهي كَوْنُه على جَنْبٍ؛ أي: مضطجعًا، أو قاعدًا، أو قائمًا، فهو يسأل الله سبحانه في هذه الأحوال الثلاثة أَنْ يكشف عنه ضُرَّه، وقد يصيبه الضر وهو في أحد هذه الأحوال الثلاثة؛ فيسأل الله رَفْعَه عنه في أيِّ حالة كان عليها حين مسَّه الضُّر، ولا يترك الابتهال إلى الله تعالى حتى يكشف الله عنه ضُره، وبعد ذلك ينسَى ما كان فيه من شدة وبؤس، وفي هذا ذَمٌّ لمَن كان كذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨].

فإذا فرَّجَ الله عنه كُرْبَتَه، وزالت شِدته، استمر على طريقته الأولى التي كان عليها قبل أَنْ يصيبه الضر، ونَسِيَ ما كان فيه من الشِّدة والبلاء، وتَرَكَ الشكر لربه الذي فرَّج عنه ما كان فيه، وهذا معنى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ أي: استمر على حاله الأول ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾، وظل معرضًا عن ربه، كأنه لم يمسه ضر ولم يُكْشَف عنه سوء.

وهكذا زيَّن الشيطان للذين أسرفوا في الكذب على الله تعالى، وعلى أنبيائه، ورسله، ما كانوا يعملون من المعاصي والشرك؛ فاستمروا على الجحود والعناد بعدما كشف الله عنهم مِنَ الضُّر ما كان بهم ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوِزين الحدَّ في الضلال ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من متابعة الشهوات والإعراض عن ذِكْرِ الله؛ وذلك لأنَّ الإنسان قليلُ الصبر عند

نزول البلاء، قليلُ الشكر عند حصول النعماء والرخاء، فإذا مسَّه الضر أقْبَلَ على الدعاء، فإذا كشف الله عنه ضره أعرض عن الشكر والدعاء، ورجع إلى حاله، وهذا حالُ الغافل الذي زيَّن له الشيطان عمله الفاسد، فإذا فرج الله عنه كربته رجع إلى غفلته، وقسوة قلبه، ونَسِيَ ذِكْرَ ربِّه، كما نَسِيَ ما كان فيه مِنْ كَرْبٍ، وشِدة.

أما حال المؤمن الحق، فإنه يصبر على البلاء، ويشكر على النعماء، فهو يرضى بقضاء الله، ويشكره في كلِّ حالٍ، معتقِدًا أنَّ الله تعالى حكيمٌ في جميع أحواله، وله مُطْلَقُ التصرف في خَلْقِهِ يفعل كيف يشاء، ولا يُسأل عمَّا يفعل، ويَعتقد أنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وهكذا استثنى الله عبادَه الصالحين الذين رزقهم الله الهداية والتوفيق والسداد، مِمَّنْ يسألون ربهم في الشِّدَّة والرخاء، فهم ليسوا ممَّن تشير إليهم الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود]

ثُمَّ استثنى سبحانه عباده الصالحين فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١].

وهذا يشبه قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج].

وفي الحديث عن صُهَيْب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيرًا له»**[1].

وفي الآية ذمٌّ لِمَنْ يدعو الله في الشِّدَة، ويَنْسَاه عند الرخاء، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«تعرَّفْ على الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**[2].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

(٢) هذه الفقرة من حديث «يا غلام ألا أعلمك كلمات» من رواية عبد بن حميد في مسنده بإسناد ضعيف عن عطاء عن ابن عباس، وكذلك عزاه ابن الصلاح في (الأحاديث الكلية) إلى عبد بن حميد وغيره (أفاده ابن رجب في جامع العلوم والحكم، الحديث التاسع عشر) وليست هذه الفقرة في حديث الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٦٦٩) وغيرهما، فهو حديث حسن صحيح، الإسناد فيه مختلف والمعنى واحد.

مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنْ يُهْلِكَ الظَّالِمِينَ

١٣- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم[1] وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴿١٣﴾﴾

وكما أهلك الله الظالمين من الأمم السابقة، يهلك مَن كان مثلهم مِن هذه الأمة، وهكذا بين الله تعالى نهاية المسرفين المكذِّبين لرسل الله، الذين لا يرجون لقاء الله فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي: أن الله تعالى أهلك الأمم التي كانت قبلكم لمَّا أشركوا بالله وكذبوا رسله، وتمادوا في الغي والضلال، والشرك بالله هو أعظم الظلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وأهلكناهم لمَّا كذَّبوا رسل الله، مع أنهم جاؤوهم بالأدلة الواضحة الدالة على صِدْقِهم في دعواهم للرسالة ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أنَّ الله تعالى أرسل إليهم رسلًا، وأَيَّدَهُم بالمعجزات والحُجج القوية التي يتميز بها الصادق من الكاذب، ولكنهم مع ذلك كذَّبوا رسلَ الله، ولم ينقادوا لهم، فأحل الله بهم عقابه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وهذه سنة الله في جميع الأمم.

وقد سبق في عِلْم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا مَهْمَا جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، وهذا معنى ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ وهذا إخبارٌ من الله تعالى عن قسوة قلوبهم وَشِدَّة كفرهم، وعدم رجاء إيمانهم؛ أي: أن هذه الأمم التي أهلكها الله تعالى، لم تكن لتؤمن بالله ورسله لو أبقاهم الله دون استئصال ولم يهلكْهم، فهم مُصِرُّون على كفرهم وتكذيبهم.

ثُمَّ إنَّ عُقوبةَ المجرمين تَعُمُّ السابقين واللاحقين، وبمثل هذا الجزاء نجزي كلَّ مَن أجرم وتجاوز حدود الله، و﴿مَآ﴾ مصدرية وليست نافية.

وقد بينت الآية **ثلاثة أسباب** موجبة لإهلاك الأمم؛ وهي:

أولًا: ظُلْم النَّفْسِ بالشرك بالله تعالى، وظلم الآخرين.

---

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلهم)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

ثانيًا: عدم الإيمان بخاتم الرسل ﷺ.

ثالثًا: عدم الإيمان بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص]. قال تعالى.

١٤- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثُمَّ أَخْبَرَ سبحانه أنه جعلَنا خُلَفَاء في الأرض لِمَن سَبَقَنا؛ لِيَنْظُرَ كيف نعمل، فأروا الله -أيها المؤمنون- حُسْنَ أعمالكم في السِّر والعلن، وهذا معنى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أيها الناس المخاطبون ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: جعلناكم خُلَفاء في الأرض للأمم التي أهلكت ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لنُظْهِرَ عملكم في عالم الوجود من خير أو شر؛ فنجازيكم على ما تعملون في السر والعلن، فإن اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم نجوتم من عذاب الله، وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما حل بهم، وقد أعذر من أنذر.

ومعنى ننظُر: نعْلَم عِلْمَ اليقين مقتضى ما سبق به القلم، أنهم سعداء أم أشقياء، فيظهر ذلك للناس وللملائكة؛ لتقوم به الحجة عليهم.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الدنيا حُلوة خضرة، وإن الله مستَخْلِفُكُم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[1].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وجاء في الخَبَرِ أن عوف بن مالك رأى في المَنَام: كأن جبلًا نزل من السماء، فأخذ رسول الله ﷺ، ثُمَّ أخذ أبا بكر، فذهب عوف يقصُّها على أبي بكر؛ فنهره عمر -رضي الله عن الجميع- فلمَّا استُخلف عمر، قال: يا عوف، رؤياك! قال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أولم تنتهرْني؟ قال: ويحك، إني كرهت أن تنعَى لخليفة رسول الله نفسه،

---

(١) مسلم (٢٧٤٢).

فقصَّ عليه الرؤيا، وفيها أن أبا بكر زاد على عُمَرَ بثلاثة أذرع في المنبر، قال عمر: أمَّا إحداهن: فإنه كان خليفته، وأما الثانية: فإنه كان لا يخاف في الله لومة لائم، وأما الثالثة: فإنه شهيد، قال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ فقد استُخْلِفْتَ يابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟[١].

قال قتادة: ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صَدَقَ رَبُّنَا، ما جعلَنا خلائف في الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله خيرَ أعمالكم بالليل والنهار، والسر والعلانية[٢].

المَوْضِعُ الثَّانِي مِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنْ الوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

١٥ - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ[٣] بِقُرْءَانٍ[٤] غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ[٥] أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ[٦] أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ[٧] إِنِّىٓ(٣) أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

أي أن القرآن إذا تلى على المكذبين به أعرضوا عنه وطلبوا قرآنًا غيره يوافق أهواءهم، وهذا أمر لا يليق بالرسول ﷺ ولا ينبغي له، إذ هو مبلغ عن ربه وليس له من الأمر شيء، ومن يفعل مثل ذلك متوعد بالعذاب العظيم ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة].

---

(١) ينظر: الطبري (١٥/ ٣٩).

(٢) الطبري (١٢/ ١٣٤) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٣٤).

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (ائت) ياء حالة وصل الكلمة بما بعدها، وفي حالة البدء بـ (ائت) فكل القراء يبدأ بهمزة مكسورة بعدها ياء مديَّة.

(٤) قرأ ابن كثير بنقل حركة همزة (بقرآن) ومثله حمزة عند الوقف، وليس فيها سوى القصر للأزرق عن ورش؛ لأنها ليست من باب البدل.

(٥) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لي أن، إني أخاف)، والباقون بالإسكان.

(٦) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (نفسي إن)، والباقون بإسكانها.

(٧) وقف يعقوب بهاء السكت بخلف عنه على (إليَّ) لبيان حركة الموقوف عليه، والباقون بسكون الياء مشددة عند الوقف عليها، ومعهم يعقوب في وجهه الآخر، وجميع القراء بياء مفتوحة مشددة عند الوصل.

هذا: وقد ذكرتُ فيما سبق أن هذه السورة تحدَّثتْ عن الوحي والرسالة في أربعة مواضع منها، وهذا هو الموضع الثاني من مواضع السورة الأربعة عن الوحي والرسالة.

أسباب النزول:

١- وممَّا ورد في أسباب النزول ما جاء عن مقاتل: أَنَّ جماعة من قريش، قالوا للنبي ﷺ: إنْ كنتَ تريد أَنْ نؤمن لك فأْتِ بقرآن ليس فيه تَرْك عبادة اللات والعُزَى، وليس فيه ما يعيبها، وإن لم يُنْزِل الله عليك ذلك، فقل أنتَ هذا من نَفْسِك، أو بدِّله، فاجعل مكانَ آية عذاب آية رحمة، ومكانَ حرامٍ حلالًا، ومكانَ حلالٍ حرامًا[١].

٢- وذَكَر مجاهد أن مَن قالوا هذه المقالة خمسة نفر؛ هم: عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر، قالوا للنبي ﷺ: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعُزَى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾[٢].

أي: إذا تُلِيَتْ آيات القرآن على هؤلاء المشركين المُكَذِّبين، مع ما فيه من الأدلة الواضحة الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى صِدْقِ نُبُوَّتك ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ على وجه العِنَادِ والحَسَد، مِنَ الذين لا يخافون عذاب الله، ولا يطمعون في ثوابه؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت.

قالوا لمحمدٍ ﷺ: ائت بقرآن غير هذا، ليس فيه سَبٌّ لآلهتنا، ولا عيب لها، فخالِفْ هذا القرآن وأَعْرِضْ عنه، وائتِ بغيره، فيه مدحٌ لآلهتنا وثناءٌ عليها، وفيه قصص الفُرْس ومَلَاحِمَهُم، وإن لم يكن في استطاعتك تغييره من الجهة التي نَزَلَ عليك منها، فبدِّلْه أنتَ، فَإِنَّ تبديله في استطاعتك، بَدِّل آيات الذَّم بآيات المدح، وآيات الوعيد بآيات الوَعْدِ، وآيات البعث والنشور بغيرها، وبدِّل العذاب بالرحمة، والحرام بالحلال، وهكذا.

ثُمَّ لقَّن الله رسوله الجواب مكونًا من فِقْرَتَين:

الأولى: جاءت في هذه الآية. **والثانية**: جاءت في الآية التالية.

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» (١١/ ٨٣) وابن عطية (٣/ ١١٠) والبغوي في تفسير الآية.

(٢) «أسباب النزول» للواحدي (٢٢٤) وانظر «تفسير الطبري» (١١/ ٦٧).

الْجَوَابُ الْأَوَّلُ لِمَنْ يَطْلُبُونَ قُرْآنًا آخَرَ:

جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِيَ﴾.

أي قل لهم -أيها الرسول- هذا التبديل الذي تريدونه ليس إليَّ، فليس في إمكاني تبديله، وما ينبغي لي أن أفعل شيئًا من تلقاء نفسي، ويُفهم من قوله: ﴿مِن تِلْقَاءِ نَفْسِيَ﴾ أنَّ الله تعالى يُبَدِّل من القرآن ما شاء فينسخه عن المكلفين بما يشاء، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]

وقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١] على أن المراد بالآية، الآية القرآنية، وقد يراد بها الآية الحسية والمعجزة الظاهرة.

وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى].

فالنبي ﷺ لا يَمْلِكُ تغييرًا ولا تبديلًا، إنَّمَا هو مُبَلِّغٌ عن ربه ما يوحيه إليه بواسطة جبريل عليه السلام.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: وما أخبركم به من الأوامروالنواهي، والحلال والحرام، وذم الأصنام وغير ذلك، كله من عند الله، أتبع فيه الوحي، وأنا عبد مأمور.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخشى إن خالفتُ أمر الله - فغيَّرتُ أو بدَّلتُ شيئًا من كلامه أو أحكامه - أنْ أكون بذلك عاصيًا لله تعالى؛ فيُعَذِّبني يوم لقائه.

وكلام المشركين هذا من باب الكَيْدِ للنبي ﷺ، يريدون به أحد **أمور خمسة:**

الأول: أنَّ المكذبين يتوهمون أنَّ القرآن وَضَعَه النبي ﷺ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، فطمعوا أنْ يأتي لهم بقرآن يُوَافِقُ أهواءهم ليس فيه ما يكرهون.

الثاني: أن هذا من باب السخرية والاستهزاء، كأنهم يقولون: إنْ غيَّرت هذا القرآن أو بدَّلْته؛ آمنَّا بك وصدقْنَاك، يقولون هذا من باب التَّهَكُّمِ به ﷺ.

الثالث: اختبار صِدْقِ النبي ﷺ مِنْ كَذِبه، كأنهم أرادوا بذلك اختبار النبي ﷺ بأنه لو فعل ذلك يكون كاذبًا، ويكون هذا القرآن ليس من عند الله، على حدِّ زَعْمِهِم.

الرابع: أنهم أرادوا من النبي ﷺ أنْ يَتَجَرَّأَ على الله تعالى؛ كي ينالَ عِقَابَه؛ فيريحهم منه.

الخامس: أنهم قصدوا أن يتبين لهم الحق بالآيات التي طلبوها - كما زعموا - وقد كذبوا في ذلك لأن الله تعالى قد أيد رسوله بما يؤمن على مثله البشر.

الْجَوَابُ الثَّانِي: لِمَنْ يَطْلُبُونَ قُرْآنًا آخَرَ:

١٦- ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ[(١)] أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ[(٢)] فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ثُمَّ لَقَّنَ الله رسوله جوابًا آخر، يتضمن الدليل على أَنَّ محمدًا مُرْسَلٌ مِنْ عند الله، وأنه لم يَخْتَلِق القرآنَ، وفيه إبطالٌ لدعواهم، وإثباتٌ لِصِدْقِ النبي ﷺ.

أي: لو شاء الله أن لا آتيكم بهذا القرآن لَمَا أرسلني به ربي، ولبقيتُ على الحالة التي كنتُ عليها أول عمري، وهذا يتضمن دليلًا مطويًّا تقديره: لو شاء الله ما تلوتُه عليكم لكني تلوتُه، وتلاوتُه عليكم دليلُ الرسالة؛ لَأَنَّ تلاوته تتضمن إعجازًا علميًّا؛ حيث إِنَّ الذي جاء به أُمِّي ليس من أهل العِلْمِ والحِكْمَةِ، فهو معجزة دالة على صِدْقِي، وما دمت لست أَعْلَم به منكم، فاعلموا أَنَّه الحق مِنْ عند الله، فقد مكثتُ فيكم زمنًا طويلًا مِنْ قبل أَنْ يُوحَى إليَّ به، ومن قبل أن أتلوَه عليكم، فلم آتِ بكلمة وأَزْعُمُ أنها من عند الله، أفلا تستعملون عقولكم بالتَّدبر والتفكير، فتعلمون أني لم أتقوَّله مدة عمري، ولم يصدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوَّله بعد ذلك وقد لبثت فيكم عمرا طويلا تعرفون منه حقيقة حالي بأني أميّ لا أقرأ ولا أكتب.

وَمِثْلُ هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العَنكَبُوت]

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

(١) قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بحذف الألف التي بعد اللام من (ولا أدراكم) على أن اللام لام ابتداء قُصد بها التوكيد؛ أي: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري، وقرأ الباقون بإثبات الألف على أن (لا) نافية مؤكدة؛ أي: لو شاء الله ما قرأته عليكم ولا أعلمكم به على لسان غيري.

(٢) أدغم الثاء في التاء من (لبثت) أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر.

وَوجْه الاحتجاج أنَّ أهل مكة شاهدوا النبي ﷺ قبل مَبْعَثِهِ، وعلموا أحوالَه، وأنه كان أُمِّيًّا، لم يُطالع كتابًا، ولا تَعَلَّم من أحدٍ طُولَ حياته قبل النبوة مدة أربعين سنة، ثُمَّ جاءهم بهذا الكتاب المشتمِل على نفائس العلوم، وأخبار الأمم الماضية، والأحكام، والآداب، ومكارِم الأخلاق، والفصاحة والبلاغة التي أعجزت الفصحاء.

وقد تضمنت هذه الآية **ثلاثة أدلة** على كَوْنِ القرآن ليس من عند محمدٍ ﷺ:

أولها: أنَّه أُمِّي﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾.

ثانيها: أن هذا القرآن معجزٌ ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾.

ثالثها: أنه من عند الله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾.

ثُمَّ بكَّتهم على عدم إدراكهم لهذه الأمور؛ فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١- في الصحيح عن ابن عباس ﷺ قال: أُنْزِلَ على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، فَمَكَثَ ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه، ثُمَّ أُمِرَ بالهجرة؛ فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثُمَّ تُوفي ﷺ[1].

٢- وفي صحيح مسلم وغيره، عن أنس ﷺ قال: «**قُبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين، وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين، وعمر وهو ابن ثلاث وستين**»[2].

٣- وفي الصحيحين عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: سمعتُ أنس بن مالك ﷺ يَصِفُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**كان رَبْعَةً من القوم، ليس بالطويل، ولا بالقصير، أزهر اللون، ليس بأبيض أمهق، ولا آدم، ليس بجعد قَطَط، ولاسَبْطٍ رَجِلٍ أُنزل عليه وهو ابن أربعين، فلبث بمكة عشر سنين يُنْزَل عليه، وبالمدينة عشر سنين، وقُبض وليس في رأسه ولحيته عشرون شَعَرة بيضاء**»[3].

---

(١) البخاري (٣٩٠٢) والترمذي (٣٦٢١) وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٤٨) والترمذي (٣٦٥٣) وفي «الشمائل» (٣٧٩) و«المسند» (١٦٨٧٣) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٠٧٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٤٧، ٣٥٤٨، ٥٩٠٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٤٧).

ومع ذلك فَإنَّ قريشًا لم تتهم النبي ﷺ بالكذبِ، وكانوا يُسَمُّونَه قبل الرسالة بالصادق الأمين.

ولهذا لمَّا سأل هِرَقْل أبا سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا، قال هرقل: لم يكن ليَدَع الكذب على الناس، ثُمَّ يذهب فيكذب على الله.

فإذا علمتم أن محدا صادق، وأنه قد أتاكم بالحق الذي ليس بعده إلا الضلال، فما عليكم إلا أن تؤمنوا وتنقادوا له، فإن أبيتم إلا التكذيب والعناد فلا شك أنكم ظالمون:

أَشَدُّ النَّاسِ ظُلْمًا مَنْ يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللهِ وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ

١٧ - ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

ولأن النبي ﷺ لم يفترِ على الله الكذب حين قال: إنَّ هذا القرآن مِنْ عِنْدِ الله، والمشركون قد افتروا على الله الكذب، حين نسبوا إليه سبحانه الشَّرِيك والولد، ولا يوجد في الدنيا أحد أشد ظلمًا مِمَّنْ يفتري على الله الكذب، سواء بنسبة الشريك والولد إلى الله تعالى، أو لأنَّه أَنْكَرَ أَنَّ هذا القرآن ليس مِنْ عند الله، أو لأنَّه كذَّب بآيات الله فَلَمْ يُؤمن بها، ولم يعمل بمقتضاها، ولو كان محمد مُتَقَوِّلًا على الله لكان أظلم الناس، ولكنه جاء بآيات الله، فكذب بها المبطلون، فتعيّن أنهم الظالمون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا استفهام بمعنى النفي، المقصود منه نفي الكذب عن رسول الله ﷺ في أنه اختلق القرآن، أو كذب بما جاءت به الرُّسُل، وهذا معنى ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فالمُفْتَرِي على الله الكذِب والمُكَذِّب بآياته كلاهما أَظْلَمُ الناس، والكاذب والمُكَذِّب سواء في الكُفْرِ، فكلاهما جحد القرآن، وأَنْكَرَ دلائل التوحيد، وكذَّب رُسُلَ الله، وكلاهما مُجْرِم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فالْفَلاح عُقْبَى المؤمنين، والمجرمون لهم عذابٌ أليمٌ.

ومَِمَّنْ افترى على الله الكذب: مُسَيلمة الكذَّاب، وسَجَاح، والأَسْوَد العَنْسِي، والقادياني، والباب، وغيرهم ممَّن ادعى النبوة كذبًا.

وَمِمَّنْ افترى على الله الكذب، النضْر بن الحارث في قوله: إذا كان يوم القيامة شفعتْ لي اللاتُ والعُزى[١].

وممن افترى على الله الكذب: من قال عزير ابن الله والمسيح ابن الله، ومن كذب بالقرآن ورسول الإسلام.

وَمِمَّا جاء في ذلك أَنَّ عمرو بن العاص كان صديقًا لِمُسَيلمة الكذَّاب، فقَدِمَ عليه، وكان صديقًا له في الجاهلية قَبْلَ أنْ يُسْلِم، فقال مسيلمة لعمرو: ماذا أُنزل على صاحبكم (يعني: محمدًا ﷺ) في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعتُ أصحابه يقرؤون سورة وجيزة بليغة، قال: وما هي؟ قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ ففكَّر مسيلمة ساعة ثُمَّ قال: وأنا قد أُنزل عليَّ مِثْلُهَا، فقال: وما هو؟ قال: يا وبر، يا وبر، إِنَّمَا أنت إيراد وصدر، وسائرك حقر نقر، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تَكْذِبُ[٢].

فإذا كان هذا حال المُشْرِك (عمرو بن العاص)، لم يشتبه عليه صِدْقُ محمدٍ ﷺ وكذب مسيلمة، فكيف بِأُولي الأبصار، وأصحابِ العقول السليمةِ؟!

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]

وقال أيضًا: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾ [هود]

وفي هذا ردٌّ على الذين لا يرجون لقاء الله، وحُكْمٌ عليهم بعدم الفَلَاحِ. قال تعالى:

١٨- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ

---

(١) ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٣٥).

(٢) «البداية والنهاية» (٦/ ٣٢٦).

أَتُنَبِّـُٔونَ(١) ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢) ﴿١٨﴾﴾

والحديث موصولٌ عن المشركين بالله تعالى المكذبين لرُسُلِهِ، مِمَّنْ لا يرجون لقاء الله، ويطلبون قرآنًا آخر، وقد بَلَغَ مِنْ جهلِهم وسَفَهِهِمْ أنهم يعبدون غير الله تعالى، ولا يتوجهون إليه مباشرة بالعبادة، ويتوسلون إليه بما لا يملك نفعًا ولا ضَرًّا، والمشركون في كل زمانٍ ومكانٍ يقولون: إننا لا نَعْبُد الأوثان، ولَكِنَّا ندعوهم؛ لِيَشْفَعُوا لنا عند الله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فيزعمون أنها تَشْفَعُ لهم عند الله في الآخرة.

١- قال الحسن: يزعمون أنها تَشْفَعُ لهم في الدنيا بإصلاح مَعَاشِهم؛ لأنهم لا يعتقدون بالبَعْثِ بعد الموتِ، فإذا ذُكِرَتِ القيامة على ألسنتهم؛ فإنه يكون من باب التَّهَكُّمِ والسخرية، وليس على سبيل الإيمان بها.

٢- وهكذا قال النضر بن الحارث: إذا كان يوم القيامة شَفَعَتْ لِي اللاتُ والعُزَّى.

٣- وقال العاص بن وائل -وهو مشرك- إلى خباب بن الأرت، وكان قد صَنَعَ له سيفًا، وجاء يطلب أجره، فقال له: إذا كان يوم القيامة الذي يخبر به صاحبك (أي: محمد ﷺ) فسيكون لي مال، فأقضيك منه.

وكان سدَنة الأصنام يخوِّفون عُبَّادَها أَنْ تُلْحق بهم ضررًا هم وصبيانهم، كما قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسي، حين أخبرها زوجها أنه قد أسلم، ودعاها إلى أن تُسْلِم، فقالت: أَمَا تخشى على الصبْية من ذي الشرى؟ وهو صنمٌ كان يُعْبَد بين مكة والطائف، يقال له: ذو الكفين.

ولذا: قدَّمت الآية الضر على النفع؛ لنفي ما كانوا يعتقدونه، من أن هذه المعبودات تضرُّهم، وَمِثْلُهُم مَنْ يخاف مِنْ الجن، أو مِنْ بعض البشر، ونحو ذلك.

---

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (أتنبئون) الثانية وضم الباء قبلها، وصلًا ووقفًا، ولحمزة عند الوقف عليها ثلاثة أوجه هي:
(أ) تسهيلها بين بين. (ب) إبدالها ياء خالصة. (ج) حذفها كقراءة أبي جعفر.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بتاء الخطاب في (تشركون) لمناسبة (أتنبئون)، والباقون بياء الغيبة على الالتفات.

غلاة التصوّف:

قلت: وبعض أهل الطُّرق الصوفية يَفْهَمُون أنهم ليسوا أهلًا لِقَبُول الدعاء منهم؛ لِمَا فيهم من ذنوب، ويطلبون من مُريديهم ومشايخهم ما يريدون، زعمًا منهم أنهم أقرب منهم إلى الله، وأن الله تعالى يجيب دعاءهم، وهذا هو عَيْنُ ما يفهمه مشركو الجاهلية الأولَى.

وبالإضافة إلى ذلك فهم يقولون: نحن لا نستطيع أَخْذَ الأحكام الشرعية من الكتاب والسُّنة مباشرة، فلَا بُدَّ لنا من شيخ (صوفي) لنتعلَّم منه، ونقتفي أَثَرَه، ونُعاهده على ترك المعاصي والدعاء والعبادة تعظيمًا للمعبود، وهي لا تليق إلا بِمَنْ ينفع ويضر، ويحيي ويميت، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه، وهؤلاء المشركون يعبدون أشخاصًا أو أصنامًا لا تضرهم شيئًا ولا تنفعهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويتوَّهم المشركون أن هذه الأصنام تشفع لهم عند الله ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ [الحج].

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، على وجه التَّهكم والنَّفي ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ أَتُخْبِرُونَه بشيء لا يعْلَمُه من أمر هذه الأصنام في هذا الكون؟!

ثُمَّ نزَّه تعالى نَفْسَه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه مما لا ينفع ولا يضر.

ولو كان هناك أحد يشفع عنده لَعَلِمَه ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ الحج: ٦٢]

الشِّرْكُ طَارِئٌ عَلَى التَّوْحِيدِ

١٩- ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

ثُمَّ أَخبَر سبحانه أنه فَطَرَ الناس جميعًا على التَّوحيد، وأَنَّ الشِّركَ قد طَرَأَ على بعضِهم، وبعد أَنْ ذَمَّ سبحانه مَنْ يعبد غير الله تعالى، مَدَحَ جل شأنه ما كان عليه الناس جميعًا من التوحيد بمقتضى الفِطْرَة البشرية، والميثاق المأخوذ عليهم في عالم الذر، قبل أن تظهر

عبادة الأوثان، ويتفرقوا إلى مؤمن وكافر، وهي المدة مِنْ لَدُن آدم إلى نوح عليهما السلام، وكانت هذه المدة نحو ألف عام، كما قال ابن عباس ﷺ: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحقِّ فاختلفوا فبعث الله النبيين[١].

وأخرج ابن عساكر عن وهب قال: كان بين نوح وآدم عشرة آباء، وكان بين إبراهيم ونوح عشرة آباء[٢].

قال السُّدي: كان الناس أهل دِين واحد على دِين آدم فكفروا، فَلَوْلَا أن ربك أَجَّلَهُم إلى يوم القيامة لَقَضَى بينهم[٣].

وهذا معنى الآية ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ والمراد بالناس الجنس البشري كله، والمراد بالأمة الواحدة إخوة العقيدة والإسلام والتوحيد الخالص.

والمعنى: كان الناس جميعًا مِنْ لَدُن آدم إلى نوح، على دِين واحدٍ، هو الإسلام بمعناه العام؛ أي: على التوحيد الخالص، والعقيدة الصحيحة، فالمُرَاد بالأمة الواحدة وحدة الدِّين، وسلامة الاعتقاد من الضلال والشِّرك، والاتفاق على الفطرة ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: أنهم اختلفوا بعد ذلك، فَكَفَرَ بعضُهم وأشرك بالله، وَثَبَتَ بعضُهم على الحقِّ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ولعل هذا ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين].

وكان أَوَّلُ عبادة الأصنام في جزيرة العرب على يَدِ (عمْرو بن لُحَي) الذي غيَّر دِينَ الله وبدَّلَهُ بِجَلْبِه الأصنام لهم، وقد أخبر النبي ﷺ أَنَّه يَجُرُّ قُصْبه في النار، وبهذا تغيَّرت الفطرة التي فَطَرَ الله الناس عليها؛ فَكَفَرَ بعضُهم بسبب التأثير الخارجي، وفساد الفطرة.

وَلِذَا: فإن المشركين صوَّرُوا إبراهيم وإسماعيل وهما يَسْتَقْسِمَان بالأزلام في الكعبة،

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ١٠١) وانظر أبا يعلى (٢٦٠٦) والبزار (٢١٩٠) «كشف الأستار» والطبراني (١١٨٣٠) وقال الهيثمي: رجال أبي يعلى رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٦/ ٣١٨).

(٢) ابن عساكر من طريق إسحاق بن بشر (٦٢/ ٢٤١).

(٣) ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٣٧).

فقال النبي ﷺ يوم الفتح: «كذَبوا، والله ما استقْسَما بها قَطُّ» وقرأ: «﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾»[آل عمران].

وإبراهيم عليه السلام هو القائل كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف]

وقد خَلَقَ الله الجَنَّة والنار لهذا التفرق والاختلاف، وأشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وهذه هي الكلمة التي سبق بها عِلْمُ الله تعالى، وقد أَمْهَل الله البشر إلى يوم الفَصْلِ والقضاء؛ لِيَنَال كلٌّ منهم جزاءه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: بإمهال العصاة إلى يوم الحساب والجزاء، وتأخير القضاء بين الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين.

وقد اقتضت حكمته تعالى ألا يؤاخذ أحدًا إلا بذنب، وبعد إقامة الحُجَّة عليه، فَلَمْ يُعَجِّل الله لهم العقوبة في الدنيا، بل أَجَّلَهَا إلى يوم القيامة؛ رحمةً منه بعباده، ويومها يهلك الله أهل الباطل، ويُنَجِّي أهل الحق ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم].

وهذه الآية تشير إلى وحدةِ العقيدة مع الذين غيَّروا دِين الله، وروَّجوا لِشِرْكِهم وباطلهم، فالحق هو الذي يجمع بين البشر، بخلاف الخطأ والضلال فهو يفرقهم، ولمَّا دخل الشرك عقول بعض الناس قادَهم ذلك إلى الاختلاف والتَّفرق ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].

وقد سبق مِثْلُ هذه الآية في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] في سياق مُجَادَلة أهل الكتاب الوارد ذِكْرُهُم في قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]

وأهل الكتاب لا ينكرون أن الناس كانوا أمة واحدة، والآية هناك تشير إلى الوحدة الشرعية التي تجمعها الحنيفية الفطرية؛ ولِذَا عبَّرت الآية عن التفرق الذي طرأ على البشر بِأَنَّ الله بعث النبيين مبشرين ومنذرين، والاختلاف المشار إليه هناك هو الاختلاف بين

أتباع الشرائع من اليهود والنصارى والمسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أما الاختلاف المشار إليه هنا فهو اختلاف العقيدة.

تَلْبِيَةُ طَلَبِ الْمُعْجِزَاتِ لَيْسَ لَهُ جَدْوى فِي حُصُولِ الْإِيمَانِ

٢٠- ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾

وبعد هذه الآية المعترضة يعود السياق إلى أقوال المشركين، بعد أن ذَكَر أفعالهم من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع، وذَكَر قبل ذلك قولهم للنبي ﷺ: ائت بقرآن غير هذا أو بدِّله، فقال تعالى عن المكذِّبين لرسول الله ﷺ: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: يقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلَّا أُنزِل على محمدٍ ﷺ علامة دالة على صِدْقِهِ، من الآيات الكَوْنية الحسِّية؛ كنَاقة صالح، وعصا موسى، وهذا كما قال تعالى عنهم: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ قال تعالى في الرد عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ٤٨] وهم بهذا يريدون أن يستفزوا النبي ﷺ بتكذيبهم إياه، ليَغْضَب ويُسَارع في مُجَاراة عِنادهم، فيكُفُّوا عنه، أو يُفْحِمُوه أو يُعجزوه.

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم على اقتراحهم بجواب فيه تهديدٌ ووعيدٌ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فلا يعلم الغيب أحدٌ إلا الله، فإن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل؛ لأنَّ الذي تطلبونه من الأمور الغيبيَّة لا يقدر عليها إلا الله ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أيها القوم، قضاء الله بيننا وبينكم، بتعجيل العقوبة للمُبْطِلِ مِنَّا، ونُصرَة صاحب الحق ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ذلك، فكل منا ينتظر بصاحبه ما هو له أهل، فانظروا لمن تكون العاقبة، وفي هذا تهديدٌ لهم، بأنهم لا يترقَّبون إلا شرًّا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام].

وكان المشركون قد طلبوا من النبي ﷺ آيات كوْنية كثيرة؛ من ذلك: طلبهم أن يَنْزِلَ عليه مَلَكٌ من السماء يؤيده، أو يُحَوِّل لهم النبي ﷺ جبل الصفا ذهبًا، أو يزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ﴾ [الفرقان].

يقول سبحانه في الردِّ عليهم: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان].

فليس عدم تلبية هذه المطالب، هي السبب في عدم إيمانهم، إنما السبب أنهم مكذِّبُون بالحساب والثواب والعقاب ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان].

والله تعالى قادرٌ على أن يؤيد رسولَه بما يطلبون، ولكنه سبحانه يَعْلَم أنهم لن يؤمنوا مهما أوتوا من الآيات ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد قَطَعَ الله بِعَدَم إيمانهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

وقوله تعالى فيهم: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام].

وقد اقتضت سُنة الله تعالى أن يُعَاجِل بالعقوبة في الدنيا مَن أجاب الله طلبهم للآيات الكونية، واستمروا في تكذيب رسوله ﷺ، فيبيدهم ويستأصلهم، وقد رفع الله هذا النوع من العذاب عن هذه الأمة؛ لأن رسالتها خاتمة الرسالات، فهي باقية إلى قيام الساعة.

وَلِذَا: خيَّر الله رسولَه في أمته بين الإمهال أو العذاب، فينتظروا حُكْمَ الله فيهم، مع أنهم قد شاهدوا معجزاتٍ أرضيةً كثيرة؛ كانشقاق القمر نصفين، والإسراء والمعراج، وحنين الجذع، وتسليم الحَجَر، وشكوى البعير له ﷺ؛ فلم يُفِدْهم هذا ولم يتأثروا به، فدلَّ هذا على أن طلبهم للمعجزات إنما هو من باب التعنُّت والعِنَاد.

كما في طلبهم من النبي ﷺ تفجير الأرض ينابيع، وتفجير الأنهار وسط حدائق وبساتين، وإسقاط السماء عليهم قِطعًا، وأن يأتي الرسول لهم برب العالمين والملائكة في

مقابلتهم حتى يروهم عِيانًا، أو يكون له قصرٌ من ذهب، أو يصعد إلى السماء فيأتي لهم من هناك بكتاب يقرؤونه، يُثبت لهم أنه صَعِدَ إلى السماء وأتى لهم منها بهذا الكتاب، وهذه المقترحات في آيات سورة الإسراء [٩٠-٩٣].

مُقَابَلَةُ النِّعَمِ بِالْجُحُودِ

٢١- ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا[1] يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ[2] ﴿٢١﴾﴾

هذه الآية في بيان أن الكافر لا يؤدي شكر الله تعالى عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع عن معاصيه، والحديث موصول عن المشركين المكذبين، من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ والآيات تعطف خَصلة بعد خَصلة من طبائعهم وقبائحهم.

والآية هنا تبيِّن أن الكافر إذا أصابه يُسرٌ وأمنٌ ورخاءٌ، أو صحةٌ وسعادةٌ، بعد عُسرٍ وشدةٍ وخوفٍ، أو مرضٍ وبلاءٍ، لا يقابل هذه النِّعْمَة بالشكرِ والحمدِ، وإنما يُقابلها بالتكذيبِ والاستهزاءِ والسخريةِ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ صحة، أو نصرًا، أو أمنًا أو ثراءً ونحو ذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ فقر أو مرض، أو هزيمة ونحوها ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ لا يقولون هذا رزق الله ويحمدونه عليه، وإنما يقابلونه بالجحود، وينسبونه لغير الله، فهم يمكرون في مَقَامِ الشكر ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾.

أي يسعون بالباطل ليبطلوا به الحق، وسمَّى الله تعالى إنكارهم مكرًا؛ لأنهم كانوا كثيرًا ما يتجمَّعون سرًّا؛ ليتشاوروا في المؤامرات التي يُعرْقِلون بها سير الدعوة، والشبهات التي يوجِّهونها إلى النبي ﷺ.

ذَكَرَ الماوردي أنه لمَّا دعا النبي ﷺ على أهل مكة بالجدب؛ أصابهم القحط سبع سنين، ثُمَّ أتاه أبو سفيان، فقال: ادعُ لنا بالخصب، فإن أخصبْنا صدقْناك؛ فدعا لهم، فَسُقوا ولم يؤمنوا.

والمراد أنهم لَمَّا وسَّع الله عليهم في الأرزاق، وأدرَّ عليهم النِّعم بالمطر وصلاح

---

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٢) قرأ روح عن يعقوب بياء الغيب في (يمكرون) لمناسبة (مستهم)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات.

الثمار، بعد أن مَسَّتهم الضراء بالجدب وضِيق العَيْش، فما شكروا نِعْمَةَ الله عليهم، ولا نسبوها إلى الله تعالى، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، وطعنوا في آيات الله، واحتالوا في دفعها بكل حيلة، وفي هذا نسبة الفضل إلى غير الله تعالى.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] وتزيد عنها الآية التي معنا عقوبة مكرهم، قال تعالى متوعدًا هذا النوع من الناس: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل].

في الصحيح أن رسول الله ﷺ صلَّى بهم الصبح على إثر سماء -مطر- أصابهم من الليل، ثم قال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما مَن قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»[1].

وهذا الحديث يشير إلى أنه يراد بالناس في هذه الآية المنافقون، وهم الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ لا يَخْفَى عليه شيءٌ من مكركم، والملائكة يسجِّلون أقوالكم وأفعالكم، ولا يَحيق المَكْرُ السيئ إلا بأهله، والله تعالى يمهلكم ويستدرجكم، وسوف يعاقبكم ويحاسبكم على مكركم، وعقوبة الله لكم أسرع من مكركم بآيات الله.

وسُمِّي استدراج الله بهم وعقوبته لهم مكرًا، من باب المشاكلة اللفظية، وهو إنذار لهم بالعذاب والعقوبة.

ومعنى الآية: وإذا مَنَحْنا الناس الصحة والسعادة والغِنَى، بعدما أصابهم الضر في أنفسهم أو فِيْمَنْ يحبون، لم يكن منهم مُبَادرة إلى الطاعة والشكر، وإنما بادرُوا إلى الطعن والتشكيك في قدرتنا، والاستهزاء بآياتنا، والتهوين من شأنها، والجحود والعناد، فَأَخْبِرْهُم - أيها الرسول - أن الله تعالى مُجَازيهم ومُعاقبهم على أقوالهم وأفعالهم، وملائكةُ الله الكرام يسجِّلون عليهم ذلك؛ لإقامة الحُجَّة عليهم وإلزامهم بها، ومن ثَم يعاقبهم على ما قدمت أيديهم.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٨٤٦، ١٠٣٨) و«صحيح مسلم» برقم (٧١).

المُسْلِمُ يَعْرِفُ رَبَّهُ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ

٢٢- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ(١) فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ(٢) لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ(٣) ﴿٢٢﴾﴾

هذه الآية تُذكِّر العباد بِنِعْمَةِ الله عليهم في حالة خاصة عند شدة الخوف، حيث يحفظهم الله ويرعاهم، وهم سائرون في أمواج البحر، بعد ذِكْر أحوال الناس عند إصابة اليسر بعد العسر، والسراء بعد الضراء.

ولمَّا كان المكر بتكذيب آيات الله تعالى وَدَفْعِهَا يشتمل على البَغي والاعتداء في الأرض المذكور في آخر الآية التالية.

وبعد النِّعْمَةِ العامة المذكورة في الآية السابقة ساق الله تعالى في هذه الآية، نِعْمَةً أخرى يُنْعِمُ الله بها على خَلْقِه في مشهد حيٍّ تراه العيون، وتهتز له القلوب، وتجعل المشاعر تتجه إلى الله وحده بالدعاء، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ على ظهور الدواب، وفي السيارات والمراكب ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ في السفن ونحوها، ويسيركم بقدرته في الجو والفضاء، كما قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩] فتنتقلون من مكان إلى مكان، من أقصى البلاد إلى أقصاها، في تقلبات المعاش والسياحة وغير ذلك من متطلبات الحياة.

ثُمَّ ينتقل سياق الآية من ضمير الخطاب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ إلى ضمير الغَيْبَة؛ ليفضي به إلى ما يخص الكفار المكذبين فأنتم تركبون السفن والمراكب البحرية ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: جرتِ السفن بكم في البحر بريح مناسبة لسيرها، موافقة لاتجاهها نحو المكان الذي تقصدونه في أسفاركم ليس فيها خوف ولا مشقة ولا إزعاج ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي: فرح ركاب السفينة بالريح الطيبة وكانوا في سرورٍ بالغٍ، وبينماهم

---

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر (يَنْشُرُكم) بدل (يسيركم) أي: يفرقكم من النشر ضد الطي، وقرأ الباقون (يسيركم) أي: يمكنكم من السير ويحملكم عليه، من التسيير.

(٢) عدّ (له الدين) الشامي وحده، وتركه الآخرون.

(٣) ترك عد (من الشاكرين) الشامي وحده وعدّه الآخرون.

كذلك إذ ﴿جَآءَتۡهَا﴾ في مرة من المرات ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة السرعة والتقلب والهبوب في اتجاه معاكس لسيرها.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: وجاء ركبان السفينة موجٌ مرتفع أحاط بهم من جميع الجهات ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي: أيقنوا أن الهلاك قد أحاط وأحدق بهم من كل جانب، كما يحيط العدو بعدوه؛ وأيقنوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدائد إلا الله، حينئذٍ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: توجهوا إلى الله وأخلصوا له الدعاء والابتهال تاركين ما كانوا يعبدونه من دون الله تعالى قائلين: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الشدة التي نحن فيها، وهذا الضر الذي أحدق بنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على نِعَمِك.

وقد أكَّدوا شكرهم لله تعالى بتأكيدات ثلاثة: اللام الموطئة للقسم، ونون التوكيد، وكونهم في عِداد الشاكرين؛ وذلك لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنه لا ينجيهم إلا الله.

وَلِذَا: فهم يلجؤون إليه تعالى في الشِّدة، ويَنْسَوْن ما يزعمونه من الآلهة، وهذا يشبه حال الذين يعتقدون في الأموات من عباد الله الصالحين أو غيرهم، فيسألونهم جلب نفع أو دفع ضر، ومثله قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ [الإسراء] وهذا من أعظم الأدلة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته.

وفي الآية دليلٌ على أن الخَلْقَ جُبِلُوا على الرجوع إلى الله تعالى في الشدائد، وأنه سبحانه يُجِيب المضطر إذا دعاه -وإنْ كان كافرًا- لرجوعه إلى رب العالمين، وتعلُّقه به؛ ولأنه لا يَأْمَنُ جانب الله تعالى أن يخسف به الأرض، أو يرسل عليه الرِّيح العاتية؛ فيغرقه في عرض البحر، ولا يجد مَن يمنعه من ذلك ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ٦٩﴾ [الإسراء].

التعرف على الله في الشدة:

وفي رواية ابن سعد عن أبي مُلَيكة أن عكرمة لمَّا ركب السفينة وأخذتهم الريح، جعلوا

يَدْعُون الله تعالى، قال عكرمة: هذا ما يدعونا إليه محمدٌ، فارجعوا بنا؛ فرجع وأسلم[١].

وقال رجل لجعفر الصادق: اذكر لي دليلًا على إثبات الصانع؟ فقال له: أخبرني عن حِرْفتك؟ فقال: أنا رجل أتَّجر في البحر، فقال له صِفْ لي كيفية حالك؟ قال: رَكِبْتُ البحر؛ فانكسرت السفينة، وبقيتْ على لوحٍ واحدٍ من ألواحِها، وجاءت الرياح العاصفة، فقال جعفر: هل وجدت في قلبك تضرعًا ودعاء؟ قال: نَعَمْ، فقال جعفر: إلهك هو الذي تضرَّعت إليه في ذلك الوقت[٢].

وحَدَثَ أنَّ رجلًا إنجليزيًّا قرأ تَرْجمة هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فراعَتْهُ بلاغةُ وصفها لطغيان البحر، وكان يعمل قائدًا لإحدى السفن، فسأل بعض المسلمين: أتعلمون أن نبيكم قد سافر إلى البحار؟ فقالوا له: لا؛ فأسلم الرجل؛ لأنه اعتقد أن القرآن ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام الله تعالى[٣].

ويؤخذ من الآية أن المؤمن يلجأ إلى الله تعالى في الرخاء والشدة معًا، ولا يتشبه بالمشركين الذين يدْعُونه ويُخلِصون له في الشدة، وينسَوْنه في الرخاء.

وفي الحديث عن ابن عباس ﷺ: «**تعرَّف على الله في الرخاء يعرفْك في الشدة**»[٤].

ويؤخذ منها أيضًا أنَّ الناس قد جُبِلُوا على الرجوع إلى الله تعالى في الشدائد والمِحَنِ، فإذا نجَّاه الله من الضِيق وكشف عنه ما فيه من كربٍ رجع إلى كفره وعصيانه، وتمادَى في الشر والطغيان، وهذا ضربٌ من الجحود والضلال.

البَغْيُ المَحْمُودُ وَالْبَغْيُ الْمَذْمُومُ

٢٣- ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ[٥] ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(١) «تفسير الألوسي» (١١/ ٩٧) و«الدر المنثور» (٧/ ٦٤٣).

(٢) الفخر الرازي (١٧/ ٢٧).

(٣) «تفسير المنار» (١١/ ٣٤٤).

(٤) ينظر تخريجه عند الآية (١٣).

(٥) قرأ حفص بنصب (متاع) على أنه مصدر مؤكد لعامله؛ أي: تتمتعون متاع، وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: ذلك هو متاع.

هذه الآية لزجر البغي وذم البغاة والمفسدين في الأرض بالشرك والكفر، وأن الإنسان الباغي من شأنه أنه يُعاود الوقوع في المعاصي بعد أن ينجيه الله ممَّا كان فيه، ومن ذلك حالة الخطر مع تلاطم الأمواج في البحار، فبعد أن تهدأ العاصفة، وتنخفض الأمواج، وتسكن النفوس، وتصل السفن إلى شاطئ الأمان، تكون النتيجة؟ معاودة البغي والفساد في الأرض، وذلك أنه لمَّا أنجى الله تعالى هؤلاء الذين أحاطت بهم الشدائد من كل جانب، بفضله ورحمته، إذا هم يعُودون إلى الإفساد في الأرض بالمعاصي مرة أخرى، ويرتكبون البغي الفاضح الذي لا يخفَى قبحه على أحد.

ويُرَادُ بالبَغْي هنا: العودة إلى الشرك والكفر، وهو أعظم اعتداء على حق الخالق سبحانه؛ إِذْ ليس المراد بالبغي الظلم والفساد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزمر: ٨].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خِطَابٌ للمشركين الذي يَبْغُونَ في الأرض بغير الحق بِأَنَّ وبال بغيهم راجعٌ على أنفسهم، فهم وحدهم الذين يتحملون سوء عاقبته في الدنيا والآخرة.

وأصل البغي مجاوزة الحد، وهو على ضربين:

الضرب الأول: بَغْيٌ محمودٌ، ولا يكون إلا بحق، كتجاوز المفضول إلى الفاضل، وهو مجاوزة العدل إلى الإحسان، ومجاوزة الفرض إلى التطوع، ومجاوزة كظلم الغيظ إلى الإحسان، ومنه استيلاء المسلمين على أرض الكفرة، وفتح البلاد فتحًا إسلاميًا، وكذا مَنْ استردَّ حقًّا مغصوبًا منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢].

والبَغْيُ المحمود هو ما يكون بحقٍّ.

والضرب الثاني: بَغْيٌ مذموم، ولا يكون إلا بغير حق، وهو مجاوزة الحق إلى الباطل، وظلم الناس والاعتداء عليهم، وقطع الطريق، والخروج على الحاكم المسلم، وأعظمه الشرك بالله تعالى والكفر به، كما جاء صريحًا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣١] وشبهه

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل].

وليس إمهال الله تعالى للمكذبين بآياته رضى منه سبحانه بأفعالهم، ولا عجزًا عن عِقَابِهِم، بل إنه جل شأنه مُؤاخِذُهم ومُعاقِبُهم في يوم يشتد فيه الحساب.

والبغي لا يصلح زادًا للآخرة، بل زادًا للدنيا فقط، كما قال رب العالمين: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أنَّ هذا البغي تتمتعون به متاعًا قليلًا زائلًا لا بقاء له في الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]

ونهاية المصير إلى الله سبحانه ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ مصيركم ومردُّكم يوم القيامة إلى الله ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نخبركم بجميع أعمالكم، ونحاسبكم ونجازيكم عليها، فمَن وَجَدَ خيرًا فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه، وفي هذا تهديدٌ لهم وبيانٌ لعقوبتهم في الآخرة.

أحاديث في معنى الآية:

١- جاء في الحديث عن أبي بكرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما من ذنب أجدر أن يعجِّلَ الله عقوبته في الدنيا مع ما يَدَّخِرُ الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»**[1].

٢- وفي حديث أبي بكر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تبغِ ولا تكن باغيًا، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾»**[2].

٣- وفي حديث عياض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحدٍ، ولا يفخر أحدٌ على أحدٍ»**[3].

٤- وأخرج أبو نعيم في الحلية، والخطيب، والديلمي، وغيرهم عن أنسٍ ﷺ أن رسول

---

(١) من حديث أبي بكرة، رواه أبو داود في «السنن» برقم (٤٩٠٢) والبيهقي في «الشعب» (٦٦٧٠) وابن ماجه في «السنن» برقم (٤٢١١) والترمذي برقم (٢٥١١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩١٨). والحديث في المسند برقم (٢٠٣٩٨) بإسناد صحيح، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩، ٩٧) والطيالسي (٨٨٠) وابن حبان (٤٥٥).

(٢) «المستدرك» (٢/٣٣٨) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٨٦٥) والبيهقي في «الشعب» (٦٦٧٢) وأبو داود (٤٨٩٥).

الله ﷺ قال: «**ثلاث هُنَّ رواجع على أهلها: المكر، والنكث، والبغي، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾** وقوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾»[١] [فاطر: ٤٣].

من لم يُؤَمِّنْهُمُ النبي ﷺ يوم الفتح:

وعن سعد بن أبي وقاص قال: لمَّا كان يوم الفتح أَمَّنَ رسول الله الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: «**اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمةُ بنُ أبي جهل، وعبد الله بن خَطَل، ومَقِيسُ بنُ صُبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي السَّرْح**».

فأمَّا (عبد الله بن خطل) فأُدرِكَ وهو متعلقٌ بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حُرَيث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمارًا فقتله، وأما (مقيس) فأدركه الناس في السوق فقتلوه.

وفَرَّ (عكرمة بن أبي جهل)، فركب البحر، فأصابتْهم ريحٌ عاصفٌ، فقال أصحاب السفينة لركَّابها: أخلِصوا، فإن آلهتكم لا تُغني عنكم شيئًا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجِّني في البحر إلا الإخلاص، لا ينجِّيني في البَرِّ غيرُه، اللهم إن لك عهدًا إنْ أنْتَ عافيْتني مِمَّا أنا فيه أن آتي محمدًا حتى أضع يدي في يده فلأجدنَّه عَفُوًّا كريمًا، قال: فجاء؛ فأسلم.

وأمَّا (عبد الله بن سعد بن أبي السرح) فإنه اختبأ عند عثمان، فَلَمَّا دعا رسول الله ﷺ للبيعة جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، بَايِعْ عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا وأَبَى قبول بيعته، فبايعه بعد ثلاث، ثم أَقْبَل على أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟**» قالوا: وما يدرينا يا رسول الله، ما في نفسك، هلَّا أومأت إلينا بعينك؟ قال: «**إنه لا ينبغي للنبي أن يكون له خائنة أعين**»[٢].

---

(١) وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن نُفَيْل الكناني كما في الإصابة (٤/ ٢٥٣).

(٢) رواه أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩) مختصرًا والنسائي (٤٠٧٨) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٩١) و«صحيح سنن أبي داود» (٣٦٦٤) وصحيح سنن النسائي (٣٧٩١) والسلسلة الصحيحة (١٧٢٣) وصحيح الجامع (٢٤٢٦).

مَثَلُ الدُّنْيَا فِي سُرْعَةِ زَوَالِهَا

٢٤- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

هذه الآية تَضْرِبُ مثلًا من أحسن الأمثلة لزوال الدنيا بعد زينتها وبهجتها بالنبات في ذُبُولِهِ بعد خُضرته، وهذا تحذيرٌ من الاغترار بالدنيا، فهي معرَّضَةٌ للزوال كالموت يأتي للإنسان، ولَمَّا ذَكَرَ سبحانه أن متاع الدنيا قليلٌ زائلٌ في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ضرب مثلًا للتمتع بالدنيا بهيئة الزرع في نُضرته، ثم يصير هشيمًا محطَّمًا.

فشبَّه حال الدنيا في سرعة انقضائها وزوال نَعِيمِها بعد بهجتها وزيادة حُسْنِها بحال نبات الأرض حين يكون حصيدًا فانيًا، وهكذا فإن الدنيا تزهو لصاحبها بعض الوقت، فإذا استكمل هذا الزهد، بدأ يضمحل ويزول عن صاحبه، حتى يصبح صفر اليدين، ممتلىء القلب بالهم والحزن والحسرة.

والناس في التَّمَتُّع بلذائذ الدنيا تختلف هِمَمُهُم؛ فمنهم مَن يطلب معالي الأمور؛ فيجعل الدنيا مزرعةً للآخرة، ويَرْغَبُ فيما عند الله، وهذا تشبيه لحال المؤمن الذي يعمل للآخرة.

ومن الناس مَن يطلب سفاسِفَ الأمور، فمَتَاعُ الدنيا هو غايَتُه ونهاية أمره، وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا تشبيه لحال الكفار، فهو يأكل في هذه الدنيا كما تأكل الأنعام، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] وهذا هو نصيبُ الكافر من الدنيا.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وما تتفاخرون به فيها من زينة وجاه ومتاع وأموال ونساء وأولاد، مَثَلُهَا في سرعة زَوَالها بعد إِقْبال كَمَثَلِ ماء ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾ بهذا الماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ من كل صنف وزوج بهيج، فأنبتت النبات، فأخرجت منه قوتَ الإنسان؛ كالقمح والذرة والأرز والشعير، وقوت الحيوان كالعشب والكلأ ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من الحبوب والثمار والبرسيم والكلأ والعشب ونحوه.

والمؤمن يستعين بما يأكله على طاعة الله، وتحصيل كَسْبِهِ ومعاشه لأولاده وجهاده في سبيل الله، أما الكافر فليس له غاية إيمانية، فهو يأكل كما تأكل الأنعام.

فالأرض تُخرج ما يأكله الناس من الزروع والثمار، وما تأكله الدواب من الحشيش والنبات صغيرًا، حتى إذا اخْضرَّ الزرع وأيْنع وازْدهر، واكتملت أوراقُه وثمارُه؛ ذَبَلَ وتهشَّم، وكان الهلاك والفناء.

وهذا معنى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي تزخرفت في منظرها واكتست في زينتها، فبلغت كمال النضج والتمام، وتكاثرت الأصناف، وبلغت أقصى ما ينتفع به الإنسان من خيراتها، فانهمك في تناولها، واستغرق في لذائذها، ونَسِيَ أنَّ مصيره الفناء.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: أيقن أهل هذا الزرع أنهم قادرون على حصادِه وقطوفِه وجذِّ ثماره، وحصل منهم طمع بأن هذا الزرع والثمر سيدوم ويستمر، وبينما هم على هذه الحال إذ:

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: جاءها أمْرُ الله وقضاؤه بهلاك ما عليها من الزروع والثمار والنبات، إمَّا ليلًا وإمَّا نهارًا ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: جعلنا هذه النباتات بمختلف أنواعها محصودة مقطوعة لا شيء فيها، كأنْ لَمْ تكن هذه الزروع ولا الثمار ولا الأشجار قائمةً على وجه الأرض قبل ذلك الوقت.

وهذا شأن المغتر بدنياه المفتون بها، الذي زين له الشيطان سوء عمله فرآه حسنًا، وما كان ربك ليهلكها وأهلها مصلحون، وبمثل هذا الزوال يأتي الفناء على ما تتباهون به - أيها الناس- من دنياكم؛ فيُفنيها الله تعالى ويهلكها.

وكأن القرآن يشبِّه الدنيا بعروس تجمَّلت وتزيَّنت، وَلَبِسَتْ أحسن ثياب، حتى إذا كان لها ما أرادت؛ جاءها الموت فجأة! وهكذا حال الدنيا.

وكما بينًّا لكم -أيها الناس- مثَل هذه الدنيا وعرَّفناكم بحقيقتها، نبيِّن حُجَجنا وأدلَّتنا لقوم يتفكرون في آيات الله، ويتدبرون ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وذلك لأن النبات في أول خروجه من الأرض يكون ضعيفًا، فإذا سُقي بالماء قَوِي

ونَما، فإذا بلغ غاية نُضجه وفرح به صاحبه جاءته ريح شديدة، أو آفةٌ أتَتْ عليه، فجعلته حصيدًا كأنَّه لَمْ يكن، وهكذا حال المتمسك بالدنيا إذا نال بغيته منها أتاه الموت فجأة، فسلَبه ما هو فيه من نِعْمَةٍ ولذةٍ.

وهذا مَثَلٌ يُضرب أيضًا لِمَنْ يُنكر البَعْثَ بعد الموت، فالله تعالى قادرٌ على إعادة النبات بعد التَّلَفِ، كما أنَّه قادرٌ على إعادة الأموات أحياء في الآخرة، فيثيب الطائع ويعذِّب العاصي.

جاء في الحديث عن أنس ﷺ: **«يؤتى يوم القيامة بأنْعَم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فَيُغْمس في النار غمسة، ثم يقال له: يا ابن آدم: هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا، وَيُؤْتَى بأشد الناس بُؤْسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيُغْمَس في النَّعيم غَمسةً، ثم يقال له: هل رأيتَ بؤسًا قط؟ فيقول: لا والله ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»**[1].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف] ومثلها في سورة الزمر [١٦] وسورة الحديد [١٧] وكلها تَضرِب المَثَلَ للحياة الدنيا، بالماء الذي يُنبِت الزرع، ثم يبلُغ غاية نُضجه، ثم يذبُل ويزول كأن شيئًا لمَ يكُن، وهكذا عُمْرُ الإنسان، وهكذا هذه الحياة، وهذا هو تزيين الشيطان لمتاع الدنيا، أما تزيين الله تعالى لها فهو يدعو عباده إلى دار السلام.

وفي هذه الآية إنذارٌ وتهديدٌ لمَن بغى في الأرض وتجبَّر فيها، وَرَكَنَ إلى الدنيا وأَعْرَضَ عن الآخرة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

---

(١) ينظر: «سنن ابن ماجه» برقم (٤٣٢١) وصحيح «سنن ابن ماجه» (٣٤٨٨) و«السلسلة الصحيحة» (١١٦٧)، والمسند (١٣١١٢) إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم وهذا لفظه، وأخرجه مسلم (٢٨٠٧) والبغوي (٤٤٠٤) وعبد بن حميد (١٣١٣).

دَارُ السَّلَامِ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا، وَجَهَنَّمُ لِلَّذِينَ أَسَاؤُوا

٢٥- ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ[1] ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ[2] إِلَىٰ صِرَٰطٖ[3] مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾

وبعد أنْ ذَكَرَ الله تعالى سُرعة زوال الدنيا ونعيمها، وقصر عُمْرِ الإنسان فيها، دعا إلى الدار الخالدة التي لا تفنَى فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: والله يدعوكم - أيها الناس - إلى جناته التي أعدَّها لأوليائه.

والسلام: اسمٌ من أسماء الله الحسنى، وهو اسم لِجَنَّتِهِ التي أعدَّها للمُتَّقِين، وهو تحية المؤمنين في الدنيا والآخرة.

وسميت الجَّنة دار السلام؛ لأن مَنْ دَخَلَهَا سَلِمَ من جميع الآفات والنقائص؛ كالموت، والمرض، والمصائب، والغم، والنَّكد، والتعب، وما إلى ذلك.

وسُمِّيَت كذلك؛ لأن الله تعالى يُسلِّم في الجنة على المؤمنين، وكذلك الملائكة تحيتهم فيها سلامٌ، وفيها ما لا عين رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بشر، وهي دار أهل الصلاح والاستقامة.

والله تعالى يُوفِّقُ مَنْ يشاء مِنْ خَلْقِهِ لإصابة الطريق القويم الموصِّل إلى الجنة وهو دِين الإسلام.

والهداية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ مقيَّدة بالمشيئة، وهذا يشتمل على فريقين من الناس: فريق مَهْدي، وفريق غير مَهْدي، والمراد بالهداية في هذه الآية خَلْقُ الاهتداء في قلب العبد بقرينة الدعوة إلى الجنة فيها، قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

---

(١) أمال الألف من (دار) أبو عمرو ودوري والكسائي وابن ذكوان بخلف عنه، وقلله ورش.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وبإبدالها واوًا خالصة (من يشاء إلى)، والباقون بتحقيقها.

(٣) قرأ رويس عن يعقوب، وقنبل بخلف عنه، وخلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي من (صراط)، والباقون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لقنبل.

وعدد الجنات ثمانٍ هي:

١- دار السلام. ٢- دار الجلال. ٣- جنة عدن. ٤- جنة المأوى.

٥- جنة الخلد. ٦- جنة الفردوس. ٧- جنة النعيم. ٨- جنة الرضوان.

وقد ورد في دعوة الله تعالى عباده إلى دار السلام **أحاديث**؛ منها.

١- ما جاء في صحيح البخاري وغيره عن جابر ﷺ قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلًا فاضربوا له مثلًا، فقالوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رجل بَنَى دارًا، وجعل فيها مَأْدُبة، وبَعَثَ داعيًا، فَمَنْ أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدُبة، ومَن لم يُجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدُبة، فقالوا: أَوِّلُوها له يفقهْها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: الدار الجنَّة، والداعي محمدٌ ﷺ، فَمَنْ أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عَصَى محمدًا فقد عصى الله[1].

٢- وفي رواية لجابر أيضًا قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا، فقال: **«إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رِجْلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرِبْ له مثلًا، فقال: اسمع سمعتْ أُذنك، واعقل عَقَل قلبُك، إنَّما مثلُك ومثَلُ أمتك مثَلُ مَلِك اتخذ دارًا، ثُمَّ بَنَى فيها بيتًا، ثم جعل فيها مأدُبة، ثم بعث رسولًا يدعو الناس إلى طعامه، فمِنْهُم مَنْ أجاب الرسول، ومنهم مَن تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنَّة، وأنت يا محمد الرسول، مَنْ أجابك دخل الإسلام، ومَن دخل الإسلام دخل الجنة، ومَن دخل الجنة أكل منها»**[2].

---

(١) ينظر: البخاري في صحيحه معلقًا برقم (٧٢٨١) وقال: تابعه قتيبة، عن ليث، عن خالد، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر، خرج علينا النبي ﷺ، وانظر كتاب المناقب باب (٢٤) ورواه الترمذي برقم (٢٨٦٠) وقال: هذا حديث مرسل من طريق قتيبة عن الليث؛ لأن سعيد بن هلال لم يسمع من جابر، وفي الباب عن ابن مسعود، وقد رُوي من غير هذا الوجه بإسناد أصح من هذا.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٧٣) وصححه الحاكم (٢/ ٣٣٨) ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٧٠).

٣- وعن النواس بن سمعان مرفوعًا: «ضرب الله مثلًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتَّحة، وعلى الأبواب سُتور مُرْخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتفرجوا، وداعٍ يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا مِنْ تلك الأبواب قال: وَيْحَكَ لا تفتحه، فإنك إِنْ تفتحه تَلِجْه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفَتَّحَة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط وَاعِظُ الله في قلب كلِّ مسلم»[1].

٤- وعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما طَلَعَتْ شمسٌ قط إلا بُعث بجَنَبَتيْها مَلَكان يناديان، يُسْمِعَان أهل الأرض إلا الثَّقَلَيْن: يأيها الناس، هَلُمُّوا إلى ربكم، فإن ما قلَّ وكَفَى خيرٌ ممَّا كثُر وألهى ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفا»[2].

وَمَنْ لم يجب داعي الله، فقد أَبَى أن يَدخل الجنة، واستمر في كفره وضلاله.

٥- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كل أُمَّتِي يَدْخُلُون الجنَّة إلا مَنْ أَبَى» قالوا: يا رسول الله، وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: «مَنْ أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أَبَى»[3].

ولما دعا جل شأنه إلى دار السلام كأن النفوس تشوَّقتْ إلى الأعمال الموصِّلة إليها، فأخبر سبحانه عن ذلك في الآية التالية بما لها من شدة تعلُّقٍ بما قبلها:

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٨٢) برقم (١٧٦٣٤) قال محققوه: حديث صحيح بإسناد حسن من أجل الحسن بن سوار، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الطبري في التفسير (١٨٧) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤/ ٢) وابن أبي عاصم في السنة (١٩) ورواه الترمذي برقم (٢٨٦٠) والنسائي، وابن أبي حاتم عن علي بن حجر، وهو إسناد حسن صحيح، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٥).

(٢) «المسند» (٥/١٩٧) برقم (٢١٧٢١) بإسناد حسن من أجل خليد العصري وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، (محققوه) والبيهقي في «الشعب» (٣٤١٢) والزهد (١٩) والطيالسي برقم (٩٧٩) وابن حبان، الإحسان برقم (٣٢٢٩) و«المستدرك» (٢/ ٤٤٤) والبغوي في «شرح السنة» برقم (٤٠٤٥) و«السلسلة الصحيحة» للألباني برقم (٤٤٣) والطبري برقم (١٧٦٠٨) وابن أبي حاتم برقم (٢٠٠٩) وصحح إسناده الحاكم (٢/ ٤٤٤) بموافقة الذهبي، وكذا الألباني، وانظر الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٢٢) وأحمد شاكر في «المسند».

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٢٨٠).

الْحُسْنَى وَالزِّيَادَةُ

٢٦- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ثم بيَّن سبحانه جزاء المهتدين وغير المهتدين؛ ليَكْشِفَ لهم عن عَدْلِه وفضله، فَذَكَرَ في هذه الآية أن الذين هداهم الله إلى صراط مستقيم هم الذين أحسنوا في عبادة الخالق، وأحسنوا إلى عباد الله في دنياهم، فَقَدَّموا لأنفسهم الأعمال الصالحة، وأحسنوا في الاعتقاد والإيمان، وأحسنوا العمل الصالح، وأحسنوا معرفة الصراط والسيْر على طريقه، فأحسنوا في طاعتهم لله، وأحسنوا في تعاملهم مع خَلْقِ الله في أقوالهم وأفعالهم، ونصيحتهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وبذل أموالهم في وجوه البر والإحسان.

وهؤلاء المهتدون، أصحاب الإيمان والعمل الحسن، أعدَّ الله لهم الحسنى في الدار الآخرة، وهي دار السلام والنعيم ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥].
وقال في الآية بعدها: ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

ثم بيَّن جزاءهم في الآية التي بعدها بما يتفق مع هذه الآية فقال تعالى: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام]

فهم ناجون من هَوْلِ الموقف يوم القيامة، ومِنْ كُرُبات يوم الحَشْرِ، مُنعَّمُون في الجنة.

أما الزيادة فهي النظر إلى وجهه الكريم، وليست داخلة في نوع الحُسْنَى، بل تَعْني رَفْع أقدارهم في الجنة، وفي مقدمة ذلك أن يحلَّ عليهم رضوان الله تعالى، فلا يَسْخَط عليهم أبدًا، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التوبة: ٧٢]. وفي هذا حصول لأعلى ما يتمناه المؤمن.

كما أن الزيادة تَعْني أن الله تعالى يُضَاعِف لهم ثواب أعمالهم، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضِعْف، والله يُضَاعف أكثر من ذلك لِمَنْ يشاء، إلى جوار ما أعدَّه الله لهم في الجنات من القصور العالية، والحُور العين، ومَغْفرة الذنوب.

ومع أن الله تعالى أعدَّ للمهتدين إلى الصراط المستقيم، المحسنين في عملهم، هذا

النعيم، فإن الزيادة المذكورة في الآية أفضل ما يُعْطَوْهُ في الآخرة، وهي النظر إلى وَجْهِ الله الكريم.

وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم هو التفسير الذي لا ينبغي العدول عنه إلى غيره؛ لأنَّه مأثور عن جَمْعٍ من الصحابة، منهم: أبو بكر وعلي وابن مسعود وأبو موسى، وحذيفة، وعبادة بن الصامت، وقد دلَّ عليه الأدلة الصحيحة؛ منها:

١- ما جاء عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ثم قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إنَّ لكم عند الله موعدًا، يريد أن يُنْجِزَكُمُوه فيقولون: ما هو؟ ألم يُثَقِّلْ موازيننا؟ ألم يُبَيِّضْ وجوهنا ويدخلْنا الجنة ويزحزِحْنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحِجَابَ فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أَحَبَّ إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ لأعينهم**»(١)، وهذا أصرح ما ورد في تفسير الآية.

٢- وعن أبي موسى ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبعث يوم القيامة مناديًا ينادي بصوت يَسْمَعُهُ أَوَّلهم وآخرهم: إنَّ الله وَعَدَكُم الحُسْنَى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن**»(٢).

وسأل أُبي بن كعب ﷺ رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فقال: «**الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله ﷻ**»(٣).

وقد قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان].

وقد وصف الله تعالى وجوه أهل الجنة في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم»، كتاب الإيمان برقم (١٨١) و(٢٩٨) والطيالسي (١٤١١) وابن ماجه في المقدمة (١٨٧) ورواه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٣٣) و (٦/ ١٥) برقم (١٨٩٣٥) إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم (محققوه)، وأخرجه ابن حبان (٧٤٤١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٦٥) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٢٣٤) والترمذي برقم (٢٥٥٢) في صفة الجنة ونعيمها و(٣١٠٥) وابن أبي حاتم في «التفسير» برقم (٢٠٣٤) وابن خزيمة برقم (٢٥٨).

(٢) ابن جرير (١١/ ٧٤) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤٥) وابن مردويه والدارقطني.

(٣) «تفسير الطبري» (١٥/ ٦٩) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤٤) وغيرهما، وإسناده ضعيف.

مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس] وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

أي لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان ظهر ذلك في وجهه وتغيّر لونه وتكدّر.

وَالْقَتَرُ: لَوْنٌ يَغْشَى جلدة الوجه من شدة البؤس والشقاء والخوف، ويكون ذلك من آثار التهيُّج ورجفة الفؤاد.

وَالذِّلَّةُ: هي الهَوَان والانْكِسَار الذي يبدو على وجه الذليل المهان.

وأهل الجنة لا يعلو وجوههم شيءٌ مما يغطّي وجوه الكفار، بل هم في فرح وسرور، وسعادة غامرة، ونضرة باهرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بهذه الصفات ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مَاكِثُون فيها أبدًا لا يخرجون منها، ولا يحولون ولا يزولون ولا يتغيرون.

عُقُوبَةُ الأَشْقِيَاء:

٢٧- ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا[1] مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ[2] هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وهم الأشقياء غير المهتدين، الذين اكتسبوا السيئات واقترفوا الموبِقَاتِ، فَهُمْ المرتكبون للخطايا والسيئات، وأعظم السيئات الشرك بالله تعالى، وجحود وحدانيته سبحانه، فجزاؤهم سيئة مماثلة يُجْزَوْن بها يوم لقاء الله على كفرهم وتكذيبهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عملوا المعاصي والذنوب المسخطة لله تعالى - من أهل الكفر والشرك الأكبر- لهم في الآخرة عقوبة مناسبة مثل ما فعلوه في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي الآية بَيَان لفضل الله تعالى؛ مِنْ أَنَّ الحسنة تُضَاعَف لأهلها الحسنة بعشر أمثالِها إلى سبع مئة ضِعْف إلى أضعاف كثيرة.

---

(١) قرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب بإسكان الطاء من (قطعًا) والمراد: ظلمة آخر الليل، أو سواد الليل الحالك، والباقون بفتح الطاء جمع قطعة.

(٢) أمال ألف (النار) أبو عمرو ودوري والكسائي وابن ذكوان بخلفه، وقلله ورش.

أما السيئة فإنَّ الجزاء عليها بمثلِهَا؛ عدلًا من الله سبحانه، وهم يعذَّبون في نار جَهَنَم، وتعلو وجوههم ذلة ومهانة وانكسار؛ لعقاب الله إياهم، وليس هناك ما يَدْفَعُ عذاب الله تعالى عنهم ويعصمهم منه، فلا يوجد آنذاك وُسطاء ولا شُفعاء ولا وُجهاء، فَحُكْمُ الله نَافِذٌ لا مَحَالةَ، فكم بين الفريقين من الفرق والتفاوت البعيد.

واقتصر سبحانه على الذلة دون القتر؛ لأنه سيجيء ما هو أشد منه ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ﴾ أي: كأنما أُلبِسَت وجوههم سوادًا من الليل المظلم، وهؤلاء الموصوفون بما ذُكر أصحاب النار ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦].

وهم ماكثون فيها أبدًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧] ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وهكذا وصف الله وجوه الكفرة في كتابه فقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس]

ووصف ما يَعْلُوها مِنْ الذُّل والانكسار ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ﴾ [الشورى: ٤٥].

كما وصف الله سبحانه الظالمين بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم].

وأخبر تعالى عن بَيَاض وجوه المؤمنين وسواد وجوه الكافرين في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران].

مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْحَشْرِ

٢٨- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ[1] جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ

(١) لا خلاف بين القراء في قراءة (نحشرهم) بالنون، وقد توهَّم ابن عطية في تفسيره (٣/ ١١٦) فنقل فيها الخلاف بين القراء، والصحيح أن الخلاف في الموضع الثاني من السورة في الآية [٤٥].

﴿شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ويوم القيامة يَحْشُرُ الله الخَلْقَ جميعًا للحساب والجزاء، الذين أحسنوا والذين اكتسبوا السيئات، ممن سبق ذِكْرُهم، وهم المهتدون وغير المهتدين، فيفتضح شأنُ المشركين على مَسْمَعٍ ومَرْأى من المؤمنين، حيث بَدَأَتِ الآية بِذِكْرِ حَشْر الفريقين، ثُمَّ أَفردت المشركين بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم كي يتم التحاكم والفصل بينكم وبينهم، وذكرتِ الآية قِصَّتَهُم يوم الحشر العَصِيب، كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

واذكر - أيها الرسول - يوم نحشر الخَلْقَ جميعًا للحساب والجزاء، مِنْ كل جانب، ومِنْ كل ناحية، إلى موضع واحد، هو أرض الحشر والنشر، كل أمة تُحشر مع رسولها، فيكون السؤال والجواب، والوعيد والتهديد للمشركين حيثُ يُقال لهم: الزَمُوا مكانكم، واثبتوا فيه، وقفوا حيثُ أنتم، ومعكم ما كنتم تعبدونهم مِنْ دُونِ الله، ولا تَبْرَحُوا مَكانكم حتى تُسألوا وتَنْظُروا ما يُفعل بكم، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات] وقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف].

الكلُّ يُسْأَل، العابد والمعبود، الرُّسُل والمُرْسَل إليهم، ويُمَيِّزُ يوم القيامة بين أهل الجنة وأهل النار، قال تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ميَّزْنَا بين العابد والمعبود، وفرقنا بينهم بالبعد البدني والقلبي، وحصلت العداوة الشديدة بينهم، فانقلب محبة الدنيا بُغضًا وعداوة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

وتمييز المؤمن من الكافر يترتب عليه تعذيب الكافر ونجاة المؤمن ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] أي: لو تميز الكافرون عن المؤمنين، لعذبنا الكافرين منهم بعذاب مؤلم، ومعنى زيَّلْنا أيضًا: فَرَّقْنَا بين الكفار والأصنام، وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس] أي: انفردوا عن غيركم، وافترقوا عنهم قال تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم] وهو يوم ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

وحينئذٍ لا يتكلم الكفار، وإنما تتكلم الأصنام فتتبرأ ممن عبدوهم ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ تنفي الأوثان، وكلُّ ما عُبد من دون الله أن يكون الكفار قد عبدوهم في

الدنيا، ويتبرؤون منهم ومِن عبادتهم، وينزهون الله تعالى عن كل شريك أو ند.

وهكذا الأصنام التي لا تعقل ولا تَنطق، يُنطقها الله يوم القيامة؛ لتتبرأ مِمَّن عبدوهم وتقول لهم: ما كنَّا نسمع ولا نُبْصِر، ولا نتكلم ولا نعقل، ولا نعلم بعبادتكم لنا، فَيَتَبَرَّأُ الشركاء من الذين أشركوهم مع الله في عبادته، سواء أكانوا أصنامًا، أو ملائكةً، أو جِنًّا أو أنبياء، أو أولياء، أو كواكب، يقولون لهم: لن نرضى بعبادتكم ولا نُقرُّها، وقد كنا في غَفْلَة عنها، ولا عِلْمَ لنا بها، فما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لها، وإنما عبدتم مَنْ دعاكم لها وهو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس]

وهذا كقول الله تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم].

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦]

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

ويُفسِّرُ الآية التي نحن بصددها قولُه تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].

وهكذا كلُّ مَنْ مات على الكفر، حين يَرَى الأغلال والسلاسل والحميم يوم القيامة، يصف نفسه بأنه لو كان يعقل أو يسمع وهو في دار الدنيا ما استحق نارَ جهنم في هذا اليوم العصيب ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

قال مجاهد: يأتي على الناس يوم القيامة ساعة فيها لين، يرى أهل الشِّرْكِ أهل التوحيد يُغفر لهم فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام]

ثم يكون من بعد ذلك ساعة فيها شِدَّة. تُنْصَبُ لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فيقول: أهؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله؟ فيقولون: نعم، هؤلاء الذين كنَّا نَعبُدُ، فتقول لهم الآلهة: والله ما كنا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل، ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا، فيقولون: بلى، والله لإياكم كنا نعبد، فتقول الآلهة: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا

عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾[١].

وحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويتبين أنهم كانوا كاذبين مفترين على الله تعالى.

وفي حَشْرِ الناس يوم القيامة واستدعاء الأوثان وعَبَدَتِها ما جاء عن جابر بن عبد الله ﷺ في المُسْنَد وصحيح مسلم: وهو يُسأل عن الورود، قال: «**فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد من دون الله، الأول فالأول، ثم يتجلَّى لهم رب العِزَّة والجلال، فَيُعْطِي كلَّ منافق أو مؤمن نورًا، ثُمَّ يتبعونه، وعلى جسر جَهَنَّم كَلاليب تخطف من شاء الله منهم، ثم يُطفأ نورُ المنافقين، ثم ينجو المؤمنون؛ فتنجو أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفًا لا يُحَاسبون، ثم الذين يلونهم كأضْوَأ نجم في السماء، ثم مَن بعدهم، ثم تحلُّ الشَّفَاعة، حتى يخرج مِن النار مَن قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يَزِن شَعِيرَةً، فيُجْعَلُون بفِنَاءِ الجنة...**»[٢]. قال تعالى:

٢٩- ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وهذه الآية إخبارٌ من الله تعالى عن قول المعبودين لِمَنْ عبدوهم، وهم في ساحة الحشر والنشر أنهم لم يشعروا بهم، ولم يرضَوْا عن عبادتهم، فيُشهِدون الله تعالى أنهم كانوا في غفلة عن عبادتهم لا يعرفون شيئا عنها، وذلك بعدما يقول المشركون للأوثان: والله إياكم كنا نعبد، فتقول الأوثان جوابًا لقولهم: قد علم الله - فهو حسبنا وكفى به شهيدًا - أنَّا ما علمنا بعبادتكم لنا، وما كنا نشعر بذلك، فنحن جمادٌ لا نسمع ولا نعقل.

وهذا تأكيدٌ لتبرئتهم منهم، وأنهم لم يكونوا على دِراية بما يقولون وما يفعلون، وفيه تبكيتٌ للمشركين الذين عبدوهم مع الله تعالى، أو عبدوهم من دونه، حيث تبرؤوا منهم في وقت هم في أشدِّ الحاجة إلى مَن ينفعهم ويشد أزرهم. قال تعالى:

---

(١) ابن أبي حاتم (٦/١٩٤٨).

(٢) ينظر حديث جابر لما سئل عن الورود في «صحيح مسلم» برقم (١٩١) و«المسند» (٣/٢٤٥).

٣٠- ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا[(١)] كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

ويُختم السياق في آيات الحشر والنشر ببيان أن الله تعالى قد أرسل للخَلْقِ رسلًا، يأمرونهم بعبادة الله تعالى، وترك عبادة الطواغيت، في كل أمة من الأمم، ويبيِّنون لهم أن لا معبود بحق إلا الله، وهؤلاء المشركون فِرَقٌ وطوائف وأنواع، يعبدون آلهة شتى.

ويوم القيامة تتبع كل نفس ما قدمتْه في الدنيا من عمل؛ فيسوقها إلى الجنة أو النار ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا﴾ أي: تتبع ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ بعد التعرف والتفقد، فكل نفس تتفقَّد أعمالها وأحوالها التي سلفت، فتُعاينها، ثم تحاسَب وتُجازى عليها، بعد أن تقرأ في صحيفتها ما قدمتْه من خير أو شر وتعْلم ما فيه، وما ابتُليت به في الدنيا من خير أو شر، فيُنشر أمامها وتطالعه، ثم يسوقها عملها إلى الثواب أو العقاب، بالنعيم أو العذاب.

وفي موقف الحساب يُرَدُّ الجميع إلى الله تعالى الحكَم العدل، فقد تحقق يوم الحشر الذي كانوا ينكرونه، وبعد الحساب يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، وقد غاب وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدونهم من دون الله افتراءً عليه، فلا يجدون لهم أثرًا في ساحة العرض؛ وعندئذٍ تتبدد أحلامهم وآمالهم في شفاعتهم لهم عند الله، فالله هو مالكهم ومتولي أمورهم، والأمور كلها تَرْجِعُ إليه سبحانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق] وقوله: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة].

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء]

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف].

سِتَّةٌ مِنْ دَلَائِلِ تَوْحِيدِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

٣١- ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ

---

(١) (تَتْلُوا) بالتاء، حمزة والكسائي وخلف من التلاوة؛ أي: تقرأ كل نفس ما عملته، (تَبْلُوا) بالباء الباقون من البلاء؛ أي: تُختبر.

ٱلْمَيِّتِ[(١)] وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

لمَّا كان سياق الآيات في إبطال الشرك وإثبات التوحيد، أقام ﷻ في هذه الآيات الست جُملةً من الأدلة والبراهين على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه، وفيها توبيخٌ واحتجاجٌ لمَن يَعْبُدُ غير الله تعالى، وفيها تقريرٌ بوحدانية الخالق سبحانه؛ إذ ليس بعد الحق إلا الضلال، وهذه الآيات بمنزلة البراهين لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ فبيَّن سبحانه في هذه الآيات براهينَ هذا الاستحقاق.

وجملتها تتمثل في عدد من نِعَمِ الله تعالى على خَلْقِه، فهو الذي وهبهم الرزق، وأعطاهم الحواس ورزقهم التناسل، ودبَّر نظام العالم؛ فأنشأه من العدم، وأرشد الخَلْقَ عن طريق الرسل والكتب إلى سبل الهداية، ولا يَقْدِرُ على ذلك إلا الله، فوجب صرف العبادة إليه وحده دون سواه.

والناس مِلَلٌ ونحل وفِرَقٌ وطوائف وشرائع متعددة، منهم مَن يؤمن بالله واليوم الآخر، ومنهم مَن ينفي وجود الخالق سبحانه، ولا يؤمن بالبعث والنشور؛ كالدهرية الذين يقولون: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون] والشيوعيين، والملاحدة، والعلمانيين.

وفي عالم اليوم مَن يعبدون البقر، والأصنام والشيطان، والمشركون في قديم الزمان وحديثه يقرُّون ويعترفون بوجود الخالق لهذا الكون، الرازق لهم، الذي يحييهم ويميتهم.

فإذا سألتهم: مَن أطعم هذه البطون الجائعة؟- ومَن أَرْوى هذه النفوس الظامئة؟ فسيقولون: الله، وهذا اعتراف منهم بوجود الله تعالى، وهو مقتضى الفطرة الكامنة في كيانهم، إذن فلماذا تعبدون غير الله وتعتقدون فيه نفعًا أو ضرًّا؟

إن الإقرار بأدلة وجود الله تعالى يستلزم التوجُّه له بالعبادة دون سواه، وهذا هو

(١) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر بتشديد الياء من (الميت)، والباقون بتخفيفها، وذلك في الموضعين معًا.

المقصد من إقامة هذه البراهين في هذه الآيات الست:

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: أنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ

﴿قُلْ﴾ لمن أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا مُحتجًّا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ بإنزال الأرزاق وتيسير أسبابها وتنوع أشكالها، فالرزق من السماء يكون بالمطر وتقدير الأرزاق، ويكون من الأرض بإخراج النبات والشجر والزروع والثمار لكم ولأنعامكم، وباستخراج كنوزها ومعادنها.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك].

فالله تعالى هو الذي يُنزل الماء، وهو الذي يشق الأرض عن الحَب، ويتعهده المُزارع بالرعاية حتى يؤتي أكله ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس]

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة]

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠].

فالماء يحيي به الله الأرض بعد موتها، ومن الأرض يخرج الله النبات، وبالماء يحيي الله الطير والأسماك والحيوان، وفي سطح الأرض أرزاق، وفي جوفها أرزاق، ومن أشعة الشمس أرزاق، ومن ضوء القمر أرزاق، ورزق الله لنا في السموات والأرض أوسع من ذلك بكثير.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: خَلْقُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾؟ مَن يملك لكم - أيها الناس - ما تتمتعون به أنتم وغيركم

من حواس السمع والأبصار؟ ومَن خلَقها لكم ومنحكم إياها؟ والملك يعني: الإيجاد والخَلْق والتملك، وخصهما بالذكر تنبيهًا على شرفهما ونفعهما.

والسمع مصدر يدل على جنس السمع، والأبصار اسم جمع واحده بصر، وقد أُفرد السمع؛ لأنه جنس يفيد العموم، أما الأبصار فقد جُمعت؛ لأن البصر لا يفيد العموم، وليدفع به ما يُتوهم من احتمال بصر مخصوص معهود، فكان الجمع أدل على قصد العموم.

وقد خُص بالذِّكْر هاتان الحاستان؛ لأن لهما أعظم الأثر في حياة الإنسان، ولأنهما اشتملتا في تركيبهما على ما يُبهر العقول، ويَشْهد بعجيب قدرة الله تعالى، وعظيم صُنعه، وأطباء هاتين الحاستين أعرفُ الناس بهذا.

والله تعالى هو الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة، ولو شاء لسلبكم إياها ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك]

قال تعالى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

إن تركيب العين وعناصرها وأعصابها، وكيفية إدراكها للمرئيات، وصحتها ومرضها، وأداءها لوظيفتها، لأمرٌ خارق، لم يزل المتخصصون من البشر يكتشفون الجديد منه في دقائق صنع الله فيها.

وكذا جهاز السمع من تركيب الأُذن وأجزائها، وطريقة إدراكها للذبذبات، إنه لعالَمٌ وحده، يدير الرؤوس، عندما يقاس بأدق الأجهزة التي يعدها الإنسان من روائع العلم في العصر الحديث.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: إِخْرَاجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؟ بإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، وإخراج الحي من الميت يكون بتوالد أطفال الحيوان من النُّطف ومن البيض.

فالنطفة أو البيضة لا حياة فيها بالمعنى المفهوم للعامة، كما يفهمه الأطباء، حيث

تتطور النطفة إلى الشكل القابل للحياة، ثم تكون فيها الحياة، فالإنسان كائن حي يخرج من النطفة وبالعكس.

وأيضًا إخراج الطير من البيضة وبالعكس، وكذا إخراج النبات من الأرض الميتة.

فالذي يملك الموت والحياة في الكون كله هو الله سبحانه؛ فيُخرج الأحياء والأموات بعضها من بعض، فيما تعرفون من المخلوقات وفيما لا تعرفون.

والعرب يَعُدُّون المخلوق الساكن هو الميت، والمخلوق المتحرك أو النامي هو الحي، فيما يشاهدونه بأعينهم، فخروج النَّبْتة من الحبة، والحبة من النَّبْتة، وخروج الفرخ من البيضة، والبيضة من الفرخ... إلخ، هو مظهر الحياة والموت عندهم، وهو أمرعجيب للرائي، بصرف النظر عمَّا يكمن في هذه الكائنات من الحياة أو استعدادها للنمو.

ويكفي أن يتأمل الإنسان كيف تخرج النبْتة من الحبَّة، أو النخلة من النواة، وكيف يخرج الإنسان من النطفة والبويضة، والفرخ من البيضة.

وعلى الإنسان أن يتأمل كيف تكمن السنبلة في الحبة، وكيف تُكَوِّن الجذور والساق والأوراق، وكيف يكمن فيها الطَّعْم والنكهة واللون والرائحة، والفرق بين البلح والتمر والرطب والبسر، وأيضًا كيف يكمن العظم واللحم والزَّغَب والريش واللون والصوت في البيضة.

وكيف تكمن ملامح الإنسان وسماته، وصوته ونظرات عينه، ولفتات جيده، وأعصابه وأوتاره وعظامه في البويضة.

إن في ذلك العجب العجاب، لا تفسير له إلا قدرة الله تعالى وتدبيره، ولا يزال الأطباء المختصون يكتشفون أسرار الموت والحياة بما يزيد السؤال اتساعًا.

ولا يزال الأطباء مختلفين: متى يُعتبر الإنسان ميتًا؟ هل إذا توقف قلبه أو مات دماغه؟ ولا يعرف الأطباء كيف يتحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي، وكيف يتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق.

إن الموت والحياة أعجوبةٌ مثيرة غامضة، لا جواب عليها إلا أن يكون هناك إلهٌ يَهَبُ

الحياة ويقبضها وقتما يشاء[١].

ونظير هذه الجملة من الآية قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [آل عمران: ٢٧] وغيرها.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: تَدْبِيرُ أُمُورِ الْخَلَائِقِ

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؟ مَن يدبر أمر السماء والأرض وما فيهما وما بينهما؟ ومَن يدبر - أيها الناس - أمركم وأمر الخليقة جميعًا؟ مَن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟، إنك إن سألتهم عن ذلك فسيقولون الله، لأنهم يعترفون بذلك وأنه لا شريك له في مخلوقاته.

إنه المتصرف في شؤون خَلْقِه، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقِّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن]

فالمُلْك كله بعالَمَيْه العُلْوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجن، فقراء إلى الله تعالى، كلهم عبيد له خاضعون لجلاله، فهو الذي يدبر أمر الإحياء والإماتة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، ويولج الليل في النهار، والنهار في الليل، ويُسيِّر أفلاكه ونجومه وشموسه وقمره.

وهذا التدبير تعميمٌ بعد تخصيص، فقد خَص الله تعالى بالذِّكْرِ: الرزق، وحاستيْ السمع والبصر، والموت والحياة، ثم عمم في نهاية الآية بما يشمل تدبير الأمور كلها.

ثم أخبر ﷻ أن المشركين سيعترفون بأن الرازق الخالق مدبر الأمر هو الله سبحانه ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لا محيد لهم عن هذه الإجابة؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون غير ذلك، ولكنهم مع اعترافهم هذا، كانوا يتخذون الأصنام للزلفى عند الله تعالى.

وقد ذكر الله تعالى ذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ والآيات قبلها وبعدها من سورة المؤمنون [٨٤-٨٩] وفي سورة الزمر [٣٨] والعنكبوت [١-٦] ولقمان [٢٥] وغيرها.

وما دام الأمر كذلك، فقد قامت عليكم الحجة ووجب عليكم أن تخلصوا لله العبادة

---

(١) ينظر: «في ظلال القرآن» سيد قطب في تفسير الآية لهذا الدليل.

وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأوثان، أفلا تخافون عقاب الله إن عبدتم غيره؟ ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، فتجتنبوا الشرك بأنواعه، وتوحدوا الواحد القهار. قال تعالى:

٣٢- ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

هذه الآية موجِبةٌ لألوهية الله تعالى وعبادته؛ نتيجة لِمَا سَبَقَ من البراهين الأربعة، فقد أشار ﷻ إلى أن الله ربكم، القادر على الخَلْقِ والرزق والإحياء والإماتة، هو الحق الذي لا ريب فيه، المستحق للعبادة دون سواه، وليس ما تعبدونه -أيها المشركون- من دون الله ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ والحق واحد لا يتعدد، ومن تجاوزه فقد وقع في الباطل وضل الطريق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؟ فإذا ثبت بالبراهين الواضحة والدلائل القطعية أن الله هو الحق؛ وَجَبَ أن يكون ما سواه باطلًا وضلالًا؛ إذ لا واسطة بينهما، فهو - سبحانه - المنفرد بالخلق والتدبير، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!

والحقُّ اسم من أسماء الله تعالى، كما ثبت عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جَوْفِ الليل قال: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد، أنت قيُّوم السموات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السموات والأرض ومَن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت**»[1].

والحقُّ هو خالق الكون ، ووجوده تعالى لم يُسبق بعدم، ولا يلحقُه عدم، وما عداه مسبوق بالعدم ويلحقُه العدم ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ كيف تُصرفون وتتحولون عن عبادة الحق - موجد النعم - إلى الضلال والشرك مع إقراركم واعترافكم بأنه سبحانه خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم؟

---

(١) «صحيح مسلم» عن ابن عباس برقم (٧٦٩) و«صحيح البخاري» برقم (١١٢٠، ٦٣١٧) وغيرهما.

فكل ما سوى الله باطل، فكيف يعترف المشركون بالمقدمات، وينكرون النتائج اللازمة؟ وكيف يستمرون على كفرهم بعد هذه البراهين والأدلة الساطعة؟ والهدى والضلال نقيضان لا يجتمعان.

والكلام عن الله سبحانه يختلف عن الكلام في مسائل الفروع المتعلقة بالحلال والحرام ونحوها، فقد جعل الله تعالى لكل أمة شريعة ومنهاجًا. قال تعالى:

٣٣- ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ(١) رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وهذه الآية إخبارٌ من الله تعالى عمَّن عَلِمَ الله في الأزل أنه كافر لا يتحول عن كفره، فكما حقت عبادة الله على خلقه، حقت كلمة الكفر على مَن كفر، وكما كفر المشركون واستمروا على كفرهم، وجبت كلمة الله وحكمه وقضاؤه على الذين خرجوا عن طاعة ربهم إلى معصيته، وعن توحيده إلى الإشراك به، إنهم حالًا ومستقبلًا لا يؤمنون، فهم لا يصدِّقون بوحدانية الله تعالى، ولا يقرون بنبوة محمدٍ ﷺ، ولا يعملون بهديه ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: وجب قضاؤه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ بسبب توجيه العبادة لغير الله تعالى، وبسبب عدم إيمانهم بالله تعالى، **والفسق**: هو الخروج عن دعوة الرسل.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]

فهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلًا.

وفي الآية إشارةٌ إلى قضاء الله تعالى في اللوح المحفوظ وعِلْمِه الأزلي عن خَلْقِه، وعِلْمُ الله غيبٌ، فهم لا يؤمنون، بعدما أراهم الله من الآيات البينات والبراهين الواضحات، ما فيه عبرة لأولى الألباب، وموعظة للمتقين، وهدي للعالمين.

وهو سبحانه يعلم ما سيكون عليه كل إنسان من إيمان وكفر، أو طاعة وعصيان، حينما يكون

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر، بحذف الألف التي بعد الميم من (كلمات) على الإفراد، وقرأ الباقون بإثبات الألف على الجمع، وهي مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة، ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، ووقف باقي القراء بالتاء، وأمالها الكسائي عند الوقف، ويراد بقراءة الإفراد فيها معنى الجمع.

بالغًا عاقلًا، يعلم سبحانه هل هذا العبد من أهل السعادة أم من أهل الشقاء؟ ولا دخل لهذا العلم الإلهي في اختيار الإنسان طريق الهدى أو الضلال، لذا حقت كلمة العذاب؛ بسبب اختيارهم طريق الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ:

٣٤- ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ(١) تُؤْفَكُونَ﴾

ومن أدلة توحيد الخالق سبحانه البعث بعد الموت ﴿قُلْ﴾ يا محمد مبينًا عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يجعلها آلهة ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؟ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، فبعد أن أقام سبحانه الدليل على انفراد الله تعالى بالرزق والتدبير في الآية السابقة؛ ليبيِّن استحقاقه تعالى للعبادة دون سواه، بعد ذلك بيَّن سبحانه أن آلهتهم ومعبوداتهم مسلوبةٌ من صفات الكمال المتصف بها رب العالمين، فهو وحده الذي يبدأ الخَلْقَ ثم ينشئه خلقًا آخر.

وجاء هذا الدليل على سبيل السؤال والاستفهام، والمشركون والملحدون مقرُّون ببَدْءِ الخَلْقِ، ولكنهم لا يسلِّمون بإعادته، ولا يؤمنون أيضًا بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، وقد وجه الله تعالى لهم سؤالًا يرتكز على أمر مُسَلَّم عندهم.

والمعنى: قل لهم - يا أيها النبي، ويا أيها الداعي إلى توحيد الله - هل ممَّن تشركونهم مع الله في عبادته مَنْ يبدأ خَلْقَ أيِّ شيء من غير أصل، ثم يُفْنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه؟

ولمَّا كان الجواب واضحًا جليًّا -لا ينكره إلا معاند مكابر- تولى الله سبحانه الجواب على السؤال ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ من غير مشارك ولا معاون لقد أمر الله نبيه أن ينوب عن المشركين في هذا الجواب، حتى لا يتركهم إلى المكابرة والجحود، وحتى يعلِّمهم النطق بكلمة الحق؛ فيقول ﷺ نيابة عنهم: الله وحده هو الذي يُنشئ الخلق، ثم يفنيه، ثم يُعيده، وليس في قدرتهم ادعاء أنهم يقدرون على ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ كيف تنصرفون عن طريق الحق إلى الباطل؟ وهو عبادة غير الله تعالى، ممن لا يخلق شيئًا وهم يخلقون.

(١) أمال (فأنى) حمزة والكسائي وخلف، وقللها دوري البصري وورش بخلفه.

وقد ألقم الله المشركين حَجَرًا في هذه الآيات؛ فبيَّن تعالى أن مَن تعبدونهم من دون الله لا قدرة لهم على فعل شيء، وأن الله وحده هو الذي يحيي الموتى، وأنه يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم]

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان].

وفي هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى الموجِبة لوحدانيته سبحانه، وفيها إبطالٌ لكل ما يُعبد من دون الله، وقد جاء ذلك في صورة استفهام يدل على التوبيخ والتقريع بمعنى: هل مِن الأوثان مَن ينشئ الخَلْقَ من العدم ثم يميته، ثم يعيده ويحييه؟ فإذا كانوا لا يقدرون على شيء من ذلك وَجَبَ التسليم بأن الله تعالى هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، ومَن ثَمَّ وجب صرف العبادة له دون سواه.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: اللهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي لِلْحَقِّ

٣٥- ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ[1] إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) في كلمة (لا يهدي) سبع قراءات:

الأولى: قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال.

الثانية: قرأ شعبة بكسر الياء والهاء وتشديد الدال.

الثالثة: قرأ حفص ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال.

الرابعة: قرأ ابن وردان عن أبي جعفر بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال.

الخامسة: قرأ ورش وابن كثير وابن عامر بفتح الياء والهاء وتشديد الدال.

السادسة: قرأ قالون وابن جماز بفتح الياء وتشديد الدال، ولهما في الهاء الإسكان واختلاس الفتحة.

السابعة: قرأ أبو عمرو بفتح الياء وتشديد الدال، وله في الهاء الفتح والاختلاس.

ووجه كسر الهاء التخلص من التقاء الساكنين؛ لأن أصلها (يهتدي) فلما سكنت التاء لأجل الإدغام، والهاء قبلها ساكنة، كُسرت الهاء للتخلص من التقاء الساكنين، ومَن فتحها نقل فتحة التاء إليها، ووجه مَن كسر الياء أنه أَتْبَعَ حركة الياء للهاء.

والله ﷻ يمتن على عباده - أولًا - بنعمة الخلق والإيجاد.

ويمتن عليهم - ثانيًا - بنعمة الهداية ونشر الحق.

ومعلومٌ أن نعمة الهداية أعظم المنن؛ لأن فيها صلاح الفرد والمجتمع، وسلامة الأفراد من اعتداء القوي على الضعيف، وسلوك طريق الحق والرشاد.

ولذا: فإن القرآن الكريم يتْبِع الاستدلال ببدء الخلق وإعادته -الذي هو في الآية السابقة- بالاستدلال بهداية الخلق في هذه الآية التي معنا؛ لأن الإنسان مركب من جسد وروح، فيستدل بإيجاد الجسد أولًا، ثم يستدل بما فيه صلاح الأرواح وتهذيبها.

وكما أن مَن يُعبد من دون الله لا يبدأ الخلق ولا يُعيده، فهو عاجز أيضًا عن إرشادهم إلى الكمال النفساني بنشر الحق وهداية الخلق.

ولهذا فإن إبراهيم ﵇ قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء] فبدأ بالخلق وثنَّى بالهداية.

وهكذا قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ﴾ قل للمشركين -أيها الرسول- على سبيل التهكم: هل مِن هذه الآلهة التي تعبدونها مِن دون الله مَن يستطيع أن يهدي غيره هداية بيان وإرشاد، أو هداية إلهام وتوفيق، إلى طريق الحق وسبيل الرشاد؟ وبأسلوب آخر: هل ممَّن تعبدونهم -أيها المشركون- مَن يرشد إلى طريق الحق المستقيم؟ وهل بمقدوره أن ينزِّل كتابًا، أو يرسل رسولًا، أو يُشرِّع شريعة، أو يضع نظامًا دقيقًا لهذا الكون، أو يحث العقول على التدبر والتأمل في ملكوت الله، أو يوقظ القلوب الغافلة، ويحرك المدارك المعطلة؛ فيهدي الحيارى والضُّلَّال، ويُقَلِّب القلوب من الغي إلى الرشد؟ هل من هذه الآلهة من يُرشد ضالًا أو يهدي حائرًا أو يدل على طريق الحق والاستقامة؟

ولمَّا كان لا يملك هذا إلا الله، فقد أَمَرَ رسوله أن يجيبهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۚ﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة على سلوك أقوم الطرق، قل لهم: الله وحده هو القادر على هداية الضال، وبيان الحق، والمراد بالحق: الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح الخالص لله سبحانه، الموافق لهدي النبي ﷺ.

وغير هذه الإجابة ضَرْبٌ من اللجاج والكبرياء؛ لأن الله وحده هو الذي يهدي الضال إلى الحق، ويسدِّده ويوفِّقه.

ثم تنشأ قضيةٌ أخرى جوابها معلوم ومقرر ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾؟ أي: أفمن يرشد إلى الهدى أحق بالاتباع، أم هذه الأصنام التي لا تهدي نفسها ولا تهدي غيرها؟

والجواب على هذا السؤال: أن الذي يهدي الناس إلى الحق أَوْلَى بالاتباع ممن هو غير مهتدٍ في نفسه، إلا أن يهديه غيره، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ أي لا يهتدى ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لعدم علمه وضلاله أي: أيهما أحق أن يُتَّبع؟ هل مَن يهدي الناس للحق أم من لا يهدي نفسه، ولا يهدي غيره؟ نظرًا لضلالِه وعدمِ عِلْمِه، ويتمثل هذا في كل ما يُعبد من دون الله؛ كالحجارة والأشجار والكواكب.

وكذا البشر كعيسى وعزير ومحمد ﷺ، فكلهم بشر يحتاجون إلى هداية الله لهم، حتى وإن كان البشر نبيًّا أو رسولًا قد بُعث هاديًا للناس، فهو لا يهدي غيره إلا بهداية الله له.

ومعلوم أن الأوثان لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تُهدَى.

وإذا قال قائل: إن الأصنام جماد، فكيف تَهدِي أو تُهدَى؟ فالجواب كما ذكره العلماء:

١- أن هدايتها بمعنى أنها لا تَنْتقل من مكان إلى مكان، إلا إذا نقلها غيرها؛ فهي بهذا عاجزة عن الحركة والانتقال.

٢- أو أنها نُزِّلت منزلة مَن يسمع ويعقل.

٣- أو أن المراد بذلك رؤساء الضلال والكفر، فإنهم لا يقْدِرُون على هَدْي أنفسهم، فضلًا عن غيرهم، إلا إذا هداهم الله إلى الحق، فهذه ثلاثة أجوبة.

وقد قال إبراهيم لأبيه فيما يتعلق بالأصنام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات] وغير ذلك من الآيات.

ثم يأتي هذا الاستفهام الثاني على وجه التعجب والإنكار:

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ ما بالكم كيف سوَّيْتم بين الله وخَلْقِه؟ وهذا حكم باطل، هل

ذهبتْ عقولكم حتى تُسَوُّوا بين الخالق والمخلوق، وتَحيدون عن الحق إلى الباطل؟ وفي هذا قَصْرٌ للهداية على الله تعالى دون غيره؛ لأنه هو الذي يُصلِح النفوس، ويصلح نظام البشر، فاتباعه واجب عقلًا وشرعًا. قال تعالى.

٣٦- ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

هذه الآية لبيان أن أهل الضلال لا يتبعون في دينهم دليلًا ولا برهانًا، إذ ليس لله تعالى شريك أصلا، لا عقلًا ولا نقلًا، وإنما هي تقليد وأهواء، فقد بيَّن ﷺ أن المشركين لا يستندون في عبادتهم للأوثان إلى دليل واضح، ولا إلى حقائق مدروسة، وإنما يتبعون ظنونًا كاذبة، وأوهامًا لا أساس لها في عبادتهم غير الله تعالى، وفي زعمهم أن آلهتهم تقربهم إلى الله، وهذا معنى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ﴾ ولفظ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ يفيد أنَّ مِن المشركين مَن ارتقَتْ مدارِكُ أفهامهم فوق الاعتقاد بأن للأصنام تصرفًا، ولكنهم أظهروا عبادتها اتباعًا للهوى، وتقليدًا لغيرهم، وحفظًا للسيادة بين قومهم؛ لأنهم خاصة القوم، وأهل الأحلام منهم، وفي هذا إيقاظٌ لجمهورهم من غفلتهم.

والمعنى: وما يتَّبعُ هؤلاء المشركون في جَعْلِهم الأصنام آلهة، واعتقادهم بأنها تقربهم إلى الله تعالى إلا تخرُّصًا وظنًّا ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ﴾ أي: إن العلم المشوب بشك لا يغني شيئًا في إثبات الحق المطلوب، ولا يغني من اليقين شيئًا؛ لأنه لا يقُوم مقامه، ولأنه لا يستند إلى دليل من كتاب أو سنة، فاتباعكم للظن ليس إلا تخريف أو كذب وافتراء.

والمراد بالحق في الآية: العلم اليقيني والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع، وهذا ينطبق على أصول الاعتقاد والتشريع، ويشمل كلَّ الواجبات والمحظورات القطعية، أما ما دون العلم اليقيني مما لا يفيد إلا الظن فلا يُؤخذ به في الاعتقاد، وإنما هو متروك للاجتهاد من قِبَلِ أهل العلم وأولي الأمر والساسة، مع التقيد بالشورى وتحرِّي العدل[١].

معاني الظن:

١- أما الظن فهو العلم المستند إلى دليل راجح، مع احتمال الخطأ احتمالًا ضعيفًا،

---

(١) ينظر: «تفسير المنار» (١١/ ٣٦٤).

والظن بهذا المعنى: هو مناط التكليف بفروع الشريعة.

٢- وقد يُطلق الظن على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما في قوله تعالى عن الخاشعين في صلاتهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

٣- ويطلق الظن على الاعتقاد المشوب بشك، كما في قوله تعالى حكاية عن قوم هود: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] وفي قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

٤- ويطلق الظن على الاعتقاد الخاطئ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وفي الحديث: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**»[١]؛ وهكذا يختلف معنى الظن وَفْق مقامات الكلام وسياقه ومدلوله[٢].

ولأن حقيقة الظن لا يعلمها إلا الله، فقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعله المشركون من الكفر والتكذيب واتباعهم الظن، فليس لديهم دليل ولا برهان، وإنما هم يتخيلون ويتوهمون، وفي هذا توبيخٌ لهم على انقيادهم للأوهام والظنون، وفيه تهديدٌ ووعيدٌ لهم بأن الله تعالى سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك أشد الجزاء.

ويُؤخذ من هذا أن العلم اليقيني يُوجِبُ الاعتقاد، وأن العلم الظني متروكٌ للاجتهاد، ومن العلم اليقيني العلم بأركان الإسلام والإيمان، والواجبات القطعية، ومنها العلم بالمحظورات القطعية.

المَوْضِعُ الثَّالِثُ: مِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنِ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

٣٧- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ[٣] أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ[٤] ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٥١٤٣، ٦٠٦٤، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ١٦٥).

(٣) قرأ ابن كثير بنقل حركة همزة (القرآن) إلى ما قبلها وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف عليها.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (تصديق)، والباقون بالصاد الخالصة.

ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ[١] فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

هذه الآية تنفي أن يكون القرآن من عند محمدٍ ﷺ، وتبطل تعجُّب المشركين من الوحي، وتثبت أنهم اتبعوا الظن في شؤون الإلهية وشؤون النبوة، وهذا هو الموضع الثالث في سورة يونس من الحديث عن الوحي والرسالة أحد عناصر القرآن المكي، وقد سبق ذِكْرُ الموضعين الأولين في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾.

وفي هذه الآية ردٌّ على مَن طلب من النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا، أو يبدله بما يوافق أهواءهم.

وفيها بيان أنهم لم ينظروا في هذا الوحي ويتأملوه؛ ليعلموا أنه من عند الله.

وفيها وصف لهم بالجهالة وسفاهة الرأي، ووصف للقرآن بالإعجاز والفصاحة والبلاغة.

وفيها ينفي الله سبحانه أن يكون هذا القرآن مختلَقًا من قِبَل أحد من البشر، فهو غير قابل أصلًا لهذا الافتراء، وليس في إمكان أحد أن يأتي بمثله ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس من شأن هذا القرآن المعجز في هديه وأسلوبه ومعانيه أن يخترعه أو يختلقه أحد من الإنس أو الجن؛ إذ لا يتهيأ لأحد أن يأتي به من عند غير الله، وليس في مقدور أحد من الخلق أن يختلقه؛ لأن كلام الله تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، وما يقوله المشركون في هذا الصدد هو من أوهامهم وظنهم، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهو كتاب لواجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا، فكيف يمكن لأحد من الخلق أن يأتي بمثله أو بما يقاربه، ولو افترضنا أن أحدا تقوّل على رب العالمين، لعاجله الله بالعقوبة.

وهذا القرآن له شواهد سابقة، نزلت على رُسل الله، فهو ليس بِدَعًا في بابه، ولكن الله تعالى أنزل هذا القرآن مصدقًا للكتب التي أنزلها على أنبيائه من قبل، فهو يصدِّقُ التوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والزبور الذي نزل على داود،

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد لام (لا ريب) أربع حركات، والباقون بمدها مدًّا طبيعيًّا.

والصحف التي نزلت على شيث وإدريس وإبراهيم وغيرهم؛ لأن دين الله واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقد حَوَى القرآن ما في هذه الكتب، وزاد عليها الكثير من الأخبار والتشريع وغير ذلك، مع كونه ﷺ أميًّا لا يقرأ ولا يكتب.

وفي هذا القرآن تفصيل لِمَا شرعه الله تعالى لأمة محمدٍ ﷺ؛ من الحرام والحلال والفرائض والأحكام والأخلاق والآداب، فيه خبر مَن قبلنا، ونبأ ما بعدنا، وفصل ما بيننا، ولا شك في أن هذا القرآن وحي من رب العالمين، وأنه ليس مفترًى على الله، ولا يقدر عليه أحد من البشر، بل هو الحق اليقين، تنزيل من رب العالمين. قال تعالى:

٣٨- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

وبعد أن وصف الله تعالى القرآن بما يقتضي بُعده عن الافتراء، أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين، أن هذا القرآن مفترًى من دون الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقولون: إن محمدًا هو الذي أتى بهذا القرآن من عند نفسه، وليس من عند الله؟ مع أنهم يعلمون أنه بشر مثلهم، وأنه أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب.

ثم أمر الله رسوله أن يجيبهم عن دعوى الافتراء، وأن يَقْطع الاستدلال عليهم، بأن هذا القرآن معجِزٌ من عند الله، فتحداهم وطلب منهم أن يفتروا مثله، ولو بسورة واحدة، تُماثل القرآن في نَظْمِه وهديه وفصاحته وبلاغته؛ كسورة الكوثر أو الإخلاص.

وفي سورة البقرة قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] بزيادة لفظ ﴿مِّن﴾ أي: من إنسان مثل محمد يساويه في عدم القراءة والكتابة، أو من مثل هذا القرآن.

وهنا قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ بدون ﴿مِّن﴾ أي يشبه هذا القرآن المعجز في حد ذاته، وهذا تنزُّل في التحدي من المطابقة التامة للقرآن، إلى ما يشبهه ويماثله.

وجاءت (سورة) منكَّرة في قوله: ﴿بِسُورَةٍ﴾ أي: ليأتوا بأي سورة، قصيرة أو سهلة أو يسيرة عليهم، واستعينوا على ذلك بمَن شئتم من الفصحاء والبلغاء والشعراء، بما يشملكم ويشمل آلهتكم، وما تشاؤون من الإنس والجن؛ لنُصْرتكم ومساعدتكم ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أن هذا القرآن مفترى، فأنتم سواء في اللغة.

وفي سورة البقرة قال تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ [البقرة: ٢٣] والمعنى واحد.

وهذه الآية تُمثِّلُ المرحلة الثالثة من مراحل تحدي القرآن للمشركين المكذبين أن يأتوا بمثل أقصر سورة من القرآن.

وقد نفى القرآن ذلك وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] وهي آية مدنية.

مَرَاحِلُ التَّحَدِّي بِالقُرْآنِ أَرْبَعَةٌ:

أمَّا المرحلة الأولى: فَقَدْ تحدَّاهم القرآن أن يأتوا بمثله كله، وأخبر الله سبحانه أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه ولو استعانوا بالثقلين جميعًا ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

والمرحلة الثانية: جاءت في سورة هود؛ حيث تقاصر معهم القرآن فتحدَّاهم أن يأتوا بمثل عشر سور مثله مفتريات، كما زعموا افتراء محمد ﷺ -وحاشاه- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود].

فالتَّحدي الأول والثاني كان بمكة.

المرحلة الثالثة: تحدى القرآن المكذبين به أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه كما جاء في هذه السورة ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] وكان ذلك في مكة أيضًا، وقد تحداهم القرآن أن يستعينوا بمن يشاؤوا من أرباب الفصاحة والبلاغة إن كانوا صادقين في دعواهم أن القرآن ليس من عند الله.

والتَّحدي الرابع: كان في المدينة، كما جاء في سورة البقرة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] وقد نفى القرآن إمكانية ذلك في الآية التي تليها مما يدل على أن التحدي قائم ومستمر.

وقد أجاب الله تعالى بأن هذا ليس في استطاعتهم، وعليهم أن يعتقدوا أن هذا القرآن نزل من عند الله ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾؟ [هود].

وتحدى الله المكذبين أن يأتوا بمثل ألفاظ سورة من القرآن، أو بمثل معاني عشر سور منه، تحداهم أن يأتوا بمثل ألفاظه أومعانيه، وهما طرفا الإعجاز، وليس في إمكان السابقين ولا اللاحقين أن يأتوا بمثل هذا أو ذاك.

أما **إعجاز المعنى** فمنه الإخبار بما سيحدث في المستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣] وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] وكذا أحوال الآخرة، وما فيها من بعث وحشر وحساب وجنة ونار.

وإعجاز الألفاظ والنَّظم مثل: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ [الرحمن] ومثل: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ [المدثر].

وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثل ألفاظه ومعانيه معًا، وكانت الفصاحة والبلاغة من سجايا العرب في أشعارهم ونثرهم ومعلَّقاتهم، ولكن الله تعالى جاءهم بما لا قِبَل لهم به؛ في حلاوته وجزالته وطلاوته وبراعته وإفادته، بما لا يستطيع أن يأتي بمثله بشرٌ، ومحمدٌ الذي أتى بهذا القرآن هو بشر مثلهم، فإذا عجزوا أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فلاشك أنهم كذَبةٌ في دعواهم أن هذا القرآن افتراه محمدٌ وابتدعه ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

وهذا التحدي قائمٌ إلى يوم القيامة بالنسبة للبشر جميعًا، وبالنسبة للجن أيضًا.

وقد صح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: **«ما من نبي إلا قد أُعطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا»**[1].

وكان القرآن معجزة النبي ﷺ؛ لأن رسالته ممتدة إلى يوم الساعة، لِمَنْ عاصر النبي ﷺ، وكل من يأتي بعده، وهي من نوع ما نبَغ فيه العرب من الفصاحة والبلاغة.

أما الأنبياء الآخرون، فَلَمَّا كانت رسالتهم محدودة بزمان ومكان، كانت معجزاتهم أرضية كوْنية، بحيث يراها القوم فقط، ولا تصلح لِمَنْ بعدهم كما كانت معجزة موسى من

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٨١، ٧٢٧٤) ومسلم في صحيحه برقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة وهذا لفظه.

نوع السحر الذي نبَغ فيه قومه، وكانت معجزة عيسى من نوع الطب الذي نبَغ فيه قومه.

ثم بيّن سبحانه أن الذي حملهم على التكذيب بالقرآن، أنهم لم يحيطوا به علمًا، ولم يدركوا ما لم يقع تأويله بعدُ من الأخبار وأمور الغيب، ويظهر لهم صدق ما أخبر به من البعث والنشور والحساب والجزاء. قال تعالى:

٣٩- ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ[1] تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

هذه الآية فيها وعيدٌ للمكذبين بالقرآن، وبيان أنهم كذبوا به دون أن يعرفوا ما فيه من علوم الغيب، ومن حُسن النَّظْم، وقبل أن يأتيهم تفسير ذلك وبيانه فقد بادروا بالتكذيب قبل التأمل فيه من باب المكابرة والعناد، ومن الإحاطة بعلمه ما أخبر الله به من هلاك المكذبين لرسل الله، غير المصدقين بآياته وبراهينه.

والحديث موصول عن تكذيب المشركين بالقرآن؛ فقد بيَّن ﷺ أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن أول سماعه، دون النظر في أدلة صحته، وقبل أن يفقهوه ويتدبروه، ويعْلَموا ما فيه، وقبل أن يقفوا على تأويله ومعانيه؛ وذلك بسبب نفورهم عما يخالف دينهم، وإصرارهم على عدم مفارقة دِينِ آبائهم، مع أن القرآن أضوأ من الشمس في ظهور صحته ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ والإحاطة بعِلْمه تعني إتقانه والإلمام به أشد إلمام.

وهذا الأسلوب في نظم الآية للمبالغة، كأنه جعل العلم معلومًا، وقد عدل القرآن الكريم عن قول: بل كذبوا بما لم يحط علمهم به؛ لأنه لما نَفَى العلم عنهم صاروا كأنهم لم يحيطوا بعلمه، وكان عليهم أن يحيطوا بعلمه عن طريق زيادة النظر والتأمل الدقيق في صِدْقِ أدلته.

ومن العلم الذي في القرآن معرفةُ البعث والحساب والجنة والنار، وأخبار الأمم الماضية.

لقد كذبوا بهذا القرآن قبل أن يعلموا ما فيه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ولم يأتهم بَعْدُ تأويل ما فيه من الأخبار والأمور الغيبية، فالقرآن معجِزٌ في نظمه، ومعجز فيما يحتويه من

---

(١) قرأ رويس عن يعقوب بضم الهاء من (يأتهم)، وقرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ألفًا، وكذلك حمزة عند الوقف.

الغيبيات، وهم قد بادروا إلى تكذيبه قبل أن يأتيهم بيان ذلك، وهذا أشنع ما يكون في التكذيب، فالمراد بتأويله: حقيقة ما يؤول إليه الأمر يوم القيامة، ويظهر لهم فيه صحة ما أُنذروا به من البعث والحساب والجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وفي هذا بيانٌ أن القرآن سيأتي فيه بيانُ ما أُجْمِلَ فيما بعد.

وكما كذب المشركون بهذا القرآن، كذب مَنْ قبلهم من الأمم، رسل الله، وكذبوا وَعْدَ الله ووعيده ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ﴾ يا أيها النبي ويا أيها المخاطب ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقد أهلك الله بعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

فاحذروا - أيها المخاطَبون - أن تكونوا مثلهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ [النمل: ٨٤].

أَصْنَافُ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللهِ

٤٠- ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

ثم عقَّب ﷻ على مَن كذَّب بآيات الله من غير بصيرة ولا تأمل وعدم إحاطة بما فيه، بأن مِنْ قومك - يا محمد - الذين بُعثتَ فيهم مَنْ يُصدِّق بهذا القرآن حالًا ومآلًا، ومنهم مَن ختم الله على قلبه فلا يصدق به حتى يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ وقد يكتم إيمانه خوفًا أو عنادًا ومكابرة ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ والسبب في عدم إيمان مَن لَم يؤمن هو الجهل والغرور والكبرياء وتقليد الآباء والأجداد؛ فهو الذي أفسد حالهم.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا يؤمنون بآيات الله؛ فقد أفسدوا في الأرض بالشرك والظلم والفجور، وأفسدوا عقائد الناس وأخلاقهم وأموالهم، وفي هذا تهديد ووعيد لهم بالحساب والجزاء يوم القيامة. قال تعالى:

٤١- ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ[١] مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

ثم يوجه الله رسوله إلى المستقبل، فيخبره أنه إذا استمر هؤلاء وأمثالهم على تكذيبك - يا محمد - وأصروا على ذلك بعدما قارعْتَهم بالحُجة، فاعْلَمْ أن الحُجَج لا تَنْجَعُ فيهم، وأَعْلِنْ براءتك منهم كما تبرؤوا منك، وفي هذا زيادة تصديق وتثبيت للنبي ﷺ على ما هو عليه.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ في المستقبل - أيها الرسول - واستمروا على ذلك ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ لي دِيني ولكم دينكم، فلي ثواب الطاعة، ولكم عقوبة الشرك، وكل منَّا مسؤول عن عمله أمام الله، كما قال ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]

وهكذا أمَرَ الله رسوله أن يظهر البراءة من عمل الكفار القبيح وينكرها ويبتعد عنها ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ فلا تؤخَذونَ بعملي، ولا تُسألون عنه ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا أؤاخذ بعملكم بعد نصحكم وتحذيركم مغبته وعاقبته، ولا تؤاخذون بعمل فكل منا يجني ثمرة فعله من الثواب والعقاب.

وهذا كقوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون]
وقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾ [الشعراء]
وقول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]

وهذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين، فقد أُمِرَ النبي ﷺ بعد ذلك أن يقاتل مَن قاتله، أو وقف في وجه الدعوة يمنع وصولها للناس. قال تعالى:

٤٢- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢﴾

هذه الآية فيها تصوير للجهل المطبق، والغباء المستحكم، لِمَنْ لَم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ، وقد سبق تقسيم المشركين في عبادتهم للأصنام بأن منهم مَن يتبع الظن، ومنهم مَن يوقن بأنها لا شيء يعبد، ولا ينفع ولا يضر، وسبق تقسيم المشركين أيضًا إلى أن منهم مَن يصدِّق بالقرآن في نَفْسِه، ويكذبه عنادًا وكبرياء، ومنهم من لا يصدق به.

---

(١) وقف حمزة على (بريئون) بإبدال الهمزة ياء وإدغامها في الياء قبلها.

وفي هذه الآية تقسيمهم بالنسبة للتلقي عن رسول الله ﷺ؛

١- فمنهم مَن يحضر مجلس النبي ﷺ ويستمع إلى ما يُوحى إليه، وقت قراءته للقرآن ويتوخى العثرات والشبهات للتكذيب والجدال بالباطل، وهو لا ينتفع بما يسمع، فكأنه لا يسمع.

٢- ومنهم مَن لا يحضر مجلسه، ولكنه ينظر إليه متوسمًا دلائل النبوة فيه، كما يأتي في الآية التالية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾

٣- ومن الكفار مَن يسمعون كلامك الحق، وأنت تقرأ عليهم القرآن والأحاديث، وتُرشدهم إلى ما ينفعهم، وتنهاهم عما يضرهم، ولكنهم لجحودهم وبُغضهم وحسدهم لك لا يسمعون سماع تدبر وتعقُّل، وإنما يستمعون للتكذيب واللجاج واللغو فيه، ولذلك فهم لا يهتدون ولا ينتفعون بما يسمعون؛ لوجود الحائل بينهم وبين التأثر بما يسمعون وهذا المعنى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ .

قال تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، فالأصم لا يسمع ولو كان صوتك جهورًا، أي هل في مقدورك - يا رسول الله - ويا أيها الداعي إلى الله - أن تُسمع الأصم الذي لا يسمع؟ وهل بإمكانك أن تُسمع الحق لمن صَمَّ أُذنه عنه، وأغلق بابه دونه؟ سِيَّمَا إذا انضمَّ إلى ذلك كونه لا يعقل، فكذلك هؤلاء لا تقدر على هدايتهم، إلا مَن شاء الله أن يوفقه لذلك، مِمَّن علم الله أنه يستجيب للهداية؛ لأنهم يسمعون ولا يعقلون، فحواسهم مطموسة لا تتصل بعقولهم، ولكن الحجة قامت عليهم بوصول الدعوة إليهم، وهم الذين أعرضوا عنه لفساد عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، وهي الطرق الموصِّلة إلى العلم ومعرفة حقائق الأمور. قال تعالى:

٤٣- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ومن هؤلاء المكذبين مَن ينظر إليك، يتوسم فيك النبوة الصادقة، ويتفرس فيك دلائلها، ولكنه أعمى البصيرة، فلا يُبصر ما آتاك الله من نور الإيمان، ولا يُبصر شيئًا من الهدى الذي جئتَ به، فهو لجحوده وكفره وعناده مطموسُ البصيرة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ليُعاين أمارات النبوة، ولكنه لا يهتدي إليها، فكما أنك لا تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء فهو لذلك كالأعمى، فوجهك ليس بوجه كذَّاب، ولكنه لا يصدقك جحودًا وعنادًا.

فهل تقدر - أيها الرسول وأيها الداعي إلى الله - أن تخلق للأعمى بصرًا ينظر به؟ فإن كنت لا تستطيع ذلك، فإنك أيضًا لا تقدر على هداية أعمى البصيرة، فإن ذلك إلى الله وحده؛ وذلك لأن حواسهم معطلة عن أداء وظيفتها لا ينتفعون بها، فكأنها غير موجودة.

وقد جاء في الآية قبلها ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ بضمير الجمع، وفي هذه الآية ﴿يَنظُرُ﴾ بضمير المفرد، إما لأن الإسماع يكون من جميع الجهات، أما النظر فيكون من الجهة الأولى؛ وإما لأن الاسم الموصول وهو ﴿مَّن﴾ يستوي فيه أن يكون الفعل بعده جمعًا أو مفردًا.

وقد ضمت الآية السابقة إلى جوار الصمم عدم العقل، وضمت هذه الآية إلى جوار عمى البصر، عمى البصيرة، فهم يسمعون ولا يعقلون، وينظرون ولا يهتدون، والغرض من الاستفهام التعجب من حالهم.

والمؤمنون ينظرون إلى النبي ﷺ نظرة وقار وإجلال، والكفار ينظرون إليه نظرة احتقار واستهزاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان].

وفي الآية تسليةٌ للنبي ﷺ؛ لبيان أنه كما لا يقدر أن يخلق للأعمى بصرًا ينظر به، فهو لا يقدر كذلك أن يوفقهم للإيمان.

ظُلْمُ النَّفْسِ بِالْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ

٤٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ[1] أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

هذه الآية لبيان أن الله تعالى قد فتح بهذا القرآن أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، فمَن أعرض عنه ولم يهتدِ به فقد ظلم نفسه، ولذلك عرَّض سبحانه بِمَن لا ينتفعون بما يسمعون، ولا يعتبرون بما ينظرون.

ثم عرَّض سبحانه بوعيدهم في هذه الآية لبيان ما سينالهم من العذاب، جزاء تكذيبهم ما نزل على رسول الله ﷺ، فبيَّن تعالى أنهم قد استحقوا عقاب الله لهم؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب، والله تعالى لا يظلم الناس شيئًا، فيزيد في سيئاتهم، أو ينقص

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر النون مخففة من (ولكن) ورفع (الناس) بعدها على الابتداء، و(يظلمون) خبر، وقرأ الباقون بتشديد النون مفتوحة، ونصب (الناس) اسم (لكن) و(يظلمون) خبرها.

من حسناتهم، أو يعذبهم من غير ذنب اقترفوه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي ومخالفة أوامر الله تعالى ونواهيه، وهو الحكَم العدل العليم الخبير.

وفي حديث أبي ذرٍّ ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه قال: **«يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فَلَا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدِكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أُطعمْكم، يا عبادي، كلكم عارٍ إلا مَن كسوته، فاستكسوني أكسُكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفرْ لكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضَري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كلَّ إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أُدخل البحر، يا عبادي، إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمَن وجد خيرًا فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلُومَنَّ إلا نفسه»**[1].

الْمَشْهَدُ الرَّابِعُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي السُّورَةِ

٤٥ - ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ[2] كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

في هذه الآية وعيدُ الخزي والذل والعذاب يوم القيامة لِمَنْ كذَّب الله ورسوله، وبهذا يأتي المشهد الرابع من مشاهد القيامة في الآيات الإحدى عشرة التالية، والمشاهد الثلاثة السابقة كانت في الآية الرابعة والسابعة، ومن الآية الخامسة والعشرين إلى الآية الثلاثين وفي هذه الآية يقول تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي: اذكر - أيها الرسول وأيها المخاطب - يوم يحشر الله الناس، ومنهم الكفار المكذبون بك وبرسالتك، حين يخرجون من قبورهم

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٧).

(٢) قرأ حفص (يحشرهم) بالياء، والفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة قبلها. والباقون بنون العظمة.

إلى عَرَصَاتِ القيامة في يوم البعث والحساب، كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا وقتًا يسيرًا، وكأنه ما مرّ عليهم نعيم ولا بُؤس، وهم يتعارفون فيما بينهم كحالهم في الدنيا، وفي هذا اليوم يربح المتقون ويخسر المبطلون.

وأصل الحشر: إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم، والمراد هنا: جَمْعهم في ساحة العرض والحساب للثواب والعقاب، وحينئذٍ يشتد كربهم، وينسوْن ملذّاتهم وشهواتهم التي استمتعوا بها في الدنيا كأنها لحظات يسيرة مرَّت من حياتهم، وهذا معنى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ أي: كأنهم قبل ذلك لم يقيموا في دنياهم أو في البرزخ ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: قَدْر ساعة، **والساعة**: هي المقدار القليل من الزمن، الذي لا يتسع إلا لكي يعرف الناس بعضهم بعضًا، كأنهم في هذه السنوات الطويلة التي قضاها المكذبون في الدنيا يتمتعون بلهوها ولعبها ويستبعدون البعث والحساب.

وقد زالت ذاكرتهم في يوم القيامة وكأنهم لم يفعلوا شيئًا في الدنيا سوى التعارف فيها، وهذا معنى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ثم تنقطع تلك المعرفة لشدَّةِ الأهوال، وكل ما كان لغير الله من عَلاقات وصلات انقطع، وتنقضي هذه الساعة إما إلى جنة أو نار.

وكأن الكافر لمَّا لم ينتفع بعمره في الدنيا، كأن وجوده فيها كعدمه، أو لأن إقامته في الدنيا بجوار إقامته في الآخرة قليل جدًا.

وقد استشعروا هذا من طول مكثهم في عَرَصَات القيامة، ورؤيتهم لأهوالها كما جاء في بعض الآثار، أن الإنسان يقابل مَن يُحبه يوم القيامة، ولا يستطيع أن يكلِّمه؛ لهيبة الموقف.

ومواقف القيامة مختلفة، وأحوالها متعددة، وفي يوم القيامة يتعرف الآباء على الأبناء، والأزواج على الزوجات، والأقارب على أقاربهم، كما كانوا في الدنيا، ولكن كُلًّا منهم مشغول بنفسه، فلا يسأل بعضهم بعضًا شيئًا.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون].

وقال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس].

وفي ظل هذا المشهد تبدو خسارة الكافر فادحة لا تعدلها خسارة ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم باعوا الإيمان بالكفر، وباعوا آخرتهم الباقية بدنياهم الفانية، وآثروا الفاني على الباقي، لقد خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؛ لأنهم لم يستعدُّوا للقاء الله، وهذا هو أعظم خسران، ولقاء الله تعالى يكون في يوم الحساب والجزاء الكائن في يوم القيامة، وهو الذي أنكروه في الدنيا وجحدوا ثوابه وعقابه، ولم يكونوا موفقين لإصابة الرشد فيما فعلوه، وهذا الخسران يشمل الدنيا والآخرة، كما صرَّحت به الآيات الأخرى؛ كقوله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

ولا ينجو الإنسان من هذا الخسران إلا **بأربعة أمور** نصَّت عليها سورة العصر وهي:

(أ) الإيمان. (ب) العمل الصالح. (ج) التواصي بالحق. (د) والتواصي بالصبر.

واستشعار قِصر الحياة الدنيا في أذهان الناس يوم القيامة بعد الخروج من الأجداث دلَّت عليه آياتٌ كثيرة.

وأهل الموقف يختلفون في تقدير الزمن الذي لبثوه في الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم ونسبة أهوال الموقف لكل منهم، ولكن هذا الاختلاف يدور كله في دائرة ضيقة، كلها تنبئ عن قِصَر المدة التي لَبِثوها في الدنيا فأكثرها عشرة أيام، وأقلها ساعة.

فالمجرمون يقولون يوم القيامة لبعضهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]

وأمثلهم طريقة يقول: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤].

وفي موقف آخر: ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]

وفي آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات]

وفي موضع آخر: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون]. وهكذا.

حُلُولُ الْعَذَابِ بِالْكُفَّارِ إِنْ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا

٤٦- ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وفي هذه الآية تأكيدٌ لخسران المكذبين بآيات الله، ووقوع العذاب بهم في الدنيا والآخرة، وذلك أنه لَمَّا توعَّد الله الكفار بعذابه في الآيات السابقة، وأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية؛ لعدم إيمانهم وحرص النبي ﷺ على هدايتهم.

بيَّن ﷻ هنا أن حال عقوبة الكفار يتردد بين **حالتين**:

حالة التعجيل لهم بالعذاب في الدنيا، وحالة تأخير العذاب إلى الآخرة.

أما الحالة الأولى: فيشير إليها قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أيها الرسول وأيها الداعي إلى الله ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: نريك ببصرك عذابهم في حياتك الدنيا فنطلعك على بعض ما نعدهم به من العقاب، وننتقم منهم في الدنيا؛ لتقر عينك، فإن حدث هذا، فسوف تراه بعينك، وإلى هذا المعنى أشارت الآية السابقة: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

وفي عذاب الدنيا -هذا- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] أي: قبل العذاب الأخروي، وقال سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

والعذاب الأدنى يكون في الدنيا أو في القبر؛ جزاء تكذيبهم وأذاهم لرسول الله ﷺ، وقد أنجز الله وعده، فسلَّط عليهم القحط والمجاعة، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن دخانًا بين الأرض والسماء، وهزمهم الله في غزوة بدر والأحزاب والفتح، وكل ذلك حدث في حياة النبي ﷺ، ويحدث مثل ذلك للكفار في كل زمان ومكان، هذا هو الشق الأول من الآية المتضمن نزول العذاب بغير المسلمين في حياة النبي ﷺ.

والحالة الثانية: يشير إليها قوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: قبل وقوع العذاب بهم في الدنيا وحينئذ يكون عذابهم في الآخرة ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: إن المرجع إلى الله وحده، سواءٌ وقع بهم العذاب في حياتك أو بعد وفاتك، فهم لن يفلتوا من العقاب في كلا الحالين.

فإن توفيْناك - أيها الرسول - قبل نزول العذاب بهم في الدنيا، أو انقضت آجالهم قبل ذلك، فإن مرجعهم إلينا، وسوف نجازيهم بما يستحقون، والذي حدث لهم في الدنيا، في حياة النبي ﷺ -لا يرفع عنهم عذاب الله في الآخرة؛ وعلى هذا فعقاب الله تعالى لهم على ما فعلوه من سيئات، وما ارتكبوه من موبقات أمرٌ لازم في الدارين، فلا تحزن - أيها الرسول وأيها الداعي إلى الله - ولا تستعجل عذابهم، فإنه نازل بهم لا محالة.

ثم بيَّن تعالى أن مرجعهم إلى الله، وعرَّض بمجازاتهم وعقوبتهم فقال: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: أن الله تعالى شهيدٌ على جميع أفعالهم بعدك، لا يخفى عليه شيء منها، وسوف يعاقبهم عليها، فليس حتمًا على الله أن يريك عاقبتهم، وما ينزل بهم من عقاب في الدنيا، فقد ينقضي أجلك قبل نهايتهم، فالأمر كله لله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ۝٤٠﴾ [الرعد]

وقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

قَضَاءُ اللَّهِ بَيْنَ الأُمَمِ وَالرُّسُلِ

٤٧- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٤٧﴾

ثم إن هذا العذاب ليس أمرًا خاصًا بمحمدٍ ﷺ وأمته، وإنما هو قانون عام، يشمل كل أمة ورسولها، وقد جعل الله لكل أمة رسولًا، ومجيء الرسول للأمة هو منتهى الإمهال للأمة السابقة التي كذبت رسولها، واستحقت بذلك عقاب الله.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ﴾ خلت قبلكم -أيها الناس- من الأمم ذات الشرائع ﴿رَّسُولٞ﴾ أرسلْتُه إليهم لهدايتهم، كما أرسلْتُ إليكم محمدًا ﷺ.

يدعو هذا الرسول أمته إلى طاعة الله وتوحيده، فمنهم من يصدقه ومنهم يكذبه، فيقضي الله بينهم في الدار الآخرة بنجاة المؤمنين وعقوبة المكذبين، وقد يخلُو قوم من مجيء رسول إليهم فترة من الوقت؛ فيرفع الله عنهم التكليف في هذه المدة، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [القصص: ٤٦].

والمقصود من بعثة الرسول إلى الأمة هو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ في الدنيا وبلَّغهم ما أُرسل به إليهم، فصدَّقه قوم وكذَّبه آخرون ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: حَكَم الله بينهم بالعدل، فينجِّي الرسول ومَن آمن معه، ويُعذِّبُ المكذبين به عندما يأتي يوم القيامة؛ ليشهد على أمته أنه قد بلَّغهم رسالة ربه.

وهذا إخبار من الله تعالى يشبه قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨، ٩]

ومجيء الرسول إلى القوم يجعل بعضهم حتمًا من أهل العذاب أو من أهل المغفرة؛ لأن عذاب المكذبين وإثابة المطبعين، يتوقف على بعثة الرسل، وهذا هو القضاء بالعدل في الآخرة بين الأمة ورسولها، كلٌّ بحسب عمله، فمَن أطاعه دخل الجنة، ومَن عصاه دخل النار.

وعلى هذا: فقد يكون هذا القضاء أو الحُكْم بينهم في الدنيا، كما حدث للأمم التي استأصلها الله بالعذاب، لمَّا خالفوا رسولهم وكذبوه؛ كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب، وقد رفع الله عن هذه الأمة عذاب الاستئصال والهلاك المدمر، وقد يكون العذاب في الآخرة إذا جمع الله الأمم يوم القيامة للفصل والحساب.

والآية فيها إعلامٌ من الله تعالى بأن تكذيب الرسل هو الذي يجرُّ على الأمم حلول الوعيد بالعقاب.

وكل أمة تُعرض على الله تعالى يوم القيامة في حضرة رسولها؛ ليشهد عليها، ومعها كتاب أعمالها من خيرٍ أو شرٍّ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

يُدْعَوْن ومعهم الحفظة من الملائكة ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ [ق].

وكل أمة تأتي بعد أمة كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾ [الزمر].

وأمة محمدٍ ﷺ آخرُ الأمم في الخَلْقِ، وأول الأمم في البعث والقضاء يوم القيامة.

في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**نحن الآخرون من أهل الدنيا،**

والأولون يوم القيامة، المقضِيُّ لهم قبل الخلائق»[١].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا من جزاء أعمالهم، فلا يزاد في سيئاتهم، ولا يُنقص من حسناتهم، وإنما يُجازي الله كُلًّا على قَدْر عمله، ولا يعذبهم بغير ذنب، ولا يؤاخذهم بغير حُجة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص: ٥٩] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]

وقد حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْق؛ لشرف رسول الله ﷺ.

الْمُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ يَسْتَعْجِلُونَ نُزُولَ الْعَذَابِ وَالْقُرْآنُ يُجِيبُهُمْ

٤٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

والكفار في الدنيا كانوا حينما يحذِّرهم النبي ﷺ من عذاب يوم القيامة يتهكَّمون من هذا الذي يَعِدهم به محمدٌ ﷺ، ولا يصدقون قوله، ويريدون أن يرَوْا بأعينهم هذا العذاب ويحدد لهم وقته، فهم ينكرون وقوعه ويستبعدونه ويقولون للنبي ﷺ: متى هذا الذي تعدنا به إن كنت صادقًا فيما تقول؟ متى هذا الموعود به وهو يوم القيامة، أو متى نزول العذاب بهم في الدنيا؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: أنت ومَن تبعك مِن المؤمنين.

وقد جاء استعجالهم للعذاب في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]

وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت]

فما يعدهم به النبي ﷺ من مجيء يوم القيامة بما فيه العذاب الأخروي، وما يلحق بهم من العقاب والتنكيل في الدنيا آتٍ لا محالة.

والمؤمنون يصدِّقون ذلك ويخافون منه، والذين ينكرون قيام الساعة هم الذين يشكُّون فيه ويتعجلون وقوعه ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة برقم (٨٧٦) وانظر (٢٣٨) هو نهاية حديث حذيفة ﷺ في «صحيح مسلم» برقم (٨٥٥) واللفظ له عن أبي هريرة ﷺ.

﴿أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾ [الشورى]

فيوم القيامة آتٍ على وجه التأكيد، ووقوع العذاب بالمكذبين حاصل لا محالة، ولكن تحديد الوقت لا يعلمه إلا الله، والرسول ﷺ لا يبلِّغ للأمة إلا ما أُمر بتبليغه مما أطلعه الله عليه، وليس في استطاعته أن يَعْلَمَ شيئًا مِمَّا استأثر الله به، ومنه قيام الساعة وما فيها من النعيم والعذاب.

إِجَابَةُ مُسْتَعْجِلِي الْعَذَابِ

٤٩- ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ(1) أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾

ثم أرشد الله رسوله أن يجيب الكفار المكذبين للبعث والنشور **بجوابين**:

الْجَوَابُ الأَوَّلُ: علم قيام الساعة عند الله تعالى:

أي: إن عِلْم قيام الساعة، وإنزال العذاب بالكفار، عند الله تعالى لا يقدر عليه إلا هو سبحانه، وأنا لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًّا ولا أجلب لها نفعًا، إلا ما شاء الله أن يدفع عني من ضر أو يجلب لي من نفع، فأنا عبدُ الله ورسوله، لا أقدر على شيء من ذلك، ولا أقول إلا ما علَّمني ربي، وإذا كنتُ عاجزًا عن دفع الضر عن نفسي فكيف أدفعه عنكم؟

وتقديم الضر على النفع هنا وفي سورة المائدة: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾ [المائدة: ٧٦] أوقع؛ لأن المشركين استبطؤوا ما فيه مضرتهم.

وأما في سورة الأعراف: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فقد قدم النفع على الضر؛ لأن الكلام مسوق لبيان الحقيقة في حد ذاتها، وأن الرسول ﷺ لا

(١) قرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر في (إذا جاء أجلهم)، وقرأ الأصبهاني عن ورش وأبي جعفر بتسهيل الهمزة الثانية بين بين، وللأزرق تسهيل الهمزة الثانية وإبدالها حرف مدّ، ولقنبل تسهيل الهمزة الثانية وإبدالها حرف مد مع القصر، وله أيضًا إسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر، ولرويس إسقاط الأولى مع المد والقصر، وتسهيل الثانية بين بين، والباقون بتحقيق الهمزتين، وكل ذلك من لهجات العرب.

يملك شيئًا من التصرف في هذا الكون، وفي الآيتين جمع بين الأمرين معًا.

أما تحديد وقت قيام الساعة، أو تحديد نزول العذاب بالمشركين، فتعيينُه عند الله تعالى بحسب مشيئته، فلكل قوم وقت معين لانقضاء أجلهم ومدتهم ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

فإذا جاء وقت انقضاء آجالهم وفناء أعمارهم، فإنهم لا يُمهلون ساعة تتأخر فيها أعمارهم، ولا تتقدم آجالهم ساعة عن وقتها المعلوم.

والساعة: هي الزمن اليسير، فأنتم أمة من الأمم، ولكم أجل لحلول العذاب بكم؛ فترقبوا حلوله بكم، فإن سُنة الله لا تتبدل ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون: ١١].

والأجل قد ينتهي في الدنيا بعذاب الاستئصال لِمَن كذَّب رسل الله، وقد يكون انتهاء الأجل بالهزيمة والضياع والتخلف عن ركب الحياة.

الْجَوَابُ الثَّانِي: اسْتِعْجَالُ قِيَامِ السَّاعَةِ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَةِ الْمُكَذِّبِينَ

٥٠- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ[1] إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أيُّ فائدة تحصل لكم إذا عاجلكم الله بالعقوبة كما تطلبون؟ فقد يحدث الإيمان منكم إنْ أمهلكم الله بعض الوقْت؛ فيكون في هذا صلاحكم وسعادتكم.

أخبروني - أيها المكذبون - إنْ داهمكم عذاب الله في ظلمة الليل، فأخذكم على غِرة وأنتم نائمون؟ أو أتاكم وأنتم في سهو وغفلة، مشغولون بأعمالكم في وَضَحِ النهار؟ ماذا تكون النتيجة؟

ثم وبَّخهم الله تعالى؛ فتعجَّب منهم، وأنكر عليهم استعجال نزول العذاب بهم في قوله تعالى: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وفي ذلك وضع الظاهر وهو ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ موضع المضمر عوضًا عن ماذا يستعجلون منه؟ للتنبيه على خطئهم في استعجال العذاب؛ وليسجل عليهم الإجرام.

---

(١) قرأ الأصبهاني وقالون وأبو جعفر بتسهيل همزة (أرأيتم) الثانية بين بين، وللأزرق تسهيلها بين بين وإبدالها حرف مد مع الإشباع، وقرأ الكسائي بحذف الهمزة الثانية، والباقون بتحقيقها، إلا حمزة عند الوقف فله التسهيل، وكلها لهجات عربية.

والمعنى: أيُّ مصلحة لكم في استعجال الهلاك؟ وشأن أمثالكم أن يَطلُبوا تأخير العذاب لا تقديمه، وهذا يدل على جهلكم وحُمْقكم.

فقل - أيها النبي-: يا أيها الكفرة المستعجلون عذاب الله، أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلًا فطرق أبوابكم وقت المبيت، أو جاءكم هذا العذاب نهارًا وأنتم في شؤون معاشكم.

وجواب الشرط محذوف، والتقدير: إن أتاكم عذابه في أحد هذين الوقتين فأهلككم وأتى عليكم، فلماذا تستعجلون شيئًا هذه نتائجه؟

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟ [الأنعام]. قال تعالى:

٥١- ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ[1] وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

في هذه الآية بيانُ أن الكفار -وهم في الدنيا- يطلبون نزول العذاب بهم، فإذا عاينوه يوم القيامة آمنوا، والقرآن الكريم يصور العذاب كأنه قد وقع بالكفار فعلًا، وأنهم آمنوا عندما رأوا العذاب بأعينهم، وكأن الله تعالى يُبكِّتهم في مشهد حاضر يرَوْنه الآن.

فيقول: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي: أبَعْدَ ما وقع عذاب الله بكم -أيها المشركون- صدَّقتم وآمنتم وقت لا ينفعكم فيه التصديق؟

قال تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمنون في هذه الحالة، بأن العذاب حقيقة، بعد وقوعه بكم، وقد كنتم قبل ذلك تستهزئون به، وتستبعدون وقوعه، وإذا وقع العذاب بهم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، وهذا زيادة في آلامهم وحسرتهم وتوبيخهم وتأنيبهم وبيان خطئهم.

وقد أخبر ﷻ أن العذاب إذا نزل بالمجرمين طلبوا العودة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاتهم وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وبيَّن سبحانه أن هذا الإيمان لا ينفعهم، فقد فات وقته ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ

---

(١) لجميع القراء في (الآن) وجهان: المد ست حركات، أو تسهيل همزة (آن) بين بين، وهو لا يأتي على قصر المد المنفصل لحفص.

وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وهذا الإيمان كإيمان فرعون حينما رأى الغرق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس]. ويوم القيامة يتجرعون مرارة العذاب:

٥٢- ﴿ثُمَّ قِيلَ(١) لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ(٢) تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ولما بين سبحانه عذاب الدنيا الذي قد يباغت الكفار في ساعة من ليل أو نهار، بيَّن عذاب الخلد المعد لهم في الآخرة، وهو أشد وأعظم ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك والكفر ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: تجرعوا مَرارة عذاب الله الدائم بكم أبدًا، ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؟ هل تعاقبون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم من معاصي الله؟

فهذا هو الجزاء المناسب لمن كفر بالله وكذب بوحيه الذي أنزله على رسله، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور].

آيَاتُ الْقَسَمِ عَلَى قِيَامِ السَّاعَةِ

٥٣- ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ(٣) أَحَقٌّ هُوَ(٤) قُلْ إِى وَرَبِّىٓ(٥) إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

والمشركون مرة يستبطئون قيام الساعة ونزول العذاب بهم على وجه الاستخفاف

---

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف من (قيل) صوت الضم، والباقون بالكسرة الخالصة، وهما لغتان.

(٢) أدغم اللام في التاء من (هل تجزون) هشام وحمزة والكسائي، وأظهرها الباقون.

(٣) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (ويستنبئونك) وضم الباء قبلها، ويقف عليها حمزة كأبي جعفر وبالتسهيل بين بين، وبإبدالها ياء خالصة.

(٤) وقف يعقوب على (هو) بهاء السكت.

(٥) فتح الياء من (وربي إنه) وصلًا نافع وأبو عمرو وأبو جعفر، وسكنها الباقون، والباقون يسكنونها وقفًا.

والإنكار، ومرة يُقْبلون على النبي ﷺ في صورة المستفْهِم الذي يطلب صحة الخبر كما في هذه الآية؛ فيسألونه ﷺ: أهذا العذاب الدائم في الدار الآخرة حق، ووقوعه ثابت؟

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي: يسألون ويستوضحون عمَّا وعدتهم به من العذاب على وجه التعنت والاستبعاد لا على وجه التبين والاسترشاد ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أصحيح حَشْرُ العباد وبعثهم بعد الموت ليوم المعاد وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؟

أهو واقع بهم على سبيل الحقيقة؟ أم أنك تهدِّدهم وترهِّبهم وتخوِّفهم؟

﴿قُلْ﴾ لهم - يا رسولنا - مقسمًا على صحة وقوعه: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ نَعَم والذي بعثني بالحق إنه لواقع بكم، فلن تُفلتوا ولن تفروا من عذابه، فأنتم في قبضته تعالى وتحت تصرفه، وسوف يبعثكم من قبوركم؛ فيحاسبكم ويجازيكم بأعمالكم.

وقد أمر الله نبيه أن يؤكد قَسَمه على أن البعث حق، بحرف الجواب وهو ﴿إِي﴾ والجملة الاسمية، وإنَّ، ولام الابتداء، والقسم، فهذه خمس مؤكدات لقيام الساعة.

وقد أجابهم القرآن على طريقة الأسلوب الحكيم، بحمل كلامهم على غير المراد؛ تنبيهًا على أنه كان الأَوْلَى بهم أن يسألوا عن طريق الهدى والاسترشاد.

ثم أجابهم الله تعالى على ما أضمروه في أنفسهم من التكذيب بقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لستم بمفلتين من عذاب الله، وكما بدأ خلقكم ولم تكونوا شيئًا، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم، فأنتم تحت قهره وسلطانه، وفي هذا تعجيز لهم من الخلاص.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام]

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وهذه الآية ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ ليس لها نظير في القرآن إلا آيتين اثنتين، وفي الآيات الثلاث يأمر الله رسوله أن يقسم به جل وعلا على تكذيب مَن أنكر المعاد.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

والثالثة قوله جل شأنه: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن].

وفي الآيات الثلاث يُقْسِمُ الله تبارك وتعالى على أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور.

أَمْوَالُ الدُّنْيَا لَا تَدْفَعُ عَذَابَ اللَّهِ عَنْ الْكَافِرِ

٥٤- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

أي: أن عذاب الخلْد المقْسم على وقوعه يوم القيامة، عذاب لا تتحمله أية نَفْس، على تفاوت الأنفس في احتمال الآلام.

ولذلك: فإن المكذبين بالبعث، حين يكونون في ساحة العرض والحساب، ويرون مقدمات العذاب، فإن الواحد منهم يودُّ لو كان يمتلك جميع ما في الأرض من ذهب ومال ومتاع -على سبيل الفرض- لدفْعِه مقابل أن يَفْدي نفسه من عذاب الله لفعل.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ كافرة ﴿ظَلَمَتْ﴾ نفسها بالشرك والكفر في الدنيا، لو أن لها كل ما في الدنيا من خزائن وأموال، وأمكنها أن تجعل ذلك فداء لها مِنْ العذاب الأخروي؛ لبذلتْه للنجاة من عذاب الله إن قُبل منها ذلك، ولكنه لا يُقبل منهم ولو كان مضاعفًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ﴾ [الرعد: ١٨].

ويود الكافر كذلك لو فدى نفسه بأهله وولده وعشيرته ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج].

وتنتقل الآية من التقدير والفرض إلى الوقوع الفعلي، كأن العذاب أمر مضى وانقضى.

فنصف الآية الأول على سبيل الفرض، والنصف الآخر كأنه واقع مشاهَد، فيبيِّن

سبحانه في النصف الثاني من الآية أن المكذبين بالبعث والجزاء سيُسِرُّون الندامة في أنفسهم، ويجهشون لرؤية العذاب، ثم يتجلَّدون، فلا يظهر منهم صراخ ولا عويل، ولا قول ولا فعل من شدة الهول، وقد أخفى الذين ظلموا حسرتهم في قلوبهم حين أبصروا عذاب الله تعالى واقعًا بهم جميعًا.

وحكَم الله بين جميع خَلقه بالعدل، ولا يظلم سبحانه أحدًا في الحُكم إن كان له أو عليه، فلا يشدد في عذاب الظالم، ولا يتهاون في حق المظلوم، والله تعالى لا يعاقب أحدًا بغير ذنب، ولا تزروا وازرة وزر أخرى.

التَّعْقِيبُ عَلَى آيَاتِ الْحَشْرِ

٥٥- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

وفي ختام آيات اليوم الآخر، يأتي التعقيب المؤكِّد للحشر والحساب، ردًّا على المكذبين به، فقد كانوا يظنون أن ما وعدهم به محمد ﷺ هو من باب التهديد والترهيب، فأكد سبحانه أن البعث حق، وأن الحساب والجزاء حق، مفتتحًا ذلك بأن الله تعالى هو المتوحد والمتفرد بملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو سبحانه المتصرف في الناس، وفي أحوالهم في الدنيا والآخرة، تصرفًا لا يشاركه فيه غيره.

وأحوال الناس: منها ما هو في الدنيا، ومنها ما هو في علم الغيب، ومن ذلك الإحياء والإماتة، والبعث والحساب، والجزاء والجنة والنار، فكل ما في السموات والأرض مِلك لله وحده، لا شيء من ذلك لأحد سواه، يتصرف فيهما وَفْق إرادته ومشيئته، و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وما سبق كان تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا هو المقصود من الآية بعد الافتتاح.

والمعنى: ألا إن لقاء الله تعالى وعذابه للمشركين كائن لا محالة، كما أن إثابة الطائعين حق لا شك فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم لجهلهم وكفرهم يشكون فيه؛ فلا يعملون للقاء الله تعالى. ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] قال تعالى:

٥٦- ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[1] ﴿٥٦﴾﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه عظيم ملكوته، بيَّن عظيم قدرته فقال: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ لا يتعذَّر عليه إحياء الناس بعد موتهم، كما لا يعجزه إماتتهم إذا أراد ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد موتكم للحساب والجزاء؛ فيجازي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى، فهو القادر على ذلك، العليم بما تمزق واحترق وتقطع من الأجساد في سائر الأقطار والبحار والقِفار، فيعيدها إليه ويُرجعها كما كانت في الدنيا.

الْمَوْضِعُ الرَّابِعُ مِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنِ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

مَقَاصِدُ الْقُرْآنِ:

٥٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ[2] جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ[3] وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

هذه الآية هي الموضع الرابع في هذه السورة عن الوحي والرسالة، وقد جاء وصف القرآن الكريم فيها بأربعة أوصاف، تُعَرِّف بشأنه وهديه، وتبيِّن أنه من عند الله، وأن محمدًا ﷺ صادقٌ فيما جاءهم به من عاقبة تكذيب الأمم لرسل الله، وأنه يحمل مِشْعَلَ الهداية للناس أجمعين.

وهذه الآية تحمل **مقاصد القرآن الأربعة وأغراضه**:

المقصد الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: أن القرآن الكريم فيه الموعظة التي تذكِّركم الآخرة، وتخوِّفكم عِقاب الله ووعده ووعيده، وتحذركم مما يوجب سخط الله تعالى ويفضي إلى عقابه، وفيها التزامُ الحق واجتناب الباطل، بما اشتمل عليه من العظات والآيات؛ لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم، فهو كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من مواعظ حسنة، تَرق لها القلوب، وتخشع لها النفوس، وهذه المواعظ ليست من مخلوق عاجز، لا يحيط بما يُصلح أحوال البشر، إنَّما هي من ربكم خالقكم ومربيكم.

---

(١) قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم من (ترجعون) مبنيًّا للفاعل، والباقون بضم التاء وفتح الجيم مبنيًّا للمفعول.

(٢) أدغم الدال في الجيم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف، وأظهرها الباقون.

(٣) انفرد الشامي بعدّ (لما في الصدور) آية، وأسقطها غيره من العدد.

والوعظ: هو التذكير بالخير وأعمال البِر، والتذكير بعواقب الأمور، والتحذير مِمَّا يضر، والزجر عن المعاصي.

والواعظ كالطبيب، يعظ بما يرقِّق القلوب، ويُصلح النفوس عن طريق الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ فينهاهم عما فيه ضررهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

والذي ينتفع بذلك هم المؤمنون المستعدون بفطرتهم لقبول ما جاء به نبي الهدى، وإن كان الخطاب موجهًا لجميع الناس، أما المشركون فإنهم يَحرمون أنفسهم من الانتفاع بموعظة القرآن وشفائه.

والمقصد الثاني: جاء في قوله تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: أن هذا القرآن شفاء وعلاج لما في الصدور من الشُّبه والشكوك والرجس والدنس والشهوات والشبهات.

وفي القرآن شفاءُ الأبدان من الأمراض والأسقام، وشفاء الأرواح والقلوب من الشك والخُرافة، والزيغ والباطل، والقلق والشرك، والشقاق والنفاق، والجهل وسائر الأمراض.

ومن أمراض القلوب: الحسد والبغضاء والعداوة والنفاق والرياء ونحو ذلك.

وأمراض القلب: هي الأخلاق الذميمة، والعقائد الفاسدة، والجهل المُهلِك، وهي أشد خطرًا وأضرُّ على القلب من أمراض البدن.

والقرآن يزيل هذه الأمراض القلبية بالوعظ والتذكير، والزجر والتخويف، والترغيب والترهيب، والتحذير، وخُص الصدر بالذِّكر؛ لأنه موضع القلب وغلافه، وهو أعز موضع في بدن الإنسان.

والقرآن يزيل هذه الأمراض بالوعد والوعيد، والبشرى والإنذار، والأدلة والبراهين، فيقدم العبد مراد الله تعالى على مراد النفس، ويزيل الشكوك و الشبه القادحة في النفس حتى يصل القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صح القلب من مرضه تبعتْه الجوارح، فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

وقد جاء ذكر الوعظ في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وقوله تعالى في وصف التوراة: ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [المائدة: ١٤٥].

ورد في الأثر عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلًا اشتكى صدره إلى النبي ﷺ فقال: «**اقرأ القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾**»[١].

ولعل النبي ﷺ عَلِمَ أن به مرضًا قلبيًّا؛ فنصحه بذلك.

وعن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رجلًا شكى للنبي ﷺ وجع حَلْقه، فقال: «**عليك بالقرآن والعسل، فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء**»[٢].

وفي قراءة القرآن راحة وسَكِينة وطمأنينة.

والأمراض الجسدية تنشأ من الأمراض النفسية، وعلاج النفْس يُذهب أمراض الحسِّ من الشكوك التي تعتري المرتابين بالعقيدة الصحيحة.

وكما أن الطبيب ينصح المريض، ويذْكُر له سبب المرض، ويصف له العلاج، وكيفية استعماله، وكيف يداوم على استمرار شفائه.

فكذلك الداعي إلى الله، يعظ مريض الهوى والشيطان، ويصف له طريق النجاة من المعاصي والفكاك منها، وكيف يتخلص من أمراضه، وكيف يداوم على إيمانه، ولا يعود إلى ما كان فيه؛ فيزجره بالقرآن، ويبطل له العقائد الضالة، ويبيّن له ما هو فيه من بدع أومخالفات، ويعلِّمه أمور دِينه وآدابه، والقواعد التي تحفظ عليه إيمانه،وهي تتمثل في أداء الفرائض، وترك المحرمات، وتوقِّي الشبهات، والإكثار من النوافل، وتكرار النُّصح والإرشاد، كما تفعل أجهزة الإعلام حين تريد زرع معلومة ما في أذهان رعايا الأمة.

والمقصد الثالث: جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي: أن القرآن الكريم فيه الهداية والإرشاد، هداية الناس من الضلالة، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وفيه بيان الخير من الشر والحق من الباطل.

فالهدى هو العِلْمُ بالحق والعمل به، فإذا علم ولم يعمل، فذلك هو الضلال المبين.

ولذلك فإن القرآن الكريم لم ينزل كهيئة التوراة وغيرها من الكتب المنزلة أسفارًا، كل

(١) أخرجه ابن مردويه وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٦٥).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٣٤٤).

سِفْر يتناول جانبًا؛ كسفر التكوين، وسفر التثنية، وسفر الخروج، من أسفار التوراة، وإنما القرآن الكريم يتخول الناس بالموعظة لهدايتهم فيكرر، أو يَذْكر بعضًا من القصة في سورة، ويذْكُر طرفًا آخر منها في سورة أخرى، ويكرر اللفظ والحكم، ويأتي بالموضوع نفسه في أسلوب آخر مفصلًا أو مجملًا؛ ليتوخى هِداية الناس بمختلف الطرق التي توصِّلهم إلى الله ﷻ.

وهذه الهداية ينتفع بها المؤمنون، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] فهم لا ينتفعون بما يستمعون، كما لا ينتفعون بما يبصرون، فقلوبهم مقفلة، مطبوع عليها بكثرة الذنوب، لا ينتفعون بشيء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فالمؤمنون هم الذين يؤثر فيهم القرآن؛ فيشفيهم من الأمراض والعلل، وسائر أمراض القلوب، وأمراض الأبدان ، فالقرآن الكريم هدى للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ [الأعلى].

وقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

أي: ولا يزيد القرآن الظالمين إلا هلاكًا وخسارةً، فهم لا ينتفعون بشيء منه.

والهداية مترتبة على الشفاء، والشفاء مترتب على الموعظة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق].

وهذه الأوصاف الثلاثة ثابتةٌ للقرآن في حد ذاته، فهو موصوف بأنه موعظة للناس، وأنه شفاء لما في الصدور، وأنه كتاب هداية للبشر، يستوي في ذلك مَنْ عَمِل بهذه الأوصاف ومَنْ أعرض عنها.

المقصد الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أن القرآن الكريم رحمة للمؤمنين، يرحمهم الله تعالى بما جاء فيه من التشريع والتوجيهات الربانية التي تضمنت سعادة الناس في الدنيا والآخرة، أما كون القرآن (رحمة)، فهذه الصفة خاصة بِمَنْ يعمل بها؛ ولهذا جاءت مقيدة بمن ينتفع بها وهم المؤمنون، وهي رحمة في الدنيا والآخرة، وقد وصف الله تعالى سعادة المؤمن في دنياه وأخراه في قوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً

﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

وهذه الرحمة مترتبة على الهداية، وهي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى بالقرآن، فالهدى أجلّ الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد، فإذا حصلت الهداية وحلّت الرحمة حصلت السعادة في الدنيا والآخرة.

فالقرآن موعظة في ذاته أما كَوْنه هدى ورحمة، فإن هذا يكون بالنسبة لمن حصل له حقيقتهما، فيتجاوب ويتأثر، أما مَنْ لم تحصل له آثارهما فإنه يجني ثمار إصراره وعناده؛ ولذا فإن الآية قيدت هذين الوصفين بالمؤمنين.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء].

فَضْلُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

٥٨- ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا[١] هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ[٢] ﴿٥٨﴾﴾

فضل الله هو القرآن، تفضل به على عباده، وهو أعظم نعمة ومنة، ورحمته هي الإسلام والإيمان وعبادة الله تعالى التي توجب معرفته ومحبته.

هذه الرحمة، وهذا الهدَى، هو فضل الله سبحانه على عباده، ولا ينبغي لهم أن يفرحوا بشيء فرحهم بالإسلام، وفرحهم بالقرآن، وفرحهم بما شرَّعه الله تعالى لهم من الحلال والحرام، لا يفرحون بِحُطام الدنيا ومتاعها، ولا بالمنصب والجاه، ولا بالمال والرناسة، كفَرَحِهم بأن أعطاهم الله القرآن، وهداهم إلى الإسلام، ووفقهم لطريق الخير والرشاد، هذا هو الشيء الجدير بالفرح والسرور.

إن حضارة الأمم والشعوب لا تقاس بما معها من مادة ولا أموال، وإنما تقاس

---

(١) قرأ رويس بتاء الخطاب في (فلتفرحوا) لمناسبة (قد جاءتكم)، وقرأ الباقون بياء الغيب؛ لمناسبة (وهدى ورحمة للمؤمنين).

(٢) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ورويس بتاء الخطاب في (تجمعون)، والباقون بياء الغيب.

بأخلاقها ودينها وتقواها، وقربها من الله ﷻ، وهذا خيرٌ للناس مما يجمعون من حطام الدنيا ومتاعها.

في عهد عمر ﷺ جاء خَراج العراق، فسمع عُمر خادمه يصف هذه الأموال التي جاءت من العراق بأنها فضل الله ورحمته، فغضب عُمر ﷺ، وقال له: كَذَبْتَ، ليس هذا ما تقصده الآية -فهي لا تعني المتاع الزائل، ولا تعني ما في الدنيا من شهوات- وقرأ عليه الآية: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[1].

والفرح: لَذَّةٌ وسرورٌ في القلب، تحصل بإدراك الشيء المحبوب والمشتهى، والفرح إذا جاء مقيدًا بالخير فهو فرح محمود أَمَر الله به كما في هذه الآية، وإذا جاء مقيدًا بالشر، أو جاء غير مقيد بشيء فهو فرح مذموم، كما في قوله تعالى في وصف الكافر: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] وكما في نهي أهل العلم لقارُون عن الفرح: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

وكما قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

أخرج الحاكم بسند صحيح عن أُبيِّ بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أُنزلت عليَّ سورة وأُمرتُ أن أُقرِئَكَها**» قال: قلت: أَسُمِّيتُ لك؟ قال: «**نعم**» قيل لأبيٍّ: أفرِحْتَ بذلك يا أبا المنذر؟ قال: وما يمنعُني، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[2].

وفي لفظ آخر أن رسول الله ﷺ قال لأبيٍّ: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن**» فقلت: أسمَّاني لك؟ قال: «**نعم**» قيل لأبيٍّ: أفرِحْت بذلك؟ قال: وما يمنعني والله يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[3].

---

(١) «الدر المنثور» (٤/ ٣٦٨) عن الطبراني وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٦٠).

(٢) «المستدرك» (٣/ ٣٠٤) قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وأخرجه أبو داود عن سفيان في «السنن» برقم (٣٩٨٠) وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٣٦٧). حسن صحيح.

(٣) أبو عبيد في الفضائل ص٢١٥ وسعيد بن منصور في «التفسير» (١٠٦٢) وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٦٤) و«المسند» (٢١١٣٦، ٢١١٣٧) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥٩) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥١) والبيهقي في «الشعب» (٢٣٥٦) قال محققو «المسند»: حديث صحيح وإسناده حسن.

قال ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة: فضل الله هو الإسلام، ورحمته القرآن[١].

وعن أبي سعيد الخدري وأنس ﷺ: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله[٢]؛ أي: أن هداكم إلى اتِّباعه والعمل بما فيه.

وهذا الفضل منه ما هو دنيوي، ويكون بكمال النَّفْس وصحة الاعتقاد واطمئنان القلب، ومنه ما هو أخروي، ويكون بالسعادة الأبدية فيها، وبذلك فليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته.

والفرح فيه تنشيط للنفس وتقوية للرغبة في الازدياد من العلم والإيمان، ولذا أمر الله به في الآية.

وكان الرعيل الأول ينظرون إلى المال والثراء على أنه خادم للحياة، وأن القيم المادية لا تمثل قيمة الإنسان، وإنما تتمثل قيمه وحضارته ومقياسه في دينه وعقيدته وأخلاقه.

والمراد بقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي خير من متاع الدنيا وملذاتها، خير من المال والمكاسب والمتاع والنعيم الزائل والحطام الفاني، فجامع المال يفرح بجمعه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾ [الهمزة]

وقال تعالى في وصف النار: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ [المعارج].
أي: جمع المال وكنَّزه ووعاه.

وقَصْرُ المعنى على جمع المال مناسبٌ لحال المسلمين والمشركين وقت نزول الآية، ويناسب كل زمان ومكان يغلب فيه حب المال؛ ولذا جاء التعبير بلفظ المضارع ﴿يَجْمَعُونَ﴾ المقتضي للتجدد والتكرار.

وقد وصف الله تعالى المشركين بأنهم أصحاب ثَرْوَة في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل].
وقال في وصف الكافر: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤﴾ [القلم]

وقال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١٩٦ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ

---

(١) الطبري (١٢/ ١٩٦) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥٩) والبيهقي (٢٥٩٧).

(٢) سعيد بن منصور في «التفسير» (١٠٦٤) وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٠١) والطبري (١٢/ ١٩٤) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥٨) والبيهقي في «الشعب» (٢٥٩٨).

ﵟٱلۡمِهَادُ ١٩٧ﵞ [آل عمران].

وكان المشركون والمكذبون يحتقرون ضعفاء المسلمين وفقراءهم في كل أمة، كما قال قوم نوح له: ﵟوَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَاﵞ [هود: ٢٧] وقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﵟوَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖﵞ [الأنعام: ٥٢].

التَّشْرِيعُ حَقٌّ لِلَّهِ وَحْدَهُ

٥٩- ﵟقُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ[1] ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ﵞ

هذه الآية لبيان أن التشريع في الحلال والحرام حقٌّ لله وحده، ولا يجوز لفرد ولا لأمة أن تعتدي على حق الله تعالى، كما أنكر سبحانه على مَنْ يفعل ذلك في قوله: ﵟقُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚﵞ [الأعراف: ٣٢]

وتوعد جل شأنه مَن يفعل ذلك في الآية التالية بالعقاب والنكال، فقال:

ﵟوَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَﵞ أي: أن عقاب الله لهم شديد.

ثم إن المشركين كفروا بنعمة الله عليهم؛ فجعلوا الأموال التي جمعوها من رزق الله لهم، بعضها حلالًا وبعضها حرامًا بزعمهم، فحرَّموا على أنفسهم الطيبات التي أحلها الله لهم، وكان أهل الشرك يحلون من الحرث والأنعام ما شاؤوا، ويحرمون ما شاؤوا، وهم بهذا قد افتروا على الله الكذب، ولزمهم ما ألصقوه بالنبي ﷺ من أنه افترى هذا القرآن واختلقه من تلقاء نفسه، وارتكبوا مثل الحالة التي أنكروها، وهذا الاستدلال يسمى في علم الجدل بالقلب[2].

والله ﷻ يقرر ذلك في قوله: ﵟقُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗاﵞ وقد عبَّر الله عن إعطاء الرزق بالإنزال؛ لأن معظم أموالهم كانت من الثمار والحبوب والأعناب، وكلها من آثار المطر النازل من السحاب بتكوين الله تعالى، كما أن حياة الإنسان

(١) لجميع القراء وجهان في (آلله أذن لكم)؛ الأول: المد المشبع ست حركات، والوجه الآخر: التسهيل بين بين، وهذا الأخير لا يأتي على قصر المد المنفصل لحفص.

(٢) «التحرير والتنوير» (١١/ ٢٠٧).

والحيوان تتوقف على الطعام والعشب، وهما من آثار المطر، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ [عبس].

وقد أسند الله تعالى رزق العبد إلى السماء في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات]

كما عبَّر سبحانه بالإنزال عن الإعطاء والرزق والمنح في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

ولما حرَّم المشركون على أنفسهم ما أحله الله من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، أنكر الله عليهم ذلك في هذه الآية وغيرها.

أتى رجل إلى النبي ﷺ وكان رثَّ الهيئة، فسأله النبي ﷺ: **«هل لك من مال؟»** قال: نعم، فقال له: **«مِن أي المال؟»** قال: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال: **«إذا آتاك الله مالًا فلْيُرَ أثره عليك»** زاد في رواية: فغدَوْتُ إليه في حُلَّة حمراء[1].

ثم قرره في شق أذن البحيرة وغيرها وأنكرها عليه؛ لأن في ذلك تحريم لما أحل الله.

وفي هذا بيان أن الوحي المنزل من السماء هو الذي يشرِّع للناس الحلال والحرام، ويبيّن لهم الخير من الشر، والهدى من الضلال، ولو لم يكن هذا التشريع الذي جاء في القرآن لتخبَّطَ الناس وضلوا، فإذا شرعوا لأنفسهم شَقُوا بتشريعهم، فقد يُحرِّمون الحلال، ويحللون الحرام، على ضوء ما يحدث في المجتمعات التي لا تَحْكُم بشرع الله سبحانه، والتي لم تتخذ ما شرعه الله لهم دستورًا وقانونًا يحتكمون إليه، كما حدث في الجاهلية الأولى حيث كان الناس يحرمون على أنفسهم ما أحل الله؛ فيحرمون بعض ما يخرج من الأرض من زرع ونبات على أنفسهم ويجعلونه للآلهة.

---

(١) ينظر نص الحديث في مسند أحمد (٣/ ٤٧٣) من حديث أبي الأحوص عن أبيه برقم (١٧٢٢٩، ١٧٢٣١) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي الأحوص فمن رجال مسلم، وأخرجه الترمذي (٢٠٠٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه البيهقي في الشعب (٦١٩٧) وابن حبان (٣٤١٠) والطبراني في الكبير ١٩ (٦٠٦).

ويجعلون بعض الحيوانات التي يحل لهم أكلها محرمة عليهم ويَخصُّونها بالآلهة، ويمنعون ركوبها واستعمالها وذبحها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] أي: محجورة للآلهة على ضوء ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

كما أنهم أحلوا الميتة، وحرموا على أنفسهم أن يطوفوا بالثياب التي يلبسونها، وقالوا: لأننا قد اقترفنا فيها المعصية، فلا يحل لنا أن نلبسها في الطواف، وهكذا حرموا على أنفسهم ما أحل الله.

ولذلك يقول رَبُّ العِزة جل في علاه، مبينًا فضله ورحمته بتحليل ما حرموه على أنفسهم، ورفع الأغلال التي قيدوا بها أنفسهم: ﴿قُلْ﴾ - يا أيها الرسول - لهؤلاء الجاحدين للوحي، منكرًا عليهم ما ابتدعوه في دين الله ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني عما ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ من حيوان ونبات وثياب وحرث، وهذا استفهام على سبيل التوبيخ والزجر.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ﴾ أي: بعضه ﴿حَرَامًا﴾ على أنفسكم ﴿وَحَلَٰلًا﴾ أي: وجعلتم بعضه حلالًا بأهوائكم وبغير هدى من وحي ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذا التحليل والتحريم؟ بل أنتم كاذبون على الله في ادعائكم.

وكفى بهذه الآية زاجرًا بليغًا عن التجاوز في أحكام الله تعالى ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ الكذب والبهتان في الحلال والحرام. قال تعالى:

٦٠- ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ(١) وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أي أيحسب الذين يحللون لأنفسهم ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويفترون على الله الكذب، أن الله لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على سوء عملهم؟ فما ظنهم يوم لقاء ربهم؟ ماذا يفعل بهم ربهم؟ هل يتركهم ويصفح عنهم أم يجازيهم ويعاقبهم؟ قال تعالى ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]

(١) أمال ألف (الناس) دوري أبي عمرو وحده، وفتحها باقي القراء.

وفي هذا توبيخ وتقريع لهم؛ لأنهم لا يشكرون تفضله عليهم، وقد تفضل عليهم بالرزق والموعظة والإرشاد، ولم يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر، وقابله المؤمنون بالفرح والسرور والشكر، فانتفَعوا به في الدنيا والآخرة.

وقد بيّن سبحانه أن كثيرا من الناس لا يقوم بواجب شكر النعم، فهم إما لا يقوموا بشكرها أصلا، وإما أن يستعينوا بها على معاصي الله، وإما أن يحرموا منها ما أحل الله، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بنعمة الله تعالى ويؤدي شكره فيها.

ويؤخذ من هذه الآية أن الأصل في الأطعمة هو الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله تعالى أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله الله لعباده وأحله لهم.

إحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ

٦١- ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ[١] وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ[٢] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ[٣] إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

هذه الآية تبيِّن إحاطة علم الله تعالى بكل شيء، فهو سبحانه يعلم أحوال الخَلْقِ، ويعلم حركاتهم وسكناتهم، ويعلم حركات الدواب والأشجار والأسماك والطيور والأفلاك والنبات وغير ذلك، والله ﷻ يقول لرسوله: لا تحزن مِنْ كَذِب وضَلال الفسقة المجرمين، الذين يكذبونك ولا يؤمنون بما أنزل عليك، فأنت في حمايتنا ورعايتنا، ونحن نراك في تقلبك، وفي جميع حركاتك وسكناتك، ونرى أفراد أمتك وأصحابك على وجه الخصوص، ونراك في أحوالك الخاصة والعامة، ونراك وأنتَ تدعو إلى الله على بصيرة، وأنتَ تتلو القرآن على أمتك، نراك في جميع أحوالك.

---

(١) قرأ الأصبهاني عن ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (شأن) ألفًا، وكذا حمزة عند الوقف، وحققها ساكنة الآخرون.

(٢) قرأ الكسائي بكسر الزاي من (يعزب)، والباقون بضمها.

(٣) قرأ حمزة ويعقوب وخلف العاشر برفع الراء من (ولا أصغر ولا أكبر) عطفًا على محل (مثقال) و(من) مزيدة، وقرأ الباقون بفتحهما، عطفًا على لفظ (مثقال) أو (ذرة) فهما مجروران بالفتحة لمنعهما من الصرف.

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أيها الرسول ويا أيها المخاطبون ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي: أمرٍ من الأمور الدينية والدنيوية في الأحوال العامة؛ كأعمال الخير والبر وتدبير شؤون المسلمين، أو في شأن من شؤون الدنيا وأحوالك الخاصة، أو في شأن من شؤون الدعوة وغيرها، ويُسمي القرآن الكريم ما يتعلق بالرسول شأنًا.

والشأن: هو الأمر الهام الخطير، والقرآن أعظم شؤون النبي ﷺ وفيه دعوة الناس وهدايتهم.

وخُص القرآن بالذكر؛ لشرفه وعلو مرتبته، فقال تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾.

أي: وما تقرأ من آيات الله تعالى المسطورة.

ويسمي القرآن ما يتعلق بالأمة عملًا، وهو أدنى من الشأن فيقول: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وهذا خطاب للنبي ﷺ وأمته؛ لأن القوم يتبعون رئيسهم، والعمل بالنسبة للرسول ﷺ هو تبليغ الدعوة، وما يتعلق بها، وما يعمله أحد من هذه الأمة يُسمى عملًا سواء أكان خيرًا أم شرًّا.

قال تعالى ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: رقباء على أعمالكم الظاهرة والباطنة، مطَّلعين عليكم، مشاهدين لكم، نراكم ونطلع على كل صغيرة وكبيرة؛ أي: حين تدخلون وتخوضون في هذا العمل، وتستمرون عليه، ولا يغيب ولا يبعد عن ربك مثل وزن الذرة من الجزئيات والكليات، مهما صغُر أو كبُر، في العالم العلوي أو السفلي، كالنملة أو الهباءة، ومنها ما يتطاير في شعاع الشمس، فلا يغيب عن علمه تعالى ما هو أصغر من الذرة مما لا يُرى.

ومن المخلوقات ما لا يُرى بالعين ولا بالمِجْهر، كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة] ومن الأشياء التي قد تقعون فيها مما لا تبصرونها، ولا ترونها، وقد عَلِمَها الله سبحانه ويحيط بها جميعًا، فيُحصيها عليكم ويجازيكم بها، وكلها واضحة عند الله سبحانه، أحاط بها علمه، وجرى بها قلمه، **والكتاب المبين**: هو اللوح المحفوظ.

ومن مراتب القضاء والقدر: علم الله المحيط بجميع الأشياء، وكتابته المحيطة: بجميع الحوادث، كقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج: ٧٠].

وقد ابتدأت الآية بذكر شؤون النبي ﷺ الخاصة كقيام الليل.

وثنت بما هو من شؤونه ﷺ بالنسبة إلى الناس عامة، وهو تلاوة القرآن عليهم.

وثلَّثت بما هو من شؤون الأمة في ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وهو شامل للنبي ﷺ معهم، وهو تعميم بعد تخصيص.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وفي إحاطته سبحانه بكل صغيرة وكبيرة نظائر كثيرة من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

فأخبر سبحانه أنه يعلم حركة الأشجار، ونمو الحبة في جوف الأرض، وحركة السمك تحت الماء، كما أنه سبحانه يعلم تحرك الدواب وهي تسرح في جحورها، وحركة الطيور وهي تحلِّق في جو السماء ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود]

ويعلم سبحانه سَكنات وحركات عباده في غدوهم ورواحهم، وقيامهم وقعودهم، وركوعهم وسجودهم ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء].

وهو سبحانه مطَّلع علينا، ويرانا في جميع أحوالنا، ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

فراقبوا الله في أعمالكم وأدوها على وجه النصيحة، فإنه مطلع عليكم عالم بظواهركم وبواطنكم.

أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى

٦٢- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ[2] عَلَيْهِمْ[3] وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

---

(١) من حديث عمر بن الخطاب الطويل في «صحيح مسلم» برقم (٨١) وغيره.

(٢) قرأ يعقوب بفتح الفاء وعدم التنوين في (لا خوف)، والباقون بالضم والتنوين.

(٣) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، والباقون بكسرها، ووصل الميم بحرف مد ابن كثير وقالون بخلفه.

لما وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بأنه يشاهدهم في كل حال، سِيَّمَا حين يَشْرعُون في الأعمال الصالحة بقوةٍ واهتمامٍ وجدٍّ ونشاطٍ؛ طلبًا لمرضاة الله تعالى، ومصابرةً لأذى المشركين، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ شرع بعد ذلك يُعَرِّف بعباد الله هؤلاء، فهم أولياؤه الصالحون، ويُبيِّن كرامتهم عند الله، وما أعدَّ لهم من عاجل الثواب في الدنيا وآجله في الآخرة.

وأفضل الخَلْقِ رُسُلُ الله، ثم أنبياؤه، ومحمد ﷺ أفضل الخلق، والصحابة بعد الأنبياء، ثم القرون الثلاثة التي ذُكرتْ في الحديث، ثم المؤمنون المتقون، فافتتح الله الكلام بأداة التنبيه ﴿أَلَآ﴾ إشارة إلى أهمية ما بعدها؛ كي يجذب انتباه السامع.

والولي: هو القريب من الله تعالى غاية القُرْب، يؤدي الفرائض، ويُكْثِر من النوافل، ويستغرق في الطاعة، ويجتنب المحرمات، ويتوقَّى الشبهات، وحيثما يكون العبد يكون الله تعالى قريبًا منه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

في الحديث القدسي: **«إذا تقرب العبد مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا تقرب مني باعًا أتيتُه هرولة»**.[(١)]

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى قال: مَن عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مِمَّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»**[(٢)].

والولاية ضد العداوة، وأصلها المحبة والقرب، وأصل العداوة، البغض والبُعد.

والولي ليس معصومًا من الخطأ، فقد يقع منه بعض اللمم، وتشتبه عليه بعض الأمور.

والولي: هو الذي تولَّى ربَّه بالطاعة والعبادة والمحبة والقرب منه، وتولاه الله ﷻ

---

(١) من حديث أبي هريرة في المسند (١٠٦١٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وذكره الحافظ في الفتح في شرح الحديث رقم (٧٠٧٩) وأخرجه مسلم والترمذي وصححه الألباني.

(٢) البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق، باب التواضع.

بمحبته وكرامته وعونه، وهذه الولاية تُبعد أهلها عن الخوف والفزع والحزن في الدنيا والآخرة، وهؤلاء الأولياء لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، لا يخافون من المستقبل؛ فهم في مأمن منه، ولا يخافون من الموت؛ فهم يحبون لقاء الله، ولا يخافون من القبر؛ فهم في مأمن من فتنته، وهم في مأمن من عذاب الآخرة كذلك، وهم لا يخافون أيضًا من زوال الدنيا ولا يهتمون بها.

والخوف: حالة نفسية، تجعل الإنسان مضطربَ المشاعر لما يتوقعه من مكروه.

والحزن: اكتئاب نفسي وانكسار يحدث للإنسان عند حصول المكروه.

وهؤلاء الصالحون قد عمِلُوا لِما يُسعدهم في الدنيا والآخرة، فلا يخافون من المستقبل، ولا يحزنون عَمَّا فاتهم في الدنيا من مال ومتاع وما إلى ذلك، فإذا أمنوا من الخوف والحزن، ثبت لهم الأمن والسعادة وتحقق لهم الخير الكثير.

وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم في كل شأن وفي كل عمل، وكل حركة أو سكون، فهم على اتصال بالله تعالى لأنهم أولياؤه.

أحاديث في معنى الآية:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من عباد الله عبادًا يغبطهم الأنبياء والشهداء**» قيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم، قال: «**هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس**» ثم قرأ الآية[١].

٢- وعن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من عباد الله ناسًا يغبطهم الأنبياء والشهداء**» قيل: مَن هم يا رسول الله؟ قال: «**قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، لا يفزعون إذا فزع الناس، ولا يحزنون إذا حزنوا**» ثم تلا رسول الله ﷺ:

---

(١) النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٢٣٦) وابن حبان برقم (٢٥٠٨) والطبري (١٥/ ٢٠) وأبو داود برقم (٣٥٢٧) وغيرهم وصححه الحاكم بموافقة الذهبي في «المستدرك» (٤/ ١٧٠) عن ابن عمر بنحوه، وصححه الشيخ محمود شاكر في حاشية الطبري، وصححه أيضًا محقق ابن حبان، وله شاهد صحيح عن أبي مالك الأشعري عند أحمد برقم (٢٢٨٩٤، ٢٢٩٠٦) وحسَّنه المنذري في الترغيب (٤/ ٢١) والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٧٦).

«﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾»[١].

٣- وعن أبي مسلم قال: لقيتُ معاذ بن جبل بحمْص، فقلت: والله إني لأحبك لله، قال: أبشرْ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المتحابون في الله في ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله، يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء**» ثم خرجْتُ فلقيتُ عُبادة بن الصامت، فحدَّثْتُه بالذي قال معاذ، فقال عبادة: سمعت رسول الله ﷺ يروي عن ربه ﷻ أنه قال: «**حقَّت محبتي للمتحابين فيَّ، وحقَّت محبتي للمتناصحين فيَّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ، وحقَّتْ محبتي للمتباذلين فيَّ، على منابر من نور، يغبطهم النبيون والصديقون**»[٢].

الْإِيمَانُ والتَّقْوَى شَرْطَا الْوِلَايَةِ

٦٣- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

هذه الآية لبيان صفة الأولياء، وأن مَنْ آمن بالله واتَّقاه فهو داخل في ولاية الله، وهم قوم تحابوا في الله، واجتمعوا في ذاته، لم تجمعهم قرابة ولا مال ولا مصلحة.

وقد عرَّف الله الأولياء بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره، وصدّقوا إيمانهم بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فكل مَن كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا، هذا هو التعريف للولي في هذه العبارة الوجيزة، وهو يشتمل على **أمرين اثنين**: الإيمان والتقوى.

والإيمان: ما وَقَرَ في القلب وَصَدَّقه العمل، فالولي الذي لا تُصدِّق أفعاله أقواله، كاذب في ادعاء الولاية، والذي لا يمتثل أمر الله تعالى ولا يجتنب نهيه؛ لا يَصْدُق عليه تعريف الولاية.

وفي حديث ابن عباس ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «**الذين**

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٠١٢) وفي أبي داود (٣٥٢٧) والتعليق الرغيب (٤/ ٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩٩٨) والطبري (١٢/ ٢١١) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٦٣).

(٢) عبد الله بن أحمد، «المسند» (٢٢٧٨٢) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات، ورواه ابن أبي شيبة (١٣/ ١٤٥)، وابن حبان (٥٧٧) وعن معاذ بن جبل في المسند (٢٢٠٦٤) بإسناد صحيح.

إذا رُؤوا ذُكر الله»[١].

والتقوى: هي امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، بأن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، وأن يستوي الظاهر عند العبد والباطن، فلا يكون مُشعْوِذًا، ولا دجَّالًا، ولا مستعينًا بالشياطين أو الجن، وليس من أهل الطواف حول الأضرحة، ولا مِمَّن ينذر لعباد الله، ولا ممن يذبح لغير الله، ولا ممن لا يتفق مظهره مع الإسلام؛ كأن يخالط النساء ويختلي بهن، أو يدَّعي الكرامات، أو يعمل السحر والتمائم والأحجبة، أو نحو ذلك، فإن هذا كله من ولاية الشيطان، أما أولياء الله سبحانه، فهم الذين يحبون الله ويحبهم الله، فيمتثلون أمره ويجتنبون نهيه.

والولاية لا تورَّث عن الآباء والأجداد، فابن نوح كان كافرًا، وابن آدم كان قاتلًا، وليست الولاية حرفة ولا مهنة يرتزق منها بعض الناس، والولي لا يحب ثناء الناس ولا مدحهم؛ لأن الإسلام أمرنا أن نحثُو التراب في وجوه المداحين.

والولي يكون في الظاهر ممتثلًا أوامر الله سبحانه، إذا سمع النداء كان أول مَن يعمِّر بيت الله في الصفوف الأولى، بل في روضة المسجد، محافظًا على الفرائض، مكثرًا من النوافل، مجتنبًا لما فيه من الشبهات والريبة، ولا يضع نفسه في موضع التهم، بحيث يتحدث الناس عنه ويسيئون فيه الظن.

بُشْرَى الأَوْلِيَاءِ فِي الدَّارَيْنِ

٦٤- ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

هؤلاء الأولياء يقول الله عنهم: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ﴾.

أما بشرى الآخرة فهي الجنة قولًا واحدًا، وهي الفضل الكبير الذي أعده الله للمتقين يوم لقائه، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب].

(١) رواه البزار في «كشف الأستار» برقم (٣٦٢٦) مرفوعًا، ورواه الطبري في تفسيره (١١٩/١٥) عن سعيد بن جبير، مرسلًا، وهو عند الحكيم الترمذي (٣٩/٢) وابن المبارك (٢١٨) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٦٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٨/١٠): رواه البزار عن شيخه علي بن حرب الرازي ولم أعرفه، وبقية رجاله وُثِّقوا، وأخرجه أحمد عن أسماء بنت يزيد (٢٧٥٩٩) وهو حديث حسن بشواهده.

وأول بشرى الآخرة تكون عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [فصلت].

وفي القبر ما يبشر به من رضوان الله تعالى والنعيم المقيم، وتمام البشرى في الدار الآخرة بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب الأليم.

أما بشرى الدنيا فهي ثناء الناس ومحبتهم، والرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له، والوعد من الله تعالى بالنصر على الأعداء

وولي الله لا يُرائي، ولا يحب ثناء الناس، ولا يقصد ذلك، ولكنه يبتغي بعمله وجه الله تعالى، ولا يقبل هذا الثناء إذا كان في حضرته.

ومن البشرى لأولياء الله إجابة الدعاء وقبوله، ولا مانع أن تطلُب من أخيك المسلم أن يدعوَ لك بظهر الغيب أي مسلم كان.

ومما ترسَّب في أذهان بعض العامة أن يذهب بعض الناس إلى أحد الأولياء الصالحين من الأموات أو الأحياء، يعتقد أنه أقرب إلى الله تعالى وأطهر نَفْسًا عنده سبحانه، ودعوته مستجابة، فهو يتوسل به ويتخذه واسطة تقربه إلى الله تعالى، وهذا هو عينُ الشِّرك الذي كان يفعله أهل الجاهلية.

وفَرْقٌ بَيْنَ أن تطلب من أخيك الدعاء بظهر الغيب، وبين أن تتخذه واسطة بينك وبين الله، أو تتوسل به إلى الله تعالى أو تستشفع به عنده.

ومن البشرى في الدنيا لعباد الله الصالحين، ظهور الكرامات لأولياء الله، والكرامات ظهرتْ لعدد من الصحابة ومَنْ بَعدهم:

١- فهذا عُمَر ﷺ وهو يخطب على منبر رسول الله ﷺ في المدينة يوجِّه قائد الجيش، وكان اسمه (سارية) وبينهما مسافة بعيدة، وأخذ يناديه بصوته العادي المجرد، يقول له: يا سارية الجبل؛ أي: الزم الجبل يا سارية، فسمع سارية صوت عُمَر من فوق المنبر بالمدينة، وهذه كرامة أعطاها الله تعالى لعُمَرَ بْنِ الخطاب ﷺ.

٢- وهذا عبادة بن الصامت ﷺ كانت الملائكة تسلم عليه، وأبو الدرداء وسلمان

الفارسي كان الطعام يسبح في الإناء الذي يأكلان فيه.

٣- وهذه أم جريج العابد، دعتْ عليه أن لا يميته الله حتى يُريه وجوه المومسات فتحققت فيه دعوة أمه.

٤- وفي الصحيحين أن طفلًا رضيعًا رأت أمه وهي تحمله رجلًا فارسًا على فرسه، فقالت: اللهم اجعل ولدي مثل هذا الفارس، جاء في الحديث أن هذا الرضيع التفت إلى الرجل الفارس ونطق قائلًا: اللهم لا تجعلني مثله.

هذه نماذج من الكرامات التي يعطيها الله تعالى لأوليائه، ولكنها لا تنفع الآخرين، لا تنفعك أنت أيها العبد بشيء، بحيث تتقرب إليه وتستشفع به كوسيلة تقربك من الله ﷻ.

ومن البشرى في الدنيا لأولياء الله، أن ملائكة الرحمة تأتيهم عند الاحتضار للموت وتبشرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ يعني: عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

والآية التي بعدها تنطق ببشرى أولياء الله في الآخرة، فتبيِّن أنها الجنَّة التي وعدهم الله إياها، والملائكة تقول لهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

وأولياء الله لا يَفْزعون إذا فزع الناس يوم القيامة، وتتلقاهم الملائكة بالبشرى، فضلًا عن أنهم ناجون من النار، وهو الفوز العظيم قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء].

وإلى جوار ذلك بشراهم بالجنة، فإن الله تعالى يجعل لهم نورًا يوم القيامة على الصراط، يضيء لهم الطريق أمامهم وخلفهم ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد].

والبشرى المعجلة والمؤجلة دليلٌ على رضى الله تعالى عن العبد، ودليلُ محبة العبد

لربه، وتحبيبه إلى خلق الله في الأرض والسماء.

قيل: إن العبد إذا اشتغل برضى الله تعالى استنار قلبه، وامتلأ نورًا؛ فيظهر عليه آثار الخشوع والخضوع؛ فيحبه الناس، ويُثْنون عليه بمحبة الله له، ورضوانه عليه، فيقولون: النور يبدو في وجهه، وعلى وجهه نور يعلوه، وهكذا.

ولذا: فإن الملائكة تبشره في الدنيا عند خروج الروح، وتبشره بعد ذلك بالجنة حين يعرجون بروحه إلى السماء ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة].

في حديث البراء بن عازب أن العبد المؤمن تنزل عليه عند خروج الروح ملائكة بيض الوجوه، معهم كفن وحنوط من الجنة، فيجلسون بعيدًا عنه، ويأتي مَلَكُ الموت، فيجلس عند رأسه ويقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان؛ فتخرج روحه كما تسيل قطرة الماء من فم السقاء فتأخذها الملائكة؛ فتجعلها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، فيصعدون بها إلى السماء، ولها رائحة كالمسك، فتفتح لها أبواب السموات، كل سماء بعد الأخرى حتى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في علِّيين وأعيدوه إلى الأرض، فمِنها خلقتُه، وفيها أُعيده ومنها أُخرجه، فتُعاد روحه في جسده، ويأتيه مَلَكان؛ فيجلسانه ويسألانه مَن ربك؟ وما دينك؟ وما نبيك؟ فيجيبهم، فينادي منادٍ من السماء أن افتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من ريحها وطيبها، فيفسح له في قبره مدَّ البصر، وتبشره الملائكة بالذي يسرُّه وما وعد الله به[1].

ووَعْدُ الله تعالى لأوليائه بالجنَّة لا يُبدَّل ولا يُغيَّر ولا يُخْلَف، فوعده حق وصدق: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. لأنه اشتمل على الفوز بالجنة والنجاة من النار.

أحاديث في معنى الآية:

١- في صحيح مسلم وغيره عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

---

(١) ينظر الحديث بطوله في «المسند» (٤/ ٢٨٧) برقم (١٨٥٣٤) إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، وعند أبي داود برقم (٤٧٥٣) و«المستدرك» (١/ ٣٧) وصححه الحاكم بموافقة الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» برقم (١٦٧٢)، وأخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣١٠ والطبري في التفسير (٢٠٧٦٤).

«إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تَكْذِب، وأصدَقكُم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءًا من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مِمَّا يُحدِّث المرء نَفْسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فلْيقم فلْيصلِّ، ولا يحدِّث بها الناس» قال: **«وأحب القيدَ وأكره الغُلَّ، والقيد ثبات في الدِّين»** فلا أدري هو في الحديث أم قاله ابن سيرين[1].

٢- ولفظ البخاري: **«ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»**.

٣- وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال: **«هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرى له»**[2].

فالبشرى في الدنيا فُسِّرت بالرؤيا الصالحة، وهي بشرى المسلم في الحياة الدنيا، أما بشراه في الآخرة فهي الجنة[3].

وهي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، كما في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ: **«رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»**[4].

ومعنى ذلك: أن الرؤيا قد يكون فيها إخبارٌ للعبد الصالح بشيء ممَّا سيحدث في المستقبل، أو بشيء حدث في مكان بعيد عنه، ففي هذا قَدْرٌ من النبوة؛ لأنَّه من باب الإخبار بالغيب من الله تعالى لعبده.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦٣) واللفظ له، و«صحيح البخاري» برقم (٧٠١٧) و«المسند» (٦/ ٤٤٥) والطبري (١٥/ ١٢٩).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٣٨٩٨) وصححه الحاكم بموافقة الذهبي، «المستدرك» (٣/ ٣٤٠) وأخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣١٥) برقم (٢٢٦٨٧، ٢٢٧٤٠) صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، لكن أبا سلمة لم يسمع من عباده (محققوه) وهو في «سنن الترمذي» (٤/ ٥٣٤) و«السلسلة الصحيحة» للألباني برقم (١٧٨٦) و«صحيح ابن ماجه» (٢/ ٣٣٨) و«صحيح الترمذي» (١٨٥٥) ومسند الطيالسي (٥٨٤).

(٣) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٢٨) عن أبي الدرداء و«سنن الترمذي» برقم (٣١٠٦) بسند منقطع عن عطاء، وهو لم يسمع من أبي الدرداء.

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٩٨٨، ٧٠١٧) و«تفسير الطبري» (١٥/ ١٣٩) و«صحيح مسلم» (٢٢٦٣).

٤- وعن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألتُ رسول الله ﷺ فقال: **«ما سألني عنها أحد غيرك منذ أُنزلت؛ هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرى له، فهي بشراه في الحياة الدنيا، وبشراه في الآخرة الجنة»**[1].

٥- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع النبي ﷺ قال: **«إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها ولْيحدِّث بها، وإذا رأى غيره مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله من شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره»**[2].

٦- وفي حديث أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال: **«الرؤيا من الله والحُلْم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئًا يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات، ثم ليستعذ بالله من شرها فإنها لا تضره»**[3].

٧- وعن أبي رَزين عن النبي ﷺ قال: **«رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، وهي على رِجْل طائر ما لم يُحدِّثْ بها، فإذا حدَّث بها وقعت»**[4].

وإذا رأى المسلم رؤيا صالحة، وانشرح لها صدره؛ فإنه يحمد الله عليها ويذكُرها لِمَنْ يحب، فإن رأى حُلمًا يفزع منه فهو من الشيطان، ويُشرع له أن يستعيذ بالله عندما يستيقظ من النوم، ويتفُل عن يساره ثلاثًا، ولا يذكرها لأحد، حتى لا يتحقق هذا الحلم بإذن الله[5].

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٨٢) و«المسند» (٢٧٥٢٠) قال محققوه: صحيح لغيره لإبهام الراوي عن أبي الدرداء، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٧٥١، ٤٧٥٢) وابن أبي شيبة (١٢/ ٥١) وغيرهم.

(٢) البخاري (٦٩٨٥، ٧٠٤٥) والترمذي (٣٤٣٥) والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٩).

(٣) البخاري (٧٠٠٥) ومسلم (٢٢٦١) والترمذي (٢٢٧٧) والنسائي في «الكبرى» (٧٦٢٧) وابن ماجه (٣٩٠٩) و«الموطأ» (٢/ ٩٥٧).

(٤) صحيح «سنن ابن ماجه» (٣١٦٢) وأبو داود مختصرًا (٥٠٢٠) والترمذي مطولًا (٢٢٧٨، ٢٢٧٩) و«المسند» (١٦١٨٢) حسن لغيره (محققوه)، وابن أبي شيبة (١١/ ٥٠) وابن حبان (٦٠٥٠).

(٥) جاء ذلك عن عبد الله بن عمرو في «المسند» (٢/ ٢١٩) وانظر «تفسير الطبري» (١٥/ ١٣٩) عن أبي الدرداء، والحديث في صحيح مسلم (٢٢٦١) عن أبي قتادة عن أبي سلمة.

وقد بدأت الرؤيا الصالحة لرسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه جبريل بستة أشهر، وهي من مراتب الوحي، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

٨- وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لم يبقَ من النبوة إلا المبشرات»** قالوا: وما المبشرات؟ قال: **«الرؤيا الصالحة»**[١].

٩- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي، ولكن المبشرات»** قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: **«رؤيا المسلم، وهي جزءٌ من أجزاء النبوة»**[٢].

ومن البشرى لأولياء الله ثَنَاءُ الناس عليهم، فهي من عاجل ثواب المؤمن في الدنيا.

١٠- وعن أبي ذر ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل من الخير ويحمده الناس عليه، قال ﷺ: **«تلك عاجل بشرى المؤمن»**[٣]. قال تعالى:

٦٥- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ[٤] قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥﴾

ولَمَّا بيّن ﷻ أن أولياء الله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وكان الرسول ﷺ أول أولياء الله، ولعله يحزن من إيذاء المشركين له بالقول أو الفعل، لذا، خفف الله عن رسوله، وبيّن له أن العزة والمنعة لله ورسوله، فلا يحزنك قول المكذبين فيك من القدح في شخصك وفي رسالتك، فإن أقوالهم لا تُعِزُّهم ولا تضرك شيئًا، قال تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]

لذا: فقد نهى الله رسوله عن التأثر بأقوالهم وأفعالهم، وأخبره أن قوّتهم وغلبَتَهم محدودة

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٩٩٠) و«صحيح مسلم» عن ابن عباس برقم (٤٧٩) وانظر حديث ابن ماجه برقم (٣٨٩٦) عن أم كرز الكعبية، قال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٢١٢): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، و«تفسير الطبري» (٥١/ ١٣٣) و«المسند» عن أنس (١٣٨٢٤) وعن عامر بن واثلة برقم (٢٣٧٩٥) وجاء من طرق أخرى متعددة.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (١٨٥٣) والترمذي (٢٢٧٢) وابن أبي شيبة (١١٠/ ٥٣).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٢) وهذا لفظه، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٥٦) برقم (١٣٨٢٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير المختار بن فلفل فمن رجال مسلم، (محققوه).

(٤) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من (ولا يحزنك) مضارع أحزن، والباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن.

زائلة، وطمْأنه ربُّه ببيان أن العِزَّ الدائم والعاقبة الحسنى لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وهذا يشير إلى قول المشركين وهم يَعْجبون من نزول الوحي على رسول الله ﷺ؛ فيستهزئون به ويسخرون منه، ويصِفُونه ﷺ بأنه ساحر، والله سبحانه يقول لرسوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: لا تحزن - يا أيها الرسول ويا أيها الداعي إلى الله - ولا تأسَ من افترائهم عليك، ولا من إشراكهم بالله تعالى، واستعن بالله عليهم.

وإذا قرأت هذه الآية - أخي المسلم - تجد فيها وقفًا واجبًا، يجب أن تقف عنده في تلاوتك؛ لأنك إذا وصلْتها بما بعدها تغيَّر المعنى، أو أوْهَمَ خِلاف المعنى المراد، فتقف على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وتبدأ ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ لأنك إذا وصلتها يكون ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ من كلام المشركين، وليس الأمر كذلك، فهو من كلام الله سبحانه؛ ولذا وضع العلماء عليها وعلى أمثالها في القرآن حرف الميم هكذا (م) إشارة إلى لزوم الوقف عليها.

أي: فلا تحزن - يا أيها الرسول - من تكذيبهم وتهديدهم؛ لأنك في رعاية الله، والله يحميك ويتولاك، وهو الغالب، وهو الناصر، وهو صاحب القهر والغَلَبة والقدرة، يُعز من يشاء ويذل من يشاء، فإذا تعزز المشركون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم، فإن ذلك كله داخل في مُلك الله سبحانه، وهو قادر على أن يسلبهم إياه، وعزة المؤمنين تكون بإعزاز الله لهم ونَصْرهم على أعدائهم، و﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم وأقوالهم قد أحاط سمعه بجميع الأصوات فلا يخفى عليه شيء منها ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم جميعًا، وعلمه سبحانه قد أحاط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

مُقَارَعَةُ أَهْلِ الشِّرْكِ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ

٦٦- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

هذه الآية والآيات الأربع بعدها لقطع رجاء المشركين من كل احتمال ينصر الشرك وأهله، ولإقامة الأدلة التي تقطع دابره.

وذلك أن الله تعالى يتصرف في مُلكه كيف يشاء، ويحيط بكل صغيرة وكبيرة فيه، وكل ما فيه من خَلْقه وعبيده، والكلُّ مملوك له سبحانه، ومَن كان عبدًا مملوكًا لا يصلح أن يكون إلهًا ولا شريكًا ولا ندًّا لله تعالى، فكل ما في هذا الكون من إنس وجن، عُصاة وتُقاة، وكذا الملائكة وجميع الكائنات، كلها داخلة في سلطان الله وملكه، يتصرف فيهم بما يشاء.

وهذا معنى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا وعبيدًا مِنَ العقلاء ومن غير العقلاء، بدليل الآية السابقة حيث قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإن ﴿مَن﴾ للعاقل و﴿مَآ﴾ لغير العاقل غالبًا، وأغلب المخلوقات من القِسْم الذي لا يَعقِل، ولذلك فإن ﴿مَآ﴾ كثيرًا ما تُطْلق في القرآن على جميع المخلوقات من باب التغليب، وما يعبده المشركون يكون غالبًا من الجمادات التي لا تعقل، وعبادتها أمرٌ قائمٌ، وموجود في بعض بلاد العالم؛ كما كان موجودًا في مكة عصر التنزيل.

والقرآن الكريم رسالةُ الله تعالى إلى العَالَمِ أجمع، ويوجد قطاع كبير من البشر يعبد المسيح، أو يجعله ابنًا لله تعالى، ومن الناس مَن كان يعبُد الملائكة، ومَنْ يملك الموجودات العاقلة في السموات والأرض، فهو من باب أَوْلَى يملك الموجودات غير العاقلة.

وما دامت جميع المخلوقات مِلْكًا لله تعالى، فإن عبادة المشركين للأوثان من باب الخطأ الفاحش، والظن الفاسد، والوهم الكاذب، فهي مما يدخل في جميع المخلوقات، التي تُعْبَد مِنْ دُون الله، فإن ما يتبعونه في عبادتهم لهم، ما هو إلا شرك وظن ووهْم، ليس له حقيقة ولا أساس، فهم ليسوا على شيء؛ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ لأنهم يعبدون جمادات لا تعقل، وهي لا تشفع لهم، ولا تقرِّبهم من الله تعالىَ كما يزعمون، واستشفاعهم بها، ظن وَوَهْمٌ منهم لا حقيقةَ له، وهي مجرد أسماء اخترعوها من عند أنفسهم، لا تنفعهم ولا تضرهم، ولا تغني عنهم من الحق شيئًا ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم] وما هم في عبادتهم للأوثان إلا يَكْذبون ويقلِّدون غيرهم، ويتخبطون فيما ينسبونه إلى الله تعالى. قال سبحانه:

٦٧ - ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

هذه الآية لبيان أفعال الله تعالى الدالة على عظمته وقدرته ووحدانيته، واستحقاقه للعبادة دون سواه، فقد استدل سبحانه على فساد ظن المشركين بما يشاهدونه من نظام خَلْق الله تعالى لليل والنهار، وهم يرَوْن ذلك في كل يوم من العمر مرتين، ولكنهم قد أَلْغَوْا هذا الدليل وصاروا في غفلة عنه، وما عليهم إذا أرادوا أن يستدلوا على وحدانية الخالق سبحانه إلا أن ينظروا في دلائل القدرة الإلهية، إنهم يتقلبون فيها صباح مساء، ولكنهم يَغفلُون عنها ولا يفكرون فيها، لقد **قسَّم الله الوقت إلى نصفين:**

١- نصفٌ مظلِمٌ؛ كي تكون فيه السَّكينة والهدوء، والراحة من تعب الأعمال في النهار، وسُبل الكدح في الدنيا.

والذين يُغيِّرون آية الله في الكون؛ فيسهرون الليل لغير ضرورة ويناموون النهار، إنهم يعكسون الآية، ويحتاجون إلى إصلاح، وإلى تغيير نظام حياتهم وَفْق منهج الله تعالى.

٢- والنصف الآخر من الوقت مضيءٌ مبصر، وهو النهار يضيء للناس وَقْتهم؛ كي يذهبوا إلى أعمالهم، ويَسعَوْا إلى أرزاقهم، ويُحصِّلوا فيه العِلْم، وهذه سُنة الله في الكون، فإذا غيَّرها بعض الناس وهو غير مضطر إلى ذلك فهو فاسد في طبعه، يسهر على الفضائيات ويضيع صلاة الفجر ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: جعله ظرفًا للسكون والراحة ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ وجعله ظرفًا للحركة والتصرف.

وهذا النظام الذي ينشأ عنه الليل والنهار، مشتمل على دقائق كثيرة من العلم والحكمة والقدرة وإتقان الصنع، فيها دلائل عظيمة على وحدانية الله تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾. عن الله سمع فهم وقبول، لا سمع تعنت وعناد، فيستدلون بها على أنه الواحد المعبود والإله الحق، لا رب غيره ولا معبود سواه.

ومن هذه الآيات: خَلْقُ الشمس، وخَلْقُ الأرض، وخَلْقُ النور في الشمس، والظلمة في الليل، ووصول شعاع الشمس إلى الأرض فيُنيرها، ودوَران الأرض كل يوم، بحيث يكون نصف كُرَتها مواجهًا للشعاع، ونصفها الآخر محجوبًا عن الشعاع، وخَلْق الإنسان وجعل نظام مزاجه العصبي متأثرًا بالشعاع نشاطًا، وبالظلمة فتورًا، وخَلْق حاسة البصر

وجعلها على القوة والضعف مدفوعة إلى استعمال قواه بقصد وغَيْرِ قصد، ويخلف ذلك سكون وفتُور يتطلب الراحة[١].

أَقْبَحُ الرَّذَائِلِ هُوَ الشِّرْكُ

٦٨- ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

هذه الآية لبيان أقبح الرذائل التي يعتقدها المشركون، فقد ذَكَر سبحانه قول الذين يَدْعُون من دون الله شركاء، وهم عُبَّاد الأوثان من أهل مكة في عصر التنزيل، وكانوا قد زعموا أن الملائكة بنات الله من نساء الجن، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات].

والقرآن الكريم يحكي قولهم من أن الله تعالى صاهَر الجن؛ فأنجب منهم الملائكة، ولذلك فإن قومًا من العرب عبدوا الجن، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].

وقال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام]

واتخاذ الوَلَد إما أن يكون عن اندفاع طبيعي؛ لقضاء الشهوة، وإما أن يكون عن رغبة في الإنجاب، وكلاهما نقصٌ يعتري البشر، والله سبحانه غنيٌّ عن كل ذلك، فكل ما في الكون مِلْكُه، وكله مسخَّرٌ بأمره لِمَا خُلق له.

والآية تنطبق على قول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وقول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ والآية مكيَّة، وهي بصدد إبطال زيغ عقائد الوثنيين وأهل الكتاب، والمعنى يشملهم جميعًا فيما قالوه من افتراء على الله تعالى: :

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ

---

(١) الشيخ الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١١/ ٢٢٨).

ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء].

ولما قال المشركون: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فقد أشارت هذه الآية إلى مجموع أقوالهم وأقوال غيرهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ والله سبحانه يعلمنا كيف ننزهه فنقول: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ ثم أجاب جل شأنه عن هذه الفرية **بثلاثة أجوبة في** هذه الآية:

الجواب الأول: أنه جلَّ شأنه غني عن اتخاذ الولد، وهو ﷻ يملك هذا الكون بما فيه ومَن فيه، ولو أراد سبحانه أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء، سبحانه هو الواحد القهار، فحاشاه أن يتخذ ولدًا؛ لأنه الغني عن اتخاذ الولد، والغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر].

واتخاذ الولد نقيض الغِنَى المطلق عن كل احتياج، فالوَلَد يكون حِفْظًا لبقاء النسل في الحياة، ويكون امتدادًا لأبيه وتعويضًا عنه إذا مات، وهو يساعد أباه ويتولَّى عنايته ورعايته إذا تقدَّم في السِّن، والله ﷻ غني عن كل ذلك ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ هذا هوالجواب الأول، ومعناه: أنه سبحانه لا حاجة له إلى الولد، ولا حاجة له إلى العون والنصر، ولا حاجة له إلى المال والمتاع، فهو الغني بكل معاني الغنى، والعَلاقة بينه وبين الخلائق جميعًا عَلاقة الخالق بالمخلوق.

والجواب الثاني: يتمثل في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهي كلمة جامعة لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض، فالجميع مخلوق ومملوك لله تبارك وتعالى، فكيف يكون له ولد مما خلق، والْمِلْكِيَّة تنافي أن يكون له ولد، فهو مالك لكل ما في الكون، فكيف يكون له ولد؟

الجواب الثالث: هو لإبطال قولهم: اتخذ الله ولدًا؛ حيث يطالبهم سبحانه بالبرهان على زعمهم هذا فيقول: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَآ﴾ هل عندكم من برهان ودليل على أن الله تعالى قد اتخذ ولدًا؟ إنه لا حُجة لكم البتة فيما تقولون: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ جهلًا منكم من غيْر حُجة ولا برهان، وفي هذا توبيخ وتقريع لهم.

و﴿إِنْ﴾ في ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ نافية بمعنى (ما) و﴿مِّن﴾ بعدها مؤكدة للنفي، ومفيدة للعموم؛ أي: ما عندكم دليل ولا شبهة دليل على ما زعمتموه من أن لله ولدًا، وإنما قلتم ذلك لانطماس بصيرتكم واستحواذ الشيطان عليكم، وهو من باب الجهل والضلال، والتقليد الأعمى للكذب والبهتان الذي ورثتموه عن آبائكم وأجدادكم فلا حجة لكم تصاحب مقولتكم بأن الله تعالى قد اتخذ ولدًا، بل هو تقوُّلٌ على الله بغَيْرِ علم. قال تعالى:

٦٩- ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ثم حذَّر سبحانه على لسان رسوله ﷺ الذين يفترون على الله الكذب باتخاذ الولد وإضافة الشريك له سبحانه، فبيَّن أنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ينالون مطلبهم، وهذا إنذار لهم بسوء العاقبة إذا استمروا على شركهم، فهم لا ينالون مطلوبهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وتكذيبهم شيئًا قليلًا في الدنيا ثم يعودون إلى الله تعالى فيذيقهم العذاب الشديد على كفرهم. قال تعالى:

٧٠- ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾

توعَّد الله سبحانه الذين ينسبون الشريك والولد إليه، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، وأن متاعهم في الدنيا قليل، ثم يضطرهم ربهم إلى عذاب غليظ، إن افتراءهم هذا قد يفيدهم شيئًا في دنياهم، فهو استدراجٌ لهم وظل زائل، فهم يُمتَّعون في الدنيا متاعًا قليلًا مُدة حياتهم، ثم إلى الله مرجعهم فيحاسبهم حسابًا عسيرًا على أقوالهم وأفعالهم القبيحة، ثم يعقُب هذا الحساب العذاب الشديد؛ بسبب كفرهم وجحودهم نِعْمَة الله عليهم، وافترائهم الكذب على الله تعالى.

ثَلَاثَ قِصَصٍ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ يُونُسَ عليه السلام

أَوَّلًا: قِصَّةُ نُوحٍ عليه السلام

٧١- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ(١) أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ(٢) ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ(٣)﴾

وبعد مقارعة المشركين بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة عرَّض ﷻ ببيان عاقبة كل مَن أشرك بالله تعالى، مثل عاقبة قوم نوح، فهم لم يفلتوا من عذاب الله في الدنيا، ولن يفلتوا منه في الآخرة.

وقد مرَّ بنا الإشارة إلى أن الله ﷻ قد أرسل لكل أمة من الأمم رسولًا، هاديًا ومبشرًا لهم، ومُعَلِّمًا إياهم طريق الخير والرشاد من طريق الضلال والغواية ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ فإذا جاء رسولهم فكذَّبوه؛ فإما أن يعاقبهم الله في الدنيا ويبيدهم، كما حدث لقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم، وإما أن يؤخر عذابهم إلى الآخرة؛ فيقضي بينهم بالعدل والحق وهم لا يظلمون.

وأشارت السورة قبل ذلك إلى مصارع الأمم التي كذَّبت رسلها ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ [يونس: ١٣] وجاءتهم رسلهم بالمعجزات الدالة على صِدْقهم، وجاءتهم بالشرائع من عند الله سبحانه، ولمَّا لم يؤمنوا برُسلهم عذَّبهم الله تعالى وأهلكهم في هذه الدنيا.

وهذه الآية وما بعدها تَذْكُر لنا قصة ثلاثة من رسل الله الذين أُرسلوا إلى أقوامهم، فتقص لنا الحَلْقَة الأخيرة أو المقطع الأخير من القصة لرسل الله الثلاثة، وهو الجزء الذي يتعلق بتكذيب القوم ومصير الأمم التي -كذَّبت رسول الله يونس، ورسول الله موسى، ورسول الله نوح عليهم السلام.

---

(١) قرأ رويس بخلف عنه بوصل الهمزة وفتح الميم من (فأجمعوا) على أنه فعل أمر من (جمع)، وقرأ الباقون بقطع الهمزة مع فتحها وكسر الميم، على أنه فعل أمر من (أجمع).

(٢) قرأ يعقوب برفع الهمزة من (وشركاؤكم) عطفًا على الضمير المتصل في (فأجمعوا) أو على أنه مبتدأ خبره محذوف، وقرأ الباقون بالنصب عطفًا على (أمركم) عطف نسق.

(٣) قرأ يعقوب بإثبات الياء من (ولا تنظرون) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

وهذه القصص الثلاث، جاءت الإشارة فيها إلى طرف من قصة نوح في ثلاث آيات متواليات، من قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي اذكر - يا محمد - لقومك خبر أول الرسل نوح عليه السلام حين دعا قومه إلى توحيد الله تعالى بعد أن فشا فيهم عبادة الأوثان من دون الله؛ فكذبوه وعاندوه وآذوه أشد الإيذاء.

فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن كان قد شق وعظم على نفوسكم دعوتي لكم ووعظي وتذكيري إياكم، وطال مُكْثي وإقامتي بينكم مدة طويلة، بلغت تسعة قرون ونصفًا، وكنتم تستضعفون حالي ولا تبالون بدعوتي لكم إلى الله، فإني لا أبالي بكم؛ لتوكلي عليه.

فقد فوضت أمري إلى الله، واعتمدت عليه، ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في دفع كل شر يُراد بي، وأنا ماضٍ في طريق دعوتي إليكم، ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: وما عليكم إلا أن تتعاونوا وتجتمعوا أنتم ونصراؤكم من الشركاء والآلهة التي تعبدونها من دون الله، وتتخذوا قرارًا نهائيًا يتعلق بي، إما بقتلي، وإما برجمي، وإما بغير ذلك ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي مشتبها خفيا، بل يجب أن يكون الأمر واضحًا ظاهرًا مكشوفًا وليس سرًّا، ثم نفذوا هذا الأمر ولا تؤخروني ساعة واحدة.

فلفظ ﴿غُمَّةً﴾ إما أن يكون بمعنى الخفاء والاستتار والالتباس؛ أي: لا تتردَّدوا في قتلي أو رجمي، ولا تتقاعسوا عن الجهر بذلك، بل نفِّذوا ما تريدون، واستعينوا على ذلك بمن تريدون، وإما أن يكون معنى ﴿غُمَّةً﴾ من الغم والكرب؛ أي: اتخذوا قرارًا بشأني على وجه السرعة حتى لا يكن بقائي بينكم سببًا في تنغيص حياتكم؛ بسبب دعوتي لكم إلى الله، فسارعوا إلى هلاكي؛ حتى لا تكونوا في غم وكرب مستمر.

وهكذا: فإن نوحًا عليه السلام صارحهم بأنه ماضٍ في طريق دعوتهم إلى الله، وتذكيرهم بدلائل وحدانيته تعالى، ووجوب إخلاص العبادة له.

وقد بيَّن لهم نوح أنه غير مُبال بكيدهم له، ولا بما يتخذونه من قرارات تجاه طرده أو قتله، وطالبهم أن ينفذوها دون تريُّث ولا انتظار. ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ وهذا برهان قاطع على صحة رسالته وصدق ما جاء به، فقد بادر قومه بتسفية آرائهم وعيب آلهتهم وهم أهل

القدرة والسطوة، فلم يقدروا على شيء مما توعّدوه به، فعُلم أنه الصادق وهم الكاذبون.

ولَمْ يلجأ نوح ﷺ إلى هذا التحدي السافر الصريح؛ إلا بسبب قوة يقينه بالله تعالى، واعتماده عليه، وتفويض أمره إليه سبحانه.

وقد أخبر الله تعالى عن نوح ﷺ أنه قد بلغ الغاية في التوكل على الله، وأنه كان واثقًا بنصر الله إياه، غير خائف مِن مكرهم وكيدهم، وقد قال لهم ما قال على وجه التعجيز لهم، كما قال تعالى على لسانه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود].

ولَمَّا كان قوم نوح هم أول الأمم هلاكًا، وأعظمهم كفرًا وجحودًا، ضربهم الله أول مَثَل لأُمة محمد ﷺ في هذه السورة وغيرها؛ ليكون لهم عِبرة بمَن سبق قبلهم، فقد توعَّد الله المشركين في الآية السابقة بقوله: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وهكذا قوم نوح متَّعهم الله زمنًا طويلًا، ثم لم يُفلتوا مِن عذاب الله في الدنيا، فَعَلَى هذه الأمة أن تتأسى بالصالحين من عباد الله؛ حتى يفوزوا بحُسْن العاقبة في الدنيا والآخرة، وكذلك كان الشأن وكان المصير نفسه في قصة موسى وقصة يونس عليهما السلام في هذه السورة؛ لِتَعتبر بهم أمة محمد ﷺ؛ حتى لا يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم. قال تعالى:

٧٢- ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ[1] إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

ثم أخبر سبحانه أن الرسل ليست لهم مصلحة دنيوية في دعوة الناس إلى الله تعالى، وإنما هم رُسل الله إلى خلقه يبلغونهم دعوته، وأجرهم على الله تعالى.

ولما كان قوم نوح قد أعرضوا عنه فعلًا، واستمر إعراضهم عن دعوته زمنًا طويلًا، عبَّر ﷺ بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ والقصد من ذلك قطع أعذارهم، وإلزامهم بالنتيجة الحتمية، مِن أنَّ إعراضهم عن اتباعه، لم يكن فيه أي احتمال لاتهام نوح ﷺ أن يطلب بدعوته هذه أية فائدة أو نفع لنَفْسه، فقد

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أجري إلا)، والباقون بإسكانها.

برَّأ نَفْسه من ذلك.

وإلى هذا يشير قوله تعالى على لسانه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فإن أعرضتم عن دعوتي، وقبول نصحي، فأنا لم أسألكم أجرًا على تبليغي الدعوة إليكم من مال ونحوه، وإنما أطلب الأجر من الله وحده، فهو الذي يُثيبني ويَجزيني، ولن أتزحزح عن عقيدتي، فقد أمرني ربي أن أكون من المسلمين الموحدين لله، المخلصين له، وأنا ممتثل أمر ربي، مستسلم له.

الإسلام دعوة الرسل جميعا:

وهذه الجملة: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قالها نوح عليه السلام، وقالها غيره من رسل الله أجمعين.

ومن غير الرسل قالها حواريُّو عيسى عليه السلام، وقالتها بلقيس، فهي دعوة الله إلى خلقه جميعًا، وهي كلمة الله تعالى إلى الأمم جميعًا إلى يوم الساعة.

قالها إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة] ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة].

وقالها إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقالها يعقوب وبنوه: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقالها يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقالها موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس].

وقالتها السحرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وهي ديانة كل نبي في بني إسرائيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقالها سليمان: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل].

وقالها عيسى والحواريون: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وقالتها بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقالها خاتم الرسل في سورة الأنعام: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

وفي سورة الأنعام أيضًا: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وفيها أيضًا: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

وفي سورة النمل: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

وفي سورة الزمر: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

وهكذا سمَّى الله التوحيد والدِّين الحق على لسان جميع الرسل في مختلَف العصور إسلامًا؛ لأنهم متفقون في الأصول والعقائد، فكل منهم دعا قومه إلى توحيد الله وعبادته، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وهذا هو الإسلام بمعناه العام، وقد اختصت أُمة محمد ﷺ بهذه التسمية، كما أخبرنا الله سبحانه في قوله عن خليل الرحمن: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨] والسبب في ذلك أن كمال الدِّين الخالص الذي أراده الله من خَلْقه إلى قيام الساعة قد تم في الرسالة الأخيرة، بعد أن مرَّت الرسالات بأطوار النموّ والتكامل على أيدي الرسل قَبله؛ ولهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلاَّت، ديننا واحد، وإن تعددت شرائعنا»**.(١)

والعلاَّت: هم الإخوة من أب واحد، وأمهاتهم شتى، فتوحيد الله تعالى يُسمَّى الإسلام عند جميع الرسل، أمَّا مناهج الأمم وتعدد الشرائع في الفروع بما يوافق مراحل الأمم وقدرتها على التكاليف الشرعية فهو الشريعة والمنهج، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. قال تعالى:

٧٣- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

---

(١) ينظر البخاري (٢٣٦٥) ومسلم (٢٣٦٥) وأبو داود (٤٦٧٥) عن أبي هريرة وألفاظه متقاربة.

ثم أخبر سبحانه عن تكذيب قوم نوح له، وتوعَّد المكذبين بمحمد ﷺ سوء المصير، كما كانت العاقبة والنهاية لقوم نوح حين كذَّبوا دعوته، لقد أمره ربه أن يصنع السفينة على نحو ما فصَّلت سورة هود، وأن يركبها هو ومَن آمن معه، وأرسل الله عليهم الطوفان؛ فأغرق القوم، ونجى الله نوحًا ومَن آمن معه.

وكانت هذه القلَّة التي نجت مع نوح ثمانين رجلًا وامرأة، على أرجح ما قيل في هذا العدد، هم ثمرة دعوة استمرت ألف سَنة إلا خمسين عامًا؛ أي: بمعدل فرد واحد في كل مئة وعشرين عامًا تقريبًا.

والذين نَجَوْا مِن الغرق، هم الذين استخلفهم الله مِن قوم نوح ﷺ، ومنهم ومِن ذريتهم كان الناس بعدهم، بعضهم يخلف بعضا، إلى أن تكاثروا في هذا العدد الذي وصلْنا إليه على مستوى البشرية، إلى نهاية هذه الدنيا، فهم من ذرية نوح، الأب الثاني للبشرية عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذب نوح قومه فيما أخبرهم به عن الله ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ هو ومَن آمن معه في السفينة ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر]

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: جعلنا الناجين من الغرق يخلفون المكذبين الهالكين منهم، هذه هي عاقبة من آمن بنوح.

فماذا كانت عاقبة المكذبين؟ لقد بيَّنها الله تعالى في قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾. بعد ذلك البيان وقيام الحجة عليهم.

فتأمَّل - أيها المكذِّب - بآيات الله ورُسله، ماذا كانت عاقبة مَنْ أنذرهم الرسل؛ فلم يؤمنوا، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وهو الهلال المخزي واللعنة المتتابعة، إن سُنة الله في عباده لا تتخلف، وقد سنَّ الله حُسن العاقبة للمؤمنين، وسوء العاقبة للمكذِّبين؛ فأهلك الله الأمم المكذبة للرسل بدءًا مِن أُمة نوح ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

أما قبله؛ فقد كان الناس على التوحيد، مِن لَدُن آدم إلى أن ظهرت عبادة الأصنام في عهد نوح؛ فأرسله الله إليهم، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: على دِين واحد هو الإسلام، وإخلاص التوحيد لله فاختلفوا، وكان منهم مؤمن وكافر، من لدن نوح إلى يومنا هذا.

فاحذروا - أيها المكذبون في كل زمان ومكان - أن يحل بكم ما حل بقوم نوح من الغرق والخزي والنكال.

ونظرًا لأن نوح عليه السلام هو أَوَّل رسول أُرسل إلى مَن يعبدون الأصنام، فإن المؤمنين يقولون له يوم القيامة: «**أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**» كما جاء في حديث الشفاعة العظمى يوم القيامة.

قال ابن عباس: كان بَيْن آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام.

الرُّسُلُ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٧٤- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

وبعد الفراغ من طرف من قصة نوح عليه السلام، في الآيات الثلاث السابقة، تحْمِل هذه الآية الإشارة إلى عدد من رسل الله تعالى فيما بين نوح وموسى؛ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشُعيب صلوات الله عليهم وعلى غيرهم من رسل الله، مِمَّن ذكَرهم أو لم يذْكُرْهم القرآن، وأشارت إليهم هذه الآية إشارة إجمالية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا﴾ إلى أقوامهم؛ ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أيدهم الله بالمعجزات الواضحات وهؤلاء الرسل يطويهم السياق إجمالًا؛ لأن المقام مقام عبرة وعظة ولكن هؤلاء الأقوام لم يؤمنوا، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم فلم يدخلها إيمان بعد ما كانوا متمكنين منه، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

وقد فُصِّلت قصص بعض هؤلاء الرسل في سور أخرى، وصرحت بهم آية سورة الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ [آية: ٤٢-٤٤] مع وجود رسل آخرين لا نعلمهم ممن لم يذكرهم القرآن، وأشار إليهم في قوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقد جاء هؤلاء الرسل أقوامهم بالمعجزات الدالة على صدق دعوتهم، وجاؤوهم بالشرائع من عند الله، فَمَا آمنوا، واستمروا على عنادهم، وكذَّبوا بما لم يؤمنوا به من قبل، وهذه الضمائر الثلاثة في (كانوا ويؤمنوا وكذبوا) تعود على أقوام الرسل الذين جاؤوا بعد نوح على الأرجح، يقول سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهذه سُنة الله في خَلْقه تقضي بهلاك المتجاوزين حدود الله تعالى.

إن الذي يُعرِض عن الهداية ويَغْلِق قلبه عنها فلا يقبل هدى، يكون هو الذي تسبب لِنَفْسِه في هذا الإغلاق وعدم قبول الهداية، ثم يُكْتَب ذلك في قضاء الله وقدره الأزلي.

وهؤلاء الأقوام اللاحقون، كانوا على منهاج قوم نوح في التكذيب مِن الذين تجاوزوا حدود الله، وخالفوا رسله، وكما ختم الله على قلوب هؤلاء يختم على قلب كل من لم يؤمن بالله ورسله.

ثَانِيًا: قِصَّةُ مُوسَى وَهَارُونَ مَعَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ

٧٥- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

ثم خص الله بالذِّكر رسالة موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنها أعظم رسالة بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام، فلم تقتصر رسالتهما على جانب العقيدة وتهذيب النفوس وإبطال ما عَظُم من المفاسد، إنما تجاوزت ذلك إلى تكوين أمة، وتحريرها من استعباد أمة أخرى؛ فوضع الله لها نظام سياسة وحضارة ودفاع، وأعطاها كتابًا يشتمل على قواعد التشريع التي لم تسبق في تاريخ الأمم قبلها، وجعل موسى وهارون كليهما مبعوثَيْنِ لهذه الأمة، موسى بالأصالة، وهارون مُعينًا له وناصرًا.

فكانت أول رسالة تخاطب أمة في مواجهة الفراعنة واستعبادهم، وكان الفراعنة طغاة جبابرة، يعتبرون أنفسهم آلهة للقبط، وقد وضعوا لهم شرائع جائرة، يستعبدون بمقتضاها بني إسرائيل ويذلونهم، فإذا سألوهم حقهم، استأصلوهم وقتلوهم ومثَّلوا بهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ

أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

وكان فرعون على حذرٍ شديدٍ مِن موسى، فشاء الله سبحانه أن ينشأ موسى في بيت عدوه، على فراشه ومائدته بمنزلة الولد تمامًا، وقد رزقه الله النبوة والرسالة، وأمره أن يدعوه إلى عبادة الله وحده، ويخلِّص بني إسرائيل من ظلمه واستعباده.

فسأل موسى ربه أن يعينه على أداء هذه المهمة بأخيه هارون، فأرسله الله نبيًّا ورسولًا؛ كرامة لأخيه واستجابة لدعوته، وأيَّد الله موسى بالمعجزات التي يؤمن بها كل كفور، ولكن فرعون وقومه لم يزالوا مصرين على كفرهم وعنادهم حتى أحلَّ الله بهم بأسه وأغرقهم أجمعين؛ ليكونوا عبرة لِمَن بعدهم.

ونجَّى الله موسى وخلَّص بني إسرائيل على يديه من استعباد فرعون وجبروته، لكنهم لم يشكروا فضل الله عليهم؛ فخذلوا موسى في قتال الجبارين؛ فعاقبهم الله تعالى بأن كتب عليهم الضياع والتشرُّد في أصقاع الأرض، إلى أن يأتي وعد الله قُرب قيام الساعة، ويأتي بهم لفيفًا إلى أرض المحشر والمنشر.

ومَن خالف منهم تعاليم الله تعالى؛ فأقام لنفسه وطنًا مزعومًا في فلسطين بمساندة الصليبية العالمية، فإن هذه الحفنة من الصهاينة لن تنعم أبدًا بعَيش واستقرار في هذا الوطن المزعوم؛ لأن قيامه مضاد لله في أمره ونهيه، حيث حرم عليهم الأرض المقدسة حرمة أبدية عقوبة لهم لَمَّا قالوا لنبيهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وهذا طرف من قصة موسى ﷺ جاء في هذه السورة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: مِن بعد هؤلاء الرسل الكرام، الذين جاءوا لأقوامهم بالمعجزات والآيات البينات، بعثنا ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على وحدانيتنا وأيدناه بالآيات التسع وأكثر، جاء ذكر ثمانٍ منها في سورة الأعراف، منها هذه الخمس: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] والسنين ونقص الثمرات وفلق البحر ونتق الجبل والعصا واليد ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء] والطمس على الأموال والربط على القلوب.

وكلها آيات بينات أُرسل بها موسى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وهم كبار قومه ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبول الحق واجترؤوا على ردها وتكذيبها ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ جاحدين لآيات الله، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. قال تعالى:

٧٦- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ موسى وجاءهم ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الواضح ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ فَوَصَل إليهم دون تعب ولا جَهْدٍ، لم يتقبلوه بل وصفوه بالسحر، و﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قال فرعون وأشراف القوم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذه العبارة تقولها كل أمة لكل رسول حين تكذبه، قالها مشركو مكة للنبي ﷺ، وقالها فرعون لموسى وهارون.

والمعنى: فلَمَّا أتى فرعون وقومه الحق الذي جاء به موسى، قالوا: إن الذي جاء به موسى من الآيات إنما هو سحر ظاهر.

٧٧- ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ[1] أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ على وجه التعجب والتوبيخ والإنكار ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ إنه سحر؟! فَتُسَمون دعوة الله سحرًا، وتسمون هذه الآيات المعجزات التي هي من عند الله سحرًا، انظروا وَصْف ما جاءكم به موسى وما اشتمل عليه من الآيات البينات، تجدونه الحق ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ الذي جئتكم به؟ إنه ليس بسحر، وأنتم ترون حقيقته بأعينكم، وأنا أعلم أن الساحر لا يفلح ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ ولا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟ مقول لقول محذوف يدل عليه ما قبله، وهو ما يجب عليهم أن ينفوه، أي: أتصفون هذا الحق بأنه سحر؟ وفي هذا تعريضٌ بجهلهم وفساد قولهم، وفيه إنكار من موسى عليه السلام لوصفهم الآيات بأنها سحر؛ بمعنى: أتقولون هذا القول للحق لما جاءكم إنه سحر؟، وبعد أن نفى موسى عن آيات الله أن تكون سحرًا، بيَّن لهم فساد السحر وسوء عاقبته تحقيرًا لهم، فذكَرَ لهم أن الساحر لا يفلح، وقريب من هذه الآية قوله تعالى:

﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. قال تعالى:

---

(١) أمال ألف (موسى) حمزة والكسائي وخلف، وقللها أبو عمرو وورش بخلف عنه.

٧٨- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا[1] ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾

ثم كشف القرآن الكريم عن الدوافع التي جعلت فرعون ومَلأه يصفون الحق الذي جاء به موسى بأنه سحر، فقالوا لموسى بعد أن جاءهم بالحق المبين: أجئتنا لتصرفنا عن الدين الذي ورثناه عن آبائنا من عبادة غير الله، وتدعونا لعبادة الله وحده، وتكون لك ولأخيك هارون العظمة والسلطان في أرض مصر؟

وما نحن بمصدقين لك ولا لأخيك هارون فيما جئتما به من دعْواكُما الرسالة وطلبكما أن نعبد الله وحده؛ لأن تصديقنا لكما يجعلُنا نتخَلى عن ديننا الذي وجدنا عليه آباءنا، وينزع عنا ملكنا، ويجعلنا نعيش تحت سلطانه وقهره، وهكذا قال قوم نوح عن نبيهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون: ٢٤] فهم يخافون من تحطيم معتقداتهم الموروثة، ويخافون على سلطانهم في الأرض.

وهذا هو السبب الذي يدفع الطغاة في كل زمان ومكان إلى مقاومة دعوات الإصلاح؛ فيتهمونها بالأوهام والخرافات والأكاذيب، فلَمَّا انقطعت حُجة فرعون وأشراف قومه، ولم يجدوا إجابة حقيقية تمنعهم من الإيمان بموسى عليه السلام، أنكروا عليه أن يَصْرِفهم عمَّا وَرِثُوه عن آبائهم من عبادة الأوثان، وتقليد السابقين.

وعلى هذا النحو قال المترفون المكذِّبون لكل رسول في كل أمة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣] وكذلك قال قوم إبراهيم له: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [لقمان: ٢١].

فالحُجة الأولى في رفضهم دعوة موسى: هي الحفاظ على تقاليدهم وعقائدهم الموروثة، وقد جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ أي: لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا

(١) قرأ شعبة بخلف عنه بياء التذكير في (وتكون لكما)؛ لأن اسم كان مؤنث مجازي، وقرأ الباقون بتاء التأنيث، وهو الوجه الثاني لشعبة.

عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام.

أمَّا **الحُجة الثانية**: فإنهم يخافون على ذهاب السلطة، وذهاب الهيمنة على الجانب السياسي والاقتصادي؛ فتذهب الزعامة من فرعون إلى موسى وهارون.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والمراد بالأرض: هي الأرض المعهودة المعروفة للطرفيْن وهي أرض مصر، والمراد بالكبرياء: السلطة والزعامة والقوة التي تدعم الرئاسة، فهم يزعمون أن موسى وهارون يحاولان نَفْع أنفسهما بالاستحواذ على سيادة مصر بالحيلة وطلب الرئاسة، وسُمِّي هذا كبرياء؛ لأنه أكبر ما يُطلب من الدنيا.

وقد كان الخطاب في أول الآية لموسى وحده؛ لأنه الذي باشر الدعوة إليهم وحده، ولم يكن هارون حاضرًا، فلَمَّا ضمه إليه جاء الخطاب بضمير التثنية؛ ظنًا منهم أن هارون جاء مع موسى؛ لينال مِن سيادة أخيه حظًّا لِنَفْسه.

ثم أكدوا إنكارهم وعدم اعترافهم برسالة موسى وهارون فقالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾ تكبرا وعنادًا، لسنا مُقرين بأنكما رسولان أُرسلتما إلينا؛ لنعبد الله وحده.

وكثيرًا ما يَذْكر القرآن قصة موسى مع فرعون؛ لأنها من أعجب القَصَصِ، حيث رُبِّي موسى بمنزلة الولد على فراش فرعون ومأدبته، وشب وترعرع، ثم دبَّر الله له سببًا أخرجه مِن بين أظهرهم، ورزقه الله النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إلى فرعون مع عظمة ملكه وسلطانه؛ ليدعوه إلى عبادة الله وحده، وآزره بأخيه هارون؛ فاستكبر فرعون وتجرَّأ على الله تعالى؛ فادعى الربوبية والألوهية، واستعبد بني إسرائيل وأهل مصر.

وقد حفظ الله موسى وهارون وأحاطهما برعايته، وأظهر شأن موسى وأبطل كيد السحرة، واستمر فرعون وملؤه في الجحود والعناد حتى قطع الله دابره هو وملأه ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ [القصص: ٤٠] ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ [التوبة: ٤٠].

فِرْعَوْنُ يُعَارِضُ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى:

٧٩- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ[١] ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ[٢] عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

وكان الله سبحانه قد أيَّد موسى بالمعجزات الدالة على صِدْق رسالته؛ ومنها العصا، فأراد فرعون أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس؛ ليظهر للناس أن ما أتى به موسى سحر، فأمر بجمع السحرة المهرة من جميع البلاد؛ ليبطلوا ما جاء به موسى، وقال فرعون لخدمه وحاشيته: جيئوني بكل ساحر متقن للسحر.

وقد ذُكرت قصة السحرة أيضًا في سور: الأعراف وطه والشعراء، وفيها أن السحر قد انقلب على الساحر، حيث آمن السحرة بموسى، وقد جاء بهم فرعون ليعارضوه ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء]. قال تعالى:

٨٠- ﴿فَلَمَّا جَآءَ[٣] ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

طلب فرعون من خاصة قومه أن يجمعوا له كل ساحر من أفراد مملكته؛ فامتثل القوم أمر فرعون وأسرعوا في إحضار السحرة، وجيء بهم في ضحا يوم الزينة في اجتماع القوم، وعندئذٍ طلب موسى من السحرة أن يلقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي على الأرض، وأن يبدؤوا بإلقاء سِحْرهم؛ إظهارًا لقوة حُجَّته، وعدم اكتراثه بمبلغ سحرهم، وتهيئة للحاضرين أن يَعْلَموا أن الله مبطل سحرهم على يد رسوله موسى.

وفي موضع آخر أنهم خيَّروا موسى بين أن يبتدئ هو بالسحر، أو يبتدئوا هم به، وأن موسى اختار أن يكونوا هم البادئين ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ﴾ [الأعراف]

وفي سورة طه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ [الآية].

---

(١) قرأ ورش والسوسي وأبو جعفر بإبدال همزة (ائتوني) واوًا مديَّة حال وصلهم بما قبلها (فرعون)، والباقون بالتحقيق.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (بكل سحَّار) على وزن فعَّال للمبالغة، وقرأ الباقون (بكل ساحر) على وزن فاعل.

(٣) أمال ألف (جاء) ابن ذكوان وهشام بخلف عنه وحمزة وخلف، وفتحها الباقون.

وهكذا فإن فرعون وملأه اتهموا موسى فيما جاء به من عند الله فوصفوه بالسحر حين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] ثم أرادوا أن يُثْبِتوا أنهم قادرون على الإتيان بمثل ما عند موسى؛ فجمعوا له السحرة لإبطال سِحْره -على حد زعمهم- ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ولما ألقَوْا سِحْرهم توجَّس موسى خوفًا من سحرهم كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه].

ولا يخفى أن الأمر بإلقاء السحر معصية، وأن المقصود هنا هو إبطال سحرهم، وإبطال شبهة الملحد، هذا فضلًا عن أنهم كفار، والكفار غير مخاطَبين بفروع الشريعة.

عِلاجُ المَسْحُورِ

٨١- ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ[1] ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

فلَمَّا ألقوا حبالهم وعصيهم؛ قال لهم موسى على وجه السخرية مما صنعوه: إن الذي جئتم به، وألقيتموه على الأرض، وأظهرتموه لنا، هو السحر بعينه، وليس الذي جئتُ به أنا، وهذا ردٌّ على التهمة التي وُجِّهت إليه، وبيان أن ما جاؤوا به هو تمويه وتخييل ولفت للأنظار، وموسى عليه السلام واثق من ربه، مطمئن إلى أنه سيظهر دعوته ويبطل كيدهم.

ولذا: فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي: سيمحق ما جئتم به ويزيل أثره مِن النفوس؛ لأنه كذب، كالدم الذي كان على قميص يوسف عليه السلام، ليس له حقيقة، وسوف يفضح الله عملهم إنه لا يصلح عمل مَن سَعَى في الأرض بالفساد، مِن الذين يضللون الناس بأكاذيبهم، فلا يجدون طريقًا لإصلاح أنفسهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لأنهم يريدون نصر الباطل على الحق، وهذا من أعظم الفساد.

---

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر (به السحر) بزيادة همزة الاستفهام قبل همزة الوصل، مثل (آلذكرين) فيكون فيها لهما وجهان: المد بمقدار ما يُمدُّ المد المنفصل عندهما فتكون هكذا (به آلسحر) بمعنى: أي شيء أتيتم به؟ أهو السحر؟ والباقون كحفص.

٨٢- ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

وقد جرت سُنة الله تعالى أنه لا يصلح عمل مَن أفسد في الأرض بالكفر والمعاصي، بل يمحق سبحانه الباطل ويذهبه، ويثبِّت الله الحق الذي جاء به من عنده؛ ليرفعه ويعليه على الباطل الذي جاؤوا به، وكل ذلك بأمر الله تعالى وكلماته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أهل المعاصي من آل فرعون، فلما تبين للسحرة الحق فروا سجدا لله، فتوعّدهم فرعون بالصلب وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بقوله، وثبتوا على إيمانهم.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي جعفر الرازي عن ابن أبي سليم قال: بلغني أن هذه الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تُقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور، الآية الأولى من سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

والآية الأخرى في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى من سورة طه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]

هذه المواضع الثلاث مَن قرأها في ماء ثم صبت على رأس المسحور فإنه يبرأ من السحر بإذن الله سبحانه[1].

ويطوي السياق بقية قصة السحرة وغيرها؛ لأن الغرض هنا هو العبرة بنهاية فرعون وقومه، ويقرر الله سبحانه أن فرعون وملأه لم يؤمن منهم أحد بل استمروا في طغيانهم وبغيهم.

ثَمَرَةُ دَعْوَةِ مُوسَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآلِ فِرْعَوْنَ

٨٣- ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

(١) ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٤).

ومع مجيء موسى بالمعجزات، وبالآيات والحجج الدالة على رسالته، ما آمن به إلا ذرية مِن قومه؛ أي: فتية وناشئة عددهم قليل من بني إسرائيل، وهم قوم موسى الذين كانوا معه في مصر، بخلاف غيرهم ممن هم خارج مصر، فلم تبلغهم الدعوة، أو لم يؤمر بالتبليغ إليهم، وكان هذا الإيمان على حذر وخوف من فتنة فرعون وبطشه أن يفتنوهم عن دينهم، أو يعذبوهم.

وقد جرت العادة أن الناشئة من الفتية والشباب يكونون أقرب لقبول الحق من الشيوخ الكبار ممن تربى على الضلال والعقائد الفاسدة.

ولم يؤمن بموسى من قوم فرعون إلا امرأة فرعون، وماشطة ابنته، وخازن فرعون وامرأته، ومؤمن آل فرعون، هؤلاء الخمسة وشباب آخرون من قوم فرعون، آمنوا بموسى.

وآمن بموسى أيضًا إلى جوار عامة قومه، ذرية من بني إسرائيل، وسموا ذرية؛ لأنهم كما قيل إن آباءهم من قبط مصر، وأمهاتهم من بني إسرائيل، فكان الرجل يتبع أمه وأخواله، كما قال الفراء، قيل: كانوا سبعين بيتًا من قوم فرعون.

والضمير في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ يعود على بني موسى؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأن فرعون ذُكر في الآية بالاسم الصريح.

والضمير في ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يرجع إلى آل فرعون؛ لأنهم كانوا يمنعون ذريتهم من الإيمان بموسى، وفرعون هو الذي كان يأمر بالتعذيب، وكان الملأ من قومه يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه؛ فلحق هذا الإيذاء بكل مَن آمن بموسى مِن بني إسرائيل وغيرهم.

وإلى هذا يشير قوله تعالى على لسان بني إسرائيل: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف].

ولا يوجد دليل على أن بني إسرائيل جميعًا قد آمنوا بموسى، بل إن منهم من آمن به، ومنهم من كفر؛ كقارون والسامري وغيرهما.

والمعنى: فما آمن لموسى في دعوته إلى وحدانية الله تعالى إلا عدد قليل من شباب قومه الذين كانوا يعيشون في مصر، وهم خائفون من فرعون وملئه أن يفتنوهم بالعذاب،

أما آباؤهم وأصحاب الجاه منهم فقد انحازوا إلى فرعون؛ طمعًا في عطائه، وخوفًا من بطشه أن يفتنهم في دينهم؛ فيعذبهم ويحملهم على ترك اتباع موسى عليه السلام.

ثم وصف الله فرعون بأنه طاغية متجبر فقال: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ أي: مستكبر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كان عبدًا فادعى الربوبية والألوهية ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين لحدود الله بالكفر والفساد، وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل، فكان يستعبدهم ويذلهم ويشردهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

وكان محمد ﷺ حريصًا أشد الحرص على هداية قومه، وفي هذه الآية وأمثالها تسلية ومواساة للنبي ﷺ على ما يَلْقاه من قريش، وعلى عدم إيمان بعضهم.

مُوسَى يَحُثُّ قَوْمَهُ عَلَى الثَّبَاتِ وَالطُّمَأْنِينَةِ

٨٤- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

قال موسى لقومه من بني إسرائيل الذين آمنوا به؛ ليثبتهم ويطمئن قلوبهم، وقد رأى الخوف يعلو وجوههم وهم في حضرة فرعون: إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان؛ فعليه اعتمدوا في نَصْركم ودفع الضر عنكم، فإن التوكل على الله كافٍ لمن توكل عليه، ولا تصانعوا فرعون، ولا تظهروا له الولاء، فالتوكل على الله ملازمٌ للإيمان والإسلام.

فيا قوم، إن كان إيمانكم إيمان مستسلم مخْلِص لله، لا تشوبه شائبة؛ فثقوا في قدرة الله ووعده، وسلِّموا لأمره، إن كنتم منقادين له بالطاعة، والإسلام عمل جسماني، والإيمان عمل قلبي، وهما متلازمان في الاعتداد بهما في اتباع الدين، فلا يعلم تصديق القلب إلا بالقول والطاعة، والتوكل من كمال الإيمان.

وقد أراد موسى بذلك إلهاب حماسهم، وإثارة صدق إيمانهم، حيث تخوَّفوا من فرعون أن يفتنهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]. قوله تعالى:

٨٥، ٨٦- ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

وامتثل بنو إسرائيل قول موسى ﴿فَقَالُوا۟﴾ مجيبين له: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا عليه،

وفوضنا أمرنا إليه وحده، ثم دعوا ربهم بدعاءين:

فقالوا أولًا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ من المعتدين واليهود وغيرهم، فلا تسلطهم علينا فيغلبونا ويقولون: لوكانوا على حق ما غُلبوا.

ومعنى كون المسلمين فتنة للظالمين أنه إذا نصر الله غير المسلمين على المسلمين، فإن غير المسلمين يظنون أنفسهم على حق وصواب، وأن المسلمين على باطل، ويقولون: لو كانوا على حق ما غلبناهم وما انتصرنا عليهم، فيكون في هذا فتنة للظالمين، ويزدادون طغيانًا وكفرًا، ويُفتن بذلك بقية الكفرة؛ فيظنون أنهم على حقٍّ، فلا تجعلنا يا ربنا سبب فتنة لهم، فإنهم إن غلبونا نكون فتنة لهم، فيظنوا أنهم على صواب.

ويجوز أن يكون المعنى: لا تسلطهم علينا وتمكنهم مِنَّا؛ فيفتنونا ويُضلُّونا عن الحق وعن دِينك، وفي هذا دليل على اهتمامهم بأمر دينهم أكبر من اهتمامهم بسلامة أنفسهم.

ثم أضافوا دعاء آخر، فقالوا: ونلتمس منك يا ربنا أن تنقذنا بفضلك وجودك منهم، وأن تباعد بيننا وبينهم كما باعدت بين المشرق والمغرب، وتخلصنا من سوء جوارهم، وألا تُنزل بنا بلاء بأيديهم ولا بأيدي غيرهم، كما نجيت بني إسرائيل من استعباد فرعون وملئه. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لنسلم من شرهم، ولنتمكن من إقامة ديننا وإظهاره دون معارضة.

الْإِعْدَادُ الْمُبَكِّرُ لِخُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ

٨٧- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا[1] وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

هذه الآية مقدِّمة لخروج بني إسرائيل من مصر، حيث أمر الله موسى وهارون أن يفْصلا بين بني إسرائيل وأهل مصر، وأن يستعينوا على شدة بلائهم بكثرة الصلاة، وإذا خافوا أن يظهروا صلاتهم مِن فرعون وقومه؛ فليصلوا في بيوتهم تجاه القِبلة، ويجعلوا بيوتهم مكانًا للصلاة فيها لعجزهم عن إقامتها في الكنائس والبيع.

(١) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الباء من (بيوتا، بيوتكم) والباقون بضمها، وهما لغتان.

وقد ذكر المفسرون أن فرعون قد أخاف بني إسرائيل، وهدم الأماكن التي اتخذوها للصلاة، فأوحى الله لموسى وهارون أن يقيما لهم بيوتًا أخرى يصلون فيها في مواجهة القِبلة.

ولَمَّا أراد الله أن ينصر موسى ومَن معه من بني إسرائيل على فرعون وقومه، أوحى إلى موسى وهارون أن يَطلُبا من بني إسرائيل أن يكون لهم حيٌّ خاص في البادية، وسَكَنٌ مميز يمنعهم من الاختلاط بقوم فرعون، وذلك على سبيل الفَرْزِ والتنظيم والاستعداد للرحيل من مصر، حتى يتميزوا عن الفراعنة، ويكونوا في حي واحد وبيوت واحدة، منعزلين عن قوم فرعون.

وهذا معنى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون باعتبار أنهما يديران أمور الأمة فكان الوحي لهما معًا ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: اتخذا لقومكما بمصر بيوتًا ومساكن من العشش والخيام والأخصاص؛ تهيئة للارتحال من مصر، وهي غير بيوتهم المختلطة بأهل مصر، وأن يجعلوا هذه البيوت التي يتخذونها مساكن لهم، يقابل بعضها بعضًا، حتى يعرفوا الداخل والخارج، إن كان منهم أو من غيرهم.

وقد كانت (طيبة الأُقصر) عاصمة الفراعنة في مصر، والتي كانوا يسكنونها قرب (منفيس) مدينة فرعون في جنوب مصر.

وهكذا أرشدهم موسى أن يزكُّوا أنفسهم من الذنوب، ويطهروا بيوتهم من أمور الجاهلية، ويستبشروا بنصر الله؛ فطلب منهم موسى الإكثار من الصلاة للاستعانة بها على ما هم فيه من مِحْنة؛ فخافوا من فرعون وقومه إذا رأَوْهم يُصلُّون أن يعذبوهم، ولا يستطيعوا الخروج إلى الصلاة في أماكن العبادة؛ فأمرهم الله ﷻ أن يصلوا في بيوتهم التي أُمروا ببنائها مؤخرًا، وأن يجعلوها مساجد لهم ويتخذوها قِبلة لهم في الصلاة.

وكان اتجاهها في مقابلة القبلة التي تصح الصلاة إليها في شريعتهم، وهي الكعبة على الملة الحنيفية قبل أن تنسخ إلى استقبال صخرة بيت المقدس، والغرض من ذلك أن تدخلها الشمس في جميع فصول السنة غالب أوقات النهار، وفي ذلك منافع كثيرة.

قال ابن عباس ﷺ: كانت الكعبة قبلة موسى.

وقال الحسن: كانت الكعبة قبلة الأنبياء.

وقبلة أهل مصر كقبلة أهل المدينة إلى الجنوب، ما بين المشرق والمغرب، وهي قبلة

إبراهيم ﷺ، وكان النسخ للقبلة بعد ذلك.

ثم أمر الله موسى أن يبشر أتباعه بالنصر والغلبة على عدوهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المطيعين لله بالنصر المؤزر في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة.

ولما رآى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئه دعا عليهم، وأمَّن هارون على دعائه:

مُوسَى يَدْعُو عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنْهُمْ

٨٨- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟[1] عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾

أعلم الله سبحانه موسى ﷺ بوحي منه أن فرعون لا فائدة منه ولا في ذريته، فقد أَبَى قبول الحق واستمر على ضلاله وكفره، وفَقَد موسى الأمل في إصلاح فرعون وملئه، وظهر أن شأنهم شأن قوم نوح، لا يلدون إلا فاجرًا كفَّارًا، فأذن الله له في الدعاء عليهم، وقد مهَّد موسى لدعائه عليهم تمهيدًا يدل على أن ما طلبه موسى من الله سبحانه بسَلْبِ النعمة عن فرعون وملئه، وحلول العذاب بهم، ليس من باب الانتقام لِنَفْسِه، إنما هو لمصلحة الدِّين، وهذا هو سبب الدعاء.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ﴾ أعطيت ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ أشراف قومه ﴿زِينَةً﴾ يتزينون بها من أنواع الحليّ والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخدم، وأعطيتهم الكثير، من متاع الدنيا ومظاهر الرفاهية والتنعم ﴿وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أعطيتهم أموالًا كثيرة وجاهًا ومناصبَ وزينة كالحلي؛ فلم يشكروا هذه النعم، وإنما استعانوا بها عِلى إضلال الناس، فكانت هذه الأموال وهذه الزينة سببًا للفِتن، وكان من عاقبة أمرهم أنهم لم يحفظوا هذه النعمة، ولم يقوموا بواجب الشكر عليها، وإنما ضلوا عن سبيلك وأضلوا غيرهم.

فاللام للعاقبة والصيرورة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ حيث قدَّم موسى

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الياء من (ليضلوا) مضارع أضل، والمفعول محذوف تقديره: غيرهم، وقرأ الباقون بفتح الياء مضارع ضل، يقال: ضل نفسه، وأضل غيره.

هذا السبب؛ توطئة للدعاء عليهم، وليس من باب الخبر.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أتلفها بالهلاك أو بجعلها حجارة حتى لا ينتفعوا بها.

والطمس: هو الإهلاك والإتلاف ومحو الأثر، وهذا الطمس من آيات الله التسع.

جاء عن ابن عباس ﷺ أن أموالهم من دراهم ودنانير، صارت حجارة منقوشة كهيئتها قبل الطمس.

ثم قال موسى: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا تنشرح للإيمان، **والشدُّ**: هو الربط والطبع على الشيء؛ أي: اجعل قلوبهم قاسية، واطبع عليها؛ فلا تقبل الهدى ولا الإيمان، وهذا وَفْق طبيعتهم التي أفسدوها، ووَفْق علم الله تعالى عنهم.

وقد أعلم الله موسى بذلك قبل أن يدعو عليهم؛ فبيَّن أنهم لن يؤمنوا حتى يروا الغرق بأعينهم.

والإيمان عند معاينة العذاب لا ينفع ولا يُخرج العبد من الكفر، وهذا معنى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: الشديد الموجع.

وقد استجاب الله دعوة موسى، فحال بين فرعون وبين الإيمان حتى أدركه الغرق، فلم ينفعه إيمانه.

قيل: إن الله تعالى أغرق فرعون بعد دعوة موسى عليه بأربعين سنة[1].

والمراد: أنهم لا يؤمنون إلا وقت أن يكون الإيمان لا ينفع، كإيمان الكافر في وقت الغرغرة، أو الإيمان وقت خروج الروح.

وكان موسى يدعو وهارون يؤمِّن على دعائه، فكأنهما اشتركا في الدعاء، وكان بين دعاء موسى على فرعون وإجابة هذا الدعاء أربعون عامًا، قاله ابن جريج.

هذا: وقد أعطى الله فرعون المال والمُلك والجاه؛ فتنةً وابتلاءً واستدراجًا، حتى إذا ازداد عتوًّا وطغيانًا أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ١٦١) وابن عطية (٣/ ١٣٩).

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقد قابل فرعون نعم الله عليه بالجحود، واستعملها في الفساد والأذى؛ فكانت النتيجة أن الله تعالى أهلكها وأزالها ومسخها حجارة وهي بين يديه.

وقد كان موسى حريصًا على هداية بني إسرائيل، وحريصًا على هداية فرعون وقومه، ولعله رأى أن من وسائل الهداية التضييق عليهم بزوال النعم، فإذا اشتد بهم الكرب عجَّلوا بالتوبة، كما هو عادة النفوس الغافلة في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨]

ولكن فرعون لم يفعل، وظل على كفره حتى أدركه الغرق، وأجاب الله فيه دعوة موسى ﷺ.

٨٩- ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ[1] سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قال سبحانه: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي: يا موسى وهارون، في فرعون وملئه وأموالهم، فسُلِبت منه ومن قومه النعم، وتوالت عليه النقم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف]

وقال سبحانه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ثم قال الله لهما: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على الحق، واستمرا على دعوة فرعون وقومه، إلى عبادة الله وتوحيده، وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولا تسلكا طريق الذين يجهلون وعدي ووعيدي، ممن يسلكون طريق الشيطان والغواية، فأمر الله موسى أن يسرى ببني إسرائيل ليلًا وأخبره أن فرعون وملأه سيلحقون بهم ويتبعونهم:

خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ وَغَرَقُ فِرْعَوْنَ

٩٠- ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[2] ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ

---

(١) قرأ ابن ذكوان وهشام بخلف عنه بتخفيف النون مكسورة من (ولا تتبعان) على أن لا نافية ومعناه النهي، أو على أنها نون التوكيد الخفيفة، وقرأ الباقون بتشديد النون مكسورة أيضًا، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل همزة (إسرائيل) الثانية مع المد والقصر، ومثله حمزة عند الوقف، وقرأ الأزرق عن ورش بثلاثة أوجه المد في البدل.

أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ[1] لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

هذه الآية تبين كيفية إغراق فرعون وجنوده؛ وذلك أنه بعد أن أمر الله بني إسرائيل أن يتخذوا لأنفسهم بيوتًا مؤقتة في مكان موحَّد لهم؛ تهيئة للسفر ومجاوزة البحر، تأتي الآيات الأربع الأولى في الربع الأخير من سورة يونس؛ لتتناول الحلْقة الأخيرة من حياة فرعون، وبيان مصيره الذي آل إليه، وتتناول أيضًا مصير بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون، مع موسى عليه السلام، فقد أرسل الله سبحانه موسى **لمهمتين أساسيتين**:

المهمة الأولى: الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وعبادته.

والمهمة الثانية: إخراج بني إسرائيل من مصر، وتخليصهم من ذل فرعون واستعباده وقهره وظلمه.

وتبدأ قصَّة الخروج لما دعا موسى على فرعون، بعد أن أعلمه الله تعالى أنه قد سبق في علمه الأزلي أن فرعون وملأه لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وأمَّن هارون على دعاء موسى، فقد كان هذا مقدَّمة لخبر خروج موسى ومَن معه من أرض مصر، بعد أن تم إقامة مساكن لهم في البادية وتكتُّلهم فيها؛ تهيئة لخروجهم.

ويأتي تنفيذ هذا الدعاء؛ كرامةً لموسى عليه السلام، فأوحى الله إليه مستجيبًا دعوته أن يَخرُج ببني إسرائيل ليلًا من مصر، متجهًا إلى البحر الأحمر عند خليج السويس؛ فخرج موسى ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون وملئه.

وكان تعداد بني إسرائيل (أي: يعقوب وذريته وأحفاده) عندما التقوا بيوسف عليه السلام في مصر اثنين وسبعين فردًا، وكان تعدادهم حين خرجوا مع موسى من مصر ست مئة وعشرين ألفًا.

وصل بهم موسى عليه السلام إلى ساحل البحر الأحمر، شمال خليج السويس، حيث كان العبور في (عيون موسى) أو (البحيرات المرة) وعند مطلع الشمس نظر بنو إسرائيل؛ فوجدوا فرعون قد أدركهم ولحق بهم هو وجنوده، وحينئذٍ قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] فالعدوُّ وراءنا والبحر أمامنا، وقد وصل موسى إلى طريق مسدود

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر همزة (إنه) من (آمنت أنه) على الاستئناف، وقرأ الباقون بالفتح على أنها في محل نصب، مفعولًا به لآمنت، أو على إسقاط حرف الجر.

محفوف بالمخاطر، قال موسى عليه السلام: ولكني أُمرت أن أسير مِن هنا ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأوحى الله تعالى إلى موسى ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ وماذا عسى أن تفعل العصا في البحر؟ ولكنها المعجزة، معجزة موسى عليه السلام في آية العصا، ضَرَبَ موسى البحر بعصاه؛ فانفلق البحر اثني عشر طريقًا ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧].

وقد ذُكرت هذه الآيات بالتفصيل في سورة الأعراف، وفي سورة الشعراء، وفي سورة الدخان، وفي سورة طه، بإيجاز في بعضها، وتفصيل في بعضها الآخر.

وهذه الطرق الاثنا عشر بعدد أسباط بني إسرائيل، كل سبط أو عشيرة تمرُّ من طريق منها، بعد أن تجمَّد الماء، وتراكم بعضه فوق بعض كالجبل الأشم ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] وجفت الطرق الاثنا عشر من الماء، وعَبَرَ موسى وبنو إسرائيل البحر، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ الآية.

ولما خرج موسى بقومه إلى الجهة الثانية توجَّه نحو البحر، وأراد أن يضربه مرة أخرى بعصاه حتى لا يلحق به فرعون؛ فقال الله تعالى له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ اتركه ساكنًا كما هو، بما فيه من الطرق اليابسة والجفاف الذي في أرضه ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

وكان فرعون لَمَّا بلغه خبر خروج بني إسرائيل من مصر، جمع جيشًا هائلًا يبلُغ مئة ألف، حشدهم من جميع المدائن ولحق بهم، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يقولون ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي موسى وقومه ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء] فجمع فرعون جنوده قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم فرعون بجنوده بغيًا وعدوًا حتى وصلوا إلى ساحل البحر الأحمر، فلَمَّا رأى فرعون موسى ومَن معه قد قطعوا البحر وعبروه، ومسلكهم في البحر باقٍ على حاله، نزل وراءهم يتقصَّى آثارهم، يريد الإحاطة بهم، ومَنْعهم من السفر؛ من أجل إكراههم على البقاء في مصر؛ لتسخيرهم في الأعمال الشاقة وإذلالهم، فهو لم يلحق بهم للدفاع المشروع، أو طلبًا للهداية والإيمان، وإنما لحق بهم ظلمًا وعدوانًا ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾.

والبغي: هو طلب الاستعلاء بغير حق، **والعدْو**: هو الظلم والعدوان.

قالوا: إن جبريل كان على فرس (أُنثى) وأن فرعون كان على حصان (ذَكَر) وأن الحصان قد تحرَّش بالفرس، فلَمَّا نزل جبريل البحر وهو على الفرس، رآه الحصان؛ فلحق به وحَمْحم نحوه، ونزل فرعون وجنوده البحر، فلما اكتملوا عن آخرهم وكانوا بداخله؛ أطبق الله عليهم البحر وأغرقوا جميعًا ولم ينجُ منهم أحدٌ، وأخذت أمواج البحر ترتفع وتنخفض، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغَشيتْه سكرات الموت، فلما وصل الماء إلى حلقه وأدركه الغرق؛ تاب توبة المضطر، لما رأى العذاب بعينه، وآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وليس في هذه العبارة توكيدٌ لإيمان فرعون، وإنما هي تَحْمِلُ عنصر ادعاء الألوهية والكبرياء الذي كان يلازم فرعون، فهو لم يقل: آمنت بالله، ولم يقل: آمنت أنه لا إله إلا الله، فليس هناك اعتراف صريح مباشر، وإنما عنصر الكبرياء متأصل فيه، وعنصر الشك ثابت فيه، فهو يقول: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

ثم قال فرعون قولة المضطر، الذي يريد أن يدفع الضر عن نَفْسه، ولا يقصد الإقرار بوحدانية الله تعالى، فقال: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة، ولم يقل: أسلمت مباشرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وفرعون لم يكن كافرًا فحسب، ولكنه نازع الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته، فادعى الربوبية وادعى الألوهية ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]

وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]

وذكر فرعون لقومه مقومات الإله فقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] فإن كانت هذه هي مقومات الإله، فها هي موجودة لديَّ، وإذن ففرعون مختوم ومطبوع على قلبه، قيل: إن فرعون كان دهْريًّا من الذين يقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]

والدهرية: لا يؤمنون بوجود إله خالق لهذا الكون، ولا يؤمنون باليوم الآخر.

وقيل: إن فرعون سُئل: أرأيت لو أن عبدًا نشأ في مال سيده ونعمته؛ فكفر نعمته وجحد

حقه، ثم ادَّعى السِّيَادة عليه، فماذا يكون عقابه؟ فكتب بخط يده، يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاءُ العبد الخارج على سيده، الكافر نعماءه أن يَغْرَق في البحر.

وهكذا: حددتْ بعض التفاسير، أن اسمه الوليد بن مصعب، وكُنيته أبو العباس، وهكذا حكم على نفسه أن عقوبته الغرق.

فلما أدركه الغرق، جاءه جبريل بهذه الوثيقة التي فيها خط يده بالحكم على نَفْسه بالغرق؛ فناوله إياها فعرفها.

ولذا: جاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفًا عليه، ويرفعه بعضهم إلى النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام كان يأخذ من قاع البحر (أي: من الطين) ويدسُّه في فم فرعون؛ جزاءً لكفره.

أخرج الترمذي وغيره بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لما أغرق الله فرعون قال:** ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فقال جبريل: يا محمد، فلو رأيتني وأنا آخذ من حَالِ البحر وأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»[(١)].

ولفظ أحمد «**إن جبريل كان يدسّ في فم فرعون الطين مخافة أن يقول: لا إله إلا الله**»[(٢)].

وفي جامع الترمذي: أخبر شعبة، قال: أخبرني عديّ بن ثابت، وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه، ذكر أحدهما عن النبي ﷺ «**أنه ذكر أن جبير جعل يدُسُّ في فِيِّ فرعون الطين، خشية أن يقول: لا إله إلا الله، فيرحمه الله، أو خشية أن يرحمه**»[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعا: «**لما قال فرعون لا إله إلا الله، جعل جبريل يحشو في فيه**

---

(١) ينظر «سنن الترمذي» برقم (٣١٠٨) وقال: حسن غريب صحيح، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وهو في المسند (٢٨٢٠) بإسناد ضعيف كما قال محققوه، لأن فيه ابن جدعان، والأصح وقفه، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٣٩٣) وهو في «تفسير الطبري» (١٥/ ١٩٠) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٠/ ٦١) برقم (٢٤٨٣) وأخرجه الطيالسي (٢٧٤٠) وابن حبان (٦٢١٥).

(٢) صححه أحمد شاكر في تحقيق «المسند» برقم (٢١٤٤) وقال محققوه: صحيح موقوفًا على ابن عباس، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عطاء بن السائب، متابع، عدي بن ثابت، فقد روى له أصحاب السنن، وهو صدوق، وشعبة روى عنه قبل الاختلاط، وأخرجه ابن حبان (٦٢١٥) والطيالسي (٢٦١٨).

(٣) صحح إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٨٤).

الطين والتراب»[١].

ولأن هذا الدَّس من جنس الختم والطبع على قلبه، والحيلولة بينه وبين الإيمان؛ لأن الله تعالى قد علم مصيره، وعلم أنه لن يؤمن إلا وقت الاضطرار، فكان جبريل يفعل ذلك جزاء له على كفره السابق، وأنه مِمَّن حقت عليهم كلمة العذاب، وأن إيمانه لا ينفعه عند معاينة الموت، وفِعْلُ جبريل بدس الطين في فم فرعون تنفيذًا لقضاء الله وقدره.

والله تعالى يضل من يشاء ممن اختاروا الضلال طريقًا لأنفسهم، ويهدي من يشاء ممن سلك طريق الرشاد، وهو سبحانه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. قال تعالى مبيِّنًا أن الإيمان وقت الغرغرة لا ينفع:

٩١- ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

ولما نطق فرعون بكلمة التوحيد قال تعالى: ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ تؤمن؟ في وقت الاضطرار، والاحتضار حيث لا ينفع الإيمان ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ فادعيت الألوهية والربوبية وأضللت قومك وبارزت الله بالمعاصي والكفر والتكذيب ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه] ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الصادين عن سبيل الله، فلا ينفعك هذا الإيمان الذي شاهدت دلائله، وإنما الذي ينفع هو الإيمان بالغيب.

جُثَّةُ فِرْعَوْنَ فِي الْمُتْحَفِ الْمِصْرِيِّ

٩٢- ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ[٢] بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ[٣] خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾

لم يصدِّق الناس أن فرعون قد مات، فكانوا يعتقدون أنه فوق البشر، وأنه لا يموت؛ ولذلك فإن الله سبحانه أمر البحر أن يُلقي بجثة فرعون على الشاطئ؛ حتى يراه بنو

(١) الطبري (١١/ ١٦٣) عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وأخرجه من طرق عدة، وانظر (٣١٥٤، ٢٢٠٣) في المسند، وهو صحيح موقوف على ابن عباس.

(٢) قرأ يعقوب بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم من (ننجيك) مضارع (أنجى)، والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم مضارع نجا.

(٣) قرأ أبو جعفر بإخفاء النون عند الخاء في (لمن خلفك)، والباقون بالإظهار.

إسرائيل وأهل مصر، وكل مَن كذّب بهلاكه يرونه جسدًا بدون روح على ساحل البحر.[١]

ولَمَّا ألقتْ الأمواج جثة فرعون على البحر الأحمر من الجهة الغربية، عَثُر عليه الذين خرجوا يتقصَّوْن آثاره مِمَّن بقي في مصر، لمَّا استبطؤوا رجوعه ورجوع جيشه.

وكان البحر لا يلفظ غريقًا حتى يأكله السمك، ومن بعد قصة فرعون أصبح البحر لا يقبل غريقًا إلى يوم القيامة.

ألقى الله جثة فرعون على شاطئ البحر؛ ليتحقق مِن موته مَن شك في ذلك من الناس.

فاليوم نجعلك بنَجْوةٍ؛ وهي المكان المرتفع من الأرض؛ لتكون آية وعبرة لكل من يأتي بعدك إلى يوم القيامة، وفي هذا إشارة إلى أن جسد فرعون سيبقى محفوظًا؛ ليكون عبرة قائمة لبني إسرائيل وغيرهم، ولكل طاغية جبار، وكل حاكم ومسؤول استغل العباد، فاستبدَّ بهم واستعبدهم، وهذا معنى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ دون روحك؛ لتكون لِمَن يأتي بعدك إلى يوم الساعة علامة وعبرة وعظة؛ حتى تزول الشبهة عند مَن ظن أن فرعون لا يموت، أو أن فيه شيئًا من خصائص الربوبية.

قال قتادة: لما أغرق الله فرعون لم تصدق طائفة من الناس بذلك، فأخرجه الله؛ ليكون عظة وآية[٢].

كان موت فرعون مفاجئًا ولم يكن قد أعد لنفسه قبرًا كقبور الفراعنة التي يُدفنون فيها، وهي بيوت الأهرامات، حيث كانوا يضعون عندهم الطعام واللباس، وتاج المُلك، وأنْفَس الأشياء؛ تمويهًا على الناس، أنهم يتنقلون إلى دار الخلود، ولا يموتون، وكانوا يبنون الأهرامات ويُدفَنون فيها، زعمًا منهم أن الفراعنة حين يموتون يُنقلون إلى دار الخلود.

ويَذكُر التاريخ أنه في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي عُثر على جثة فرعون الذي كان

(١) ولفرعون نظائر في العصر الحديث، فها هو (شارون) رئيس وزراء الكيان الصهيوني الأسبق، جثة بدون روح منذ سنوات، حتى تاريخ كتابة هذه السطور، رجب ١٤٣١هـ ها هو عبرة لمن يعتبر، فاقد الوعي والإدراك، مكبَّلًا بالأجهزة الطبية، يلقى في الدنيا عقوبة مَنْ قتلَهم وعذبهم وألقى بهم في السجون من أبناء فلسطين وغيرهم، وما ربك بظلام للعبيد، وصدقت عليه وعلى أمثاله الآية ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

(٢) عبد الرزاق (١/ ٢٩٧) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٤).

معاصرًا لموسى عليه السلام، عُثر عليه في مدينة الأقصر في صعيد مصر، وتعرفوا عليه وعلى أوصافه المعروفة، فقد كان أحمر قصيرًا كالثور، وهو منفتاح بن رمسيس الثاني، من ملوك الأسرة التاسعة عشرة الفرعونية، وكان ذلك في حدود ١٤٩١ قبل الميلاد، ثم أُتيَ به إلى المتحف المصري بالقاهرة، ولا يزال موجودًا فيها، ولعل هذا تحقيقًا لقول الله سبحانه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ من الطغاة والجبابرة؛ حتى لا يطغوا مثل طغيانك.

ثم دعا الله سبحانه الناس جميعًا إلى التأمل والتدبر والاعتبار بدلائل وحدانية الله تعالى وقدرته، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي: لا يتفكرون ولا يعتبرون في حججنا وآياتنا، والذين لم ينتفعوا بآيات الله، يكون ذلك لعلة فيهم وليس لنقص في آيات الله تعالى، أما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يعتبر ويتعظ ويستدل بها على صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به.

وقد جاء ذِكْر غرق فرعون في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بالتوراة، ولم يتعرض النصارى لصيغة موته.

وقد كان هلاك فرعون وقومه يوم عاشوراء، كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم عاشوراء، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**أنتم أحق بموسى منهم فصوموه**»[1].

هذا: ولما عَبَرَ موسى ببني إسرائيل البحر، وأطلعهم الله على هذه المعجزة الباهرة أمام أعينهم، رأوا قومًا يعبدون أصنامًا، ويعكفون على عبادتها، على هيئة العِجْلِ الذي عبدوه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

إن رواسب الوثنية متمكنة من نفوس بني إسرائيل، حتى هؤلاء الذين أطلعهم الله على عظيم آياته، وهم الصفوة المختارة من هذا الشعب، ولا يزالون في حضرة نبي الله موسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾ [الأعراف].

تَحْرِيمُ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى الْيَهُودِ أَمْرٌ ثَابِتٌ فِي الشرائع الثَّلَاثِ

سار موسى ببني إسرائيل متوجهًا نحو بيت المقدس، بعد أن خرج من مصر وعبر البحر، ثم دعاهم إلى الجهاد، وقتال العمالقة، من الجبارين الذين غزَوْا أرضهم؛ لإخراجهم من فلسطين، فما كان منهم إلا أن جَبُنوا وتخاذلوا، وقالوا ما سجله القرآن عليهم، حيث قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولما تقاعسوا ونكلوا عن القتال، كان هذا إضافة إلى آثارهم السيئة، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وفسقهم؛ فضرب الله عليهم الذلة والمسْكَنة، وكتب الله عليهم **أمرين**:

الأمر الأول: أن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين عامًا ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] هذه الأربعون سَنَة هي مدة التيه.

والأمر الآخر: أن تُحرَّم عليهم أرض فلسطين كلها تحريمًا مؤبدًا ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦]

وأنت تقرأ القرآن، قف على جملة ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ثم ابدأ ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن هذه المدة هي مدة التيه، أما تحريم دخول الأرض المقدسة عليهم فهو تحريم أبديّ، فقف على ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ وقف بيان يوضح المعنى، وعلامة وقف التعانق في الآية اجتهاد من واضعي علامات الوقف في المصحف، وتتغير هذه العلامات تبعًا لما تراه اللجنة.

وقد كتب الله على اليهود أن يتشردوا في الأرض كلها، وأن لا يكون لهم وطن معيَّن يعيشون فيه، كما أخبر بذلك أخوهم يوسف عليه السلام حين قال لهم لمَّا اجتمعوا به في مصر: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]

والبدو: هم الرُّحَّل الذين لا وطن لهم، ويَحِلُّون في أي مكان بصفة مؤقتة.

وفي سنة خمسة وثمانين بعد التسع مئة والألف من الميلاد، نُشرت وثيقة يهودية في إحدى ولايات أمريكا تخاطب اليهود المؤمنين بالتوراة، وتنص على أن التوراة واليهودية قد حرَّما أرض فلسطين على اليهود، وكتب الله عليهم أن يكونوا مطْرُودين مشرَّدين في البلاد؛ عقوبة لهم على تخاذلهم عن قتال الجبارين حتى يأتي المسيح الذي ينتظره اليهود.

والمسيح المنتظر عند اليهود: هو المسيح الدجال، الأعور، الكذاب، وهو يهودي، يظهر قرب قيام الساعة؛ فيجمعهم من شتى بقاع الأرض، ويأتي بهم دون أن يتكلفوا

عناءً، ولا جَهْدًا، ولا قتالًا.

في عام (١٤٢١هـ) عُقد مؤتمر عالمي في طوكيو، فيه خمس مئة عالم من كبار علماء العالم في الشرائع المختلفة، تحت اسم: ندوة المؤتمر العالمي للسلام والأديان، ونوقش فيه ما جاء في هذه الوثيقة، وناقشهم علماء المسلمين، وانقطعت الحُجة لليهود والحاضرين، وكان منهم عشرة من النواب الإسرائيليين، وثمانية من الحاخامات في الكنيست الإسرائيلي، وأقاموا عليهم الحُجة، بأن اليهودية والتوراة لا تعترف لبني إسرائيل بموطن قبل ظهور المسيح.

ولعل هذا ما يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد موسى ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: الأرض كلها؛ لأن (أل) للاستغراق، أو الجنس؛ أي: اسكنوا في أي مكان منها، مشردين مشتتين فيها جميعًا، وليست أرضًا معينة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وهذا من أمارات الساعة؛ أي: عند ظهور علامات الساعة الكبرى، حيث يخرج الدجال ويؤتى بهم مجتمعين، ويجمعهم الله في مكان واحد؛ كي يقاتلهم المسلمون، ويُنطق الله الحَجَر فيقول: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله، وعلى هذا فإن تجمع عدد كبير من اليهود في فلسطين في الوقت الحاضر، بداية النهاية لهم إن شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨].

عُرُوبَةُ فِلَسْطِينَ وَثَائِقِيًا:

إن أرض فلسطين أرض عربية منذ قدم التاريخ، وقد عُرف تاريخيًّا أن العرب هم أول مَن سكن فلسطين منذ ستة آلاف عام؛ أي: قبل أن يأتي إبراهيم من جنوب العراق، ويهاجر إلى فلسطين، ويعبُر نهر الفرات هو ومَن معه، ولذلك يقال: لهم (عبرانيين)؛ لأنهم عبروا نهر الفرات.

فالعرب الذين كانوا في فلسطين كان اسمهم قديمًا (اليُوبِيسيُّون)، وهذا اسم قبيلة من قبائل العرب، ثم سكنها بعدهم الكنعانيون من قبائل العرب أيضًا، وكان ذلك في الألف الثالثة قبل الميلاد، وكانت تسمى أرض كنعان.

وقبل المسيح بمئات السنين (أي: في عهد الغزو الروماني) سَكَنَها قبائل فلسطين.

وقد سماها أحد أباطرة الآشور بلسطين، واندمج أهل بلسطين مع الكنعانيين الموجودين فيها، وعُرِّب الاسم؛ فصار فلسطين، وكان هذا قبل ستة آلاف عام، حيث سكنها العرب خلال هذه المدة، وحكَمُوها نحو أربعة آلاف سنة ونصف، وقد حكمها اليهود نحو أربع مئة سنة على فترات متقطعة، وأطول مدة متواصلة لحكمهم فيها كانت سبعين عامًا في عهد داود وسليمان عليهما السلام، والمدة الباقية كانت للغزاة من الآشوريين والبابليين والرومانيين واليونانيين الذين غزو هذه البلاد.

وقد فُتحت فلسطين لمَّا دخلها بنو إسرائيل بعد موسى ﷺ على يد نبي الله يوشع، فبعدما مات موسى وهارون في التيه؛ دخل بهم يوشع الأرض المقدسة، ثم أخذها منهم بختنصَّر أحد ملوك بابل في العراق، ثم عادت إليهم، ثم أخذها منهم ملوك اليونان، وظلت في أيديهم بعض الوقت حتى جاء عيسى ﷺ.

وبعد ثلاث مئة سنة من مجيء عيسى، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في النصرانية؛ فبنى الكنائس والمعابد، وبنى القسطنطينية، وبيت لحم، وانتشرت النصرانية على يديْه، وبُدِّلت وغُيِّرت.

وصارت فلسطين في أيدي النصارى حتى فتحها عمر بن الخطاب فتحًا إسلاميًّا، ولم يكن بها يهودي عندما فتحها عمر، بل كانوا كلهم نصارى، ولما كتب عمر لهم العهد والأمان، كتب لهم أن لا يدخلها يهودي، ولا يقيم معهم يهودي، وبقي الأمر على ذلك من الفتح الإسلامي إلى أن أخذ اليهود الصهاينة يفكرون في إيجاد وطن لهم يجمعهم من شتات الأرض؛فاقترحوا عليهم بعض الأماكن في العالم؛ لغزوها والإقامة فيها،واستقر الرأي مؤخرًا على اختيار فلسطين؛ أرض الميعاد، لأهمية موقعها الجغرافي، وصدر وعد بلفور ١٩١٧م الداعي إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

وتم الإعلان عن قيام هذا الكيان اليهودي على ٧٨% من أرض فلسطين ١٩٤٨م وجاءت حرب ١٩٦٧م؛ فاستولوا على بقية فلسطين، وبدأت الحفريات والأنفاق تحت وحول المسجد الأقصى؛ لبناء هيكل سليمان المزعوم، رغم عدم وجود أية آثار له في هذا المكان.

وأطلقوا على حائط البراق الذي ربط فيه جبريل براق النبي ﷺ ليلة المعراج حائط المبكى، ودَنَّست أقدامهم المسجد الأقصى، وأصبح كبار السن فحسب من المسلمين هم الذين يؤدون الصلاة فيه، تحت وطأة السلاح والمدافع وسنابك الخيل!!

وكان اسم أورساليم معروفًا عند اليوبيسيون، ثم صارت أورشليم؛ أي: مدينة السلام.

ولما فتحها المسلمون كان اسمها إيليا، وهو اسم معبد وثني، ثم عُرفت بعد الفتح الإسلامي ببيت المقدس.

والدساتير أو القوانين الدولية تفيد أن أي أرض أو أي مِلك يكون لمن يملكه مؤخرًا، فهو الذي يملك الصك الأخير، وعلى مَن يسكنون هذه الأرض أن يدينوا بالشريعة الأخيرة الناسخة لِمَا قبلها.

فهي كلمة الله الأخيرة في الأرض، والذي يملك الأرض مؤخرًا هو الإسلام، وشريعة محمد ﷺ هي الشريعة الأخيرة إلى يوم الساعة، فهي التي تملك جميع البلاد التي فتحها الإسلام فتحًا إسلاميًا، ومنها فلسطين والمسجد الأقصى، وجميع الرسل سلَّموا الراية في بيت المقدس إلى خاتم المرسلين بصلاتهم خلف الرسول محمد ﷺ.

وإذا تمسك اليهود بأن يعقوب (إسرائيل) قد أقام فيها فترات متقطعة من الوقت، فإن جَـدَّهُ إبراهيم عليه السلام قد هاجر من العراق إلى فلسطين، وإذا قسَّمنا التركة بين أبناء إبراهيم، فهل يرثها بعضهم دون بعض؟ فإبراهيم جد العرب، وجد بني إسرائيل، وإسحاق والد يعقوب بن إبراهيم، وأخوه إسماعيل بن إبراهيم.

فإذا قُسِّمت التركة بغض النظر عن الفتح الإسلامي، وعن الرسالة الأخيرة، فهل تكون أرض بيت المقدس لجنس دون جنس، أو لابن دون الآخر؟ هذه قسمة عقلية، والصحيح أنه لا يوجد في يومنا هذا شريعة مقبولة غير الإسلام، ولا سلطان لأحد، ولا لأيِّ شريعة أخرى على أرض الإسلام، ففلسطين أرض عربية تاريخًا وديانةً وفتحًا[1].

حَالُ الْيَهُودِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَعْدَهَا

٩٣- ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وبعد أن ذكرت الآيات السابقة كُفْر فرعون ومصيره الأليم؛ بسبب إفساده في الأرض وتكذيبه لنبي الله موسى، أتبع ذلك ببيان حال الذين صدقوا بموسى عليه السلام واتَّبعوه؛ ليظهر الفرق بين مصير مَنْ آمن ومصير من كفر؛ وليكون هذا ترغيبًا للكفار في الإيمان، وبشارة للمؤمنين بالجنة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ﴾ أي: أنزلناهم وأسكناهم بعد هلاك أعدائهم منزلًا صالحًا طيبًا، والمراد بهم: الذين اجتازوا البحر الأحمر مع موسى عليه السلام، وأنجاهم الله تعالى من الغرق.

والآية تبين أن الله تعالى قد أنزل بني إسرائيل منزلًا حسنًا مرضيًا مباركًا، رُزقوا فيه الْمَنَّ والسلوى، وفُجِّرت فيه عيون المياه، وظلَّلهم الله بالغمام من حرِّ الشمس، وغير ذلك مما حدث لهم في مدة التيه، أربعين سنة في صحراء سيناء، ثم أعطاهم الله ما طلبوا من الأكل من زروع الأرض وثمارها في الأرض المباركة بفلسطين وما حولها ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

وبهذا يمتن الله عليهم بعودتهم إلى الأرض المقدسة في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف].

وكان هذا الإكرام قبل أن يضرب الله عليهم الذل والمسكنة، بعد أن عاثوا في الأرض فسادًا، وقتلوا أنبياء الله، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، وقبل أن يضرب الله عليهم التفرق والتشتت؛ بسبب تقاعسهم عن قتال العمالقة.

فالمعنى: إن الذين خرجوا من البحر أنزلهم الله منزلًا محمودًا صالحًا، هو الأرض المقدسة وهذا المنزل المبارك وَصَفه الله بالصدق، على عادة العرب، أن الشيء إذا كان صالحًا، لَا بُدَّ أن يمدحوه، ويضيفوه إلى الصدق.

ويرى بعض المفسرين أن الله تعالى أنزل بني إسرائيل وأسكنهم في مساكن آل فرعون وأورثهم أرضهم وديارهم ورزقهم من الطيبات، ولعل المعنى الأول هو الأولى، لأن هذه

الآية جاءت بعد اجتياز بني إسرائيل البحر وخروجهم من مصر.

أي: ولما خرج اليهود من مصر، أورثهم الله مثل ما كان تحت أيدي فرعون وقومه، من الزروع والثمار والخيرات، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء].

وفي سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان].

والقوم الآخرون الذين وَرِثوا الأرض تفسره الآية السابقة، وهم بنو إسرائيل الذين أخرجهم الله من مصر مع نبيهم موسى، واجتاز بهم وأنزلهم أرضا مباركة ورزقهم من الخيرات البحر الأحمرمتوجهًا إلى الأرض المقدسة، وفي نفس الوقت أهلك الله فرعون وقومه بالغرق في البحر.

ولما أخرج الله بني إسرائيل من مصر أعطاهم من الجنات والعيون والكنوز وأورثهم من الخيرات مثل ما كان لغيرهم في مصر، وهم فرعون وقومه.

ومعلوم من التاريخ على وجه القطع أن بني إسرائيل لَمَّا فارقوا مصر في عهد موسى عليه السلام لم يرجعوا إليها أبدًا، ومعلوم أيضًا أن بني إسرائيل قد خرجوا من مصر مع موسى عن بكرة أبيهم، ولم يبقَ منهم بقيةٌ فيها، حتى يرثوا ديار فرعون وقومه ومساكنهم بأعيانها، فلَا بُدَّ من حَمْلِ آية الشعراء وآية الدخان على هذا المعنى.

وقد ظل بنو إسرائيل يشكرون النعمة ويتَّبعون وصايا الأنبياء، إلى أن جاء عيسى عليه السلام؛ فكفروا به، ثم جاء محمد ﷺ؛ فكفروا به أيضًا.

وعلى هذا، فإن الذين بوأهم الله مبوأ صدق اختلفوا بعد بعثة محمد ﷺ، وقد كانوا يؤمنون به قبل بعثته، وهذا معنى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

أو أنهم اختلفوا بعد مجئ التوارة فمنهم من آمن بصفة محمد فيها ومنهم من كفر.

وهنا ينتقل القرآن الكريم من بني إسرائيل الذين عبروا البحر مع موسى إلى بني إسرائيل الموجودين في عصر النبي ﷺ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم اليهود الذين كانوا في زمن النبي محمدٍ ﷺ حيث كانوا قبل مبعثه مقرِّين بنبي يأتي، فلما جاءهم العلم -وهو القرآن- اختلفوا في تصديق محمد ﷺ.

قال ابن عباس: هم قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع.

وهذا توبيخ لهم على جحودهم ونكرانهم، فقد كانوا قبل مبعث النبي ﷺ متفقين على أن يكونوا أول مَن سيؤمن به حين يأتي ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البينة].

والبيِّنة: هي محمد ﷺ، واختلافهم أو تفرقهم هو بعد بعثته ﷺ؛ بأن كان منهم مؤمن به؛ كعبد الله بن سلام وغيره، ومنهم كافر به بغيًا وحسدًا، وكانوا قبل مبعثه ﷺ مقرين به، مجمعين عليه، كما وصفته التوراة، وهذا العلم الذي جاءهم به كان أمرًا معلومًا لديهم عِلْم اليقين، فقد كان اليهود ينْعَتُونه ﷺ للمشركين الوثنيين، ويفتخرون عليهم بقرب مجيئه، فلما بُعث ﷺ اختلفوا فيه؛ فآمن به قلة منهم، وكَفَرَ به أغلبهم.

وإذا كان يوم القيامة فإن الله تعالى سيفْصِل بين الجميع، ويبين لهم حقيقة نبوة محمد ﷺ في الدنيا، ويجازي الكافر بكفره؛ فيدخله النار، ويجازي المؤمن بإيمانه؛ فيدخله الجنة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه مِن أمر الدين.

والآيات الدالة على ثبوت وصف النبي ﷺ لدى أهل الكتاب كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وكذا نصوص التوراة والإنجيل.

وقد اختلف اليهود والنصارى في هذا وغيره على أكثر من سبعين فرقة، بأسهم بينهم شديد.

سُؤَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنِ الْوَحْيِ كَسُؤَالِ النَّائِبِ الْعَامِّ لِلْمُتَّهَمِينَ

٩٤- ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ[1] ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة همزة (فاسأل) إلى الساكن قبلها ومثله حمزة عند الوقف، والباقون بعدم النقل.

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

ليس المراد من هذه الآية، حقيقة سؤال أهل الكتاب عن صدق ما جاء به محمد ﷺ، وإنما المراد تأكيد ما بعد السؤال، وهو القطع بصحة ما جاء به النبي ﷺ، ولهذا المعنى نظائر متعددة في القرآن، منها قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ الزخرف] إذ ليس المراد أن يسأل النبي ﷺ من مات قبله من الرسل عن وحدانية الله تعالى، وإنما المراد تأكيد ما بعد السؤال، وهو إثبات الوحدانية لله تعالى، وهذا هو المعنى الذي لا معدل عنه للآية.

فإن ما ذكره القرآن الكريم في هذه السورة عن نبي الله نوح، ونبيه موسى عليهما السلام، مذكور في كتب الأولين عند أهل الكتاب في التوراة وغيرها، فهم يشهدون به.

والله تعالى يقول لرسوله:((فإن كنت في شك من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن تبعث رسولا ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي:التوراة من قبلك فقد جاءك الحق اليقين من ربك بأنك رسول الله، وأن اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك في كتبهم، فلا تكن في شك من ذلك أبدا))[1] والمراد بالسؤال: التقرير والإشهاد على ما جاء به القرآن، وقد أنزل الله القرآن على رسوله، وجاء صدقه في التواراة والإنجيل، وفيهما علامات صدق نبوة محمد ﷺ.

والمعنى: اسأل أهل الكتاب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيُقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم، والمقصود بأهل الكتاب في الآية: الذين دخلوا في الإسلام منهم، ممن لا يكتمون الشهادة، ولا يكتمون صفة محمد ﷺ في التوراة، وشهادتهم مبنية على العدالة والصدق، والشهادة إذا أضيفت إلى طائفة من الناس فإنها تعني الشهود العدول الصادقين منهم، ولا عبرة بغيرهم، ومن هؤلاء الصادقين عبد الله بن سلام وأصحابه، ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وفمنهم من أسلم في عهد الخلفاء مثل كعب الأحبار وغيره، وشهادة هؤلاء مبنية على ما جاء في التوراة مما يوافق القرآن ويصدقه، وقد أسلم من أهل الكتاب كثير في مصر والشام والعراق وغيرها، ممن يوصفون بالعدالة

---

(١) تفسير المدينة المنورة ١/٥٧٥ بتصرف.

والصدق، فهم الذين إذا سئلوا أجابوا جوابًا صحيحًا، وقد أمر النبي ﷺ أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانًا على صدقه وأعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، أما غيرهم ممن ينكر رسالة النبي ﷺ أو يؤمن بدعوة محرَّفة قد دخلها الشرك والتحريف، فكيف يُسْألون؟ وهل يُتصوَّر أن يُسأل المثلِّث عن التوحيد؟ أو يُسأل المجسِّد عن التنزيه؟ أو يُسأل منكر البعث والنشور عن الثواب والعقاب؟ اللهم إلا أن يكون هذا السؤال كسؤال النائب العام للمتَّهمين، أو سؤال المتثبِّت للشاك المرتاب.

وعقيدة الإسلام لا يُثار حولها تساؤل، ولا شك ولا ارتياب، فهي الحق من عند الله، لا يلحقها النقص البشري كما يزعم الجاهلون.

وكثيرًا ما يُوجَّهُ الخطاب للنبي ﷺ في القرآن ويراد به الأمة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]

وفائدة توجيه الخطاب للنبي ﷺ أنه إذا كان رسول الله ﷺ عليه أن يحذر من هذا الشك، فغيره من سائر الناس من باب أَوْلَى.

والمراد: أن كل من يشك في هذا القرآن أو يعارضه فعليه أن يسأل مَن أنزل الله عليهم كتبًا فيها أوصاف النبي ﷺ، ممن آمن بمحمد ﷺ.

والمقصود: إقامة الحُجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ قطعًا لعذرهم، فهو مكتوب لديهم، وهذا الارتياب مستبعد بالنسبة للنبي ﷺ.

ولذا: فقد قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «**لا أشك ولا أسأل**»[(١)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل[(٢)].

فالمراد بهذا الشك أحد أمور **ثلاثة**:

---

(١) حديث مرسل، أخرجه ابن جرير (١١/ ١١٦) وعبد الرزاق في تفسيره (١٥/ ٢٠٢)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٣) وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير.

(٢) ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٦) والضياء المقدسي في «المختارة» (٩١).

أولها: شك اليهود المعاصرين للنبي ﷺ في نبوته.

وثانيها: التعريض بالمشركين وهم يشكون في رسالته ﷺ كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وثالثها: أن يكون المراد به التهيج والإلهاب لكل مَن تساوره نفسه بالشك في رسالته ﷺ؛ لقطع أطماع المشركين في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

فالخطاب للرسول ﷺ وأريد به الأمة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤].

ويوجه الخطاب إلى النبي ﷺ؛ لأنه رمز الأمة، والمراد بالذين يقرؤون الكتاب: هم المحققون الموثوق بأخبارهم من الذين لم يحرفوا ولم يبدلوا، كالذين دخلوا في الإسلام منهم.

والإسلام لا يرتاب فيه أحد، فقد جاء بالتوحيد الخالص والعبادة الحقة، والدِّين الذي لا لَبس فيه ولا غموض ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي لاشك فيه بوجه من الوجوه، بأنك رسول الله، وأن ما جئت به حق، وأن اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: لا تكونن - أيها المسلم - من الشاكين في صحة ذلك وحقيقته. ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فعيسى عليه السلام لم يقل ذلك يقينًا.

فإن كنتم شاكين في صدق ما أنزلنا على محمد مما أصاب المكذبين قبلكم؛ فاسألوا من أسلم من أهل الكتاب يخبروكم بأن ذلك صدق، لقد جاءكم الحق من رب محمد ﷺ فلا تكونوا شاكين فيه.

والمعنى على نسق الآية بصيغة المفرد: فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلنا إليك، فأشْهِدْ أهل الكتاب الصادقين، الذين لا يكتمون العلم، ولا يتحرجون من إعلان الشهادة، فإنهم سيخبرونك بمثل ما أخبرتهم به، بأنك رسول الله ، والمقصود بذلك التعريض بالمشركين، وإقامة الحجة على أهل الكتاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا

تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: ١٠٩]. قال تعالى:

٩٥- ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

ولا تكذِّبوا - أيها الناس - بآيات الله؛ فتكونوا خاسرين هالكين، وفي هذا إيماء وتعريض بأن الشاك المكذب برسول الله ﷺ وما أنزل عليه لعموم الإنس والجن، قد خسر دنياه وأخراه، وفيه توبيخ لمن أصر على الكفر وجحد الحق.

وفي الآية إيحاء بأن مَن لم يستيقن بشيء من أحكام الشرع، فعليه أن يسأل أهل الذكر؛ حتى لا يبقى الشك لدى المؤمن ويحل اليقين محله.

وقد نهى الله تعالى في هاتين الآيتين عن الشك في القرآن والامتراء فيه والتكذيب به، ورتب على ذلك الخسران حصول العقاب في الدنيا والآخرة، وفي النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا يستلزم اليقين التام، وطمأنينة القلب، والإقبال على القرآن علمًا وعملًا.

أَهْلُ الشَّقَاءِ لَا مَطْمَعَ فِي إِيمَانِهِمْ

٩٦، ٩٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ[1] رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

هذه الآية فيها تحذير وإعلام بسوء مصير الشاكين في صدق النبي ﷺ، وهم قوم لا تجدي فيهم الحجة؛ لأنهم أهل مكابرة، غير طالبين للحق، وعقولهم غير قابلة لحقائق الإيمان، وقد علم الله في الأزل أنهم لا يؤمنون؛ فحقت عليهم - وعلى أمثالهم من أهل الكفر والضلال - كلمة الله بعدم الإيمان، ووجب لهم سخط الله تعالى، وصاروا من أهل جهنم -والعياذ بالله- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بطردهم من رحمته وعذابه لهم في الآخرة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بحجج الله وبراهينه، فهم لا يقرُّون بوحدانيته

(١) (كَلِمَةُ رَبِّكَ) ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر قرءوا بالإفراد، والمراد بها الجنس، والباقون بالجمع (كَلِماتُ ربك)؛ لأن كلمات الله تعالى متنوعة أمرًا ونهيًا إلخ.، وهذه الكلمة مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة، فمن قرأها بالجمع وقف عليها بالتاء، ومن قرأها بالإفراد، منهم من وقف عليها بالتاء وهم: عاصم وحمزة وخلف العاشر، ومنهم من وقف بالهاء وهم: ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، وأمالها عند الوقف عليها الكسائي.

تعالى، ولا يعملون بشرعه، وهم ولابد صائرون إلى ماقضاه الله وقدّره عليهم وفق ما علمه منهم في الأزل أنهم أهل ضلال وشقاء، فهم الذين ظلموا أنفسهم بردّهم الحق، فعاقبهم الله بأنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدهم الله به، وعندئذ يعلمون علم اليقين أن ما جئتهم به حق، ولكن ذلك لا ينفع، فقد مضى وقت العمل وجاء وقت الحساب والجزاء!!.

والسبب في هذا أنهم لم يأخذوا بأسباب الهدى، وعطّلوا حواسهم ومداركهم؛ فَلَمْ ينتفعوا بها، فكانت نهايتهم الضلال، وفي هذا نهي عن الشك والافتراء في شأن الحق بأبلغ أسلوب وأقوى بيان.

وهذه الآية في شأن مَن لم تُجدِ فيهم المواعظ والحجج من أهل المكابرة والجحود، فإن أهل الضلال مهما استمعوا من مواعظ وحكم، ومهما رأَوْا من معجزات أو آيات بينات، فإنهم لن يهتدوا؛ لأن كل من لم يفتح بصره لا يرى النور، وهؤلاء قلّدوا غيرهم، وأهملوا عقولهم، فلو أنهم اتعظوا بكل موعظة، ورأوا كل عبرة فإنهم لن يؤمنوا.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ من جميع المعجزات والدلائل والعظات والحجج الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق محمد ﷺ في رسالته؛ لعموم الخلْق، فإنهم لن يؤمنوا إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمان، كما حدث من فرعون وأمثاله عند معاينة العذاب، وفي هذا حث على المبادرة إلى الإيمان، وفرار من سخط الله تعالى حتى لا يكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] فهم لن يؤمنوا ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

والمعنى: أن غير المؤمنين بالله ورسوله حين يرون العذاب نازلًا بهم، فإنهم يؤمنون في هذه الحالة، وهذا حين لا ينفعهم الإيمان؛ لأن العذاب إذا نزل بهم، فهو ابتداء عذابهم وجزائهم على كفرهم، وليس هناك عفو بعد الشروع في الجزاء.

ثَالِثًا: رَفْعُ الْعَذَابِ عَنْ قَوْمِ يُونُسَ بَعْدَ رُؤْيَتِهِ عِيَانًا

٩٨- ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

هذه الآية في قرية مستثناة من القرى التي حق عليها العذاب؛ لأنها كذبت رسل الله، فرفعه الله عنها بعد معاينته، لأن الله تعالى قد عَلِم أن إيمانهم سيستمر ويثبتون عليه.

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن غير المؤمنين الذين حقت عليهم كلمة العذاب، يخاطب الناس إلى يوم القيامة، ويحذرهم مغبة عدم الإيمان بالله ورسوله.

وحين يتحدث القرآن عن قرية قوم يونس في موقفهم من نبيهم ﷺ، فهو يومئ إلى أهل كل قرية أن يعاملهم الله تعالى معاملةَ قوم يونس في رفع عذابه عنهم في الدنيا، إذا علم الله منهم صدق النية والتوبة.

وهكذا كان حال أهل مكة، لمَّا قَدِم عليهم النبي ﷺ يوم فتح مكة، وأرعب قلوبهم بالنيران التي أُشعلت فوق قمم الجبال المحيطة بمكة، وحين رأوا عدد الجيش عشرة آلاف، ورأوا عدَّته فوق طاقتهم، وأن عذاب الاستئصال سيحل بهم، عندئذٍ عجَّلوا بالإيمان قبل الفتح، وعلى رأسهم سيد أهل مكة، قائد جيش المشركين في غزوة بدر أبو سفيان بن حرب، وبادروا إلى الإيمان بمجرد دخول جيش الفتح مكة، قبل أن يقعوا في قبْضة الأسر؛ فعفا عنهم النبي ﷺ وقال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1]؛ وذلك لأن رسل الله لا يريدون قتالًا، ولا عدوانًا، فإذا حصل الإيمان فهذا هو المقصود، وكفى الله المؤمنين القتال.

دعوة يونس لأهل نينوي:

وهكذا كان قوم يونس، فإن نينوى من أرض الموصل بالعراق، كانت عاصمة للدولة الآشورية قبل ثمانية قرون من ميلاد المسيح ﷺ، وهي إحدى مدن بلاد آشور في العراق، وتقع على الضفة اليسرى من نهر دجلة، بناها الملك آشور سنة ٢٢٢٩ قبل الميلاد، وكانتِ مصطافًا لملوك آشور.

وأهل نينوى خليط من الآشوريين واليهود، الذين كانوا في أَسْر ملوك بابل بعد بختنصَّر.

وكانت بعثة يونس إليهم في أول القرن الثامن قبل ميلاد المسيح ﷺ، وكانوا أهل كفر وشرك، يعبدون صنمًا يقال له: عشتار، وكانوا أهل غنى وثروة، أبطرتهم النعمة؛ فأفسدوا وعصَوْا وبسَطُوا سلطانهم على معظم بلاد آسيا.

(١) قال الألباني في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي) (١/ ٣٢) قلت: هذا الحديث على شهرته ليس له إسناد ثابت، وهو عند ابن هشام معضل، وضعّفه الحافظ العراقي.

أرسل الله تعالى إليهم نبيهم يونس ﷺ؛ فدعاهم إلى توحيد الله ﷻ، وإلى ترك ما هم فيه من ضلال وفساد، واستمر يدعوهم تسعة أعوام كاملة، فلمَّا لم يستجيبوا له توعَّدهم بخسف مدينتهم، قال لهم: إن عذاب الله سبحانه سينزل بكم صباحًا بعد ثلاثة أيام، والقوم لم يُجرِّبوا كذبًا على يونس ﷺ؛ فقال بعضهم لبعض: إذا جاءت هذه الليلة التي توعَّدنا بنزول العذاب فيها، وبقي يونس بيننا، فلم يخرج من القرية، وبات معنا، فمعنى هذا أنه تهديد ووعيد، وليس هناك عذاب حقيقي نازل بهم، أما إذا خرج يونس من بيننا، ولم يبت معنا هذه الليلة، فمعنى هذا أنه صادق، وأن العذاب سينزل بنا.

خروج يونس غضبًا من قومه:

فلما كان جوف الليل، خرج يونس ﷺ من بين أظهرهم غاضبًا منهم؛ لعدم استجابتهم لدعوة الله سبحانه، وسار حتى وصل إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة؛ فاستأذنهم أن يركب معهم فأركبوه، وكان يونس حِمْلًا زائدًا على السفينة، فلما ركب معهم؛ هاج البحر واضطرب وارتفعت الأمواج، فقال ركاب السفينة: إن بيننا عبدًا مذنبًا، أو شخصًا هاربًا من قومه فاقترعوا.

يونس في بطن الحوت: فخرج السهم على يونس ﷺ، ولما همَّ أن يُلقي بنَفْسِه في البحر، قالوا له: انتظر حتى نعيد القرعة مرة ثانية وثالثة؛ فخرج السهم عليه ثلاث مرات؛ فألقى بنفسه في البحر؛ فإذا حوت فاغِرٌ فاه قد التقمه في جوف البحر؛ فأوحى الله تعالى إليه: يا حوت، إنَّا لم نجعل يونس لك غذاءً ولا طعامًا، فلا تُهشِّم عَظْمه، ولا تمس لَحْمه بأذى، وإنما جعلناك له حِرْزًا ومسجدًا ومتعبدًا، يسبح الله في جوفك.

ولما وجد يونس نفسه في بطن الحوت، وهو في ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة جوف الحوت؛ أخذ يَضْرَعُ إلى ربه، ويستغيث به، ويلجأ إليه، ويدعوه بهذا الدعاء:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

والله ﷻ يبيِّن أن المؤمن إذا لجأ إلى ربه، وهو في مثل هذه الحالة من الشِّدة والكرب التي كان فيها يونس (ذو النون) فإن الله تعالى يُغيث لهفته، ويفرج كربه، ويجيب دعاءه، قال جل شأنه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء].

أي: كما أنجينا يونس من هذه الظلمات ننجي جميع المؤمنين.

أوحى الله إلى الحوت أن يُلقي بيونس على ساحل البحر، قيل: وكان ذلك بعد ثلاثة أيام بلياليها، وقيل: بعد أربعين يومًا، قال تعالى: ﴿۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥﴾ [الصافات] أي: مريض وهزيل مما أصابه في بطن الحوت، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهي شجرة القرع؛ لأن ورقها عريض يستتر بها وتظله، ويأكل منها.

وكان الله سبحانه قد أرسل يونس إلى أهل نينوى، ويبلغ تعدادهم مئة وعشرين ألفًا، قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ [الصافات] حيث يصل العدد إلى مئة وعشرين ألفًا، هذا ما كان من شأن يونس.

عذاب قوم يونس لم ينزل بهم:

أما القوم فإنهم لما أصبحوا وجدوا العذاب فوق رؤوسهم؛ فالدخان كثيف، والجو منذر بسوء العاقبة، حيث رأوا بأعينهم الغيم الأسود قد غطَّى أسطح منازلهم، واقترب منهم[(١)]؛ فأخذوا يبحثون عن يونس ﷺ، فلم يجدوه، وعند ذلك تابوا واستكانوا ورجعوا إلى الله سبحانه؛ فجمعوا نساءهم وأطفالهم ودوابَّهم، ولبسوا أخشن الثياب، وبدا عليهم التواضع، وخرجوا إلى الصحراء في صعيد واحد، وأخذوا يَضْرَعُون إلى الله سبحانه بالدعاء والتوبة، ويقولون: آمنا بما جاء به يونس، ورَدُّوا المظالم إلى أهلها؛ فكانت النتيجة أن كشف الله عنهم هذا العذاب، ولم يَنْزِل بهم بعد قُرْبه منهم.

وقوم يونس بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس؛ توقُّعًا لنزول العذاب، قبل أن ينزل بهم.

قيل: إن يونس ﷺ توعَّدهم بحلول العذاب بهم بعد أربعين يومًا؛ فرأوا أمارات العذاب بعد خمسة وثلاثين يومًا في صورة غيم أسود، فلما رأوا ذلك اهتدوا وآمنوا إيمانًا خالصًا؛ فأمسك الله عنهم العذاب.

---

(١) وما ورد بشأن الغيم الأسود، ونزول العذاب بقوم يونس فوق رؤوسهم، لم يرد في آية من كتاب الله، ولا في حديث صحيح، وجاء ذكره عن بعض الصحابة كعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وغيرهم، وقد أخرجه عنهم ابن مردويه، وابن المنذر، وابن جرير، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ.

ولعل الحكمة في نجاة قوم يونس أن الله تعالى علم أن تكذيبهم بيونس لم يكن ناشئًا عن تصميم على الكفر، واستخفافًا بعظمة الله تعالى، ولكنه كان في تصديق يونس ﷺ، ولمَّا تركهم غضَبًا منهم، قدَّر الله إيمانهم، ليعلم يونس أن كمال الإيمان في الصبر والتسليم لله تعالى.

عن قتادة: أن يونس أنذر قومه بالعذاب، ثم خرج من بين أظهرهم، فلَمَّا فقدوا نبيهم، وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المُسُوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم؛ كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلَّى عليهم، ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل[1].

ورجع يونس إليهم واستمر فيهم يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته حتى انتهت آجالهم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ **القرية**: تطلق في القرآن على المدينة العظيمة، يقابلها الصحراء والبادية؛ ولذلك فمكة أم القرى.

أي: فهلَّا كان أهل قرية من القرى التي أرسل الله إليها الرسل من الأمم السابقة آمنت بكاملها إيمانًا يعتد به قبل حلول العذاب بهم، ولم يؤخروه كما أخره فرعون؛ فنفعها إيمانها، إلا قوم يونس فقد كشف الله عنهم العذاب ولم ينزله بهم بعد أن اقترب منهم.

وهذه صيغة تقريع وتوبيخ على تفويت الإيمان؛ أي: هلَّا رجعوا إلى صوابهم ورُشْدِهم، فآمنوا وصدَّقوا.

وفي هذا إشارة إلى أنه لم توجد قرية آمنت كلها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى، سوى قوم يونس.

وما مِنْ رسول إلا كذَّبه قومه أو أكثرهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس]

وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات]

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ١٧١) بسند حسن وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٨).

وقال جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف].

وقد صحَّ في الحديث عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**عُرِضت عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبي ومعه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد**»[1].

ثم ذكر النبي ﷺ كثرة أتباع موسى عليه السلام، ثم ذكر كثرة أتباع أمته كثرة سدَّت الخافقين: الشرقي والغربي.

وقد حذَّر النبي ﷺ من الانتقاص من شأن يونس عليه السلام فقال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»[2].

وقد كانت الفائدة عامة على جميع أهل نينوى؛ فانتفعوا جميعًا بتوبتهم، كما قال تعالى: ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي: أنه لا يوجد قرية بأكملها انتفعت بتوبتها وبإيمانها بعد أن أيقنوا أن العذاب نازل بهم ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بعد أن اقترب منهم، وتركهم في الدنيا يستمتعون إلى وقت إنهاء آجالهم.

ونظير هذا الاستثناء قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٦]

ومعنى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى انقضاء آجالهم.

قال علي بن أبي طالب: إن الحذر لا يرد القدر، وإن الدعاء يرد القدر، وذلك في كتاب الله ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾[3].

ولعل السبب في هذه الخصوصية لقوم يونس عليه السلام: أن الله تعالى عَلِم صدق توبتهم، وإخلاص نيتهم، وأنها ليست كتوبة فرعون؛ لأن توبته كانت بعد مباشرة العذاب له عند حشرجة الروح.

---

(١) من حديث عبد الله بن عباس، البخاري برقم (٥٧٥٢) ومسلم برقم (٢٢٠).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٣٤١٦) ومسلم برقم (٢٣٧٣، ٢٣٧٦).

(٣) ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٧).

أما توبة قوم يونس فقد كانت توبة نصوحًا، وكانت عند رؤية العذاب وقبل مباشرته لهم، كالمريض الذي يخاف الموت؛ فقبلها الله تعالى منهم، وكشف عنهم العذاب قبل نزوله، وكان ذلك في يوم جمعة، يوم عاشوراء، وهل كشف الله عنهم العذاب الأخروي أيضًا؟ الله أعلم، وإطلاق وصف الإيمان عليهم يقتضي ذلك.

الْإِنْسَانُ حُرٌ مُخْتَارٌ مَأْمُورٌ بِالنَّظَرِ وَالْاعْتِبَارِ

٩٩- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ[1] تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

يقول سبحانه معقبًا على إيمان قوم يونس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ لو شاء الله سبحانه لجعل الناس كلهم مُسْتعدِّين بفطرتهم للإيمان فقط، ولكن حكمة الله ﷻ اقتضت أن يخلق الإنسان نوعًا آخر من الخَلْق، متميزًا عن الملائكة وعن البهائم، فقد خلقه الله وفيه استعداد وقابلية للخير والشر، وللإيمان والكفر.

فإن هو اختار طريق الإيمان، فإن ذلك يكون بحريته وباختياره وإرادته، ويستحق عليه نعيم الجنة.

وإن هو اختار طريق الكفر والضلال، فإن ذلك يكون أيضًا بإرادته وحريته واختياره، ويستحق عليه عذاب النار، ولو شاء الله لجعلهم كلهم مؤمنين كالملائكة؛ فيكون هذا تكرارا لنوع من الخَلْق.

والمعنى: ولو شاء ربك لأجبر الناس جميعًا، وقهرهم على الإيمان بك وتصديقك أيها الرسول؛ ولجعل مداركهم متساوية، منساقة إلى الخير وحده؛ فيكونون سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح، بحيث لا يكون لهم إرادة ولا اختيار، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، فلن يؤمن بك -يا محمد- إلا مَن سبقت له السعادة في الأزل.

قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؟ إنه ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] ولا يمكن لأحد أن يشرح قلب أحد للإيمان إلا إذا أراد الله ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]

---

(١) قرأ الأصبهاني عن ورش بتسهيل الهمزة الثانية من (أفأنت) ومثله حمزة عند الوقف.

وقال سبحانه: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وفي الآية تسلية وترويح عن قلب صاحب الدعوة ﷺ.

لقد كان النبي ﷺ حريصًا أشد الحرص على هداية الناس أجمعين؛ فأعلمه الله تعالى أنه ليس في استطاعته ذلك، إنما هم يؤمنون بحريتهم واختيارهم، فليس هذا إليه؛ لأن خلْق الهداية في قلب العبد يرجع إلى الله وحده:

١- إنه سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]

٢- وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]

٣- وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]

٤- وقوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية: ٢١].

٥- وقوله جل شأنه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]

٦- وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دِين واحد.

٧- قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].

أي: ليكون منهم المؤمن ومنهم الكافر، فللجنة أهل، وللنار أهل.

والله أعلم بتوجُّه عباده وميولهم إلى الخير أو الشر، فقدَّر ذلك وأراده، فلا تأسف يا محمد على كُفْرِ مَن لم يؤمن بك، وادع إلى سبيل ربك، ولا تحزن على من لم يؤمن، فإن لله تعالى حكمة فيما يفعله قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

١٠٠- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ(١) ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

والله تعالى هو الفعال لما يريد، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، بعلمه وعدله وحكمته

(١) قرأ شعبة بنون العظمة في (ونجعل) لمناسبة (كشفنا)، وقرأ الباقون بياء الغيب لمناسبة (بإذن الله).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كل نفس آمنت أو كفرت فبإذن الله القدَريّ الشرعيّ؛ أي: بعلمه وإرادته ومشيئته وتوفيقه، فلا يقع في ملك الله إلا ما يريد، ولا يمكن لنفس أن تؤمن على غير علم من الله سبحانه، فالله خالقها ومنشئها ومبدعها ويعلم اختيارها ويعلم ما تصنع.

ثم نفى الله سبحانه العقل والإدراك عن مَن اختار الطريق المقابل للإيمان وهو الرجس والكفر، فالذين آمنوا يزدادون إيمانًا إلى إيمانهم، وغير المؤمنين يزدادون رجسًا إلى رجسهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

وهذا معنى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الهلاك والكفر والضلال والعذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولم يسلكوا طريق الهداية، وهم الذين عطلوا عقولهم وحواسهم ومداركهم، فلم يستعملوها في الخير، ولم يفقهوا عن الله أمره ونهيه.

دَعْوَةُ الْقُرْآنِ إِلَى النَّظَرِ فِي الْكَوْنِ

١٠١- ﴿قُلِ[1] ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ٱلْأَلِيمَ﴾

وبعد أن قسَّم الله تعالى الناس إلى مؤمن وكافر؛ دعاهم إلى النظر في دلائل التوحيد؛ لتحصيل أسباب الإيمان والهداية، فلماذا لا يعقلون ولا يتدبرون ولا يتأملون في هذا الكون؟

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ نظر فكر واعتبار وتأمل في هذا الكون وما فيه من شموس وأقمار وكواكب ونجوم وأفلاك وسحاب وأمطار... إلخ، وانظروا ماذا في الأرض من زروع وثمار وأنهار وبحار وجبال وسهول ووديان وأشجار وحيوانات ودواب، وعُمْران وخراب، كلها مسخرة بأمر الله، دالة على قدرة الله سبحانه، لا رَبَّ غيره ولا معبود سواه.

تأملوا ما في هذا الكون من الكائنات والمخلوقات، فإن هذا النظر وهذا الاعتبار يأخذ بأيديكم إلى الإيمان والتوحيد الصحيح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران]

وقال: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

---

(١) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بكسر اللام وصلًا من (قل انظروا)، والباقون بضمها.

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

فعلى العبد أن ينظر ببصره إلى ما هو أقرب إليه وأيسر، وينظر بعقله وقلبه في الآفاق، ولكن هذا النظر وهذا الفكر لا يجدي ولا ينفع مَن لم يأخذ بأسباب الهداية وطريق النجاة ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ﴾ الكونية والقرآنية ﴿وَالنُّذُرُ﴾ وهم رسل الله ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهم لا ينتفعون لعنادهم وإعراضهم عن دلائل التوحيد ونور الإيمان.

وفي هذا توبيخ لأهل الغفلة والجحود ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِمَا يَنْخَلِعُ لَهُ الْقَلْبُ

١٠٢- ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

هذه الآية تتضمن تهديدًا للكافرين تنخلع له القلوب، فإذا كانت إثابة الله للمؤمنين وعقوبته لغير المؤمنين بالله تعالى وبصاحب الدعوة الأخيرة للناس أجمعين، إذا كان ذلك هو مقتضى عدل الله تعالى وحكمته، فماذا ينتظر غير المؤمنين بالله؟ وماذا ينتظر غير المصدقين برسالة محمد ﷺ أو القائلين إنه مرسل إلى العرب خاصة؟

إنهم لا ينتظرون إلا وقوع العذاب بهم، ويتضح هذا المعنى من الآية، بأنه بعد أن نفت الآية السابقة الانتفاع بالآيات والنذر بالنسبة لمن أصر على الكفر، خاطب الله رسوله كي يسأل الكفار: ماذا ينتظرون؟

فكان الجواب: إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم مثل ما حلَّ بمن قبلهم من العذاب والهلاك، هل ينتظرون إلا أن ينزل بهم عذاب الله، ويحل بهم من العقوبة والجزاء ما نزل بأمثالهم ممن سبقهم، كقوم نوح وعاد وثمود؟ ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؟ من الهلاك والعقاب، وما حدث في هذه الأيام من الوقائع والأحداث الجسام، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أي: وما وقع فيها من خير أو شر، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ عقاب الله لكم، وبلِّغهم ذلك ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ هلاككم ودماركم، وهذا وعيدٌ لهم يتضمن النصر عليهم، فكل منهما ينتظر، ولكن النتيجة مختلفة، فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا للرسل ومن آمن بهم واتّبعهم:

وَعْدُ اللهِ تَعَالَى بِنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَذَابِ الْكَافِرِينَ

١٠٣- ﴿ثُمَّ نُنَجِّى[١] رُسُلَنَا[٢] وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ[٣] ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾

ثم بين سبحانه أن سنته لا تتخلف، وهي تقضي بعذاب المكذبين ونجاة المؤمنين، فإذا وقعت العقوبة والهلاك بالمكذبين؛ فإن الله تعالى ينجي رسله وينجي المؤمنين، وقد عجَّل الله تعالى ببشارة رسله، وبشارة عباده المؤمنين في الدنيا ؛ للحض على الإيمان والاهتداء بهدْي المرسلين ومَن تبعهم بإحسان من المؤمنين.

وبمثل ما تكفل الله به من إنجاء رسله الذين أخْرجوا الناس من الظلمات إلى النور، كذلك ينجي الله المؤمنين الذين صدَّقوا هؤلاء الرسل واهتدوا بهديهم فضلًا منه وكرمًا، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وبحسب ما مع العبد من الإيمان، يحصل له النجاة من المكاره. وهذا من دفع الله عن المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ﴾ الحج: ٣٨] كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ [الأنعام: ٥٤] وكما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخَلْق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش**»[٤].

---

(١) قرأ يعقوب بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم من (ننجي) مضارع أنجى، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم مضارع نجا.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ حفص والكسائي ويعقوب، بتخفيف النون من (ننج) مضارع أنجى، والباقون بتشديدها، مضارع نجى، وإذا وقف يعقوب عليها وقف بالياء (ننجي) كما في المصحف البصري ويقف غيره بإسكان الجيم تبعًا لرسم المصحف.

(٤) البخاري (٧٥٥٤، ٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١) والمسند (٩١٥٩) حديث صحيح و (٧٥٠٠،٨١٢٧).

الرَّسُولُ ﷺ يَبْرَأُ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ

١٠٤- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

وهذه الآية خطابٌ للناس جميعًا إلى يوم القيامة، يدخل تحتها كل مَن شك في الدين الذي جاء به محمد ﷺ بعد الأمر بإعمال الفكر والنظر؛ للاستدلال على وحدانية الخالق، وصدق خاتم الرسل ﷺ.

والآيات الأخيرة من سورة يونس تحمل الخطوط الرئيسة والعريضة في السورة كلها؛ فهي تبين أن الله تعالى يرسل الرسل؛ لإثبات التوحيد وإبطال الشرك، فتأمره ﷺ أن يقول للناس إلى يوم القيامة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي: مما أنا عليه من الحق والهدى، فأنا لست في شك منه، بل لديّ العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما أنتم عليه من عبادة غير الله تعالى هو الباطل، فهذا اليقين لا يجعلني أتحول عن عبادة الله سبحانه إلى عبادتكم، ولا إلى مجاراة أهوائكم، وسأظل ثابتًا على توحيد الله، ولن أعبد الذين تعبدونهم من دون الله، كالأصنام وغيرها، وأنا على يقين من فساد عقيدتكم ومعبوداتكم، فإنها لا تضر ولا تنفع، والنفع والضر بيد الله وحده، وهي لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئا من الأمور، بل هي مخلوقة مسخرة.

ثم صرح النبي ﷺ بمن يعبده، وخص من أوصافه سبحانه أنه يتوفى الناس؛ تذكيرًا لهم بالموت، فقال: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ وبيده آجالكم وأرزاقكم، ولم يدَّعِ أحد من المشركين أنه يحيي ويميت، فالموت والحياة والثواب والعقاب من خصائص الله وحده، وهو الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم للحساب والجزاء.

وقد عبَّر الله تعالى في هذه الآية عن الأصنام باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهو لجمع العقلاء؛ مجاراة للمشركين فيما يعتقدونه عنها، من العقل والتدبير.

وقد بدأت الآية بذكر العبادة، وهي من أعمال الجوارح، وخُتمت بذكر الإيمان، وهو من أعمال القلوب؛ للجمع بينهما، وبكليهما أَمَرَ الله رسوله وعباده المؤمنين. قال تعالى:

١٠٥- ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾

ثم أمر الله نبيه بالاستقامة على الدين، والثبات عليه، وعدم التحول عنه بحال من الأحوال، وإخلاص الأعمال الظاهرة والباطنة له سبحانه، وإقامة جميع شرائع الدين مقبلًا بها على الله معرضا عن الشرك وأهله، فبيَّن ﷺ أنه مأمور بذلك في قوله: وأُمرت أن أقيم وجهي وأن أخلص التوحيد لله، وأن أتبرأ من جميع أنواع الشرك، وأن أكون على ملة إبراهيم، وهذا معنى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وإقامة الوجه للدين معناها: توجه النفس بالكلية إلى عبادة الله تعالى والإعراض عمن سواه.

فالمراد: أخلص العقيدة لله سبحانه، ومحِّض وجهك له، ولا تجعل لغيره شريكًا في توجُّهك، فاستقم على الدين واثبُت عليه، وتوجَّه بكلِّيتك إلى عبادة الله وحده، وأعرض عما سواه، ولا تلتفت عنه يمينًا ولا شمالًا؛ فإن الالتفات يُبطل المقابلة.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا تأكيد لإخلاص العبادة لله، وأنه لا ينبغي لغير المسلم أن يشك في الإسلام، ولكن ينبغي له أن يشك في عبادة ما لا ينفع ولا يضر. قال تعالى:

١٠٦- ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾

وقد أمرني ربي سبحانه أن لا أدعو معه غيره في قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ في أي وقت من الأوقات ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إذا دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إذا تركت دعاءه؛ من الشركاء والشفعاء والأوثان والأصنام؛ فإنها لا تنفع ولا تضر، وهذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، والعاقل لا يدعو ما لا فائدة من دعائه.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ ما نهيتُك عنه، وعبدتَ غير الله، ودعوت ما لا ينفعك ولا يضرك، فأنت غير معذور، وأنت بذلك تكون قد ظلمت نفسك بالشرك والكفر، ودعوتَ غير الله، وأنت إذًا من الظالمين لنفسك ولغيرك.

والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]

وإذا كان الرسول ﷺ لو دعا غير الله تعالى لكان من الظالمين، فكيف بغيره؟

الْحَوْلُ وَالطَّولُ بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ

١٠٧- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

هذه الآية لبيان أن الحول والطول بيد الله وحده، وذلك أنه لَمَّا ذكر ﷺ أن الأوثان لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، بيَّن جل شأنه أنه وحده هو النافع الضار، المعطي المانع، القادر على كل شيء، فليس في استطاعة مخلوق أن يصرف الضر عمن نزل به، وليس في استطاعته كذلك أن يمنع خيرًا أراده الله تعالى لأحد من خَلْقه.

أي: إن يصبك الله بشدة أو بلاء أو كرب؛ فلا قدرة لأحد على كشف هذا الضر إلا الله، وإن أرادك برخاء ونعمة؛ فليس بمقدور أحد أن يمنعه عنك، لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بما كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.

والمسُّ أعم من اللمس، **وحقيقة المس**: وضْع اليد على الجسم لاختبار مَلْمسه.

والضر: اسم للألم والحزن، وما يفضي إليهما، وهو اسم جامع لكل ما يكرهه الإنسان في ماله أو بدنه أو ولده.

والخير: اسم لكل ما فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام].

وقد عبر هنا في جانب الخير بالإرادة، وعبر هناك بالمس؛ لأن آية سورة الأنعام في سياق بيان قدرة الله تعالى وتنزيهه عن المُعارض والمُعاند.

والتعبير بالإرادة للمبالغة في سلب المقدرة عمن يريد معارضة مراد الله تعالى كائنًا من كان، فلا يستطيع المخلوق التعرض لله تعالى في خيره، ولو بمجرد الإرادة قبل حصول الفعل، ودفع الخير أسهل من رفعه.

يوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ

هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

عن عامر بن عبد قيس قال: **ثلاث آيات في** كتاب الله، اكتفيتُ بهن عن جميع الخلائق:

أَوَّلهن: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

والثانية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]

والثالثة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وفي معنى هذه الآية أيضًا قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر].

ثم امتن الله على عباده بما يجلبه لهم من خير، وما يدفعه عنهم من ضر، وحثّهم على التعرض لمرضاته؛ فقال تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بالسراء والضراء ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب من تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به وأطاعه وأناب.

ولولا غفران الله تعالى لما كانوا أهلًا لإصابة الخير؛ لأنهم مع تفاوتهم في الكمال، لا يخلو حالهم من التقصير، كما أشار ﷺ إلى ذلك في قوله ﷺ: «**إنه ليغانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة**»[1].

ولولا تجاوز الله سبحانه عن كثير من سيئات خَلْقه لمسَّهم الضر الشديد في الدنيا والآخرة، ولكنه لا يؤاخذهم إلا بما لا يرضَى عنه بحال، وهو الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وإذا علم العبد بالدليل القاطع أن الله تعالى هو المنفرد بالنعم وكشف النقم، وإعطاء الحسنات وكشف السيئات، وأن أحدا من الخلق لا يستطيع ذلك، جزم بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

كَلِمَةُ الْفَصْلِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ

١٠٨- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

ثم تأتي في نهاية السورة آيتان: آية فيها الإعلان الأخير والكلمة الفاصلة، الموجهة للخلق أجمعين إلى يوم القيامة، وآية أخرى موجهة إلى رسول الله ﷺ.

الآية الأولى: فيها الإنذار الأخير في السورة، والكلمة الفاصلة فيها، والإعلان النهائي للخلق أجمعين؛ وهو أن يختار كل امرئ لنفسه ما يشاء، إما الهدى وإما الضلال، فهذه كلمة جامعة، وموادعة قاطعة، وهي جديرة بالتلقِّي عن الله تعالى وتبليغ مراده تعالى إلى خَلْقه.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم أودعه الله هذا القرآن، وأودعه الشرع الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ، وأنتم بالخيار أمام هذا الحق، ولكم حرية الاختيار، فمَن اختار الهدى والرشاد؛ فإن ثمرة هُداه تعود عليه، ومَن اختار طريق الضلال وأصرَّ عليه وسلك طريقه؛ فضرره راجع إليه.

والخطاب في صدر الآية لجميع الناس، المؤمن والكافر، ولكن الكافر هو المقصود، وذكر المهتدين معهم تشريفًا لهم، وقد حُصر الأمر في الهداية والضلال؛ قطعًا للطريق على مَن كانوا يقترحون الآيات على النبي ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء].

وبعضهم كان يعاند النبي ﷺ بالبقاء على الكفر، فكان الحصر والقصر في الآية لبيان أن الطريقين -وهما الهدى والضلال- لا ثالث لهما، والنبي ﷺ مبلِّغ عن ربه، وليس مأمورًا بغير التبليغ والنصح، ولا مصلحة له في اهتدائكم أو ضلالكم، والحاصل من الهدى أو الضلال عائد عليكم، والأمر بأيديكم، فاختاروا لأنفسكم ما تريدون، الجنة أو النار.

مُطَابَقَةُ خِتَامُ السُّورَةِ لِبِدَايَتِهَا

١٠٩- ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

ثم تأتي الآية الأخيرة من السورة، وهي موجهة إلى النبي ﷺ مطابقة لأول آية فيها،

وهي تأمر النبي ﷺ باتباع ما يُوحى إليه من ربه، وتتكلم هذه الآية عن الوحي الذي تحدثتْ عنه في أول آية، فالختام كالبداية.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من ربك في جميع شؤونك وأحوالك ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على عناد المكذبين وعلى كل مَن خالفك، واصبر على تبليغ الدعوة، وعلى تحمل الأذى، والأمر بالصبر يُشعر بأن صاحب الدعوة معتدى عليه دائمًا، فاستمر على ذلك ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ ويقضي بينك وبين أعدائك ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وحكمه يشتمل على العدل التام.

وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى ناصر رسوله وعباده المؤمنين على المكذبين المعاندين، وأنه سبحانه مظهر هذا الدين على جميع الأديان، ومُعْلٍ كلمته، وإن كره الكافرون والمشركون.

وقد بيَّن الله سبحانه ما حكم به مِنْ نصْر دينه وإظهاره على كل دِينٍ، وجاء ذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الصف: ٩، التوبة: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر]

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد].

تم تفسير (**سورة يونس**) ولله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ (١١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب المصحف، والثانية والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف، وهي في المصحف الكوفي مئة وثلاث وعشرون آية[١]، وهي ألف وست مئة كلمة، وتسعة آلاف وخمس مئة وسبعة وستون حرفًا.

وسميت سورة هود؛ لتكرار لفظ هود فيها خمس مرات.

وهي سورة مكية، واستثنى ابن عطية ثلاث آيات ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [١٢] و﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [١٧] فقد نزلت في عبد الله بن سلام، و﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [١١٤] نزلت في أبي البسر[٢].

والصحيح أن السورة كلها مكية، نزلت بعد رحلة الإسراء والمعراج تسليةً للنبي ﷺ في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة التي لقي فيها النبي ﷺ ألوانًا من الأذى والاضطهاد.

وذلك أنه بعد بدء الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة بأكثر من عشرة سنوات، ماتت أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها، ومات أبو طالب عمُّ النبي ﷺ، وكان لهما منزلة في نفوس المشركين، يُمنع بسببها الأذى عن رسول الله ﷺ، وسُمي هذا العام بعام الحزن، وامتدت أيدي المشركين بالأذى للنبي ﷺ بعد موتهما، وتعثَّرت الدعوة، حتى نَثَرَ بعضهم التراب على رأسه الشريفة، ودخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته وأخذت تنفضه عنه وهي تبكي، فيقول لها: «**لا تبْكِ فإن الله مانع أباك**»[٣].

وكان ذلك قبل أن يفتح الله على رسوله ببيعة العقبة الأولى والثانية، وقبل أن تبدأ ملامح

---

(١) ومئة وإحدى وعشرون آية في العدد المكي والبصري والمدني الأخير، ومئة واثنتان وعشرون آية في المدني الأول والشامي.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/١٤٨).

(٣) ذكره ابن إسحاق في «السيرة» عن عروة بن الزبير. قال الألباني: أخرجه ابن إسحاق بسنده الصحيح عن عروة بن الزبير، وهو حديث مرسل (دفاع عن الحديث النبوي ص٢٠).

الهجرة، فكانت رحلة الإسراء والمعراج في هذا الوقت ترويحًا وتسليةً للرسول الكريم.

وقبل ذلك أرسل الله تعالى له عالَمًا آخر، هو عالم الجن، يؤمن به، عوضًا عن الذين كذَّبوه من الإنس، وأنزل الله تعالى في هذه الفترة سورة الفرقان وسورة الإسراء، وسورة يونس، وأنزل بعدها سورة هود.

ونقل ابن عطية أن سورة هود نزلت قبل سورة يونس؛ لأن التحدي في سورة هود وقع بعشر سور، وفي سورة هود وقع بسورة واحدة.

وفي السورة تفصيلٌ لسبعٍ من قصص الأنبياء والمرسلين؛ وهم: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى، عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم السلام، وفي هذه القصص بيان صَبْرِ الأنبياء على أذى أقوامهم، وفيها العبرة والعظة بهلاك الأمم التي كذَّبت رسلها.

ففي كل قصة يذكر الله تعالى ما حدث فيها من العناد والتكذيب لرسل الله، ويبين سبحانه مصير الأمة المكذِّبة.

وفي نهاية القصة يعقِّب الله تعالى عليها لرسوله ﷺ أن يصبر ويتحمل، فهذا حال مَن سبقوك من الرسل، صبروا وأوذوا، فليكن لك فيهم عبرة وحكمة، تُثبِّت فؤادك، وتُقوي عزيمتك.

وفي الربع الأول من سورة هود مقدمةٌ لما فيها من القصص القرآني، تبين الأساس الأول الذي من أجله أرسل الله تعالى الرسل جميعًا؛ وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

وفي الربع الأخير من السورة يعقِّب سبحانه على كل ما جاء فيها من قصص.

ثم يُقسِّمُ الله تعالى الناس إلى صنفين: أهل شقاء، وأهل سعادة، ويبين مصير كل منهم في الدار الآخرة.

وتتكون السورة من **ثلاثة عناصر رئيسة:**

العنصر الأول: يتضمن جانب العقيدة والعبادة، وهو يشغل حيِّزًا محدودًا في مقدِّمة السورة وفي نهايتها، وفي بداية كل قصة فيها.

العنصر الثاني: العرض التاريخي لسبعة من رسل الله وأنبيائه مع أقوامهم، وهو يشغل معظم السورة.

العنصر الثالث: التعقيب على كل قصة منها، وهو يشغل حيزًا محدودًا من السورة.

وقد ابتدأتِ السورة بالإشارة إلى أن علاج قضايا البشر، وحلَّ مشكلاتهم لا يكمن في الحضارة العمرانية، والصناعية، والتجارية، ولا في سباق التسلح بأنواعه مجردة عن الإيمان، فإن الحضارات المادية سرعان ما تهوي وتسقط، ما لم تأخذ بما جاء في مطلع هذه السورة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [٢] ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [٣].

فإن في العبادة والتوبة: المتاع الحسن، والوصول إلى أفضل المنازل ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [٣] وفي هذا ترغيبٌ للناس في الطاعة، وتحذيرٌ لهم عن المعصية؛ ولذا فإن كل رسول من الرسل الذين جاء ذكرهم في السورة قال لقومه أوَّل ما قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [٥، ٦١، ٨٤].

وفي ثنايا السورة بعد المقدِّمة وقبل الخاتمة يأتي قصص الأنبياء والمرسلين، بدءًا بقصة نوح أبي البشر الثاني، ثم بقصة هود التي سميت السورة باسمه، ثم تَلَتْها قصة صالح، ثم قصة لوط، ثم قصة شعيب، ثم قصة موسى ﷺ.

وإلى هذا القصص يشير قوله تعالى في نهاية السورة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [١٢].

وفي التعقيب على قصة نوح يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

وفي التعقيب على قصة هود يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ [٥٩].

وفي التعقيب على قصة صالح يقول سبحانه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [٦٧، ٦٨].

وفي التعقيب على قصة لوط يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [٨٢].

وفي التعقيب على قصة شعيب يقول سبحانه: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ لَا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [٩٤، ٩٥].

وفي التعقيب على هذا القصص كله يقول جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [١٠٠، ١٠١].

وبعد ذلك تتناول السورة جانبًا هامًّا من الحديث عن يوم القيامة، فهو يوم مجموع له الناس، وهو يوم مشهود، وله موعد محدود، وهو يوم لا تسمع فيه إلا همسًا ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

والناس فيه إما سعداء مخلَّدُون في الجنة، وإما أشقياء مخلَّدُون في النار، ومن أسباب السعادة: الاستقامة، وعدم السير في ركاب الظلمة، والمحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وسورة هود تستعرض مسيرة الدعوة الإسلامية في التاريخ البشري كلِّه، من لدن نوح إلى محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتبيِّن أنها قامت على التوحيد الخالص، وإفراد الله تعالى بالعبادة، إلى جوار مهام السُّوَر المكية من غرس الإيمان بالوحي والرسالة في قلوب الناس، وكذا الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب، وجزاء على الأعمال، من جنة أو نار.

وعناصر القرآن المكي تبدو واضحة في السورة؛ فعنصر الوحي والرسالة يوجد في مثل هذه الآيات ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [١] ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [١٣].

وقال سبحانه تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [١٤].

وعنصر الإيمان باليوم الآخر جاء في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [١٧].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [١٦] وهذا في الربع الأول من السورة.

أما قبل نهاية السورة ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [١٠٣] ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ .

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [١١٣] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [١٢٣].

أما عنصر التوحيد وإخلاص العقيدة فقد جاء في مثل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٥] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٧].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [١١٨].

١- وقد ورد في سورة هود آثار؛ منها قول أبي جحيفة للنبي ﷺ: نراك قد شبتَ؟ قال: **«شيبتني هود وأخواتُها»**(١).

٢- وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: قلتُ يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب، فقال: **«شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»**(٢).

٣- وعن عقبة بن عامر ﷺ أن رجلًا قال للنبي ﷺ: قد شبتَ؟ قال: **«شيبتني هود وأخواتها»**(٣).

ولعل ذلك بسبب ما في السورة من ذكر أحوال القيامة ومصارع الظلمة والمكذبين.

وقد تطرق المفسرون إلى بيان السبب الذي شيَّب النبي ﷺ في سورة هود؛ فقال بعضهم: الأمر له بالاستقامة الوارد في السورة في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [١١٢]

وقال بعضهم: الذي شيَّبه ﷺ هو ما فيها من مصارع الظالمين وإهلاكهم.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: ولعل ما فيها من عودة الضمائر إلى رسول الله ﷺ، وكثرة الخطاب والتوجيه للرسول ﷺ -هو الذي شيَّبه، فإنك قد تجد في الآية الواحدة أكثر من ضمير، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [١٢](٤) ثلاثة ضمائر متصلة، وضمير منفصل.

فهذه أربعة ضمائر في آية واحدة، وهكذا يتكرر الضمير عشرات المرات في السورة حتى آخر آية منها ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ وهو قول له وجاهته.

فالله تعالى يوجه رسوله في هذه السورة كثيرًا، ويعلمه ويؤدبه ويقول له: اصبر وتحمَّل كما فعل غيرك من الرسل.

---

(١) أبو يعلى عن أبي جحيفة (٨٨٠) وإسناده ضعيف؛ حيث إن علي بن صالح متأخر السماع من أبي إسحاق السبيعي، ورواه الطبراني (٣١٨) وابن عساكر (٤/ ١٧٣) والحكيم الترمذي، وله شواهد كثيرة من طرق متعددة تقويه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٩١) وفي «الأوسط» (٧٩٠) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، ينظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٧/ ٤٠) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٢٩٧) وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٧) على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وهو عند ابن عساكر (٤/ ١٧٢) والدارقطني في «العلل» (١/ ١٩٣) والبيهقي في «الشعب» (٧٧٦)، وصححه الألباني عن ابن عباس في صحيح الترمذي (٢٦٢٧) وفي السلسلة (٩٥٥).

(٣) الطبراني (٧٩٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٧): رجاله رجال الصحيح.

(٤) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، سورة هود.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

المُرَادُ بِحُرُوفِ الهِجَاءِ فِي فَوَاتِحِ بَعْضِ السُّوَرِ

١ - ﴿الٓر[١] كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ[٢] ۝١﴾

بدأت سورة هود بحروف الهجاء الثلاثة: الألف واللام والراء، وهذه الحروف جاءت جزءًا من آية في بعض السور، وجاءت آية منفصلة في بعضها الآخر، وجميع السور التي بدأت بحروف الهجاء مكية، ما عدا سورتي البقرة وآل عمران.

وهذه الحروف الهجائية مما استأثر الله تعالى بعلمه، والمفسرون اجتهدوا في بيان معناها، ولعل من فوائدها: أنها نزلت للتحدي والإعجاز، ومن فوائدها: أن المشركين كان يحث بعضهم بعضًا أن يَلْغَوْا في مجلس رسول الله ﷺ حتى لا يهتدوا بهذا القرآن، ولا يستمعوا إليه، ولا يفقهوا معناه، فجاءت هذه الحروف لجذب انتباههم وشحْذ أذهانهم كي يفكروا فيها فيعتبروا ويتعظوا.

وفي هذه الحروف: (الر، المر، ص، حم، المص، كهيعص. . .إلخ) لفت الانتباه إلى كلام جديد غريب، لم يسمعوه من قبل ولم يعرفوه، حتى يسترعيَ انتباههم، فإذا سمعوه عرفوا ما فيه، وآمنوا به.

وهذا الكتاب المكوَّن من هذه الحروف ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: نُظِّمت ورُتِّبت آياته وسوره، فهو إبداع ليس فيه نقص ولا خلل، وهو كتاب متقن محكَمٌ، لم يُنسخ كما نُسخت التوراة والإنجيل والزبور، فهو كتاب محكم باقٍ إلى يوم القيامة، أخباره صادقة، وأوامره عادلة، وآياته متقنة، وألفاظه فصيحة، ومعانيه سامية.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ هذه الآيات، فوُضِّحت، ومُيِّزت وبُينت أعلى بيان، ونزلت مفرقة ببيان

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت سكتة خفيفة بدون تنفس على كل حرف من حروف الهجاء الثلاثة: الألف، واللام، والراء، والباقون بعدم السكت، وأمال الراء أبو عمرو وشعبة وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر، وقللها الأزرق عن ورش.

(٢) قرأ أبو جعفر بإخفاء التنوين عند الخاء في (حكيم خبير) والباقون بالإظهار.

الحلال والحرام، والعقيدة والتشريع، والأخلاق، والآداب، وإصلاح المجتمع والأسرة، وقد أحكمها وفصلها الحكيم في أقواله وأفعاله، الخبير بعواقب الأمور وكيفيات الأحوال، وهو سبحانه حكيم في تكليف عباده وتشريعه لهم، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، وهو سبحانه خبير بشؤونهم وما يصلح أحوالهم، عالم بمواقع الأمور.

قال قتادة في معنى الآية: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بعلمه، فبيَّن حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته، فخذوا بطاعة الله ومعرفة حقه، فإن الله منعم يحب الشاكرين، وأهل الشكر في مزيد من الله، وذلك قضاؤه الذي قضى به[١].

إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ

٢- ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾

ومضمون هذا الكتاب وجميع الكتب السابقة التي جاءت بها الرسل من عند الله هي ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ومقتضاها ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ وكأن السياق يقول: أوحى الله إليَّ في هذا الكتاب أن لا تعبدوا إلا الله، هذه هي مهمة الرسل جميعًا، فكل رسول قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: ٣٦] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء] فاتركوا عبادة الأوثان وأنواع الشرك، واعبدوا الله وحده.

فجملة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ مفسِّرةٌ لما أُحكم من الآيات؛ لأن النهي عن عبادة غير الله، والأمر بعبادة الله، هو أصل الدين، الذي يتفرع عنه جميع التفاصيل.

وفي هذه الآية، والتي بعدها، الدَّلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أُنزل القرآن من أجلها هي عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به.

ثم حدد الله تعالى مهمة رسوله ﷺ بما جاء في تتمة الآية ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ لمن تجرأ على الله بارتكاب المعاصي فيعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿وَبَشِيرٌ﴾ لمن أطاعه بثواب

---

(١) الطبري (١٢/ ٣١٠) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٥).

الدنيا والآخرة والنذارة تكون في المكروه، والبشارة تكون في المحبوب، ويراد بها الثواب والعقاب، حيث يبشر ﷺ مَن أطاعه بدخول الجنة، ويُنذر مَن عصاه بدخول النار.

ولما أُمر النبي ﷺ أن يَجْهَر بالدعوة صَعِدَ على الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب فالأقرب، فلما اجتمعوا قال لهم: «**يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل، ألستم مصدقي؟**» فقالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[1].

والبشرى والإنذار جماع عمل الرسول ﷺ، وجماع أصول الرسالة.

الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْيَومِ الْآخِرِ فِيهِ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ

٣، ٤- ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن[2] تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ[3] أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

وأوّلُ ما دعا إليه الرسول الكريم، بعد توحيد الله تعالى، هو الاستغفار والتوبة فقال: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ من الشرك، وعبادة الأوثان، بالدخول في الإسلام، والندم على ما فات، وهذه جملة أخرى مفسِّرةٌ لما أُحكم من الآيات.

والاستغفار: طلب المغفرة؛ أي: ستر الذنوب، والتوبة والرجوع إلى طاعة الله ﷻ، وتوحيده، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالإنابة والرجوع إليه من شرككم وكفركم، ومن سائر الذنوب والمعاصي.

ثم ذكر الجزاء المترتب على ذلك في الدنيا وهو الحياة الطبيعية، والمتاع الحسن فقال: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي: يمنحكم الرزق الحسن، والأمن والرخاء في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]

إلى جوار فرح المؤمن برجائه فيما عند الله تعالى من حسن الثواب، والمراد بالأجل

---

(١) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (١٣٩٤، ٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨).

(٢) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (وإن تولوا) مع البقاء على الإخفاء في النون، والباقون بعدم التشديد مع الإخفاء في النون أيضًا.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (فإني أخاف)، والباقون بإسكانها.

المسمى في الآية: الموت.

وترتيب الرزق الحسن، ورغد العيش، والعافية في الدنيا، على التوبة والاستغفار، جاء في أكثر من آية في كتاب الله؛ منها قوله تعالى على لسان هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]

وقوله تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

ولذا فإن النبي ﷺ كان يقول: **«يأيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة»**[(١)].

إن النفس البشرية تحب رغد العيش، والأجر الذي وعده الله تعالى للتائبين المستغفرين هو مستوى معيشة أفضل، والله تعالى يطمئن عباده إلى أنه سوف يريحهم، ويصلح بالهم، إذا هم آمنوا وأسلموا وجوههم له، وهذا الوعد الذي قاله هود ونوح إلى قومهما، فيه رغد العيش، وزيادة النعيم، وكثرة البنين، والله تعالى ينعم على خَلْقِه بألوان النعم المختلفة، ويحب منهم أن يشكروه، وأهل الشكر في مَزِيدٍ من نِعم الله تعالى.

أما في الآخرة، فيثيب سبحانه المحسِن على إحسانه، وَيجزيه الجزاء الأوفى؛ لأنه احتسب أجره عند الله تعالى، وهذا معنى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: يؤت كل ذي فضل في الإسلام فضل الدرجات في الآخرة، والفضل الأول هو العمل الصالح، والفضل الثاني هو الثواب الأخروي، فكل ما احتسب به العبد وجه الله تعالى من ماله أو عمله فهو من الفضل الذي يثيب عليه ربُّ العالمين.

في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد ﷺ: **«وإنك لن تنفِق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أُجِرْت، حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك»**[(٢)].

فالمعنى: أن الله تعالى يعطي كل صاحب عمل صالح أجره في الدنيا، وثوابه في الآخرة.

ويبين عبد الله بن مسعود ﷺ هذا المعنى فيقول: مَن عمل سيئة كُتبت عليه سيئة، ومَن

(١) من حديث الأغر المزني عن ابن عمر في «صحيح مسلم» (٢٧٠٢).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٧٣) وانظر المعنى في «صحيح مسلم» برقم (١٦٢٨).

عمل حسنة كتبت له عشرًا، فإن عوقب بالسيئة، التي كان قد عملها في الدنيا، بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقَب بها في الدنيا أُخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشارَه[١].

انظروا هذا الفضل: الحسنات عشرات، والسيئات آحاد.

ثم حذَّر سبحانه من الإعراض عن طاعته، فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن فضل الله وعن الحق الذي جئتكم به ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ يوم لقاء رب العالمين، حيث يجمع الله الأولين والآخرين فيحاسبهم ويجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.

وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لكل مَن أعرض عن دعوة الله، وكذَّب رسول الله، وأنكر البعث والنشور، فإن العذاب يناله لا محالة يوم الرجوع إلى الله تعالى في الدار الآخرة.

وهو سبحانه القادر على عقابكم وجزائكم، فهو القادر الذي لا يُعْجِزُه شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، فأنتم راجعون إلى الله تعالى، وهو مجازيكم على أعمالكم بما تستحقون من جزاء، ولا يحول بينه وبين نفوذ إرادته حائل، وما دام الأمر كذلك فأَخْلِصُوا له العبادة واستغفروه ثم توبوا إليه؛ لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة.

أَحْوَالُ الْعِبَادِ مَكْشُوفَةٌ لِعَالِمِ السِّرِّ وَالنَّجْوَى

٥- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

ثم بيَّن ﷻ كيف تلَقَّى القوم دعوة النبي ﷺ؛ فمنهم مَن كان يُثني صدره ويطأطئ رأسه، ويغطي وجهه إذا مرَّ به رسول الله ﷺ حتى لا يراه النبي ﷺ، وحتى لا يستمع إلى القرآن، ولا ينتفع به أو يسمع دعوته[٢].

وبعضهم كان يغطي رأسه ووجهه، ويضع أصابعه في أذنيه كقوم نوح، كما جاء في قوله

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٣١).

(٢) جاء هذا عن عبد الله بن شداد بن الهاد كما رواه سعيد بن منصور (١٠٧٨) في «التفسير»، والطبري (١٢/ ٣١٦) وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٩).

تعالى على لسان نوح ﵇: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح] وبعض المنافقين، كالأخنس بن شريق، كان يظهر محبةً للرسول ﷺ ويحلف على ذلك، ويكنُّ في صدره بُغضًا وكرهًا له ﷺ.

وجاء في صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس ﵄ أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: **«أناس كانوا يستحْيُون أن يتخلَّوْا فيُفْضُوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيُفْضُوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم»**[1].

أي: أن بعض الناس كان إذا أراد أن يجامع أهله، أو يقضي حاجته في العراء، يستحيي من ظهور عورته، فكان ينْحَني بنفسه وظهره على صدره ورأسه؛ كي يستر عورته؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾.

وسواء أراد المرء أن يختفي عن الرسول ﷺ حتى لا يسمع كلامه، أو أراد أن يستر عورته من الله تعالى، فإن رب العالمين يراه في كلِّ حال، حتى وهو مخبوء ومتلفف في ملابسه؛ ولذا يقول الله سبحانه: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يتغطون بثيابهم فهو سبحانه لا يخفَى عليه شيء، والسر عنده كالعلانية، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر وما يُعلَن وما يُسَر.

﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم، سبحانه السر والنجوى، ويرى المرء حين يتغطى بثوبه أو يَظْهرُ باديًا للناس، فالله، ﷻ، يراه في كل حركاته وسكناته ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه]

وقال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾ [ق: ١٦]

وقال جل شأنه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال ابن عطية: قيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا، وثَنَوْا صدورهم كالمستتر، ورَدُّوا إليه ظهورهم، وغَشَّوْا وجوههم بثيابهم، وتباعدوا

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨١-٤٦٨٣) والطبري (١٢/ ٣٢٠).

منه كراهة للقائه، وهم يظنون أن ذلك يخفى عليه وعلى الله ﷻ؛ فنزلت الآية في ذلك[١].

وكان بعض المشركين إذا دخل بيته أرخى الستر عليه، واستغشى بثوبه، وحنى ظهره وقال: هل يعلم الله ما في قلبي؟ وذلك مِن جهلهم بعظمة الله تعالى[٢].

قال ابن عباس ﷺ: كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشَّوْا بثيابهم؛ كراهةَ أن يُفْضُوا بفروجهم إلى السماء[٣].

وفي البخاري وغيره عن ابن مسعود ﷺ: اجتمع عند البيت قرشيَّان وثقفيٌّ، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ وقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا؛ فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٤] [فصلت].

ألا يعلم هؤلاء المشركون والملحدون والعلمانيون والشيوعيون وأضرابهم أن الله تعالى يعلم ما يضمرونه في صدورهم؛ وأنه لا يخفَى على الله تعالى منها شيء؟

ألا يعلمون حين يغطون أجسادهم بثيابهم، أن الله تعالى يراهم، ولا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم؟ إنه عليم بما تكنه صدورهم من النيات والضمائر والسرائر، والأفكار والوساوس، فكيف تخفي عليه حالكم، إذا أثنيتم صدوركم لتستخفوا منه.

ويحتمل أن يكون معنى الآية: أن المكذبين للرسول ﷺ يثنون صدورهم حين يروْنه حتى لا يراهم فيُسمعهم دعوته ويعظهم بما ينفعهم.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٥٠).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٣٢١).

(٣) الطبري (١٢/ ٣٢٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٨١٦، ٧٥٢١) و«صحيح مسلم» (٢٧٧٥).

الرِّزْقُ مَكْفُولٌ وَمَضْمُونٌ

٦- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

ومن علمه سبحانه بخَلْقِه أنه يرزق الدواب التي لا حيلة لها في الكسب وتحصيل المعاش، ويعلم حركة كل دابة ذات روح تدب على وجه الأرض، ويعلم أحوالها، سواء أكانت إنسانًا، أو طائرًا، أو حشرة، أو هامة، أو حيوانًا، أو سمكًا صغيرًا، أو كبيرًا، ذكرًا أو أنثى، و كل ما في البر، أو البحر، أو الجو، عاقلًا أو غير عاقل، فإن الله تعالى يرزق كل هؤلاء الرزق الذي يُحييها في الدنيا.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ طعامها وغذاؤها ومعاشها، فقد تكفل سبحانه برزقها، ولم يهملها، إحسانًا وتفضلًا منه سبحانه، وهو جل شأنه يعلم مستقرها حيث تأوي إلى وَكْرها بالليل أو النهار، ويعلم مستودعها حين تموت وتُدفن، ويعلم أيضًا مستقرها في الأصلاب، ومستودعها في الأرحام قبل بروزها إلى الأرض.

والمستقر أيضًا هو المكان الذي تقيم فيه، والمستودع هو المكان الذي تنتقل إليه.

﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وكل من الأقدار، والأرزاق، والأعمار أحصاه رب العالمين في اللوح المحفوظ المشتمل على ما وقع وما سيقع من الأحداث في الكون كله.

وعالم الحيوان والنبات فوق الحصر، ولا يحصيه إلا خالقه، وهو مسجَّلٌ عنده في اللوح المحفوظ والكتاب المكنون.

وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا كان أَجَلُ أحدِكُم بأرضٍ أَوْثَبَتْهُ إليها حاجة، حتى إذا بلغ أقصى أثره**[1] **منها قبضه الله سبحانه، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعني ربي»**[2].

---

(١) (أقصى أثره) أي غاية ما قُدّر له من الأثر.

(٢) انظر الحديث عن ابن مسعود عند ابن ماجه برقم (٤٢٦٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٨) والطبراني (١٠٤٠٣) قال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه الحاكم (١/ ٣٦٧) والبيهقي في «الشعب» (٩٨٨٩) و«السلسلة الصحيحة» (١٢٢٢) والحكيم الترمذي (١/ ٢٦٦).

ورِزْقُ الله للدواب وغيرها لا ينافي الأخذ بالأسباب والسعي في تحصيل وسائل العيش بكافة الوسائل المشروعة للحصول على ما يغنيهم ويسد حاجاتهم، فلتطمئن القلوب إلى تحصيل أرزاقها، فقد تكفل الله بها، ولن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها، ولكن لا بد من الأخذ بالأسباب:

وفي الحديث عن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»**[1].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك].

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

وقوله جل شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت]

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور].

إن خَلْقَ حشرة في هذا العالم أمرٌ مدهش، وأعظم منه إبقاؤها وإمدادها بالحياة، إن خلق جنين واحد شيء كبير، وأكبر منه إمداده بالغذاء؛ لينمو حتى يبلغ أشده، فسبحان الخلاق العليم، وسبحان الرازق للجنين وهو في بطن أمه.

---

(١) «المسند» (٢٠٥، ٣٠٧، ٣٧٣) قال محققوه: إسناده قوي، ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير ابن هبيرة، فمن رجال مسلم، وأخرجه عبد بن حميد (١٠) وأبو يعلى (٢٤٧) وابن حبان (٧٣٠) والحاكم (٤/٣١٨)، والترمذي (٢٣٤٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٥٩).

فِي خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ دَلَائِلُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٧- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ(١) مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

ثم عرَّف الله ﷻ خَلْقَه بنفسه، وأنه خالق هذا الكون، وأكبر مظاهر هذا الخلق تعلق قدرته تعالى في خلق السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، ﴿وَ﴾ حين خلق الله السموات والأرض ﴿كَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فوق السماء السابعة، وبعد أن خلق السموات والأرض استوى على العرش، يدبر الأمور ويصرفها كيف يشاء ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]

وقد صرحت هذه الآية بأن خَلْقَ السموات والأرض لحكمة ابتلاء الخلق، فقد خلقكم ربكم أيها الناس ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾ والعمل الحسن، هو ما كان خالصًا لله تعالى، لا يشوبه شرك، وكان موافقًا لهدْى النبي ﷺ ليس فيه بدعة في الدين.

والله تعالى لم يخلق السموات والأرض وما بينهما عبثًا ولا باطلًا، فقد نزه سبحانه نفسه عن ذلك، وصرح بأن مَن ظن ذلك فهو من الذين كفروا المتوعَّدِين بالنار، فقال جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص]

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

وبيَّن، جل شأنه، الغرض من خَلْقِ الجن والإنس في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

ونظير آية خلق السموات والأرض قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (ساحر) اسم فاعل، وقرأ الباقون (سحر) مصدر.

أحاديث في معنى الآية:

١- وفي البخاري وغيره عن عمران بن حصين ﷺ قال: دخلْتُ على النبي ﷺ وعقلْتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: **«اقبلوا البُشْرى يا بني تميم»**، قالوا: قد بشَّرْتنا فأعطنا (مرتين)، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: **«اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إنْ لم يقْبَلْها بنو تميم»** قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئنا نسألك عن أول هذا الأمر، قال: **«كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكَتَبَ في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض»** فنادى منادٍ: ذهبتْ ناقتُك يا بن الحصين، فانطلقْتُ، فإذا هي تقْطعُ دُونَها السَّراب، فوالله لَوَدِدْتُ أني كنت تركتها[1].

٢- وفي لفظ آخر عن بريدة ﷺ قال: دخل قوم على رسول الله ﷺ فقالوا: جئنا نُسلِّم على رسول الله ﷺ ونتفقَّه في الدين، ونسأله عن بدء هذا الأمر، فقال: **«كان الله ولا شيء غيرُه، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكر كل شيء، ثم خلق سبع سموات»** ثم أتاني آتٍ فقال: هذه ناقتك قد ذهبَتْ، فخرجتُ والسراب ينقطع دونها فوددْتُ أني كنت تركتها[2].

٣- وفي صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» قال: «وعرشه على الماء»**[3].

٤- وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يد الله ملأى، لا يَغِيضُها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليل والنهار»** وقال: **«أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يَخْفِضُ ويَرْفَعُ»**[4].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩١، ٧٤١٨) و«المسند» (١٩٨٧٦) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والترمذي (٣٩٥١) مختصرًا، وابن حبان (٦١٤٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٤٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٠٠، ٤٨٩) مطولًا.

(٢) الطبري (١٢/ ٣٢٢) والحاكم (٢/ ٣٤١) وابن حبان عن عمران بن حصين، وقال محقق ابن حبان: إسناده صحيح على شرط الصحيح، ويشهد له الحديث السابق.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٣) والترمذي (٢١٥٦) والبيهقي (٧٩٨).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٤) وانظر (٥٣٥٢، ٧٤١١) و«صحيح مسلم» برقم (٩٩٣).

قال كعب الأحبار: بدأ الله خلق السموات والأرض يوم الأحد . . . وفرغ منها يوم الجمعة، وخلق آدم في آخر ساعة منه[1].

العرش والاستواء:

هذا: وإن خلق الإنسان يتضاءل أمام خلق الأرض التي يعيش فوقها، وإنَّ مَا بين المشارق والمغارب آمادًا بعيدة، والله سبحانه يستوي عنده قرب المكان وبُعده، وطول الزمان وقصره، وهو مع خلقه فوق عرشه بسمْعه وبصَره وَقَيُّومِيَّتِه، وإذا كان الإنسان يجهل ما تحت قدميه، فهل تطمح أفكاره إلى معرفة العرش والاستواء؟! إن الذي يجهل كيف يأكل وكيف يبول، لا يصلح له أن يتطاول لمعرفة العرش والاستواء والنزول!!

وهكذا أخبر ﷺ عن بدء الخلق وكيف كان، كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ كل ما كان وما يكون، ثم خلق السموات والأرض.

ويدل الحديث على أن الماء والعرش خُلِقَا قبل السموات والأرض، وأن العرش مخلوق فوق السموات، وأنه محيط بالماء أو يحويه.

ولعل الماء هو الدخان أو البخار الذي جاء ذكره في سورة فصلت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] أي: ثم استوى على الماء وهو دخان، والتطور العلمي يفيد بأن الدخان عبارة عن ذرات، وتفسير ابن عباس للآية: أن الماء كان على متن الريح، وكان العرش فوق الماء، وذلك قبل خلق السموات والأرض.

والعرش في اللغة: هو سرير الملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] وسمي عرشًا لارتفاعه، وعرش الرحمن سبحانه -كما بينت النصوص الصحيحة- ذو قوائم تحمله الملائكة ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] والعرش محيط بالسموات والأرض وما فيهما.

ولا تسأل عن حقيقة العرش وذاته، ولا تسأل عن استواء الله سبحانه على العرش، فذلك من الأمور الغيبية، نؤمن بها كما جاءت في كتاب الله تعالى، من غير تشبيه ولا

---

(١) «تفسير الطبري» (٣/ ١٥٢).

تعطيل ولا تأويل ولا تحريف، ونؤمن بأن الله ﷻ فوق العرش، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولم يزل العرش باقيًا على الماء، فقد كان فوق الماء ولم يزل كذلك، ثم خلق الله السموات والأرض.

خَلْقُ الأرض قبل السموات، ودَحْيُ الأرض بعد ذلك:

جاء في سورة فصلت أن الله تعالى خلق الأرض في يومين، وخلق السموات في يومين، وقدَّر أقوات الأرض وأرزاقها في أربعة أيام ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

وخَلْقُ الأرض كان قبل خَلْق السماء، ودحْيُ الأرض كان بعد خلق السماء، كما جاء في سورة النازعات: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾.

الأيام الستة:

وهذه الأيام، هل هي بمقدار أيام الدنيا؟ كما أفادت الروايات أنها بدأت بالأحد وخُتمت بالجمعة، أم هي من أيام الله يوم لقائه؟ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؟ [الحج: ٤٧] الله أعلم، حيث إنه لم يكن هناك ليل أو نهار، ولا شمس ولا قمر قبل خلق الأيام، فلعل المراد بالأيام الستة أنها باعتبار ما سيكون من أيام الدنيا.

والله سبحانه قادر على أن يخلق الكون كله في لحظة واحدة، ولكنه سبحانه يعلمنا التأني والتثبت في الأمور(١).

ثم خلق الله الإنسان، وجعله قابلًا للاختيار والحرية، يختار طريق الهدى أو الضلال، وكان خلق السموات والأرض؛ لنفْع الإنسان، والله تعالى يختبر الإنسان في الأوامر والنواهي، ثم يجازيه عليها في الآخرة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢] ولم يقل سبحانه أكثر عملًا، وكلمة (أحسن) تعني: الإخلاص والصواب.

---

(١) ينظر تفسير آيات سورة فصلت ٩-١٢ وآية سورة الأعراف (٥٤) والنازعات ٢٧-٣٣.

والعمل الخالص الصواب: هو الذي يكون خاليًا من الشرك والرياء، وموافقًا لهدْي الرسول ﷺ.

وخَلْقُ الإنسان أدنى وأقل من خَلْقِ السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

ومع أن الله تعالى قد خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، إلا أن أصحاب العقول القاصرة ينكرون ما هو أدنى من ذلك، وهو إعادة خلق الناس للحساب والجزاء، ولولا هذه الإعادة لكان خلق الناس عبثًا، والعبث مستحيل على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان].

ولو أنك حدثت منكري البعث عن الغاية من هذا الابتلاء بالطاعة والعبادة، ولماذا يكون العمل في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة؟ لأنكروا البعث والنشور والحساب والجزاء، ووصفوا هذا الكلام بالسحر والسذاجة، مع أنه ﷻ هو الذي خلقهم من العدم، ومن العجيب أن يرى الإنسان العالم العلوي والعالم السفلي بعينيه، ويعلم أنه من المستحيل أن يوجدا من غير خالق، ثم ينكر البعث والنشور، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]

وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وما أكثر من لا يعملون لليوم الآخر حسابًا في عصرنا هذا.

عِقَابُ اللهِ تَعَالَى لِلْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ

٨- ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ[١] لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ[٢] ﴿٨﴾﴾

يخبر الله سبحانه أنه لو أخر إنزال العذاب عن مستحقيه إلى وقت معين، لقالوا من جهلهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ما الذي يمنع نزوله؟ قال تعالى ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾.

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (يأتيهم)، والباقون بكسرها، وقرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ألفًا في الحالين وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الزاي من (يستهزئون) وصلًا ووقفًا، ولحمزة عند الوقف **ثلاثة أوجه**: أحدها: مثل أبي جعفر. وثانيها: تسهيل الهمزة بينها وبين الواو. وثالثها: إبدال الهمزة ياء خالصة.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نزل ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١] قال ناس: إن الساعة قد اقتربت، فتناهَوْا، فتناهى القوم قليلًا، ثم عادوا إلى أعمال السوء؛ فأنزل الله هذه الآية(١).

ولعل المراد بالعذاب المذكور في الآية: عذاب الاستئصال الذي استعجل المكذبون نزوله في الدنيا؛ استبعادًا لوقوعه، واستهزاء به، أما عذاب الآخرة فقد كانوا منكرين له أصلًا، كما يفهم ذلك من الآية السابقة ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

وقد بيَّن سبحانه أن العذاب الذي استعجلوه، واستخفوا به، يوم ينزل بهم، لا يصرفه عنهم صارف، ولا يدفعه عنهم دافع، بل سيحيط بهم من كل جانب ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف].

إن الذين ينكرون البعث والحساب يستعجلون نزول العذاب الموعود به، جهلًا منهم واستخفافًا به؛ لأنهم يجهلون سنة الله في خلقه، ولا يدركون أن الله ﷻ قد أهلك الأمم التي قبل محمدٍ ﷺ، حين جاءتهم الرسل بالمعجزات المادية بناءً على طلبهم ولم يؤمنوا؛ وذلك لأن رسالة الرسل السابقة محدودةٌ بزمن محدد، وبقوم معينين، وهذه المعجزة المادية يراها المعاصرون للرسول بعد طلبهم لها، فإن لم يصدقوا بها، ويؤمنوا برسولهم، أهلكهم الله تعالى، كما حدث لقوم نوح وهود و صالح .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يهلك هذه الأمة الخاتمة ويستأصلها؛ لأن رسالة محمدٍ ﷺ عامة وباقية إلى يوم القيامة؛ ولهذا فإن معجزة محمد ﷺ ليست معجزة مؤقتة، يراها جيل دون جيل، بل هي قائمة وباقية في أيديهم إلى قيام الساعة.

ولذا: فلا ينبغي استعجال نزول العذاب بهذه الأمة، ولا ينبغي التعجب من تأخره، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ الذي يأتي عليهم ويبيدهم ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ أي: إلى أجل معين هو يوم القيامة أو إلى زمن قليل ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ تكذيبًا واستهزاءً ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ ما

---

(١) «أسباب النزول» للسيوطي (١٥٤) والألوسي (١٢/ ١٤) وأخرج الطبري عن ابن جريج مثله (١٢/ ٥) وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم.

الذي يمنع نزول العذاب؟ قال تعالى مجيبًا لهم: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ إنه عذاب دائم في يومٍ يَلْقَوْن فيه جزاء استهزائهم، وهو عذاب متجدد، لا ينقطع ولا يندفع عنهم.

المراد بلفظ (أمة):

هذا: ولفظ (الأمة) يستعمل في القرآن على **معان متعددة**:

١- فقد يراد به **الأجل** والأمد المعلوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

٢- وقد يراد به **الإمام** الذي يُقتدى به، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

٣- وقد يراد به **الملة** والدين، كما في قوله تعالى إخبارًا عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣].

٤- وقد يراد به **الجماعة** من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦].

٥- وقد يراد به **الفرقة والطائفة**، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣].

٦- **ويراد بالأمة: القوم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ** مؤمنهم وكافرهم، فالأمة المؤمنة هي التي قال الله فيها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهي الأمة التي أجابت دعوة نبيها محمدٍ ﷺ، وتُسمى أمة الإجابة، وفيها يقول ﷺ: **«يا رب، أمتي أمتي»**.

أما عموم الأمة بما يشمل غير المسلمين، ففيهم يقول ﷺ: فيما يرويه أبوهريرة رضي الله عنه **«والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار»**[١].

وهذه الأمة تسمى أمة الدعوة؛ أي: الأمة المدعُوَّةُ للدخول في الإسلام؛ لوجودها في زمن دعوته ﷺ الممتد منذ بعثته إلى قيام الساعة، باعتبار أن هذه الرسالة عامة لجميع الخَلْقِ، وناسخة لما قبلها من الرسالات.

(١) من حديث أبي هُريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

حَالُ الإِنْسَانِ عِنْدَمَا يُصَابُ بِالنِّعْمَةِ أَوِ النِّقْمَةِ

٩- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾

هذه الآية تقرر حالة الإنسان إذا أصابته النقمة بعد النعمة، حيث أخبر سبحانه عن طبيعة الإنسان -في الغالب- وجهله بالنواميس الإلهية، فبيَّن تعالى أن الإنسان يجزع ويسخط حينما تُسلب منه النعمة، إلا مَن عصم الله، فتبينٌ أن جنس الإنسان مجبول عليٌ الضعف والعجز والهلع، إن أصابته النعمة كالصحة والغنى والأمن جحد ومنع، وإن أصابته ضراء كالمرض والفقر والخوف كان من اليائسين القانطين، فهو عبدٌ للحظته الحاضرة، وساعته العاجلة، يستنْجد بربه إن أصابه الضر، ولا يكاد يستقبل الفرج والنجدة حتى ينسى ما كان، ويجحدُ يَدَ الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

والآية تذم مَن يقنط عند الشدائد، ويبطر عند النعم قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ [فصلت]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت].

وهذه الحالة يتصف بها الإنسان عمومًا، ولكنها متأصلة في الكافر، وعارضة في المؤمن؛ لأن الله تعالى استثنى المؤمنين من هذا العموم في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [العصر].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج]

وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [التين: ٤-٦].

وقد جاء هذا الوصف مقرونًا بإنكار البعث في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠]. قال تعالى:

١٠- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ[١] نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ[٢] إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾

وهذه الآية تصف حال الإنسان عندما يصاب بالنعمة بعد النقمة، كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، فإنه سرعان ما يصاب بالغرور والكبر متحدثًا بأن الأضرار والمصائب التي لحقته قد ولَّت إلى غير رجعة، ويظن أن الخير سيدوم عليه، وينسى حاله بالأمس، وما كان فيه من ضيق وشدة، مع الفخر والتعالي على الناس، والفرح والأشر، وذلك إن أصابته رحمة بعد نقمة، أو بعد ضر مسه، فإنه يقول: ذهب الضر عني، فيفرح فرَح أشر وبطر، والعكس صحيح، إن أذاقه الله ضرًّا بعد نعمة، فإنه ييأس من رحمة الله تعالى ويفزع، وهذا في الغالب شأن الإنسان الكافر، وهو لا ينطبق على المؤمن الصابر المحتسب، فالمؤمن لا يفزع ولا يهلع ولا ييئس، إنما يرجو رحمة الله ويخشى عذابه، ويصبر على ما أصابه.

كما في الحديث عن أبي سعيد وأبي هريرة ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حَزَن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها مِن خطاياه»**[٣].

ويُبَيِّنُ النبي ﷺ أن المؤمن محظوظ في جميع أحواله، فيقول ﷺ في حديث صهيب ﵁: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير -وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن- إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»**[٤].

وهذه هي طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله ممن صبر واحتسب إذا مسّه الضر، وشكر وحمد إذا مسه الخير، قال تعالى:

١١- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

في هذه الآية استثناءٌ من عامة الناس، للذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانًا

---

(١) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير بحرف مد من (أذقناه، مسته)، والباقون بعدم الصلة.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (عني إنه)، والباقون بإسكانها.

(٣) «صحيح البخاري» من حديث أبي سعيد وأبي هريرة برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) وهذا لفظه و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٣).

(٤) وهو عن أبي يحيى صهيب بن سنان، في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٩).

واحتسابًا وطلبًا للأجر من الله تعالى، فهم يكثرون من الأعمال الصالحة، ويشكرون الله على نعمه، وهؤلاء لهم مغفرة لذنوبهم، وستر لعيوبهم، ولهم عند الله أجر كبير في الدار الآخرة؛ ثوابًا لهم على صبرهم واحتسابهم وقوة إيمانهم.

تَحْرِيكُ هِمَّةِ الدَّاعِيَةِ وَإِلْهَابُ حَمَاسِهِ

١٢- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

في هذه الآية توجيه للدعاة إلى الله، ألا يضيق صدرهم بما يجدوه من أذى في سبيل الدعوة إلى الله، وأن يستمروا في دعوتهم، فمهمتهم هي البلاغ والإنذار، والنتائج على الله تعالى:

وهذه الآية تُلقي الضوء على الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة الإسلامية، وهي الفترة التي أعقبت موت أبي طالب وخديجة ﵂، حيث تكاثر إيذاء المشركين للنبي ﷺ وصحبه الكرام، وتكاثرت مُساوَمَتُهم له ﷺ؛ ليُثْنوه عنها بوسيلة أو بأخرى.

ومن ذلك ما رواه ابن عباس ﵄ أن رؤساء مكة، قالوا: يا محمدُ، اجعل لنا جبال مكة ذهبًا إن كنت رسولًا، وقال آخرون: ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك، فقال: **«لا أقدر على ذلك»**؛ فنزلت الآية[1].

وقال غيرهم: يا محمد، لو تركت سبَّ آلهتنا، وتسفيه آبائنا، لجَالسْناك واتّبعناك[2].

فأراد الله، سبحانه، أن يُوقف نبيه على أقوال المكذبين الجاحدين لرسالته؛ لإبطالها، بما يفيد سبّ آلهتهم، وتسفيه عقولهم، وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم.

وفي هذه الآية تحريضٌ للنبي ﷺ على المضيّ والاستمرار في تبليغ الدعوة، وإثارة دواعي ذلك في نفسه ﷺ؛ بأن يسير في طريقه غير مبالٍ بما يَصْدُر عنهم من مضايقات، فإن الله تعالى سيجازيهم بما يتناسب مع جحودهم وكفرهم.

ويُقصد بالاستفهام الذي في أول الآية تحريك هِمة النبي ﷺ، وإلهاب حماسه؛ لدفع

(١) «تفسير الفخر الرازي» (١٧/ ١٩٢).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٥٤).

الفتور عنه، والتحذير من التأثُّر بعنادهم وتكذيبهم، وهذا يتضمن بالضرورة تيئيس المكذِّبين من أن يترك النبي ﷺ شيئًا مما يريدونه.

وفي الآية أيضًا تحذيرٌ للنبي ﷺ أن يضيق صدره لأقوالهم وأفعالهم وطلبهم الآيات الخارقة.

وليس في الآية ما يفيد أن النبي ﷺ قد مال إليهم، وأراد أن يتساهل معهم؛ فزجره الله عن ذلك، وإنما تفيد الآية أن الله تعالى يُطلع السامعين ويخبرهم بمضمون خطابه للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء].

لقد كان المشركون يقولون للنبي ﷺ: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: ١٥] يريدون قرآنًا يوافق أهواءهم، وكانوا يقترحون عليه آيات ويقولون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ أو تكون بطحاء مكة له ذهبًا، أو يَنْزل عليه ملَكٌ يبلِّغُ معه الدعوة إلى الله ﷻ.

وفي هذه الآية يقول سبحانه لرسوله ﷺ مخففًا عنه ومسلّيًا له؛ لئلا يضيق صدره أو يثنيه ذلك عن دعوته: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ من قرآن فيه استهزاء بآلهتهم، وتسفيه لعقولهم التي استساغت أن تشرك مع الله غيره في عبادته ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ بسبب إيذائهم وتكذيبهم لك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ [الحجر].

والمعنى: هل أنت تارك بعض ما يُوحى إليك من القرآن الذي أُنزل عليك؟ حيث لم تجبهم إلى ما طلبوا، ولعل صدرك لا يضيق من تبليغ الدعوة لأجل أن يقولوا: هلَّا أنزل عليه مال كثير يجعله في رغد من العيش، أو جاء معه ملك يصدقه، فأنت مبتلًى إن آمنوا أو كفروا، ومهمتك البلاغ والإنذار.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ فلا تحزن عليهم، ولا تبالِ بهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ فهو الحافظ لك، الشهيد على كفرهم، الموكل بك وبهم، وهو القائم على شؤون العباد يحفظ عليهم أعمالهم.

حَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَى كِتَابٍ يُعَرِّفُهُمْ مِنَ أَيْنَ جَاؤُوا وَإِلَى أَيْنَ يَصِيرُونَ

١٣- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾

هذا الكتاب لَا بُدَّ أن يكون كتابًا معجزًا إلى النخاع، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه مقولة أخرى من مقالات المشركين، وليست هذه المقولة مقصورة على وقت النبي ﷺ، بل إن بعض الناس في كل زمان ومكان يردِّد ما ردَّده المشركون قديمًا، والقرآن يَغْنيهم جميعًا إلى قيام الساعة ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾.

يقول الكفار والملحدون: إن محمدًا أتى بهذا القرآن من عند نفسه؛ أي: افتراه واختلقه.

قل لهم يا محمد: إن كنت قد افتريتُه فأْتوا بمثله في الفصاحة والبلاغة والإعجاز، وبيان حال الأمم وأمور الغيب.

أو ائتوا بعشر سور مثله إن عجزتم عن الإتيان بمثله كله، وهذا التحدي مقرونٌ بالافتراء، للتوسعة عليهم في القَدْر الذي تقوم به الحجة.

أو ائتوا بمثل أقصر سورة من القرآن إن عجزتم عن العشر، كما جاء في سورتي البقرة [٢٣] ويونس [٣٨] دون قيد الافتراء؛ لأن المطلوب فيهما المماثلة التامة في نظمه، ومعانيه وهَدْيه، ووعده ووعيده، أما في هذه السورة، فالمطلوب الإتيان بمثله في النَّظْم فقط من باب التوسعة عليهم.

والسبب في هذا: أن التحدي الذي في سورة البقرة بسبب الشك والارتياب في القرآن، ولا يزيل الريب إلا المماثلة التامة، أما في هذه السورة فالسبب هو قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فطلب منهم مثل ما قالوا، فإن ادَّعيتُم أنني استعنتُ بغيري، فاستعينوا بما شئتم من الجن والإنس وغيرهم من المخلوقات ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

والتحدي قائمٌ إلى قيام الساعة، وكما قال تعالى في سورة البقرة:
﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]

فقد نفى ﷺ أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن في الحاضر والمستقبل، ولو تظاهر على ذلك الإنس والجن معًا ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

والافتراء: هو الكذب عن عمد، ولا شبهة لصاحبه فيه، كما قال تعالى:
﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل].

وهكذا وصف الله الذين يفترون عليه الكذب في الآية الأولى بالكُفْرِ، ووصفهم في الآية الثانية بعدم الإيمان.

وجاء التحدي بالإتيان بسورة واحدة في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] وجاء التحدي في سورة هود بعشر سور.

وسورة يونس نزلت قبل سورة هود، وكلتاهما سورتان مكيتان، وكان من المفروض عقلًا أن يكون التحدي بسورة واحدة قبل التحدي بعشر سور، وقد جاء الأمر عكس ذلك.

وهذا كما يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: زيادة في قهر النفوس، وإشعارًا بالعجز، فإن الذي ينهزم أمام ضربة واحدة، يغرق وينهار إذا قيل له: أمامك عشر ضربات[1].

وقد جاء التحدي بالإتيان بمثل القرآن كله في سورة مكية هي سورة الطور في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور].

وجاء التحدي بسورة واحدة في سورة مدنية هي سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة].

ولعل التحدي للمكذِّبين كان بالإتيان بأي شيء من القرآن قَلَّ أو كثُر، وأن هذا التحدي كان في الفترة المكية أكثر، وفي الفترة المدنية من عصر الرسالة كان أقل، فقد جاء في الفترة المكية في سور: يونس وهود والإسراء والطور، وفي الفترة المدنية في سورة البقرة فحسب، والتحدي قائمٌ إلى قيام الساعة. قال تعالى:

١٤- ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

أي: إن لم يستجب لكم الذين دَعَوْتَهم للمعاونة، وعجزوا عن ذلك، فأنتم أعجز منهم؛ لِأنكُم لم تطلبوا العون منهم إلا بعد عجزكم أن تأتوا بسورة مثله، أو بسورة من مثله ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنه منزل من عند الله بواسطة جبريل عليه السلام على محمدٍ ﷺ كما نزل الوحي على الرسل السابقين، وأتوا أيضًا بمثل هذا القصص القرآني وأخبار

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» (١٧٥).

الأولين والآخرين، واعلموا أن لا إله يستحق العبادة إلا الله، فلا رب غيره ولا معبود سواه، وأنه وحده القادر على إنزاله، وليس في مقدور أحد أن يأتي بمثل أقصر سورة منه.

وبعد أن علمتم ذلك ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ تاركون ما أنتم فيه من الكفر والضلال، منقادون لأمر الله سبحانه، وهذا أمر لهم بالدخول في الإسلام بعد قيام الحجة عليهم، وذهاب العذر المانع من إسلامهم؛ إذ لا يستقيم لكم أن تشكُّوا في هذا الدين، ولا تشكوا في أن هذا القرآن من عند الله.

وقد عُلم من هذا أن الداعي إلى الله لا يصده عن دعوته اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين، لا سيما إذا كان هذا القدح لا مستند له، بل يقبل على الله، ويكتفي بإقامة الدليل السالم من المعارضة.

ثَوَابُ الْعَمَلِ لِلآخِرَةِ وَعُقُوبَةُ الْعَمَلِ لِلدُّنْيَا

١٥- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ[(١)] أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾

والناس في هذه الحياة **صنفان:**

الصنف الأول: هو المؤمن الذي يعمل للآخرة، فيرغب فيما عند الله تعالى، ويتزود لدار الخلود، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، ويعمل في حدود الشرع، بما يعود عليه وعلى مَن يعول، وعلى مجتمعه وإخوانه المسلمين بالخير والنفع والفائدة، وهذا الصنف ممن عمل للآخرة، وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكورًا، وهو ممن قال: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾.

وقال الله عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

وهو ممن قال الله فيهم: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠].

الصنف الآخَر: هو الذي يعمل للدنيا وحدها، يسعى ويكدح ويجتهد من أجل إشباع رغباته وشهواته والذِّكْر بين الناس، فتكون الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، سواء أكان ذلك في جمع المال أو في نيل الشهادة، أو في البحث العلمي، أو في النساء أو الذرية، أو

---

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم)، والباقون بكسرها.

في مختلف ميادين الحياة.

أما الآخرة فليست هدفًا له، فهو لا يؤمن بها ولا يعمل لها، ورغبته فيما عند الله تكاد تكون معدومة، ويخلو عمله من أي قصد يُراد به وجه الله تعالى، فهو يَدرس من أجل الحصول على أعلى الشهادات التي تدُرُّ عليه أكبر عائد مادي، ويسعى من أجل الحصول على أعلى منصب أو جاه، أو أكبر عائد مادي، وهمه في ذلك هو أن يسعى لتحقيق شهواته وملذاته، وإشباع رغباته البهيمية، وكأنما خُلِقَ من أجل هذا.

هذا النوع الأخير من الناس يعطيه الله تعالى حظه ونصيبه كاملًا في الدنيا، فهي جنتُه وفيها متاعه، وهو محروم من الأجر والمثوبة، ومن كل نعيم أعده الله لعباده الصالحين في دار البقاء والخلود؛ لأنه لم يعمل للآخرة، ولم يرغب فيما عند الله تعالى.

وهذا النوع من الناس متوافر في الحياة، في مختلف أرجاء المعمورة، في كل زمان ومكان، على مستوى الأفراد والشعوب والأمم.

ومنهم مَن يتقدم في علوم الحياة، ويحقق أعلى مستوى اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي أو حضاري، ولكنهم أجهل ما يكون بالنسبة لعلوم الآخرة والعمل لها، وهم ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم].

ولا يعجب المسلم حين يرى هذا الصنف من الناس يتقلب في متاع الدنيا ونعيمها، أو يأخذ حظًّا كبيرًا من المال والجاه، أو السطوة والسيطرة على غيره من البشر، بما أُوتي من علم دنيوي، أو من مال أو سيادة سياسية أوعسكرية أو غيرها؛ لأن هذا هو مقتضى سُنة الله تعالى في هذا الكون، فهو محرومٌ من نعيم الآخرة، وجزاؤه جهنم وبئس المصير.

ويتضح الفَرْقُ بين الصنفين في هاتين الآيتين: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى].

وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء].

وفي الحديث عن زيد بن ثابت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن كانت الآخرة نيَّته جعلَ

الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَن كانت الدنيا نيَّته فرق الله عليه شمله، وجعل الله فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له»[1].

قال قتادة: مَن كانت الدنيا همَّه وطلبته ونيَّته؛ جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة[2].

فطالب الدنيا لا يشبع أبدًا، وإن أوتي أموال قارون، وهو في قلق دائم وخوف مستمر على كساد تجارته، أو ضياع أمواله، فأمْره مشتَّتٌ وباله غير هادئ، وهو دائم الفِكْرِ في مصادر الأموال ومواردها وتنميتها، ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة التي معنا.

أي: مَن كان يريد، بقوله وعمله، الحياة الدنيا وزينتها ومُتَعها، نؤدِ إليهم ثمرات أعمالهم التي عملوها في الدنيا وافية غير منقوصة، ولا نبخسهم شيئًا من جهودهم، بل نجازيهم عليها في الدنيا، وهذا من مظاهر عدل الله تعالى مع عباده.

فهذا صنف من الناس يعمل للدنيا وحدها، وليس للآخرة عنده من نصيب، فهو عبدٌ لدنياه، وهذا ما يسميه النبي ﷺ في الحديث المشهور عن أبي هريرة ﷺ عبد الدينار وعبد الدرهم، فيقول ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطي رَضِيَ وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش»**[3].

والمقصود بقوله ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم»** أي: الذي يسعى من أجل المال والجاه والمتاع والشهوة، فهذا همه في هذه الحياة.

وقوله: **«تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»** هذا يشبه عبدَ المَظَاهِر: عبْدَ السيارة، عبدَ المنزل، عبد القيلا، عبد الثياب، عبد البدلة، عبد الشهوة، عبد الأثاث، هذه بعض أنواع

---

(١) من حديث زيد بن ثابت في «سنن الدارمي» برقم (٢٣٣) و«صحيح ابن حبان» في الإحسان (٢/ ٤٥٤) من طريق أبي داود الطيالسي عن شعبة، قال محققه: إسناده صحيح، وهو في «سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٥) عن أنس، وفي البزار والطبراني، وعند ابن ماجه عن زيد بن ثابت، (٤١٠٥) وصحيح ابن ماجه (٣٣١٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٠٥) والسلسلة الصحيحة (٩٥٠) وصحيح ابن ماجه (٣٣١٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣١١).

(٣) الحديث عن أبي هريرة في البخاري برقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧).

المتاع والمظاهر، والتقاليد الاجتماعية، التي يشير إليها قول النبي ﷺ في هذا الحديث.

والخميصة: هي الثياب المزركشة.

والخميلة: هي الشَّمْلة تكون فوق الرأس وحول العُنق.

وهذا الصنف من الناس: «**إن أعطي رضي وإن لم يعطَ سخط**» يرضى عند وجود المادة، ويسخط عند عدمها، وكأن قيمة الإنسان عنده فيما يلبس، وفيما يركب، وفيما يسكن، إنه يسعى للمظهر وتقليد المجتمع.

«**تعس وانتكس**» دعاءٌ عليه بأنه كلما تقدَّم تعثَّر «**وإذا شيك فلا انتقش**» دعاءٌ عليه بالوبال والثبور والشقاء في هذه الحياة؛ أي: إذا أصابته شوكة فلا أخرجها بالمنقاش.

وهذا الصنف من الناس يقول الله تعالى عنه: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نعطيهم في الدنيا ما يشاؤون ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا يجازَوْن على كفرهم بسَلْب بعض النعم عنهم، بل يُتركون وشأنهم، استدراجًا لهم وإمهالًا، فحظهم من النعمة ما يحصل لهم منها، ولا ينقصون شيئًا من متاع الدنيا وزخرفها؛ لأن الدنيا جنتهم، ومتاعهم فيها قليل، ويبقى عليهم أوزار نياتهم السيئة، يجنون ثمارها في الآخرة. قال تعالى:

١٦- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

أي: إن الذين يعملون للدنيا فحسب، ويراؤون الناس بأعمالهم، ولا يطلبون ما عند الله من الأجر والمثوبة ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ فهي جزاؤهم ومصيرهم يوم لقاء الله، بعد أن استوفوا ثوابهم في الدنيا ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: بَطَلَ ما عملوه في الدنيا من أعمال إنسانية، فيها نفع وخير للبشرية، أو لبعض الشعوب، أو الأمم، أو الأفراد، وهذا العمل لا أجر عليه ولا مثوبة في الدار الآخرة؛ لأن الأصل -وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالرسول الخاتم- غير موجود، فلا يترتب عليه ثوابٌ في الآخرة، وهذا معنى: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أن عمله النافع الذي قدَّمه في الدنيا يصير في الآخرة هباءً منثورًا كسراب بقيعة، لا يفيد صاحبه شيئًا، إما لأنه لا يؤمن بالله، أو لأنه لم يُرِدْ به وجهه الكريم.

وفي هذا تنبيه للمؤمنين ألا يغتروا بظاهر أحوال الناس لا سيما أهل الكفر، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

وهذا الحصر الذي في الآية يفيد استحقاقهم للنار وخلودهم فيها، وهو يفيد أن هذا العمل لا يصْدُر إلا عن الكافر؛ لأن المؤمن لا يخلو من خير الآخرة وطلب ما عند الله تعالى.

وظاهر هاتين الآيتين أنهما في الكافر الذي لا يريد بعمله إلا الدنيا فقط؛ لأنه لا يعتقد باليوم الآخر، ولا بما يكون فيه من ثواب وعقاب، فهؤلاء لا يحصل لهم في الآخرة إلا النار الموقدة، ويدخل في دائرة الكفر كلُّ مَن لم يؤمن بخاتم الرسل ﷺ.

وتشمل الآية أيضًا المرائين الذين لا يقصدون بأعمالهم وجه الله تعالى، وإنما يراؤون الناس.

وبهذا قال معاوية حين حدَّثه سَيَّافُه (شَفيٌّ بن مانع الأصمعي) بحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: **«أول من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة ثلاثة: المتصدق رياء، والمجاهد رياء، وقارئ القرآن رياء»** فلما حدث شفيٌّ معاوية بهذا الحديث بكى، وقال: صدق الله ورسوله، وتلا هاتيْن الآيتين[1].

أما عُصاة المؤمنين الذين يُؤثرون الحياة الدنيا ويفضِّلونها على الآخرة، فلهم مقصد آخر هو أن الله تعالى يَجزيهم في الآخرة جزاء حسنًا، فهؤلاء يستحقون شيئًا من عذاب النار بتفضيلهم الدنيا على الآخرة، وتقديم مرادهم على مراد الله تعالى، ولكن الله تعالى يتغمدهم برحمته؛ لأن الأصل -وهو الإيمان- متوفر فيهم، ومَلْحَظُ الرياء فيهم غير خالص.

شَهَادَةُ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

١٧- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

---

(١) قصة معاوية هذه في «تفسير ابن عطية» (٣/١٥٦) وانظر الحديث في «صحيح مسلم» (١٩٠٥) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٤٢) والبيهقي في «الشعب» (٦٨٠٥).

وبعد أن بيَّن سبحانه أن طلاب الآخرة لا يستوون مع طلاب الدنيا، فالراغب فيما عند الله لا يستوي مع الراغب في حُطام الدنيا، وإذا كانت الآية السابقة قد ذَكَرَتْ حُكْم المكذبين الذين يعملون للدنيا، ولا يرجون من الله ثوابًا، فإن هذه الآية ذَكَرَتْ حكم المقابلين لهم، وهم المؤمنون بالقرآن، الذي جاء به محمدٌ ﷺ، المنتفعون ببراهينه وحُججه، وإذا كان المكذِّبون قد كفروا به، فإن المسلمين قد آمنوا به، ولا يستوي مَن آمن بمن كَفَرَ.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ١٩، ٢٠]

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة].

هذا: والمراد بالبينة في الآية: القرآن والوحي المنزل من عند الله، والمراد بالشاهد هو السنة.

فهي وحي يتلو القرآن ويتبعه ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وكتاب موسى هو التوراة.

وقيل في الشاهد أقوال أخرى، فقيل: هو الفطرة وميثاق التوحيد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في عالم الذر، وقيل هو العقل الصحيح، ولعل ما بدأتُ به هو الأنسب، وقال بالثاني الألوسي.

وعلى كل ففي الآية شهود ثلاثة على صدق محمد ﷺ هي: القرآن والسنة والتوراة.

والبينة: هي القرآن؛ أي: أفمن أيده الله بهذا القرآن دليلًا على صدقه، كمن زَين له الشيطان سوء عمله فكفر به؟ قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد]

ثم إن التوراة كتاب موسى دليل على صِدْق محمدٍ ﷺ، فهي أيضًا آية بينة له لكونها بشَّرتْ به.

ومن شأن اليهود والنصارى وغيرهم أن يؤمنوا بالرسالة الخاتمة، فإن كفروا بها فسوف يقيض الله لها قومًا آخرين يؤمنون بها ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف].

والبينة هي التي تبين الحق وتوضحه، والرسل قد جاؤوا أقوامهم بالبينات من ربهم، وكل رسول منهم كان يحتج على قومه بأنه على بينة من ربه، أيده الله بالمعجزات والدلائل الدالة على صدق رسالته، كما جاء ذلك في قصصهم بهذه السورة وغيرها.

والمعنى: أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه، تهديه إلى الحق والصواب في كل أقواله وأفعاله -وهو محمد ﷺ وكل مَن آمن به واتبعه- كمن استحوذ عليه الشيطان؛ فجعله لا يريد إلا الحياة الدنيا؟ لا يستويان.

وهكذا نجد في هذه السورة أن نوحًا وصالحًا وشعيبًا ﷺ كل منهم قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨، ٦٣، ٨٨].

فهذه البينة هي التي ذكرتها السورة بإجمال في هذه الآية، ثم جاءت مفصلة في قصة كل منهم صلوات الله عليهم أجمعين، وبينة محمدٍ ﷺ هي القرآن.

أما الشاهد الذي هو من القرآن المذكور في قوله تعالى: ﴿شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ فهو على رأي بعضهم: هو شاهد نابع من القرآن ذاته ﴿مِّنۡهُ﴾ وليس من خارجه، وهو إعجاز القرآن، وما فيه من الغيبيات، وأخبار الأولين والآخرين، وهو وصفٌ ثابتٌ له لا ينفك عنه[١].

وعلى هذا القول: فإن البينة التي جاء بها محمدٌ ﷺ من ربه هي القرآن، والضمير في ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ يعود على القرآن؛ أي: يتبعه وينطق بصدقه، والضمير في ﴿مِنۡهُ﴾ يعود على القرآن أيضًا ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على نور ساطع وبرهان واضح من الله تعالى كمن كفر بالله وكذب رسله وأنبياءه.

والذي على بينة من ربه هو الرسول ﷺ والمؤمنون معه، فهم على حجة وبرهان ووحي مُنْزَلٍ من عند الله تعالى على رسول الله ﷺ هو القرآن، ويتبع هذا الرسول شاهد من الله يصدقه ويشهد بصحة دعوته بالبرهان والحجة، وهو إعجاز هذا القرآن الذي نزل به جبريل على محمدٍ ﷺ، أو هو السنة النبوية، أو هو الفطرة الصحيحة والعقل السليم.

---

(١) ينظر في معنى الشاهد: «تفسير الألوسي» (١٢/ ٢٥).

فالآية إخبارٌ عن المؤمنين الذين هم على الفطرة والاعتراف بكلمة التوحيد، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء**»(١).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانًا**»(٢).

وهذه الفطرة جاء بها القرآن في آية الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم وهم في صلب أبيهم آدم.

ثم إن هذا الدين الخاتم يشهد بصحته وصدقه أيضًا ما أوحاه الله إلى الأنبياء السابقين من الشرائع المتعددة التي خُتمت بشريعة محمدٍ ﷺ، كشريعة موسى ﷺ في التوراة وهذه الشرائع من الله تعالى، والفطرة تصدقها وتؤمن بها.

فرسالة محمدٍ ﷺ مُؤَيَّدَةٌ بالبرهان الإلهي الحاسم المتمثل في هذا القرآن العظيم، ومن قبل هذا البرهان شهادة النبوات السابقة، فلا يوجد أرسخ قدمًا من هذه الرسالة الخاتمة، وكل مَن يكفر بها كائنًا من كان يدخل النار.

فالبينة: هي الوحي المنزل على رسول الله ﷺ بما يحمله من إعجاز ودلائل وبينات بصِدْقِ النبي ﷺ إلى قيام الساعة.

والشاهد: هو السنة النبوية رديف الوحي المبينة لما في القرآن والمفصِّلة لمجمله، هذا هو الأرجح، وقيل: هو شاهد الفطرة التي أودعها الله في الإنسان، وأخذ عليه الميثاق بها والإقرار بالتوحيد قبل أن يوجد في هذه الحياة، وهذا الشاهد يتضمنه هذا القرآن المعجز: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٥٨، ١٣٨٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٨) وهو في «المسند» (٤/ ٣٩٦) بأرقام: (٧١٨١، ٧٧١٢، ٧٧٩٥) و«مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦١) و«تفسير الطبري» (١٥/ ٢٨١).

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥).

وإلى جوار هذه الفطرة: العقل الصحيح الذي يَهدي صاحبه إلى طريق الخير والرشاد، والعقل هو مناط التكليف، والثواب والعقاب.

وهناك **شاهد آخر نزل قبل القرآن**: هو التوراة التي نزلتْ على موسى ﷺ، وفيها صدق ما جاء به محمَّد ﷺ، وإلى هذا الشاهد يشير قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: التوراة ﴿إِمَامًا﴾ تقتدي به أمته ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم من الله تعالى.

ومَن آمن بالتوراة حق الإيمان، وكان ممن أدرك رسالة محمدٍ ﷺ وآمن به وصدقه، كما بشرت به التوراة، أولئك الموصوفون بما سبق هم الذين يؤمنون بالرسول ﷺ وبالإسلام وبالقرآن، وهذا معنى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

ومَن يكفر بالقرآن وبرسول الإسلام، من سائر الملل والنحل، وجميع أهل الشرائع السابقة من جميع الأحزاب إلى قيام الساعة ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[١].

أي: لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ولا غيرهم من سائر الملل إلى قيام الساعة، ثم لا يؤمن بخاتم النبيين، ولا بالكتاب الذي نزل عليه، إلا أدخله الله النار، فجميع البشر على اختلاف دياناتهم السماوية والأرضية، من لدن بعثة محمدٍ ﷺ إلى يوم القيامة، هم أمة الدعوة، وهم مكلفون بوجوب الدخول في الإسلام، والإيمان بخاتم الرسل والنبيين، ومن خرج عن ذلك دخل النار.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣)، ومسند أحمد (٨٢٠٣،٨٦٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، وأخرجه البغوي (٥٦) وأبو عوانة (١/ ١٠٤).

قال: «**ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، ولا يؤمن بي إلا دخل النار**» قال ابن عباس: فجعلت أقول: أين تصديقها في كتاب الله؟ حتى وجدت هذه الآية ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾(١).

فلا تكُ -أخي المسلم- في مرية مما أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ، وليس المراد تحذير النبي ﷺ من الشك في القرآن، ولكن هذا المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة: ٢٣] فالمراد هو التعريض بالذين أنكروا الوحي المنزل ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾

فالقرآن: هو الكتاب الخاتم المهيمن على ما سبقه من الكتب، وهو المحفوظ بحفظ الله له ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

وفي هذا نهي عن الشك في هذا القرآن العظيم من جميع البشر، وقد جاء هذا النهي في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة].

ثم بين سبحانه في الآيات التالية، أن أكثر الناس لا يصدقون أنه من عند الله.

جَزَاءُ الأَشْقِيَاءِ وَالسُّعَدَاءِ ومَثَلُهُمَا

١٨- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

الصنف الآخر من الناس في مقابل المؤمنين بالله ورسوله؛ هم المكذبون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك؛ فخسروا أنفسهم وأهليهم ودنياهم وأخراهم، وقد كان للكفار عادات وعقائد أبطلها الإسلام: فمنهم مَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، ومنهم مَن كان ينكر نبوة محمدٍ ﷺ ويقدح في معجزاته؛ فأبطل الله ذلك بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

(١) «المستدرك» على شرط الشيخين بموافقة الذهبي (٢/ ٣٤٢) وسعيد بن منصور (١٠٨٤) وهو حديث صحيح لغيره لمجيئه في الحديث السابق، قال محقق سعيد بن منصور: سند رجاله ثقات، وفيه انقطاع بين سعيد بن جبير وأبي موسى.

ومنهم من كان يزعم أن الأصنام تشفع له عند الله؛ فأبطل الله هذا الصنف الأخير في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ولا أطغى ممن اختلق الكذب على الله تعالى فكذَّب بالوحي، أو كذَّب بالقرآن، أو كذَّب برسول الله، فلم يؤمن به، أو ادَّعى النبوة، أو نسب الشريك والولد إلى الله سبحانه، أو عبَد غيره جل شأنه، أو اتَّخذ شفعاء من دون الله، أو وصف الله تعالى بما لا يليق بجلاله، أو غير ذلك من أنواع الكذب على الله تعالى.

وكان هذا الصنف أشد الناس ظلمًا؛ لأن هذا الكذب ليس كذبًا على أحد من خَلْقِ الله، إنه كذب على الله!!

وهؤلاء الكذبة الظَّلمة يُعرضون يوم القيامة في جملة الخَلْق على الله تعالى بذواتهم، أو تعرض أعمالهم على رب العالمين يوم الحشر والجزاء؛ للتشهير بهم وخزيهم وفضيحتهم، وإلا فإن كل إنسان معروض على الله يوم القيامة.

ويقول الأشهاد من الملائكة والحفظة الذين كانوا يسجلون عليهم أعمالهم، وكذا الأشهاد من الرسل والأنبياء، والأشهاد من الناس الذين يشهدون عليهم بأنهم قد افتروا على الله الكذب، حيث يفضحهم الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة، يقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، لقد حقت عليهم اللعنة دائمًا، واستوجبوا عذاب الله تعالى.

وهكذا: الظالم والكافر والفاسق الذين عنتْهم الآية، يُفضحون على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، ويقول الأشهاد من الملائكة والرسل والناس والخَلْقِ جميعًا: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهي لعنة دائمة لا تنقطع، وهؤلاء الظالمون هم:

١٩- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

ثم وصف ربنا هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وصدوا الناس عن دين الله وشرعه، بأنهم قد ضلوا في أنفسهم، وأضلوا غيرهم؛ فمنعوا الناس من الوصول إلى الإسلام، وصدوهم عنه؛ وحرموا أنفسهم من الطريق القويم، وذلك لأنهم يريدون طريق الإسلام معوجًا غير مستقيم، فهم يفعلون الحرام ويستحلُّونه، وينفِّرون الناس من الإسلام، ويُلْقُون عليه الشُّبه التي تَصْرِفُ الناس عن دين الله، وهم إلى جوار ذلك كافرون بالله واليوم الآخر ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾. قال تعالى:

٢٠- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ[1] لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ۝٢٠﴾

ثم توعدهم الله سبحانه بالعذاب المضاعف يوم لقائه، وأنهم لم يكونوا معجزين الله في الأرض؛ أي: أن هؤلاء الكذبة الظالمين للناس ولأنفسهم لم يخرجوا من قدرتنا وسلطاننا وقهرنا، بل هم في قبضتنا وتحت قدرتنا، ولن يفْلتوا أو يَهْربوا منا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ونحن قادرون على الانتقام منهم في الدنيا والآخرة، ولكن الله يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

وليس لهم ناصر ينصرهم غير الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ فليس هناك مَن يدفع عنهم العذاب، أو ينصرهم من دون الله، والآلهة التي عبدوها من دون الله ليست أولياء لهم على الحقيقة، ولا يملكون لهم ولا لأنفسهم شيئًا، بل يُضاعَف لهم العذاب يوم القيامة ضعفين؛ لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ۝٨٨﴾ [النحل] أي يضاعف لهم العذاب؛ لأنهم يكرهون كلمة الحق، ويكرهون الصالحين من عباد الله، ولا يطيقون الجلوس معهم، ولا يطيقون صحبتهم، وبيوت الله كريهةٌ إلى نفوسهم، وكذا سماع القرآن، وسماع العِلْم، والذِّكْر، فهم لا يطيقونه، لأن قلوبهم مقفلة، وأبصارهم عليها غشاوة.

﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ لقد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، فهم لا ينتفعون بشيء، وهم لبغضهم للنبي ﷺ لا يستطيعون حمل أنفسهم على الاستماع إلى قرآنه أو النظر إليه.

فإن الطفيل بن عمرو قد حشا أذنيه بالكُرْسُفِ، وكذا من أنابتهم قريش في صلح الحديبية؛ لئلا يسمعوا ما نُقِل إليهم من كلام الرسول ﷺ كأن في آذانهم وقرًا، وهو عليهم عمى، كما تقول: فلان ثقيل الدم؛ أي: لا تريد أن تراه.

وهكذا بعض الناس يُعرِض عن الحق، ويعرِض عن قبول الهدى، وعن سماع العلم وقراءته، لأن قلبه مغلق، وعلى بصره غشاوة، إنهم لا ينتفعون بالوسائل والحواس التي خلقها

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين (يضعّف)، والباقون (يضاعف) بإثبات الألف وتخفيف العين.

الله لهم، بل عطَّلوها واستعملوها في غير ما خُلقت له، ولم يُبصروا طريق الحق والهدى.

وقُدِّم السمع على البصر في هذه الآية؛ لأن حاسة السمع أشرف من حاسة البصر، فبالسمع تَعرِف الأطفال دِلالات الأسماء، والسمع يكفي في معرفة المعقولات دون البصر.

وقد كان الكفار في الدنيا صمًّا عن سماع الحق، عميًا عن اتباعه ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك]

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال].

وهؤلاء قد حيل بينهم وبين طاعة الله تعالى في الدنيا والآخرة:

أما في الدنيا فلقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: في الدنيا فهم لا ينتفعون بما يسمعون.

قال تعالى ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر].

وهذا يعني عدم تلبيتهم وعدم إجابتهم للطاعة وهم في الدنيا.

أما في الآخرة فلِقوْله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ﴾.

هذا في الآخرة ﴿وَقَدْ كَانُوا۟﴾ وهم في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

ولهذا شبَّه الله الكافر بالأعمى والأصم، وشبَّه المؤمن بالسميع والبصير، وبيَّن تعالى أنهما لا يستويان، فالكافر لم يسمع الحق وعمي عنه فلم يبصره، والمؤمن سمع الحق وانتفع به، وأبصره فوعاه وحفظه.

وقد توعد الله بالويل وشدة العذاب مَن يُعرض عن آياته فلم يستجب لها، ولم يعمل بمقتضاها فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الجاثية].

وقد كان بعضهم يحرص على عدم الاستماع للقرآن، وعلى التشويش واللغو فيه عند سماعه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]. قال تعالى:

٢١- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

وأي خسران هذا!! إنهم خسروا دنياهم وأخراهم، ولا خسران أعظم من خسران النفس، وغاب عنهم يوم لقاء الله ما كانوا يفترونه على الله تعالى من اتخاذ الشريك والولد، ولم تُجْدِ عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله من شيء، بل ضرُّوهم أشد الضرر:

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم]

وقال أيضًا: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف]

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ويوم القيامة يتبرأ العابد من المعبود، والمعبود من العابد. قال تعالى:

٢٢- ﴿لَا جَرَمَ(١) أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

حقًّا وصدقًا إنهم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، فهم يُعذبون في نار جهنم لا يفتر عنهم عذابها طرفة عين، وهم في جهنم آيسون من رحمة الله، لقد خسروا نعيم الجنة بحميم النار، واستبدلوا بالرحيق المختوم سمومًا وحميمًا وظلًّا من يحموم، واستبدلوا بالحور العين وما تشتهيه الأنفس، من كل ما لذ وطاب، الزقوم والغِسْلِين، واستبدلوا بقُرْبِ الرحمن غضَب الديَّان، فلا جرم أنهم الأخسرون ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

ولما ذكر سبحانه حال الأشقياء أتبعه بذكر حال السعداء ومالهم عند الله من نعيم:

٢٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ثم بيَّن سبحانه مصير المؤمنين السعداء في مقابل التعساء الأشقياء، فالذين رجعوا إلى

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد (لا) من (لا جرم) أربع حركات، والباقون بالقصر.

ربهم؛ فآمنوا به وتزوَّدوا بالعمل الصالح، وأنابوا إليه بالخشوع والخضوع والانقياد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون في نعيم لا يحول ولا يزول.

ويبين النبي ﷺ فيما يرويه عبد الله بن عمر ﵁ عن يوم القيامة: «**إن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنَفه، فيستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يُعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»(١).

وهذا هو الحساب اليسير المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾ [الانشقاق: ٧-٩]

وهذا هو الحساب اليسير، ومن نُوقش الحساب عذب، نسأل الله السلامة والعافية.

٢٤- ﴿۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(٢)﴾

ثم ضرب الله تعالى المثل المحسوس للفريقين: الكافر والمؤمن، السعيد والشقي، فالكافر لا ينتفع بالنور والهدى، مِثْلُ الذي لا يرى ولا يسمع، فهو أعمى وأصم، والمؤمن ينتفع بالهدى والنور، مِثْلُ السميع البصير، الذي يسمع وينتفع بهذه الحواس، هل يستويان مثلًا؟ هل يستوي الأعمى والبصير؟ وهل يستوي الأصم والسميع؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥﴾ فتتعظون وترغبون فيما عند الله، وتعتبرون بهذه الأمثال المضروبة في القرآن وأنه ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ [الحشر: ٢٠]

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ۝٢١﴾ [فاطر].

هذا: وقد ذكرتْ هذه الآيات الخمس أربعة عشر وصفًا للكفار:

---

(١) أخرجه أحمد عن ابن عمر (٢/ ٧٤) برقم (١١٢٨٣) و«صحيح البخاري» برقم (٢٤٤١، ٤٦٨٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٤٢) وابن ماجه (١٨٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٧٢) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٨٩).

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذكُرون)، والباقون بتشديدها.

أولها: افتراء الكذب على الله، **وآخرها**: الخسران في الآخرة.

وهذه الأوصاف هي:

١- افتراء الكذب على الله.
٢- التشهير بهم في عَرَصَات يوم القيامة.
٣- طردهم من رحمة الله تعالى.
٤- وصفهم بالظلم.
٥- صدهم الناس عن دين الله.
٦- معرفتهم للإسلام لا بد أن تكون معوجَّة.
٧- الكفر باليوم الآخر.
٨- عدم فرارهم من عذاب الله تعالى.
٩- عدم وجود الناصر لهم.
١٠- عدم انتفاعهم بنعمة السمع.
١١- عدم انتفاعهم بنعمة البصر.
١٢- خسرانهم لأنفسهم.
١٣- فَقْدهم لمن عبدوهم في ساحة الحشر يوم القيامة.
١٤- استحقاقهم للنار يوم القيامة.

كما بيَّنت الآية السادسة حال المؤمنين وبشرتْهم بالخلود في الجنة، ثم ضربت مثلًا للفريقين، وشبهت حاله بما يناسبه من صفات، وفي ذلك هدايةٌ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

تَمْهِيدٌ لِقَصَصِ السُّورَةِ

وتمضي سورة هود بعد الربع الأول منها، وعلى مدى ثلاثة أرباع السورة، مع مشوار العقيدة، ودعوة الرسل إلى أممهم، فتذكر سبعة من قصص المرسلين، تبدأ بنبي الله نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم إبراهيم، ثم لوط، ثم شعيب، ثم موسى، عليهم جميعًا وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ويُمثِّل تلك المدرسة الإلهية، المعلمون، وهم الأنبياء والرسل، والتلاميذ، وهم الأمم، الذين يدرسون ويتعلمون على أيدي أنبيائهم، وكل رسول منهم أُرسل إلى قومه، أما الرسالة العامة الخاتمة فلم تكن إلا إلى محمدٍ ﷺ.

وقد ذُكرت القصة في القرآن تثبيتًا لقلب النبي ﷺ، وشحْذًا لهمته، وتسليةً له ﷺ.

يقول تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وفي قصص القرآن العبرة والعظة التي يُستفاد منها بأحوال مَنْ سبق من الأمم التي كذبت رسلها، ويدخل في هذه الأمم اليهود والنصارى وغيرهم.

وهذا القصص من عند الله وليس حديثًا يفترى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩].

والقصة في القرآن يستفيد منها الدعاة إلى الله تعالى، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر إلى قيام الساعة؛ كي يصبروا ويتحملوا الأذى من أقوامهم، ويدفعهم ذلك إلى تحمل الشدائد في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ومن هنا فإن القصة في القرآن تُعرض بين الحين والآخر بأساليب متعددة، مفصلة مرة ومجملة مرة، جزء منها هنا وجزء منها هناك.

القِصَّةُ الأُولَى: قِصَّةُ نُوحٍ عليه السلام

نبذة عن نوح عليه السلام الجد الأعلى لنوح عليه السلام هو إدريس عليه السلام، وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم، وبين آدم ونوح -كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه- عشرة قرون، وقد ذُكر نوح في القرآن ثلاثًا وأربعين مرة، وفُصِّلت قصته في خمس سور؛ هي: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، بالإضافة إلى سورة خاصة تحمل اسمه هي سورة نوح، التي تبين دعوته ورسالته إلى قومه.

ونوح عليه السلام هو شيخ المرسلين؛ لأنه قضى أطول مدة في الرسالة، قطع القرآن بأنها ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهذا ليس عُمْر نوح عليه السلام، ولكنها مدة الرسالة، وقد عاش نوح قبل النبوة أربعين أو خمسين أو ستين عامًا كما ذكر المؤرخون، وعاش بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين عامًا، ويعتبر عُمْر نوح على الأرجح ١٣٥٠ عامًا.

ونوح أول رسول كما جاء ذلك في حديث الشفاعة العظمى، في صحيح مسلم وغيره عن أنس: «**ولكن ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله**» فالناس يوم القيامة يفزعون إلى آدم أبي البشر، يطلبون منه أن يقضي الله بينهم، بعد أن تصبَّبوا عرقًا، فيرسلهم آدم إلى نوح، ويحيلهم نوح على إبراهيم وهكذا، حتى يشفع فيهم محمد ﷺ.

والذين نجوا في السفينة مع نوح بعد الطوفان هم أصل الخليقة، ولذلك سُمي نوح بأبي

البشر الثاني، وهو أول مَن أرسله الله تعالى بالتخويف والإنذار إلى أول أمة عَبَدَتِ الأصنام، وكان قبله آدم، ثم شيث بن آدم، ثم إدريس، وقد ذُكر إدريس في القرآن ضمن عدد المرسلين، فهو جد نوح الأعلى، وقوم نوح هم أول مَن ردوا دعوة الرسل، ومَن ردَّ دعوة رسول فقد ردَّ دعوة الرسل جميعًا.

وقد كان الناس من لدن آدم إلى نوح على التوحيد، وهو الإسلام الذي جاء به الرسل جميعًا ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] فالرسالات التي قبل نوح كانت للهداية والدعوة إلى الله تعالى دون محاربة الشرك، فقد دعا إدريس قومًا موحدين، ثم ظهر الشرك في قوم نوح بسبب التماثيل، ولذلك حاربها الإسلام؛ لأنها تفضي إلى الشرك.

وصح عن ابن عباس ﷺ أن أسماء الأصنام التي عبدها قوم نوح هي: (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) وهذه الأسماء كانت لرجال صالحين ماتوا، ثم غالى الناس في حُبهم، فنصَبوا لهم صورًا وتماثيل تُذكِّرهم بهم، حتى يعبدوا الله تعالى كعبادتهم، ثم تغير الناس وتغيرت الأجيال، ونُسي التاريخ والعلم، فعبد الناس هذه الأصنام من دون الله، وكان ذلك من أسباب الغلو في محبة الصالحين.

إذن: فقد كان الناس أمة واحدة على دين واحد هو الإسلام، فاختلفوا من عهد نوح، فكان منهم مَن آمن ومنهم مَن كفر، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين؛ لمحاربة الأصنام وتوحيد الواحد الديان.

وكان أولهم نوح، دعا قومه ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فلم يزدهم دعاؤه لهم إلا فرارًا.

وسورة هود فيها أطول وأكثر الآيات التي تتحدث عن نوح عليه السلام، وفيها صُنع السفينة، وفيها موقفه من ابنه الكافر، وهذه النقاط لم تأتِ مفصلة في موضع آخر من القرآن الكريم.

نُوحٌ عليه السلام يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ

٢٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي[1] لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾

أي: ولقد أرسلنا رسولنا نوحًا أول المرسلينَ يدعو قومه إلى توحيد الله وينهاهم عن

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر بفتح الهمزة (أني لكم) على تقدير حرف الجر، وقرأ الباقون بكسرها على إضمار القول.

الشرك، فقال لهم: إني أخوفكم من عذاب الله إن عبدتم غيره، وظللتم على ما أنتم عليه، وهذه هي المهمة التي جاءت الرسل من أجلها، فكل رسول قال لقومه هذه العبارة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ قال نوح لأقربائه وعشيرته: إني نذير لكم من عذاب الله، مبيِّن لكم ما أُرسلت به إليكم من أمر الله ونهيه.

٢٦- ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّيَ[1] أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

أي: أرسلنا نوحًا إلى قومه محذرًا وموضحًا لهم أنَّ من موجبات عذابه تعالى أن يعبدوا غيره، فإن هذه العبادة ستؤدي إلى وقوع العذاب المؤلم بكم، فأنا آمركم بالإخلاص وأن تتوجهوا بعبادتكم إلى الله وحده، وأن تُخلصوا له الطاعة والعبادة، وما حملني على ذلك إلا خَوْفي عليكم، وشفقتي بكم، فأنا منكم وأنتم مني بمقتضى صلة القرابة والنسب.

اتِّهَامُ قَوْمِ نُوحٍ لَهُ بِأَرْبَعِ تُهَمٍ

٢٧- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ[2] الرَّأْيِ[3] وَمَا نَرَىٰ[4] لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

فكان جواب الأشراف والأغنياء والأقوياء والسادة من قوم نوح يتكون من **أربع تهم**:

التهمة الأولى: قولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فأنت لست بملَك، ولكنك بشر، فكيف أُوحي إليك من دوننا؟ فلا فضل لك علينا، وهؤلاء السادة لهم قصد وهدف، فهم يخشون على مناصبهم ومكانتهم عند القوم، وأما ضعاف القوم وفقراؤهم، فلم يصرفهم شيء عن إجابة الدعوة.

والضعفاء: هم أتباع الرسل في كل زمان ومكان، ومن ذلك أنه لما سأل هرقل أبا سفيان عن صفات الرسول ﷺ فكان مما قال: هل اتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان: الضعفاء، فقال هرقل: الضعفاء هم أتباع الرسل.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ أبو عمرو (بادئ) بهمزة مفتوحة بعد الدال، وقرأ الباقون بغير همز.

(٣) أبدل همزة (الرأي) الأصبهاني وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه.

(٤) أمال (نراك) في الموضعين و(نرى) حمزة والكسائي وخلف، وابن ذكوان بخلف عنه، وقللها ورش.

وهكذا كبار قوم نوح يقولون له: أنت بشر مثلنا تأكل مما نأكل، وتشرب مما نشرب، وتتزوج مثلنا، ولست من أهل الثراء، فكيف تكون نبيًّا؟ وفي هذا تعريض منهم بأنهم أحق بالنبوة منه، وأن الله تعالى لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم.

وقد جاء هذا الاعتراض في سورة المؤمنون، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وهكذا عمد قوم نوح إلى تكذيبه حيث اتهموه بالضلال، كما في سورة الأعراف ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

التهمة الثانية: قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: من الفقراء والضعفاء والعمال والصناع وأصحاب المهن، وهؤلاء أحقرنا حالًا، وأهوننا أمرًا، فلا نَعتدُّ بهم، وليسوا قدوة لنا، وكلمة ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ لأول وهلة؛ أي: اتبعوك من غير تعقُّل ولا تدبُّر، فليسو على بصيرة من أمرهم.

وفي الأثر: ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر، فإنه لم يتلعثم[1] أي: لم يفكر ولم يتردد، بل رأى برهانًا ساطعًا فبادر إليه.

وقد وضَّحتْ سورة الشعراء أن الذي منعهم من اتباع نوح هم أسافل القوم وأراذلهم ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آية].

وقد طلب الملأ من قوم نوح أن يطرد هؤلاء الضعفاء عن مجلسه حتى يؤمنوا به؛ فقال لهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] وقال لهم: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء] وقال: ﴿مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ [هود: ٣٠].

وهم، باعتراضهم هذا، يستدلون على أن نوحًا لا ميزة له على سادتهم الذين يلوذون بهم، وهم أشراف القوم وأقوياؤهم، فقد أرادوا إقامة الحجة عليه من وجهين:

أحدهما: أن المتبعين له أراذل القوم والرعاع، وهم ليسوا قدوة ولا أسوة حتى يتأسوا بهم.

---

(١) ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/٢٧) عن ابن إسحاق، حيث قال: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي أن رسول الله ﷺ قال: الخ وسكت عليه ابن كثير.

وثانيهما: أنهم لم يتبعوه عن فِكْر ورَوِيَّة، ولم يُمْعنوا النظر في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى اتباعه دون تروٍّ ولا تعقُّل.

وهذا شأن المترفين، أشراف القوم، مع كل رسول ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

وحسبك أن صناديد قريش هم الذين ناصبوا النبي ﷺ العداء.

التهمة الثالثة: قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: ليس لكم، ميزة تميزكم عنا، من جاه أو مال أو سلطان أو شرف، يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة منا، والزعامة على الناس في أمر الدين.

ثم ألقوا في وجهه **التهمة الرابعة والأخيرة** قائلين: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فيما تدَّعون أنكم على حق، وهذه التهم الأربع قالتها كل أمة كذبت رسولها.

نُوحٌ يُجِيبُ عَلَى التُّهَمِ الْأَرْبَعِ بِأَجْوِبَةٍ ثَلَاثٍ

الْجَوَابُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ

٢٨- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ[1] إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ[2] عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فبماذا أجاب نوح عليه السلام قومه عندما اتهموه بهذه التهم الأربع؟ لم يشتمهم كما شتموه، ولم يطعنهم كما طعنوه، وإنما أجابهم في سماحة خُلُق النبي، وسماحة خُلُق الرسول، في أدب جم، قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ماذا أفعل إن كان بيني وبين الله اتصال عن طريق الوحي؟ فأنا على حجة وبرهان فيما جئتكم به من ربي، تبين أنني على حق، وقد خصني بهذه النبوة وهذه الرسالة، وآتاني منه هدى ونورًا، وقد أناط الله بي هذه المهمة، ولكنها خفيت

(١) قرأ الأصبهاني عن ورش وقالون وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أرأيتم)، وللأزرق عن ورش وجهان؛ **الأول**: التسهيل، **والثاني**: إبدال الهمزة ألفًا مع المد المشبع، وقرأ الكسائي بحذف الهمزة، والباقون بالتحقيق إلا حمزة وقفًا فله التسهيل بين بين.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر (فعميت) بضم العين وتشديد الميم؛ أي: عماها الله عليكم، وقرأ الباقون بفتح العين وتخفيف الميم مبنيًّا للفاعل؛ أي: خفيت عليكم.

عليكم؛ بسبب جهلكم وغروركم ولم تهتدوا بهديها، فمهمتي هي البلاغ، ولا أملك أن أُلزمكم وأَجبُركم على الهدى وقبوله قهرًا، فهل يصح أن نلزمكم إياها بالإكراه وأنتم جاحدون بها؟ إننا لا نفعل ذلك، ولكن نكل أمركم إلى الله حتى يقضي في أمركم ما يشاء.

قال قتادة: أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يملكه[1].

والاستفهام للإنكار؛ أي: لا نلزمكم بالهداية؛ لأنه لا إكراه في الدين، وفي هذا إخبار لهم بأن الله ميزه عليهم بالنبوة والرسالة، ولكنه لا يستطيع قسرهم على الإيمان به، لأن الإيمان لَا بُدَّ أن يكون عن اقتناع واختيار، لا عن إكراه وإجبار.

الْجَوَابُ الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٢٩- ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ[2] إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ[3] أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم إن الخلق يستوون أمامي، الضعيف والقوي، ولا أخص أهل الثراء والغنى بشيء، وأنا لا أسألكم على هذه الدعوة مالًا، ولكن أجري وثوابي على الله، ولا أطلب منكم إلا أن توحدوا الله وتخلصوا له العبادة.

الْجَوَابُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَنْ يُبْعِدَ الضُّعَفَاءَ عَنْ مَجْلِسِهِ

ولما طلبوا من نوح ﷺ أن يبعد الضعفاء عن مجلسه، كما فعل أمثالهم مع الرسول محمدٍ ﷺ أجابهم نوح: بأنني لا أطرد الذين آمنوا من مجلسي، فإنهم صائرون إلى الله، وفائزون بقربه، وكان يُجزل لهم العطاء ويُقرِّبهم منه، ويقول: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وكيف أحول بيني وبينهم، وميزان الناس عند الله إيمان وتقوى، ومرد الناس إلى الله يوم القيامة؟ وأنتم قوم جهلاء، تأمرونني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني.

وقد نهى الله نبيه محمدًا ﷺ عن ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن في تفسير الآية.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح الياء من (أجري إلا) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع والبزي وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ولكني أراكم)، والباقون بإسكانها.

وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمره أن يصبِّر نفسه معهم فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

قال مجاهد: قال قوم نوح له: إن أحببْت أن نتبعك فاطردهم، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء.

ولكن من ينجِّي نوحًا من عقاب الله إن طرد الضعفاء عن مجلسه؟

٣٠- ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[1] ﴿٣٠﴾﴾

ثم وجه نوح إلى قومه نداء ثالثًا لعلهم يرجعون إلى رشدهم، فقال لهم: ويا أهلي وعشيرتي، من يمنعني ويحميني من عذاب الله وعقابه لي، إن طردت هؤلاء الفقراء عن مجلسي، وهم أكرم الناس عند الله، فكيف أطردهم؟ أفلا تتدبرون الأمور، فتعلموا ما هو الأنفع والأصلح لكم، وتعلموا أن لهم ربًّا ينصرهم إن طردتهم، ويحاسب مَن طردهم عن مجلس تلقِّي الوحي؟

وقد بيَّن النبي ﷺ في قصة النفر الثلاثة الذين حضروا مجلسه ﷺ أن الناس ثلاثة أحوال عند حضور مجالس العلم؛ حيث إن أحدهم وجد فُرجة في الحلقة فجلس فيها، والثاني لم يجد فُرجة في المجلس فجلس خلف الحلقة، والثالث أعرض عن الحلقة، فهذه ثلاثة أحوال لمن يحضرون مجالس العلم.

وقد أخبر النبي ﷺ عن هذه الأحوال الثلاثة فقال: **«أما الأول: فآوى إلى الله، فآواه الله، وأما الثاني: فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الثالث: فأعرض، فأعرض الله عنه»**[2].

وهؤلاء الضعفاء مقبلون على مجلس العلم فكيف يطردهم نوح عن مجلسه؟ ومَن ينجيه من عقاب الله إن أهانهم أو آذاهم؟ والله لا يحب إهانة أوليائه.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

(٢) من حديث أبي واقد الليثي في البخاري برقم (٦٦) وفي مسلم (٢١٧٦) وهو في جامع الترمذي برقم (٢٧٢٤) وقال: حسن صحيح.

نُوحٌ يُفَنِّدُ أَرْبَعَ شُبُهَاتٍ لِقَوْمِهِ

٣١- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ[1] إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

أخذ نوح عليه السلام يفند شبهات قومه، ويدْحَضُ مفترياتهم، ويُعرِّفهم بحقيقة أمره، فأجابهم على نفي النبوة عنه، وأنه ليس له فضل عليهم، بأنه بشر مثلهم، ولكن الله يَمُنُّ على مَن يشاء من عباده بالنبوة والرسالة، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

١- فقد وهبه الله النبوة، وهو لا يملك التصرف في خزائن الله، حتى يملك خزائن الأرزاق، فيكون من أهل الثراء، ولا يدعوكم لتتبعوه حتى يعطيكم من هذه الخزائن.

٢- وهو لا يدَّعي معرفة شيء من أمور الغيب التي اختص الله بها، ولا يطلب منكم أن تتبعوه لمعرفته بعلم الغيب، ولا يزعم أن له صلة بالله غير صلة النبوة، ترفعه فوق البشرية، بل هو بشر مثلهم يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، ولكن الله تعالى اختصه بالنبوة.

٣- وهو ليس ملَكًا من الملائكة.

٤- وهو لا ينتقص أحدًا أو يزدريه لفقره أو ضعفه، فرُبَّ أشعث أغبر ذى طمْريْن لو أقسم على الله لأبره.

يقول نوح عليه السلام: فأنا لا أحتقر ضعفاء المؤمنين، ولا أقول: لن يؤتيهم الله ثوابًا على أعمالهم، فالله وحده أعلم بما في صدورهم وقلوبهم، ولئن فعلتُ شيئًا من ذلك لأكونن من الظالمين لنفسي ولغيري، ومهمتي أن أدعوكم إلى عبادة الله وحده، ولا أفرق بين شريف ووضيع، ولا أطلب منكم أجرًا على تبليغ الدعوة، فمَن استجاب لي فقد أفلح ونجا، ومن أعرض عني فقد خاب وخسر.

وهكذا بيَّن لهم نوح شخصيته ورسالته بلا زيف ولا تضليل، وهم يعتقدون أن الرسول ينبغي أن يكون من الملائكة، ومن كبار الأثرياء، أو يعلم الغيب، وأجابهم نوح عليه السلام بأنني لا أملك خزائن الأرض، ولست من أهل الثراء، ولا أعلم الغيب، ولا ما خفي عنكم؛ لأن ذلك من خصائص الله، إنما أنا بشر، أيدني الله بالوحي وأرسلني إليكم، فاتبعوني واتقوا الله لعلكم ترحمون.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني إذا)، والباقون بإسكانها.

حِوَارٌ بَيْنَ نُوحٍ وَقَوْمِهِ

٣٢- ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

قال القوم لنوح: لقد أكثرت علينا الكلام، وجادلتنا بالحجة والمخاصمة؛ فأكثرت جدالنا حتى سئمنا ذلك ومللنا، ثم عدلوا عن جهلهم إلى استعجال نزول العذاب بهم قائلين: فأتنا بهذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت من الصادقين في دعواك.

٣٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾

قال نوح: هذا العذاب ليس من عندي، وإنما يملكه رب العالمين، ويأتي به في الوقت الذي يريده ﷻ، وأنتم في ملك الله وتحت قدرته وسلطانه، ولستم بفارين أو هاربين من عذاب الله، وسينزل بكم هذا العذاب عندما تقتضيه مشيئته سبحانه.

٣٤- ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ(١) إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢) ﴿٣٤﴾﴾

ثم بيَّن نوح عليه السلام أن جداله لقومه إنما هو لنفعهم وصلاحهم، ولكن حماقتهم تجعلهم يكرهون ما فيه نفع لهم، ومهمته أن يبذل لهم النصيحة إلى نهاية الأمر، والعلم عند الله تعالى إن كانوا سينتفعون بها ويقلعون عما هم فيه من ضلال وشرك أم لا.

أي: ولا ينفعكم نصحي واجتهادي في دعوتكم للإيمان، إن كان الله يريد أن يضلكم ويهلككم، فهو سبحانه مالك أمركم، وإليه ترجعون في الآخرة للحساب والجزاء، فيعطي كل ذي حق حقه، وتُوفَّى كل نفس بما كسبت.

قال قوم نوح: إن نوحًا افترى على الله الكذب، واختلق هذه الدعوى من عند نفسه، وهذه المقوله قالها كل قوم لنبيِّهم!! قال تعالى:

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (نصحي إن)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم من (ترجعون) على البناء للفاعل، والباقون بضم التاء وفتح الجيم على البناء للمفعول.

٣٥- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ[1] مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وقد أمر الله تعالى نوحًا أن يردَّ عليهم بالمنطق البليغ، فيقول لهم: إن كنتم صادقين في أنني اختلقته، وجئت به من عند نفسي، فعليَّ وحدي إثم ذلك، وعقاب هذا الجُرم يقع عليَّ دون سواي، فلا تزر وازرة وزر أخرى، وإن كنتُ صادقًا فيما أبلِّغكم عن ربي، فأنتم الآثمون الكاذبون، وعليكم يقع عقاب ذلك التكذيب، فأنتم المجرمون الآثمون، وأنا بريء من كفركم وتكذيبكم وإجرامكم، وهذا كقوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف].

ويُستبعد أن يكون المراد بهذه الآية محمد ﷺ لأن هذا يقطع السياق، ولا يوجد ما يبرره.

نُوحٌ يَتَلَقَّى وَحْيَ رَبِّهِ بِهَلَاكِ قَوْمِهِ وَصُنْعِ سَفِينَةِ النَّجَاةِ

٣٦- ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

لم يَدْعُ نوح على قومه حتى نزلت هذه الآية، وانقطع رجاؤه في إيمانهم، فدعا عليهم بعد أن أعلمه الله تعالى أنه لم يبقَ في أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن، وذلك بعد أن دعا نوح قومه ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، وكلما دعاهم إلى الله تعالى جعلوا أصابعهم في آذانهم، ووضعوا ثيابهم على رؤوسهم، واتهموه بالسفه والضلال والكذب والجنون ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ١٠].

واتهموه بكثرة الجدال والحوار ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ وكانوا يضعونه في حصير ويُلْقُونه في الطريق انتظارًا لموته، فكان يأتيهم في اليوم التالي ويدعوهم إلى الله تعالى ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، ويدعو الله سبحانه أن يُخرج مِن أصلابهم مَن يؤمن بالله سبحانه.

وظل نوح يدعو قومه طيلة تسع مئة وخمسين عامًا، ولم يؤمن معه إلا عدد وصَفهم القرآن بالقلة ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (بريء) ياء، مع إدغام الياء التي قبلها فيها وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف.

والمفسرون والمؤرخون يحددون هذه القلة، دون استناد إلى خبر صحيح، ولعل الأرجح أنهم كانوا اثنين وسبعين رجلًا وامرأة من غير أهله، وبنيه الثلاثة ونساءهم، وزوجته؛ أي: تسعة وسبعين[1]، وأبناؤه الثلاثة هم: سام أبو العرب، وحام أبو الحبش ومَن على شاكلتهم، ويافث أبو الترك ومَن على شاكلتهم، وزوجة نوح هذه ليست أم ولده الكافر.

وقد أوحى الله تعالى إلى نوح لمَّا حقَّ على قومه العذاب -وهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون- يعلم أنه لن يؤمن من قومه إلا مَن قد آمن من قبل، فالدعوة لا فائدة لها بعد ذلك، وحتى أبناء قومه الذين يخرجون من أصلابهم لا جدوى فيهم، فقد كان الرجل عندما يبلغ ابنه، يأخذه إلى نوح، ويقول له: احذر هذا المجنون!!

لذا: أذن الله لنوح بالدعاء عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

وقال طالبًا من ربه النصرة: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر]

وعندئذ أعلم الله نوحًا أنه سيهلكهم، فلا تحزن يا نوح على ما كانوا يفعلون. ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ الآيات من سورة القمر [القمر: ١١-١٧].

نُوحٌ يَصْنَعُ السَّفِينَةَ

٣٧- ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أمر الله ﷻ نوحًا أن يصنع سفينة النجاة، قال نوح: إنني لا أعرف هذه الصنعة، فلستُ بنجار، فقال له جبريل: اصنع الفلك بتوفيق الله، وعلى عين الله، وتعليم منه سبحانه، فأخذ يُقطِّع الخشب، ويدقُّ المسامير، ويصنع السفينة بحفظ الله ورعايته، وأمره ربه ألا يطلب منه إمهال هؤلاء الظلمة، لكفرهم وعنادهم، فإنهم مغرقون بالطوفان فلا تشفع فيهم؛ لأن هلاكهم حاصل لا محالة، لقد تقرر المصير، وانتهى الإنذار، وانتهى الجدل، فقد آن للدولة الوثنية أن تزول، وحقّ عليها كلمة الله ﷻ. امتثل نوح أمر ربه وشرع في صنع السفينة:

(١) «تفسير الألوسي» (١٢/ ٥٠).

٣٨، ٣٩ ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

أخذ نوح ﷺ يصنع السفينة، وكلما مرَّ عليه نفر من كبار قومه غير المؤمنين سخروا منه، وكانوا يقولون له: يا نوح كنتَ بالأمس نبيًّا، وأنت اليوم نجار، ويسألونه لم تصنع هذه السفينة على اليابس؟ فقال لهم: أمشي بها على الماء، فيقولون له: أين الماء؟ ويسخرون منه، فيقول لهم: إن تسخروا منا اليوم لجهلكم بصدق وَعْدِ الله تعالى، فإنا نسخر منكم غدًا عند الغرق كما تسخرون منا، فإن الهلاك عاقبة المكذبين المستهزئين برسل الله، فإن سخرتم منا لصنع السفينة، فإنا نسخر منكم للغرق في الدنيا والخزي في الآخرة، وإن حكمتم علينا بالجهل، فما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله أَوْلَى بالسخرية.

ثم هدد نوح قومه وتوعدهم عذاب الله تعالى، وأنهم سوف يعلمون إذا جاء أمر الله مَن الذي يأتيه في الدنيا عذاب يذله ويهينه، وينزل به في الآخرة عذاب دائم لا ينقطع.

عَلامَةُ هَلاكِ الْمُكَذِّبِينَ وَنَجَاةُ الْمُؤمِنِينَ

٤٠- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ[1] زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

صنع نوح السفينة، وهناك كلام كثير فيما يتعلق بوصف السفينة؛ منها إسرائيليات، مذكورة في التوراة وغيرها، ونحن نؤمن أن التوراة الحالية محرفة وغير صحيحة.

وأشهر ما قيل في صنع السفينة -وهو لا يستند إلى خبر صحيح- أنها صُنعت من خشب الساج، وطَلاها نوح بالقار من الداخل والخارج، وطولها سبع مئة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا، وارتفاعها ثمانون ذراعًا، وتتكون من ثلاثة طوابق: الأسفل فيه الوحوش، والأوسط فيه الأنعام والدواب، والطابق الأعلى فيه الإنسان[2].

---

(١) قرأ حفص بالتنوين في (من كلٍّ) وهو عوض عن المضاف إليه؛ أي: من كل ذكر وأنثى (زوجين) مفعول (احمل)، وقرأ الباقون بترك التنوين على إضافة (كل) إلى (زوجين) و(اثنين) مفعول (احمل) و(من كل زوجين) في محل نصب حال من المفعول.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٣١١).

وأوحى الله إلى نوح أن هناك علامة إذا ظهرت فإن عليه أن يركب السفينة هو ومَن آمن معه، والعلامة هي فوَرَان التنور؛ أي: خروج الماء من أحد التنانير، ويُعْرف التنور بالفرن، وهو مَوْقد النار، ولما جاء أمر الله بالعذاب ونَبَعَ الماء بقوة من التنور، فتح الله أبواب السماء بماء منهمر، ينزل منها كأفواه القرب، لم تشهد الأرض من قبل مثله، وكان الماء يخرج من الأرض بكميات كبيرة غزيرة، فالتقى الماء من أعلى ومن أسفل على أَمْرٍ قد قُدر، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر] وحملنا نوحًا ومَن معه على سفينة ذات ألواح ومسامير ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر].

ويُذكر أن هذا التنور كان في مسجد الكوفة، وأنه قد فار من جانبه الأيمن[(١)].

وأوحى الله إلى نوح أن يأخذ معه من كل صنف من المخلوقات زوجين، ذكرًا وأنثى، ويأخذ معه أهل بيته.

وأهل الرجل: زوجه وأبناؤه وقرابته، وقد يطلق الأهل على الزوجة خاصة.

واحمل معك -يا نوح - أيضًا مَن آمن بك من المؤمنين، إلا مَن سبق عليه القول ممن لم يؤمن بالله كابنه وزوجته، وكانت تسمى (واعلة) أم الابن الكافر، وخيانتها كانت في الرسالة بعدم إيمانها، أما زوجة لوط، فكانت تدل القوم على الرجال الذين جاؤوا إلى لوط، ولم تَخُن زوجة نبيٍّ من الأنبياء زوجَها في عرضه وفراشه.

مَشْهَدُ التَّعْبِئَةِ عِنْدَمَا حَلَّتِ اللَّحْظَةُ الْمُرْتَقَبَةُ

٤١ - ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا[(٢)] وَمُرْسَىٰهَآ[(٣)] إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

---

(١) جاء هذا من عدة طرق، ينظر: «تفسير سعيد بن منصور» (١٠٨٧) والطبري (١٢/ ٤٠١) وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٩).

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح الميم من (مجراها) مع إمالة الألف التي بعد الراء مصدر (جرى) الثلاثي، ولم يُمل حفص في القرآن غيرها، والباقون بضمها مصدر (أجرى)، وقرأ الأزرق بالتقليل فقط، وأمالها أبو عمرو وابن ذكوان بخلف عنه، والباقون بدون إمالة.

(٣) وأمال (مرساها) حمزة والكسائي وخلف، وللأزرق الفتح والتقليل.

وقال نوح لمن آمن به: اركبوا في السفينة، باسم الله يكون جريُها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سَيْرها ورُسُوِّها، باسم الله حين تسير وحين تقف، ولهذا تُستحب التسمية في ابتداء الأمور، ومنها الركوب في السيارة، وفي السفينة وعلى الدابة، والطائرة، فكان نوح إذا أراد أن يمشي بالسفينة يقول: باسم الله، وإذ أراد أن يقف يقول: باسم الله، وجاء في سورة الزخرف أننا عندما نركب الدابة أو السيارة، أو الطائرة، أو غير ذلك، نقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [آية].

وامتثل نوح أمر ربه، وقال لمن ركبوا معه من المؤمنين: سلموا أمركم لمشيئة الله، وقولوا عند ركوبكم السفينة: باسم الله يكون جريُها في هذا الطوفان العظيم، وباسم الله يكون إرساؤها في المكان الذي يريده رب العالمين، إن ربي لعظيم المغفرة لمن تاب إليه وأناب، رحيم بعباده فلا يعذبهم بعد التوبة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون].

مَشْهَدُ الطُّوفَانِ الرَّهِيبِ

٤٢- ﴿وَهِىَ[١] تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ[٢] ٱرْكَب[٣] مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

إن الهوْل يستولي علينا ونحن نقرأ هذه الآيات بعد آلاف السنين، وكأننا نشاهد الحدث ماثلًا أمام أعيننا، ونشاهد السفينة وهي تسير بقوم نوح في موج يعلو ويرتفع، حتى يكون كالجبال في علوِّها.

قال الصاوي: رُوي أن الله تعالى أرسل المطر أربعين يومًا وليلة، وخرج الماء من الأرض

---

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهي)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ عاصم بفتح الياء من (يا بني)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٣) أدغم أبو عمرو والكسائي ويعقوب الباء في الميم من (اركب معنا)، وقرأ بالإظهار والإدغام قالون وابن عامر وعاصم وخلاد، وعلم من هذا أن لحفص فيها وجهين، والباقون بالإظهار.

ينابيع كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾ [القمر] وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعًا حتى أغرق كل شيء(١).

وهكذا شبَّه الله سبحانه أمواج هذا الطوفان بالجبال، ووصف السفينة وهي تجري في هذا الطوفان العظيم بقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة: ١١].

يقول الله ﷻ في تصوير بليغ للسفينة: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾.

والله حافظها وحافظ من فيها.

جاء في الأثر: أن امرأة حملت طفلها في وقت الطوفان، فصعدت به إلى الجبل حتى وصل الماء إلى ثلثه، فارتقت إلى مكان أعلى، وكلما وصلها الماء ارتفعت إلى أعلى، حتى وصلت إلى قمة الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعتْه بيدها، حتى عمَّها الماء، هي وطفلها، وجاء في الأثر: لو رحم الله أحدًا من قوم نوح لرحم أم الصبي(٢).

غَرَقُ كَنْعَانَ بْنِ نُوحٍ كان ابن نوح الرابع اسمه (يام) أو (كنعان) منافقًا، يُظهر الإسلام لأبيه ويبطن الكفر، وهو غير كنعان بن حام جَد الكنعانيين، وهومن زوجة ثانية لنوح، كان اسمها (واعلة) وقد أصابها الغرق، وهي المذكورة في آخر سورة التحريم.

وقد أهملت التوراة الموجودة حاليا قصة غرق هذا الابن، [طلب نوح من ابنه أن يركب معه سفينة النجاة، حيث كان في معزل عن أبيه، متخلفًا عنه؛ لكونه لم يؤمن به، وبقية القوم كانوا مستقرين في جوف السفينة، نادى نوح ابنه بمقتضى عاطفة الأبوة؛ لكي يركب معه السفينة ولا يبقى مع الكافرين، وكان ابنه قد عزل نفسه عن المؤمنين فقال له: يا بني اركب معنا في السفينة، ولا تكن مع الكافرين بالله فتغرق، وفي هذا دعوة له للتخلي عن الكفر والتحلي بالإيمان.

ولكن الابن رد دعوة أبيه وكذبه في قوله: لن ينجو من الغرق إلا من ركب معه في السفينة:

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٢/ ٢١٦).

(٢) جاء هذا الخبر في «المستدرك» (٢/ ٣٤٢) و«تفسير الطبري» (١٥/ ٣١٠) وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٧) وابن عساكر (٦٢/ ٢٥٣) وقد تكلم الذهبي في إسناده.

٤٣- ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

إن نصيحة الأب الحزين لم تجدْ أُذنًا واعية من هذا الابن العاق المغرور، فرد على أبيه قائلًا: سألجأ إلى جبل شاهق أتحصن به من وصول الماء إليَّ، فيمنعني من الغرق، سآوي إلى جبل يعصمني، ويحفظني، من الماء، وهو جبل مرتفع في المنطقة، قال نوح لابنه في الرد الأخير: لا معصوم من عذاب الله إلا مَن رحمه الله، فآمِنْ واركب معنا في السفينة، فأبى الابن، وحال بين نوح وابنه الموج المرتفع فكان ابنه من المغرقين.

ولما أغرقهم الله تعالى ونجّا نوحًا عليه السلام جفت الأرض، ونضب الماء، ودعا بالهلاك واللعنة على القوم الظالمين:

تَجْفِيفُ مَنَابِعِ الطُّوفَانِ وَسَفِينَةُ النَّجَاةِ

٤٤- ﴿وَقِيلَ[1] يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ[2] أَقْلِعِى وَغِيضَ(١) ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

وبعد أن أدى الطوفان وظيفته، جاء الأمر الإلهي إلى الأرض والسماء، فقال ﷻ للأرض بعد هلاك قوم نوح: يا أرض، ابلعي ماءك واشربيه، فبلعت ماءها، ويا سماء، كفِّي وأمسكي عن المطر، فأقلعتْ عن إرسال الماء، وغيض الماء النازل من السماء؛ فانتقص ونضب وذهب خطر الغرق، وقُضي الأمر، وتم إنجاز ما أمر الله به من هلاك قوم نوح، ورست السفينة على جبل الجودي بين العراق وأرمينيا، واسمه الآن جبل (أرَارَاط) وكان جانب هذا الجبل يمكّن استقرار السفينة عليه عند نزول الركاب منها؛ لأنها تخفُّ بعد نزولهم أو نزول معظمهم، فإذا مالت امتدت إلى جانب الجبل، قيل: إنها أقلعت في العاشر من شهر رجب، وإنها رست على جبل الجودي يوم عاشوراء[3].

---

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام الكسرة حركة الضم في حرفي القاف والغين من (وقيل، وغيض)، وباقي القراء بالكسرة الخالصة، وهما لغتان.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورويس بإبدال الهمزة الثانية من (ويا سماء أقلعي) واوًا خالصة، والباقون بتحقيقها، وأجمعوا على تحقيق الأولى.

(٣) جاء هذا في حديث أبي هريرة في «مسند أحمد» (٢/ ٣٥٩).

وقيل: بعدًا وهلاكًا للقوم الظالمين، الذين تجاوزوا حدود الله ولم يؤمنوا، فهذا بيانٌ لسوء عاقبتهم ونهاية مصيرهم.

وهل عمَّ الماء جميع الأرض؛ أي: هل شمل البشرية كلها؟ اختلف المؤرخون في ذلك، وهل وُجد من كان يسجل التاريخ في هذا الوقت من الزمن؟ وكم كان عدد البشرية في هذا الوقت؟

وظاهر القرآن يفيد أن الماء عم جميع الأرض المأهولة بالسكان حتى وصل الماء إلى أعلى الجبال، وقد دلت الآثار على وجود طَمْي في أعلى الجبال بين دجلة والفرات.

هذا: وإن الرسالة العامة لأهل الأرض جميعًا هي رسالة محمدٍ ﷺ وكل رسول قبله أرسله الله إلى قومه خاصة، ومنهم نوح عليه السلام، فكيف دعا نوح على الكفار من أهل الأرض قاطبة؟ وكيف أن الغرق قد عمَّ المنطقة المأهولة بالسكان من أهل الأرض؟ وكيف استحقوا العقوبة؟

والجواب على ذلك: أن نوحًا عليه السلام هو أول رسول أرسله الله إلى عبدة الأوثان وسائر الكفار في الأرض كلها؛ ليبلغهم وجوب التوحيد ويصبر ويتحمل المشاق في سبيل ذلك، وقد كانت المنطقة السكانية محدودة في العراق وما حولها.

وقد بعثه الله إلى قومه خاصة بالتبليغ والدعاء والتنبيه، والدعوة الخاصة تقتضي القتال والشدة عند وجود المقتضي لهما، أما من جهة بذل النصيحة وقبول مَن آمن دون قتال ولا شدة، فهذا يعمُّ الناس جميعًا، وبما أن نوحًا قد مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فغير ممكن أن رسالته لا تبلغ القريب والبعيد؛ ولذا كان دعاء نوح على الكافرين من أهل الأرض جميعًا، وكان هلاكهم جميعًا بالغرق[1].

نُوحٌ يُنَاجِي رَبَّهُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ الْكَافِرِ

٤٥- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

هذا النداء توجه به نوح إلى ربه بعد غرق ابنه الكافر، وبعد استواء السفينة على

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٦٨).

الجودي، وكان سببه شفقة نوح على ابنه، فقد أراد أن ينفعه في الآخرة بعد أن يئس من نجاته في الدنيا، وكان الله سبحانه قد أعلم نوحًا أنه لا نجاة إلا لمن ركب السفينة، وقد أبى ابنه أن يركبها ويلبي دعوة أبيه، وعندئذٍ تحقق له غرقه، فسأل نوح ربه المغفرة لولده، وألَّا يعامله معاملة غيره في الآخرة، وهو يطمع أن يعفوَ الله عنه؛ لأجل قرابته منه.

ولعل نوحًا ظن أن وعد الله له بنجاة أهله أمر عام، يشمل من آمن ومن لم يؤمن، فدعا ربه أن ينجي ابنه وفوض الأمر إليه، وهذا بمنزلة الشفاعة له بداعي الشفقة والرحمة بابنه.

ولم يكن نوح منهيًّا عن سؤال المغفرة للكافر، فكان حاله كحال أبي طالب قال له النبي ﷺ: **«لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك»**، وكان هذا قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة].

وقد اقتصر نوح في دعائه لربه على جمل ثلاث؛ تعريضًا بالمطلوب، وتأدبًا مع ربه؛ وهي:

١- ﴿إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى﴾. ٢- ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾. ٣- ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَٰكِمِينَ﴾.

قال نوح مستعطفًا ربه: إن ابني كنعان قطعة مني، وقد وعدتني أن تُنجِّيني وأهلي من الغرق والهلاك، فأسألك أن ترحمه برحمتك، وإن وعدك لعبادك هو الوعد الحق الذي لا يُخلَف، وأنا أطمع في عفوك عن ابني، وفي رحمتك به، وأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم.

قَرَابَةُ الإِيمَانِ أَقْوَى مِنْ قَرَابَةِ النَّسَبِ

٤٦- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ(١) غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ(٢) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ(٣) أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أجاب الله سبحانه نوحًا بأن قرابة الإيمان أقوى من قرابة النسب، فقال له: يا نوح إن ابنك الذي هلك ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم؛ لأنه لا عَلاقة بين مسلم وكافر، فالرابطة بينكما قد انقطعت بسبب كفره، فليس المراد نفي أن يكون ولده من صلبه، وإنما المراد نفي كونه على دينه وعقيدته، إنه صاحب عمل غير صالح، أو إنه عَمِل عملًا غيرَ صالح؛ وهو الكفر والعصيان كما في القراءة الأخرى.

---

(١) قرأ الكسائي ويعقوب (إنه عمل) بكسر الميم وفتح اللام على أنه فعل ماض، و(غير) بالنصب مفعولا به، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: عمِلَ عملًا غير صالح، والجملة خبر (إن)، والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة من (عمل) خبر (إن) و(غير) بالرفع صفة، على معنى: إنه ذو عمل، أو جعل ذاته ذات العمل مبالغة في الذم على حد قولهم: رجل عدل.

(٢) في (فلا تسألن) سبع قراءات:

ا- بكسر النون مشددة مع حذف الياء في الحالين وفتح اللام، هكذا (تسألَنِّ) لقالون والأصبهاني عن ورش وابن ذكوان.

ب- بكسر النون مشددة وإثبات الياء وصلًا لا وقفًا مع فتح اللام، هكذا (تسألَنّي) وصلًا، وهكذا (تسألَنِّ) وقفًا للأزرق عن ورش وأبي جعفر.

ج - بفتح النون مشددة وحذف الياء في الحالين مع فتح اللام، وهكذا (تسألَنَّ) لابن كثير.

د- بكسر النون مخففة وإثبات الياء وصلًا لا وقفًا مع إسكان اللام، هكذا (تسألْني) وصلًا، و (تسألْنِ) وقفًا لأبي عمرو.

هـ- بكسر النون مخففة وإثبات الياء مع إسكان اللام، هكذا (تسألْني) ليعقوب في الوصل والوقف.

و- بفتح اللام وتشديد النون مع فتحها وكسرها، هكذا (تسألَنَّ) و(تسألَنِّ) لهشام عن ابن عامر.

ز- بكسر النون مخففة وحذف الياء في الحالين، مع إسكان اللام، هكذا (تسألْنِ) وصلًا ووقفًا.

والنون المشددة المفتوحة هي نون التوكيد الثقيلة، والنون المشددة المكسورة هي نون التوكيد الخفيفة، أدغمت في نون الوقاية، والنون المكسورة المخففة هي نون الوقاية، وحذف الياء لغة هذيل، وإثباتها لغة الحجازيين.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أعظك) و(إني أعوذ بك) في الآية التالية، والباقون بإسكانهما، وهما لغتان.

وإني أنهاك أن تسألني أمرًا لا علم لك به، أو تلتمس مني ملتمسًا لا تعلم وجه الصواب فيه، وإني أعظك لئلا تكون من الجاهلين بسؤالك إياي ما لا تعلمه، وهكذا نهى الله نوحًا أن يراجعه بعد ذلك في أحد، قال له رب العالمين: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين آمنوا معك، فالرابط بين الناس هو الإيمان والعقيدة، وإن رابطة الدم والعشيرة والوطن والجنس واللون كلها روابط لا تُغني من الله شيئًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة].

ومن الأمثلة على ذلك: نوح مع ابنه وزوجته، ولوط مع زوجته، وفرعون مع زوجته، وإبراهيم وأبوه، وإبراهيم وذريته فقد قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ يكونون أئمة، قال سبحانه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ندم نوح ندامة شديدة على ما صدر منه، وسأل ربه الرحمة والمغفرة:

٤٧- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

أجاب نوح ربه بما يفيد التنصُّل مما سأل، فاستعاذ بالله تعالى أن يسأله ما ليس له به علم، فقال معتذرًا عمَّا صدر منه ملتمسًا الصفح والعفو من ربه: رب إني أستجير بك، وأعتصم بكتابك، وأحتمي بحماك أن أسألك أمرًا لا يليق بي سؤاله، ثم سأل نوح ربه المغفرة والرضوان فقال: وإلا تغفر لي زلَّتي، وتتداركني برحمتك الواسعة، أكن من الذين حجبوا أنفسهم عن حظوظها الدنيوية والأخروية.

ومن هذا يتبين أن نوحًا لم يكن على علم بأنه لا يجوز له أن يسأل الله تعالى نجاة ابنه، ثم تبيّن له ذلك بعد أن أعلمه الله تعالى.

نَجَاةُ نُوحٍ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ

٤٨- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

ثم بشر الله نوحًا بقبول إنابته إلى الله، ونجاته من الغرق هو ومن آمن معه؛ بأن يهبط

من السفينة إلى الأرض مصحوبًا بالاطمئنان والسلامة، والبركات والخيرات العظيمة، له ولذريته ومن كان معه في السفينة، وسلام من الله عليه وعليهم، ويدخل في هذا كلُّ مؤمن إلى يوم القيامة، ولولا عناية الله تعالى به وبمن معه لما نجت السفينة.

وهناك جماعات وأمم أخرى -من أهل الشقاء- نمتعهم في الدنيا متاعًا حسنًا، وهم الكفرة المجرمون، إلى أن تنتهي أعمارهم، ثم ينالهم في الآخرة عذاب موجع؛ جزاء كفرهم وتكذيبهم.

وفي هذا إشارة إلى أنه سيكون من ذرية نوح مؤمنون وكافرون، أهل سعادة وأهل شقاء، ومثل ذلك كل من نجَّاهم الله تعالى معه، وكل من أهلكهم في كل أمة من الأمم؛ كقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم.

تَعْقِيبٌ عَلَى قِصَّةِ نُوحٍ

قال الله تعالى لنوح بعد ما قص عليه هذه القصة التي لا يعلمها إلا منْ منّ الله عليه بالرسالة:

٤٩- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ويأتي التعقيب الأخير على قصة نوح عليه السلام وقومه، بأنها من أخبار الغيب بالنسبة إلى العرب كلهم، فهم لا يعلمون إلا ما كان في الزمن الغابر، من وجود نبي اسمه نوح أصاب قومه الطوفان، وما عدا ذلك فهو غيب بالنسبة إلى جميع الأمم، فهم لا يعلمون قصة ابنه الرابع، ولا ما دار بين نوح وبين ربه من حوار، ولا ما دار بينه وبين قومه من جدال، ولا ما كان من سخريتهم منه وهو يصنع السفينة.

فهذه القصة وأشباهها من أخبار الغيب التي لم تشهدها أيها الرسول، ولا تعلمها أنت، ولا قومك بهذا البيان الواضح، وقد أوحيناها إليك بواسطة جبريل عليه السلام.

فاصبر على تكذيب قومك وإيذائهم لك كما صبر الأنبياء قبلك، وتحمَّل المشاق في سبيل الدعوة، فإن العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة لمن اتقى الله وخشي لقاءه.

وقد كان محمدٌ ﷺ أميًا، فمن الذي أعلمه بهذا البيان والتفاصيل لهذا التاريخ القديم؟

إن هذا أكبر دليل على صدق ما جاء به محمدٌ ﷺ، فخذ العبرة من القصة، فإن الله تعالى قد أهلك بالطوفان أول قوم أشركوا بالله، ونوح عليه السلام من أولي العزم من الرسل، ولك فيه أسوة حسنة.

الْقِصَّةُ الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ هُودٍ عليه السلام

٥٠- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ[1] إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

نبي الله هود عليه السلام هو الذي سميت السورة باسمه، وهو أول نبي تكلَّم بالعربية، وهو أحد أنبياء أربعة بُعثوا في العرب من قبائل العرب، وهم: هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم السلام، والمصدر الوحيد للحديث عن هؤلاء الرسل الأربعة هو القرآن الكريم؛ حيث لم تتعرض الكتب الحالية التي بين أيدي أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، إلى ذِكرِ هؤلاء الرسل، إلا ما جاءت به البشرى من رسالة محمد ﷺ؛ لأنهم جميعًا من قبائل العرب، وأُرسل ثلاثة منهم إلى العرب، أما محمد ﷺ فرسالته عامة إلى الإنس والجن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهود عليه السلام ذُكر في القرآن سبع مرات، وذكرت قصته بالتفصيل في سورة الأعراف والشعراء والأحقاف، وقد أرسله الله ﷻ إلى قوم عاد، وهي قبيلة من قبائل العرب البائدة التي أُهلكت، وقوم عاد ينتسبون إلى جدهم الأكبر (إرم) وإرم هو ابن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام.

وكانوا يسكنون الأحقاف، وهي جبال رَمْلية تقع في الربع الخالي جنوب شبه الجزيرة العربية، وليس بها اليوم أنيس ولا جليس.

وقوم عاد هم (عادًا الأولى) الذي قال الله عنهم في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر].

وسميت المدينة التي شيَّدوها باسم جدهم إرم.

---

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر بخفض الراء وكسر الهاء من (غيره) على أنها نعت أو بدل من (إله) لفظًا، وقرأ الباقون برفع الراء وضم الهاء على أنها نعت أو بدل من (إله) محلًا؛ لأن (من) زائدة و (إله) مبتدأ.

أما (عادٌ) الآخرة فهم قوم ثمود، الذين جاؤوا من بعد قوم هود، ونبيهم صالح ﷺ، وبين (عادًا الأولى) و(عادًا الآخرة) نحو مئة عام، والقرآن يشير إليهما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [النجم].

وقوم عاد كانوا أشداء في قوتهم وأجسامهم، تتزلزل الأرض تحت أقدامهم، أعطاهم الله نعمًا كثيرة، فهم أهل زروع وبساتين، يشيِّدون المصانع والقصور لمجرد العبث والفخر، وعن قوتهم وبطشهم وتكبرهم يقول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾ [فصلت: ١٥].

وقوم عاد هم أول مَن عبدوا الأصنام بعد أن طَوى الطوفان قوم نوح الذين أشركوا بالله تعالى، ومحا آثارهم من الحياة، واستُبعدوا من رحمة الله، وكانوا من الذين قال الله فيهم: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

ولعل السبب في عبادة قوم عاد للأصنام، أنهم غالوا في محبة الذين نَجَوْا في السفينة مع نوح عليه السلام، فكان هذا هو الطريق إلى عبادة الأصنام بعد عهد نوح عليه السلام، وقد اصطفى الله من قوم عاد هودًا عليه السلام؛ ليذكِّرهم بالأمم السابقة، وما حلَّ بهم من العذاب، وضرب لهم المثل بقوم نوح، وبيَّن لهم أن الله تعالى قد استخلفهم في الأرض بَعْدهم، وذكَّرهم بنعمة الله عليهم، وأن الله تعالى قد أعطاهم بَسْطة وقوة في الجسم، وأعطاهم من نعم الله أموالًا وبنين.

ثَلَاثَةُ نِدَاءَاتٍ مِنْ هُودٍ إِلَى قَوْمِهِ

النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: يَأْمُرُهُمْ فِيهِ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ

ثم لفت هود أنظار قومه إلى أن عبادة الأصنام لا تنفع ولا تضر، فلا تعبدوها يا قوم، ولكن اعبدوا الله الواحد القهار، وعبادة الله تعالى تقتضي توحيده سبحانه، وعدم الإشراك به.

وتقتضي بالضرورة التوجه بالعبادة إلى الله وحده؛ من صلاة وزكاة وصيام وعمرة وحج ودعاء ونذر وذبح واستعانة واستغاثة وما إلى ذلك، وتقتضي تحكيم شرع الله فيما شجر بين الناس، وإقامة منهجه تعالى في جميع شؤون الحياة؛ من تعليم وإعلام وسياسة

واقتصاد وعلاقات داخلية وخارجية وغير ذلك، وتقتضي إخراج الناس من عبادة البشر إلى عبادة الله الواحد الديان، وهذا معنى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فإن عبدتم غير الله فأنتم قوم مفترون.

ومعنى الآية: وكما أرسلنا نوحًا إلى قومه ليأمرهم بعبادة الله وحده، أرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم في النسب هودًا عليه السلام، نبيًّا ورسولًا، يأمرهم بعبادة الله الخالق الرازق، المحيي المميت؛ إذ ليس لكم معبود يستحق العبادة سواه، فأخلصوا له الطاعة ولا تشركوا معه أحدًا في عبادته، فأنتم في عبادتكم غير الله متعمدون الكذب والافتراء، وهذا هو النداء الأول من هود لقومه.

النِّدَاءُ الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَجْرًا

٥١- ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ[(١)] إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي[(٢)] أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقول هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ﴾ يا أهلي وعشيرتي، ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أنا لا أطلب منكم على النصح والبلاغ جزاء ولا ثوابًا، لقد أراد هود أن يزيل ما في نفوسهم من أنه ربما يبتغي منهم الأجر الذي يجعله موسرًا فيهم، فبادرهم بقوله: يا قوم لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجرًا، أيْ لا أطلب منكم غرامة مالية على دعوتي إليكم، حتى تُثقل كاهلكم وتكون عبئًا عليكم، فليس هناك مانع من استجابتكم لي وانقيادكم لأمر الله تبارك وتعالى.

فالدعوة إلى الله لا تصلح إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم، و أنا لا أسأل الأجر إلا من الله، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولعل القوم قد اتهموه بذلك، فقال لهم كما قال نوح لقومه: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فلا تميزون بين الحق والباطل، وتجهلون ما هو واضح من الأمور أن أجز الناصح المخلص على رب العالمين، رازق الخَلْقِ أجمعين، فما أدعوكم إليه موجبٌ لقبوله.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أجري إلا) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع والبزي وأبو جعفر بفتح الياء من (فطرني أفلا) وصلًا، والباقون بإسكانها.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: يَطْلُبُ مِنْهُمْ فيه الاسْتِغْفَارَ وَالتَّوْبَةَ

٥٢- ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول هود: يا قوم، اطلبوا مغفرة الله بالإيمان به، لقد وجههم هود ﷺ أن يستغفروا الله من الكفر والشرك، وأن يتوبوا إليه من عبادة الأوثان، ويتوجَّهوا له وحده بالعبادة، ومن نتائج ذلك أنه سبحانه ينزل عليكم الأمطار -وكانوا في حاجة ماسة إليها ؛ لأنهم أهل نخيل وزروع- ويرزقكم من الخيرات، ويزدكم قوة إلى قوتكم، فقد كانوا من أقوى الناس، ولذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فوعدهم الله تعالى إن آمنوا أن يزيدهم قوة إلى قوتهم.

فيا قوم، اعبدوا الله واستغفروه وتوبوا إليه، واطلبوا ذلك بالإيمان، والإقلاع عن الشرك، ثم استقيموا على دين الله، فإنكم إن فعلتم ذلك زادكم الله عزًّا إلى عزكم، وقوة إلى قوتكم، ووهبكم الأموال الطائلة، والأرزاق المتتابعة؛ فتكثر خيراتكم، وتزداد ذريتكم، وتتابع النعم عليكم.

قال الشعبي: خرج عمر بن الخطاب يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟ قال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ الآية وقرأ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١].

رُوي أن المطر حُبس عنهم ثلاث سنين -وكانوا أهل زروع وبساتين وعمارات- فوعدهم الله على لسان هود ﷺ كثرة الأمطار والأرزاق ومضاعفة القوة بالتناسل، إن هم استغفروا ربهم من الشرك، ورجعوا إليه بالطاعة والعبادة، ولم يصروا على شركهم ويعرضوا عن دعوته.

تَطَاوُلُ قَوْمِ عَادٍ عَلَى هُودٍ وَسُخْرِيَتُهُمْ مِنْهُ

٥٣- ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

لقد تودَّد هود إلى قومه بالنداءات الثلاثة السابقة، وناشدهم بآصرة القرابة التي تجمعهمْ

به، واستثار مشاعرهم، فرغبهم في الاستجابة إليه، وحذَّرهم من الإعراض عن دعوته، فإن فيها الطمأنينة والسعادة في الدارَيْنِ، وإن الرائد لا يكذب أهله.

فما كان من قوم هود إلا أن أعرضوا عنه وعن دعوته، وقابلوها بالتطاول عليه والسخرية منه، وقالوا له: ما جئتنا بمعجزة ولا بحجة واضحة تقنعنا بأنك رسول الله، وأنك على حق فيما تدعو إليه، حتى نطمئن إلى صحة ما تقول، وتَرضى نفوسنا عما تطلب منا.

ولفرط عنادهم وشدة عَمَاهُمْ عن الحق، أصروا على استمرارهم على عبادة الأوثان، وعدم تصديق هود في دعوته، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: من أجل قولك، وفي هذا تقنيط من إيمانهم وإصرار على كفرهم، وكانوا قد قالوا قبل ذلك:

يا هود، ليس معك آية تُؤيد أنك مرسَلٌ من عند الله.

وهكذا سائر الأمم كانوا يقترحون على أنبيائهم أن يكون معهم آيات تؤيد أنهم رسل من عند الله، فسألوا محمدًا ﷺ أن يُنَزِّل عليهم ملَكًا، أو يُفجِّر لهم الأرض ينبوعًا، أو يُلقى إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل منها.

ودعوة التوحيد لا تحتاج إلى بينة، ولا تحتاج إلى برهان أو آية مما طلبوا، وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي بعث إلا آتاه الله من الآيات -المعجزات- ما آمن على مثله البشر، وإن الذي أوتيه وحيًا -قرآنًا- وهو يرجو أن يكون أكثر الرسل تابعا.

وبدل أن يؤمن قوم هود به اتهموه بالسفه والجنون:

٥٤، ٥٥- ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ[١] بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ[٢] أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ[٣] ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ[٤] ﴿٥٥﴾﴾

ثم نسبوا هودًا إلى الخبل، وأنه صار يهذي ويتخبط؛ لأن آلهتهم قد أضرتْه، فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] وقالوا له: إن بعض

(١) أمال (اعتراك) حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو وابن ذكوان بخلف عنه، وقللها ورش.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أشهد الله)، والباقون بإسكانها.

(٣) عدّ المصحف الكوفي والحمصى (مما تشركون) آية، وأسقطها غيرهما من العدد.

(٤) أثبت يعقوب ياء (ثم لا تنظرون) وصلًا ووقفًا وحذفها غيره.

آلهتنا التي شتمْتها ونهيْتنا عنها ستمسُّك بسوء، وإن بك سفهًا وجنونًا، فما يحملك على ذم آلهتنا إلا أنه قد أصابك منها سوء.

قال لهم هود بعد أن استمع إلى ردهم القبيح متبرئًا من شركهم، ومتحدِّيًا طغيانهم، ومعتمدًا على الله وحده في التصدي لهم، والاستمرار في دعوتهم، فمنه النصر وعليه الاعتماد، قال لهم هود، وهو واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذى: إن لم تستجيبوا إلى دعوتي فإني أُشهد الله على ما أقول، واشهدوا أنتم عليَّ أنني بريء من هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، وإنني مصِّر على دعوتي لكم وإن اجتمعتم على قتلي، فأجمعوا أمركم، وانظروا في شأني، واحتالوا في هلاكي، واجتهدوا أنتم ومَن زعمتموهم آلهة في إلحاق الضرر بي، ولا تمهلوني طرفة عين.

وبهذا فإن هودًا حقَّر آلهتهم، وتبرَّأ من شركهم، واستخفَّ بهم، وتحداهم بأنه لن يكف عن الجهر بدعوته، ولن يتراجع عن احتقار باطلهم، وأطلق يدهم في تدبير المكايد له، مع أنه رجل واحد، بين جمٍّ غفير من عتاة عاد الغلاظ الشداد، وهم متعطشون إلى إراقة دمه، وما ذلك إلا لأن هودًا واثق كل الوثوق أنه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذى، واثق بنصر الله تعالى وتأييده له؛ ولذا فإنه يتحداهم بثقة واطمئنان؛ لأنه واثق من عجزهم عن كيده، وبمثل ما قال قوم هود لنبيهم قال قوم نوح له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يونس: ٧١].

هُودٌ يَرْفَعُ دَرَجَةَ التَّحَدِّي غَيْرَ مُبَالٍ بِهِمْ

٥٦- ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ[1] مُّسْتَقِيمٍ﴾

قال لهم هود: وهو يرفع درجة التحدي غير مبال بجبروتهم وطغيانهم، وقسوة قلوبهم، وغير مبال بآلهتهم التي زعموا أنها تضره، مع كونها جماد لا تعقل! قال في ثقة عالية وشجاعة نادرة: إنَّ توكُّلي على الله -الذي هو ربي وربكم- مع ضعفي وانفرادي، وقوتكم وكثرتكم، تمنعني منكم، وتحجز بيني وبينكم، فيحول ذلك دون أن تمسوني بسوء، فقد لجأت إلى الله، واعتصمت بجنابه، ولُذت بحماه، وهو مالك أمري وأمركم، وهو رب

---

(١) قرأ رويس وقنبل بخلف عنه بالسين في (صراط)، والباقون بالصاد، ومعهم قنبل في الوجه الثاني.

كل شيء ومليكه، والمتصرف فيه كيف يشاء وَفْق علمه وحكمته.

ثم وصف هود ﷺ قدرة الله تعالى وعظيم ملكه بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ ليس من شيء يدب على هذه الأرض إلا والله مالكه، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه، فكيف أخشى دوابًّا مثلكم، مع توكلي على الله ربي وربكم ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] ومَن يتوكل على ربه، ويلجأ إلى خالقه يبدل الله خوفه أمنًا، وضعفه قوة، وذلَّه عزًّا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والأخذ بالناصية تعني: إحكام قبضة القوي القاهر المالك لمن يأخذ بزمام أمره.

ثم وصف هود ﷺ ربه بوصف آخر: فبين أن أفعاله جل شأنه في غاية الإحكام، فهو سبحانه عدل في قضائه وشرعه وأمره، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وما دام هذا هَدْيَ الله وسنته في خلقه، فلن يسلطكم عليَّ؛ لأنه لا يسلط أهل الباطل على أهل الحق، ولا يظلم أحدًا شيئًا، ولا يضيع عنده من اعتصم به ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣].

هُودٌ يُحَذِّرُ قَوْمَهُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ

٥٧- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟(١) فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا(٢) غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

ختم هود ﷺ ردَّه على قومه بتحذيره لهم من سوء عاقبة إصرارهم على الكفر والعناد، فبيَّن لهم أنه ليس عليه همٌّ منهم إن أعرضوا عنه بعد أن قام بما أوجبه الله عليه، فأبلغهم رسالة ربه ودعاهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، فقد برئت ساحته بالتبليغ، والذنب يقع عليهم بالإعراض عن الإيمان، فما على الرسول إلا البلاغ.

ثم توعدهم هود ﷺ بالهلاك، وإحلال قوم آخرين مكانهم يخلفونهم في ديارهم وأموالهم، ويخلصون لله التوحيد والطاعة والعبادة؛ وذلك بسبب إصراركم على الكفر وعدم إيمانكم.

---

(١) شدد البزي التاء من (فإن تولوا) وصلًا، وخففها غيره.

(٢) أخفى التنوين في الغين من (قومًا غيركم) أبو جعفر، ورقق راء (غيركم) ورش.

وبذهابكم وهلاككم لا تضرون الله شيئًا، فملكه لن ينقص، ونظامه لن يختل، والضرر سيعود عليكم، فأنتم الذين تضرون أنفسكم بتعريضها للهلاك في الدنيا وللعذاب الدائم في الآخرة، والله تعالى لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة المطعين ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]

ثم أخبر هود قومه بأن ربه حفيظ على كل شيء عالم به، وهو الذي يحفظه من أن تمتد إليه أيديهم أو يمسوه بسوء، ويحفظه من شرهم ومكرهم، فأعمالهم لا تخفَى عليه، وهو الرقيب والمهيمن، والقائم على كل نفس بما كسبت.

وفي هذا تنبيه وتذكير لهم بأنه سبحانه لا يغفل عن مؤاخذتهم وعقوبتهم، وأنه يحفظ دينه وأولياءه من الأذى والضياع.

الْعِقَابُ الْحَاسِمُ لِلْعَمَالِقَةِ الْمَغْرُورِينَ

٥٨- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ[1] غَلِيظٍ﴾

ولما جاء أمر الله بهلاك قوم عاد، ونزول العذاب بهم، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم التي تحملهم وتضرب الأرض بهم بشدة وعنف، فإذا رؤوسهم تطيح وأبدانهم تبقى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

وهي ريح عاصفة ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]

أما هود والمؤمنون معه، فقد كان لهم شأن آخر، لقد خلَّصهم الله من العذاب الشديد، والريح المدمرة التي كانت تهدم مساكن المكذبين، وتدخل في أنوفهم فتخرج من أدبارهم، وتَصْرعهم على وجوههم، وكان هود قد دعا ربه طالبًا منه النصرة ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون] أجاب الله دعاءه فقال له: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

وكان قوم هود قد استعجلوا نزول الهلاك بهم فقالوا: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين في دعواك، وأنَّ العذاب نازل بنا إن كذَّبناك، وكانوا ينتظرون المطر لما أصابهم من القحط الشديد، فإذا سحاب كثيف يظلهم، فاستبشروا وتوقعوا أنه يحمل لهم الأرزاق

---

(١) قرأ أبو جعفر بإخفاء التنوين عند الغين من (عذاب غليظ)، والباقون بالإظهار.

والأمطار ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

قال ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] هي ريح عاتية، تحمل لكم العذاب الشديد، وهي ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فكانت هذه الريح تدخل في أفواههم، وتخرج من أدبارهم، وتقتلع المنازل والأمتعة والدواب، ولما أغلقوا أبوابهم، أخذت الريح تدخل عليهم بيوتهم وأكواخهم، وتدمر كل شيء ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] وفي قراءة (فأصبحوا لا تَرى إلا مساكنَهم) فأرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية في أيام نحسات متتابعات؛ ليذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة].

لقد انفرد قوم عاد بالقوة والجبروت في الأرض ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]

لقد نسيت قبيلة عاد ربها، واغترت بسلطانها وقوتها، فكانت نهايتها وخيمة.

هذه عاد الأمس، ونحن نعيش عصرها اليوم ممثلة في القوة المنفردة بالبطش والسلطان والجبروت في الأرض، وهم ليسوا أعز على الله ممن سبقهم.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر]

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

«إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»(١).

إن الريح التي أهلكت قوم عاد جند من جند الرحمن قد يسلطها الله على عاد اليوم - كما سلطها على عاد الأمس- أهلكتهم وأبادتهم.

لقد أوقع الله بقوم عاد ما أوقع من العذاب، بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم لنبيهم:

٥٩- ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ(٢) عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

---

(١) يأتي تخريجه في الآية (١٠٢).

(٢) قرأ بالإمالة في (جبار) أبو عمرو ودوري والكسائي وابن ذكوان بخلف عنه وقلله ورش.

تلك قصة قبيلة عاد مع نبيهم هود، وتلك آثار المكذبين برسل الله، لا ترى لهم من باقية، فسيحوا في الأرض وانظروا ماذا حلَّ بمن كفر بالله، وكذَّب رسل الله، وأنكر آياته الدالة على وحدانيته تعالى، في الأنفس والآفاق وهذه الإشارة بـ(تلك) للبعيد؛ تحقيرًا لهم، وتهوينًا من شأنهم، بعد أن ذهبوا، وبَعُدوا عن الأنظار والأفكار، وقد كانوا يقولون: من أشد منا قوة؟ فانظروا إلى قبورهم وآثارهم.

ثم بيَّن سبحانه سبب استحقاقهم للعذاب، لقد استحقوا هذا العذاب الغليظ؛ بسبب جحودهم لحجج الله وبراهينه التي جاءهم بها هود من عند ربه، فعصوا رسل الله، وأطاعوا أمر كل مستكبر على الله، لا يقبل الحق، ولا يذعن له، والذي حملهم على هذا الإنكار هو الظلم والاستكبار، أما قلوبهم فهي مستيقنة من وحدانية الله تعالى بموجب الفطرة التي فطر الله الناس عليها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]

وقال ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

لقد جحد قوم عاد آيات ربهم، وهم يعلمون أنها حق من عند الله، وكان هذا سبب عذابهم.

لقد وصف الله قوم عاد في هذه الآية **بثلاث صفات** في غاية الشناعة والقبح:

الأولى: أنهم يجحدون آيات الله.

الثانية: أنهم يعصون رسل الله.

الثالثة: أنهم يتبعون رؤساءهم الطغاة.

حُكْمُ اللَّهِ فِي قَوْمِ عَادٍ

٦٠- ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

ثم ختم الله هذه القصة ببيان حكم الله في قوم عاد، وهو أن اللعنة تلحقهم وتحلُّ بهم في الدنيا والآخرة؛ بسبب إصرارهم على الكفر حتى حلَّ بهم العذاب، والكافر الذي

وافى ربه على الكفر يحلُّ به سخط الله تعالى وغضبه، فهو مطرود ومبعد من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، لقد أبعدهم الله عن كل خير وقرّبهم من كل شر.

والسبب أن عادًا كفروا ربهم، وجحدوا نعمه، وكذبوا رسله، فاستحقوا مقت الله وغضبه، وهي علل موجبة لاستئصالهم، ألا فانتبهوا، لقد أبعد الله قوم عاد من رحمته، وأهلكهم عن بكرة أبيهم؛ بسبب شركهم وكفرهم، فلا تكونوا مثلهم ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ وهلاكًا ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ هذا دعاء عليهم باللعنة والهلاك والطرد من رحمة الله تعالى، نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

الْقِصَّةُ الثَّالِثَةُ: قِصَّةُ صَالِحٍ ﷺ

٦١- ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ[1] هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ[2] ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

في سورة هود ﷺ قصة نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام، وصالح أرسله الله تعالى إلى قومه ثمود، وثمود قبيلة من القبائل العربية التي أبادها الله تعالى وأهلكها؛ لأنها كفرت بالله، وكذبت برسول الله صالح ﷺ، إلا مَن آمن منهم فقد نجاهم الله تعالى.

وقد ذُكرت قصته في سور الأعراف والشعراء والنمل والقمر وغيرها.

وقوم ثمود ينتسبون إلى جَدهم الخامس ثمود بن عامر، ويصل نسبهم إلى سام بن نوح، وسيدنا صالح واحد من قوم ثمود، أرسله الله تعالى إليهم، وهم من بقية العمالقة الذين جاؤوا بعد قوم عاد الذين أرسل الله لهم هودًا، وكانت رسالة نوح قبل ذلك بنحو خمس مئة عام، وسميت القبيلة باسم جدهم الأكبر، ولقلة الماء فيها؛ لأن الثمد هو الماء القليل.

وقوم ثمود يسكنون الحِجْر ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر].

والحِجْر: هو وادي القرى، في أطراف المملكة العربية السعودية، فيما بين الحجاز والشام بشرق الأردن، في مكان يسمى الآن حجر الناقة، ويشتهر بمدائن صالح.

---

(١) قرأ الكسائي وأبو جعفر بخفض الراء وكسر الهاء من (غيره)، والباقون برفع الراء وضم الهاء.

(٢) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير من (فاستغفروه) والباقون بالحذف، وللأزرق في الراء الترقيق والتفخيم.

وكان قوم ثمود قد عبدوا الأصنام من دون الله، ومن أصنامهم التي عبدوها (ود وشمس ومناة) وهم خلفاء لقوم عاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وكان بعضهم قد انتقل من الربع الخالي إلى شمال الحجاز، حيث كانت ديار ثمود بعد ذلك ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] إذ كان قوم ثمود من العمالقة.

وكانوا ينحتون في الجبال قصورًا شاهقة ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤] وكانت أعمار أحدهم أكثر من ثلاث مئة عام، فأقاموا القصور المشيدة، وكانت لهم مزارع وبساتين، كما جاء وصفهم في قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء].

ولكنهم لم يشكروا نعمة الله عليهم، وعبدوا الأوثان من دون الله، فأرسل الله لهم واحدًا منهم اصطفاه وميزه، هو أذكاهم! عقلًا، ومن أغنيائهم وأقويائهم، فأخذ يذكِّرهم بنعمة الله عليهم، ودعاهم إلى الله فقال لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ وَحِّدُوا الله، وتوجَّهوا إليه، وحده، في عبادتكم، وحكِّموه فيما شجر بينكم، ولا تَخْضعوا إلا له سبحانه، فهو الذي خلق أباكم آدم من تراب الأرض، وخلق ذريته من نطفة، وجعلكم عمار الأرض وسكانها.

وقد ذكّرهم نبي الله صالحا - أولًا - بنشأتهم الأولى، ثم ذكّرهم - ثانيًا - بأنْ جعلهم عُمَّارًا للأرض، يشقُّون فيها الأنهار، وينشئون فيها البساتين، ويبنون فيها القصور، وينتفعون بما فيها من خيرات ومعادن وجبال وبحار، فقد أنعم الله عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنهم في الأرض، يبنون ويغرسون ويزرعون ويحرثون، وينتفعون بما فيها.

وكلمة (استعمر) كلمة حسنة؛ أي: عمَّر الأرض، ولا يجوز أن يقال على العدو: إنه مستعمِر، بل يقال: إنه محتل.

فالمستعمر: هو الذي يعمِّر الأرض بعد خرابها، وهي صفة حسنة بالنسبة للعدو المحتل الغاصب.

ثم قال صالح لقومه تعقيبًا على هذه النعم: واستغفروا الله من الشرك، وتوجهوا إليه وحده بالعبادة، إن ربي قريب، لمن توجه إليه، واسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم، وارجعوا إليه بالتوبة النصوح وأخلصوا له العبادة، إنه سميع مجيب دعاء مَن عبده ووحَّده، فأقبلوا

على ربكم ولا تقنطوا من رحمة الله، فإنه سبحانه يجيب دعاء من سأله سؤال مسألة لتلبية سؤاله، ويقبل دعاء من سأله تعبُّدًا ويثيبُه عليه.

وهو سبحانه قريب من جميع خلقه بعلمه قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقريب ممن عبده وسأله إجابة دعائه، كما قال تعالى ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]

وقال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

ولهذه المعاني قرن سبحانه ﴿قَرِيبٌ﴾ بـ ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾.

وهذا القرب، منه ما هو عام من جميع الخلق، ومنه ما هو خاص بعباده الصالحين.

والنداء الموجه لقوم صالح موجه إلى البشر جميعًا، فكلهم قد أنشأهم الله من الأرض، وكلَّفهم أن يعمُروها، كما كلفهم بعبادته سبحانه.

ومن المؤسف أن بعض الناس لا يُحسن تعمير الأرض، ويعيش عالة على غيره، وهو محسوب على الإسلام.

ومن المؤسف أيضًا أن يستخرج غير المسلمين كنوز الأرض ويغزون الفضاء، مع أن صلتهم بالله لا تُذكر.

لقد دبت الحياة في صحراء سيناء لما كانت بأيدي اليهود في الفترة من ١٩٦٧-١٩٧٣م، ولما عادت إلى أهلها المسلمين عاد إليها الخراب، وهي تعادل ثلث مساحة مصر، وفي مصر من الأيدي العاطلة، والشباب الذي لا يجد المسكن، ما يعدُّ بالملايين!!

ومساحة الأرض الزراعية في السودان وحدها تكفي العالم الإسلامي أجمع!!

ومن العار على المسلمين ألا يأخذوا بهدْي إسلامهم، وأن يعتمدوا على غيرهم حتى في رغيف الخبز، فضلًا عن السلاح الذي يذودون به عن أوطانهم ومقدساتهم، ويحفظون به كرامتهم وأعراضهم!!

مَوْقِفُ قَوْمِ صَالِحٍ مِنْ نَبِيِّهِمْ

٦٢- ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

كان موقف قوم صالح من دعوته لهم إلى توحيد الله تعالى أنهم قالوا له: قد كنت قبل دعوتك هذه مرجوًّا فينا؛ أي: سيدًا مطاعًا، وكان أمرك سهلًا، وكنا نعتقد أنك صاحب عقل راجح، وفكر سديد، وكنا نرجو أن تكون رئيسًا علينا، وقد خاب أملنا فيك، وإننا في شك من دعوتك، فقدانقطع رجاؤنا فيك، وأصبحت مختل التفكير، حين نهيتنا عن عبادة الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا الأولون، ونحن لن نترك عبادتها، ولن نستجيب لدعوتك، لقد اختلف ظنهم فيه لمّا أتاهم بما لا يوافق أهواءهم الفاسدة.

لقد اعترف قوم ثمود بأن صالحًا كان راجح العقل، كثير الخير، قبل أن يقوم فيهم بالدعوة، ويبين ما هم عليه من أخطاء، ولكنهم بعد أن قام فيهم بالدعوة، اتهموه، وشكُّوا في أمره، وناصبوه العداء، وقلبوا له ظهر المجن، وهكذا كانت قريش، وهي تطلق على محمدٍ ﷺ الصادق الأمين، ثم تألبوا عليه بعد أن دعاهم إلى الله تعالى، فوصفوه بالسحر وبالشعر والكهانة.

صَالِحٌ يُقِيمُ الْبَيِّنَةَ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَته لِلرِّسَالَةِ

٦٣- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

قال لهم صالح: ماذا أفعل يا قوم، إذا كان الله قد فضَّلني وميَّزني عليكم، فأنزل عليَّ الوحي الإلهي وكلَّفني بالرسالة، وأيدني بالمعجزة، وآتاني النبوة، وخصني بها دونكم؟ فمَن الذي يدفع عني عذاب الله يوم القيامة إذا لم أبلغ دعوته؟ فما تزيدونني غير تضليل، وهلاك، وإبعاد عن الخير إن عصيت ربي، وكتمتُ ما أمرني بتبليغه.

مُعْجِزَةُ صَالِحٍ عليه السلام

٦٤- ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾

آمن لصالح من قومه الضعفاء، أما المستكبرون فكان شأنهم شأن المستكبرين في كل

زمان ومكان، كفروا بما جاء به صالح، وكان الذين آمنوا به ألفًا ومئتين؛ والذين أُهلِكوا من قومه يقاربون خمسة آلاف، على ما ذكره المؤرخون.

قال المستكبرون للمستضعفين: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾.

قال المؤمنون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

أما الذين استكبروا فقالوا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

واتهموه بالسحر فقالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

واتهموه أيضًا بالكذب فقالوا: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر].

وقالوا له: كيف يخصك الله بالنبوة، وأنت واحد منا، وبشر مثلنا؟ فإن كنت صادقًا فأتنا بمعجزة تدل على صدقك، وطلبوا منه معجزة معينة، وهي أن يُخرج لهم ناقة عُشَرَاء، من صخرة صمَّاء، فكان من الله سبحانه أن أجابهم لما طلبوه؛ ليقيم الحجة عليهم، ولتكون عبرة لغيرهم؛ لأن البشر هم البشر، شأنهم الجدال، فأخرج الله لهم من الصخرة الصمَّاء ناقة عُشَرَاء، وما لبثت هذه الناقة إلا أن وضعت رضيعًا كانت تحمله في بطنها، وكانت معجزة عجيبة من الله ﷻ إلى قوم صالح.

وكان القوم يشربون من بئر معينة، والماء قليل، وكان صالح قد طلب من القوم أن يشربوا من هذه البئر يومًا، وتشرب منه الناقة اليوم الآخر، فكانت تشرب البئر كله في يوم، والقوم يشربونه في يوم، كما قال تعالى:

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر] وقال أيضًا: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء]

واليوم الذي تشرب فيه الناقة الماء كانت تدر عليهم من الحليب بمقدار الماء الذي تشربه، وقال الله تعالى لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٧٣].

إن هذه الناقة آية الله أضافها سبحانه لنفسه تشريفًا لها، فذروها أيها القوم تأكل في أرض الله من المرعى العام، الذي ترعى فيه أغنام الناس ولا يملكه أحد، ولا تمسوها بسوء، وهذه الناقة لا تُركب، ولا تُعذب، ولا تُذبح، فإنكم إن فعلتم ذلك يأخذكم الله

بعذاب أليم من عنده.

ولعل هذه الناقة كانت تختلف عن بقية الأنعام، لعلها كانت تخوِّفهم وتخوِّف أنعامهم وإبلهم.

١- في الصحيحين عن عبد الله بن عمر ﷺ أن الناس نزلوا مع رسول الله على الحِجْر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها، وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهْرِقوا ما استقَوْا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تَرِدُها الناقة[١].

٢- وعن عبد الله بن عمر أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه عندما وصلوا إلى الحجر: **«لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذَّبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»**[٢].

٣- وفي لفظ آخر عنه ﷺ قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر، فقال لنا رسول الله ﷺ: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم زجر فأسرع حتى خلَّفها»**[٣].

ومعنى الآية: ويا قوم هذه ناقة الله، جعلها لي معجزة دالة على صدقي فيما أبلغكم عن ربي، وهي حجة واضحة وعلامة بارزة على أني رسول الله، فاتركوها تأكل في أرض الله، فليس عليكم رزقها، ولا تمسوها بأذى، فهي ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التي تُركب وتُنحر، فإنكم إن فعلتم شيئًا من ذلك يأخذكم من الله عذاب قريب.

عَقْرُ النَّاقَةِ وَهَلَاكُ قَوْمِ ثَمُودَ

٦٥- ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ[٤] ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

أراد قوم ثمود أن يقضوا على معجزة صالح ودعوته؛ فتآمروا على قتل الناقة، واحتالوا على ذلك باستخدام النساء وإغرائهم، فكانت امرأة يقال لها: (صدوق بنت المحيا) أغرت

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨١) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٧٨، ٣٣٧٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٠) و«صحيح البخاري» برقم (٤٣٣، ٤٤٢٠، ٤٧٠٢).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٠) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٨٠، ٣٣٨١، ٤٤١٩).

(٤) أمال (داركم) أبو عمرو ودوري والكسائي وابن ذكوان بخلف عنه، وقلله ورش.

رجلًا يقال له: (مصدع) إن هو قتل الناقة أن تكون له - يتزوجها - بدون مقابل، وامرأة أخرى عجوز يقال لها: (عنيزة) كانت لها ابنة جميلة فاتنة، عرضتْها على (قُدار بن سالف) إن هو عقر الناقة أن يتزوجها بدون مقابل، ومهرها عَقْر الناقة، فاجتمع تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وعزموا على قتل الناقة، فبينما كانت الناقة تشرب من البئر أصابها (مصدع) بسهم في ساقها، وتبعه (قُدار بن سالف) فضربها بسيفه في ساقها ونحرها، وأجهز القوم عليها.

ثم دبروا مؤامرة لقتل صالح وأهله، ولمَّا علم صالح بما يدور في نادي القوم ومجلسهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وقال لهم: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] قالوا تشاءَمْنا منك ومن دعوتك، قال: إنما شؤمكم من أنفسكم، وما يصيبكم من الخير أو الشر فمن الله وحده، والشر الذي يأتيكم يكون بسبب كفركم ومعاصيكم(١).

والمعنى: فكذبوا صالحًا وعقروا الناقة فقال لهم: استمتعوا بحياتكم في بلدكم ثلاثة أيام، فإن العذاب نازل بكم بعدها، وهذا وعد من الله غير مكذوب لَا بُدَّ من وقوعه. قال تعالى:

النِّهَايَةُ الأَلِيمَةُ

٦٦- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ(٢) يَوْمِئِذٍ(٣) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾

وكان الملأ المستكبرون من قوم صالح قد رموه بالسحر، واستعجلوا نزول العذاب بهم، فأعلم الله نبيه صالحًا، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، أن العذاب نازل بهم بعد ثلاثة أيام، فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾.

ويذكر المفسرون: أن قوم صالح عقروا الناقة يوم الأربعاء، فلما كان يوم الخميس

---

(١) اقرأ الآيات من سورة النمل [٣٥-٤٥].

(٢) قرأ أبو جعفر بإخفاء النون عند الخاء من (ومن خزي) مع الغنة، والباقون بالإظهار.

(٣) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بفتح الميم من (يومئذ) على أنها حركة بناء، والباقون بكسرها إجراء لليوم مجرى الأسماء فأعرب.

أصبحت وجوههم مصفرة، وفي يوم الجمعة أصبحت وجوههم محمرة، وفي يوم السبت اسودت وجوههم، وهم ينتظرون النهاية الأليمة، ثم كان يوم الأحد، وبعد إشراق الشمس صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فإذا الأرض ترتجف تحت أرجلهم، وإذا بصاعقة من السماء نزلت بهم كي تُميتهم، فإذا هم خامدون ميتون، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل] أي: ما حَلَّ في بيوتهم الخربة؛ وهي مدائن صالح، لتكون عبرة للناس إلى يوم قيام الساعة.

وهذا العذاب الذي نزل بهم وصفه القرآن تارة بالرجفة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨].

وتارة بالصيحة ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧].

وتارة بالصاعقة ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]

وتارة بالطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة].

بهذه التعبيرات الأربعة جاء ذِكْرُ عذاب قوم ثمود في القرآن، حيث صاح بهم جبريل، فزُلزلت الأرض تحت أقدامهم، وجاءتهم الصاعقة من فوقهم، وكان هذا العذاب طاغيًا؛ أي: مهلكًا مدمرًا، فأتى عليهم جميعًا، قيل: إلا رجلًا كان في الحرم، فمنعه الحرم من ذلك، ثم هلك بعد خروجه منه، وفي سنن أبي داود أن ذلك الرجل كنيته أبو رغال[1]، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بعذاب القوم ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ فرحل إلى الشام ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت].

والمعنى: فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم، في الوقت المحدد، نجينا صالحًا! ومن آمن به برحمة منا وفضل، ونجيناهم من هول ذلك اليوم وخزيه، إن ربك هو القوي الذي لا يعجزه شيء، العزيز الذي لا يُغلب، ومن قوته وعزته أنه أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم. قال تعالى:

٦٧- ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

أي ومن الأمم الطاغية قوم ثمود، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وكذبوا رسول

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٨٧)، وانظر القصة في سورة الأعراف.

الله صالحًا، ونحروا الناقة التي نُهوا عن نحرها، فأخذتهم الصيحة القوية فأصبحوا في ديارهم موتى ساقطين على وجوههم لا يتحركون، فهم صرعى وهلكى.

٦٨- ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ[١] كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ[٢] (٦٨)﴾

كأن هؤلاء القوم الظالمين لأنفسهم، في سرعة زوالهم وفنائهم، لم يقيموا في ديارهم عمرًا طويلًا، وهم في رخاء من عيشهم، ألا إن هؤلاء الظلمة من قوم ثمود جحدوا نعم ربهم، وكفروا بآياته وحُججه، ألا بُعْدًا وسُحقًا وهلاكًا لقبيلة ثمود، وطرْدًا لهم من رحمة الله؛ بسبب ما ارتكبوه من منكرات وموبقات، فما أشقاهم، وما أذلهم!!

الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ

٦٩- ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ[٣] إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ[٤] فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾

هذه القصة ذُكرت في القرآن الكريم مع قصة لوط في مواضع عدة؛ منها سورة هود والحجر والعنكبوت والذاريات، وذُكرت منفردة في مواضع أخرى من القرآن ليس فيها لوط، والملائكة الذين نزلوا على إبراهيم عليه السلام كانوا: جبريل وميكائيل وإسرافيل، قيل: إن جبريل كان لإهلاك قوم لوط، وميكائيل كان لبشرى إبراهيم بإسحاق، وإسرافيل كان لنجاة لوط ومَن معه[٥].

نقل القرطبي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط، مروا بإبراهيم فظنهم أضيافًا، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، قيل: ومعهم ملَك الموت، وقيل: كان عددهم أكثر من ذلك؛ تسعة عن الضحاك، وأحد عشر عن السُّدي، وقيل غير

(١) قرأ حفص وحمزة ويعقوب بعدم التنوين في (ثمود) على المنع من الصرف، ونونها الباقون، ومن لم ينون وقف على الدال بالسكون ومَن نوّن وقف بالألف.

(٢) قرأ الكسائي بكسر الدال مع التنوين من (لثمود) مصروفًا على إرادة الحي، والباقون بالفتح من غير تنوين، ممنوعًا من الصرف للعلمية والتأنيث.

(٣) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بإسكانها.

(٤) قرأ حمزة والكسائي (قال سِلْم) بكسر السين وسكون اللام من غير ألف بعدها، وقرأ الآخرون (قال سلام) بفتح السين واللام وإثبات ألف بعدها، وهما لغتان مثل: حرم وحرام.

(٥) «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٨٧).

ذلك، وهؤلاء الملائكة نزلوا على إبراهيم **لمهمتين:**

المهمة الأولى: أن يبشروه بهلاك قوم لوط، الذين كانوا يأتون الذكران من العالمين، وهذه هي المهمة الرسمية التي جاؤوا من أجلها، وهي هلاك قوم لوط.

المهمة الثانية: هي بشرى إبراهيم، بعد أن صار شيخًا كبيرًا، يبلغ حوالي مئة وعشرين عامًا، وزوجته سارَّة تبلغ نحو مئة عام، يبشرونهما بولدٍ لهما بعد هذه السن؛ وهو إسحاق، ومن بعد إسحاق يعقوب؛ أي: أن إبراهيم وسارة سيُدركان حفيدهما (يعقوب) الذي هو إسرائيل، والغرض من هذه القصة هو الموعظة والاعتبار بمصير قوم لوط؛ ولذا قُدمت قصة إبراهيم عليها، وللتنويه بمقام إبراهيم عند ربه.

وإبراهيم هو عم لوط عليهما السلام، هاجرا معًا من العراق إلى فلسطين، ثم هاجرا بسبب قلة المال إلى مصر، وعادا منها بأموال وفيرة، ونزل إبراهيم بمدينة الخليل، ونزل لوط قريبًا منه في شرق الأردن، بمنطقة سدوم وعامورة؛ لكي يتسع المكان لمواشي كل منهما، فما من نبي إلا ورعى الغنم.

نزلت الملائكة على إبراهيم، فحيوه بالسلام، ورد عليهم،ولكنهم كانوا غير معروفين له ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات].
والآية تشير إلى أن التحية بالسلام كانت معروفة في ملة إبراهيم عليه السلام، ويؤخذ من الآية أن السلام يكون قبل الكلام، وأن ردّ السلام يكون بأبلغ من إلقائه.

ولقد أَتَوْهُ في صورة شُبَّان حِسَان، ونظرًا لأن إبراهيم عليه السلام كان رجلًا مضيافًا -فربما سافر المسافات الطويلة ليلتمس ضيفًا يأكل معه - فقد مال على أهله بسرعة؛ لِيُعِدُّوا لهم الطعام ﴿فَرَاغَ﴾ أي: مال ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] وعلى عادة العرب وعادة أصحاب المواشي أن يذبحوا لضيوفهم، وقد كانت أموال إبراهيم من البقر، وسرعان ما جهَّز لضيوفه عجلًا سمينًا مشويًّا وقدمه لهم، وعرض عليهم أن يأكلوا؛ ونظرًا لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون، لم تمتد أيديهم إلى الطعام؛ ولذا استنكر إبراهيم ذلك فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

ومعنى الآية: ولقد جاءت رسلنا من الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام، وهم في طريقهم إلى

لوط ﷺ، يبشرون إبراهيم وزوجته بإسحاق، ويبشرونهما أيضًا أنهما سيطولُ عُمْراهما حتى يريا حفيدهما يعقوب بن إسحاق.

فلما دخلت الملائكة على إبراهيم حَيَّوْهُ بالسلام، تحية المؤمنين في الدنيا والآخرة، فرد إبراهيم ﷺ بأكمل تحية وأتمها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

وجاء لفظ القرآن في التعبير عن رد إبراهيم بأوجز لفظ في العربية ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ فذهب إبراهيم سريعًا، وأعد لهم واجب الضيافة دون تباطؤ ولا تأخر، وقدَّم لهم عجلًا سمينًا مشويًّا ليأكلوا منه.

٧٠- ﴿فَلَمَّا رَءَآ[١] أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾

أي: فلما رأى إبراهيم الملائكة لا يأكلون أنكر ذلك، وأوجس؛ أي: أظهر في نفسه خيفة منهم؛ لأن العادة جرت أن الذي يمتنع عن الطعام الذي أُعد من أجله يكون مُضْمِرًا شرًّا في نفسه، أو أنه يَبْغَضُ هذا الشخص.

قال قتادة: كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأتِ بخير، وأنه يُحَدِّث نفسه بشر[٢].

وفي سورة الحجر تصريح بالخوف منهم حيث قال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢].

ولما رأت الملائكة خوف إبراهيم ﷺ منهم قالوا له: لا تخف، إنا رسل الله وملائكته، جئنا لإهلاك قوم لوط.

قيل: إن إبراهيم ﷺ لمَّا قدَّم لهم الطعام قالوا: لا نأكل طعامًا إلا بحقه، قال لهم: إن له حقًّا، قالوا: فما هو؟ قال: أن تُسموا الله تعالى في أوله، وتَحْمدوه في آخره، قالوا: فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: حُق لهذا أن يتخذه الله خليلًا[٣].

فالتسمية في أول الطعام، وحمد الله في آخره كان معروفًا في ملة إبراهيم خليل الرحمن.

(١) أمال ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف الراء والهمزة من (رأى) وقللهما ورش، وأمال أبو عمرو الهمزة فقط.

(٢) عبد الرزاق (١/ ٥٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٣) وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٤).

الْمَلَائِكَةُ تُبَشِّرُ سَارَةَ بِإِسْحَاقَ وَهِي تَعْجَبُ لِأَنَّ الْأَمْرَ عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ

٧١- ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ[١] إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ[٢] ﴿٧١﴾﴾

كانت امرأة إبراهيم -سارة بنت هاران بن ناحور، وهي ابنة عمه- قائمة خلف ستار، تقوم على خدمة الضيوف، فلما سمعت هذا الحوار ضحكت؛ والمراد: الضحك المعروف؛ أي: ضحكتْ فرحًا وسرورًا لهلاك قوم لوط، أو ضحكت لزوال الخوف والفزع عن إبراهيم، أو تعجُّبًا مما سمعت، وهذا هو الأولى في معنى الآية، حملًا لها على ظاهرها.

وقيل: إن ضحكت بمعنى حاضت؛ أي: نزل عليها الدم وهي بنت ثمان وتسعين سنة[٣]، وكانت عقيمًا، فلما حاضت في هذا الوقت بشَّرتها الملائكة بإسحاق، وسيعيش إسحاق حتى يُولد له يعقوب حفيدا لإبراهيم.

عن ضمرة بن جندب أن سارة لما بشرها الرسل بإسحاق، قال: بينما هي تمشي وتحدثهم آنست بالحيضة فحاضت قبل أن تحمل بإسحاق، فكان من قولها للرسل حين بشروها: قد كنت شابة، وكان إبراهيم شابًّا فلم أحمل، فحين كبِرْتُ وكَبِر، أألد؟

والضحك في لغة العرب معروف، وليس هناك ما يدعو إلى صرف اللفظ عن ظاهره، ولا يلزم لحمل سارة أن تحيض في هذه اللحظة، فالأَوْلَى أن سارة ضحكت من بشارة الملائكة لإبراهيم بغلام، وأن ضحكها كان ضحك تعجب واستبعاد لبلوغها سن اليأس.

جاء في العهد القديم أن الملائكة قالوا لإبراهيم: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة، فقالوا: يكون لسارة امرأتك ابن، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة فضحكت سارة في باطنها قائلة: أفبالحقيقة ألد، وأنا قد شخت؟ فقال الرب: لماذا ضحكتْ سارة؟ فأنكرتْ قائلة: لم أضحك؛ لأنها خافت، قال: لا، بل ضحكت[٤].

ولم تضحك سارة إلا بعد أن بشرتها الملائكة بإسحاق، فلما تعجبت من ذلك بشروها

(١) قرأ قالون والبزي بتسهيل الهمزة الأولى من (ومن وراء إسحاق) مع المد والقصر، وأسقطها أبو عمرو ورويس مع القصر والمد، وسهل الثانية ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس، ولورش وقنبل وجه آخر هو إبدال الثانية ياء مع إشباع المد للالتقاء الساكنين، وحققها الآخرون.

(٢) قرأ ابن عامر وحفص وحمزة بنصب (يعقوب) مفعول لفعل محذوف؛ أي: وهبنا له يعقوب من وراء إسحاق، وقرأ الباقون بالرفع، مبتدأ مؤخر خبره الظرف الذي قبله.

(٣) ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٥) عن ابن عباس.

(٤) الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين نقلًا عن «تفسير ابن عاشور» (١٢/ ١١٩).

بابن الابن زيادة في البشرى، والتعجب من ذلك غير مستغرب؛ لأن من شأن كبار السن ألَّا يولد لهم في العادة، فضلًا عن أن يدركوا أحفادهم.

إسماعيل أكبر من إسحاق: وهذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسماعيل، وأنه أسنُّ من إسحاق، وذلك أن سارة كانت شابة جميلة وقت أن أهدى ملك مصر هاجر إلى سارة، وأهدتها سارة إلى إبراهيم، فاتخذها أمًّا لولده إسماعيل، ولما غارت سارة منها خرج بها وبابنها إسماعيل من الشام على البراق، وتركهما في مكة، وعاد إلى الشام، ثم كانت البشارة بعد ذلك بإسحاق، وكانت سارة عجوزًا.

وإسماعيل أكبر من إسحاق بثلاثة عشر عامًا، فكيف يُؤمر إبراهيم بذبح إسحاق حينئذٍ؟ على أن الامتثال للذبح كان في منى، ونبع الماء كان في زمزم بالمسجد الحرام، ولم يرد في أثرٍ أن إسحاق دخل الحجاز، وكيف يؤمر إبراهيم بذبح إسحاق قبل أن يُولد له يعقوب المبشَّر به في الآية؟

ويؤيد كون الذبيح هو إسماعيل ما جاء في الأثر: «**أنا ابن الذبيحين**»[1] الذبيح الأول هو عبد الله والده ﷺ الذي فداه عبد المطلب بمئة من الإبل، وكان قد نذر أن يذبح أحد أبنائه، فخرج السهم عليه، والذبيح الآخر هو إسماعيل، ويؤيده أن القرآن الكريم لما فرغ من قصة ذبح إسماعيل في سورة الصافات قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢] فكانت البشارة به بعد قصة ذبح إسماعيل، ودل هذا على أن الذبيح هو إسماعيل، وليس إسحاق كما يدَّعي اليهود.

٧٢- ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ[2] أَأَلِدُ[3] وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

فعجبت سارة لهذا الخبر واندهشت، وصرَّحت بتعجبها الذي كتمته بالضحك

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٣٣١) لا أصل له، وقال الحافظ في الفتح (١٢/٣٧) وأطنب ابن القيم في الهَدْيِ، في الاستدلال لتقويته.

(٢) وقف رويس على (يا ويلتى) بهاء السكت مع المد المشبع بخلف عنه؛ زيادة في التحسر والتوجع.

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أألد) مع إدخال ألف للفصل بينهما، وقرأ ابن كثير ورويس بتسهيل الثانية أيضًا من غير إدخال، ولورش التسهيل والإبدال، ولهشام التحقيق والتسهيل مع الإدخال، والباقون بالتحقيق من غير إدخال، ولا خلاف في تحقيق الأولَى.

وصكّت وجهها كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات] -على عادة المرأة حين تندهش وتُفاجأ بأمر هام- وقالت سارة متعجبة لمَّا بُشرت بإسحاق: يا ويلتى، كيف يكون لي ولد وأنا امرأة مسنة، وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم كبير، فكيف يأتينا الولد؟! إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجر به العادة، إن إنجاب الولد من مثلي ومثل زوجي مع كبر السن لشيء عجيب.

٧٣- ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ[١] ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾

قالت الملائكة: يا سارة، أتعجبين من أمر الله وقضائه، هذا فضل الله خصَّكم به أهل بيت النبوة، إنه حميد في أفعاله، مجيد في صفاته، والمجد: عظمة الصفات وسعتها، فله سبحانه صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أتمها وأكملها.

وفي الآية إنكار على سارة لاستبعادها البشارة وتعجبها من أن يرزقها الله الولد في هذه السن؛ لأنه سبحانه يقول للشيء كن فيكون، وهو سبحانه قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء.

ونظير هذه الآية في سورة الذاريات ٢٩: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ حكاية لما قالته الملائكة زيادة في سرور سارة وإدخال الطمأنينة إلى قلبها؛ أي: رحمة الله الواسعة وخيراته وبركاته على آل بيت إبراهيم، فهم أهل البيت في هذه الآية.

قالوا: أتعجبين من ذلك يا سارة؟ فإن الله قد صنع بكم ما هو أعظم من ذلك، إن الله تعالى قد جعل رحمته وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد[٢].

---

(١) رسم (رحمة) بالتاء المفتوحة في المصحف، ووقف عليه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء، وهي لغة قريش، ووقف غيرهم بالتاء، وهي لغة طيئ، وأمالها الكسائي عند الوقف.

(٢) ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٥).

وفي وصفه تعالى بأنه حميد مجيد ما جاء في صحيح مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ قولوا: **«اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد»**(١).

وفي حديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: **«قولوا: اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»**(٢).

آلُ بَيْتِ النُّبُوَّةِ: أما أهل بيت نبوة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وجاء تحديدهم فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهل بيته الذين حرموا الصدقة من بعده؛ أي: أهل بيته في النسب الذين قال النبي ﷺ لهم: **«إن الصدقة لا تحل لي ولا لأهل بيتي، إنما هي أوساخ الناس»**(٣).

والآية من سورة الأحزاب تشير إلى أن زوجات النبي ﷺ من أهل بيته، كما أشارت هذه الآية إلى أن أهل بيت إبراهيم عليه السلام هي زوجته.

ويشير حديث الكساء إلى أن أهل بيت النبوة هم الذين ضمهم النبي ﷺ في كسائه، وهم فاطمة وعلي والحسن والحسين، ولما تساءلت أم سلمة إن كانت منهم دعا لها النبي ﷺ وأخبر أنها إلى خير، ولعل النبي ﷺ لم يأذن لها في الدخول في الكساء، لوجود رجل أجنبي عنها هو علي رضي الله عنه.

ويمكن القول بأن هناك أخص أهل البيت، وهم أهل الكساء، ثم هناك ما يشملهم

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٥) وأخرجه البخاري عن كعب بن عجرة برقم (٣٣٧٠، ٤٧٩٧) وليس فيه (في العالمين) كما في مسلم أيضًا برقم (٤٠٦) وفي البخاري زيادة (إبراهيم) قبل (وعلى آل إبراهيم) في الصلاة وفي البركة، وفي بعض ألفاظ الحديث زيادة (اللهم) قبل (بارك).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٤٠٧) و«صحيح البخاري» (٣٣٦٩، ٦٣٦٠).

(٣) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٠٧٢). وفي المسند عن عبدالمطلب بن ربيعة برقم (١٧٥١٩) بإسناد صحيح، رجاله ثقات وأخرجه ابن حبان (٤٥٢٦) والبيهقي في السنن (٧/ ٣١).

ويشمل زوجات النبي ﷺ وهن من نزلت فيهن الآية، ثم بني هاشم، وبني المطلب، وهذا يشمل جميع من حرموا الصدقة، وقيل غير ذلك[١]. قال تعالى:

٧٤- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ[٢] يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ[٣] ﴿٧٤﴾﴾

ذهب الفزع عن إبراهيم بهذه البشرى، واطمأن بولد سيولد له اسمه إسحاق، فلما ذهب عنه الخوف، واطمأن قلبه إلى ضيوفه، وعلم أنهم ليسوا بشرًا، أخذ يحاور الملائكة في شأن قوم لوط، ويحاول تأجيل نزول العذاب بهم، لعله يكون سببًا في توبتهم ورجوعهم إلى الله تعالى.

وَرَدَ أنَّ إبراهيم ﷺ قال للملائكة: لو أن في هذه القرية أربعين رجلًا مؤمنًا أتهلكونها؟ قالوا: لا، فأخذ يقلل من العدد، وهم يقولون: لا، حتى وصل إلى رجل واحد، ثم قال: إن فيها لوطًا، وهو رجل واحد، وقد ذكر القرآن أن في هذه القرية بيتًا واحدًا من المسلمين، هو بيت لوط وأهله، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات] وفي قوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]
والإسلام والإيمان هنا بمعنى واحد؛ لأنهما اجتمعا في مقام واحد.

ويراد بالمجادلة في الآية: المحاورة، وقد نسب الله سبحانه الجدال إلى نفسه، مع أنه كان مع الملائكة؛ لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط كان بأمر الله تعالى، وإبراهيم يحاور الملائكة في تنفيذ أمر الله تعالى.

وهذه المجادلة التي تمت بين إبراهيم والملائكة، جاء تفسيرها في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: القرية التي يسكنها قوم لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات].

---

(١) انظر تفصيل ذلك في تفسير آية الأحزاب ٣٣.
(٢) قرأ بالإمالة في (البشرى) حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وقللها ورش.
(٣) عدّ (في قوم لوط) آية، البصري والحمصي، وتركها من العدد غيرهما.

وَصْفُ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ

٧٥- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾

وكانت هذه المراجعة من إبراهيم للملائكة في تأخير هلاك قوم لوط؛ لأن إبراهيم عليه السلام قد وصفه ربنا في هذه الآية بثلاثة أوصاف هي: الحلم، والإنابة، وكثرة الرجوع إلى الله تعالى.

١- فهو (حليم) كثير الحلم، ذو خلق حسن، وسعة صدر، صبور على الأذى، صفوح عن الإساءة يقابلها بالإحسان ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] غير عجول في الانتقام من المسيء، ومن حلمه أنه لا يحب تعجيل العقوبة بقوم لوط.

٢- وهو (أواه) يكثر التأوه من خشية الله تعالى، ويكثر من التوجع الحزين، كما يكثر من التضرع والدعاء في جميع الأوقات، وذلك من رأفته ورقة قلبه، وإذا وجد عذابًا أصاب أحدًا من الناس يتألم له.

٣- وهو (منيب) سريع الاستغفار والتوبة، كثير الرجوع إلى الله تعالى، مقبل عليه، معرض عمن سواه، ومن ذلك أنه أخذ يجادل عمّن وجب هلاكهم. قال الله تعالى:

٧٦- ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾

أمر الله تعالى إبراهيم أن يعرض عن الجدال في شأن قوم لوط، فإن وعد الله حقٌّ، وقد أوجبه سبحانه على هؤلاء القوم، وإنهم آتيهم عذاب لا رجعة فيه، ولا مردّ له من الله.

والمعنى: قالت رسل الله من الملائكة: يا إبراهيم، أعرض عن الجدال في شأن قوم لوط، والتماس الرحمة لهم، فقد نفذ القضاء بعذابهم، وحقت عليهم كلمة الله، وحان الوقت الذي قُدِّر فيه هلاكهم، وإن عذاب الله نازل بهم لا محالة، غير مصروف عنهم ولا مدفوع.

الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ: قِصَّةُ لُوطٍ عليه السلام

٧٧- ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا[1] لُوطًا سِىٓءَ[2] بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾

---

(١) أسكن السين من (رسلنا) أبو عمرو، وضمها غيره.

(٢) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر ورويس بإشمام كسرة السين للضم، والباقون بالكسرة الخالصة، وهما لغتان.

لوط ﷺ هو ابن هاران، وهو ابن أخي إبراهيم ﷺ، وكان قد آمن مع عمه إبراهيم وهاجر معه إلى الشام، فبعثه الله نبيًّا ورسولًا إلى أهل سدوم وما حولها، يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عما يرتكبونه من فاحشة اللواط التي لم يسبقهم إليها أحدٌ من العالمين، ولم يألفها بنو آدم جميعًا.

وقد ذُكرت قصة لوط بأساليب متعددة في القرآن الكريم؛ منها سور: الأعراف والحجر والشعراء والنمل والعنكبوت والصافات والذاريات والقمر.

وذكرت قصة لوط هنا في سياق نزول الملائكة على إبراهيم، وهم في طريقهم إلى إهلاك قوم لوط؛ إذ لم يكن من المناسب أن تَنزل الملائكة رأسًا على نبي الله لوط دون أن يمرُّوا أولًا بأبي الأنبياء إبراهيم، وهو عم لوط، وهما متجاوران، فلما بشروا إبراهيم بالمولود، ذهبتِ الملائكة من عنده متجهة إلى لوط.

وبين بلد إبراهيم في الخليل، وقرية لوط ثمانية أميال، وأخذت الملائكة تسأل وهي في الطريق، عن نبي الله لوط ﷺ، فوجدوا ابنته عند قرية سدوم تأخذ الماء من نهر سدوم، فسألوها أن تدلهم على مَن يضيفهم، فلما رأت حُسن هيئتهم خافت عليهم من القوم، فقالت لهم: مكانكم، وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم، فقالوا له: نريد أن تضيفنا الليلة، فحذرهم قائلًا: أشهد بالله أن أهل هذه القرية شرُّ قوم في الأرض.

وكان الله تعالى قد أمر الملائكة ألَّا يعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، ولما شهد عليهم لوط أول مرة، نظر جبريل إلى أصحابه وقال: هذه واحدة، وتردد الكلام بينهم حتى شهد لوط على قومه أربع شهادات، ثم دخل بهم المدينة[1].

وكان لوط لما رآهم ضاقت نفسه بهم؛ خوفًا من أن يتعدى عليهم القوم، وقال لوط: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ هذا يوم شديد البلاء، وعظيم الحرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم لأنهم شباب حسان جُرْد مُرْد.

وفي رواية أخرى -عن قتادة- أن الملائكة لما وصلوا قرية لوط، وجدوه يعمل في

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٩٣) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٦) عن السدي، وكان للوط ابنتان هما (زنتا وزعورا) صحت بهما الرواية كما في الفخر الرازي (٨/ ٣٢).

حرث له، فسألوه أن يضيفهم، فاستحيا منهم، وخاف عليهم من القوم، وانطلق أمامهم، وقال لهم وهو في أثناء الطريق: والله ما أعلم على وجه الأرض أخبث من أهل هذه القرية، ومشى قليلًا ثم عاد إليهم، وكرر ذلك أربع مرات، قال قتادة: وكانوا قد أمروا ألا يُهلِكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم أربع مرات[1].

وقد بين سبحانه أنهم قوم متجاوزون الحلال إلى الحرام، كما في قوله تعالى منكرًا عليهم فِعْلتهم الشنيعة: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء].

وتشير الآية إلى أنه لما جاءت الملائكة نبي الله لوطًا ساءه مجيئهم واغتم لذلك؛ لأنه لم يعلم أنهم ملائكة الله، وكان يظن أنهم بشر، فخاف عليهم من قومه، وقال: هذا يوم بلاء وشدة، وحرج كبير.

حِوَارٌ بَيْنَ لُوطٍ وَقَوْمِهِ فِي شَأْنِ الْمَلَائِكَةِ

٧٨- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ[2] أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ[3] فِى ضَيْفِىٓ[4] ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

وبعد أن علم قوم لوط بوجود الضيوف عند نبيهم، جاؤوا إليه مسرعين الخُطا يدفع بعضهم بعضًا إلى بيته من شدة الفرح، وكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وكانت امرأة لوط قد خرجت إلى قومها، وأخبرتهم عن وجود شباب حِسَان عند لوط، فجاؤوا مسرعين إليه بدافع الشهوة البهيمية؛ لأنهم كانوا يأتون الرجال دون النساء، ويأتون في ناديهم المنكر من الفاحشة، ويرمون عابري السبيل بالحصى، فأيهم أصابه الحصى قال الرامي: أنا أَوْلَى به، ويفعلون غير ذلك من سيئ الأخلاق وقبيح الصفات.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٦).

(٢) وقف يعقوب على (هن) بهاء السكت بخلف عنه؛ وذلك لبيان حركة الموقوف عليه.

(٣) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وحذفها وقفًا من (ولا تخزون)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

(٤) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ضيفي أليس)، والباقون بإسكانها.

قال لهم لوط: هؤلاء بنات القوم؛ لأن النبي أب لقومه، وزوجاتُه أمهاتهم.

قال مجاهد: لم يكنَّ بناتِه، ولكن كنَّ من أمته، وكل نبي أبو أمته[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

ولو أن لوطًا أراد ابنتيه على وجه الحقيقة في قوله ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ لكان ذلك بناء على أنه يعلم أنه ليس في وُسع القوم أن يتعرضوا لهما بأذى أو مكروه.

قال لهم لوط: اقضوا شهوتكم فيما شرع الله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ﴾ فاخشوا الله واحذروا عقابه، ولا تفضحوني بالاعتداء على ضيوفي، أليس فيكم رجل عاقل رشيد ينهى مَن أراد فعل الفاحشة، فيحول بينهم وبين وقوعها؟ وهكذا وعظَهم لوط وأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم، ثم نهاهم أن يفضحوه في ضيفه، وعرض عليهم النساء وترك الرجال؛ فلم يلتفتوا إليه وتمادوا فيما هم فيه من فعل الفاحشة.

٧٩- ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

قال قوم لوط له: يا لوط، إنك تعلم أنه ليس لنا رغبة في البنات، وإنما نريد الرجال، فاشتد قلق لوط خوفًا على ضيوفه:

٨٠- ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

قال لهم لوط: لو أن لي قوة وأعوانًا أدفع بها شرَّكم، أو لو أن لي عشيرة وأنصارًا يدافعون عني لبطشتُ بكم وحلْتُ بينكم وبين ما تريدون؛ لأن لوطًا كان غريبًا عنهم، قَدِم إليهم مع عمه إبراهيم من العراق، ولذلك فقد هددوه بالطرد، حين قالوا له ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يغفر الله للوط، إنه كان يأوي إلى ركن شديد»**[2].

وفي لفظ آخر عن أبي هريرة أيضًا: **«رحم الله لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد، وما**

---

(١) الطبري (١٢/ ٥٠٢) وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٧٥) ومسلم بأطول منه برقم (١٥١) وكذا البخاري برقم (٣٣٧٢) وسعيد بن منصور (١٠٩٧).

بعث الله نبيًّا بعده إلا في ثروة من قومه»[١].

فالله رب العالمين هو الذي يتولى الصالحين، والركن الشديد هو العشيرة، ولم يكن للوط عشيرة بينهم حيث كان مهاجرًا من أرض العراق.

وهنا يأتي دور اللملائكة ليُفصحوا عن هويّتهم:

نِهَايَةُ قَوْمِ لُوطٍ

٨١- ﴿قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ[٢] بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ[٣] إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

وحينئذ قالت الملائكة مخبرة عن نفسها ومطمئنة لوط ﷺ: نحن ملائكة الله، أرسلنا الله لإهلاك قومك فلا تحزن، فهم لن يصلوا إلينا، فاخرج من هذه القرية أنت وأهل بيتك حين يبقى من الليل بقية، ولا يلتفت منكم أحد وراءه؛ لئلا يرى العذاب فيصيبه ما أصابهم، ولا تأخذ معك امرأتك التي كفرت بك، فقد خانتك بالكفر والنفاق، فإنه سيصيبها ما أصاب القوم من الهلاك، وهذا المعنى على قراءة الرفع.

أما على قراءة النصب في لفظ ﴿ٱمْرَأَتَكَ﴾ فإن المعنى: لكن امرأتك تخرج معك فتلتفت فيصيبها ما أصابهم.

قال قتادة: إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية، فلما سمعت العذاب التفتت وقالت: واقوماه، فأصابها حَجَرٌ فأهلكها[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (١٥/ ٤١٩) والترمذي برقم (٣١١٦) وقال: حديث حسن وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٦١) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بهمزة وصل في (فأسر) تسقط في الدرج؛ فيكون النطق بسين ساكنة بعد الفاء، وهو فعل أمر من (سرى)، والباقون بهمزة قطع مفتوحة بعد الفاء تثبت وصلًا ووقفًا فعل أمر من (أسرى) وأسرى لأول الليل، وسرى لآخر الليل، وسار مختص بالنهار.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع التاء من (إلا امرأتك) على أنها مرفوعة بالابتداء والجملة بعدها خبر، والباقون بالنصب على الاستثناء من (أهلك).

(٤) «تفسير الفخر الرازي» (١٨/ ٣٦).

إن موعد هلاك المجرمين يبدأ من طلوع الفجر، وينتهي مع طلوع الشمس.

ورد أن لوطًا سأل الملائكة عن موعد هلاكهم، فقالوا: موعدهم الصبح، فقال: أريد موعدًا أسرع من هذا فقالوا له: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟[1].

قال محمد بن كعب القرظي: كانت قرى قوم لوط خمس قريات: سدُوم -وهي العظمى- وصعبة وصعوة وعثرة ودوْما، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها، وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات[2].

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم]

وفي نجاة لوط وآله يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝٣٥﴾ [القمر].

واندفع القوم إلى باب لوط يريدون الدخول، فخرج عليهم جبريل عليه السلام بصورته الحقيقية، فضربهم بجناحه؛ فأعمى الله أبصارهم، وطمس أعينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧] أي: راوده قومه عن ضيوفه الملائكة فأعماهم الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨﴾ [القمر] أي: لقد نزل بهم عذاب دائم؛ فاستأصلهم الله وقطع دابرهم صُبح اليوم التالي، فقد سأل لوط ربه أن ينصره عليهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾ [العنكبوت].

وكان ذلك بعد طلبهم واستعجالهم نزول العذاب، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ولما حان وقت هلاكهم قال له رب العالمين: اخرج أنت يا لوط، وأهلك من القرية إلا امرأتك، فإن مصيرها مثل مصير القوم لِكُفرها بك، وتعاونها في نشر الرذيلة، ثم قال لوط لأهل بيته: لا تلتفتوا وراءكم حين تنزل الحجارة على القوم، بخلاف زوجته فإنها ستلتفت وراءها، فيصيبها من الحجارة ما أصابهم.

---

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» (١٢/ ١٠١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤١).

٨٢، ٨٣- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[1] مَّنضُودٍ[2] ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

فلما جاء وقت نزول العذاب بهم، وهو من وقت مطلع الفجر، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر] ويستمر إلى وقت الإشراق، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤] وذلك بأن اقتلع جبريل القرى الخمس، ورفعها على جناحه إلى السماء، حتى سُمع صياح الديكة ونباح الكلاب، وقلَبها رأسًا على عقب[3]، وأعقب ذلك أن أمطر الله عليها حجارة طينية محْميًّا عليها، قوية شديدة متتابعة، مسومة ومعلَّمة، على كل منها اسم صاحبها، وهي (من سجيل) أي من حجارة النار الشديدة الحرارة (منضود)، متتابعة، تتبع من شذ وخرج من القرية.

قال تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات].

وقد أمر الله نبيه لوطًا أن يسري بأهله في جزء من الليل، وفي سورة القمر بيَّن سبحانه أن الوقت الذي أُمروا أن يخرجوا فيه من القرية هو وقت السحر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وأمره ربه أن يتتبع أدبارهم حتى لا يتخلف منهم أحد فيصيبه العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥].

وحدد الله سبحانه موعد هلاك قوم لوط في قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر].

فعاقب الله قوم لوط أوَّلًا بأن أعماهم الله، ثم قُلبت القرية، وأُتبعوا بالحجارة ترجمهم، وهي حجارة مسومة معلمة، ولما سمعت امرأة لوط الصوت الشديد قالت: واقوماه، فأدركها حجر فقتلها؛ ومعنى منضود: أي حجارة مصفوفة متراصة يتبع بعضها

---

(١)، (٢) عدّ المصحف المكي والمدني الأخير (من سجيل) آية وأسقطا من العدد (منضود) الذي بعده، وبقية علماء العدد على العكس حيث أثبتوا (منضود) آية، ولم يعدوا (من سجيل) آية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٤٢٩).

بعضًا، وهي من سجيل؛ أي: مطبوخة بالنار، لا تشاكل حجارة الدنيا.

وهذه الحجارة كانت تدرك هؤلاء الظالمين حيث هم، حتى مَن هو خارج القرية فتهلكهم، وهذا المكان الذي أهلك الله فيه قوم لوط يقع في شرق الأردن، مكان البحر الميت ، الذي لا يُنتفع بمائه، فهو بحر أجاج، ومياهه لا تغذي الحيوان ولا النبات ولا غيرهما، والأرض التي حوله أرض قاحلة لا تنبت شيئًا، فهو بحر ميت بمعنى الكلمة، وتسمى هذه البحيرة بحيرة لوط، وهي عبرة وعظة على مدى التاريخ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات] وهي آية ناطقة إلى يوم القيامة بهلاك المخالفين المحاربين لرسل الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان].

وبحيرة لوط ليست بعيدة عن ديار الظالمين، وما أصاب أهلها يصيب غيرهم ممن يكذبون خاتم الرسل، فقد أخبر النبي ﷺ أنه سيكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف بالحجارة، فاعتبروا أيها الناس بما حدث لقوم لوط، واتعظوا بهم في كل زمان ومكان، يا من تفعلون هذه الفاحشة، تحت مسمى الحرية الشخصية، أو تحت تأثير الشهوة الحيوانية، بقضائها في غير موضعها المشروع.

واليهود وراء انتشار هذه الفاحشة، للقضاء على نسل غيرهم من المسلمين والنصارى، وهم يعقدون المؤتمرات تحت شعارات متعددة لهذا الغرض ونحوه، ومن بني جلدتنا من تنطلي عليه هذه الشعارات باسم التقدم والحضارة والمساواة وحقوق المرأة والحرية الشخصية.

وقد بين القضاء أن عقوبة من يرتكب جريمة اللواط:

١- أن يُقتل بالسيف، أو بالرجم حتى الموت، سواء أكان محصنًا أم غير محصن، لحديث ابن عباس ﷺ: **«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**[(١)].

٢- أو يقتل بالتحريق، وقد كان علي ﷺ أشد الصحابة في تطبيق هذه العقوبة، فقد أمر

---

(١) من حديث ابن عباس في «سنن أبي داود» برقم (٤٤٦٢) و«سنن الترمذي» برقم (١٤٥٦) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٥٦١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٧٥) وفي إرواء الغليل (٢٣٥٠) ومشكاة المصابيح (٣٥٧٥).

برجم شخص، وأمر بإحراق آخر، كما جاء في بعض الآثار.

قال علي ﷺ: إن هذا الذنب لم ترتكبه إلا أمة واحدة، وقد أمطرها الله بحجارة من سجيل.

٣- وأبو حنيفة يرى الأخذ بعقوبة قوم لوط في القرآن، بأن يُرمى اللائط من مكان شاهق، ويُتبع بالحجارة، كما فُعل بقوم لوط.

وقد لعن النبي ﷺ من يعمل عمل قوم لوط، فهو انتكاسة بالإنسان إلى ما هو أقبح من الحيوان، وتعطيل للتناسل، واعتداء على حرمات الله، وتجاوز لحدود ما شرع الله.

القِصَّةُ السَّادِسَةُ: قِصَّةُ شُعَيْبٍ عليه السلام

٨٤- ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ[1] ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي[2] أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي[3] أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾

نبذة عن نبي الله شعيب: شعيب هو ابن ميكل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، وشعيب عليه السلام أحد أنبياء العرب الأربعة، الذين أُرسلوا إلى العرب في جزيرة العرب؛ وهم: هود وصالح وشعيب ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وكانت رسالة شعيب بعد رسالة لوط وقبل رسالة موسى عليهم السلام؛ أي: قبل الميلاد بنحو ألف وخمس مئة عام، وجَدُّ شعيب هو مدين بن إبراهيم خليل الرحمن، ومدين ليس بنبي ولا رسول، وشعيب ابن بنت لوط عليهما السلام، فلوط جد شعيب لأمه.

وسميت قبيلة مدين باسم جدهم مدين، فقيل: قبيلة مدين، أو قوم مدين، وسُمي المكان الذي يسكنون فيه بأرض مدين، وهي تقع في أرض معان جنوب فلسطين على أطراف الشام، وكان أهل مدين يعبدون الأيكة من دون الله.

والأيكة: هي الشجر الملتف بعضه فوق بعض، وهذا على القول فإن أصحاب الأيكة هم قوم مدين، وأن دعوة شعيب عليه السلام كانت واحدة، وجريمة القوم وهي تطفيف الميزان

(١) كسر الراء من (غيره) الكسائي وأبو جعفر، ورفعها الباقون.

(٢) قرأ نافع والبزي وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أراكم)، والباقون بإسكانها.

(٣) فتح الياء من (إني أخاف) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وسكنها الباقون.

كانت واحدة أيضًا.

وشعيب كان أخًا لمن آمن من قوم مدين، فهو أخ لهم في النسب، وأخ لهم في العقيدة، جاء في سورة الأعراف وهود ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤].

وعلى القول الآخر فإن شعيبًا ليس أخًا لأصحاب الأيكة، الذين كانوا يعبدون الأوثان والأصنام؛ ولذا جاء في سورة الشعراء قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء] فهو أخ للمؤمنين من قومه أهل مدين، وليس أخًا لعبدة الأيكة.

وهكذا يرى بعض أهل العلم أن شعيبًا أُرسل إلى أمتين: أهل مدين الذين أُهلكوا بالصيحة، وكان أخًا لهم في النسب، وأهل الأيكة الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة، ولم يكن أخًا لهم في النسب؛ أي أنه بُعث مرتين، ولعل هذا هو الصواب، لا سيما وأن العذاب مختلف[١].

ذُكر شعيب عليه السلام في القرآن إحدى عشرة مرة، وجاءت قصته في سورة الأعراف تُركِّز على الناحية السياسية لقومه، وجاءت القصة في سورة هود والشعراء تركز على الناحية الاجتماعية لهؤلاء القوم، وذُكرت في سورة العنكبوت مركِّزة على جانب العقيدة، لا سيما الإيمان بالله واليوم الآخر، وقد جمع قوم شعيب في حياتهم بين الفساد السياسي والفساد الاقتصادي.

ففي سورة الأعراف كانت الحرب المعلنة على قوم مدين في الفساد السياسي أبرز، وقد طلب الله تعالى منهم أن يصبروا على الرأي الآخر، وأن ينظروا في أدلته، ولا يتوعَّدوا أصحابه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف].

وفي سورة الأعراف انقسم الناس على دعوة شعيب قسمين: منهم من اقتنع بها ودخل فيها، ومنهم من رفضها وخاصم أصحابها ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) ينظر قصة شعيب في سورة الأعراف والشعراء.

ولكن قبيلة مدين فضَّلت الاستبداد الأعمى والفتنة البغيضة ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

أما في هذه السورة فإن التنديد بالعوج الاقتصادي أبرز، فكان التركيز على جانب الكيل والميزان أكثر، وكان الخطاب إلى قوم شعيب موجهًا إلى محاربة الغش في المعاملات الاقتصادية بعد محاربة الإشراك بالله تعالى.

وبالجملة فقد كان قوم مدين وأصحاب الأيكة يعبدون الأصنام من دون الله، وكانوا يطففون الكيل والميزان، وكانوا بحكم موقعهم الجغرافي يتعرضون للمارة القادمين من شمال الجزيرة وجنوبها، فيتعرضون لهم بالأذى، ويفرضون عليهم الضرائب، فأرسل الله لهم شعيبًا؛ لكي ينهاهم عن ذلك، إلى جوار الأساس الأول للدعوة، وهو توحيد الله سبحانه.

عناصر دعوة شعيب: وقد ركَّزت دعوة شعيب على **خمسة أمور**:

أولًا: توحيد الله تعالى وعدم الإشراك معه غيره، وإخلاص العقيدة له سبحانه، والإيمان باليوم الآخر، وإصلاح الاعتقاد من إصلاح العقل والفكر.

ثانيًا: إخلاص العبادة لله وحده وإفراده بها.

ثالثًا: النهي عن نقص المكيال والميزان، حيث قال لهم شعيب: يا قوم، إني أراكم بخير ورزق كبير، فلماذا تفعلون ذلك؟ وهي مَظْلَمة كانت متفشية فيهم، مع أنهم كانوا في غنى عن ذلك بما آتاهم الله من نعمة وثروة.

رابعًا: النهي عن بخس الناس أشياءهم بما يشمل المكيال والميزان وغيرهما.

خامسًا: عدم الإفساد في الأرض؛ أي: لا تستمروا يا أهل مدين في الإفساد بين الناس، بالتعرض للقوافل التجارية، وتأخذون الضرائب والعشور من التجار وغيرهم، ولا تقعدوا على جوانب الطرق تتوعدون المارة ممن آمن بشعيب وتفتنونهم عن دينهم.

ومعنى الآية: وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم في النسب شعيبًا ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فهو الذي خلقهم ورزقهم، وهو الذي يحييهم ويميتهم.

وبعد أن أمرهم شعيب بتوحيد الله تعالى نهاهم عن نقص الكيل والميزان، إذا باعوا

لغيرهم، كما نهاهم أن يأخذوا أكثر من حقهم، إذا اشتروا من غيرهم، فلا يعطوا الآخر أقل من حقه عند البيع، ولا يأخذوا منه أكثر عند الشراء.

ثم بين لهم السبب الذي دعاه إلى هذه النصيحة، فقال في كلمة جامعة: إني أراكم في رغد من العيش، وبسطة من الرزق، وإني أخاف عليكم -بسبب إنقاص الكيل والميزان وبسبب تماديكم في مخالفة أمر الله ونهيه- عذاب يوم شامل، يحيط بكم من كل جانب، ولا يفلت منه أحدٌ.

حِوَارٌ بَيْنَ شُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ فِيهِ سِتَّةُ نِدَاءَاتٍ لَهُمْ

٨٥- ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

وبعد أن نهى شعيب قومه عن تطفيف الكيل والميزان أمرهم بإتمامهما، والوفاء بهما، وإعطاء الناس حقوقهم وافية كاملة، فيا قوم أوفوا عند معاملاتكم أدوات كيلكم وأدوات وزنكم، والتزموا العدل والقسط في تعاملكم الاقتصادي مع الناس أخذًا وعطاء وغير ذلك من عموم الأشياء، ولفظ ﴿تَبْخَسُواْ﴾ في الآية ليعم العيب والغش والنقص في كل شيء يباع ويشترى.

والفرق بين هذه الآية والتي قبلها أن الآية الأولى نهي والآية الثانية أمر، والآية الأُولى تأتي من الناحية السلبية، والآية الثانية تأتي من الناحية الإيجابية.

ففي الآية السابقة ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ﴾ وهي نهي عن النقص.

وفي هذه الآية ﴿أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ وهذا أمر بالوفاء، وفي نهاية الآية تحذير من المعاصي، ونَهْي عن الفساد في الأرض، واستعمال نعم الله في غير ما خُلقت له.

فمعنى ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ أي: لا تسعَوْا في الأرض بالفساد وتُقابلوا نعمه بالمعاصي، والاستمرار في المعاصي يفسد العقائد والشرائع والدين والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.

ونداء شعيب لقومه في هذه الآية هو **النداء الثاني، والنداء الأول** جاء في الآية السابقة.

ويستمر شعيب في نصحه لقومه فيقول لهم:

٨٦- ﴿بَقِيَّتُ[١] ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ[٢] وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

قال لهم شعيب واعظًا وناصحًا ومرشدًا إلى الرزق الحلال: إن ما تبقى لكم بعد وفاء الكيل والميزان من الرزق الحلال خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف ونحوه من الكسب الحرام، فإن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وتحروا الحلال والحرام، وصدقوا وعد الله ووعيده، ولا يُقبل عمل بدون إيمان، ومهمتي هي الإبلاغ والإنذار، ولستُ مُكْرِهًا لكم على الإيمان، ولا مكلَّفًا بمراقبتكم، أُحصي عليكم أعمالكم، ولست حافظًا لكم من عذاب الله تعالى، وهنا يرد قوم مدين على نصيحة نبيهم:

٨٧- ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ[٣] تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

قالوا على سبيل التهكم والاستهزاء: أهذه الصلاة التي تداوم عليها يا شعيب، وتزعم أن ربك كلفك بها، تأمرك أن نترك عبادة الأوثان التي وجدنا عليها آباءنا، وتأمرك أن نترك ما تعوَّدْناه من التصرف في أموالنا بالزيادة والنقص ووجوه الكسب المختلفة؟ قالوا ذلك إنكارًا عليه وسخرية منه، إذ كيف يقول ذلك وهو صاحب الحلم والوقار والسجايا الحميدة، ويقصدون عكس هذه الصفات وأنه من أهل السفه والغواية.

وكان شعيب كثير الصلاة، وكانت الصلاة أخص أعماله المخالفة لعاداتهم، فخصوها بالذِّكْرِ، ليقولوا له: إذا كنت تصلي لله، فما بالك تنهانا أن نترك ما عليه آباءنا من عبادة الآلهة.

وكان شعيب كثير التعبد والحلم، راجح العقل، ولكنهم سخروا منه، ولم يدركوا العلاقة بين التجارة والاقتصاد، كأناس من قومنا قالوا: إن العبادة شيء، والسياسة شيء آخر؛ أي: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، والصحيح أن السياسة من الدين،

---

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (بقية)، ووقف الباقون بالتاء، وأمالها الكسائي، وهي مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة.

(٢) قوله تعالى (إن كنتم مؤمنين) عده المكي والمدني الأول والأخير والحمص، وتركه غيرهم.

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالإفراد في (أَصَلَاتُكَ) مع رفع التاء اسم جنس، والباقون بالجمع مع رفع التاء أيضًا.

والفصل بينهما جهل فاضح، والاقتصاد عبادة، والتجارة الصادقة عبادة، فإننا نتعبد إلى الله تعالى بالصلاة، ونتعبد إليه بترك الربا، وبالزكاة، وبعدم أكل أموال الناس بالباطل.

وليس في الإسلام ما يسمى بالعبادات والمعاملات، فكلها عبادات، والتقسيم الذي جاء في كتب الفقه يُفرق بين المعاملات والعبادات هو من باب التأليف والاصطلاح وتقسيم الكتب.

وقوم شعيب كانوا يفرقون بين العبادة والتجارة، ويرون أنه لا جامع بينهما، قالوا: يا شعيب، أصلاتك (أي: هذه العبادة) تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا من الآلهة المختلفة، وتأمرك ألا نتصرف في أموالنا كيفما نشاء ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قالوا ذلك باستهزاء. وهنا يرد عليهم شعيب بأن الله تعالى قد أرسله إليهم:

٨٨- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا[(١)] بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

ثم ذكَّر شعيب قومه بأنه لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه، ولا ينهاهم إلا عما ينهى نفسه عنه، فقد تغاضى شعيب عن سفاهة قومه، وأدرك أن فيهم جهلًا وقصورًا، فقال لهم بأسلوب مهذب حكيم وبصيرة مستنيرة: يا قوم، أرأيتم إن كنت على طريق واضح من ربي فيما آمركم به وأنهاكم عنه، من إخلاص العبادة لله، وعدم الإفساد في التعامل الاقتصادي مع الناس، وقد رزقني الله رزقًا حلالًا طيبًا، ولا أريد أن أرتكب أمرًا نهيتكم عنه، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان، ولا بترك التطفيف في الكيل والميزان؟ وجواب الكلام محذوف، دل عليه المعنى.

ثم بيَّن شعيب عليه السلام أنه لا يريد بدعوته لهم إلا إصلاحهم قدر طاقته واستطاعته، وطلب التوفيق والسداد من الله تعالى في محاولة إصلاحهم، فعليه الاعتماد والتكلان، وإليه المرجع والمآب، وإليه الإنابة في أداء ما أمره الله به من العبادات والتقرب إليه بسائر أفعال الخير، وبالتوكل والإنابة، تستقيم أحوال العبد، كما قال تعالى ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (وما توفيقي إلا)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

﴿عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

فكان جواب شعيب مكونًا من **ثلاث نقاط**؛ حيث قال لهم:

أولًا: أخبروني ماذا أفعل إذا كنت على حُجَّة من الله، أكرمني فيها بالنبوة، ورزقني مالًا أبتعد به عن الحرام؟

ثانيًا: لا أنهاكم عن عبادة الأوثان وأنا أعبدها، ولا أنهاكم عن تطفيف الكيل والميزان وأنا أفعله، ولا أصرفكم عن شيء وآتيه، ولست منازعا لكم فيما تملكون، ولا ساعيًا في نزع سلطانكم، وما أريد النهي عن شيء لمجرد المخالفة.

ثالثًا: ما أريد إلا إصلاح أموركم وأحوالكم قدر استطاعتي، والتوفيق من الله وأفوض أمري إلى الله في توعدكم لي بإخراجي من بينكم، وكان أعظم ذنوب قوم شعيب بعد الشرك بالله تعالى تطفيف المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، مع ذنوب كثيرة كانوا يأتونها، فبدأ شعيب يدعوهم إلى عبادة الله تعالى أوّلًا، وكف الظلم وترك سائر الذنوب ثانيًا.

وَرَدَ عن قتادة بسنده إلى مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود ﷺ قالت له: أتنهى عن الواصلة؟ قال: نعم، فقالت المرأة: فلعله في بعض نسائك؟ فقال: ما حفظت إذًا وصية العبد الصالح ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾[1].

ويستمر شعيب في حوار قومه فيخوفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا به:

٨٩- ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ[2] أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾

ثم ذكَّرهم شعيب بمصارع مَن سبقهم من الظالمين، وحذَّرهم أن يسلكوا مسلكهم، فقال لهم ناصحًا ومعلمًا ومشفقًا عليهم: يا أهلي وعشيرتي، لا تجرُّكم عداوتكم ومخالفتكم لي على أن تتمادوا في الضلال والكفر؛ فيكون هذا سببًا في إصابتكم بمثل ما

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤٥) وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٤).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (شقاقي إن)، والباقون بإسكانها.

أصيب به مَن قبلكم من عذاب الاستئصال، ولا يحملنكم بغضكم لي على الإصرار على ما أنتم عليه من عدم الإيمان بالله تعالى، ومن الإفساد في الأرض وافتراء الكذب عليَّ، والتمادي في عدم الاستماع لدعوتي لكم، فإن مصيركم في هذه الحالة هي إصابتُكم بما أصاب القوم مِنْ قَبْلكم؛ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح من النقمة والعذاب، وقوم لوط وديارهم ليست بعيدة عنكم، فديارهم البحر الميت بالأردن، ومنازل مدين عند العقبة مجاورة لمعان، والمسافة بينهما قليلة، والزمان بينكما ليس ببعيد، أفلا تتعظون وتعتبرون؟

وبعد أن دعا شعيب قومه إلى الاعتبار بمن سبقهم، حثّهم على الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله تعالى فقال:

٩٠- ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

ثم فتح لهم شعيب باب الأمل، وطلب منهم الإقلاع عما هم فيه من شرك وفساد في الأرض، فقال لهم: واستغفروا ربكم واطلبوا عفوه ومغفرته من الشرك، وما سلف من الذنوب، وتوبوا إليه من المعاملات الخارجة عن حدود منهج الله، ومما تستقبلونه من سيئ الأعمال واستمروا على ذلك، فرحمة الله واسعة، يتودّد إلى عباده المؤمنين فيحبهم ويحبونه والله سبحانه يقبل توبة من أناب إليه، ومن تقرب إلى الله شبرًا تقرب إليه ذراعًا، ومن تقرب إليه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه بمشي أقبل عليه هرْولة.

تضجّر قوم شعيب من نصائحه ومواعظه، فعنّفوه وأساؤوا إليه في الرد:

٩١- ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾

قالوا: يا شعيب، ما نفقه كثيرًا مما تقول، ولا ندرك صحته، وهذا كقول المشركين لمحمدٍ ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]

وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] وهم يعنون مخالفة ما يقوله لما يألفون، ويتعجبون من ذلك، كما قال غيرهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص].

وليس المراد عدم فهم كلامه، فقد كان شعيب فصيحًا خطيبًا، وكان يسمى خطيب الأنبياء؛ لأنه كان بليغًا حَسَن الحوار والخطابة، يُحسِن إقامة الحجة عليهم، ومع هذا فقد

كانوا يقولون له: إننا لا نفهم هذه الأمور الغيبية التي تذكرها لنا، من عذاب وجنة ونار وغير ذلك، ونحن نراك فينا ضعيفًا وحيدًا غير ذي قوة ولا منَعة.

ولم يكن شعيب أعمى فاقد البصر، كما يزعم بعضهم في تفسير الضعف بالعمى، ولا يوجد في الأنبياء أعمى، وكان رهطه من أهل ملتهم، فقالوا له: ولولا عشيرتك وقبيلتك لقتلناك ورجمناك بالحجارة، ولست علينا بعزيز ولا كريم حتى يمتنع علينا قَتْلك أو رَجْمك، لقد هابوا العشيرة ولم يهابوا ربهم، وفي هذا تحذير منهم لشعيب من الاستمرار في دعوته ومخالفة دينهم.

وهكذا فإن أهل مدين جعلوا كلام شعيب -خطيب الأنبياء- المشتمل على فنون الحِكم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، جعلوه من قبيل التخليط والهذَيان الذي لا يُدرك فحواه، ولا يُفهم معناه[1].

وهذه الآية اشتملت على **أربع جمل** ردَّ بها أهل مدين على نبيهم شعيب؛ وهي:

أولًا: أنهم جعلوا كلامه من قبيل ما لا يُفهم معناه.

ثانيًا: أنهم وصفوه بالضعف، وأنه لا يملك القدرة على مقاومتهم إن أرادوا طرده أو قتله.

ثالثًا: أنهم يتركون قتله أو رجمه مجاملةً لعشيرته، فهي التي جعلتهم يُبْقُون عليه.

رابعًا: أن شعيبًا ليس محبوبًا لديهم، ولا كريمًا عليهم، بل هو ضعيف مكروه عندهم. ردّ عليهم شعيب بما يقيم عليهم الحجة ويُرقق قلوبهم:

٩٢- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ[2] أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾

ثم رفع شعيب من لهجة الخطاب، فوبخهم وثار عليهم عندما رآهم يتجاوزون حدودهم ويتجرؤون على رسوله الموحى إليه من الله، فقال لهم: أتتركوني لأجل أهلي وعشيرتي، ولا تتركوني إعظامًا لجناب الله تعالى؟ فهل عشيرتي أعز عندكم من الله وأكرم؟ وهو

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» (١٢/ ١٢٣).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بفتح ياء الإضافة من (أرهطي أعز)، والباقون بإسكانها.

الذي خلقكم ورزقكم ودبَّر أمركم، ومع ذلك فقد جعلتم أوامره ونواهيه -على لسان نبيه الذي أرسله إليكم- وراء ظهوركم، ولم تقيموا لها وزنًا، مع أنه سبحانه محيط بأحوالكم، ولا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة، وسيجازيكم عليها.

وهكذا قال لهم شعيب: يا قوم، أرهطي أعز عليكم من الله؟ أتتركوني لأجل العشيرة، ولا تتركوني لأجل الله سبحانه؟ فإنني نبي الله ورسوله، وهذه دعوة الله إليكم، وأنتم تفضِّلون القوم على رب العزة، ومن يُهن رسول الله فقد أهان الله ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفي عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهو وحده العليم بأحوالكم، وسوف يحاسبكم عليها بما تستحقون.

بعد هذا الحوار الطويل، أعيتْ شعيب الحيل، وعجز عنهم، فواعدهم انتظار العاقبة فقال:

٩٣- ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ(١) إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

ثم تحدى شعيب قومه فقال: يا قوم، اعملوا كل ما في إمكانكم عمله معي، وابذلوا ما شئتم في تهديدي ووعيدي، واثبتوا على ما أنتم عليه، واستمروا في كفركم، وكان قد آمن منهم فريق، وكَفر أشراف القوم وأغنياؤهم، وهددوه بالطرد هو ومَن آمن معه من قريتهم أو الانخراط في ملتهم، حينئذٍ قال لهم شعيب: استمروا على ما أنتم عليه من عبادة الأوثان وتطفيف الكيل والميزان، فإنني مستمر وماضٍ في دعوتكم إلى الخير والإيمان بالله، وسوف تعلمون مَنْ مِنا يأتيه عذاب الله وخزْيه في الدنيا والآخرة، وانتظروا ذلك، إني معكم مترقب ومنتظر، وهذا تهديد شديد لهم.

واستمر القوم في تكذيب شعيب، فكانوا أهلًا لنزول العذاب بهم، ثم اتَّهم أهل مدين نبيهم شعيبًا بأنه من المسحورين، كما اتَّهم كل قوم رسولهم، واتهموه أيضًا بالكذب، واستنكروا عليه أن يكون رسولًا من البشر، كما استنكر كل قوم على رسولهم، فقالوا له: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء] ثم طلبوا منه أن ينزل بهم

---

(١) قرأ شعبة بألف بعد النون من (مكانتكم) على الجمع؛ ليطابق المضاف إليه وهو ضمير الجماعة، والباقون بغير ألف على الإفراد؛ لإرادة الجنس.

عذاب الله، وأن يسقط عليهم كسفًا من السماء إن كان صادقًا في دعوته.

عِقَابُ اللَّهِ لِمَنْ كَذَّبَ شُعَيْبًا

٩٤، ٩٥- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

ولم يطُل ترقُّب شعيب وانتظاره لما يحلُّ بالقوم، بل جاء عقاب الله سريعًا حاسمًا: ولما أراد الله سبحانه أن ينزل بهم العذاب أنجى رسوله شعيبًا والمؤمنين معه، تصحبهم رحمة الله تعالى

وقد عبر القرآن عن هذا العذاب في سورة الأعراف وهود والشعراء بتعبيرات مختلفة، وهي الرجفة والصاعقة و الصيحة، وقد بين تعالى في هذه السورة أن الصيحة أخذتهم فأصبحوا في ديارهم باركين على ركبهم وهم موتى لا يتحركون.

وذكرت الآية هنا أن قوم شعيب أتتهم الصيحة، وفي سورة الأعراف أخذتهم الرجفة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]

وفي سورة الشعراء ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]

وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم في يوم عذابهم هذه النقم كلها بالنسبة لأصحاب الأيكة.

وإنما ذَكَر في كل سياق ما يناسبه، فكان ذِكْرُ الرجفة في (الأعراف) مناسبًا لقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ [الأعراف: ٨٨]

وكان ذِكْر الصيحة في هذه السورة مناسبًا لتطاولهم على نبيهم وسوء الأدب معه.

وكان ذِكْر عذاب يوم الظلة في (الشعراء) مناسبًا لنوعية العذاب الذي طلبوه في قولهم: وهم قوم آخرون يسكنون في قرية مجاورة لمدين.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء]

وأنجى الله الذين آمنوا مع شعيب.

وفي قصة قوم ثمود وقوم لوط ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالفاء؛ لأن عذابهما كان محددًا بموعد معين، هو ثلاثة أيام لقوم ثمود، وموعدهم الصبح لقوم لوط.

أما قصة عاد ومدين فإن عذابهما لم يكن له موعد محدد، ولذا جاء الوعيد مجملًا في ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وفي ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ولذا جاء العطف بالواو فيهما ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وفي ذلك عبرة وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وحين تم هلاك قوم مدين انتهت آثارهم، وانمحى وجودهم من الحياة، كأنهم لم يقيموا في ديارهم التي كانوا فيها وقتًا من الأوقات، وكأنهم لم ينعموا بنعمة العيش لحظة من اللحظات.

ثم عاد الله تعالى فقال: ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ أي: هلاكًا مصحوبًا بالخزي واللعنة لأهل مدين كما هلكت ثمود قبلها، فقد اشتركت القبيلتان في الهلاك والطرد من رحمة الله.

وهكذا طُويتْ صفحة من صفحات الظالمين، وهم قوم مدين وأصحاب الأيكة، كما طويت قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام.

هذا: ويؤخذ من هذه القصة:

١- أن الكفار يخاطبون بأصول الشريعة وفروعها، فقد دعا شعيب قومه إلى توحيد الله وتطفيف الكيل والميزان، ورتب الوعيد عليهما.

٢- ويستفاد منها أن نقص الكيل والميزان من كبائر الذنوب.

٣- وأن الجزاء من جنس العمل، فمن يريد الزيادة في ماله من طريق حرام عوقب بنقيض ذلك.

٤- وعلى العبد أن يقنع بما رزقه الله بعد بذل السبب ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٥- ويستفاد أيضًا أن الصلاة مفروضة في الشرائع السابقة، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

٦- وليس للعبدأن يفعل في ماله ما يشاء، وإنما يقيم حق الله فيه، بأداء زكاته، ويمتنع

من المكاسب المحرمة.

٧- ولا بد للداعية أن يكون قدوة لغيره، فلا تخالف أقواله أفعاله.

٨- ووظيفة الدعاة هي البلاغ والإصلاح، ومن قام بذلك لا يُلام ولا يُذم.

٩- لا بد للعبد أن يستعين بالله تعالى ويعتمد عليه ويسأله التوفيق في جميع أموره، ولا يعتمد على نفسه طرفة عين.

١٠- ولابد للأفراد والأمم والشعوب أن يعتبروا بعقوبات المخالفين لأوامر الله تعالى ونواهيه.

١١- والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

١٢- والله تعالى يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة يعرفونها أو تخفى عنهم، كما دفع عن شعيب عليه السلام رجم قومه له بسبب رهطه(١).

الْقِصَّةُ السَّابِعَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام

٩٦، ٩٧- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾

موسى عليه السلام هو ابن عمران، من نسل لاوى بن يعقوب عليه السلام، ويرى بعض المؤرخين أنه ولد في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأن بعثته كانت في عهد منفتاح بن رمسيس الثاني.

وقد ذكرتْ قصة موسى بعد ذكر قصة شعيب؛ لشدة الصلة بين النبييْن، فقد بُعث موسى في حياة شعيب وتزوج ابنته كما قيل.

وفي سورة هود عليه السلام طرف يسير من قصة موسى عليه السلام، جاء ذكرها في أربع آيات قصار، وهذه الآيات الأربع تُبيِّن مصير فرعون في الدار الآخرة بنار جهنم، تصحبه اللعنة في الدارين، كما تُبين مصير فرعون في دار الدنيا بالغرق؛ لكي تكون هذه النهاية عبرة لمن يأتي بعده.

وهذه الآيات أو المعجزات المشار إليها في الآية جاء ذكر عددها إجمالًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

---

(١) استفدت في هذه النقاط الأخيرة من تفسير الشيخ عبدالرحمن السعدي.

وجاء تفصيلها في سورة الأعراف[1]، وهي معجزاته الحسية: العصا واليد، وهما أبرز معجزاته، وأن الله تعالى قد أرسل على قومه: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات، فهذه تسع آيات بينات، وقد أيد الله موسى عليه السلام بالتوراة، حجة بالغة في محاورة فرعون وقومه.

والمعنى: ولقد أرسلنا نبينا موسى إلى فرعون وملئه بمعجزاتنا الدالة على صدقه، وآياتنا الدالة على وحدانيتنا، والدالة على كذب كل مَن ادعى الربوبية من دون الله سبحانه، ومن هذه الآيات: العصا واليد والتوراة، وأرسلناه بشرائع وأحكام وتكاليف إلهية إلى بني إسرائيل، وإلى فرعون وملئه، وهذه الشرائع والأحكام هي السلطان المبين والحجة الظاهرة.

وقد أمر فرعون قومه وأتباعه من الكبراء والضعفاء أن يكذبوا تلك الرسالة، فيتبعوه ويكفروا بموسى، فخالفوا موسى وأطاعوا فرعون، وليس أمر فرعون بسديد ولا رشيد، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، فهو لا يأمر إلا بما هو ضررمحض، وشر مستطير.

وخُصَّ الملأ بالذكر في الآية؛ لأنهم الذين كانوا ينفِّذون أوامره ويعاونونه على فساده، **والملأ**: هم الأشراف.

وضعفاء الشعب: هم الذين يتبعون الرسل، وقد أرسل الله موسى إلى فرعون، وإلى الملأ من قومه، وإلى بقية الشعب، قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: فأعرضوا عن موسى وكذَّبوه، وترسَّموا خُطا فرعون، وهم الذين كانوا ينفذون أوامره فيما يتعلق بقتل الأبناء الذكور من بني إسرائيل، وينفذونها أيضا فيما يتعلق بعدم الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام.

وكما كان فرعون إمامًا لأهل الضلال في الدنيا، فإنه يكون إمامهم في الآخرة، يتقدمهم إلى النار:

٩٨- ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ۝٩٨﴾

ثم بين سبحانه سوء مصير فرعون، وسوء مصير أتباعه، من أن فرعون كما كان قائدًا وإمامًا لقومه في الدنيا يدعوهم إلى الكفر والضلال، فإنه يكون قائدًا وإمامًا لهم يتقدمهم إلى النار

---

(١) في الآيات [١٠٧، ١٠٨، ١٣٠، ١٣٣].

في الآخرة، فكما تقدمهم بالكفر في الدنيا يتقدمهم إلى جهنم يوم القيامة، وهذا معنى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ كما يورد الراعي قطيع الغنم إلى الماء من العطش.

ثم ذم الله المدخل الذي يدخلونه في النار، فقال سبحانه: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ والمراد بالورد في الآية: الدخول في النار، وليس الإشراف عليها ورؤيتها، ولا المرور عليها، وقد جاء هذا الورد بصيغة الماضي ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾ لتحقق دخول فرعون وآله النار.

وقد بيَّن سبحانه أن قوم فرعون سيدخلون النار بمجرد موتهم، كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هذا في البرزخ، وهو العذاب الأصغر في القبر، أما العذاب الأكبر يوم القيامة فيقول الله تعالى فيه: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزمل]

ويقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]

وقال تعالى عن فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات]. وفرعون وملؤه ملعونون في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى:

٩٩- ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

ثم لعن الله فرعون وآله في الدارين، فقد أتبعهم الله بعذاب آخر فوق العذاب الذي عجله لهم في الدنيا بالغرق في البحر، أتبعهم بعده لعنة أخرى بالعذاب يوم القيامة في نار جهنم، وبئس ما ترادف لهم واجتمع عليهم من عذاب الله ولعنته لهم في الدنيا والآخرة، فلم يبعث الله نبيًّا بعد فرعون إلا لُعن على لسانه، ويوم القيامة يزيد لعنة أخرى في النار، وبئست الفضيحة التي لحقتهم في الدارين.

والرفد: هو العطاء، وسميت اللعنة رفدًا من باب التهكم؛ أي: بئس العطاء المضاعف لهم في الدنيا والآخرة، وبئس العطاء المعطى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الغنم الذي يسير خلف قائده بدون فكر ولا تدبر، وبهذا يتبين أن فرعون وقومه قد طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة، فهم ملعونون في الدارين، وبئست هذه اللعنة لهم في الدنيا والآخرة، يتبع أحدها الآخر.

وفي سورة القصص نظير لهذه الآيات، يقول ﷻ عن فرعون وجنوده: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص]

فهم كانوا أئمة يدعون الناس إلى الضلال في الدنيا، فكان عاقبتهم يوم القيامة أنهم لا يفلتون من عذاب الله تعالى.

ويوم القيامة يتبرأ الضعفاء الذين يتبعون الرؤساء ممن قلَّدوهم واتبعوهم، ومنهم أتباع فرعون كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

وهكذا ساقت سورة هود سبعًا من قصص الأنبياء والمرسلين حسب ترتيبهم التاريخي والزمني، وأبرزت السورة وحدة العقيدة في جميع الشرائع، كما أبرزت وجوب التوجه بالعبادة إلى الله وحده.

ويتبين من هذه القصص أن رسل الله في كل زمان ومكان يتبعهم الأخيار، ويحاربهم الأشرار، وأن العاقبة الحسنة لأتباع الرسل، وسوء العاقبة لمن خالف الرسل؛ فأعرض عنهم وكفر بالحق الذي جاؤوا به، وأن محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين، وأن الله تعالى لا يقبل من أحد دينًا سواه، وأن غير المسلمين في أرجاء الدنيا مدعوون إلى اعتناق الإسلام منذ البعثة المحمدية.

التَّعْقِيبُ عَلَى قَصَصِ السُّورَةِ

١٠٠- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾

ثم يأتي التعقيب على ما في سورة هود من قصص الأنبياء مكونًا من شقين:

أحدهما: يتعلق بعذاب الدنيا؛ لبيان العبرة والفائدة من القصص القرآني عن طريق الوحي الصادق، وهذا القصص من أخبار القرى التي أُبيدت وأهلك الله أهلها؛ لأنها كذبت رسلها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

والقرية في القرآن هي العاصمة والحاضرة، وهي تقابل البادية؛ لأن مكة أم القرى، ومن هذه القرى ما بقي له آثار قائمة؛ كمدائن صالح، وبقايا عاد، وتمثال فرعون وهيكله، وآثار قوم يونس بنينوى في العراق، وإنطاكية قرية المرسلين الثلاثة، وقوم تبع في صنعاء، وقوم مدين في معان، ومنها ما أُبيد تمامًا، ولم يبقَ له أثر كقوم لوط، وقوم هود، وقوم نوح ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

وفي هذه الجملة من الآية التي معنا تشبيه بليغ، حيث شبهت القرى التي بقي آثارها بالزرع القائم على ساقه، وشبهت ما اندثر منها ومُحي أثره بالزرع المحصود. قال تعالى:

١٠١- ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

ثم بين سبحانه أن ما أصاب أهل هذه القرى من الهلاك إنما هو بسبب سوء أعمالهم وظلمهم لأنفسهم، فهم الذين جرُّوا على أنفسهم العذاب، لقد ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وعبادة الآلهة من دون الله، فلم يكن إهلاكنا لهم بغير حق، ولكنهم أشركوا بالله، وأفسدوا في الأرض، وحين جاء أمر الله بالإبادة لم تَحُلْ هذه الآلهة بينهم وبين العذاب، وما زادتهم آلهتهم غير هلاك وخسران، بل إنها لم تنفع نفسها، فقد هلكت معهم كما هلكوا، وكانوا وهم في الدنيا يعتمدون عليها في دفع الضر عنهم كما يفعل عباد القبور.

١٠٢- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

ثم بين سبحانه سنته في عقاب الظالمين في كل زمان ومكان، وبمثل هذا الدمار يأخذ ربك كل قرية، ويشتد أخذ ربك إذا ساد الظلم في الأمة، وسيطر عليها الظالمون، وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى.

وفي الصحيحين عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى**

إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ الآية[١].

والمعنى: وكما أخذ ربك أهل القرى الظالمة بالعذاب؛ لمخالفتهم أمر الله، وتكذيبهم رسله، يعاقب غيرهم من أهل كل عصر ومصر، ممن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب بخاتم المرسلين، وتجاوز حدود الله، وارتكاب معاصيه، إن عذابه تعالى شديد موجع.

١٠٣- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾

أما الشق الثاني من هذا التعقيب على قصص الرسل وهلاك الأمم المكذبة، فهو يتعلق بعذاب الدار الآخرة، حيث بيَّن تعالى أن الأخذ الشديد في الدنيا علامة على شدة الأخذ يوم لقاء رب العالمين، وعذاب الدنيا علامة دالة على عذاب الآخرة؛ لأن القرى الظالمة قد توعدها الله بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

وهو يوم مشهود، تُجمع له الخلائق أجمعون، الأولون والآخرون، من الملائكة والإنس والجن والدواب والطيور والوحوش؛ للحساب والثواب والعقاب، وفوق ذلك كله يشهده رب العالمين، وهو آتٍ لا ريب فيه، ولا يتخلف عنه أحد ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]

وهو يوم تشهده الملائكة والرسل والأنبياء، ويكثر شاهدوه من جميع الخلق. قال تعالى:

١٠٤- ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ[٢] إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

أي: وما نؤخر يوم القيامة إلا إلى زمن معين سبق به القضاء، وهو يوم لا يتقدم ولا يتأخر، وهذا الوقت المحدد المعين إلى حين يتكامل عمر الدنيا بما فيها ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ]. ثم يُنْقلُون إلى الدار الآخرة للحساب والجزاء بعد أن طلب منهم القيام بالأحكام الشرعية في الدنيا.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٣) والترمذي (٣١١٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٤٥) وابن ماجه (٤٠١٨) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٥) وغيرهم.

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (وما نؤخره) واوًا ومعهما حمزة عند الوقف، وللأزرق في الراء الترقيق والتفخيم.

وفي قصص القرآن وأخبار الأمم والرسل عبرة وعظة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الدار الآخرة.

وفي إهلاك الكافرين ونصرة الأنبياء وإنجاء المؤمنين دلالة على صدق وَعْد الله تعالى بالدار الآخرة التي يحاسب فيها العباد ويُجزَوْن بأعمالهم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر].

وفي إهلاك الظالمين ونصر أنبياء الله ورسله والتمكين لهم في الأرض يقول تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [إبراهيم].

والذي ينكر الدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب في الدنيا، ولا بما ينتظرهم من عذاب الآخرة، أما مَن يخاف عذاب الآخرة، فعندما يرى ما حلَّ بالمجرمين في الدنيا من عقاب، يزداد إيمانًا على إيمانه، ويعلم بأن الله تعالى قادر على أن يعذبهم في الآخرة عذابًا هو أشد وأبقى.

أَهْلُ الشَّقَاءِ وَأَهْلُ السَّعَادَةِ وَجَزَاءُ كُلٍّ مِنْهُمْ

١٠٥- ﴿يَوْمَ يَأْتِ(١) لَا تَكَلَّمُ(٢) نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥﴾

ثم ذكر سبحانه جانبًا من أهوال هذا اليوم وأحوال الناس فيه، وذلك أنه يوم يأتي هذا اليوم لا يتكلم أحد فيه إلا بإذن الله تعالى، حيث يسُود الصمت الرهيب، والرهبة البالغة، كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾ [النبأ].

فالآية بينت أن الكلام يوم القيامة لا يكون إلا بإذن من الله تعالى، ورضاه عن هذا الكلام، حتى الأنبياء والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه.

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (يوم يأت) ومعهم حمزة في الوقف، وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (يأت) وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بالحذف.

(٢) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (لا تكلم) مع المد المشبع، والباقون بالتخفيف مع القصر.

ويوم القيامة يوم طويل، والأحوال فيه مختلفة، وقد أثبت القرآن أنه يوم تجادل فيه كل نفس عن نفسها ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل]

ومن الكلام الذي أثبته القرآن يوم القيامة، حين يشهد الكفَرة والمشركون كذبًا على أنفسهم ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يقول تعالى في الرد عليهم: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام]

وكيف يَكْذِبون وهم بين يدي العزيز الكريم، وهو الذي يعلم سرهم ونجواهم، ويعلم ما يخفون وما يعلنون؟

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين في حديث الشفاعة: «**ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلّم سلّم**»[١].

فدل هذا على أن يوم القيامة يوم طويل وأحواله مختلفة، فهو يوم يحدث فيه الصمت الرهيب، ويحدث فيه المحاجَّة، والجدال، والنقاش، والشفاعة، والحوار، والسؤال، وعدم السؤال، والتخاصم، وكل ذلك بإذن الله تعالى؛ ولذا قالت الآية ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

والناس في هذا اليوم فريقان:

الأشقياء المخلَّدون في جهنم، المعذبون بكفرهم بالله، وتكذيبهم لرسل الله - والعياذ بالله -

والسعداء المخلدون في الجنة، المنعمون بإيمانهم وتقواهم - نسأل الله من فضله -.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله، ففيمَ نعمل؟ على شيء قد فُرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: «**بل على شيء قد فرغ منه، وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له**»[٢] وعن أهل الشقاء يقول سبحانه:

---

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٨٠٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٢).

(٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر «سنن الترمذي» برقم (٣١١١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٨٦) وفي ظلال الجنة (١٦١) وأخرجه أبو يعلى (٥٤٦٣، ٥٥٧١) والطبري (١٢/ ٥٧٧) وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨٤).

١٠٦- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾

ثم فصل سبحانه أحوال الأشقياء والسعداء في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ منغمسون في عذابها وشدة عقابها، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] وهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]

إن الشقي مخلد في النار ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى]

والعذاب متجدد ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]

وأهل النار ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ كأنين المكروب في خروج النفَس منه ورده إلى صدره بصعوبة وعناء، دلالة على شدة الكرب والهم والغم.

والزفير: هو إخراج النفَس بدفْع وشدة، بسبب ضغط التنفُّس، وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

والشهيق: هو جذب الهواء إلى الصدر بقوة؛ لشدة الحاجة إلى التنفُّس.

والمعنى: فأما الذين شقوا في الدنيا لفساد عقيدتهم، وسوء أعمالهم، فالنار مستقرهم في الآخرة، لهم فيها من شدة العذاب ضيق الأنفاس، وأشنع الأصوات وأقبحها، مما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من شدة الكرب وعظيم المعاناة، وأهل النار يخلدون فيها أبدًا ولا يخرجون منها، ما دامت السماء سماء، والأرض أرضًا، فهم مستقرون في جهنم، لا ينقطع عذابهم ولا ينتهي، إلا ما شاء ربك من إخراج عصاة الموحدين من النار بعد مكثهم فيها بمقدار ما يستحقون على ذنوبهم التي ارتكبوها في الدنيا، أو بمقتضى شفاعة الشافعين لهم.

قال ابن عباس في أهل الشقاء: هم قوم من أهل الكبائر من أهل هذه القبلة، يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم، ثم يأذن في الشفاعة لهم، فيشفع لهم المؤمنون؛ فيُخْرِجهم من النار فيُدْخِلهم الجنة، فسماهم أشقياء حين عذبهم في النار، وقد شاء الله أن يؤذن لهم بالشفاعة فيَخْرُجون من النار ويدخلون الجنة[1].

والله سبحانه فعال لما يريد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

(١) ينظر هذا المعنى عند ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨٥).

فأهل النار على مراتب؛ منهم الذين ماتوا على الكفر والشرك، فهؤلاء مخلدون في النار، ومنهم عصاة المؤمنين ممن يعذبون بمقدار معاصيهم ثم يُعفى عنهم، ويقال لهم: الْجُهَنَّمِيُّون في الجنة، كما جاء في الأحاديث في الآية التالية بعدُ. قال تعالى عن مصير أهل النار:

١٠٧- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

أي أن أهل النار يخلدون فيها أبدًا إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، فالاستثناء راجع إلى ما قبل دخولها، فهم يخلدون فيها جميع الأزمنة إلا ما كان قبل دخولها، وكل شيء يحدث في هذا الكون معلق بمشيئة الله تعالى، فذِكْرُ المشيئة لبيان أن كل شيء بمشيئة الله تعالى، ومن ذلك الخلود في الجنة أو النار، ولو أراد الله غير ذلك لفعل.

قال الضحاك: إلا ما استثني من أهل القبلة. وعن أهل السعادة يقول جل شأنه:

١٠٨- ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟[1] فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

وأما الذين رزقهم الله السعادة، فيدخلون الجنة، ويخلّدون فيها أبدًا، وهم دائمون فيها دوام سموات الجنة، ودوام أرض الجنة؛ أي: دائمًا وأبدًا، إلا من شاء الله تأخيره عن دخولها بعض الوقت من عصاة الموحدين، فإنهم يبقون في النار فترة من الزمن، ثم يخرجون منها إلى الجنة بمشيئة الله تعالى ورحمته، وعطاء أهل السعادة في الجنة عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع.

فالاستثناء في الآية خاص بالمدة التي تلي الحساب، وقبل الخلود في الجنة أو النار، حيث يعذب من لم يتب من عصاة المؤمنين في النار، حتى يعفو الله عنه بفضله دون شفاعة، أو بشفاعة الشافعين.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بضم السين من (سعدوا) على البناء للمفعول، والباقون بفتحها على البناء للفاعل.

أحاديث في معنى الآيتين:

١- جاء في البخاري عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لَيُصيبنَّ أقوامًا سفْعٌ من النار، بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلها الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم: الجهنَّميُّون**»[١].

٢- وفي لفظ آخر عن أنس أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سفْعٌ، فيدخلون الجنة، فيسميهم أهل الجنة الجهنَّميِّين**»[٢].

٣- وفي الصحيحين أيضًا عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيُخرجون منها قد اسْوَدُّوا، فيُلْقَوْن في نهر الحياة، فينبُتون كما تنبُت الحبَّة من جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية**»[٣].

٤- وفي حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يخرج قومًا من النار بالشفاعة**»[٤].

وفي حديث جابر أيضًا: «**إن قومًا يخرجون من النار يحترقون فيها، إلا دارات وجوههم، حتى يدخلون الجنة**»[٥].

المراد بالاستثناء: ثم إن الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ بالنسبة لأهل الجنة يعني أن دوام نعيمهم فيها ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى الله تعالى، فخلود أهل الجنة فيها بمشيئة الله، كما أن خلود أهل النار فيها بمشيئة الله تعالى:

قال تعالى عن أهل النار: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وهذا الاستثناء في الآيات له معنيان:

المعنى الأول: أنه استثناء ندَب إليه الشرع في كل كلام، على نحو قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فهو إرشاد من الله لعباده بوجوب

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٥٠) وانظر (٦٥٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٥٩، ٧٤٥٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٢) وانظر (٤٥٨١، ٤٩١٩، ٧٤٣٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٤) مطولًا.

(٤) ينظر «صحيح مسلم» برقم (١٩١) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥٥٨).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (١٩١).

تفويض الأمر إليه في كل شيء، وإعلامهم أن كل شيء خاضع لإرادته تعالى ومشيئته، فهو سبحانه فاعل مختار ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كما قال تعالى على لسان شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] فشعيب يثق أنه لن يعود إلى ملة الكفر، ولكنه يفوض الأمر إلى الله تأدبًا معه سبحانه، هذا هو المعنى الأول الذي نميل إليه.

أما المعنى الآخر: فهو أنه استثناء من طول المدة؛ أي: من الخلود في الجنة، واستثناء من الخلود في النار.

والاستثناء من الخلود في الجنة يكون له **ثلاث حالات**:

الحالة الأولى: أن المراد به الذين ماتوا على التوحيد من أمة محمدٍ ﷺ، ولكنهم عُصاة ارتكبوا ذنوبًا كبيرة في دنياهم غير الشرك، فيخرجون من النار بدون شفاعة بفضل الله تعالى.

الحالة الثانية: الموحدون الذين يخرجون من النار بشفاعة الأنبياء أو الشهداء أو غيرهم، فهم يدخلون النار ويعذبون فيها بقَدْر ذنوبهم، ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة، وهؤلاء قد فاتهم من الخلود في الجنة بعض الوقت الذي قضوْه في النار، فلا يصدق عليهم الخلود في الجنة، ولا الخلود في النار.

الحالة الثالثة: أن الاستثناء من الخلود في الجنة يكون بسبب مدة البرزخ، والحشر والحساب، فهم ليسوا في الجنة وليسوا في النار.

وإجماع الأمة بعد نصوص الكتاب والسنة منعقد على أن من دخل الجنة لا يخرج منها أبدًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

وعن أهل الجنة يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧]

ويقول أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [البينة: ٧، ٨].

وفي حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوْا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تَشُبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**»[1].

وعذاب أهل النار لأهلها، جزاء موافقٌ لأعمالهم، ونعيم أهل الجنة عطاء ومنحة وفضلٌ من رب العالمين لأهل الإيمان؛ إذ ليس هناك ما يُلْزِم الله تعالى، فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وعطاء رب العالمين غير مجذوذ ولا مقطوع.

وكما أن أهل الجنة في الجنة يلهمون التسبيح والتهليل كالنفَس، فأهل النار في النار لهم فيها زفير وشهيق، فهم حين يتنفَّسون يتنفَّسون من فيح جهنم، والعياذ بالله.

مَعْنَى دَوَام اِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ:

ومعنى ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: مدة دوامهما، ودوامهما مؤبد، فهو خلود على وجه التأبيد.

والعرب يقولون: لا آتيك ما دامت السموات والأرض، ولا آتيك ما اختلف الليل والنهار، يريدون بذلك على الدوام والتأبيد.

ولعل المراد بالسموات والأرض: المبدلة المعدة للدار الآخرة، وهي التي لم يسفك فيها دم حرام، ولم يرتكب فيها خطيئة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم].

في صحيح البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ: يأهل الجنة، فيشرئبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يأهل النار، فيشرئبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**» ثم قرأ: «﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾» وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا وهم لا يؤمنون[2].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٩).

أَعْظَمُ الْأَشْقِيَاءِ: عُبَّادُ الْأَصْنَامِ

١٠٩- ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

بعد هذا التعقيب على القصص القرآني، وبيان المصير الدنيوي والأخروي لمن كذب بالله ورسله، يأتي هذا الخطاب الموجه إلى النبي ﷺ وإلى أمته، فيبين الله سبحانه أن الكفار والمشركين ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل، فهم يقلدون الآباء والأجداد في عبادة الأوثان والأصنام، فلا يتسرب إلى نفسك الشك - أيها المسلم- في ضلالهم وفساد عبادتهم، وأنهم على باطل .

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من الرزق ومتاع الدنيا، كما قدَّرناه وقسمناه لهم من غير نقص فيه ولا زيادة،

ويصح أن يكون المعنى: وإنا لموفوهم نصيبهم من العذاب في نار جهنم كاملًا غير منقوص، وهذه الآية لبيان ضلال عبدة الأوثان قديمًا وحديثًا.

وجاء خطاب الآية إلى النبي ﷺ من باب فصاحة القول في النهي عن أنواع الشرك الذي يقع فيه بعض أفراد الأمة، وبيان سوء مصيرهم، وأنهم ممن قال الله فيهم:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ وأنهم يخلدون فيها دائمًا وأبدًا، حيث إنه لم يحصل شك من النبي ﷺ، ولا من صالحي أمته، في فساد عبادة المشركين في كل زمان ومكان، فليس المراد في الآية نفي الشك في عبادتهم، فإن هذا لا يعتري أيَّ مؤمن، وإنما المراد نفي الشك في أن يتركهم الله دون عذاب في الدنيا، ولا عقاب في الآخرة.

فلا تكن -أيها المسلم- في شك من أن الله تعالى سيعذب طوائف المشركين كلها، سواء مَن يعبد الأوثان، أو مَن يعبد الجن، أو مَن يجعل عزيرًا ابنًا لله ، ومَن يجعل المسيح ابنًا لله ، أو أنه ثالث ثلاثة، أو كان يعبد البقر أو الكواكب ونحو ذلك.

ولا تكن -أيها المسلم- في شك من بطلان عبادتهم، فهم يقلدون أسلافهم في كل عصر

ومصر، وما توعَّدناهم به من العذاب سيلْقَوْنه تامًّا وافيًا في يوم يشتد فيه الحساب والجزاء.

رَفْعُ عَذَاب الاسْتيئْصَالِ عَنِ الْأُممِ الكِتابِيَّةِ

١١٠- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

أي أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ليعمل بها اليهود، ولكنهم اختلفوا فيها اختلافًا يضر بعقائدهم، ولولا أن الله تعالى أخّر عذابهم إلى الدار الآخرة، لأنزل بهم عقوبته في الدنيا، وإن اليهود في شك وريب من التوراة، فلا يستغرب شكهم وعدم إيمانهم بالقرآن من باب أولى.

وهكذا: يثبت الله تعالى نبيه ويُسرِّي عنه بأنه لا يحزن إذا وجد في أمته مَن يعبد غير الله تعالى، فإن أهل الكتاب قبله- سيما اليهود - قد اختلفوا على نبيهم، واختلفوا في كتابه، وهم أهل ملة واحدة، اختلفوا في التوراة؛ بإقرار بعضها، وإبطال بعضها، وإظهار بعضها، وإخفاء بعضها، أخْفَوْا حُكْم الرجم، وأخْفَوْا صفة محمد ﷺ، وأوَّلُوا بعض التوراة على هواهم، وزادوا فيها ونقصوا ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

فلا تحزن -أيها الرسول- من اختلاف قومك، بأن كان منهم المشرك والوثني والملحد والشيوعي والعلماني، فاختلاف الناس في الحق كان موجودًا قبل بعثتك، وكما اختلف قومك في شأن القرآن، فقال بعضهم: إنه أساطيرالأولين، أو إنه نزل للعرب وحدهم، أو إن الإسلام دين إرهاب وسفك دماء، اختلف قوم موسى على نبيهم، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، ومنهم من آمن بالتوراة، ومنهم من حرَّف وبدَّل.

وهكذا: فقبْلك - يا رسولنا - رسل كثيرون، أرسلهم الله إلى أقوامهم، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وأكثر الأنبياء قصصًا في القرآن هو موسى عليه السلام، فقد أنزل الله عليه التوراة، فصدق بها بعضهم، وكذبها بعضهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ **كلمة الله**: هي

إرادته الأزلية وسنته في خلقه؛ أي: لولا ما سبق من حكم الله بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لأهلك المشركين ونصر المؤمنين ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه].

أي: ولولا حكم الله بعدم تعجيل العذاب لهم في الدنيا لاستأصلهم فيها وقطع دابرهم، ولكن الله تعالى يؤجل عذاب الأمم التي أنزلت عليها كتب سماوية مثل التوراة والإنجيل والقرآن إلى يوم القيامة.

فالله سبحانه قد رفع عذاب الاستئصال عن الأمم التي كانت معجزة رسولها كتاب.

أما أصحاب المعجزات الحسية ممن لم ينزل على نبيهم كتابٌ كناقة صالح، فكان عذابهم عذاب استئصال؛ لأنهم طلبوا المعجزة، ولما جاءتهم لم يؤمنوا برسولهم، وإن قوم موسى لفي شك مريب من كتابه.

وكتاب التوراة كان صالحًا إلى مجيء الإنجيل، والإنجيل قد انتهت صلاحيته بمجيء الكتاب الخاتم، وهو القرآن، كتاب الأمة الأخيرة من الخلق جميعًا إلى قيام الساعة. قال تعالى:

١١١- ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا[(١)] لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

---

(١) (وإن كلا لما) القراءات في (وإن) و (لما)على أربع مراتب:

الأولى: قرأ نافع وابن كثير بتخفيف النون من (إن) والميم من (لما) هكذا (وإنْ كُلًّا لَمَا) على إعمال (إنْ) المخففة، واللام في (لَمَا) هي المزحلقة، دخلت على خبر (إن) و(ما) موصولة، أو نكرة موصوفة، ولام (ليوفينهم) لام القسم، وجملة القسم مع جوابه صلة الموصول، أو صفة لما، والموصول أو الموصوف خبر (إنْ).

الثانية: قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بتشديد نون (وإن) وتخفيف لام (لما) هكذا (وإنَّ كُلًّا لَمَا) فإن المشددة عاملة، ولام (لما) هي المزحلقة دخلت على خبر (إن) ولام (ليوفينهم) واقعة في جواب قسم محذوف؛ أي: وإن كلا للذين والله ليوفينهم أعمالهم.

الثالثة: قرأ ابن عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر بتشديد النون والميم هكذا (وَإنَّ كُلًّا لَمَّا) فإن المشددة عاملة، أما (لما) فقيل: أصلها (لمن ما) على أن من الجارة دخلت على ما الموصولة أو الموصوفة، ثم أدغمت النون في الميم، فصار في اللفظ ثلاثة ميمات، فخففت الكلمة بحذف الميم الأولى.

الرابعة: قرأ شعبة بتخفيف النون وتشديد الميم هكذا (وإنْ كُلًّا لَمَّا) على أنَّ (إنْ) نافية، و(لما) بمعنى إلا، منصوبة بفعل يفسره (ليوفينهم).

وهذه الآية لبيان الوعيد الشديد الذي ينتظر جميع مَنْ سبق ذكرهم من أهل القرى، ومن المشركين، ومن المختلفين في التوراة من أتباع موسى ﷺ، وأن كلًّا من هؤلاء سيلقى جزاءهُ، ولن يفلت منهم أحد من عدل الله تعالى، وكل عبد يوفى له ما كُتب من الرزق والأجل، فليترك كل منهم ما حرم الله، وليفعل ما أحله الله، ويوم القيامة يحاسب على ما قدمت يداه.

وهكذا يبين الله سبحانه أن جميع الخلائق وجميع الأمم سيجمعهم الله تعالى يوم القيامة، ويجازيهم على أعمالهم صغيرها وكبيرها، وهو سبحانه عليم خبير بأحوالهم وما تخفي صدورهم، لا يخفى عليه المصدق منهم والمكذب.

وفي الآية سبعة تأكيدات على نزول العذاب بالظالمين حتى لا يشك فيه أحد، ولا يشك في بطلان ما هم عليه من شرك ووثنية، كما لا يشك في أن القيامة حق، والحساب حق، والثواب والعقاب حق.

وُجُوبُ التَّمَسُّكِ بِأُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَفِيهِ خَمْسَةُ تَوْجِيهَاتٍ

١١٢- ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾

ولما أخبر سبحانه عن اختلاف اليهود في كتابهم وعدم استقامتهم،أمر نبيه ﷺ والمؤمنون معه أن يستقيموا على العقيدة الصحيحة والشريعة السمحة، ويداوموا على ذلك ولا يزيغوا عنها قيد أنملة، ولا يتجاوزوا حدود الاستقامة، فهو سبحانه لا يخفي عليه شيء من أعمالكم، وسوف يحاسبكم ويجازيكم على ما قدمت أيديكم.

أي وما دام اليهود قد اختلفوا على نبيهم وكتابه، وما دام النصارى على باطل في شركهم، وكذا كل من يعبد غير الله، أو لا يعترف بوجود الله تعالى، ما دام الأمر كذلك فاثبت أيها الرسول -والمؤمنون معك- على ما أنت عليه، وتمسك بأصول الشريعة وفروعها ولا تنحرف عنها قيد أنملة، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فداوم على العمل بكمال الشريعة أنت ومَن تاب معك، وهم المؤمنون الذين تابوا من الشرك وتمسكوا بأهداب الشريعة.

وما دامت سنة الله ماضية في خلقه بتعذيب العاصي وإثابة المطيع، فاستمر يا محمد

على الاستقامة على دين الله، والعمل به، والدعوة إليه، كما أمرك ربك أنت ومَن آمن معك من أمتك.

وهذا توجيه للنبي ﷺ ولأمة الإجابة، في أعقاب ما جاء في سورة هود من القصص القرآني، وفيها أمرٌ له ﷺ بالاستقامة لله تعالى على منهجه وصراطه المستقيم.

الاستقامة وعدم الطغيان: والاستقامة كلمة جامعة؛ تعني: فعل الطَّاعات واجتناب المحرمات، والاعتدال والتوسط في جميع الأمور، والثبات على منهج الله تعالى.

والرسول، عليه الصلاة والسلام، مستقيم على منهج الله، وإنما أمره ربه في هذه الآية بالثبات والدوام والاستمرار على منهج الله تعالى، وهو خطاب موجه للأمة جميعًا، فعلى كل من تاب منهم من الشرك ودخل في دين الإسلام أن يستقيم على منهج الله وطاعته، حتى لا يحدُث له مثل ما حدث للأمم التي خرجت عن هدي الله تعالى، ولهذا جاء في الأثر: شيبتني هود وأخواتها.

قال ابن عباس ﷺ: ما نزل على رسول الله آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب: «**شيّبتني هود وأخواتها**»[1].

وسئل عما شيَّبه في هود قال: قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ فالسبب في هذا الشيب هو قول الله تعالى له: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وشيَّبه أيضًا ذكر مصارع المكذبين من الأمم في السورة.

أخرج مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**»[2].

ثم تأتي بعد ذلك **توجيهات أربع** تتعلق بالاستقامة بعد الأمر بها:

التوجيه الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ فالاستقامة تعني عدم الغلو في الدين؛ لأن الإسلام دين وسط، لا غلوَّ فيه ولا مبالغة ولا مجاوزة للحد.

ولذلك نهى الله تعالى الأمة عن الطغيان، وعدم الانتقال من التوسط إلى الشدة، وعدم تجاوز الحد، والجرأة على مخالفة أمر الله، بعد أن أمرها بالاستقامة، كما قال تعالى:

---

(١) ينظر ثلاث روايات للحديث في الصفحة الخامسة من مقدمة السورة.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٣٨).

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه].

وهكذا: نهى الله المسلمين عن الاختلاف في أحكام كتابه، كما نهى بني إسرائيل عن ذلك.

وكلمة الطغيان كلمة جامعة لأصول المفاسد، وقد جمعت الآية بين جلب المصالح ودرء المفاسد، ولعل في ذلك إشارة إلى الأمم السابقة التي أشركت بالله كقوم نوح عليه السلام، فقد وقع الشرك فيهم بسبب طغيانهم وغلوّهم في عبادة الصالحين، ولذلك أمر الله تعالى هذه الأمة بعدم الغلو في محبة الصالحين، حتى لا يقعوا في الشرك الذي وقع فيه الأمم السابقة ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عالم بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيكم بها.

في البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن الرسول ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة**»(١).

والتيسير: هو ترك التشدد، **والمقاربة**: التوسط والاعتدال، **والدلجة**: السير بالليل، ومعناها: الحث على العمل الصالح أطراف الليل والنهار، وقليل منه بالليل.

ومن الغلو في الدين، ترك التوسط، والأخذ بالأشد بدعوى الحيطة وسد الذرائع.

النَّهْيُ عَنْ مُخَالَطَةِ الظَّلَمَةِ وَعَنْ الاسْتِعَانَةِ بِهِمْ وَالرِّضى بِأَفْعَالِهِمْ

١١٣ - ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

التوجيه الثاني: إن من دواعي الاستقامة والاعتدال والتوسط في دين الله تعالى عدم الركون إلى الظلَمة من عامة الناس، ومن أصحاب القوة والسلطة والطغاة في الأرض، وعدم الرضى بظلمهم، والميل لهم، ومشاركتهم في ظلمهم، وعدم منافقتهم وإقرار ظلمهم، أو إظهار الودّ لهم، ومحبتهم وموالاتهم ومداهنتهم.

وقد حذرنا الله من ذلك بعد الأمر بالاستقامة، لأن الركون إليهم خروج عن حد الاستقامة.

والركون: هو الميل الخفيف، فضلًا عن المحبة للطغاة من الولاة والحكام

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٩) وانظر (٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٧٢٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨١٦).

وغيرهم؛ فإن هذا الميل يسبب المشاركة لهم في العذاب المتوعد به.

وجزاء هذا الركون جاء في قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: لئلا تصيبكم نار جهنم، وهو جزاء موافق للعمل، فالمس الخفيف يقابل الركون الخفيف، ولكن اللفحة الواحدة من نار جهنم تُنسي نعيم الدنيا وما فيها.

قال تعالى في مَنْ مَسَّهُ شيء من لهب النار:

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء].

ولما سمع أحد الظالمين هذه الآية ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

خر مغشيًا عليه، فلما سئل قال: هذا شأن من يَركن إلى الظالمين، فكيف بالظالم؟

فاحذروا الميل إلى كل ظالم، وموافقته على ظلمه أو السكوت عليه.

وجاء في الأثر: من رَكن إلى ظالم فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه.

فإن مستكم النار بسبب ذلك الركون، فليس لكم ما يمنعكم من عذاب الله يوم لقائه، وليس هناك مَن يدفع عنكم هذا العذاب.

والمحبة القلبية لغير المسلمين، أو محبة الإقامة معهم، والسكن بينهم في ديارهم، هو من باب الميل إليهم وتفضيلهم على بني جلدتهم، والتقرب إليهم دون المسلمين، ويكون هذا لعلة في النفس، وبُعد عن طريق الحق.

وهذه الآية أصل في سد الذرائع المحققة أو المظنونة، وهي دالة على هجر أهل الكفر والبدع والمعاصي وعدم صحبتهم؛ لأن الصحبة لا تكون إلا عن مودة ومحبة.

فإن كانت المخالطة لدفع منكر، أو للاستعانة بهم على إحقاق حق أو رفع ضر، أو جَلْب خير، فلا حرج في ذلك؛ لأنه من باب الضرورة، أما إن كان لمؤانستهم، وإقرار أفعالهم والرضى بها، فإن ذلك لا يجوز، وليس لكم مَن يدفع عنكم عذاب الله حينئذ، ولا من يتولى أمركم غيره سبحانه.

الزَّادُ الأُخْرَوِيُّ وَتَكْفِيرُ الذُّنُوبِ

١١٤- ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا[١] مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ[٢] لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾

التوجيه الثالث: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يأمر الله تعالى بإقامة الصلاة المفروضة، فهي تعين على الاستقامة، وكذا عدم الركون إلى الظلمة، والآية خطاب إلى جميع الأمة تأمرهم بأهم الواجبات في الإسلام وهو الصلاة.

والاستقامة على منهج الله تعالى تحتاج إلى الزاد الذي يوصِّل العبد إلى مرضاة الله تعالى؛ ليكون على اتصال مستمر في صباحه ومسائه برب العالمين.

وهذا الزاد هو الذي يَبقى للمؤمن حين يفنى كل زاد، وأعظم الزاد أداء الصلاة في أوقاتها، كاملة مستوفاة، فهي أول ما يعين العبد على الاستقامة.

والذي يُغلق آذانه عن سماع الأذان، وعن سماع كلمة الحق، وسماع القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يبتعد كثيرًا عن الاستقامة، ولذلك فإن التوجيه الذي جاء بعد الأمر بالاستقامة مباشرة هو الأمر بالصلاة.

ولعل ليلة الإسراء والمعراج، التي فرضت فيها الصلاة، كانت بعد نزول سورة هود وسورة الإسراء، فإن الصلاة فرضت أولًا في مكة، وكانت تُؤدَّى مرتين:

مرة في الطرف الأول، قبل طلوع الشمس، ركعتان، والمرة الثانية في الطرف الثاني للنهار، ركعتان قبل غروبها، إلى جوار قيام الليل في أثنائه، وهذا ما تشير إليه الآية من إقامة الصلاة، طرفي النهار وزلفًا من الليل، وهو **القول الأول** فيها.

القول الثاني في طرفي النهار: أن الطرف الأول من النهار هو صلاة الفجر والظهر، والطرف الآخر هو صلاة العصر والمغرب ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ صلاة العشاء، وقد نسخ قيام الليل على سبيل الوجوب، وبقي على سبيل النافلة.

---

(١) قرأ أبو جعفر بضم اللام من (وزلفا) إتباعًا لضم الزاي جمع زُلفة، والباقون بالفتح.

(٢) أمال (ذكرى) حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وابن ذكوان بخلف عنه، وقللها ورش.

وفي الأثر: (زلفتا الليل: المغرب والعشاء)[١].

القول الثالث: أن طرف النهار الأول هو الصبح، والطرف الآخر هو الظهر والعصر، كما قال مجاهد وغيره. **فهذه ثلاثة أقوال في طرفي النهار:**

أولها: قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وثانيها: صلاة الفجر والظهر، وصلاة المغرب والعشاء.

والطرف الثاني: هو صلاة الظهر والعصر.

وثالثها: أن الطرف الأول: صلاة الصبح.

وقبل أن تفرض الصلاة خمسًا، في ليلة المعراج كان قيام الليل مفروضًا على النبي ﷺ وعلى الأمة، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس.

والمقصود أن تكون الصلاة أول أعمال العبد وآخرها، وأن تكون صلاة العشاء هي ختام الحركة والسعي، وبداية السكون والراحة، ولا يسهر العبد بعدها إلا لحاجة ضرورية، أما السهر على الفضائيات ووسائل اللهو، فإن هذا مخالف لهَدْي الإسلام، وتوقيت الاستيقاظ من النوم ينبغي أن يكون للصلاة، وليس لأداء الأعمال الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: إن فعل الخيرات يكفر السيئات.

والحسنات: فعل الخيرات والطَّاعات، والصلاة أعظم الحسنات، فهي داخلة فيها دخولًا أوليًا، فتُطلق الحسنات على الصلوات الخمس، وعلى ما يلحق بها من صلاة التطوع، فهي تقرب إلى الله وتوجب الثواب، وتذهب السيئات وتمحوها كما تطلق على أعمال الخير والبر.

والمراد بالسيئات: صغائر الذنوب؛ لأن الكبائر لا يكفرها إلا التوبة الصادقة، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء]

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) «تفسير الطبري» (٥٠٨/١٥).

أحاديث في معنى الآية:

١- وكما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود ﷺ: **«إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»**(١).

٢- والصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن ما اجتنبت الكبائر»**(٢).

٣- وفي الصحيحين أن أبا هريرة ﷺ سمع النبي ﷺ يقول: **«أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء»** قالوا: لا، قال: **«فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»**(٣).

٤- وفي المسند وغيره عن سلمان الفارسي ﷺ أنه كان تحت شجرة، فأخذ منها غُصنًا يابسًا فهزَّه حتى تحاتَّ ورقُه، قال: هكذا فعل رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، ثم قال: **«إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه، كما يتحاتُّ هذا الورق، ثم قرأ الآية ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»**(٤).

٥- وعن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات، كمثل رجل كانت عليه درع ضيِّقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكَّت حلقة، ثم عمل حسنة فانفكَّت حلقة، ثم عمل حسنة أخرى، فانفكت حلقة أخرى، حتى**

---

(١) أخرجه أحمد عن ابن مسعود في حديث طويل، «المسند» (١/ ٣٨٧) ورقمه (٣٦٧٢) وإسناده ضعيف، والصحيح موقوف، (محققوه) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٦٦) والبزار (٣٥٦٢) زوائد، والبخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٣١٣) والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤) والبغوي (٢٠٣٠).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٣٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٦٦٧) وهذا لفظه و«صحيح البخاري» برقم (٥٢٨).

(٤) ينظر الحديث في «المسند» (٥/ ٤٣٧) برقم (٢٣٧٠٧) قال محققوه: حسن لغيره، وهو في «مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٧) وعند الدارمي (٧١٩) والطيالسي (٦٥٢) والطبراني في «الكبير» (٦١٥١) ورواه عبد الرزاق (١٤٤) موقوفًا على سلمان من طريق سعيد بن جبير.

يخرج من الأرض»[1].

٦- وفي حديث عثمان ﷺ أن النبي ﷺ قال عن الصلوات الخمس: **«وهن الحسنات يُذهبن السيئات»** قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات يا عثمان؟ قال: هن لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله[2].

٧- وقد جاء في الحديث عن عثمان ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه غُفر له ما تقدم من ذنبه»**[3].

٨- وفي الحديث عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**[4].

وفيما تقدم من الاستقامة والتوجيه عظة وعبرة للمؤمنين.

في أسباب النزول: وفي سبب نزول الآية وردت ألفاظ متعددة تتعلق بقصة الرجل الذي أصاب قُبلة من امرأة، ثم أسرع إلى رسول الله ﷺ معترفًا ومقرًّا بذنبه، يسأله عن كفارة ذلك، وهو يستشعر عظمة مَنْ عصاه، ولم يستصغر الذنب الذي وقع فيه، ولعل ذلك لم يتكرر منه، وهو لم يجاهر بالمعصية ولم يستمر عليها:

---

(١) حسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢١٨٨) وهو في «المسند» (٤/ ١٤٥) برقم (١٧٣٠٧) بإسناد حسن، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠١)، وهو في الطبراني الكبير ١٧ (٧٨٣) وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٢) برقم (٥١٣) وصحح محمود شاكر إسناده في حاشية الطبري، وحسنه محققو «المسند» بإشراف د/التركي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٩٧): رجاله رجال الصحيح غير الحارث مولى عثمان، وهو ثقة، وصححه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٣)، وأخرجه البزار (٤٠٥) والطبري (١٢/ ١٣٢).

(٣) أخرجه الشيخان عن عثمان ﷺ في البخاري برقم (١٥٩) من حديث طويل كما في مسلم برقم (٢٢٦).

(٤) أخرجه أحمد عن أبي ذر «المسند» (٥/ ١٥٣) برقم (٢١٣٥٤) قال محققوه: حسن لغيره، ورجال إسناده ثقات، وجاء عن معاذ برقم (٢٣٠٥٩) وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٩٧) و«الأوسط» (٣٧٩١) و«الصغير» (٥٣٠)، وأخرجه الدارمي (٢٧٩١) والترمذي (١٩٨٧) والحاكم (١/ ٥٤) والبيهقي في شعب (٨٠٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٧٨).

١- فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقض فيَّ ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله، لو سترْت نفسك، قال: فلم يردّ النبي ﷺ شيئًا، فقام الرجل فانطلق، فأتْبعه النبيُّ ﷺ رجلًا فدعاه، وتلا عليه الآية ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فقال رجل من القوم: يا نبي الله، هذا له خاصة؟ قال: **«بل للناس كافة»**[1].

٢- وفي لفظ آخر عند ابن جرير عن موسى بن طلحة، أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدراهم تمرًا، فقلت: إن في البيت تمرًا أطيب وأجود من هذا، فدخلتْ فأهويتُ إليها فقبَّلتُها، فأتيت عمر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تُخبرنَّ أحدًا، قال: فلم أصبر حتى أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: **«أخَلَفْتَ رجلًا غازيًا في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟»** قال أبو اليسر: حتى ظننتُ أني من أهل النار، وتمنيت أني لم أكن أسلمت ساعتئذ، فأطرق رسول الله ساعة، فنزل جبريل، فقال: **«أين أبو اليسر؟»** فجئتُ، فقرأ عليَّ الآية ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فقال إنسان: ألَهُ خاصة، أم للناس عامة؟ قال: **«للناس عامة»**[2].

٣- وعند الطبري أيضًا عن علقمة والأسود عن ابن مسعود ﷺ أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أني لم أجامعها، فقبَّلتُها ولزمْتُها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئًا، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر نفسه، فأتبعه رسول الله بصَره، ثم قال: **«رُدُّوه عليَّ»** فقرأ عليه الآية فقال معاذ بن جبل -وفي رواية عمر- يا رسول الله، ألَه وحده، أم للناس كافة؟ فقال: **«بل للناس كافة»**[3].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٣) وهذا لفظه، و«سنن أبي داود» (٤٤٦٨) والترمذي (٣١١٢) و«سنن النسائي الكبرى» (٧٣٢٣) و«المسند» (١/ ٤٤٥) برقم (٤٢٥٠، ٤٢٩٠).

(٢) «تفسير الطبري» (١٥/ ٥٢٣) وهو حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٨٩) والبزار (٢٣٠٠).

(٣) «تفسير الطبري» (١٥/ ٥١٥) والحديث في مسلم (٢٧٦٣) و«المسند» (٤٢٩٠، ٤٢٩١) بنحوه، حديث صحيح وإسناده حسن من أجل سماك بن حرب وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه، وأبو داود (٤٤٦٨) والترمذي (٣١١٢) ومصنف عبدالرزاق (١٣٨٢٩).

٤- وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي عثمان عن ابن مسعود ﷺ أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله الآية، قال الرجل: ألِي هذه؟ قال: **«لمن عمل بها من أمتي»**[1].

٥- وفي حديث آخر يتعلق بمن أصاب ذنبًا، ولم تذكر فيه الآية؛ وفيه أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أقم فيَّ حدَّ الله -مرة أو مرتين- فأعرض عنه الرسول ﷺ ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: **«أين الرجل القائل: أقم فيَّ حدَّ الله؟»** قال: أنا ذا، قال ﷺ: **«أتممتَ وضوءك وصليتَ معنا؟»** قال: نعم، قال: **«فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد»**[2].

ومجموع الروايات تفيد أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار هو أبو اليسر بن عمرو، وقيل: اسمه عباد، خلا بامرأة فقبَّلها، وتلذَّذ بها، فيما دون الجماع، ثم ذهب إلى عمر فذكر ذلك له، فقال: قد ستر الله عليك، فاستر نفسك، ولكن الرجل ظل قلقًا، فأتى أبا بكر وسأله، فقال له مثل مقالة عمر، فظل قلقًا أسفًا على ما حدث منه، يخشى عقاب الله تعالى، حتى أتى رسول الله ﷺ فصلَّى معه، ثم أخبره، وقال: اقْضِ فيَّ ما شئت، فقال ﷺ: **«لعلَّها زوجة غازٍ في سبيل الله»** قال: نعم، فوبخه النبي ﷺ وقال له: لا أدري، فنزلت الآية، فدعاه النبي ﷺ وتلاها عليه، فقال معاذ بن جبل، أو عمر بن الخطاب: يا رسول الله، هل هي خاصة؟ قال: **«بل للناس عامة»**.

وورد أن الآية كانت قد نزلت قبل ذلك واستعملها النبي ﷺ مع هذا الرجل، وهذه شبهة من قال إن هذه الآية مدنية.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٧) وهذا لفظه وانظر برقم (٥٢٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٣) و«المسند» (٣٦٥٣) والترمذي (٣١١٤) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٤٧) وابن ماجه (١٣٩٨، ٤٢٥٤) وابن حبان (١٧٢٩).

(٢) رواه ابن جرير عن أبي أمامة، وللحديث طرق متعددة بألفاظ مختلفة، وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٦٥) عن أنس وعن أبي أمامة برقم (٢٧٦٥) و«تفسير الطبري» (١٥/ ٥٢١) وفي «المسند» (٢٢١٦٣، ٢٢٢٨٦) قال محققوه: حديث صحيح، إسناده حسن من أجل عكرمة العجلي فهو صدوق حسن الحديث وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه أبو داود (٤٣٨١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٣١٣) وابن خزيمة (٣١١) والطبراني (٧٦٧٥).

في فضل الصلاة:

١- وحكم الآية عام في كل من أصاب ذنبًا ثم تاب وأناب، فعن سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ غصنًا يابسًا من شجرة، فهزَّه حتى تحاتَّ ورقُه، ثم قال: «**إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق**» ثم تلا الآية[١].

٢- وعن عثمان بن عفان ﷺ أنه قال: لولا آية ما حدَّثتكُمُوه، سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يتوضأ رجل يحسن وضوءه، ويصلي الصلاة، إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة حتى يصليها**» قال عروة: والآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾[٢] [البقرة: ١٥٩].

٣- وعن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن العبد إذا قام يصلي جُمعت ذنوبه على رقبته، فإذا ركع تفرقت**»[٣].

هذا: ولعل الأمر بالاستقامة، وعدم الركون إلى الظلمة، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات، لعل ذلك كله ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ تدعوهم إلى امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وجلب الخير ودفع الشر، وكل هذا يحتاج إلى صبر ومجاهدة:

الصَّبْرُ مِنْ صِفَاتِ الْمُحْسِنِينَ

١١٥- ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾

التوجيه الرابع: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾.

اصبر - أيها الرسول - أنت ومن آمن معك، احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته، وألزمها ذلك واستمر ولا تعجز، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين الصابرين، بل يتقبل منهم أحسن الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، اصبر على

---

(١) «المسند» (٢٣٧٠٧، ٢٣٧١٦) وهو حديث حسن لغيره كما قال محققوه، وهو عند الطيالسي (٦٨٧) والطبراني في «الكبير» (٦١٥١، ٦١٥٢) وفي «الصغير» (٢/ ١٣٦).

(٢) البخاري (١٦٠) وانظر (١٥٩) ومسلم (٢٢٧) و«الموطأ» (١/ ٣٠) وابن حبان (١٠٤١).

(٣) الطبراني في «الكبير» (٧٢١٤) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩٨).

الشدائد والمكاره فإن الصبر على أذى القوم، وعلى تبليغ الدعوة، والصبر على أداء الصلاة، وعلى دواعي الاستقامة والثبات عليها، والصبر على كيد المكذبين. . . كل ذلك من باب الإحسان، والله تعالى يحب المحسنين، وثوابهم جزيل، وأجرهم عظيم.

عَدَمُ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبَبٌ لِهَلَاكِ الْأُمَمِ

١١٦- ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ[1] يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه هلاك الأمم المكذبة لرسل الله، وبيّن أن أكثرهم منحرفون، ذكر سبحانه أنه لولا وجود بقايا من أهل الخير في القرون الماضية يدعون إلى الهدى وينهوْن عن الفساد في الأرض، تقوم بهم الحجة، ولولا وجود قلة من عباد الله نَجَوْا من عذابه باتباع المرسلين والقيام بهذا الواجب، لأهلكهم الله، ولكن الظالمين اتبعوا شهواتهم ونزواتهم، وقاتل بعضهم على الرياسة والسلطان والثراء لينعموا بالمال والجاه، وكانوا مجرمين بفسادهم وفجورهم فحق عليهم عقاب الله، وفي هذا حث للأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون، يدعون إلى الهدى ويصبرون على الأذى

وهذه الآية بمثابة التفجع والتأسف على الأمم التي لم تهتدِ بهَدْي رُسُلِها؛ كقوم نوح وعاد وثمود فحصدَهُم عقاب الله، إلا مَن آمن منهم، وفي هذا تحذير لأمة محمد ﷺ ألا يكونوا مثلهم، فيصيبهم ما أصابهم.

وهذا تعقيب آخر على مصارع الظالمين؛ وهو أن سبب ما لحق بهذه الأمم من العذاب، أنه لم يوجد فيهم من ينهاهم عن الكفر والفساد، ويأمرهم بالمعروف واتباع الرسل، ويصد الظالمين عن ظلمهم.

ويشير ذلك إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركن عظيم من أركان الإسلام، ما تركَتْه أمة إلا أهلكها الله، فهلَّا وُجِد في هذه الأمم التي أهلكها الله بعذاب الاستئصال بقايا من أهل الخير والفضل والصلاح، والعلم بالشريعة، ينهون عن الكفر والمنكر، ويأمرون بالمعروف والخير؟

---

(١) قرأ ابن جماز بكسر الباء وإسكان القاف وتخفيف الياء من (بقية) هكذا (بِقْيَة) والبقية: المرة، والباقون بفتح الباء وكسر القاف وفتح الياء مشددة مصدر بقي يبقى بقية.

والجواب يأتي في هذا الاستثناء ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لقد وجد منهم قلة قليلة، وهم أتباع الرسل الذين نجاهم الله من عذابه في كل أمة من الأمم، فقد نجى الله نوحًا والذين آمنوا معه، ونجى الله هودًا والذين آمنوا معه، ونجى الله صالحًا والذين آمنوا معه، وهكذا أهلك الله الظالمين في كل أمة، ونجى المؤمنين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

والآية تشير إلى أن المؤمنين من شأنهم أن ينهوا عن الفساد في الأرض، فقد أوجب الله عليهم ذلك في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]

وهـم ليسوا مثل أصحاب القرون السابقة الذين قل فيهم الدعاة والمصلحون، والناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده، فعدم النهي عن الكفر والمعاصي والمنكرات سبب هلاك الأمم والشعوب؛ ولذا وبخ الله أهل القرون السابقة على ذلك.

وأشار سبحانه إلى أن من شأن الظالمين التاركين للنهي عن الفساد في الأرض، الاستمرار في طريق الفسق والفجور والشهوات والمعاصي، دون الالتفات إلى الخير والعمل الصالح، فهم يتبعون ما أُترفوا فيه، ويَظَلُّون مُصِرِّين على كفرهم وظلمهم، وهذا من شأن عامة الناس في هذه القرون؛ ولذا حق عليهم العذاب.

رَحْمَةُ اللهِ بِعِبَادِهِ تَقْتَضِي عَدَمَ ظُلْمِهِمْ

١١٧- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

وليس من شأن الله تعالى أن يهلك أمة -أو شعبًا- وأهلها مصلحون في الأرض، قائمون بشرائع الله، مجتنبون للفساد فيها؛ لأن ذلك ينافي عدل الله تعالى ورحمته بعباده، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا أنفسهم بالكفر أو الشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]

وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ولكن يهلكهم بسبب ظلمهم وفسقهم ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

فالله ﷻ لا يهلك أمة صالحة، ولكنه يهلك الأمة الظالمة.

والمراد: هلاك الإبادة والاستئصال؛ بسبب الكفر والفساد، وما ربك بظلام للعبيد.

ولا يهلك الله أمة رجعت عن ظلمها فأصلحت عملها وأقبلت على ربها.

كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ

١١٨، ١١٩ - ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ[(١)] ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ[(٢)] جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

لما أخبر الله سبحانه عن إهلاك الأمم الظالمة، وبيّن أنهم لو كانوا مصلحين لما أهلكهم الله تعالى، ولَمَّا كان ذلك يُوهم أن هؤلاء المفسدين في الأرض خارجون عن قبضة القدرة الإلهية، أعقب ذلك بما يرفع هذا التوهم، ويبين أنه سبحانه قادر على أن يجعلهم أمة واحدة، متفقة على الحق غير مختلفة عليه.

أي: ولو شاء الله سبحانه لجعل الخلق كلهم على دين واحد، هو الإيمان، حتى لا يقع منهم الكفر، لو شاء لفعل ذلك، ولو أراد سبحانه أن يُلْهِم البشر الإيمان إلهامًا، فيجعله غريزة وفطرة فيهم، ليس لهم فيه اختيار، كما يلهم النمل والنحل، وكما يلهم الملائكة، لو شاء ربك ذلك لفعل.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ﴾ على دين واحد هو الإسلام

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ﴾ [يونس: ٩٩]

وقال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٥].

ولكن الله سبحانه أراد أن يجعل لهذا النوع من الخَلْق عقولًا وحرية واختيارًا، ويرسل لهم الرسل، وينزل عليهم الكتب، ويبين لهم الحق والباطل، فمن سلك طريق الهدى فقد نجا، ومن سلك طريق الضلال كان من أهل النار، وقد فَطَرهم سبحانه على التوحيد، وجعل فيهم الاستعداد والقابلية لغيره.

وأهل الحق متفقون على طريق واحد هو التوحيد والإيمان، وأهل الباطل مختلفون فرقًا

---

(١) (ولا يزالون مختلفين)عده آية، المصحف الشامي والبصري والكوفي، وتركه غيرهم من العدد.

(٢) قرأ الأصبهاني بتسهيل الهمزة الثانية من (لأملأن) وصلًا ووقفًا، ولحمزة وقفًا تسهيل الهمزة الأولى.

وأحزابًا وشيعًا، وقد خلق الله تعالى الناس ليعبدوه وحده، ويكونوا أهل ملة واحدة، ولكنهم اختلفوا فكان منهم المؤمن ومنهم الكافر، فريق في الجنة وفريق في السعير، ولذلك حقت عليهم كلمة ربك.

وهكذا: فقد جعل الله عقول البشر قابلة بمقتضى الفكر والنظر لأن تسلك طريق الضلال أو طريق الهدى، فجعلها صالحة لقبول الحق بحسب فطرتها، إذا سلمتْ من عوارض التأثير والتقليد والجهل والضلال، ومع ذلك فإن الله تعالى قد أرشدهم ونصحهم، عن طريق الرسل ودعاة الخير، فكان من الناس مهتدٍ وكثير منهم فاسقون.

وقد اقتضت حكمة الله ذلك؛ ليكون الإنسان خَلْقًا مختلفًا عن الملائكة المجبورين على الطاعة، وعن الحيوان الذي لا عقل له، فإذا تمَّ ابتلاء الإنسان في هذه الحياة بالعبادة التي خُلق من أجلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] ثم انتقل من هذا العالم الفاني إلى الحياة الأبدية، جَنَى كل إنسان ثمرة عمله فيها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فكان للجنة أهلها وللنار أهلها.

فالناس لا يزالون مختلفين في الشرائع والآراء والملل ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ قال الحسن وعطاء ومجاهد وغيرهم: المرحومون المستثنون، هم المؤمنون، ليس عندهم اختلاف[1].

فهم الذين رحمهم الله من الناس بأن هداهم للإيمان ووفقهم إليه، فللرحمة خُلِق المرحومون، وقد خلق الله قومًا للسعادة وقومًا للشقاوة، فكل ميسر لما خلق له، والاختلاف في الدين الحق علامة الشقاء، وعليه يكون العقاب.

اختلف رجلان عند طاوس، فاختصما عنده وأكثرا، فقال لهما: اختلفتما وأكثرتما، قال أحدهما: لذلك خُلقْنا، قال طاوس: كذبت، فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال طاوس: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة.

خلقهم ليتَّحدوا ولا يختلفوا، وتمت كلمة ربك في قضائه وقدَره، على من لم يهتدِ بهدي الرسول ﷺ، وهذه الكلمة هي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٢١٥).

ومَنْ رَحمهُم الله هم أهل التوحيد والإيمان، الذين قاموا بالوظيفة التي خُلقوا من أجلها؛ وهي العبادة، فأهل الضلال لهم النار، وأهل الإيمان لهم الجنة.

ولما كان الحق لا يقبل التعدد والاختلاف، استثنى سبحانه مَن ثبتوا على الحق ولم يخالفوه في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: فعصمهم من الاختلاف المذموم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم والدين الحق.

واسم الإشارة في ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعود على أقرب مذكور وهو الرحمة؛ فيكون المعنى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ولرحمته خلق الناس.

قال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فُرقة، وإن اختلفت ديارهم وأبدانهم؛ ولذلك خلقهم للرحمة والعبادة، ولم يخلقهم للاختلاف[1].

ويصح أن يعود الضمير على مجموع الاختلاف والرحمة؛ فيكون المعنى: أنه سبحانه خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف؛ ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقد أعقب هذا قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: نفذ قضاؤه وحق أمره وثبت حكمه على من عصى الله تعالى من الإنس والجن أن يملأ بهم جهنم.

وهذا الوعيد لا يشمل المؤمنين المهتدين؛ لأن من المعلوم أن الوعيد يخص العصاة والمذنبين من أتباع إبليس، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨ وص: ٨٥] والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

وبعد أن ختم الله النبوات والرسالات بنبوة محمدٍ ﷺ انحصر هذا الأمر في الرسالة الخاتمة، فكان من تبع محمدًا ﷺ هو الناجي، ومن كذبه ولم يؤمن به من الناس أجمعين هو الهالك، ومن لم يصدق بهذا النبي الأمي العربي يَصْدُق عليه وصف الكبر، ورفض قبول الحق شطر الكبر.

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«تحاجَّت النار والجنة، فقالت النار: أوثِرتُ**

---

(١) ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٤).

بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطُهُمْ وعَجَزُهُمْ، فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكم ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ، فيضع قدمه عليها، فتقول قَطْ قَطْ، فهنالك تمتلئ، ويُزْوَى بعضها إلى بعض»[1].

وَوَضْعُ القدم من الله تعالى على النار من الأمور الغيبية التي صحت الرواية بها، فنؤمن بها كما أثبتها سبحانه لنفسه، مثل: الوجه واليد والاستواء والنزول، ونضيف إليها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي الآية ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ والحديث المذكور تحقيق لوعد الله تعالى من أنه سيملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين الذين اتبعوا إبليس ولم يهتدوا بالإيمان.

الْهَدَفُ مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ

١٢٠- ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

ثم بين الله سبحانه الهدف من القصص القرآني، فقد نزلت هذه السورة في وقت أوذي فيه الرسول ﷺ قبل بيعة العقبة، وقبل الأمر بالجهاد، فكان نزولها لتسلية الرسول ﷺ وشحذ همته؛ ليقتدي به أهل الدعوة من بعده، ولكي يتبين كيف أنجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين، وكيف احتمل الأنبياء صنوف الأذى والتكذيب.

وقد جاء في هذه السورة، من أنباء الرسل والأمم من الحق الذي أصاب الظالمين، ما فيه عبرة وعظة؛ لزيادة يقين النبي ﷺ بما وعده الله به من النصر على أعدائه؛ فيقوي صبره، ويثبت فؤاده، ويزداد علمًا بأن الصراع بين الحق والباطل شأن قديم فلا يحزن على من خالفه، وقد اشتملت هذه السورة على الحق اليقيني الذي لا مرية فيه من قصص المرسلين، واشتملت على الموعظة بما تحمله من الترغيب والترهيب، كما اشتملت على الذكرى التي تنفع المؤمنين، فهذه ثلاث من الدرر: الحق والموعظة والذكرى، اشتملت عليها السورة.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٦) وهذا لفظه، وأخرجه البخاري برقم (٧٤٤٩).

عَدَمُ المُبَالَاةِ بِالْعَقَبَاتِ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ

١٢١ ، ١٢٢ - ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[١] إِنَّا عَـٰمِلُونَ[٢] ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

أما من ليس من أهل الإيمان، ممن لا تُجدى فيهم الذكرى ولا الموعظة، فقد أمر الله نبيه أن يمضي في طريق الدعوة دون مبالاة بالمكذبين ممن لا يؤمنون ولا ينتفعون بالموعظة، وأمره أن يقول لهم: اعملوا على مكانتكم، وامضوا في طريقكم، وضعوا العقبات في طريق الدعوة، ودبروا المكايد لي ولأصحابي، فإني مستمر على السير في طريق الحق الذي هداني الله إليه دون التفات إلى كيدكم ومكركم، فإنا منتظرون عاقبة أمركم، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين المعاندين مِن كل مَن لم يؤمن بخاتم المرسلين ﷺ، وقاوم دعوة الإسلام، ولم يستجب لها.

وقل لهم: انتظروا ماذا سيحل بكم من عقاب الله تعالى، فإني ماضٍ في طريق دعوتي، ومتوكل على ربي، ومنتظر ثوابه لي.

الْآيَةُ الْجَامِعَةُ لِمَوْضُوعِ السُّورَةِ

١٢٣ - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ[٣] ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[٤] ﴿١٢٣﴾﴾

ثم ختم الله السورة بهذه الآية الجامعة، وفيها بيان أن الله وحده يعلم كل ما غاب عن حواس البشر في السموات والأرض، فهو يعلم المصير والمرجع والمآب، ويعلم ما كان وما يكون من القول والفعل، وإليه يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة، وهداية وإضلال، وصحة ومرض، وفقر وغنى، ونصر وهزيمة.

وما دام الأمر كذلك فاعبدوه وتوكلوا عليه، فإن التدبير والنصر والخذلان بيد الله تعالى،

---

(١) قرأ شعبة (مكاناتكم) بالجمع، والباقون (مكانتكم) بالإفراد.

(٢) قوله تعالى (إنا عاملون) عده آية الشامي والبصري والكوفي والمدني الأول ولم يعده آية بقية علماء العدد.

(٣) قرأ نافع وحفص بالبناء للمفعول في (يرجع)، والباقون بالبناء للفاعل.

(٤) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالتاء في (يعملون) على الخطاب، والباقون بالياء على الغيبة.

وكما جاء الأمر بالعبادة في أول السورة، ختمت بالأمر بها، والعبادة هي محور دعوة كل رسول لقومه، فهي الهدف الذي ترمي إليه السورة.

والأمر بالعبادة، قبل أن تُشرع الفرائض التعبدية، من صلاة وصيام وزكاة وحج؛ يعني الخضوع والانقياد لله وحده، ويعنى اتباع الحلال والحرام.

وكما فسرها النبي ﷺ في حديث عدي بن حاتم عن اليهود والنصارى من قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] بأنها اتِّباعهم فيما أحلوا لهم، أو حرموا عليهم، قال: **«فتلك عبادتهم»** فالعبادة تعني الحلال والحرام، وتعني أركان الإسلام والإيمان جميعًا، وتعني التحاكم إلى شرع الله وتعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعني ما هو أعم وأشمل من ذلك.

والله تعالى غير غافل عن أعمالكم من الخير والشر، فهو سبحانه بصير ومطلع عليها لا يعزب عنه مثقال ذرة منها، وسيجازي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

تم تفسير (سورة هود) ولله الحمد والمنة



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهـرس المـوضـوعـات

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
١١٤	الزَّادُ الْأُخْرَوِيُّ وَتَكْفِيرُ الذُّنُوبِ - أحاديث في معنى الآية	٦٠٧
	في أسباب النزول - المراد بطرفي النهار - في فضل الصلاة :	٦١٠
١١٦،١١٥	الصَّبْرُ مِنْ صِفَاتِ الْمُحْسِنِينَ - عَدَمُ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبَبٌ لِهَلَاكِ الْأُمَمِ	٦١٣
١١٧-١١٩	رَحْمَةُ اللهِ بِعِبَادِهِ تَقْتَضِي عَدَمَ ظُلْمِهِمْ - كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ	٦١٥
١٢٠	الْهَدَفُ مِنْ قِصَصِ الرُّسُلِ	٦١٩
١٢٢،١٢١	عَدَمُ الْمُبَالَاةِ بِالْعَقَبَاتِ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ	٦٢٠
١٢٣	الْآيَةُ الْجَامِعَةُ لِمَوْضُوعِ السُّورَةِ	٦٢٠
	فهرس الموضوعات	٦٢٢

❁ ❁ ❁